مختصر الميزان

في تفسير القرآن

إلياس كلانتري

المجلد الخامس

دار الأسوة للطباعة والنشر
إيران

مختصر الميزان

في تفسير القرآن

مختصر الميزان

في تفسير القرآن

المجلد الخامس

الياس كلانتري

دار الأسوة للطباعة والنشر
ايران

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

طباطبایی، محمد حسین، ۱۲۸۱-۱۳۶۰.
[المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده]
مختصر المیزان فی تفسیر القرآن / [محمدحسین الطباطبایی]؛ تألیف الیاس کلانتری. ـ تهران: سازمان اوقاف و امور خیریه، انتشارات أسوه، ۱۳۷۹.
۶ ج.

ISBN 964-6066-02-x (دوره)
(ج. ۱) ISBN 964-6066-03-8
(ج. ۲) ISBN 964-6066-04-6
(ج. ۳) ISBN 964-6066-05-4
(ج. ۴) ISBN 964-6066-06-2
(ج. ۵) ISBN 964-6066-07-0
(ج. ۶) ISBN 964-6066-08-9

فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
عربی.
تفاسیر شیعه ـ قرن ۱۴. الف. کلانتری، الیاس، ۱۳۳۰ ـ، خلاصه کننده. ب. سازمان اوقاف و امور خیریه. انتشارات أسوه. ج. عنوان. د. عنوان: المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده.

BP۹۸/ط۲۵م۹۰۱۶ ۲۹۷/۱۷۲۶
کتابخانه ملی ایران م۷۹-۵۸۷۹

کتابخانه
...فات کامپیوتر... علوم اسلامی
۲۶۸۲۷

دار الأسوة للطباعة والنشر
ایران

مختصر الميزان في تفسير القرآن

إعداد: الياس كلانتري

الناشر: دار الأُسوة للطباعة والنشر (التابعة لمنظّمة الأوقاف والشؤون الخيرية)

الطبعة: الأُولى

سنة النشر: ۱۴۲۱ هـ.ق.

عدد المطبوع: ۵۰۰۰ دورة

ثمن الدورة: ۱۵۰,۰۰۰ ريال

شابک ج۵: ISBN 964-6066-07-0
شابک دوره: ISBN 964-6066-02-x

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طهران: ص.ب. ۶۸۴/ ۱۳۱۴۵، هاتف ۶۴۱۸۲۹۹ و ۶۴۱۸۰۹۹، فكس ۶۴۱۸۰۲۲
قم: ص.ب. ۳۹۹۹/ ۳۷۱۸۵، هاتف ۵۵۰۸۰ و ۵۲۲۱۲، فكس ۶۱۷۷۵۷

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الروم مكية وهي ستون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ۞ الٓمٓ.

٢ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ.

٣ ۞ فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ.

٤ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلّٰهِ ٱلْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ.

٥ ۞ بِنَصْرِ ٱللّٰهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

٦ ۞ وَعْدَ ٱللّٰهِ لاٰ يُخْلِفُ ٱللّٰهُ وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ.

٧ ۞ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ ٱلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ.

٨ ۞ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ ٱللّٰهُ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ

بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ.

٩ ❁ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا
أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

١٠ ❁ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوآى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُنَ.

١١ ❁ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

١٢ ❁ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ.

١٣ ❁ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ.

١٤ ❁ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ.

١٥ ❁ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ
يُحْبَرُونَ.

١٦ ❁ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي
الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ.

١٧ ❁ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ.

١٨ ❁ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ.

١٩ ❁ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ.

بيان:

تفتتح السورة بوعد من الله وهو أن الروم ستغلب الفرس في بضع سنين بعد انهزامهم أيام نزول السورة عن الفرس ثم تنتقل منه الى ذكر ميعاد أكبر وهو الوعد بيوم يرجع الكل فيه الى الله وتقيم الحجة على المعاد ثم تنعطف الى ذكر آيات الربوبية وتصف صفاته تعالى الخاصة به ثم تختتم السورة بوعد النصر للنبي ﷺ وتؤكد القول فيه إذ تقول: ﴿**فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون**﴾ وقد قيل قبيل ذلك: ﴿**وكان حقاً علينا نصر المؤمنين**﴾.

فغرض السورة هو الوعد القطعي منه تعالى بنصره دينه وقد قدّم عليه نصر الروم على الفرس في بضع سنين من حين النزول ليستدل بإنجاز هذا الوعد على إنجاز ذلك الوعد، وكذا يحتج به ومن طريق العقل على أنه سينجز وعده بيوم القيامة لا ريب فيه.

قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ الروم جيل من الناس على ساحل البحر الأبيض بالمغرب كانت لهم امبراطورية وسيعة منبسطة الى الشامات وقعت بينهم وبين الفرس حرب عوان في بعض نواحي الشام قريباً من الحجاز فغلبت الفرس وانهزمت الروم، والظاهر أن المراد بالأرض أرض الحجاز واللام للعهد.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ ضمير الجمع الأول للروم وكذا الثالث وأما الثاني فقد قيل إنه للفرس والمعنى: والروم من بعد غلبة الفرس سيغلبون، ويمكن أن يكون الغلب من المصدر المبني للمفعول والضمير للروم كالضميرين قبلها وبعدها فلا تختلف الضمائر والمعنى: والروم من بعد مغلوبيتهم سيغلبون. والبضع من العدد من ثلاثة الى تسعة.

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ قبل وبعد مبنيان على الضمّ فهناك مضاف اليه مقدّر والتقدير لله الأمر من قبل أن غلبت الروم ومن بعد أن غلبت يأمر بما يشاء

فينصر من يشاء ويخذل من يشاء.

وقيل: المعنى لله الأمر من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين أي وقت كونهم مغلوبين ووقت كونهم غالبين والمعنى الأول أرجح إن لم يكن راجحاً متعيناً.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الظرف متعلق بيفرح وكذا قوله: «بنصر» والمعنى: ويوم إذ يغلب الروم يفرح المؤمنون بنصر الله الروم، ثم استأنف وقال: «ينصر من يشاء» تقريراً لقوله: «لله الأمر من قبل ومن بعد».

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي عزيز يعزُّ بنصره من يشاء رحيم يخصُّ برحمته من يشاء.

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لاَ يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ «وعد الله» مفعول مطلق محذوف العامل والتقدير وعد الله وعداً وإخلاف الوعد خلاف إنجازه وقوله: «وعد الله» تأكيد وتقرير للوعد السابق في قوله: «سيغلبون» و«يفرح المؤمنون» كما أن قوله: «لا يخلف الله وعده» تأكيد وتقرير لقوله: «وعد الله».

وقوله: ﴿لاَ يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ﴾ كقوله: ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ (الرعد / ٣١) وخلف الوعد وإن لم يكن قبيحاً بالذات لأنه ربما يحسن عند الاضطرار لكنه سبحانه لا يضطره ضرورة فلا يحسن منه خلف الوعد في حال.

على أن خلف الوعد يلازم النقص دائماً ويستحيل النقص عليه تعالى.

على أنه تعالى أخبر في كلامه بأنه لا يخلف الميعاد وهو أصدق الصادقين وهو القائل عز من قائل: ﴿والحق أقول﴾ (ص / ٨٤).

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي هم جهلاء بشؤنه تعالى لا يثقون

بوعده ويقيسونه الى أمثالهم ممن يصدق ويكذب وينجز ويخلف.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ جملة «يعلمون» على ما ذكره في الكشاف بدل من قوله: «لا يعلمون» وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا انتهى.

وقيل: الجملة استئنائية لبيان موجب جهلهم بأن وعد الله حق وأن لله الأمر من قبل ومن بعد وأنه ينصر المؤمنين على الكافرين. انتهى وهذا أظهر.

وتنكير «ظاهراً» للتحقير وظاهر الحياة الدنيا ما يقابل باطنها وهو الذي يناله حواسهم الظاهرة من زينة الحياة فيرشدهم الى اقتنائها والعكوف عليها والإخلاد اليها ونسيان ما وراءها من الحياة الآخرة والمعارف المتعلقة بها والغفلة عما فيه خيرهم ونفعهم بحقيقة معنى الكلمة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الخ: المراد من خلق السماوات والأرض وما بينهما ـ وذلك جملة العالم المشهود ـ بالحق أنها لم تخلق عبثاً لا غاية لها وراءها بأن يوجد ويعدم ثم يوجد ثم يعدم من غير غرض وغاية فهو تعالى إنما خلقها لغاية تترتب عليها.

ثم إن العالم بأجزائها ليس بدائم الوجود غير منقطع الآخر حتى يحتمل كون كل جزء لاحق غاية للجزء السابق وكل آت خلفاً لماضيه بل هو بأجزائه فانٍ بائد فهناك غاية مقصودة من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم وهذا المعنى هو المراد بتقييد قوله: «ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما» بقوله: «وأجل مسمّى» بعد تقييده بقوله: «إلّا بالحق».

فقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الاستفهام للتعجيب، وكونهم في أنفسهم استعارة كنائية عن فراغ البال وحضور الذهن كأنهم عند اشتغالهم بامور الدنيا وسعيهم للمعيشة وتشوّش البال يغيبون عن أنفسهم فيكونون عند حضور الذهن حاضرين مستقرين في أنفسهم فيكون تفكّرهم حينئذ مجتمعاً غير متفرق فيهديهم الى الحق ويرشدهم الى الواقع.

وقوله: ﴿مَا خَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو الفكر الذي يجب عليهم أن يعنوا فيه النظر في أنفسهم وتقريره على ما تقدم أن الله سبحانه ما خلق هذا العالم كلاً ولا بعضاً إلّا خلقاً ملابساً للحق أو مصاحباً للحق أي لغاية حقيقية لا عبثاً لا غاية له ولا الى أجل معين فلا يبقى شيء منها الى ما لا نهاية له بل يفنى وينقطع وإذا كان كل من أجزائه والمجموع مخلوقاً ذا غاية تترتب عليها وليس شيء منها دائم الوجود كانت غايته مترتبة عليه بعد انقطاع وجوده وفنائه. وهذا هو الآخرة التي ستظهر بعد انقضاء الدنيا وفنائها.

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ مسوق سوق التعجيب كما بدأت الآية باستفهام التعجيب، والمراد بلقاء الله هو الرجوع اليه في المعاد، وقد عبّر عنه باللقاء ليزداد كفرهم به عجباً فكيف يمكن أن يبتدئوا منه ثم لا ينتهوا اليه. ولذلك أكده بإن إشارة الى أن الكفر بالمعاد من شأنه في نفسه أن لا يصدق به.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الى آخر الآية؛ لما ذكر كفر كثير من الناس بالمعاد وذلك أمر يلغو معه الدين الحق ذكّرهم حال الامم الكافرة وما انتهت اليه من سوء العذاب لعلهم يعتبرون بها فيرجعوا عما هم عليه من الكفر. وإثارة الأرض قلبها ظهر البطن للحرث والتعمير ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي بالكفر والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوآى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّٰهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ بيان لما انتهى اليه أمر أُولئك الظالمين ولذا عبّر بثم. و «عاقبة» بالنصب خبر كان واسمه «السوآى» قدّم الخبر عليه لإفادة الحصر و «أساؤا» مقطوع عن المتعلق بمعنى عملوا السوء، والسوآى الخلة التي يسوء صاحبها والمراد بها سوء العذاب و «أن كذبوا بآيات الله» بحذف لام التعليل والتقدير لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها.

والمعنى: ثم كان سوء العذاب هو الذي انتهى اليه أمر أُولئك الذين عملوا السوء لم تكن هم

عاقبة غيرها لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد ما ذكر الحجة وتكذيب كثير من الناس لخصّ القول في نتيجتها وهو أن البدء والعود بيده سبحانه وسيرجع اليه الجميع، والمراد بالخلق المخلوقون، ولذا أرجع اليه ضمير الجمع في «ترجعون».

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذكر حال المجرمين بعد قيام الساعة وهي ساعة الرجوع اليه تعالى للحساب والجزاء، والإبلاس اليأس من الله وفيه كل الشقاء.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يريد أنهم على يأسهم من الرحمة من ناحية أعمالهم أنفسهم آيسون من آلهتهم الذين اتخذوهم شركاء لله فعبدوهم ليشفعوا لهم عند الله كما كانوا يقولون في الدنيا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله وكانوا بعبادة شركائهم كافرين ساترين.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ـ الى قوله ـ مُحْضَرُونَ﴾ قال في المجمع: الروضة البستان المتناهي منظراً وطيباً. انتهى. وقال في المفردات: الحبر الأثر المستحسن ـ الى أن قال ـ وقوله عزّ وجل: «في روضة يحبرون» أي يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم. انتهى.

والمراد بتفرّق الخلق يومئذ تميّز المؤمنين الصالحين من المجرمين ودخول هؤلاء النار ودخول اولئك الجنة على ما يشير اليه الآيتان التاليتان.

ولزوم هذا التميّز والتفرّق في الوجود هو الذي أخذه الله سبحانه حجة على ثبوت المعاد حيث قال: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ (الجاثية / ٢١).

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ لما ذكر أنه يبدء الخلق ثم يعيدهم

ويرجعهم للقائه فيفرّقهم طائفتين: أهل الجنة والنعمة وأهل النار والعذاب. أما أهل الجنة فهم المؤمنون العاملون للصالحات وأما أهل النار فهم الكفار المكذبون لآيات الله وقد ذكر أنهم كانوا في الدنيا أهل قوة ونعمة لكنهم نسوا الآخرة وكذبوا بآيات الله واستهزؤا بها حتى انتهى بهم الأمر الى سوء العذاب عذاب الاستئصال جزاء لظلمهم أنفسهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

فتحصّل من ذلك أن في دار الخلقة تدبيراً إلهياً متقناً صالحاً جميلاً على أجمل ما يكون وأن للانسان على توالي الأزمنة والدهور آثاماً وخطيئات من العقيدة السيئة في حق ربه واتخاذ شركاء له وإنكار لقائه الى سائر المعاصي.

ذيّل الكلام بتسبيحه كلما تجدد حين بعد حين وتحميده على صنعه وتدبيره في السماوات والأرض وهو مجموع العالم المشهود فهو سبحانه منزّه عن هذه الاعتقادات الباطلة والأعمال الرديّة ومحمود في جميع ما خلقه ودبّره في السماوات والأرض.

ومن هناك يظهر:

أولاً: أن التسبيح والتحميد في الآيتين إنشاء تنزيه وثناء منه تعالى لا من غيره حتى يكون المعنى: قولوا سبحان الله وقولوا الحمد لله فقد تكرّر في كلامه تعالى تسبيحه وتحميده لنفسه كقوله: ﴿سبحان ربك رب العزة﴾ (الصافات / ١٨٠) وقوله: ﴿الحمد لله الذي نزّل الفرقان على عبده﴾ (الفرقان / ١).

وثانياً: أن المراد بالتسبيح والتحميد معناهما المطلق دون الصلوات اليومية المفروضة كما يقول به أكثر القائلين بكون القول مقدّراً. والمعنى: قولوا سبحان الله وقولوا الحمد لله.

وثالثاً: أن قوله: «وله الحمد في السماوات والأرض» معترضة واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه. وقوله: «وعشياً وحين تظهرون» معطوفان على محل «حين تمسون» لا على قوله: «في السماوات والأرض» حتى يختص المساء والصباح بالتسبيح والسماوات والأرض والعشي والظهيرة بالتحميد بل الأوقات وما فيها للتسبيح والأمكنة وما فيها للتحميد.

فالسياق يشير الى أن ما في السماوات والأرض من خلق وأمر هو لله يستدعي بحسنه حمداً وثناء لله سبحانه وأن للانسان على مر الدهور وتغيّر الأزمنة والأوقات من الشرك والمعصية ما يتنزه عنه ساحة قدسه تعالى وتقدس.

نعم ههنا اعتبار آخر يتداخل فيه التحميد والتسبيح وهو أن الأزمنة والأوقات على تغيرها وتصرّمها من جملة ما في السماوات والأرض فهي بوجودها يثني على الله تعالى، ثم كل ما في السماوات والأرض بفقرها اليه تعالى وذلّتها دونه ونقصها بالنسبة الى كماله تعالى تسبحه كما قال: ﴿وإن من شيء إلّا يسبح بحمده﴾ (الإسراء / ٤٤)، لكن هذا الاعتبار غير منظور اليه في الآيتين اللتين نحن فيهما.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ظاهر إخراج الحي من الميت وبالعكس خلق ذوي الحياة من الأرض الميتة ثم تبديل ذوي الحياة أرضاً ميتة، وقد فسّر بخلق المؤمن من الكافر وخلق الكافر من المؤمن فإنه يعدّ المؤمن حياً والكافر ميتاً. قال تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً﴾ (الأنعام / ١٢٢).

وأما إحياء الأرض بعد موتها فهو انتعاش الأرض وابتهاجها بالنبات في الربيع والصيف بعد خمودها في الخريف والشتاء، وقوله: «وكذلك تخرجون» أي تبعثون وتخرجون من قبوركم بإحياء جديد كإحياء الأرض بعد موتها، وقد تقدم تفسير نظير صدر الآية وذيلها مراراً[1].

٢٠ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ.

---

١. الروم ١ ـ ١٩: بحث روائي حول غلبة الروم ومقامرة ابي بكر مع المشركين.

٢١ • وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

٢٢ • وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ.

٢٣ • وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.

٢٤ • وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٢٥ • وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ.

٢٦ • وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ المراد بالخلق من تراب انتهاء خلقة الإنسان الى الأرض فإن مراتب تكوّن الانسان من مضغة أو علقة أو نطفة أو غيرها مركبات أرضية تنتهي الى العناصر الأرضية.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ إذا فجائية أي يفاجئكم أنكم اناسي تنتشرون في الأرض أي يخلقكم من تركيبات أرضية المترقب منها كينونة أرضية ميتة أُخرى

مثلها لكن يفاجئكم دفعة أنه يصير بشراً ذوي حياة وشعور عقلي ينتشرون في الأرض في سبيل تدمير أمر الحياة فقوله: «ثم إذا أنتم بشر تنتشرون» في معنى قوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ (المؤمنون / ١٤).

فخلق الإنسان أي جمع أجزائه من الأرض وتأليفها آية وكينونة هذا المجموع إنساناً ذا حياة وشعور عقلي آية أو آيات أُخر تدل على صانع حي عليم يدبر الأمر ويجري هذا النظام العجيب.

وقد ظهر بهذا المعنى أن «ثم» للتراخي الرتبي والجملة معطوفة على قوله: «خلقكم» لا على قوله: «أن خلقكم».

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ الى آخر الآية؛ قال الراغب: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والانثى من الحيوانات المتزاوجة: زوج ولكل قرينين فيها وفي غيرها: زوج، قال تعالى: ﴿وجعل منه الزوجين الذكر والانثى﴾ وقال: ﴿وزوجك الجنة﴾ وزوجة لغة رديئة وجمعها زوجات ـ الى أن قال ـ وجمع الزوج أزواج. انتهى.

فقوله: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي خلق لأجلكم ـ أو لينفعكم ـ من جنسكم قرائن وذلك أن كل واحد من الرجل والمرأة مجهز بجهاز التناسل تجهيزاً يتم فعله بمقارنة الآخر ويتم بمجموعهما أمر التوالد والتناسل فكل واحد منهما ناقص في نفسه مفتقر الى الآخر ويحصل من المجموع واحد تام له أن يلد وينسل، ولهذا النقص والإفتقار يتحرك الواحد منهما الى الآخر حتى إذا اتصل به سكن اليه لأن كل ناقص مشتاق الى كماله وكل مفتقر مائل الى ما يزيل فقره وهذا هو الشبق المودع في كل من هذين القرينين.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ المودة كأنها الحب الظاهر أثره في مقام العمل فنسبة المودة الى الحب كنسبة الخضوع الظاهر أثره في مقام العمل الى الخشوع الذي هو

نوع تأثر نفساني عن العظمة والكبرياء.

والرحمة نوع تأثر نفساني عن مشاهدة حرمان المحروم عن الكمال وحاجته الى رفع نقيصته يدعو الراحم الى إنجائه من الحرمان ورفع نقصه.

ومن أجل موارد المودة والرحمة المجتمع المنزلي فإن الزوجين يتلازمان بالمودة والمحبة وهما معاً وخاصة الزوجة يرحمان الصغار من الأولاد لما يريان ضعفهم وعجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيوية فيقومان بواجب العمل في حفظهم وحراستهم وتغذيتهم وكسوتهم وإيوائهم وتربيتهم ولولا هذه الرحمة لانقطع النسل ولم يعش النوع قط.

ونظير هذه المودة والرحمة مشهود في المجتمع الكبير المدني بين أفراد المجتمع فالواحد منهم يأنس بغيره بالمودة ويرحم المساكين والعجزة والضعفاء الذين لا يستطيعون القيام بواجبات الحياة.

والمراد بالمودة والرحمة في الآية الاوليان على ما يعطيه مناسبة السياق أو الإخيرتان على ما يعطيه إطلاق الآية.

وقوله: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لانهم إذا تفكروا في الاصول التكوينية التي يبعث الإنسان الى عقد المجتمع من الذكورة والانوثة الداعيتين الى الاجتماع المنزلي والمودة والرحمة الباعثتين على الاجتماع المدني ثم ما يترتب على هذا الاجتماع من بقاء النوع واستكمال الإنسان في حياتيه الدنيا والاخرى عثروا من عجائب الآيات الإلهية في تدبير أمر هذا النوع على ما يبهر به عقولهم وتدهش به أحلامهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ الى آخر الآية؛ الظاهر أن يكون المراد باختلاف الألسن اختلاف اللغات من العربية والفارسية والاردوية وغيرها وباختلاف الألوان اختلاف الامم في ألوانهم كالبياض والسواد والصفرة والحمرة.

ويمكن أن يستفاد اختلاف الألسنة من جهة النغم والأصوات ونحو التكلم والنطق وباختلاف الألوان اختلاف كل فردين من أفراد الانسان بحسب اللون لو دقق فيه النظر على ما يقول به علماء هذا الشأن.

فالباحثون عن العالم الكبير يعثرون في نظام الخلقة على آيات دقيقة دالة على أن الصنع والايجاد مع النظام الجاري فيه لا يقوم إلّا بالله ولا ينتهي إلّا اليه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الى آخر الآية: الفضل الزيادة على مقدار الحاجة ويطلق على العطية لأن المعطي إنما يعطي ما فضل من مقدار حاجته، والمراد به في الآية الكريمة الرزق فابتغاء الفضل طلب الرزق.

وفي خلق الإنسان ذا قوى فعّالة تبعثه الى طلب الرزق ورفع حوائج الحياة للبقاء بالحركة والسعي ثم هدايته الى الاستراحة والسكون لرفع متاعب السعي وتجديد تجهيز القوى وتخصيص الليل والنهار المتعاقبين للسعي والسكون والتسبيب الى وجود الليل والنهار بأوضاع سماوية قائمة بالأرض والشمس لآيات نافعة لمن له سمع واع يعقل ما يسمع فإذا وجده حقاً اتبعه.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الظاهر أن الفعل نزّل منزلة المصدر ولذلك لم يصدّر بأن المصدرية كما صدّر به قوله: «أن خلقكم» وقوله: «أن خلق لكم» وتنزيل الفعل منزلة المصدر لغة عربية جيدة وعليه يحمل المثل السائر «وتسمع بالمعيديّ خير من أن تراه» ولا ضير في حمل كلامه تعالى عليه فهو تعالى يأتي في مفتتح هذه الآيات بفنون التعبير كقوله: «منامكم» «يريكم» «أن تقوم».

وقوله: «خوفاً وطمعاً» أي خوفاً من الصاعقة وطمعاً في المطر. وقوله: «وينزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها» تقدم تفسيره كراراً. وقوله: «إن في ذلك لآيات لقوم

يعقلون» أي إن أهل التعقل يفقهون أن هناك عناية متعلقة بهذه المصالح فليس مجرد اتفاق وصدفة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ القيام مقابل القعود ولما كان أعدل حالات الانسان حيث يقوى به على عامة أعماله استعير لثبوت الشيء واستقراره على أعدل حالاته كما يستعار لتدبير الأمر. قال تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ (الرعد / ٣٣).

والمراد بقيام السماء والأرض بأمر من الله ثبوتهما على حالهما من حركة وسكون وتغير وثبات بأمره تعالى وقد عرَّف أمره بقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (يس / ٨٢).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ «إذا» الاولى شرطية و«إذا» الثانية فجائية قائمة مقام فاء الجزاء و«من الأرض» متعلق بقوله: «دعوة» والجملة معطوفة على محل الجملة الاولى لأن المراد بالجملة أعني قوله: «ثم إذا دعاكم» الخ؛ البعث والرجوع الى الله وليس في عداد الآيات بل الجملة إخبار بأمر احتج عليه سابقاً وسيحتج عليه لاحقاً.

وأما قول القائل: إن الجملة على تأويل المفرد وهي معطوفة على «أن تقوم» والتقدير ومن آياته قيام السماء والأرض بأمره ثم خروجكم إذا دعاكم دعوة من الأرض.

فلازمه كون البعث معدوداً من الآيات وليس منها على أن البعث أحد الاصول الثلاثة التي يحتج بالآيات عليه، ولا يحتج به على التوحيد مثلاً بل لو احتج فبالتوحيد عليه فافهم ذلك.

وقد رتبت الفواصل أعني قوله: «يتفكرون» للعالمين «يسمعون» «يعقلون» على هذا

الترتيب لأن الإنسان يتفكر فيصير عالماً ثم إذا سمع شيئاً من الحقائق وعاه ثم عقله والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَٰنِتُونَ﴾ كانت الآيات المذكورة مسوقة لإثبات ربوبيته تعالى وأُلوهيته كما تقدمت الإشارة اليه ولما إنتهى الكلام الى ذكر البعث والرجوع الى الله عقب ذلك بالبرهان على إمكانه والحجة مأخوذة من الخلق والتدبير المذكورين في الآيات السابقة.

فقوله: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة الى إحاطة ملكه الحقيقي لجميع من في السماوات والارض وهم المحشورون اليه وذلك لان وجودهم من جميع الجهات قائم به تعالى قيام فقر وحاجة لا استقلال ولا استغناء لهم عنه بوجه من الوجوه وهذا هو الملك الحقيقي الذي أثره جواز تصرف المالك في ملكه كيف شاء فله تعالى أن يتصرف في مملوكية بنقلهم من النشأة الدنيا الى النشأة الآخرة.

وقد أكد ذلك بقوله: «كل له قانتون» والقنوت لزوم الطاعة مع الخضوع ـ على ما ذكره الراغب في المفردات ـ والمراد بالطاعة مع الخضوع الطاعة التكوينية ـ على ما يعطيه السياق ـ دون التشريعية التي ربما تخلفت.

وذلك أنهم الملائكة والجن والإنس فأما الملائكة فليس عندهم إلّا خضوع الطاعة، وأما الجن والإنس فهم مطيعون منقادون للعلل والاسباب الكونية وكلما احتالوا في الغاء أثر علة من العلل أو سبب من الاسباب الكونية توسلوا الى علة أُخرى وسبب آخر كوني ثم علمهم وارادتهم كاختيارهم جميعاً من الأسباب الكونية فلا يكون إلّا ما شاء الله أي الذي تمت علله في الخارج ولا يتحقق مما شاؤا إلّا ما أذن فيه وشاءه فهو المالك لهم ولا يملكونه.

٢٧ ● وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ.

٢٨ ● ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٢٩ ● بَلِ ٱتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ.

٣٠ ● فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ ٱللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ.

٣١ ● مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ.

٣٢ ● مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.

٣٣ ● وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ.

٣٤ ● لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.

٣٥ ● أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ.

٣٦ ● وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ.

٢٧ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

٢٨ ۞ فَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ.

٣٩ ۞ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ ٱللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الى آخر الآية: بدء الخلق إنشاؤه ابتداء من غير مثال سابق والإعادة إنشاء بعد إنشاء.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الضمير الأول للإعادة المفهوم من قوله: «يعيد» والضمير الثاني راجع اليه تعالى على ما يتبادر من السياق[1].

والذي ينبغي أن يقال أن الجملة أعني قوله: «وهو أهون عليه» معلل بقوله بعده: «ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم» فهو الحجة المثبتة لقوله: «وهو أهون عليه».

والمستفاد من قوله: «ولله المثل الأعلى» الخ؛ أن كل وصف كمالي يمثل به شيء في السماوات والأرض كالحياة والقدرة والعلم والملك والجود والكرم والعظمة والكبرياء وغيرها فلله سبحانه أعلى ذلك الوصف وأرفعها من مرتبة تلك الموجودات المحدودة كما قال: ﴿ولله الأسماء

---

١. الروم ٢٧ ـ ٣٩: بحث في معنى قوله: «وهو اهون عليه».

الحسنى ﴾ (الأعراف / ١٨٠).

وذلك أن كل وصف من أوصاف الكمال اتصف به شيء مما في السماوات والأرض فله في حد نفسه ما يقابله فإنه مما أفاضه الله عليه وهو في نفسه خالٍ عنه فالحيّ منها ميت في ذاته والقادر منها عاجز في ذاته ولذلك كان الوصف فيها محدوداً مقيّداً بشيء دون شيء وحال دون حال، وهكذا فالعلم فيها مثلاً ليس مطلقاً غير محدود بل محدود مخلوط بالجهل بما وراءه وكذلك الحياة والقدرة والملك والعظمة وغيرها.

والله سبحانه هو المفيض لهذه الصفات من فضله والذي له من معنى هذه الصفات مطلق غير محدود وصرف غير مخلوط فلا جهل في مقابل علمه ولا ممات يقابل حياته وهكذا فله سبحانه من كل صفة يتصف به الموجودات السماوية والأرضية ـ وهي صفات غير ممحّضة ولا مطلقة ـ ما هو أعلاها أي مطلقها ومحضها.

فكل صفة توجد فيه تعالى وفي غيره من المخلوقات، فالذي فيه أعلاها وأفضلها والذي في غيره مفضول بالنسبة الى ما عنده.

ولما كانت الإعادة متصفة بالهون إذا قيس الى الإنشاء فيما عند الخلق فهو عنده تعالى أهون أي هون محض غير مخلوط بصعوبة ومشقة بخلاف ما عندنا معاشر الخلق ولا يلزم منه أن يكون في الإنشاء صعوبة ومشقة عليه تعالى لأن المشقة والصعوبة في الفعل تتبع قدرة الفاعل بالتعاكس فكلما قلّت القدرة كثرت المشقة وكلما كثرت قلّت حتى إذا كانت القدرة غير متناهية انعدمت المشقة من رأس، وقدرته تعالى غير متناهية فلا يشقُّ عليه فعل أصلاً وهو المستفاد من قوله: «إن الله على كل شيء قدير» فإن القدرة إذا جاز تعلقها بكل شيء لم تكن إلّا غير متناهية فافهم ذلك.

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقدم أنه في مقام الحجة بالنسبة الى قوله: «وهو أهون عليه» ومحصله أن كل صفة كمالية يتصف به شيء مما في

السماوات والأرض من جمال أو جلال فإن لله سبحانه أعلاها أي مطلقها من غير تقييد ومحضها من غير شوب وصرفها من غير خلط.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في مقام التعليل بالنسبة الى قوله: «ولله المثل الأعلى» الخ: أي إنه تعالى عزيز واجد لكل ما يفقده غيره ممتنع من أن يمتنع عليه شيء حكيم لا يعرض فعله فتور، ولو لم تكن صفة من صفاته مثلاً أعلى مما عند غيره من الممكنات كانت محدودة غير مطلقة ومخلوطة غير صرفة غير خالية من النقص والقصور فاستذلّه ذاك القصور فلم يكن عزيزاً على الإطلاق وأحدث ذاك النقص في فعله ثلمة وفتوراً فلم يكن حكيماً على الإطلاق.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ مِنْ شُرَكٰاءَ فِي مٰا رَزَقْنٰاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوٰاءٌ تَخٰافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الخ: «من» في قوله: «من أنفسكم» لابتداء الغاية أي ضرب لكم مثلاً متخذاً من أنفسكم منتزعاً من الحالات التي لديكم، وقوله: «هل لكم» شروع في المثل المضروب والاستفهام للإنكار. و«ما» في «مما ملكت» للنوع أي من نوع ما ملكت أيمانكم من العبيد والإماء، و«من» في «من شركاء» زائدة وهو مبتدأ، وقوله: «فأنتم فيه سواء» تفريع على الشركة، و«أنتم» خطاب شامل للمالكين والمملوكين على طريق التغليب، وقوله: «تخافونهم كخيفتكم أنفسكم» أي تخافون المماليك الشركاء أن تستبدّوا في تصرف المال المشترك من غير إذن منهم ورضى كما تخافون أنفسكم من الشركاء الاحرار.

وهذا مثل ضربه الله لبيان بطلان ما يزعمون أن الله سبحانه مما خلق شركاء في الالوهية والربوبية وقد أُلقي المثل في صورة الإستفهام الإنكاري: هل يوجد بين مماليككم من العبيد والإماء من يكونون شركاء لكم في الاموال التي رزقناكم ـ والحال أنهم مماليك لكم تملكونهم وما في أيديهم ـ بحيث تخافونهم من التصرف في أموالكم بغير اذن منهم ورضى كما تخافون

الشركاء الاحرار من نوع أنفسكم ؟!

لا يكون ذلك أبداً ولا يجوز أن يكون المملوك شريكاً لمولاه في ماله واذا لم يجز فكيف يجوز أن يكون بعض من خلقه الله كالملائكة والجن وهم عبيده المملوكون شركاء له فيما يملك من مخلوقيه وآلهة وأرباباً من دونه ؟

ثم تمّم الكلام بقوله: «كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون» وفيه تمهيد لما يتلوه من الكلام.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ إضراب عما يستفاد من ذيل الآية السابقة والتقدير وهؤلاء المشركون لم يبنوا شركهم على التعقل بل اتبعوا في ذلك أهواءهم بغير علم.

وكان مقتضى الظاهر أن يقال: بل اتبع الذين أشركوا وإنما بدّله من قوله: «بل اتّبع الذين ظلموا» فوصفهم بالظلم ليتعلل به ما سيصفهم بالضلال في قوله: «فمن يهدي من أضلّ الله» فالظلم يستتبع الإضلال الإلهي. قال تعالى: ﴿يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ (إبراهيم / ٢٧).

فقوله: ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ استفهام إنكاري مدلوله الإيآس من نعمة الهداية للمشركين المتّبعين لأهوائهم مع ظهور الحق لهم لمكان ظلمهم الموجب لإضلالهم وقد تكرّر في كلامه تعالى «إن الله لا يهدي القوم الظالمين».

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ نفي لنجاتهم بنصرة الناصرين لهم من غيرهم بعد ما لم ينالوا النجاة من الضلال وتبعاته من عند أنفسهم لإضلال الله لهم ونفي الجمع دليل على أن لغيرهم ناصرين كالشفعاء.

وقول القائل إن معنى نفي الناصرين لهم أنه ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو المشهور من مقابلة الجمع بالجمع غير مطّرد.

ومعنى الآية: بل اتبع الذين ظلموا بشركهم أهواءهم بغير علم وتعقّل فأضلّهم الله بظلمهم

ولا هادي يهديهم وليس لهم ناصرون ينصرونهم.

قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ ٱللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاٰ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذٰلِكَ الدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ ﴾ الكلام متفرع على ما تحصَّل من الآيات السابقة المثبتة للمبدأ والمعاد أي إذا ثبت أن الخلق والتدبير لله وحده لا شريك له وهو سيبعث ويحاسب ولا نجاة لمن أعرض عنه وأقبل على غيره فأقم وجهك للدين والزمه فإنه الدين الذي تدعو اليه الخلقة الإلهية.

فقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ المراد بإقامة الوجه للدين الإقبال عليه بالتوجه من غير غفلة منه كالمقبل على الشيء بقصر النظر فيه بحيث لا يلتفت عنه يميناً وشمالاً والظاهر أن اللام في الدين للعهد والمراد به الإسلام.

وقوله: ﴿ حَنِيفاً ﴾ حال من فاعل أقم وجوّز أن يكون حالاً من الدين أو حالاً من الوجه والأول أظهر وأنسب للسياق، والحنف ميل القدمين الى الوسط والمراد به الاعتدال.

وقوله: ﴿ فِطْرَةَ ٱللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الفطرة بناء نوع من الفطر بمعنى الإيجاد والإبداع و«فطرة الله» منصوب على الإغراء أي الزم الفطرة ففيه إشارة الى أن هذا الدين الذي يجب إقامة الوجه له هو الذي يهتف به الخلقة ويهدي اليه الفطرة الإلهية التي لا تبديل لها.

وذلك أنه ليس الدين إلّا سنَّة الحياة والسبيل التي يجب على الإنسان أن يسلكها حتى يسعد في حياته فلا غاية للانسان يتبعها إلّا السعادة وقد هدى كل نوع من أنواع الخليقة الى سعادته التي هي بغية حياته بفطرته ونوع خلقته وجهّز في وجوده بما يناسب غايته من التجهيز. قال تعالى: ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ (طه / ٥٠)، وقال: ﴿ الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى ﴾ (الأعلى / ٣).

فالانسان كسائر الأنواع المخلوقة مفطور بفطرة تهديه الى تتميم نواقصه ورفع حوائجه

وتهتف له بما ينفعه وما يضرّه في حياته، قال تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾ (الشمس / ٨)، وهو مع ذلك مجهز بما يتم له به ما يجب له أن يقصده من العمل، قال تعالى: ﴿ثم السبيل يسرّه﴾ (عبس / ٢٠).

فللانسان فطرة خاصة تهديه الى سنة خاصة في الحياة وسبيل معينة ذات غاية مشخصة ليس له إلّا أن يسلكها خاصة وهو قوله: «فطرة الله التي فطر الناس عليها» وليس الانسان العائش في هذه النشأة إلّا نوعاً واحداً لا يختلف ما ينفعه وما يضرّه بالنظر الى هذه البنية المؤلفة من روح وبدن فما للانسان من جهة أنه إنسان إلّا سعادة واحدة وشفاء واحد فمن الضروري حينئذ أن يكون تجاه عمله سنة واحدة ثابتة يهديه اليها هادٍ واحد ثابت.

وليكن ذاك الهادي هو الفطرة ونوع الخلقة ولذلك عقّب قوله: «فطرة الله التي فطر الناس عليها» بقوله: «لا تبديل لخلق الله».

فلو اختلفت سعادة الانسان باختلاف أفراده لم ينعقد مجتمع واحد صالح يضمن سعادة الأفراد المجتمعين، ولو اختلفت السعادة باختلاف الأقطار التي تعيش فيها الامم المختلفة بمعنى أن يكون الأساس الوحيد للسنة الاجتماعية أعني الدين هو ما يقتضيه حكم المنطقة كان الانسان أنواعاً مختلفة باختلاف الأقطار، ولو اختلفت السعادة باختلاف الأزمنة بمعنى أن تكون الأعصار والقرون هي الأساس الوحيد للسنة الدينية اختلفت نوعية كل قرن وجيل مع من ورثوا من آبائهم أو أخلفوا من أبنائهم ولم يسر الاجتماع الانساني سير التكامل ولم تكن الانسانية متوجهة من النقص الى الكمال إذ لا يتحقق النقص والكمال إلّا مع أمر مشترك ثابت محفوظ بينهما.

وليس المراد بهذا إنكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة بعض التأثير في انتظام السنة الدينية في الجملة بل إثبات أن الأساس للسنة الدينية هو البنية الانسانية التي هي حقيقة واحدة ثابتة مشتركة بين الأفراد، فللانسانية سنة واحدة ثابتة بثبات أساسها

الذي هو الانسان وهي التي تدير رحى الانسانية مع ما يلحق بها من السنن الجزئية المختلفة باختلاف الافراد أو الأمكنة أو الأزمنة.

وهذا هو الذي يشير الى قوله بعد: «ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» وسنزيد المقام إيضاحاً في بحث مستقل إن شاء الله تعالى[1].

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه بالنبي ﷺ نظير قوله: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾ (الطلاق / ١)، وقوله: ﴿فاستقم كما أُمرت أنت ومن معك ولا تطغوا﴾ (هود / ١١٢)، فيؤل المعنى الى نحو من قولنا: فأقم وجهك للدين حنيفاً أنت ومن معك منيبين الى الله، والإنابة الرجوع بالتوبة.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ التقوى بحسب دلالة المقام يشمل امتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه تعالى فاختصاص إقامة الصلاة من بين سائر العبادات بالذكر للاعتناء بشأنها فهي عمود الدين.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ القول في اختصاصه من بين سائر المحرمات بالذكر نظير القول في الصلاة فالشرك بالله أكبر الكبائر الموبقة، وقد قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء / ٤٨)، الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ «من» للتبيين و «من الذين فرقوا دينهم» الخ: بيان للمشركين وفيه تعريفهم بأخص صفاتهم في دينهم وهو تفرقهم في دينهم وعودهم شيعة شيعة وحزباً حزباً يفرح ويسرّ كل شيعة وحزب بما عندهم من الدين والسبب في ذلك ما ذكره قبيل هذا بقوله: ﴿بل

---

١. الروم ٢٧ ـ ٣٩: بحث حول قوله تعالى: «فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها»: الفطرة.

اتبع الذين ظلموا أهواءهم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾ فبين أنهم بنوا دينهم على أساس الأهواء وأنه لا يهديهم ولا هادي غيره.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ التعبير بالمس للدلالة على القلة والخفة وتنكير ضر ورحمة أيضاً لذلك والمعنى: إذا أصاب الناس شيء من الضر ولو قليلاً كمرض ما وفقر ما وشدة ما دعوا ربهم وهو الله سبحانه حال كونهم راجعين من غيره ثم إذا أذاقهم الله من عنده رحمة إذا فريق من هؤلاء الناس بربهم الذي كانوا يدعونه ويعترفون بربوبيته يشركون باتخاذ الأنداد والشركاء.

أي إنهم كافرون للنعمة طبعاً وإن اعترفوا بها عند الضرّ وقد أخذ لذلك فريقاً منهم لأن منهم من ليس كذلك.

قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد لاولئك المشركين عند إذاقة الرحمة واللام في «ليكفروا» للأمر الغائب وقوله: «فتمتعوا» متفرع على سابقه وهو أمر آخر والأمران جميعاً للتهديد، والإلتفات من الأمر الغائب الى الأمر الحاضر لثوران الوجد والسخط من تفريطهم في جنب الله واستهانتهم بأمره فقد بلغ منهم ذلك أن يتضرعوا عند الضر ويكفروا إذا كشف.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ «أم» منقطعة والمراد بالإنزال الإعلام أو التعليم مجازاً، والسلطان البرهان، والمراد بالتكلم الدلالة مجازاً فالمعنى: بل أعلمناهم برهاناً فهو يدل على ما كانوا به يشركون أو بشركهم.

ويمكن أن يراد بالسلطان ذو السلطان وهو الملك فلا مجاز في الإنزال والتكلم والمعنى: بل أأنزلنا عليهم ملكاً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون أو بشركهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ الإذاقة كالمس تدل على قليل النيل ويسيره، والقنوط اليأس.

وإذا الاولى شرطية والثانية فجائية، والمقابلة بين «إذا» في إذاقة الرحمة و«إن» في إصابة السيئة لأن الرحمة كثيرة قطعية والسيئة قليلة احتمالية، ونسبة الرحمة اليه تعالى دون السيئة لأن الرحمة وجودية مفاضة منه تعالى والسيئة عدمية هي عدم الإفاضة ولذا عللها بقوله: «بما قدمت أيديهم»، وفي تعليل السيئة بذلك وعدم التعليل في جانب الرحمة بشيء إشارة الى أن الرحمة تفضل.

والتعبير في الرحمة بقوله: «فرحوا» وفي السيئة بقوله: «إذا هم يقنطون» للدلالة على حدوث القنوط ولم يكن بمترقب فإن الرحمة والسيئة بيد الله والرحمة واسعة ولهذا عبر بالمضارع الدال على الحال لتمثيل حالهم.

والمراد بالآية أن الناس لا يعدو نظرهم ظاهر ما يشاهدونه من النعمة والنقمة إذا وجدوا فرحوا بها من غير أن يتبصروا ويعقلوا أن الأمر بيد غيرهم وبمشية من ربهم إذا لم يشأ لم يكن، وإذا فقدوا قنطوا كأن ليس ذلك بإذن من ربهم وإذا لم يشأ لم يأذن وفتح باب النعمة فهم ظاهريون سطحيون.

وبهذا يتضح أن لا تدافع بين هذه الآية وبين قوله السابق: ﴿ وإذا مس الناس ضرٌ دعوا ربهم منيبين اليه ﴾ الآية؛ وذلك أن مدلول هذه الآية أن أفهامهم سطحية إذا وجدوا فرحوا وإذا فقدوا قنطوا ومدلول تلك أنهم إذا وجدوا فرحوا وإذا فقدوا دعوا الله وهم قانطون من الشيء وأسبابه منيبين راجعين الى الله سبحانه فلا تدافع.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بيان لخطئهم في المبادرة الى الفرح والقنوط عند إذاقة الرحمة وإصابة السيئة فإن الرزق في سعته وضيقه تابع لمشية الله فعلى الانسان أن يعلم أن الرحمة التي

ذاقها والسيئة التي أصابته ممكنة الزوال بمشية الله سبحانه ولا موجب للفرح بما لا يؤمن فقده ولا للقنوط مما يرجى زواله.

وأما أنه أمر ظاهر للانسان مقطوع به كأنه يراه فلأن الرزق الذي يناله الانسان أو يكتسبه متوقف الوجود على أُلوف وأُلوف من الأسباب والشرائط ليس الانسان الذي يراه لنفسه إلّا أحد تلك الأسباب ولا السبب الذي يركن اليه ويطيب به نفساً إلّا بعض تلك الأسباب وعامة الأسباب منتهية اليه سبحانه فهو الذي يعطي ويمنع وهو الذي يبسط ويقدر أي يوسّع ويضيّق، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾الخ: ذو القربى صاحب القرابة من الأرحام والمسكين أسوأ حالاً من الفقير وابن السبيل المسافر ذو الحاجة، وإضافة الحق الى الضمير تدل على أن لذي القربى حقاً ثابتاً، والخطاب للنبي ﷺ، فظاهر الآية بما تحتف به من القرائن أن المراد بها الخمس والتكليف للنبي ﷺ ويتبعه غيره ممن كلف بالخمس، والقرابة على أي حال قرابة النبي ﷺ كما في آية الخمس، هذا كله على تقدير كون الآية مدنية وأما على تقدير كونها مكية كسائر آيات السورة فالمراد مطلق الإحسان للقرابة والمسكين وابن السبيل.

ولعموم الآية معنى عمم ذكره أثره الجميل فقال: «ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأُولئك هم المفلحون».

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُوا عِنْدَ ٱللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾الربا نماء المال، وقوله: «ليربوا» الخ: يشير الى وجه التسمية، فالمراد أن المال الذي تؤتونه الناس ليزيد في أموالهم لا إرادة لوجه الله ـ بقرينة ذكر إرادة الوجه في مقابله ـ فليس يزيد وينمو عند الله أي لا تثابون عليه لعدم قصد الوجه.

وقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ المراد بالزكاة مطلق الصدقة أي إعطاء المال لوجه الله من غير تبذير. والمضعف ذو الضعف. والمعنى: وما أعطيتم من المال صدقة تريدون وجه الله فاولئك هم الذين يضاعف لهم مالهم أو ثوابهم.

فالمراد بالربا والزكاة بقرينة المقابلة وما احتف بهما من الشواهد، الربا الحلال وهو العطية من غير قربة، والصدقة وهي إعطاء المال مع قصد القربة. هذا كله على تقدير كون الآية مكية وأما على تقدير كونها مدنية فالمراد بالربا الربا المحرم وبالزكاة هي الزكاة المفروضة.

وهذه الآية والتي قبلها أشبه بالمدنيات منها بالمكيات ولا اعتبار بما يدعى من الرواية أو الإجماع المنقول[1][2].

٤٠ ❁ أَللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

٤١ ❁ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

٤٢ ❁ قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ.

---

١. الروم ٢٧ ـ ٣٩: بحث روائي في: التوحيد: الدين الفطري؛ فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ علة بكاء الاطفال؛ ذي القربى: فدك؛ حكمة بعض العبادات.

٢. الروم ٢٧ ـ ٣٩: كلام في معنى كون الدين فطرياً في فصول.

٤٣ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللّٰهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ.

٤٤ ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ.

٤٥ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لاٰ يُحِبُّ ٱلْكٰافِرِينَ.

٤٦ ﴿ وَمِنْ آيٰاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيٰاحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

٤٧ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلىٰ قَوْمِهِمْ فَجٰاؤُهُمْ بِٱلْبَيِّنٰاتِ فَانْتَقَمْنٰا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكٰانَ حَقّاً عَلَيْنٰا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَللّٰهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكٰائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الخ: اسم الجلالة مبتدأ و «الذي خلقكم» خبره، وكذا قوله: «من يفعل» الخ: مبتدأ خبره «من شركائكم» المقدم عليه والاستفهام إنكاري وقد ذكر في تركيب الآية احتمالات أُخر.

والمعنى: أن الله سبحانه هو الذي اتصف بكذا وكذا وصفا من أوصاف الالوهية والربوبية فهل من الآلهة الذين تدعون أنهم آلهة من يفعل شيئاً من ذلكم يعني من الخلق والرزق والإماتة والإحياء، وإذ ليس منهم من يفعل شيئاً من ذلكم فالله سبحانه هو إلهكم وربكم لا إله إلّا هو.

قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسٰادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِي النّٰاسِ لِيُذِيقَهُمْ

بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الآية؛ بظاهر لفظها عامة لا تختص بزمان دون زمان أو بمكان أو بواقعة خاصة. فالمراد بالبرّ والبحر معناهما المعروف ويستوعبان سطح الكرة الأرضية.

والمراد بالفساد الظاهر المصائب والبلايا الظاهرة فيهما الشاملة لمنطقة من مناطق الأرض من الزلازل وقطع الأمطار والسنين والأمراض السارية والحروب والغارات وارتفاع الأمن وبالجملة كل ما يفسد النظام الصالح الجاري في العالم الأرضي سواء كان مستنداً الى اختيار بعض الناس أو غير مستند اليه. فكل ذلك فساد ظاهر في البر أو البحر مخل بطيب العيش الانساني.

وقوله: ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ أي بسبب أعمالهم التي يعملونها من شرك أو معصية وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ الآية (الأعراف / ٩٦)؛ وأيضاً في مباحث النبوة من الجزء الثاني من الكتاب أن بين أعمال الناس والحوادث الكونية رابطة مستقيمة يتأثر إحداهما من صلاح الاخرى وفسادها.

وقوله: ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ اللام للغاية. أي ظهر ما ظهر لأجل أن يذيقهم الله وبال بعض أعمالهم السيئة بل ليذيقهم نفس ما عملوا وقد ظهر في صورة الوبال وإنما كان بعض ما عملوا لأن الله سبحانه برحمته يعفو عن بعض كما قال: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (الشورى / ٣٠).

والآية ناظرة الى الوبال الدنيوي وإذاقة بعضه لأكله من غير نظر الى وبال الأعمال الاخروي فما قيل: إن المراد إذاقة الوبال الدنيوي وتأخير الوبال الاخروي الى يوم القيامة لا دليل عليه ولعله جعل تقدير الكلام «ليذيقهم بعض جزاء ما عملوا» مع أن التقدير «ليذيقهم جزاء بعض ما عملوا»، لأن الذي يحوجنا الى تقدير المضاف - لو أحوجنا - هو أن الراجع

اليهم ثانياً في صورة الفساد هو جزاء اعمالهم لا نفس أعمالهم فالذي أُذيقوا هو جزاء بعض ما عملوا لا بعض جزاء ما عملوا.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي يذيقهم ما يذيقهم رجاء أن يرجعوا من شركهم ومعاصيهم الى التوحيد والطاعة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أمر للنبي ﷺ أن يأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا الى آثار الذين كانوا من قبل حيث خربت ديارهم وعفت آثارهم وبادوا عن آخرهم وانقطع دابرهم بأنواع من النوائب والبلايا كان أكثرهم مشركين فأذاقهم الله بعض ما عملوا ليعتبر به المعتبرون فيرجعوا الى التوحيد، فالآية في مقام الاستشهاد لمضمون الآية السابقة.

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللّٰهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ تفريع على ما تقدمه أي إذا كان الشرك والكفر بالحق بهذه المثابة وله وبال سيلحق بالمتلبس به فأقم وجهك للدين القيّم.

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاٰ مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللّٰهِ﴾ متعلق بقوله: «فأقم» والمردّ مصدر ميمي بمعنى الرد وهو بمعنى الراد واليوم الذي لا مردَّ له من الله يوم القيامة.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أصله يتصدعون، والتصدع في الأصل تفرُّق أجزاء الأواني ثم استعمل في مطلق التفرق كما قيل، والمراد به ـ كما قيل ـ تفرُّقهم يومئذٍ الى الجنة والنار.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ الظاهر أنه تفسير لقوله في الآية السابقة: «يتفرقون» وقوله: «من كفر فعليه كفره» أي وبال كفره بتقدير المضاف أو نفس كفره الذي سينقلب عليه ناراً يخلد فيها وهذا أحد الفريقين.

وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ مهد الفراش بسطه وإيطاؤه،

وهؤلاء الفريق الآخر الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وقد جيء بالجزاء «فلأنفسهم يمهدون» جمعاً نظراً الى المعنى، كما أنه جيء به مفرداً في الشرطية السابقة «فعليه كفره» نظراً الى اللفظ، واكتفي في الشرط بذكر العمل الصالح ولم يذكر الايمان معه لأن العمل إنما يصلح بالايمان على أنه مذكور في الآية التالية.

والمعنى: والذين عملوا عملاً صالحا ـ بعد الايمان ـ فلأنفسهم يوطؤن ما يعيشون به ويستقرّون عليه.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ قال الراغب: الجزاء الغناء والكفاية، قال الله تعالى: ﴿لا تجزى نفس عن نفس شيئاً﴾، وقال: ﴿لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً﴾ والجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ، يقال: جزيته كذا وبكذا. انتهى.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ اللام للغاية ولا ينافي عدّ ما يؤتيهم جزاء ـ وفيه معنى المقابلة ـ عدّه من فضله وفيه معنى عدم الاستحقاق وذلك لأنهم بأعيانهم وما يصدر عنهم من أعمالهم ملك طلق لله سبحانه فلا يملكون لأنفسهم شيئاً حتى يستحقوا به أجراً، وأين العبودية من الملك والاستحقاق فما يؤتونه من الجزاء فضل من غير استحقاق.

لكنه سبحانه بفضله ورحمته اعتبر لهم ملكاً لأعمالهم في عين أنه يملكهم ويملك أعمالهم فجعل لهم بذلك حقاً يستحقونه، وجعل ما ينالونه من الجنة والزلفى أجراً مقابلاً لأعمالهم وهذا الحق المجعول أيضاً فضل آخر منه سبحانه.

ومنشأ ذلك حبه تعالى لهم لأنهم لما أحبّوا ربهم أقاموا وجوههم للدين القيّم واتّبعوا الرسول فيما دعا اليه فأحبّهم الله كما قال: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾

(آل عمران / ٣١).

ولذا كانت الآية تعد ما يؤتيهم الله من الثواب جزاء وفيه معنى المقابلة والمبادلة وتعدّ ذلك من فضله نظراً الى أن نفس هذه المقابلة والمبادلة فضل منه سبحانه ومنشأه حبه تعالى لهم كما يؤمي اليه تذييل الآية بقوله: «إنه لا يحب الكافرين».

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، المراد بكون الرياح مبشرات تبشيرها بالمطر حيث تهب قبيل نزوله.

وقوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ عطف على موضع مبشرات لما فيه من معنى التعليل والتقدير يرسل الرياح لتبشركم وليذيقكم من رحمته والمراد بإذاقة الرحمة إصابة أنواع النعم المترتبة على جريان الرياح كتلقيح الأشجار ودفع العفونات وتصفية الأجواء وغير ذلك مما يشمله إطلاق الجملة.

وقوله: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ أي لجريان الرياح وهبوبها. وقوله: «ولتبتغوا من فضله» أي لتطلبوا من رزقه الذي هو من فضله.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ غاية معنوية كما أن الغايات المذكورة من قبل غايات صورية. والشكر هو استعمال النعمة بنحو ينبيء عن إنعام منعمه أو الثناء اللفظي عليه بذكر إنعامه، وينطبق بالأخرة على عبادته ولذلك جيء بلعلّ المفيدة للرجاء فإن الغايات المعنوية الاعتبارية ربما تخلفت.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الراغب: أصل الجرم ـ بالفتح فالسكون ـ قطع الثمرة عن الشجر ـ الى أن قال ـ وأجرم صار ذا جرم نحو أثمر وأتمر وألبن واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه، ولا يكاد يقال في عامة كلامهم للكيس

المحمود انتهى.

والآية كالمعترضة وكأنها مسوقة لبيان أن للمؤمنين حقاً على ربهم وهو نصرهم في الدنيا والآخرة ومنه الانتقام من المجرمين. وهذا الحق مجعول من قبله تعالى لهم على نفسه فلا يرد عليه محذور لزوم كونه تعالى مغلوباً في نفسه مقهوراً محكوماً لغيره.

وقوله: ﴿فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ الفاء فصيحة أي فآمن بعضهم وأجرم آخرون فانتقمنا من المجرمين وكان حقاً علينا نصر المؤمنين بإنجائهم من العذاب وإهلاك مخالفيهم. وفي الآية بعض الاشعار بأن الانتقام من المجرمين لأجل المؤمنين فإنه من النصر.

٤٨ ❁ أَللّٰهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيٰاحَ فَتُثِيرُ سَحٰاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمٰاءِ كَيْفَ يَشٰاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاٰلِهِ فَإِذٰا أَصٰابَ بِهِ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ إِذٰا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ.

٤٩ ❁ وَإِنْ كٰانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ.

٥٠ ❁ فَانْظُرْ إِلىٰ آثٰارِ رَحْمَةِ اللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتىٰ وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٥١ ❁ وَلَئِنْ أَرْسَلْنٰا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ.

٥٢ ❁ فَإِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ الْمَوْتىٰ وَلاٰ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعٰاءَ إِذٰا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ.

٥٣ ❁ وَمٰا أَنْتَ بِهٰادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلاٰلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاّٰ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيٰاتِنٰا فَهُمْ مُسْلِمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ الى آخر الآية: الإثارة التحريك والنشر والسحاب الغمام والسماء جهة العلو فكل ما علاك وأظلّك فهو سماء والكسف بالكسر فالفتح جمع كسفة وهي القطعة والودق القطر من المطر والخلال جمع خلة وهي الفرجة.

والمعنى: الله الذي يرسل الرياح فتحرك وتنشر سحاباً ويبسط ذلك السحاب في جهة العلو من الجو كيف يشاء سبحانه ويجعله قطعات متراكبة متراكمة فترى قطر المطر يخرج من فرجه فإذا أصاب بذلك المطر من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون لأنه مادة حياتهم وحياة الحيوان والنبات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ الإبلاس: اليأس والقنوط.

وضمير «ينزل» للمطر وكذا ضمير «من قبله» على ما قيل، وعليه يكون «من قبله» تأكيداً لقوله: «من قبل أن ينزل عليهم» وفائدة التأكيد ـ على ما قيل ـ الإعلام بسرعة تقلّب قلوب البشر من اليأس الى الاستبشار، وذلك أن قوله: «من قبل أن ينزل عليهم» يحتمل الفسحة في الزمان فجاء «من قبله» للدلالة على الاتصال ودفع ذلك الاحتمال.

قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الآثار جمع الأثر وهو ما يبقى بعد الشيء فيدلّ عليه كأثر القدم وأثر البناء واستعير لكل ما يتفرع على شيء، والمراد برحمة الله المطر النازل من السحاب الذي بسطته الرياح، وآثارها ما يترتب على نزول المطر من النبات والأشجار والأثمار وهي بعينها آثار حياة الأرض بعد موتها.

ولذا قال: «فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها» فجعل آثار الرحمة التي هي المطر كيفية إحياء الأرض بعد موتها. فحياة الأرض بعد موتها من آثار الرحمة والنبات والأشجار والأثمار من آثار حياتها وهي أيضاً من آثار الرحمة والتدبير تدبير إلهي يتفرع على خلقة الرياح والسحاب والمطر.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الإشارة بذلك اليه تعالى بما له من الرحمة التي من آثارها إحياء الأرض بعد موتها، وفي الإشارة البعيدة تعظيم، والمراد بالموتى موتى الإنسان أو الإنسان وغيره من ذوي الحياة.

والمراد بقوله: «إن ذلك لمحيي الموتى» الدلالة على المماثلة بين إحياء الأرض الميتة وإحياء الموتى إذ في كل منهما موت هو سقوط آثار الحياة من شيء محفوظ وحياة هي تجدد تلك الآثار بعد سقوطها، وقد تحقق الإحياء في الأرض والنبات وحياة الإنسان وغيره من ذوي الحياة مثلها وحكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد، فإذا جاز الإحياء في بعض هذه الأمثال وهو الأرض والنبات فليجز في البعض الآخر.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقرير للإحياء المذكور ببيان آخر وهو عموم القدرة فإن القدرة غير محدودة ولا متناهية فيشمل الإحياء بعد الموت وإلّا لزم تقيّدها وقد فرضت مطلقة غير محدودة.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ ضمير «فرأوه» للنبات المفهوم من السياق، وقوله: «لظلّوا» جواب للقسم قائم مقام الجزاء، والمعنى: وأُقسم لئن أرسلنا ريحاً باردة فضربت زروعهم وأشجارهم بالصفار ورأوه لظلوا بعده كافرين بنعمه.

ففي الآية توبيخهم بالتقلب السريع في النعمة والنقمة، فإذا لاحت لهم النعمة بادروا الى الاستبشار، وإذا أُخذ بعض ما أنعم الله به من فضله لم يلبثوا دون أن يكفروا بالمسلّمات من

النعم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لاٰ تُسْمِعُ ٱلْمَوْتىٰ -الى قوله- مُسْلِمُونَ﴾ تعليل لما يفهم من السياق السابق كأنه قيل: لا تشتغل ولا تحزن بهؤلاء الذين تتبدل بهم الأحوال من إبلاس واستبشار وكفر ومن عدم الإيمان بآياتنا وعدم تعقّلها فإنهم موتى وصمّ وعمي وأنت لا تقدر على إسماعهم وهدايتهم وإنما تُسمع وتهدي من يؤمن بآياتنا أي يعقل هذه الحجج ويصدّقها فهم مسلمون. وقد تقدم تفسير الآيتين في سورة النمل.

٥٤ • أَللّٰهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ.

٥٥ • وَيَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مٰا لَبِثُوا غَيْرَ سٰاعَةٍ كَذٰلِكَ كٰانُوا يُؤْفَكُونَ.

٥٦ • وَقٰالَ الَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتٰابِ ٱللّٰهِ إِلىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهٰذٰا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ.

٥٧ • فَيَوْمَئِذٍ لاٰ يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ.

٥٨ • وَلَقَدْ ضَرَبْنٰا لِلنّٰاسِ فِي هٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ مُبْطِلُونَ.

٥٩ • كَذٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ.

٦٠ • فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ وَلاٰ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاٰ يُوقِنُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً﴾ الخ: الضعف والقوة متقابلان، و«من» في قوله: من ضعف للإبتداء أي ابتداء خلقكم من ضعف أي ابتدأكم ضعفاء، ومصداقة على ما تفيده المقابلة أول الطفولية وإن أمكن صدقه على النطفة.

والمراد بالقوة بعد الضعف بلوغ الأشدّ وبالضعف بعد القوة الشيخوخة ولذا عطف عليه «شيبة» عطف تفسير، وتنكير «ضعف» و«قوة» للدلالة على الإبهام وعدم تعين المقدار لاختلاف الأفراد في ذلك.

وقوله: ﴿يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ﴾ أي كما شاء الضعف فخلقه ثم القوة بعده فخلقها ثم الضعف بعدها فخلقه وفي ذلك أتمّ الإشارة الى أن تتالي هذه الأحوال من الخلق وإذ كان هذا النقل من حال الى حال في عين أنه تدبير خلقاً فهو لله الخالق للأشياء فليس لقائل منهم أن يقول: إن ذلك من التدبير الراجع الى إله الإنسان، مثلاً كما يقوله الوثنية.

ثم تمم الكلام بالعلم والقدرة فقال: «وهو العليم القدير».

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مٰا لَبِثُوا غَيْرَ سٰاعَةٍ كَذٰلِكَ كٰانُوا يُؤْفَكُونَ﴾، هذه الآيات كالذنابة للآيات السابقة العادة للآيات والحجج على وحدانيته تعالى والبعث، وكالتمهيد والتوطئة للآية التي تختتم بها السورة فإنه لما عدّ شيئاً من الآيات والحجج وأشار الى أنهم ليسوا ممن يترقب منهم الإيمان أو يطمع في إيمانهم أراد أن يبين أنهم في جهل من الحق يتلقون الحديث الحق باطلاً والآيات الصريحة الدلالة منعزلة عن دلالتها وكذلك يؤفكون ولا عذر لهم يعتذرون به.

وهذا الإفك والتقلب من الحق الى الباطل يدوم عليهم ويلازمهم حتى قيام الساعة

فيظنون أنهم لم يلبثوا في قبورهم فيما بين الموت والبعث غير ساعة من نهار فاشتبه عليهم أمر البعث كما اشتبه عليهم كل حق فظنوه باطلاً.

فقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾، يحكي عنهم اشتباه الأمر عليهم في أمر الفصل بين الدنيا ويوم البعث حتى ظنّوه ساعة من ساعات الدنيا.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي يصرفون من الحق الى الباطل فيدعون الى الحق ويقام عليه الحجج والآيات فيظنونه باطلاً من القول وخرافة من الرأي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ ٱللَّـهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾الخ؛ ردّ منهم لقوم المجرمين «ما لبثوا غير ساعة» فإن المجرمين لإخلادهم الى الأرض وتوغلهم في نشأة الدنيا يرون يوم البعث والفصل بينه وبين الدنيا محكوماً بنظام الدنيا فقدروا الفصل بساعة وهو مقدار قليل من الزمان كأنهم ظنوا أنهم بعد في الدنيا لأنه مبلغ علمهم.

فرد عليهم أهل العلم والإيمان أن اللبث مقدر بالفصل بين الدنيا ويوم البعث وهو الفصل الذي يشير اليه قوله: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ (المؤمنون / ١٠٠).

فاستنتجوا منه أن اليوم يوم البعث ولكن المجرمين لما كانوا في ريب من البعث ولم يكن لهم يقين بغير الدنيا ظنوا أنهم لم يمر بهم إلاّ ساعة من ساعات الدنيا وهذا معنى قولهم: «لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون»، أي كنتم جاهلين مرتابين لا يقين لكم بهذا اليوم ولذلك اشتبه عليكم أمر اللبث.

ومن هنا يظهر أن المراد بقوله: «أُوتوا العلم والإيمان»، اليقين والالتزام بمقتضاه وأن العلم بمعنى اليقين بالله وبآياته والإيمان بمعنى الإلتزام بمقتضى اليقين من الموهبة الإلهية، ومن هنا

يظهر أيضاً أن المراد بكتاب الله الكتب[١] السماوية أو خصوص القرآن لا غيره وقول بعضهم: إن في الآية تقديماً وتأخيراً والتقدير وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان في كتاب الله لقد لبثتم الى يوم البعث لا يعتد به.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ الاستعتاب طلب العتبى، والعتبى إزالة العتاب أي لا ينفعهم المعذرة عن ظلمهم ولا يطلب منهم أن يزيلوا العتاب عن أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾الخ: إشارة الى كونهم مأفوكين مصروفين عن الحق حيث لا ينفعهم مثل يقرب الحق من قلوبهم لأنها مطبوع عليها، ولذا عقبه بقوله: «ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلّا مبطلون» أي جاؤن بالباطل وهذا القول منهم لأنهم مصروفون عن الحق يرون كل حق باطلاً، ووضع الموصول والصلة موضع الضمير للدلالة على سبب القول.

قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي يجهلون بالله وآياته ومنها البعث وهم يصرون على جهلهم وارتيابهم.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾، أي فاصبر على ما يواجهونك به من قولهم: «إن أنتم إلّا مبطلون» وسائر تهكماتهم، إن وعد الله أنه ينصرك حق كما أومأ اليه بقوله: «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين»، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون بوعد الله سبحانه.

---

١. ويمكن أن يكون المراد بكتاب الله اللروح المحفوظ فيكون ذلك استدلالاً على قولهم بكتاب الله ويكون نظير ما في قوله: «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق» (الجاثية / ٢٩) بناء على ما سيأتي من معناه «منه».

سورة لقمان مكية وهي أربع وثلاثون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● الٓمٓ.

٢ ● تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ.

٣ ● هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ.

٤ ● ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكوٰةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ.

٥ ● أُولٰئِكَ عَلىٰ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ.

٦ ● وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ.

٧ ● وَإِذَا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي
أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

٨ ● إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ.

٩ • خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ.

١٠ • خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ.

١١ • هٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

بيان:

غرض السورة كما يومي اليه فاتحتها وخاتمتها ويشير اليه سياق عامة آياتهـا الدعوة الى التوحيد والإيقان بالمعاد والأخذ بكليات شرائع الدين.

ويلوح من صدر السورة أنها نزلت في بعض المشركين حيث كان يصدّ الناس عن استماع القرآن بنشر بعض أحاديث مزوّقة ملهية كما ورد فيه الأثر في سبب نزول قوله: «ومن الناس من يشتري لهو الحـديث ليضلّ عن سبيل الله» الآية؛ وسيوافي حديثه. فنزلت السورة تبيّن أُصول عقائد الدين وكليات شرائعه الحقة وقصّت شيئاً من خبر لقمان الحكيم ومواعظه تجاه أحاديثهم الملهية.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها. ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى: «ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل» الآية.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ـ الى قوله ـ يُوقِنُونَ﴾ تقدم تفسير مفردات هذه الآيات في السور السابقة.

وقد وصف الكتاب بالحكيم إشعاراً بأنه ليس من لهو الحديث من شيء بل كتاب لا انثلام

فيه ليداخله لهو الحديث وباطل القول، ووصفه أيضاً بأنه هدى ورحمة للمحسنين تتميماً لصفة حكمته فهو يهدي الى الواقع الحق ويوصل اليه لا كاللهو الشاغل للانسان عما يهمه، وهو رحمة لا نقمة صارفة عن النعمة.

ووصف المحسنين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللتين هما العمدتان في الأعمال وبالايقان بالآخرة ويستلزم التوحيد والرسالة وعامة التقوى، كل ذلك مقابلة الكتاب للهو الحديث المصغي اليه لمن يستمع لهو الحديث.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً﴾ الخ: اللهو ما يشغلك عما يهمّك، ولهو الحديث: الحديث الذي يلهي عن الحق بنفسه كالحكايات الخرافية والقصص الداعية الى الفساد والفجور، أو بما يقارنه كالتغني بالشعر أو بالملاهي والمزامير والمعازف فكل ذلك يشمله لهو الحديد.

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مقتضى السياق أن يكون المراد بسبيل الله القرآن الكريم بما فيه من المعارف الحقة الاعتقادية والعملية وخاصة قصص الأنبياء وأممهم الخالية فإن لهو الحديث والأساطير المزوّقة المختلقة تعارض أولاً هذه القصص ثم تهدم بنيان سائر المعارف الحقة وتوهنها في أنظار الناس.

ويؤيد ذلك قوله بعد: «ويتخذها هزواً» فإن لهو الحديث بما أنه حديث كما سمعت يعارض أولاً الحديث ويتخذه سخرياً.

فالمراد بسبيل الله القرآن بما فيه من القصص والمعارف وكأن مراد من كان يشتري لهو الحديث أن يضلّ الناس بصرفهم عن القرآن وأن يتخذ القرآن هزواً بأنه حديث مثله وأساطير كأساطيره.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بيضلّ وهو في الحقيقة وصف ضلال الضالين دون إضلال المضلين وإن كانوا أيضاً لا علم لهم ثم هددهم بقوله: «أُولئك لهم عذاب مهين» أي مذل

يوهنهم ويذلهم حذاء استكبارهم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ الخ: وصف لذاك الذي يشتري لهو الحديث ليضل الناس عن القرآن ويهزء به والوقر الحمل الثقيل والمراد بكون الوقر على أُذنيه أن يشدّ عليها ما يمنع من السمع وقيل: هو كناية عن الصمم.

والمعنى: وإذا تتلى على هذا المشتري لهو الحديث آياتنا أي القرآن ولى وأعرض عنها وهو مستكبر كأن لم يسمعها قط كأنه أصم فبشره بعذاب أليم.

وقد اعيد الى من يشتري ضمير الأفراد أولاً كما في «يشتري» و«ليضل» و«يتخذها» باعتبار اللفظ وضمير الجمع، ثانياً باعتبار المعنى ثم ضمير الإفراد باعتبار اللفظ كما في «عليه» وغيره كذا قيل، ومن الممكن أن يكون ضمير «لهم» في الآية السابقة راجعاً الى مجموع المضل والضالين المدلول عليهم بالسياق فتكون الضمائر الراجعة الى «من» مفردة جميعاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ - الى قوله - ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ رجوع بعد إنذار ذاك المشتري وتهديده بالعذاب المهين ثم العذاب الأليم الى تبشير المحسنين وتطييب أنفسهم بجنة النعيم الخالدة الموعودة من قبله تعالى ووعده الحق.

ولما كان غرض من اشترى لهو الحديث أن يلتبس الأمر على من يضله بغير علم فيحسب القرآن من الأساطير الباطلة كأساطيره ويهين به وكان لا يعتني بما تتلى عليه من الآيات مستكبراً وذلك استهانة بالله سبحانه أكد أولاً ما وعده للمحسنين بقوله: «وعد الله حقاً» ثم وصف ثانياً نفسه بالعزة المطلقة، فلا يطرأ عليه ذلة وإهانة والحكمة المطلقة فلا يداخل كلامه باطل ولا هزل وخرافة.

ثم وصفه ثالثاً بأنه الذي يدبر أمر السماء والأرض والنبات والحيوان والإنسان لأنه خالقها فله أن يعد هؤلاء بالجنة اولئك بالعذاب وهو قوله: «خلق السماوات بغير عمد ترونها» الخ.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا﴾ الخ؛ تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها﴾ (الرعد / ٢). أن قوله: «ترونها» يحتمل أن يكون قيداً توضيحياً. والمعنى أنكم ترونها ولا أعمدة لها. وأن يكون قيداً احترازياً والمعنى خلقها بغير أعمدة مرئية إشعاراً بأن هناك أعمدة غير مرئية.

وقوله: ﴿وَأَلْقىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوٰاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾، أي ألقى فيها جبالاً شامخة لئلا تضطرب بكم وفيه إشعار بأن بين الجبال والزلازل رابطة مستقيمة.

وقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهٰا مِنْ كُلِّ دٰابَّةٍ﴾ أي نشر في الأرض من كل حيوان يدب عليها.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنٰا مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَأَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي وأنزلنا من جهة العلو ماء وهو المطر وأنبتنا فيها شيئاً من كل زوج نباتي شريف فيه منافع وله فوائد. وفيه إشارة الى تزوّج النبات وقد تقدم الكلام فيه في نظيره.

والالتفات فيها من الغيبة الى التكلم مع الغير للإشارة الى كمال العناية بأمره كما قيل.

قوله تعالى: ﴿هٰذٰا خَلْقُ ٱللّٰهِ فَأَرُونِي مٰاذٰا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظّٰالِمُونَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ﴾، لما أراهم خلقه وتدبيره تعالى للسماوات والأرض وما عليها فأثبت به ربوبيته والوهيته تعالى كلفهم أن يروه شيئاً من خلق آلهتهم إن كانوا آلهة وأرباباً فإن لم يقدروا على إراءة شيء ثبت بذلك وحدانيته تعالى في الوهيته وربوبيته.

وإنما كلفهم بإراءة شيء من خلق آلهتهم ـ وهم يعترفون أن الخلق لله وحده ولا يسندون الى آلهتهم خلقاً وإنما ينسبون اليهم التدبير فقط. لأنه نسب الى الله خلقاً هو بعينه تدبير من غير انفكاك. فلو كان لآلهتهم تدبير في العالم كان لهم خلق ما يدبرون أمره وإذ ليس لهم خلق

فليس لهم تدبير فلا إله إلّا الله ولا رب غيره.

وقد سيقت الآية خطاباً من النبي ﷺ لأن نوع هذا الخطاب «فأروني ماذا خلق الذين من دونه» لا يستقيم من غيره ﷺ[١].

١٢ ● وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

١٣ ● وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.

١٤ ● وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ.

١٥ ● وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

١٦ ● يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوَاتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.

١٧ ● يَا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ.

---

١. لقمان ١-١١: بحث روائي في قوله تعالى: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث».

١٨ ● وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ.

١٩ ● وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ الخ: الحكمة على ما يستفاد من موارد استعمالها هي المعرفة العلمية النافعة وهي وسط الاعتدال بين الجهل والجربزة. وقوله: «أن اشكر لي» قيل: هو بتقدير القول أي وقلنا: أن اشكر لي.

والظاهر أنه تفسير إيتائه الحكمة من غير تقدير القول. وذلك أن حقيقة الشكر هي وضع النعم في موضعها الذي ينبغي له بحيث يشير الى إنعام المنعم. وإيقاعه كما هو حقه يتوقف على معرفة المنعم ومعرفة نعمه بما هي نعمه وكيفية وضعها موضعه بحيث يحكي عن إنعامه فإيتاؤه الحكمة بعث له الى الشكر فإيتاء الحكمة أمر بالشكر بالملازمة.

وفي قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ التفات من التكلم مع الغير الى الغيبة وذلك أن التكلم مع الغير من المتكلم إظهار للعظمة بالتكلم عن قبل نفسه وخدمه وقول أن اشكر لنا على هذا لا يناسب التوحيد في الشكر وهو ظاهر.

وقوله: «ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد» استغناء منه تعالى أن نفع الشكر إنما يرجع الى نفس الشاكر والكفر لا يتضرر به إلّا نفسه دونه سبحانه ومن يشكر فإنما يوقع الشكر لنفع نفسه ولا ينتفع به الله سبحانه لغناه المطلق ومن كفر فإنما يتضرر به نفسه إن الله غني لا يؤثر فيه الشكر نفعاً ولا ضرّاً حميد محمود على ما أنعم سواء شكر أو كفر.

وفي التعبير عن الشكر بالمضارع الدالّ على الاستمرار وفي الكفر بالماضي الدال على المرّة إشعار بأن الشكر إنما ينفع مع الاستمرار لكن الكفر يتضرر بالمرّة منه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ عظمة كل عمل بعظمة أثره وعظمة المعصية بعظمة المعصي فإن مؤاخذة العظيم عظيمة فأعظم المعاصي معصية الله لعظمته وكبريائه فوق كل عظمة وكبرياء بأنه الله لا شريك له وأعظم معاصيه معصيته في أنه الله لا شريك له.

وقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ حيث أُطلق عظمته من غير تقييد بقياسه الى سائر المعاصي يدل على أن له من العظمة ما لا يقدّر بقدر.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ الى آخر الآية: اعتراض واقع بين الكلام المنقول عن لقمان وليس من كلام لقمان وإنّما اطّرد ههنا للدلالة على وجوب شكر الوالدين كوجوب الشكر لله بل هو من شكره تعالى لانتهائه الى وصيته وأمره تعالى، فشكرهما عبادة له تعالى وعبادته شكر.

وقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ ذكر بعض ما تحملته أُمه من المحنة والأذى في حمله وتربيته ليكون داعياً له الى شكرهما وخاصة الام.

والوهن الضعف وهو حال بمعنى ذات وهن أو مفعول مطلق والتقدير تهن وهناً على وهن، والفصال الفطم وترك الإرضاع، ومعنى كون الفصال في عامين تحققه بتحقق العامين فيؤل الى كون الإرضاع عامين، وإذا ضمّ الى قوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ (الأحقاف / ١٥)، بقي لأقلّ الحمل ستة أشهر، وستكرر الإشارة اليه فيما سيأتي[١].

وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ تفسير لقوله: «وصينا» الخ: في

---

١. في بحث روائي في ذيل آية الأحقاف.

أول الآية أي كانت وصيتنا هو أمرنا بشكرهما كما أمرناه بشكر الله، وقوله: «إليَّ المصير» إنذار وتأكيد للأمر بالشكر.

والقول في الالتفات الواقع في الآية في قوله: «أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير» الخ؛ من سياق التكلم مع الغير الى سياق التكلم وحده كالقول في الالتفات في قوله السابق: «أن اشكر لله».

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جاهَداكَ عَلىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾ الى آخر الآية؛ أي إن ألحّا عليك بالمجاهدة أن تجعل ما ليس لك علم به أو بحقيقته شريكاً لي فلا تطعهما ولا تشرك بي، والمراد بكون الشريك المفروض لا علم به كونه معدوماً مجهولاً مطلقاً لا يتعلق به علم فيؤول المعنى: لا تشرك بي ما ليس بشيء، هذا محصَّل ما ذكره في الكشاف وربما أيده قوله تعالى: ﴿أتنبئونه بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض﴾ (يونس /١٨).

وقيل «تشرك» بمعنى تكفر و«ما» بمعنى الذي، والمعنى: وإن جاهداك أن تكفر بي كفراً لا حجة لك به فلا تطعمها ويؤيده تكرار نفي السلطان على الشريك في كلامه تعالى كقوله: ﴿ما تعبدون من دونه إلّا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ (يوسف / ٤٠)، الى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ﴾ الجملتان كالتلخيص والتوضيح لما تقدم في الآيتين من الوصية بهما والنهي عن إطاعتهما إن جاهدا على الشرك بالله.

يقول سبحانه: يجب على الإنسان أن يصاحبهما في الامور الدنيوية غير الدين الذي هو سبيل الله صحاباً معروفاً ومعاشرة متعارفة غير منكرة من رعاية حالهما بالرفق واللين من غير جفاء وخشونة وتحمل المشاق التي تلحقه من جهتهما فليست الدنيا إلّا أياما معدودة

متصرمة، وأما الدين فإن كانا ممن أناب الى الله فلتتبع سبيلهما وإلّا فسبيل غيرهما ممن أناب الى الله.

ومن هنا يظهر أن في قوله: «واتبع سبيل من أناب إليّ» إيجازاً لطيفاً فهو يفيد أنهما لو كانا من المنيبين الى الله فلتتبع سبيلهما وإلّا فلا يطاعا ولتتبع سبيل غيرهما ممن أناب الى الله.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي هذا الذي ذكر، تكليفكم في الدنيا ثم ترجعون الى يوم القيامة فاظهر لكم حقيقة أعمالكم التي عملتموها في الدنيا فأقضي بينكم على حسب ما تقتضيه أعمالكم من خير أو شر.

وبما مرَّ يظهر أن قوله: «في الدنيا» يفيد أولاً قصر المصاحبة بالمعروف في الامور الدنيوية دون الدينية، وثانياً: تهوين أمر الصحبة وأنها ليست إلّا في أيام قلائل فلا كثير ضير في تحمل مشاق خدمتهما. وثالثاً المقابلة ليوم الرجوع الى الله المشار اليه بقوله: «ثم إليَّ مرجعكم» الخ.

قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ الخ: ذكروا أن الضمير في «إنها» للخصلة من الخير والشر لدلالة السياق على ذلك وهو أيضاً اسم كان و «مثقال حبة» خبره، والمراد بكونها في صخرة اختفاؤها بالاستقرار في جوف الصخرة الصماء أو في السماوات أو في الأرض، والمراد بالإتيان بها إحضارها للحساب والجزاء.

كان الفصل السابق من كلامه المنقول راجعاً الى التوحيد ونفي الشريك وما في هذه الآية فصل ثان في المعاد وفيه حساب الأعمال، والمعنى: يا بني إن تكن الخصلة التي عملت من خير أو شر أخف الأشياء وأدقها كمثقال حبة من خردل فتكن تلك الخصلة الصغيرة مستقرة في جوف صخرة أو في أي مكان من السماوات والأرض يأت بها الله للحساب والجزاء لأن الله لطيف ينفذ علمه في أعماق الأشياء ويصل الى كل خفي خبير يعلم كنه الموجودات.

قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ الآية؛ وما بعدها من كلامه راجع الى نبذة من الأعمال والأخلاق الفاضلة.

فمن الأعمال الصلاة التي هي عمود الدين ويتلوها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن الأخلاق الصبر على ما يصيب من مصيبة.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ الإشارة الى الصبر والإشارة البعيدة للتعظيم والترفيع وقول بعضهم: إن الإشارة الى جميع ما تقدم من الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر ليس في محله لتكرر عدّ الصبر من عزم الامور في كلامه تعالى كقوله: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الامور﴾ (الشورى / ٤٣)، وقوله: ﴿إن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الامور﴾ (آل عمران / ١٨٦).

والعزم ـ على ما ذكره الراغب ـ عقد القلب على إمضاء الأمر وكون الصبر ـ وهو حبس النفس في الأمر ـ من العزم إنما هو من حيث إن العقد القلبي ما لم ينحل وينفصم ثبت الإنسان على الأمر الذي عقد عليه فالصبر لازم الجد في العقد والمحافظة عليه وهو من قدرة النفس وشهامتها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ قال الراغب: الصعر ميل في العنق والتصعير إمالته عن النظر كبراً قال: «ولا تصعر خدك للناس» وقال: المرح شدة الفرح والتوسع فيه انتهى.

فالمعنى: لا تعرض بوجهك عن الناس تكبراً ولا تمش في الأرض مشية من اشتد فرحه إن الله لا يحب كل من تأخذه الخيلاء ـ وهو التكبر بتخيل الفضيلة ـ ويكثر من الفخر. وقال بعضهم إن معنى «لا تصعر خدك للناس» لا تلو عنقك لهم تذللاً عند الحاجة وفيه أنه لا يلائمه ذيل الآية.

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ القصد في الشيء الاعتدال فيه والغض ـ على ما ذكره الراغب ـ النقصان من الطرف والصوت فغض الصوت النقص والقصر فيه.

والمعنى: وخذ بالاعتدال في مشيك وبالنقص والقصر في صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير لمبالغتها في رفعه[١][٢].

٢٠ ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ.

٢١ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ.

٢٢ ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ.

٢٣ ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ.

٢٤ ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ.

٢٥ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

---

١. لقمان ١٢ ـ ١٩: بحث روائي في عقوق الوالدين؛ حق الله وحق الوالدين للانسان؛ الصلاة.

٢. لقمان ١٢ ـ ١٩: كلام في قصة لقمان ونبذ من حكمه في فصلين.

٢٦ ❁ لِلّٰهِ ما فِي السَّمٰواتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ.

٢٧ ❁ وَلَوْ أَنَّ ما فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

٢٨ ❁ ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ ٱللّٰهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ.

٢٩ ❁ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ ٱللّٰهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

٣٠ ❁ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ٱلْباطِلُ وَأَنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ.

٣١ ❁ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَةِ ٱللّٰهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ.

٣٢ ❁ وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا ٱللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمّا نَجّٰيهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلّا كُلُّ خَتّارٍ كَفُورٍ.

٣٣ ❁ يا أَيُّهَا النّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيٰوةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ ٱلْغَرُورُ.

٣٤ ❁ إِنَّ ٱللّٰهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي ٱلْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ

بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ رجوع الى ما قبل قصة لقمان وهو الدليل على أن الخطاب للمشركين وإن كان ذيل الآية يشعر بعموم الخطاب.

وعليه فصدر الآية من تتمة كلام النبي ﷺ ويتصل بقوله: «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه» ولا التفات في قوله: «ألم تروا».

وعلى تقدير كونه من كلامه تعالى ففي قوله: «ألم تروا» التفات من سياق الغيبة الذي في قوله: «بل الظالمون في ضلال مبين» الى الخطاب، والالتفات في مثل هذه الموارد يكون لاشتداد وجد المتكلم وتأكد غيظه من جهل المخاطبين وتماديهم في غيّهم بحيث لا ينفعهم دلالة ولا ينجح فيهم إشارة فيواجهون بذكر ما هو بمرئى منهم ومسمع لعلهم يتنبهوا عن نومتهم وينتزعوا عن غفلتهم.

وقوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ الإسباغ الإتمام والإيساع أي أتم وأوسع عليكم نعمه، والنعم جمع نعمة وهو في الأصل بناء النوع وغلب عليه استعماله في ما يلائم الإنسان فيستلذّ منه، والمراد بالنعم الظاهرة والباطنة بناء على كون الخطاب للمشركين النعم الظاهرة للحس كالسمع والبصر وسائر الجوارح والصحة والعافية والطيبات من الرزق والنعم الغائبة عن الحس كالشعور والإرادة والعقل.

وبناء على عموم الخطاب لجميع الناس الظاهرة من النعم هي ما ظهر للحس كما تقدم وكالدين الذي به ينتظم أُمور دنياهم وآخرتهم والباطنة منها كما تقدم وكالمقامات المعنوية التي تنال بإخلاص العمل.

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ رجوع الخطاب الى النبي ﷺ على ما كان في السياق السابق. والمجادلة المخاصمة النظرية بطريق المغالبة. والمقابلة بين العلم والهدى والكتاب تلوّح بأن المراد بالعلم ما هو مكتسب من حجة عقلية، وبالهدى ما يفيضه الله بالوحي أو الإلهام. وبالكتاب الكتاب السماوي المنتهى اليه تعالى بالوحي النبوي ولذلك وصفه بالمنير فهذه طرق ثلاث من العلم لا رابع لها.

فمعنى قوله: يجادل في الله بغير كذا وكذا أنه يجادل في وحدانيته تعالى في الربوبية والالوهية بغير حجة يصح الركون اليها بل عن تقليد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ الخ: ضمائر الجمع راجعة الى «من» باعتبار المعنى كما أن ضمير الإفراد في الآية السابقة راجع اليه باعتبار اللفظ.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ في التعبير بما أنزل الله من غير أن يقال: اتبعوا الكتاب أو القرآن إشارة الى كون الدعوة دعوة ذات حجة لا تحكم فيها لأن نزول الكتاب مؤيد بحجة النبوة فكأنه قيل: وإذا دعوا الى دين التوحيد الذي يدل عليه الكتاب المقطوع بنزوله من عند الله سبحانه. وبعبارة أُخرى إذا أُلقي اليهم القول مع الحجة قابلوه بالتحكم من غير حجة فقالوا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا.

وقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي أيتبعون آباءهم ولو كان الشيطان يدعوهم بهذا الاتباع الى عذاب السعير؟ فالاستفهام للإنكار ولو وصلية معطوفة على محذوف مثلها والتقدير أيتبعونهم لو لم يدعهم الشيطان ولو دعاهم.

ومحصل الكلام: أن الاتباع إنما يحسن إذا كانوا على الحق وأما لو كانوا على الباطل وكان اتباعاً يدعوهم به الى الشقاء وعذاب السعير وهو كذلك فإنه اتباع في عبادة غير الله ولا

معبود غيره.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ استئناف ويحتمل أن يكون حالاً من مفعول «يدعوهم» وفي معنى الجملة الحالية ضمير عائد اليهم، والمعنى: أولو كان الشيطان يدعوهم الى كذا والحال أن من أسلم وجهه الى الله كذا فقد نجا وأفلح والحال أن عاقبة الامور ترجع الى الله فيجب أن يكون هو المعبود.

وإسلام الوجه الى الله تسليمه له وهو إقبال الإنسان بكليته عليه بالعبادة وإعراضه عمن سواه. والإحسان الإتيان بالأعمال الصالحة عن إيقان بالآخرة كما فسّره به في أول السورة: ﴿هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ والعروة الوثقى المستمسك الذي لا انفصام له.

والمعنى: ومن حدّ الله وعمل صالحاً مع اليقين بالمعاد فهو ناجٍ غير هالك البتة في عاقبة أمره لأنها الى الله وهو الذي يعده بالنجاة والفلاح.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ - الى قوله - إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ تسلية للنبي ﷺ وتطييب لنفسه أن لا يغلبه الحزن وهم بالآخرة راجعون اليه تعالى فينبئهم بما عملوا أي يظهر لهم حقيقة أعمالهم وتبعاتها وهي النار.

وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ كشف عن حقيقة حالهم ببيان آخر فإن البيان السابق «الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا» ربما أوهم أنهم ما داموا متنعمين في الدنيا خارجون من قدرة الله ثم إذا ماتوا أو بعثوا دخلوا فيما خرجوا منه فانتقم منهم بالعذاب جيء بهذا البيان للدلالة على أنهم غير خارجين من التدبير قط وإنما يمتعهم في الدنيا قليلاً ثم يضطرهم الى عذاب غليظ فهم مغلوبون مقهورون على كل حال وأمرهم الى الله دائماً لن يعجزوا الله في حال التنعم ولا غيرها.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ إشارة الى أنهم مفطورون على التوحيد معترفون به من حيث لا يشعرون، فإنهم إن سئلوا عمن خلق السماوات والأرض اعترفوا بأنه الله عزَّ اسمه وإذا كان الخالق هو هو فالمدبر لها هو هو لأن التدبير لا ينفك عن الخلق، وإذا كان مدبر الأمر والمنعم الذي يبسط ويقبض ويُرجى ويُخاف هو فالمعبود هو هو وحده لا شريك له فقد اعترفوا بالوحدة من حيث لا يعلمون.

ولذلك أمره ﷺ أن يحمد الله على اعترافهم من حيث لا يشعرون فقال: «قل الحمد لله» ثم أشار الى أن كون أكثرهم لا يعلمون معنى اعترافهم أن الله هو الخالق وما يستلزمه فقال: «بل أكثرهم لا يعلمون» نعم قليل منهم يعلمون ذلك ولكنهم لا يطاوعون الحق بل يجحدونه وقد أيقنوا به كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ (النمل / ١٤).

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ما فِي السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ لما كان اعترافهم بأن الخالق هو الله سبحانه إنما يثبت التوحد بالربوبية والالوهية إذا كان التدبير والتصرف اليه تعالى وكان نفس الخلق كافياً في استلزامه اكتفى به في تمام الحجة واستحمد النبي ﷺ واستجهل القوم لغفلتهم.

ثم احتجَّ عليه ثانياً من طريق انحصار الملك الحقيقي فيه تعالى لكونه غنياً محموداً مطلقاً وتقريره أنه تعالى مبدء كل خلق ومعطي كل كمال فهو واجد لكل ما يحتاج اليه الأشياء فهو غني على الإطلاق إذ لو لم يكن غنياً من جهة من الجهات لم يكن مبدء له معطياً لكماله هذا خلف. وإذا كان غنياً على الإطلاق كان له ما في السماوات والأرض فهو المالك لكل شيء على الإطلاق فله أن يتصرف فيها كيف شاء فكل تدبير وتصرف يقع في العالم فهو له إذ لو كان شيء من التدبير لغيره لا له كان مالكه ذلك الغير دونه وإذا كان التدبير والتصرف له تعالى فهو رب العالمين والإله الذي يعبد ويشكر إنعامه وإحسانه.

وهذا هو الذي يشير اليه قوله: «لله ما في السماوات والأرض إن الله هو الغني» فقوله: «لله ما في» الخ؛ حجة على وحدانيته وقوله: «إن الله هو الغني» تعليل للملك.

وأما قوله: «الحميد» أي المحمود في أفعاله فهو مبدء آخر للحجة وذلك أن الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري وكل جميل في العالم فهو له سبحانه فاليه يعود الثناء فيه فهو حميد على الإطلاق ولو كان شيء من هذا التدبير المتقن الجميل من غيره تعالى من غير انتساب اليه لكان الحمد والثناء لغيره تعالى لا له فلا يكون حميداً على الإطلاق وبالنسبة الى كل شيء وقد فرض أنه حميد على الإطلاق هذا خلف.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ ﴾الخ؛ «من شجرة» بيان للموصول والشجرة واحد الشجر وتفيد في المقام ـ وهي في سياق «لو» ـ الاستغراق أي كل شجرة في الأرض، والمراد بالبحر مطلق البحر، وقوله: «يمده من بعده سبعة أبحر» أي يعينه بالإنضياف اليه سبعة أمثال والظاهر أن المراد بالسبعة التكثير دون خصوص هذا العدد والكلمة هي اللفظ الدال على معنى، وقد أُطلق في كلامه تعالى على الوجود المفاض بأمره تعالى، وقد قال: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (يس / ٨٢). وقد أُطلق على المسيح عليه السلام الكلمة في قوله: ﴿وكلمته ألقاها الى مريم﴾ (النساء / ١٧١).

فالمعنى: ولو جعل جميع أشجار الأرض أقلاماً وأُخذ البحر وأُضيف اليه سبعة أمثاله وجعل المجموع مداداً فكتب كلمات الله ـ بتبديلها ألفاظاً دالة عليها ـ بتلك الأقلام من ذلك المداد لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله لكونها غير متناهية.

قوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾سوق للكلام الى إمكان الحشر وخاصة من جهة استبعادهم المعاد لكثرة عدد الموتى واختلاطهم بالأرض من غير تميّز بعضهم من بعض.

فقال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ في الإمكان والتأتي فإنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولا يعجزه كثرة ولا يتفاوت بالنسبة اليه الواحد والجمع، وذكر الخلق مع البعث للدلالة على عدم الفرق بين البدء والعود من حيث السهولة والصعوبة بل لا يتصف فعله بالسهولة والصعوبة.

ويشهد لما ذكر إضافة الخلق والبعث الى ضمير الجمع المخاطب والمراد به الناس ثم تنظيره بالنفس الواحدة. والمعنى: ليس خلقكم معاشر الناس على كثرتكم ولا بعثكم إلّا كخلق نفس واحدة وبعثها فأنتم على كثرتكم والنفس الواحدة سواء لأنه لو أشكل عليه بعث الجميع على كثرتهم والبعث لجزاء الأعمال فإنما يشكل من جهة الجهل بمختلف أعمالكم على كثرتها واختلاط بعضها ببعض لكنه ليس يجهل شيئاً منها لأنه سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم وبعبارة أُخرى عليم بأعمالكم من طريق المشاهدة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الخ: استشهاد لما تقدم في الآية السابقة من علمه بالأعمال بأن التدبير الجاري في نظام الليل والنهار حيث يزيد هذا وينقض ذاك وبالعكس بحسب الفصول المختلفة وبقاع الأرض المتفرقة في نظم ثابت جار على اختلافه، وكذا التدبير الجاري في الشمس والقمر على اختلاف طلوعهما وغروبهما واختلاف جريانهما ومسيرهما بحسب الحس وكلٌّ منهما يجري لأجل مسمى ولا اختلاف ولا تشوّش في النظام الدقيق الذي لهما فهذا كله مما يمتنع من غير علم وخبرة من مدبّرها.

فالمراد بإيلاج الليل في النهار أخذ الليل في الطول وإشغاله بعض ساعات النهار من قبل وبإيلاج النهار في الليل عكس ذلك. والمراد بجريان الشمس والقمر المسخرين الى أجل مسمى انتهاء كل وضع من أوضاعهما الى وقت محدود مقدّر ثم عودهما الى بدء فمن شاهد هذا النظام الدقيق الجاري وأمعن فيه لم يشك في أن مدبره إنما يدبره عن علم لا يخالطه جهل

وليس ذلك عن صدفة واتفاق.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عطف على موضع «أن الله يولج» والتقدير ألم تر أن الله بما تعملون خبير وذلك لأن من شاهد نظام الليل والنهار والشمس والقمر لم يكد يغفل عن كون صانعه عليماً بجلائل أعماله ودقائقها، كذا قيل.

وفيه أن استنتاج العلم بالأعمال من العلم بالنظام الجاري في الليل والنهار والشمس والقمر وإن صحَّ في نفسه فهو علم حدسي لا مصحح لتسميتها رؤية وهو ظاهر.

ولعل المراد من مشاهدة خبرته تعالى بالأعمال أن الإنسان لو أمعن في النظام الجاري في أعمال نفسه بما أنها صادرة عن العالم الإنساني موزّعة من جهة الى الأعمال الصادرة عن القوى الظاهرة من سمع وبصر وشمّ وذوق ولمس والصادرة عن القوى الباطنة المدركة أو الفعّالة أو من جهة الى بعض القوى والأدوات أو كلها ومن جهة الى جاذبة ودافعة ومن جهة الى سني العمر من طفولية ورهاق وشباب وشيب الى غير ذلك.

ثم في ارتباط بعضها ببعض واستخدام بعضها لبعض واهتداء النفس الى وضع كلٍّ في موضعه الذي يليق به وحركته بهذه القافلة من القوى والأعمال نحو غايتها من الكمال وسعادتها في المآل وتورّطها في ورطات عالم المادة وموطن الزينة والفتنة فمن ناجٍ أو هالك.

فإذا أمعن في هذا النظام المحيّر للأحلام لم يرتب أنه تقدير قدّره ربه ونظام نظمه صانعه العليم القدير ومشاهدة هذا النظام العلمي العجيب مشاهدة أنه بما يعملون خبير. والله العالم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَاطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ لما ذكر سبحانه أن منه بدء كل شيء فيستند اليه في وجوده وتدبير أمره وأن اليه عود كل شيء من غير فرق بين الواحد والكثير وأنه ليس الى من يدعون من دونه خلق ولا أمر، جمع الجميع تحت بيان واحد جامع فقال مشيراً الى ما تقدّم: «ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل» الخ.

توضيحه أن الحق هو الثابت من جهة ثبوته والباطل يقابل الحق فهو اللاثابت من جهة عدم ثبوته، وقوله: «أن الله هو الحق» بما فيه من ضمير الفصل وتعريف الخبر باللام يفيد القصر أعني حصر المبتدأ في الخبر.

فقوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ قصر له تعالى في الثبوت، أي هو ثابت لا يشوب ثبوته بطلان وبعبارة اخرى هو ثابت من جميع الجهات وبعبارة ثالثة هو موجود على كل تقدير فوجوده مطلق غير مقيد بقيد ولا مشروط بشرط فوجوده ضروري وعدمه ممتنع وغيره من الموجودات الممكنة موجود على تقدير وهو تقدير وجود سببه وهو الوجود المقيد الذي يوجد بغيره من غير ضرورة في ذاته.

وإذا كان حقية الشيء هو ثبوته فهو تعالى حق بذاته وغيره إنما يحق ويتحقق به.

وإذا تأملت هذا المعنى حق تأمله وجدت أولاً: أن الأشياء بأجمعها تستند في وجودها اليه تعالى وأيضاً تستند في النظام الجاري فيها عامة وفي النظامات الجزئية الجارية في كل نوع من أنواعها وكل فرد من أفرادها اليه تعالى.

وثانياً: أن الكمالات الوجودية التي هي صفات الوجود كالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والوحدة والخلق والملك والغنى والحمد والخبرة ـ مما عدّ في الآيات السابقة أو لم يعدّ ـ صفات قائمة به تعالى على حسب ما يليق بساحة كبريائه وعز قدسه لأنها صفات وجودية والوجود قائم به تعالى فهي إما عين ذاته كالعلم والقدرة وإما صفات خارجة عن ذاته منتزعة عن فعله كالخلق والرزق والرحمة.

وثالثاً: أن قبول الشريك في ذاته أو في تدبيره وكل ما يحمل معنى الفقد والنقص مسلوب عنه تعالى وهذه هي الصفات السلبية كنفي الشريك ونفي التعدد ونفي الجسم والمكان والزمان والجهل والعجز والبطلان والزوال الى غيرها.

فإن إطلاق وجوده وعدم تقيده بقيد ينفي عنه كل معنى عدمي أي إثبات الوجود مطلقاً

فإن مرجع نفي النفي الى الإثبات .

ولعل قوله : « وأن الله هو العلي الكبير » يفيد ثبوت الصفات له بكلتا مرحلتيها بناء على أن اسم « العلي » يفيد معنى تنزهه عن ما لا يليق بساحته فهو مجمع الصفات السلبية والكبير يفيد سعته لكل كمال وجودي فهو مجمع الصفات الثبوتية .

وأن صدر الآية برهان على ذيلها وذيلها برهان على استجماعه تعالى الصفات الثبوتية والسلبية جميعاً على ما تقدم تقريره فهو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال فهو الله عز اسمه .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ٱلْبَاطِلُ ﴾ يجري فيه ما يقابل ما جرى في قوله : « ذلك بأن الله هو الحق » فالذي يدعونه من الآلهة ليس لهم من الحقيقة شيء ولا اليهم من الخلق والتدبير شيء لأن الشريك في الالوهية والربوبية باطلاً لا حقَّ فيه وإذ كان باطلاً على كل تقدير فلا يستند اليه خلق ولا تدبير مطلقاً .

والحق والعلي والكبير ثلاثة من الأسماء الحسنى وقد تحقق مما تقدم أن الحق في معنى الواجب الوجود وأن العلي من الصفات السلبية والكبير من الصفات الثبوتية قريب المعنى من قولنا : المستجمع لصفات الكمال .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَةِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ الخ : الباء في « بنعمة الله » للسببية وذكر النعمة كالتوطئة لآخر الآية وفيه تلويح الى وجوب شكره على نعمته لأن شكر المنعم واجب .

والمعنى : ألم ترَ أن الفلك تجري وتسير في البحر بسبب نعمة الله وهي أسباب جريانها من الريح ورطوبة الماء وغير ذلك .

واحتمل بعضهم أن الباء للتعدية أو المعية والمراد بالنعمة ما تحمله السفن من الطعام وسائر أمتعة الحياة .

وقد تمم الآية بقوله : «إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور» والصبّار الشكور أي كثير الصبر عند الضرّاء وكثير الشكر عند النعماء كناية عن المؤمن على ما قيل .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الخ : قال الراغب : الظلة سحابة تظل وأكثر ما يقال فيما يستوخم ويكره ، قال : «كأنه ظلة» «عذاب يوم الظلة» انتهى .

والمعنى : وإذا غشيهم وأحاط بهم في البحر موج كقطع السحاب انقطعوا الى الله ودعوه للنجاة حال كونهم مخلصين له الدين أي وفي ذلك دليل على أن فطرتهم على التوحيد .

وقوله : ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ المقتصد سالك القصد أي الطريق المستقيم والمراد به التوحيد الذي دلّتهم عليه فطرتهم إذ ذلك ، وفي التعبير بمن التبعيضية استقلال عدتهم أي فلما نجّا الله سبحانه هؤلاء الداعين بالإخلاص الى البر فقليل منهم المقتصدون .

وقوله : ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الختّار مبالغة من الختر وهو شدة الغدر وفي السياق دليل على الاستكثار والمعنى ظاهر .

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ لما ساق الحجج والمواعظ الشافية الوافية جمعهم في خاتمتها في خطاب عام يدعوهم الى التقوى وينذرهم بيوم القيامة الذي لا يغني فيه مغن إلّا الإيمان والتقوى .

قال الراغب : الجزاء الغنى والكفاية ، وقال : يقال : غررت فلاناً أصبت غرته ونلت منه ما أُريد والغرة غفلة في اليقظة والغرار غفلة مع غفوة ، الى أن قال : فالغرور كل ما يغر الانسان من مال وجاه وشهوة وشيطان وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارّين وبالدنيا لما قيل : الدنيا تغر وتضر وتمر انتهى .

فمعنى الآية «يا أيها الناس اتقوا ربكم» وهو الله سبحانه «واخشوا يوماً» وهو يوم القيامة

« لا يجزي » لا يغني « والد عن ولده ولا مولود هو جاز » مغن كاف « عن والده » شيئاً « إن وعد الله » بالبعث « حق » ثابت لا يخلف « فلا يغرنكم الحياة الدنيا » بزينتها الغارّة « ولا يغرنكم بالله الغرور » أي جنس ما يغر الإنسان من شؤن الحياة الدنيا أو خصوص الشيطان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الغيث المطر ومعنى جمل الآية ظاهر.

وقد عدَّ سبحانه أموراً ثلاثة مما تعلق به علمه وهي العلم بالساعة وهو مما استأثر الله علمه لنفسه لا يعلمه إلّا هو ويد لعلى القصر قوله: « إن الله عنده علم الساعة » وتنزيل الغيث وعلم ما في الأرحام ويختصان به تعالى إلّا أن يعلمه غيره.

وعدّ أمرين آخرين يجهل بهما الإنسان وبذلك يجهل كل ما سيجري عليه من الحوادث وهو قوله: « ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً » وقوله: « ولا تدري نفس بأي أرض تموت ».

وكأن المراد تذكرة أن الله يعلم كل ما دقَّ وجلّ حتى مثل الساعة التي لا يتيسر علمها للخلق وأنتم تجهلون أهم ما يهمكم من العلم فالله يعلم وأنتم لا تعلمون فإياكم أن تشركوا به وتتمردوا عن أمره وتعرضوا عن دعوته فتهلكوا بجهلكم[1].

---

١. لقمان ٢٠ ـ ٣٤: بحث روائي حول قوله تعالى: « وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة »: الشكر: الحياة في الدنيا؛ خمسة لم يطلع الله عليها أحداً من خلقه.

سورة السجدة مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● الٓمٓ.

٢ ● تَنْزِيلُ ٱلْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ ٱلْعالَمِينَ.

٣ ● أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرايهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتيٰهُمْ
مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ.

٤ ● ٱللّٰهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيّامٍ
ثُمَّ ٱسْتَوىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ
أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ.

٥ ● يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ
كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ.

٦ ● ذٰلِكَ عالِمُ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

٧ ● الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ.

٨ ● ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ.

٩ ● ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ.

١٠ ● وَقَالُوا ءَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ.

١١ ● قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ.

١٢ ● وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ.

١٣ ● وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

١٤ ● فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

بيان:

غرض السورة تقرير المبدء والمعاد وإقامة الحجة عليهما ودفع ما يختلج القلوب في ذلك مع إشارة الى النبوة والكتاب ثم بيان ما يتميز به الفريقان المؤمنون بآيات الله حقاً والفاسقون الخارجون عن زيّ العبودية ووعد أُولئك بما هو فوق تصوّر المتصورين من الثواب ووعيد هؤلاء بالانتقام الشديد بأليم العذاب المخلّد وأنهم سيذوقون عذاباً أدنى دون العذاب الأكبر. وتختتم السورة بتأكيد الوعيد وأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالانتظار كما هم منتظرون.

وهي مكية إلّا ثلاث آيات نزلت ـ كما قيل ـ بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾ الى تمام ثلاث آيات.

والذي أوردناه من آياتها يتضمّن الفصل الأول من فصلي غرض السورة الذي أشرنا اليه.

قوله تعالى: ﴿ تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾. أي هذا تنزيل الكتاب، والتنزيل مصدر بمعنى اسم المفعول وإضافته الى الكتاب من إضافة الصفة الى الموصوف، والمعنى: هذا هو الكتاب المنزّل لا ريب فيه.

وقوله: ﴿ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ فيه براعة استهلال لما في غرض السورة أن يتعاطى بيانه من الوحدانية والمعاد اللذين ينكرهما الوثنية لما مرّ مراراً أنهم لا يقولون برب العالمين بل يثبتون لكل عالم إلهاً ولمجموع الآلهة إلهاً هو الله تعالى عما يقولون علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَيٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الخ؛ أم منقطعة، والمعنى: بل يقولون افترى القرآن على الله وليس من عنده فردّه بقوله: «بل هو الحق من ربك لتنذر» الخ.

وقوله: ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتيٰهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ قيل: يعني قريشاً فإنهم لم يأتهم نبي قبله ﷺ بخلاف غيرهم من قبائل العرب فإنهم أتاهم بعض الأنبياء كخالد بن سنان العبسي وحنظلة على ما في الروايات.

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ غاية رجائية لإرسال الرسول والترجي قائم بالمقام أو بالمخاطب دون المتكلم كما تقدم في نظائره.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّـهُ ٱلَّـذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ ـ الى قوله ـ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ تقدم الكلام في تفسير قوله: «خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش» في نظائره من الآيات وتقدم أيضاً أن الإستواء على العرش كناية عن مقام تدبير الموجودات

بنظام عام إجمالي يحكم على الجميع ولذا أتبع العرش في أغلب ما وقع فيه من الموارد بما فيه معنى التدبير كقوله: ﴿ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار﴾ (الأعراف / ٥٤) وقوله: ﴿ثم استوى على العرش يدبر الأمر﴾ (يونس / ٣)، وقوله: ﴿ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض﴾ (الحديد / ٤)، وقوله: ﴿ذو العرش المجيد فعّال لما يريد﴾ (البروج / ١٦).

والوجه في ذكر الإستواء على العرش، بعد ذكر خلق السماوات والأرض إن الكلام في اختصاص الربوبية والالوهية بالله وحده ومجرد استناد الخلقة اليه تعالى لا ينفع في إبطال ما يقول به الوثنية شيئاً فإنهم لا ينكرون استناد الخلقة اليه وحده وإنما يقولون باستناد التدبير وهو الربوبية للعالم الى آلهتهم ثم اختصاص الالوهية وهي المعبودية بآلهتهم ولله تعالى من الشأن أنه رب الأرباب وإله الآلهة.

فكان من الواجب عند إقامة الحجة لإبطال قولهم أن يذكر أمر الخلقة ثم يتعقب بأمر التدبير لمكان تلازمهما وعدم انفكاك أحدهما من الآخر حتى يكون موجد الأشياء وخالقها هو الذي يربها ويدبر أمرها فيكون رباً وحده وإلهاً وحده كما أنه موجد خالق وحده.

ولذلك بعينه ذكر أمر التدبير بعد ذكر الخلقة في الآية التي نحن فيها إذ قيل «خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع» فالولاية والشفاعة كالاستواء على العرش من شؤن التدبير.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ﴾ الولي هو الذي يملك تدبير أمر الشيء ومن المعلم أن أمورنا والشؤن التي تقوم به حياتنا قائمة بالوجود محكومة مدبرة للنظام العام الحاكم في الأشياء عامة وما يخص بنا من نظام خاص، والنظام أياً ما كان من لوازم خصوصيات خلق الأشياء والخلقة كيفما كانت مستندة اليه تعالى فهو تعالى وليّنا القائم بأمرنا المدبّر لشؤننا وأُمورنا، كما هو وليّ كل شيء كذلك وحده لا شريك له.

والشفيع ـ على ما تقدم في مباحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب ـ هو الذي ينضم الى سبب ناقص فيتمم سببيته وتأثيره، والشفاعة تتميم السبب الناقص في تأثيره وإذا طبقناها على الأسباب والمسببات الخارجية كانت أجزاء الأسباب المركبة وشرائطها بعضها شفيعاً لبعض لتتميم حصة من الأثر منسوبة اليه كما أن كلاً من السحاب والمطر والشمس والظل وغيرها شفيع للنبات.

وإذ كان موجد الأسباب وأجزائها والرابط بينها وبين المسببات هو الله سبحانه فهو الشفيع بالحقيقة الذي يتمّم نقصها ويقيم صلبها فالله سبحانه هو الشفيع بالحقيقة لا شفيع غيره.

وببيان آخر أدق قد تقدم في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب أن أسماءه تعالى الحسنى وسائط بينه وبين خلقه في إيصال الفيض اليهم فهو تعالى يرزقهم مثلاً بما أنه رازق جواد غني رحيم ويشفي المريض بما أنه شاف معاف رؤوف رحيم ويهلك الظالمين بما أنه شديد البطش ذو انتقام عزيز وهكذا.

فما من شيء من المخلوقات المركبة الوجود إلّا ويتوسط لوجوده عدة من الأسماء الحسنى بعضها فوق بعض وبعضها في عرض بعض وكل ما هو أخص منها يتوسط بين الشيء وبين الأعم منها كما أن الشافي يتوسط بين المريض وبين الرؤوف الرحيم والرحيم يتوسط بينه وبين القدير وهكذا.

والتوسط المذكور في الحقيقة تتميم لتأثير السبب فيه وإن شئت فقل هو تقريب للشيء من السبب لفعلية تأثيره وينتج منه أنه تعالى شفيع ببعض أسمائه عند بعض فهو الشفيع ليس من دونه شفيع في الحقيقة فافهم.

وقد تبين بما مر أن لا إشكال في إطلاق الشفيع عليه تعالى بمعنى كونه شفيعاً بنفسه عند نفسه وحقيقته توسط صفة من صفاته الكريمة بين الشيء وصفة من صفاته كما يستعاذ من

سخطه الى رحمته ومن عدله الى فضله. وأما كونه تعالى شفيعاً بمعنى شفاعته لشيء عند غيره فهو مما لا يجوز البتة.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ استفهام توبيخي يوبخهم على استمرارهم على الإعراض عن أدلة العقول حتى يتذكروا أن الملك والتدبير لله سبحانه وهو المعبود بالحق ليس لهم دونه ولي ولا شفيع كما يزعمون ذلك لآلهتهم.

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ تتميم لبيان أن تدبير أمر الموجودات قائم به سبحانه وهذا هو القرينة على أن المراد بالأمر في الآية الشأن دون الأمر المقابل للنهي.

والتدبير وضع الشيء في دابر الشيء والإتيان بالأمر بعد الأمر فيرجع الى إظهار وجود الحوادث واحداً بعد واحد كالسلسلة المتصلة بين السماء والارض وقد قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١)، وقال: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (القمر / ٤٩).

وقوله: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ بعد قوله: «يدبر الأمر من السماء الى الأرض» لا يخلو من إشعار بأن «يدبّر» مضمن معنى التنزيل والمعنى: يدبر الأمر منزلاً أو ينزله مدبراً ـ من السماء الى الأرض ولعله الأمر الذي يشير اليه قوله: ﴿فسوّاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها﴾ (حم السجدة / ١٢).

وفي قوله: ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ إشعار بأن المراد بالسماء مقام القرب الذي تنتهي اليه أزمة الامور دون السماء بمعنى جهة العلو أو ناحية من نواحي العالم الجسماني فإن الأمر قد وصف قبل العروج بالنزول فظاهر العروج أنه صعود من الطريق التي نزل منها، ولم يذكر هناك إلّا علو هو السماء، وسفل هو الأرض ونزول وعروج فالنزول من السماء والعروج الى الله يشعر بأن السماء هو مقام الحضور الذي يصدر منه تدبير الأمر أو أن موطن تدبير الأمر الأرضي هو

السماء والله المحيط بكل شيء ينزّل التدبير الأرضي من هذا الموطن. ولعل هذا هو الأقرب الى الفهم بالنظر الى قوله: «وأوحى في كل سماء أمرها».

وقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ معناه على أي حال أنه في ظرف لو طبّق على ما في الأرض من زمان الحوادث ومقدار حركتها انطبق على ألف سنة مما نعدّه فإن من المسلم أن الزمان الذي يقدّره ما نعدّه من الليل والنهار والشهور والسنين لا يتجاوز العالم الأرضي.

وإذ كان المراد بالسماء هو عالم القرب والحضور وهو مما لا سبيل للزمان اليه كان المراد أنه وعاء لو طبّق على مقدار حركة الحوادث في الأرض كان مقداره ألف سنة مما تعدّون.

وأما أن هذا المقدار هل هو مقدار النزول واللبث والعروج أو مقدار مجموع النزول والعروج دون اللبث أو مقدار كل واحد من النزول والعروج أو مقدار نفس العروج فقط بناء على أن «في يوم» قيد لقوله: «يعرج اليه» فقط كما وقع في قوله: ﴿تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ (المعارج / ٤).

ثم على تقدير كون الظرف قيداً للعروج هل العروج مطلق عروج الحوادث الى الله أو العروج يوم القيامة وهو مقدار يوم القيامة. وأما كونه خمسين ألف سنة فهو بالنسبة الى الكافر من حيث الشقة أو أن الألف سنة مقدار مشهد من مشاهد يوم القيامة وهو خمسون موقفاً كل موقف مقداره ألف سنة.

ثم المراد بقوله: «مقداره ألف سنة» هل هو التحديد حقيقة أو المراد مجرد التكثير كما في قوله: ﴿يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة﴾ (البقرة / ٩٦). أي يعمّر عمراً طويلاً جداً وإن كان هذا الاحتمال بعيداً من السياق.

والآية ـ كما ترى ـ تحتمل الاحتمالات جميعاً ولكل منها وجه والأقرب من بينها الى الذهن كون «في يوم» قيداً لقوله: «ثم يعرج اليه» وكون المراد بيوم عروج الأمر مشهداً من خمسين

مشهداً من مشاهد يوم القيامة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسير مفردات الآية، ومناسبة الأسماء الثلاثة الكريمة للمقام ظاهرة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قال الراغب: الحسن عبارة عن كل مبهج ـ بصيغة الفاعل ـ مرغوب فيه وذلك ثلاث أضرب: مستحسن من جهة العقل ومستحسن من جهة الهوى ومستحسن من جهة الحس. انتهى. وهذا تعريف له من جهة خاصته وانقسامه بانقسام الإدراكات الإنسانية.

وحقيقته ملاءمة أجزاء الشيء بعضها لبعض والمجموع للغرض والغاية الخارجة منه فحسن الوجه تلاؤهم أجزائه من العين والحاجب والأنف والفم وغيرها، وحسن العدل ملاءمته للغرض من الاجتماع المدني وهو نيل كل ذي حق حقه، وهكذا.

التدبر في خلقة الأشياء وكل منها في نفسه متلائم الأجزاء بعضها لبعض والمجموع من وجوده مجهز بما يلائم كماله وسعادته تجهيزاً لا أتم ولا أكمل منه يعطي أن كلاً منها حسن في نفسه حسناً لا أتم وأكمل منه بالنظر الى نفسه.

وأما ما نرى من المساءة والقبح في الأشياء فلأحد أمرين: أما لكون الشيء السيىء ذا عنوان عدمي يعود اليه المساءة لا لوجوده في نفسه كالظلم والزنا فإن الظلم ليس بسيىء قبيح بما أنه فعل من الأفعال بل بما أنه مبطل لحق ثابت والزنا ليس بسيىء قبيح من جهة نفس العمل الخارجي الذي هو مشترك بينه وبين النكاح بل بما أن فيه مخالفة للنهي الشرعي أو للمصلحة الاجتماعية.

أو بقياسه الى شيء آخر فيعرضه المساءة والقبح من طريق المقايسة كقياس الحنظل الى البطيخ وقياس الشوك الى الورد وقياس العقرب الى الإنسان فإن المساءة إنما تطرء هذه الأشياء من طريق القياس الى مقابلاتها ثم قياسها الى طبعنا، ويرجع هذا الوجه من المساءة

الى الوجه الأول بالحقيقة.

وكيف كان فالشيء بما أنه موجود مخلوق لا يتصف بالمساءة ويدل عليه الآية «الذي أحسن كل شيء خلقه» إذا انضمّ الى قوله: ﴿الله خالق كل شيء﴾ (الزمر / ٦٢) فينتجان أولاً: أن الخلقة تلازم الحسن فكل مخلوق حسن من حيث هو مخلوق.

وثانياً: ان كل سيىء وقبيح ليس بمخلوق من حيث هو سيىء قبيح كالمعاصي والسيئات من حيث هي معاصٍ وسيئات والأشياء السيئة من جهة القياس.

قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ المراد بالإنسان النوع فالمبدو خلقه من طين هو النوع الذي ينتهي أفراده الى من خلق من طين من غير تناسل من أب وأُم كآدم وزوجه عليهما السلام، والدليل على ذلك قوله بعده: ﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ فالنسل الولادة بانفصال المولود عن الوالدين والمقابلة بين بدء الخلق وبين النسل لا يلائم كون المراد ببدء الخلق بدء خلق الإنسان المخلوق من ماء مهين، ولو كان المراد ذلك لكان حق الكلام أن يقال: ثم جعله سلالة من ماء مهين فافهمه.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ السلالة كما في المجمع الصفوة التي تنسل أي تنزع من غيرها ويسمى ماء الرجل سلالة لانسلاله من صلبه. والمهين من الهون وهو الضعف والحقارة وثم للتراخي الزماني.

والمعنى: ثم جعل ولادته بطريق الانفصال من صفوة من ماء ضعيف أو حقير.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ التسوية التصوير وتتميم العمل، وفي قوله: «نفخ فيه من روحه» استعارة بالكناية بتشبيه الروح بالنفَس الذي يتنفس به ثم نفخه في قالب من سوّاه، وإضافة الروح اليه تعالى إضافة تشريفية. والمعنى: ثم صوّر الإنسان المبدو خلقه من الطين والمجعول نسله من سلالة من ماء مهين ونفخ فيه من روح شريف منسوب اليه تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ امتنان بنعمة الإدراك الحسي والفكري فالسمع والبصر للمحسوسات والقلوب للفكريات أعم من الإدراكات الجزئية الخيالية والكلية العقلية.

وقوله: ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون شكراً قليلاً. والجملة اعتراضية في محل التوبيخ وقيل: الجملة حالية. والمعنى: جعل لكم الأبصار والأفئدة والحال أنكم تشكرون قليلاً. والجملة على أي حال مسوقة للبث والشكوى والتوبيخ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَإِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ حجة من منكري البعث مبنية على الاستبعاد. والضلال في الأرض قيل: هو الضيعة كما يقال: ضلّت النعمة أي ضاعت. وقيل: هو بمعنى الغيبة. وكيف كان فرادهم به. إنا إذا متنا وانتشرت أجزاء أبداننا في الأرض وصرنا بحيث لا تميّز لأجزائنا من سائر أجزاء الأرض ولا خبر عنا نقع في خلق جديد ونخلق ثانياً خلقنا الأول؟

والاستفهام للإنكار. والخلق الجديد هو البعث.

وقوله: «بل هم بلقاء ربهم كافرون» إضراب عن فحوى قولهم: «ءإذا ضللنا في الأرض» كأنه قيل: إنهم لا يجحدون الخلق الجديد لجحدهم قدرتنا عن ذلك أو لسبب آخر بل هم كافرون بالرجوع الينا ولقائنا ولذا جيء في الجواب عن قولهم بما يدلُّ على الرجوع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّيكُمْ مَلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ توفي الشيء أخذه تاماً كاملاً كتوفي الحق وتوفي الدَّين من المديون.

وقوله: ﴿مَلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ قيل: أي وكل بإماتتكم وقبض أرواحكم والآية مطلقة ظاهرة في أعم من ذلك.

وقد نسب التوفي في الآية الى ملك الموت. وفي قوله: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ (الزمر / ٤٢) اليه تعالى. وفي قوله: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت توفّته رسلنا﴾ (الأنعام /

٦١)، وقوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ (النحل / ٢٨)، الى الرسل والملائكة نظراً الى اختلاف مراتب الأسباب فالسبب القريب الملائكة الرسل أعوان ملك الموت وفوقهم ملك الموت الآمر بذلك المجري لأمر الله والله من ورائهم محيط وهو السبب الأعلى ومسبّب الأسباب فذلك بوجه كمثل كتابة الانسان بالقلم فالقلم كاتب واليد كاتبة والانسان كاتب.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ هو الرجوع الذي عبر عنه في الآية السابقة باللقاء وموطنه البعث المترتب على التوفي والمتراخي عنه، كما يدلّ عليه العطف بثم الدالة على التراخي.

والآية ـ على أي تقدير ـ جواب عن الاحتجاج بضلال الموتى في الأرض على نفي البعث ومن المعلوم أن إماتة ملك الموت لهم ليس يحسم مادة الإشكال فيبقى قوله: «ثم الى ربكم ترجعون» دعوى خالية عن الدليل في مقابل دعواهم المدللة والكلام الالهي أنزه ساحة أن يتعاطى هذا النوع من المحاجة.

لكنه تعالى أمر رسوله أن يجيب عن حجتهم المبنية على الاستبعاد بأن حقيقة الموت ليس بطلاناً لكم وضلالاً منكم في الأرض بل ملك الموت الموكل بكم يأخذكم تامين كاملين من أجسادكم أي ينزع أرواحكم من أبدانكم بمعنى قطع علاقتها من الأبدان وأرواحكم تمام حقيقتكم فأنتم أي ما يعني بلفظة «كم» محفوظون لا يضل منكم شيء في الأرض وإنما يضل الأبدان وتتغير من حال الى حال وقد كانت في معرض التغير من اول كينونتها. ثم إنكم محفوظون حتى ترجعوا الى ربكم بالبعث ورجوع الأرواح الى أجسادها.

وبهذا يندفع حجتهم على نفي المعاد بضلالهم سواء قررت على نحو الاستبعاد أو قررت على أن تلاشي البدن يبطل شخصية الانسان فينعدم ولا معنى لاعادة المعدوم فإن حقيقة الانسان هي نفسه التي يحكي عنها بقول «أنا» وهي غير البدن والبدن تابع لها في شخصيته

وهي لا تتلاشى بالموت ولا تنعدم بل محفوظة في قدرة الله حتى يؤذن في رجوعها الى ربها للحساب والجزاء فيبعث على الشريطة التي ذكر الله سبحانه.

وظهر بما تقدم أولاً وجه اتصال قوله: «قل يتوفاكم» الخ؛ بقوله: «إذا ضللنا في الأرض» الخ؛ وأنه جواب حاسم للإشكال قاطع للشبهة. وقد أشكل الأمر على بعض من فسر التوفي بمطلق الإماتة من غير التفات الى نكتة التعبير بلفظ التوفي فتكلف في توجيه اتصال الآيتين بما لا يرتضيه العقل السليم.

وثانياً: أن الآية من أوضح الآيات القرآنية الدالة على تجرد النفس بمعنى كونها غير البدن أو شيء من حالات البدن.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ نكس الرأس إطراقه وطأطأته. والمراد بالمجرمين بقرينة ذيل الآية خصوص المنكرين للمعاد فاللام فيه لا تخلو من معنى العهد أي هؤلاء الذين يجحدون المعاد ويقولون «ءإذا ضللنا في الأرض» الخ.

وفي التعبير عن البعث بقوله: «عند ربهم» محاذاة لما تقدم من قوله: «بل هم بلقاء ربهم كافرون» أي واقفون موقفاً من اللقاء لا يسعهم إنكاره. وقولهم: «أبصرنا وسمعنا» ومسألتهم الرجوع للعمل الصالح لما ينجلي لهم أن النجاة في الإيمان والعمل الصالح وقد حصل لهم الإيمان اليقيني وبقي العمل الصالح ولذا يعترفون باليقين ويسألون الرجوع الى الدنيا ليعملوا صالحاً فيتم لهم سببا النجاة.

والمعنى: ولو ترى إذ هؤلاء الذين يجرمون بإنكار لقاء الله مطرقوا رؤسهم عند ربهم في موقف اللقاء من الخزي والذل والندم يقولون ربنا أبصرنا بالمشاهدة وسمعنا بالطاعة فارجعنا نعمل عملاً صالحاً إنا موقنون والمحصل أنك تراهم يجحدون اللقاء ولو تراهم إذ أحاط بهم الخزي والذل فنكسوا رؤسهم واعترفوا بما ينكرونه اليوم وسألوا العود الى ههنا

ولن يعودوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ الى آخر الآية؛ أي لو شئنا أن نعطي كل نفس أعم من المؤمنة والكافرة الهدى الذي يختص بها ويناسبها لأعطيناه لها بأن نشاء من طريق اختيار الكافر وإرادته أن يتلبّس بالهدى فيتلبس بها من طريق الاختيار والإرادة كما شئنا في المؤمن كذلك فتلبس بالهدى باختيار منه وإرادة من دون أن ينجر الى الالجاء والاضطرار فيبطل التكليف ويلغو الجزاء.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي ولكن هناك قضاء سابق مني محتوم وهو إملاء جهنم من الجنة والناس أجمعين وهو قوله لابليس لما امتنع من سجدة آدم وقال: ﴿فبعزتك لاغوينهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين﴾ ﴿فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ (ص / ٨٥). فقضى أن يدخل متّبعي إبليس العذاب المخلّد.

ولازم ذلك أن لا يهديهم لظلمهم وفسقهم بالخروج عن زي العبودية كما قال: ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (التوبة / ٨٠). الى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ الى آخر الآية؛ تفريع على قوله: «ولكن حقّ القول مني» والنسيان ذهول صورة الشيء عن الذاكرة ويكنّى به عن عدم الاعتناء بما يهمّ الشيء وهو المراد في الآية.

والمعنى: فإذا كان من القضاء إذاقة العذاب لمتبعي إبليس فذوقوا العذاب بسبب عدم اعتنائكم بلقاء هذا اليوم حتى جحدتموه ولم تعملوا صالحاً تثابون به فيه لأنا لم نعتن بما يهمّكم في هذا اليوم من السعادة والنجاة، وقوله: «وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون» تأكيد وتوضيح لسابقه أي إن الذوق الذي أمرنا به ذوق عذاب الخلد ونسيانهم لقاء يومهم هذا

أعمالهم السيئة[١][٢].

١٥ ● إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ.

١٦ ● تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ.

١٧ ● فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

١٨ ● أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ.

١٩ ● أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

٢٠ ● وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ.

٢١ ● وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

٢٢ ● وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ.

---

١. السجدة ١ ـ ١٤: بحث روائي في: سور العزائم، كيفية قبض روح المؤمن والظالم.

٢. السجدة ١ ـ ١٤: كلام في كينونة الانسان الاول.

٢٣ ● وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

٢٤ ● وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ.

٢٥ ● إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

٢٦ ● أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ.

٢٧ ● أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَاءَ إِلَى ٱلأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ.

٢٨ ● وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا ٱلْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

٢٩ ● قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ.

٣٠ ● فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لما ذكر شطراً من الكلام في الكفار الذين يجحدون لقاءه ويستكبرون في الدنيا عن الإيمان والعمل الصالح أخذ في صفة الذين يؤمنون بآيات ربهم ويخضعون للحق لما ذكّروا ووعظوا.

فقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ حصر للإيمان بحقيقة معناه فيهم ومعناه أن علامة التهيّؤ

للإيمان الحقيقي هو كذا وكذا.

وقوله : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً ﴾ ذكر سبحانه شيئاً من أوصافهم وشيئاً من أعمالهم، أما ما هو من أوصافهم فتذللهم لمقام الربوبية وعدم استكبارهم عن الخضوع لله وتسبيحه وحمده وهو قوله : «إذا ذكروا بآيات ربهم» أي الدالة على وحدانيته في ربوبيته وأُلوهيته وما يلزمها من المعاد والدعوة النبوية الى الايمان والعمل الصالح «خرّوا سجّداً» أي سقطوا على الأرض ساجدين لله تذللاً واستكانة «وسبَّحوا بحمد ربهم» أي نزّهوه مقارناً للثناء الجميل عليه . والسجدة والتسبيح والتحميد وإن كانت من الأفعال لكنها مظاهر لصفة التذلل والخضوع لمقام الربوبية والالوهية، ولذا أردفها بصفة تلازمها فقال : «وهم لا يستكبرون».

قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ هذا معرّفهم من حيث أعمالهم كما أن ما في الآية السابقة كان معرّفهم من حيث أوصافهم .

فقوله : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ التجافي التنحّي والجنوب جمع جنب وهو الشق، والمضاجع جمع مضجع وهو الفراش وموضع النوم، والتجافي عن المضاجع كناية عن ترك النوم.

وقوله : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ حال من ضمير جنوبهم والمراد اشتغالهم بدعاء ربهم في جوف الليل حين تنام العيون وتسكن الانفاس لا خوفاً من سخطه تعالى فقط حتى يغشيهم اليأس من رحمة الله ولا طمعاً في ثوابه فقط حتى يأمنوا غضبه ومكره بل يدعونه خوفاً وطمعاً فيؤثرون في دعائهم أدب العبودية على ما يبعثهم اليه الهدى وهذا التجافي والدعاء ينطبق على النوافل الليلية .

وقوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ عمل آخر لهم وهو الإنفاق لله وفي سبيله .

قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تفريع لما لهم من الأوصاف والأعمال يصف ما أعدّ الله لهم من الثواب.

ووقوع نفس وهي نكرة في سياق النفي يفيد العموم. وإضافة قرّة الى أعين لا أعينهم تفيد أن فيما أُخفي لهم قرّة عين كل ذي عين.

والمعنى: فلا تعلم نفس من النفوس ـ أي هو فوق علمهم وتصوّرهم ـ ما أخفاه الله لهم مما تقرّ به عين كل ذي عين جزاء في قبال ما كانوا يعملون في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ﴾ الايمان سكون علمي خاص من النفس بالشيء ولازمه الالتزام العملي بما آمن به والفسق هو الخروج عن الالتزام المذكور من فسقت التمرة إذا خرجت عن قشرها ومآل معناه الخروج عن زيّ العبودية.

والاستفهام في الآية للانكار. وقوله: «لا يستوون» نفي لاستواء الفريقين تأكيداً لما يفيده الإنكار السابق.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ المأوى المكان الذي يأوي اليه ويسكن فيه الانسان. والنزل بضمتين كل ما يعدّ للنازل في بيت من الطعام والشراب. ثم عمّم كما قيل لكل عطية. والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَيهُمُ النَّارُ﴾ الى آخر الآية: كون النار مأواهم لازمه خلودهم فيها ولذلك عقّبه بقوله: «كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها». وقوله: «وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون» دليل على أن المراد بالذين فسقوا هم منكروا المعاد وخطابهم وهم في النار بهذا الخطاب شماتة بهم وكثيراً ما كانوا يشمتون في الدنيا بالمؤمنين لقولهم بالمعاد.

قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لما كان غاية إذاقتهم العذاب رجوعهم المرجو والرجوع المرجو هو الرجوع الى الله بالتوبة والانابة كان المراد بالعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا النازل بهم للتخويف والانذار ليتوبوا دون عذاب الاستئصال ودون العذاب الذي بعد الموت وحينئذ المراد بالعذاب الأكبر عذاب يوم القيامة.

والمعنى: أُقسم لنذيقنهم من العذاب الأدنى أي الأقرب مثل السنين والأمراض والقتل ونحو ذلك قبل العذاب الأكبر يوم القيامة لعلهم يرجعون الينا بالتوبة من شركهم وجحودهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ كأنه في مقام التعليل لما تقدم من عذابهم بالعذاب الأكبر بما أنهم مكذّبون فعلله بأنهم ظالمون أشد الظلم بالاعراض عن الآيات بعد التذكرة فيكونون مجرمين والله منتقم منهم.

فقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الخ: تعليل لعذابهم بأنهم ظالمون أشد الظلم ثم قوله: «إنا من المجرمين منتقمون»، تعليل لعذاب الظالمين بأنهم مجرمون والعذاب انتقام منهم، والله منتقم من المجرمين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ المراد بالكتاب التوراة والمرية الشك والريب.

وقد اختلفوا في مرجع الضمير في قوله: «من لقائه» ومعنى الكلمة فقيل: الضمير لموسى وهو مفعول اللقاء والتقدير فلا تكن في مرية من لقائك موسى ولقد لقيه ليلة المعراج كما وردت به الروايات فإن كانت السورة نازلة بعد المعراج فهو تذكرة لما قد وقع وإن كانت نازلة قبله فهو وعد منه تعالى للنبي ﷺ أنه سيراه.

ومن الممكن ـ والله أعلم ـ أن يرجع ضمير لقائه اليه تعالى والمراد بلقائه البعث بعناية أنه

يوم يحضرون لربهم لا حجاب بينه وبينهم كما تقدم، وقد عبر عنه باللقاء قبل عدة آيات في قوله: ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾، ثم عبر عنه بما في معناه في قوله: «ناكسوا رؤسهم عند ربهم».

فيكون المعنى: ولقد آتينا موسى الكتاب كما آتيناك القرآن فلا تكن في مرية من البعث الذي ينطق به القرآن بالشك في نفس القرآن وقد أُيد نزول القرآن عليه ﷺ بنزول التوراة على موسى في مواضع من القرآن، ويؤيده قوله بعد: «وجعلناه هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا» الخ.

ويمكن أن يكون المراد بلقائه الانقطاع التامُّ اليه تعالى عند وحي القرآن أو بعضه كما في بعض الروايات، فيكون رجوعاً الى ما في صدر السورة من قوله: «تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين»، وذيل الآية أشد تأييداً لهذا الوجه من سابقه والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي هادياً فالمصدر بمعنى اسم الفاعل أو بمعناه المصدري مبالغة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي وجعلنا من بني إسرائيل أئمة يهدون الناس بأمرنا وإنما نصبناهم أئمة هداة للناس حين صبروا في الدين وكانوا قبل ذلك موقنين بآياتنا.

وقد تقدم البحث عن معنى الامامة وهداية الامام بأمر الله في تفسير قوله: ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ (البقرة / ١٢٤)، وقوله: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ (الأنبياء / ٧٣)، وغير ذلك من الموارد المناسبة.

وقد تضمنت هاتان الآيتان من الرحمة المنبسطة بالتوراة أنها هدى في نفسه يهدي من اتبعه الى الحق، وأنها أنشأت في حجر تربيتها أُناساً اجتباهم الله للإمامة فصاروا يهدون بأمره فهي مباركة للعمل بها ومباركة بعد العمل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ يريد اختلافهم في الدين وإنما كان ذلك بغياً بينهم كما يذكره في مواضع من كلامه كقوله: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب ـ الى أن قال ـ فما اختلفوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (الجاثية / ١٧).

فالمراد بقوله: «يفصل بينهم» القضاء الفاصل بين الحق والباطل والمحق والمبطل والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ الخ: العطف على محذوف كأنه قيل: ألم يبين لهم كذا وكذا، أولم يهدِ لهم، الخ: والهداية بمعنى التبيين أو من مضمّن معنى التبيين ولذا عدّي باللام.

وقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ مشير الى الفاعل قائم مقامه، والمعنى: أولم يبين لهم كثرة من أهلكنا من القرون والحال أنهم يمشون في مساكنهم.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ المراد بالسمع سمع المواعظ المؤدّي الى طاعة الحق وقبوله.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَاءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ﴾ الخ: قال في المجمع: السوق الحث على السير من ساقه يسوقه، وقال: الجرز الارض اليابسة التي ليس فيها نبات لانقطاع الأمطار عنها. انتهى. والزرع مصدر في الأصل والمراد به هنا المزروع.

والآية تذكر آية أُخرى من آيات الله سبحانه تدل على حسن تدبيره للأشياء وخاصة ذوي الحياة منها كالأنعام والإنسان، والمراد بسوق الماء الى الأرض الخالية من النبات سوق السحب الحاملة للأمطار اليها، ففي نزول ماء المطر منها حياة الأرض وخروج الزرع واغتذاء الإنسان والأنعام التي يسخّرها ويربّيها لمقاصد حياته.

وقوله: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ تنبيه وتوبيخ وتخصيص هذه الآية بالابصار، والآية السابقة بالسمع لما أن العلم بإهلاك الامم الماضين إنما هو بالاخبار التي تنال من طريق السمع وأما العلم بسوق الامطار الى الارض الجرز وإخراج الزرع واغتذاء الانعام والإنسان فالطريق اليه حاسة البصر.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ - الى قوله - وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ قال الراغب: الفتح إزالة الإغلاق والإشكال - الى أن قال - وفتح القضية فتاحاً فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها، قال: «ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين». انتهى.

ويمكن أن يكون المراد هو القضاء بين النبي ﷺ وبين الامة ويكون ذلك في آخر الزمان كما تقدمت الإشارة اليه في تفسير قوله: ﴿ولكل أمة رسول﴾ الآية: (يونس / ٤٧).

وكيف كان فالمراد بالآيتين استعجال المشركين بالفتح والجواب أنه فتح لا ينفع حال الذين كفروا إيمانهم لأنه ظرف لا ينفع نفساً إيمانها ولا أن العذاب يمهلهم وينظرهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أمر بالاعراض عنهم وانتظار الفتح كما أنهم ينتظرون وإنما كانوا منتظرين موته أو قتله ﷺ وبالجملة انقطاع دابر دعوته الحقة فلينتظر هو كما هم ينتظرون حتى يظهر الله الحق على الباطل والمحقّ على المبطل.

ومن هذا السياق يظهر أن المراد بالفتح الفتح الدنيوي[1].

---

١. السجدة ١٥ - ٣٠: بحث روائي في: الاسلام، الصلاة بالليل، نعم الجنة.

سورة الأحزاب مدنية وهي ثلاث وسبعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ● يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلاٰ تُطِعِ ٱلْكٰافِرِينَ وَٱلْمُنٰافِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ
كٰانَ عَلِيماً حَكِيماً.

٢ ● وَٱتَّبِعْ مٰا يُوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كٰانَ بِمٰا تَعْمَلُونَ
خَبِيراً.

٣ ● وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً.

٤ ● مٰا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمٰا جَعَلَ
أَزْواجَكُمُ ٱللاّٰئِي تُظٰاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهٰاتِكُمْ وَمٰا جَعَلَ
أَدْعِيٰاءَكُمْ أَبْنٰاءَكُمْ ذٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ
وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ.

٥ ● أُدْعُوهُمْ لِآبٰائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ ٱللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبٰاءَهُمْ
فَإِخْوٰانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوٰالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ فِيمٰا

أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلٰكِنْ مٰا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكٰانَ ٱللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً.

٦ ﴿ أَلنَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوٰاجُهُ أُمَّهٰاتُهُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتٰابِ ٱللّٰهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهٰاجِرِينَ إِلاّٰ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيٰائِكُمْ مَعْرُوفاً كٰانَ ذٰلِكَ فِي ٱلْكِتٰابِ مَسْطُوراً.

٧ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنٰا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثٰاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرٰاهِيمَ وَمُوسىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنٰا مِنْهُمْ مِيثٰاقاً غَلِيظاً.

٨ ﴿ لِيَسْئَلَ الصّٰادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكٰافِرِينَ عَذٰاباً أَلِيماً.

بيان:

تتضمن السورة تفاريق من المعارف والأحكام والقصص والعبر والمواعظ وفيها قصة غزوة الخندق وإشارة الى قصة بني القريظة من اليهود، وسياق آياتها يشهد بأنها مما نزلت بالمدينة.

قوله تعالى: ﴿يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللّٰهَ وَلاٰ تُطِعِ ٱلْكٰافِرِينَ وَٱلْمُنٰافِقِينَ إِنَّ ٱللّٰهَ كٰانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أمر للنبي ﷺ بتقوى الله وفيه تمهيد للنهي الذي بعده «ولا تطع الكافرين والمنافقين».

وفي سياق النهي ـ وقد جمع فيه بين الكافرين والمنافقين ونهى عن إطاعتهم ـ كشف عن أن الكافرين كانوا يسألونه أمراً لا يرتضيه الله سبحانه وكان المنافقون يؤيدونهم في مسألتهم ويلحّون أمراً كان الله سبحانه بعلمه وحكمته قد قضى بخلافه وقد نزل الوحي الإلهي بخلافه،

أمراً خطيراً لا يؤمن مساعدة الأسباب على خلافه إلّا أن يشاء الله فحذّر النبي ﷺ عن إجابتهم الى ملتمسهم وأمر بمتابعة ما أوحى الله اليه والتوكل عليه.

وبهذا يتأيد ما ورد في أسباب النزول أن عدة من صناديد قريش بعد وقعة أُحد دخلوا المدينة بأمان من النبي ﷺ وسألوا النبي ﷺ أن يتركهم وآلهتهم فيتركوه وإلهه فنزلت الآيات ولم يجبهم النبي الى ذلك وسيأتي في البحث الروائي التالي.

وبما تقدم ظهر وجه تذييل الآية بقوله: «إن الله كان عليماً حكيماً» وكذا تعقيب الآية بالآيتين بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ الآية عامة في حد نفسها لكنها من حيث وقوعها في سياق النهي تأمر النبي ﷺ باتباع ما نزل به الوحي فيما يسأله الكافرون والمنافقون واتباعه إجراؤه عملاً بدليل قوله: «إن الله كان بما تعملون خبيراً».

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ الآية كالآية السابقة في أنها عامة في حد نفسها، لكنها لوقوعها في سياق النهي السابق تدل على الأمر بالتوكل على الله فيما يأمره به الوحي وتشعر بأنه أمر صعب المنال بالنظر الى الأسباب الظاهرية لا يسلم القلب معه من عارضة المخافة والاضطراب إلّا المتوكل على الله سبحانه فإنه السبب الوحيد الذي لا يغلبه سبب مخالف.

قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ كناية عن امتناع الجمع بين المتنافيين في الاعتقاد فإن القلب الواحد أي النفس الواحدة لا يسع اعتقادين متنافيين ورأيين متناقضين فإن كان هناك متنافيان فهما لقلبين وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه فالرجل الواحد لا يسعه أن يعتقد المتنافيين ويصدق بالمتناقضين وقوله: «في جوفه» يفيد زيادة التقرير كقوله: ﴿ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾

(الحج / ٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ كان الرجل في الجاهلية يقول لزوجته أنت مني كظهر أمي أو ظهرك عليّ كظهر أمي فيشبّه ظهرها بظهر أمه وكان يسمى ذلك ظهاراً ويعد طلاقاً لها، وقد ألغاه الإسلام.

فمفاد الآية أن الله لم يجعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن بقول ظهرك عليّ كظهر أمي أمهات لكم وإذ لم يجعل ذلك فلا أثر لهذا القول والجعل تشريعي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الأدعياء جمع دعي وهو المتّخذ ولدا المدعو ابناً وقد كان الدعاء والتبني دائراً بينهم في الجاهلية وكذا بين الامم الراقية يومئذ كالروم وفارس وكانوا يرتبون على الدعي أحكام الولد الصلبي من التوارث وحرمة الازدواج وغيرهما وقد ألغاه الإسلام.

فمفاد الآية أن الله لم يجعل الذين تدعونهم لأنفسكم أبناء لكم بحيث يجري فيهم ما يجري في الأبناء الصلبيّين.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ الإشارة بقوله: «ذلكم» الى ما تقدم من الظهار والدعاء أو الى الدعاء فقط وهو الأظهر ويؤيده اختصاص الآية التالية بحكم الدعاء فحسب.

وقوله: ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي إن نسبة الدعي الى أنفسكم ليس إلّا قولاً تقولونه بأفواهكم ليس له أثر وراء ذلك فهو كناية عن انتفاء الاثر كما في قوله: ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ (المؤمنون / ١٠٠).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ معنى كون قوله: هو الحق أنه إن أخبر عن شيء كان الواقع مطابقاً لما أخبر به وإن أنشأ حكماً ترتب عليه آثاره وطابقته المصلحة الواقعية.

ومعنى هدايته السبيل أنه يحمل من هداه على سبيل الحق التي فيها الخير والسعادة وفي الجملتين تلويح الى أن دعوا أقوالكم وخذوا بقوله .

قوله تعالى: ﴿ أُدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ ٱللَّهِ ﴾ الى آخر الآية : اللام في « لآبائهم » للاختصاص أي ادعوهم وهم مخصوصون بآبائهم أي انسبوهم الى آبائهم وقوله : « هو أقسط عند الله » ، الضمير الى المصدر المفهوم من قوله : « ادعوهم » نظير قوله : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » و « أقسط » صيغة تفضيل من القسط بمعنى العدل .

والمعنى : انسبوهم الى آبائهم ـ إذا دعوتموهم ـ لأن الدعاء لآبائهم أعدل عند الله .

وقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ ، المراد بعدم علمهم آباءهم عدم معرفتهم أعيانهم ، والموالي هم الأولياء . والمعنى : وإن لم تعرفوا آباءهم فلا تنسبوهم الى غير آبائهم بل ادعوهم بالاخوّة والولاية الدينية .

وقوله : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَٰكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ أي لا ذنب لكم في الذي أخطأتم به لسهو أو نسيان فدعوتموهم لغير آبائهم ولكن الذي تعمّدته قلوبكم ذنب أو ولكن تعمد قلوبكم بذلك فيه الذنب .

وقوله : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ راجع الى ما أُخطيء به .

قوله تعالى: ﴿ أَلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أنفس المؤمنين هم المؤمنون فمعنى كون النبي أولى بهم من أنفسهم أنه أولى بهم منهم : ومعنى الأولوية هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بينه وبين ما هو أولى منه فالمحصّل أن ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ والكلاءة والمحبة والكرامة واستجابة الدعوة وإنفاذ الإرادة فالنبي أولى بذلك من نفسه ولو دار الأمر بين النبي وبين نفسه في شيء من ذلك كان جانب النبي أرجح من جانب نفسه .

ففيما إذا توجه شيء من المخاطر الى نفس النبي فليقه المؤمن بنفسه ويفده نفسه وليكن

النبي أحب اليه من نفسه وأكرم عنده من نفسه ولو دعته نفسه الى شيء والنبي الى خلافه أو أرادت نفسه منه شيئاً وأراد النبي خلافه كان المتعين استجابة النبي ﷺ وطاعته وتقديمه على نفسه.

وكذا النبي ﷺ أولى بهم فيما يتعلق بالامور الدنيوية أو الدينية كل ذلك لمكان الإطلاق في قوله: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم».

وقوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ جعل تشريعي أي إنهن منهم بمنزلة أُمهاتهم في وجوب تعظيمهن وحرمة نكاحهن بعد النبي ﷺ كما سيأتي التصريح به في قوله: «ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً».

فالتنزيل إنما هو في بعض آثار الامومة لا في جميع الآثار كالتوارث بينهن وبين المؤمنين والنظر في وجوههن كالامهات وحرمة بناتهن على المؤمنين لصيرورتهن أخوات لهم وكصيرورة آبائهن وأُمهاتهن أجداداً وجدات وإخوتهن وأخواتهن أخوالاً وخالات للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ﴾ الخ: الأرحام جمع رحم وهي العضو الذي يحمل النطفة حتى تصير جنيناً فيتولد. وإذ كانت القرابة النسبية لازمة الانتهاء الى رحم واحدة عبّر عن القرابة بالرحم فسمى ذوو القرابة أُولي الأرحام.

والمراد بكون أُولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، الأولوية في التوارث، وقوله: «في كتاب الله» المراد به اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة، وقوله: «من المؤمنين والمهاجرين» مفضّل عليه والمراد بالمؤمنين غير المهاجرين منهم، والمعنى: وذوو القرابة بعضهم أولى ببعض من المهاجرين وسائر المؤمنين الذين كانوا يرثون بالمواخاة الدينية، وهذه الأولوية في كتاب الله وربما احتمل كون قوله: «من المؤمنين والمهاجرين» بياناً لقوله: «وأُولوا

الأرحام».

والآية ناسخة لما كان في صدر الاسلام من التوارث بالهجرة والموالاة في الدين.

وقوله: «إلّا تفعلوا الى أوليائكم معروفاً» الاستثناء منقطع، والمراد بفعل المعروف الى الأولياء الوصية لهم بشيء من التركة، وقد حدّ شرعاً بثلث المال فما دونه، وقوله: «كان ذلك في الكتاب مسطوراً» أي حكم فعل المعروف بالوصية مسطور في اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ إضافة الميثاق الى ضمير النبيين دليل على أن المراد بالميثاق ميثاق خاص بهم كما أن ذكرهم بوصف النبوة مشعر بذلك فالميثاق المأخوذ من النبيين ميثاق خاص من حيث إنهم نبيُّون وهو غير الميثاق المأخوذ من عامة البشر الذي يشير اليه في قوله: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ (الأعراف / ١٧٢).

وقد ذكر النبيين بلفظ عام يشمل الجميع ثم سمّى خمسة منهم بأسمائهم بالعطف عليهم فقال: «ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى عيسى بن مريم» ومعنى العطف إخراجهم من بينهم وتخصيصهم بالذكر كأنه قيل: وإذ أخذنا الميثاق منكم أيها الخمسة ومن باقي النبيين.

ولم يخصهم بالذكر على هذا النمط إلّا لعظمة شأنهم ورفعة مكانهم فإنهم أُولوا عزم وأصحاب شرائع وكتب وقد عدّهم على ترتيب زمانهم: نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى بن مريم عليه السلام، لكن قدّم ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو آخرهم زماناً لفضله وشرفه وتقدمه على الجميع.

وقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ تأكيد وتغليظ للميثاق نظير قوله: ﴿فلما جاء أمرنا نجيّنا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ (هود / ٥٨).

قوله تعالى: ﴿لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾

اللام في «ليسأل» للتعليل أو للغاية وهو متعلق بمحذوف يدل عليه قوله: «وإذ أخذنا» وقوله: «وأعدّ» معطوف على ذلك المحذوف، والتقدير فعل ذلك أي أخذ الميثاق ليتمهد له سؤال الصادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً.

ولم يقل: وليعدّ للكافرين عذاباً، إشارة أن عذابهم ليس من العلل الغائية لأخذ الميثاق وإنما النقص من ناحيتهم والخلف من قبلهم.

وأما سؤال الصادقين عن صدقهم فقيل: المراد بالصادقين الأنبياء وسؤالهم عن صدقهم هو سؤالهم يوم القيامة عما جاءت به أممهم وكأنه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾ (المائدة / ١٠٩).

وقيل: المراد سؤال الصادقين في توحيد الله وعدله والشرائع عن صدقهم أي عما كانوا يقولون فيه، وقيل: المراد سؤال الصادقين في أقوالهم عن صدقهم في أفعالهم، وقيل: المراد سؤال الصادقين عما قصدوا بصدقهم أهو وجه الله أو غيره؟ الى غير ذلك من الوجوه وهي كما ترى.

والتأمل فيما يفيده قوله: «ليسأل الصادقين عن صدقهم» يرشد الى خلاف ما ذكروه، ففرق بين قولنا: سألت الغني عن غناه وسألت العالم عن علمه، وبين قولنا: سألت زيداً عن ماله أو عن علمه، فالمتبادر من الأولين أني طالبته أن يظهر غناه وأن يظهر علمه، ومن الأخيرين أني طالبته أن يخبرني هل له مال أو هل له علم؟ أو يصف لي ما له من المال أو من العلم.

وعلى هذا فمعنى سؤال الصادقين عن صدقهم مطالبتهم أن يظهروا ما في باطنهم من الصدق في مرتبة القول والفعل وهو عملهم الصالح في الدنيا فالمراد بسؤال الصادقين عن صدقهم توجيه التكليف على حسب الميثاق اليهم ليظهر منهم صدقهم المستبطن في نفوسهم وهذا في

الدنيا لا في الآخرة فأخذ الميثاق في نشأة اخرى قبل الدنيا كما يدل عليه آيات الذر ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ الآيات.

وبالجملة الآيتان من الآيات المنبئة عن عالم الذر المأخوذ فيه الميثاق وتذكر أن أخذ الميثاق من الأنبياء عليهم السلام وترتب شأنهم وعملهم في الدنيا على ذلك في ضمن ترتب صدق كل صادق على الميثاق المأخوذ منه.

ولمكان هذا التعميم ذكر عاقبة أمر الكافرين مع أنهم ليسوا من قبيل النبيين والكلام في الميثاق المأخوذ منهم فكأنه قيل: أخذنا ميثاقاً غليظاً من النبيين أن تتفق كلمتهم على دين واحد يبلّغونه ليسأل الصادقين ويطالبهم بالتكليف والهداية إظهار صدقهم في الاعتقاد والعمل ففعلوا فقدّر لهم الثواب وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً.

ومن هنا يظهر وجه الالتفات من التكلم مع الغير الى الغيبة في قوله: «ليسأل الصادقين» الخ: وذلك لأن الميثاق على عبادته وحده لا شريك له وإن كان أخذه منه تعالى بواسطة من الملائكة المصحح لقوله: «أخذنا» «وأخذنا» فالمطالب لصدق الصادقين والمعدّ لعذاب الكافرين بالحقيقة هو تعالى وحده ليعبد وحده فتدبر[1].

٩ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً.

---

١. الاحزاب ١ ـ ٨: بحث روائي حول قوله تعالى: «يا ايها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين»: وقوله تعالى: «النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم».

١٠ ● إِذْ جاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ ٱلْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونا.

١١ ● هُنالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً.

١٢ ● وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاّٰ غُرُوراً.

١٣ ● وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاّٰ فِراراً.

١٤ ● وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلاّٰ يَسِيراً.

١٥ ● وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا ٱللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبارَ وَكانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْئُولاً.

١٦ ● قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً.

١٧ ● قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً.

١٨ ● قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَٱلْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلاّٰ قَلِيلاً.

١٩ ● أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ

أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذٰا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ
سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدٰادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُولٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا
فَأَحْبَطَ ٱللّٰهُ أَعْمٰالَهُمْ وَكٰانَ ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ يَسِيراً.

٢٠ ● يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزٰابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ ٱلْأَحْزٰابُ يَوَدُّوا لَوْ
أَنَّهُمْ بٰادُونَ فِي ٱلْأَعْرٰابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبٰائِكُمْ وَلَوْ كٰانُوا
فِيكُمْ مٰا قٰاتَلُوا إِلاّٰ قَلِيلاً.

٢١ ● لَقَدْ كٰانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللّٰهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كٰانَ يَرْجُو
ٱللّٰهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللّٰهَ كَثِيراً.

٢٢ ● وَلَمّٰا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزٰابَ قٰالُوا هٰذٰا مٰا وَعَدَنَا ٱللّٰهُ
وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ ٱللّٰهُ وَرَسُولُهُ وَمٰا زٰادَهُمْ إِلاّٰ إِيمٰاناً
وَتَسْلِيماً.

٢٣ ● مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجٰالٌ صَدَقُوا مٰا عٰاهَدُوا ٱللّٰهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ
قَضىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً.

٢٤ ● لِيَجْزِيَ ٱللّٰهُ الصّٰادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنٰافِقِينَ إِنْ شٰاءَ أَوْ
يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللّٰهَ كٰانَ غَفُوراً رَحِيماً.

٢٥ ● وَرَدَّ ٱللّٰهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنٰالُوا خَيْراً وَكَفَى ٱللّٰهُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتٰالَ وَكٰانَ ٱللّٰهُ قَوِيّاً عَزِيزاً.

٢٦ ● وَأَنْزَلَ ٱلَّذِينَ ظٰاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتٰابِ مِنْ صَيٰاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً.

٢٧ ● وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ الخ: تذكير للمؤمنين بما أنعم عليهم أيام الخندق بنصرهم وصرف جنود المشركين عنهم وقد كانوا جنوداً مجندة من شعوب وقبائل شتى كغطفان وقريش والأحابيش وكنانة ويهود بني قريظة والنضير أحاطوا بهم من فوقهم ومن أسفل منهم فسلّط الله عليهم الريح وأنزل ملائكة يخذلونهم.

وهو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ﴾ ظرف للنعمة أو لثبوتها «جاءتكم جنود» من طوائف كل واحدة منهم جند كغطفان وقريش وغيرهما «فأرسلنا» بيان للنعمة وهو الإرسال المتفرع على مجيئهم «عليهم ريحاً» وهي الصبا وكانت باردة في ليال شاتية «وجنوداً لم تروها» وهي الملائكة لخذلان المشركين «وكان الله بما تعملون بصيراً».

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ الخ: الجاؤن من فوقهم وهو الجانب الشرقي للمدينة غطفان ويهود بني قريظة وبني النضير والجاؤن من أسفل منهم وهو الجانب الغربي لها قريش ومن انضم اليهم من الأحابيش وكنانة فقوله: «إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم» عطف بيان لقوله: «إذ جاءتكم جنود».

وقوله: «إذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر»، عطف بيان آخر لقوله: «إذ جاءتكم» الخ: وزيغ الأبصار ميلها والقلوب هي الأنفس والحناجر جمع حنجر وهو جوف الحلقوم.

والوصفان أعني زيغ الأبصار وبلوغ القلوب الحناجر كنايتان عن كمال غشيان الخوف لهم حتى حوّلهم الى حال المحتضر الذي يزيغ بصره وتبلغ روحه الحلقوم.

وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أي يظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض الظنون فبعضهم يقول: إن الكفار سيغلبون ويستولون على المدينة، وبعضهم يقول: إن الإسلام سينمحق والدين سيضيع، وبعضهم يقول: إن الجاهلية ستعود كما كانت، وبعضهم يقول: إن الله غرّهم ورسوله الى غير ذلك من الظنون.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً﴾ هنالك إشارة بعيدة الى زمان أو مكان والمراد الإشارة الى زمان مجيء الجنود وكان شديداً عليهم لغاية بعيدة، والابتلاء الامتحان، والزلزلة والزلزال الاضطراب، والشدة القوة وتختلفان في أن الغالب على الشدة أن تكون محسوساً بخلاف القوة، قيل: ولذلك يطلق القوي عليه تعالى دون الشديد.

والمعنى في ذلك الزمان الشديد امتحن المؤمنون واضطربوا خوفاً اضطراباً شديداً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ الذين في قلوبهم مرض هم ضعفاء الايمان من المؤمنين وهم غير المنافقين الذين يظهرون الايمان ويبطنون الكفر، وإنما سمي المنافقون الرسول لمكان إظهارهم الإسلام.

والغرور حمل الإنسان على الشر بإراءته في صورة الخير والاغترار احتماله له. قال الراغب: يقال: غررت فلاناً أصبت غرّته ونلت منه ما أُريد، والغِرّة ـ بكسر الغين ـ غفلة في اليقظة. انتهى.

والوعد الذي يعدّونه غروراً من الله ورسوله لهم بقرينة المقام هو وعد الفتح وظهور الإسلام على الدين كله وقد تكرر في كلامه تعالى كما ورد ان المنافقين قالوا: يعدنا محمّد أن

يفتح مدائن كسرى وقيصر ونحن لا نأمن أن نذهب الى الخلاء.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاٰ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ يثرب اسم المدينة قبل الإسلام ثم غلب عليه اسم مدينة الرسول بعد الهجرة ثم المدينة، والمقام بضم الميم الإقامة، وقولهم: لا مقام لكم فارجعوا أي لا وجه لإقامتكم ههنا قبال جنود المشركين فالغلبة لهم لا محالة فارجعوا ثم أتبعه بحكاية ما قاله آخرون فقال عاطفاً على قوله: قالت طائفة: «ويستأذن فريق منهم» أي من المنافقين والذين في قلوبهم مرض «النبي» في الرجوع «يقولون» استئذاناً «إن بيوتنا عورة» أي فيها خلل لا يمن صاحبها دخول السارق وزحف العدو «وما هي بعورة إن يريدون» أي ما يريدون بقولهم هذا «إلّا فراراً».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً﴾ ضمائر الجمع للمنافقين والمرضى القلوب. والضمير في «دخلت» للبيوت ومعنى دخلت عليهم دخل الجنود البيوت حال كونه دخولاً عليهم، والأقطار جمع قطر وهو الجانب. والمراد بالفتنة بقرينة المقام الردة والرجعة من الدين والمراد بسؤالها طلبها منهم. والتلبث التأخر.

والمعنى: ولو دخل جنود المشركين بيوتهم من جوانبها وهم فيها ثم طلبوا منهم أن يرتدوا عن الدين لأعطوهم مسؤلهم وما تأخروا بالردة إلّا يسيراً من الزمان بمقدار الطلب والسؤال أي إنهم يقيمون على الدين ما دام الرخاء فإذا هجمت عليهم الشدة والبأس لم يلبثوا دون أن يرجعوا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا ٱللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاٰ يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْئُولاً﴾ اللام لقسم، وقوله: «لا يولون الادبار» أي لا يفرّون عن القتال وهو بيان للعهد ولعل المراد بعهدهم من قبل هو بيعتهم بالإيمان بالله ورسوله وما جاء به رسوله وبما جاء

به : الجهاد الذي يحرم الفرار فيه ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذاً لاٰ تُمَتَّعُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً ﴾ إذ لا بد لكل نفس من الموت لأجل مقضي محتوم لا يتأخر عنه ساعة ولا يتقدم عليه فالفرار لا يؤثر في تأخير الأجل شيئاً .

وقوله : ﴿ وَإِذاً لاٰ تُمَتَّعُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً ﴾ أي وإن نفعكم الفرار فتعتم بتأخر الأجل فرضاً لا يكون ذلك التمتيع إلّا تمتيعاً قليلاً أو في زمان قليل لكونه مقطوع الآخر لا محالة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ ٱللّٰهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاٰ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَلِيّاً وَلاٰ نَصِيراً ﴾ كانت الآية السابقة تنبيهاً لهم على أن حياة الإنسان مقضي مؤجل لا ينفع معه فرار من الزحف وفي هذه الآية تنبيه على أن الشر والخير تابعان لإرادة الله محضاً لا يمنع عن نفوذها سبب من الاسباب ولا يعصم الإنسان منها أحد فالحزم إيكال الأمر الى إرادته تعالى والقرار على أمره بالتوكل عليه .

ولما كانت قلوبهم مرضى أو مشغولة بكفر مستبطن عدل عن أمر النبي ﷺ بتكليمهم الى تكليم نفسه فقال : « ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً » .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللّٰهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ـ الى قوله ـ يَسِيراً ﴾ التعويق التثبيط والصرف . وهلم اسم فعل بمعنى أقبل . ولا يثنّى ولا يجمع في لغة الحجاز . والبأس الشدة والحرب . وأشحّة جمع شحيح بمعنى البخيل . والذي يغشى عليه هو الذي أخذته الغشوة فغابت حواسه وأخذت عيناه تدوران . والسلق بالفتح فالسكون الضرب والطعن .

ومعنى الآيتين : أن الله ليعلم الذين يثبّطون منكم الناس ويصرفونهم عن القتال وهم المنافقون ويعلم الذين يقولون من المنافقين لإخوانهم من المنافقين أو ضعفة الإيمان تعالوا وأقبلوا ولا يحضرون الحرب إلّا قليلاً بخلاء عليكم بنفوسهم .

فإذا جاء الخوف بظهور مخائل القتال تراهم ينظرون اليك من الخوف نظراً لا إرادة لهم فيه ولا استقرار فيه لأعينهم تدور أعينهم كالمغشي عليه من الموت فإذا ذهب الخوف ضربوكم وطعنوكم بألسنة حداد قاطعة حال كونهم بخلاء على الخير الذي نلتموه.

أُولئك لم يؤمنوا ولم يستقر الايمان في قلوبهم وإن أظهروه في ألسنتهم فأبطل الله أعمالهم وأحبطها وكان ذلك على الله يسيراً.

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ الى آخر الآية؛ أي يظنون من شدة الخوف أن الأحزاب ـ وهم جنود المشركين المتحزبون على النبي ﷺ ـ لم يذهبوا بعد «وإن يأت الأحزاب» مرة ثانية بعد ذهابهم وتركهم المدينة «يودّوا» ويحبوا «أنهم بادون» أي خارجون من المدينة الى البدو «في الأعراب يسألون عن أنبائكم» وأخباركم «ولو كانوا فيكم» ولم يخرجوا منها بادين «ما قاتلوا إلّا قليلاً» أي ولا كثير فائدة في لزومهم إياكم وكونهم معكم فإنهم لن يقاتلوا إلّا قليلاً فلا يعتدّ به.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً﴾ الاسوة القدوة وهي الاقتداء والاتّباع، وقوله: «في رسول الله» أي في مورد رسول الله والاسوة التي في مورده هي تأسّيهم به واتباعهم له والتعبير بقوله: «لقد كان لكم» الدال على الاستقرار والاستمرار في الماضي إشارة الى كونه تكليفاً ثابتاً مستمراً.

والمعنى: ومن حكم رسالة الرسول وإيمانكم به أن تتأسوا به في قوله وفعله وأنتم ترون ما يقاسيه في جنب الله وحضوره في القتال وجهاده في الله حق جهاده.

وقوله: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً﴾ بدل من ضمير الخطاب في «لكم» للدلالة على أن التأسي برسول الله ﷺ خصلة جميلة زاكية لا يتصف بها كلُّ من تسمّى بالايمان، وإنما يتصف بها جمع ممن تلبّس بحقيقة الايمان فكان يرجو

الله واليوم الآخر أي تعلق قلبه بالله فآمن به وتعلق قلبه باليوم الآخر فعمل صالحاً ومع ذلك ذكر الله كثيراً فكان لا يغفل عن ربه فتأسى بالنبي في أفعاله وأعماله.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. وصف لحال المؤمنين لما شاهدوا الأحزاب ونزول جيوشهم حول المدينة فكان ذلك سبب رشدهم وتبصّرهم في الإيمان وتصديقهم لله ولرسوله على خلاف ما ظهر من المنافقين والذين في قلوبهم مرض من الإرتياب وسيء القول. وبذلك يظهر أن المراد بالمؤمنين المخلصون لإيمانهم بالله ورسوله.

وقوله: ﴿قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الإشارة بهذا الى ما شاهدوه مجرداً عن سائر الخصوصيات، كما في قوله: ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي﴾ (الأنعام / ٢٨).

والوعد الذي أشاروا اليه قيل: هو ما كان رسول الله ﷺ وقد وعدهم أن الأحزاب سيتظاهرون عليهم فلما شاهدوهم تبين لهم أن ذلك هو الذي وعدهم.

وقوله: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ شهادة منهم على صدق الوعد. وقوله: «وما زادهم إلّا إيماناً وتسليماً» أي إيماناً بالله ورسوله وتسليماً لأمر الله بنصرة دينه والجهاد في سبيله.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾. قال الراغب: النحب النذر المحكوم بوجوبه. يقال: قضى فلان نحبه أي وفى بنذره قال تعالى: «فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر»، ويعبّر بذلك عمن مات كقولهم: قضى أجله واستوفى أُكله وقضى من الدنيا حاجته. انتهى.

وقوله: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي حققوا صدقهم فيما عاهدوه أن لا يفرُّوا إذا لاقوا العدو، ويشهد على أن المراد بالعهد ذلك أن في الآية محاذاة لقوله السابق في

المنافقين والضعفاء الإيمان: «ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار» كما أن في الآية السابقة محاذاة لما ذكر سابقاً من ارتياب القوم وعدم تسليمهم لأمر الله.

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ﴾ الخ: أي منهم من قضى أجله بموت أو قتل في سبيل الله ومنهم من ينتظر ذلك وما بدّلوا شيئاً مما كانوا عليه من قول أو عهد تبديلاً.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ اللام للغاية وما تتضمنه الاية غاية لجميع من تقدم ذكرهم من المنافقين والمؤمنين.

فقوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ المراد بالصادقين المؤمنين وقد ذكر صدقهم قبل، والباء في «بصدقهم» للسببية أي ليجزي المؤمنين الذين صدقوا عهدهم بسبب صدقهم.

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وليعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم وذلك فيما لو لم يتوبوا أو يتوب عليهم إن تابوا إن الله كان غفوراً رحيماً.

وفي الآية من حيث كونها بيان غاية نكتة لطيفة هي أن المعاصي ربما كانت مقدمة للسعادة والمغفرة لا بما أنها معاص بل لكونها سائقة للنفس من الظلمة والشقوة الى حيث تتوحش النفس وتتنبّه فتتوب الى ربها وتنتزع عن معاصيها وذنوبها فيتوب الله عليها في الغاية.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ الغيظ الغم والحنق والمراد بالخير ما كان يعدّه الكفار خيراً وهو الظفر بالنبي ﷺ والمؤمنين.

والمعنى: وردَّ الله الذين كفروا مع غمّهم وحنقهم والحال أنهم لم ينالوا ما كانوا يتمنونه وكفى الله المؤمنين القتال فلم يقاتلوا وكان الله قوياً على ما يريد عزيزاً لا يغلب.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ـ الى

قوله ـ قَدِيراً ﴾ المظاهرة المعاونة، والصياصي جمع صيصية وهي الحصن الذي يمتنع به ولعل التعبير بالإنزال دون الإخراج لأن المتحصنين يصعدون بروج الحصون ويشرفون منها ومن أعالي الجدران على أعدائهم في خارجها ومحاصريهم.

والمعنى «وأنزل الذين ظاهروهم» أي عاونوا المشركين وهم بنو قريظة «من أهل الكتاب» وهم اليهود «من صياصيهم» وحصونهم «وقذف» وألقى «في قلوبهم الرعب» والخوف «فريقاً تقتلون» وهم الرجال «وتأسرون فريقاً» وهم الذراري والنساء «وأورثكم» أي وملّككم بعدهم «أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤها» وهي أرض خيبر أو الأرض التي أفاء الله مما لم يوجب عليها بخيل ولا ركاب. وأما تفسيرها بأنها كل أرض ستفتح الى يوم القيامة أو أرض مكة أو أرض الروم وفارس فلا يلائمه سياق الآيتين «وكان الله على كل شيء قديراً»[1].

٢٨ ● يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيٰوةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً.

٢٩ ● وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَالدّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللّٰهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً.

٣٠ ● يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا ٱلْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ يَسِيراً.

---

١. الاحزاب ٩ ـ ٢٧: بحث روائي في غزوة الاحزاب؛ حفر الخندق؛ فضيلة سلمان: براز علي عليه السلام لعمرو بن عبد ود وقتله؛ قول رسول الله في ان عمل علي عليه السلام أفضل من عبادة امة محمد؛ دور نعيم بن مسعود في غزوة الاحزاب؛ ذهاب الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم الى حرب بني قريظة.

٣١ ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً.

٣٢ ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً.

٣٣ ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَوٰةَ وَآتِينَ الزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.

٣٤ ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً.

٣٥ ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ إلى تمام الآيتين، سياق الآيتين يلوّح أن أزواج النبي أو بعضهن كانت لا ترتضي ما في عيشتهن في بيت النبي ﷺ من الضيق

والضنك فاشتكت اليه ذلك واقترحت عليه أن يسعدهن في الحياة بالتوسعة فيها وإيتائهن من زينتها؟

فأمر الله سبحانه نبيه أن يخيّرهن بين أن يفارقنه ولهن ما يردن وبين أن يبقين عنده ولهن ما هن عليه من الوضع الموجود.

وقد ردّد أمرهن بين أن يرد الحياة الدنيا وزينتها وبين أن يردن الله ورسوله والدار الآخرة، وهذا الترديد يدل أولاً: أن الجمع بين سعة العيش وصفائها بالتمتع من الحياة وزينتها وزوجية النبي ﷺ والعيشة في بيته مما لا يجتمعان.

وثانياً: أن كلاً من طرفي الترديد مقيّد بما يقابل الآخر. والمراد بإرادة الحياة الدنيا وزينتها جعلها هي الأصل سواء أُريدت الآخرة أو لم يرد، والمراد بإرادة الحياة الآخرة جعلها هي الأصل في تعلق القلب بها سواء توسعت معها الحياة الدنيا ونيلت الزينة وصفاء العيش أو لم يكن شيء من ذلك.

ثم الجزاء أعني نتيجة اختيارهن كلاً من طرفي الترديد مختلف فلهنّ على تقدير اختيارهن الحياة الدنيا وزينتها بمفارقة النبي ﷺ أن يطلّقهن ويمتعهن جمعاء من مال الدنيا، وعلى تقدير بقائهن على زوجية النبي ﷺ واختيار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها الأجر العظيم عند الله لكن لا مطلقاً بل بشرط الإحسان والعمل الصالح.

ويتبين بذلك أن ليس لزوجية النبي ﷺ من حيث هي زوجية كرامة عند الله سبحانه وإنما الكرامة لزوجيته المقارنة للاحسان والتقوى ولذلك لما ذكر ثانياً علوّ منزلتهن قيّده أيضاً بالتقوى فقال: «لستن كأحد من النساء إن اتقيتن» وهذا كقوله في النبي وأصحابه: «محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً ـ الى أن قال ـ وعد الله الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات أجراً عظيماً» حيث مدحهم عامة بظاهر أعمالهم أولاً ثم قيّد وعدهم الأجر العظيم بالايمان والعمل الصالح.

وبالجملة فإطلاق قوله: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات / ١٠) على حاله غير منتقض بكرامة أُخرى بسبب أو نسب أو غير ذلك.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ أمر النبي ﷺ أن يبلغ الآيتين أزواجه ولازمه أن يطلقهن ويمتعهن إن اخترن الشق الأول ويبقيهن على زوجيته إن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إرادة الحياة الدنيا وزينتها كناية بقرينة المقابلة عن اختيارها وتعلق القلب بتمتعاتها والإقبال عليها والإعراض عن الآخرة.

وقوله: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ قال في الكشاف: أصل تعال أن يقوله من في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطأ ثم كثرت حتى استوت في استعماله الأمكنة، ومعنى تعالين أقبلن بإرادتكن واختياركن لأحد أمرين ولم يرد نهوضهن بأنفسهن كما تقول: أقبل يخاصمني وذهب يكلمني وقام يهددني. انتهى.

والتمتيع إعطاؤهن عند التطليق مالاً يتمتعن به والتسريح هو التطليق والسراح الجميل هو الطلاق من غير خصومة ومشاجرة بين الزوجين.

وفي الآية أبحاث فقهية أوردها المفسرون والحق أن ما تتضمنه من الأحكام الشخصية خاصة بالنبي ﷺ ولا دليل من جهة لفظها على شموله لغيره وتفصيل القول في الفقه.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ فقد تقدم أن المقابلة بين هذه الجملة وبين قوله: «إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها» الخ: تفيد كلاً منها بخلاف الاخرى وعدمها، فمعنى الجملة: وإن كنتن تردن وتخترن طاعة الله ورسوله وسعادة الدار الآخرة مع الصبر على ضيق العيش والحرمان من زينة الحياة الدنيا وهي مع ذلك كناية عن البقاء في زوجية النبي ﷺ والصبر على ضيق العيش وإلّا لم صحّ اشتراط الإحسان في الأجر الموعود وهو ظاهر.

فالمعنى: وإن كنتن تردن وتخترن البقاء على زوجية النبي ﷺ والصبر على ضيق العيش فإن الله هيأ لكن أجراً عظيماً بشرط أن تكنّ محسنات في أعمالكنّ مضافاً الى ارادتكن الله ورسوله والدار الآخرة فإن لم تكنّ محسنات لم يكن لكنّ إلّا خسران الدنيا والآخرة جميعاً.

قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ الخ: عدل عن مخاطبة النبي ﷺ فيهن الى مخاطبتهن أنفسهن لتسجيل ما لهن من التكليف وزيادة التوكيد، والآية والتي بعدها تقرير وتوضيح بنحو لما يستفاد من قوله: «فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً» إثباتاً ونفياً.

فقوله: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ الفاحشة الفعلة البالغة في الشناعة والقبح وهي الكبيرة كإيذاء النبي ﷺ والافتراء والغيبة وغير ذلك، والمبيّنة هي الظاهرة.

وقوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي حال كونه ضعفين والضعفان المثلان ويؤيد هذا المعنى قوله في جانب الثواب بعد: «نؤتها أجرها مرتين» فلا يعبأ بما قيل إن المراد بمضاعفة العذاب ضعفين تعذيبهم بثلاثة أمثاله بتقريب أن مضاعفة العذاب زيادته وإذا زيد على العذاب ضعفاه صار المجموع ثلاثة أمثاله.

وختم الآية بقوله: «وكان ذلك على الله يسيراً» للإشارة الى أنه لا مانع من ذلك من كرامة الزوجية ونحوها إذ لا كرامة إلّا للتقوى وزوجية النبي ﷺ إنما تؤثر الأثر الجميل إذا قارن التقوى وأما مع المعصية فلا تزيد إلّا بعداً ووبالاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ الخ: القنوت الخضوع، وقيل: الطاعة وقيل: لزوم الطاعة مع الخضوع، والإعتاد التهيئة، والرزق الكريم مصداقه الجنة.

والمعنى: ومن يخضع منكن لله ورسوله أو لزم طاعة الله ورسوله مع الخضوع ويعمل عملاً صالحاً نعطها أجرها مرتين أي ضعفين وهيأنا لها رزقاً كريماً وهي الجنة.

والالتفات من الغيبة الى التكلم بالغير في قولها: «نؤتها» و «أعتدنا» للإيذان بالقرب والكرامة، خلاف البعد والخزي المفهوم من قوله: «يضاعف لها العذاب ضعفين».

قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ الخ: الآية تنفي مساواتهن لسائر النساء إن اتقين وترفع منزلتهن على غيرهن ثم تذكر أشياء من النهي والأمر متفرعة على كونهن لسن كسائر النساء كما يدل عليه قوله: فلا تخضعن بالقول وقرن ولا تبرّجن، الخ؛ وهي خصال مشتركة بين نساء النبي ﷺ وسائر النساء.

فتصدير الكلام بقوله: «لستن كأحد من النساء إن اتقيتن» ثم تفريع هذه التكاليف المشتركة عليه، يفيد تأكد هذه التكاليف عليهن كأنه قيل: لستن كغيركن فيجب عليكن أن تبالغن في امتثال هذه التكاليف وتحتطن في دين الله أكثر من سائر النساء.

وتؤيد بل تدل على تأكد تكاليفهن مضاعفة جزائهن خيراً وشراً كما دلّت عليها الآية السابقة فإن مضاعفة الجزاء لا تنفك عن تأكد التكليف.

وقوله: ﴿فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ بعدما بيّن علوّ منزلتهن ورفعة قدرهن لمكانهن من النبي ﷺ وشرط في ذلك التقوى فبيَّن أن فضيلتهن بالتقوى لا بالاتصال بالنبي ﷺ نهاهن عن الخضوع في القول وهو ترقيق الكلام وتليينه مع الرجال بحيث يدعو الى الريبة وتثير الشهوة فيطمع الذي في قلبه مرض وهو فقدانه قوة الإيمان التي تردعه عن الميل الى الفحشاء.

وقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ أي كلاماً معمولاً مستقيماً يعرفه الشرع والعرف الإسلامي وهو القول الذي لا يشير بلحنه الى أزيد من مدلوله معرّى عن الايماء الى فساد وريبة.

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ - الى

قوله ـ ﴿ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ «قرن» من قرّ يقر إذا ثبت وأصله اقررن حذفت إحدى الرائين أو من قار يقار إذا اجتمع كناية عن ثباتهن في بيوتهن ولزومهن لها، والتبرّج الظهور للناس كظهور البروج لناظريها. والجاهلية الاولى الجاهلية قبل البعثة فالمراد الجاهلية القديمة، وقول بعضهم: إن المراد به زمان ما بين آدم ونوح عليه السلام ثمان مائة سنة، وقول آخرين إنها ما بين إدريس ونوح، وقول آخرين زمان داود وسليمان وقول آخرين أنه زمان ولادة إبراهيم، وقول آخرين إنه زمان الفترة بين عيسى عليه السلام ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم أقوال لا دليل يدل عليها.

وقوله: ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلٰوةَ وَآتِينَ الزَّكٰوةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أمر بامتثال الأوامر الدينية وقد أفرد الصلاة والزكاة بالذكر من بينها لكونهما ركنين في العبادات والمعاملات ثم جمع الجميع في قوله: «وأطعن الله ورسوله».

وطاعة الله هي امتثال تكاليفه الشرعية وطاعة رسوله فيما يأمر به وينهى بالولاية المجعولة له من عند الله كما قال: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم».

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ كلمة «إنما» تدل على حصر الإرادة في إذهاب الرجس والتطهير وكلمة أهل البيت سواء كان لمجرد الاختصاص أو مدحاً أو نداء يدل على اختصاص إذهاب الرجس والتطهير بالمخاطبين بقوله: «عنكم»، ففي الآية في الحقيقة قصران قصر الإرادة في إذهاب الرجس والتطهير وقصر إذهاب الرجس والتطهير في أهل البيت.

وليس المراد بأهل البيت نساء النبي خاصة لمكان الخطاب الذي في قوله: «عنكم» ولم يقل: عنكن فإما أن يكون الخطاب لهن ولغيرهن كما قيل: إن المراد بأهل البيت أهل البيت الحرام وهم المتقون لقوله تعالى: «إن أولياؤه إلّا المتقون» أو أهل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم الذين يصدق عليهم عرفاً أهل بيته من أزواجه وأقربائه وهم آل عباس وآل عقيل وآل جعفر وآل علي أو النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأزواجه، ولعل هذا هو المراد مما نسب

الى عكرمة وعروة إنها في أزواج النبي ﷺ خاصة.

أو يكون الخطاب لغيرهن كما قيل: إنهم أقرباء النبي من آل عباس وآل عقيل وآل جعفر وآل علي.

وعلى أي حال فالمراد بإذهاب الرجس والتطهير مجرد التقوى الديني بالاجتناب عن النواهي وامتثال الأوامر فيكون المعنى أن الله لا ينتفع بتوجيه هذه التكاليف اليكم وإنما يريد إذهاب الرجس عنكم وتطهيركم على حد قوله: **﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ويتم نعمته عليكم﴾** (المائدة / ٦)، وهذا المعنى لا يلائم شيئاً من معاني أهل البيت السابقة لمنافاته البينة للاختصاص المفهوم من أهل البيت لعمومه لعامة المسلمين المكلفين بأحكام الدين.

وإن كان المراد بإذهاب الرجس والتطهير التقوى الشديد البالغ ويكون المعنى: أن هذا التشديد في التكاليف المتوجهة اليكن أزواج النبي وتضعيف الثواب والعقاب ليس لينتفع الله سبحانه به بل ليذهب عنكم الرجس ويطهركم ويكون من تعميم الخطاب لهن ولغيرهن بعد تخصيصه بهن، فهذا المعنى لا يلائم كون الخطاب خاصاً بغيرهن وهو ظاهر ولا عموم الخطاب لهن ولغيرهن فإن الغير لا يشاركهن في تشديد التكليف وتضعيف الثواب والعقاب.

لا يقال: لم لا يجوز أن يكون الخطاب على هذا التقدير متوجهاً اليهن مع النبي ﷺ وتكليفه شديد كتكليفهن.

لأنه يقال: إنه ﷺ مؤيد بعصمة من الله وهي موهبة إلهية غير مكتسبة بالعمل فلا معنى لجعل تشديد التكليف وتضعيف الجزاء بالنسبة اليه مقدمة أو سبباً لحصول التقوى الشديد له امتناناً عليه على ما يعطيه سياق الآية ولذلك لم يصرح بكون الخطاب متوجهاً اليهن مع النبي ﷺ فقط أحد من المفسرين وإنما احتملناه لتصحيح قول من قال: إن الآية خاصة بأزواج النبي ﷺ.

وإن كان المراد إذهاب الرجس والتطهير بإرادته تعالى ذلك مطلقاً لا بتوجيه مطلق التكليف ولا بتوجيه التكليف الشديد بل إرادة مطلقة لإذهاب الرجس والتطهير لأهل البيت خاصة بما هم أهل البيت كان هذا المعنى منافياً لتقييد كرامتهن بالتقوى سواء كان المراد بالإرادة الإرادة التشريعية أو التكوينية.

وبهذا الذي تقدم يتأيد ما ورد في أسباب النزول أن الآية نزلت في النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسنين عليهم السلام خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم.

وهي روايات جمة تزيد على سبعين حديثاً يربو ما ورد منها من طرق أهل السنة على ما ورد منها من طرق الشيعة فقد روتها أهل السنة بطرق كثيرة عن أُم سلمة وعائشة وأبي سعيد الخدري وسعد وواثلة بن الأسقع وأبي الحمراء وابن عباس وثوبان مولى النبي وعبدالله بن جعفر وعلي والحسن بن علي عليهما السلام في قريب من أربعين طريقاً.

وروتها الشيعة عن علي والسجاد والباقر والصادق والرضا عليهم السلام وأُم سلمة وأبي ذر وأبي ليلى وأبي الأسود الدؤلي وعمرو بن ميمون الأودي وسعد بن أبي وقاص في بضع وثلاثين طريقاً.

فإن قيل: إن الروايات إنما تدل على شمول الآية لعلي وفاطمة والحسنين عليهم السلام ولا ينافي ذلك شمولها لأزواج النبي ﷺ كما يفيده وقوع الآية في سياق خطابهن.

قلنا: إن كثيراً من هذه الروايات وخاصة ما رويت عن أُم سلمة ـ وفي بيتها نزلت الآية ـ تصرح باختصاصها بهم وعدم شمولها لأزواج النبي وسيجيء الروايات وفيها الصحاح.

فإن قيل: هذا مدفوع بنص الكتاب عن شمولها لهن كوقوع الآية في سياق خطابهن.

قلنا: إنما الشأن كل الشأن في اتصال الآية بما قبلها من الآيات فهذه الأحاديث على كثرتها البالغة ناصة في نزول الآية وحدها، ولم يرد حتى في رواية واحدة نزول هذه الآية في ضمن آيات نساء النبي ولا ذكره أحد حتى القائل باختصاص الآية بأزواج النبي كما ينسب الى

عكرمة وعروة، فالآية لم تكن بحسب النزول جزء من آيات نساء النبي ولا متصلة بها وإنما وضعت بينها إما بأمر من النبي ﷺ أو عند التأليف بعد الرحلة، ويؤيده أن آية «وقرن في بيوتكن» على انسجامها واتصالها لو قدّر ارتفاع آية التطهير من بين جملها، فوقع آية التطهير من آية «وقرن في بيوتكن» كموقع آية «اليوم يئس الذين كفروا» من آية محرمات الأكل من سورة المائدة، وقد تقدم الكلام في ذلك في الجزء الخامس من الكتاب.

وبالبناء على ما تقدم تصير لفظة أهل البيت اسماً خاصاً ـ في عرف القرآن ـ بهؤلاء الخمسة وهم النبي وعلي وفاطمة والحسنان عليهم الصلاة والسلام لا يطلق على غيرهم، ولو كان من أقربائه الأقربين وإن صحَّ بحسب العرف العام إطلاقه عليهم.

والرِّجس ـ بالكسر فالسكون ـ صفة من الرجاسة وهي القذارة، والقذارة هيئة في الشيء توجب التجنب والتنفر منها، وتكون بحسب ظاهر الشيء كرجاسة الخنزير، قال تعالى: ﴿ أو لحم الخنزير فإنه رجس ﴾ (الأنعام / ١٤٥)، وبحسب باطنه ـ وهو الرجاسة والقذارة المعنوية ـ كالشرك والكفر وأثر العمل السيء، قال تعالى: ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ (التوبة / ١٢٥)، وقال: ﴿ ومن يرد أن يضلَّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ (الأنعام / ١٢٥).

وأياً ما كان فهو إدراك نفساني وأثر شعوري من تعلق القلب بالاعتقاد الباطل أو العمل السيء وإذهاب الرجس ـ واللام فيه للجنس ـ إزالة كل هيئة خبيثة في النفس تخطىء حق الاعتقاد والعمل فتنطبق على العصمة الإلهية التي هي صورة علمية نفسانية تحفظ الإنسان من باطل الاعتقاد وسيء العمل.

على أنك عرفت أن إرادة التقوى أو التشديد في التكاليف لا تلائم اختصاص الخطاب في الآية بأهل البيت، وعرفت أيضاً أن إرادة ذلك لا تناسب مقام النبي ﷺ من العصمة.

فمن المتعين حمل إذهاب الرجس في الآية على العصمة ويكون المراد بـالتطهير في قـوله: «ويطهّركم تطهيراً» ـ وقد أُكد بالمصدر ـ إزالة أثر الرجس بإيراد ما يقابله بعد إذهاب أصله، ومن المعلوم أن ما يقابل الاعتقاد الباطل هو الاعتقاد الحق فتطهيرهم هو تجهيزهم بـإدراك الحق في الاعتقاد والعمل، ويكون المراد بالإرادة أيضاً غير الإرادة التشريعية لما عـرفت أن الإرادة التشريعية التي هي توجيه التكاليف الى المكلف لا تلائم المقام أصلاً.

والمعنى: أن الله سبحانه تستمر إرادته أن يخصكم بموهبة العصمة بإذهاب الإعتقاد الباطل وأثر العمل السيىء عنكم أهل البيت وإيراد ما يزيل أثر ذلك عليكم وهي العصمة.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ ظاهر السياق أن المراد بالذكر ما يقابل النسيان إذ هو المناسب لسياق التأكيد والتشديد الذي في الآيات فيكون بمنزلة الوصية بعد الوصية بامتثال ما وجّبه اليهن من التكاليف، وفي قوله: «في بيوتكن» تأكيد آخر.

والمعنى: واحفظن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة وليكن منكن في بال حتى لا تغفلن ولا تتخطين مما خط لكم من المسير.

وأما قول بعضهم: إن المراد واشكرن الله إذ صيّركن في بيوت يتلى فيهن القـرآن والسـنة فبعيد من السياق وخاصة بالنظر الى قوله في ذيل الآية: «إن الله كان لطيفاً خبيراً».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾ الخ؛ الإسلام لا يفرّق بين الرجال والنساء في التلبس بكرامة الدين وقد أشـار سبحانه الى ذلك إجمالاً في مثل قوله: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات / ١٣)، ثم صرّح به في مثل قوله: ﴿أني لا أُضيع عمل عامل منكم من ذكر وأُنثى﴾ (آل عمران / ١٩٥)، ثم صرح به تفصيلاً في هذه الآية.

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾ المقابلة بين الإسلام والإيمان تفيد مغايرتهما نوعاً من المغايرة والذي يستفاد منه نحو مغايرتهما قوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ـ الى أن قال ـ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ (الحجرات / ١٥)، يفيد أولاً أن الإسلام هو تسليم الدين بحسب العمل وظاهر الجوارح والإيمان أمر قلبي. وثانياً: أن الإيمان الذي هو أمر قلبي اعتقاد وإذعان باطني بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح.

فالإسلام هو التسليم العملي للدين بإتيان عامة التكاليف والمسلمون والمسلمات هم المسلمون لذلك والإيمان هو عقد القلب على الدين، بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح والمؤمنون والمؤمنات هم الذين عقدوا قلوبهم على الدين بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح فكل مؤمن مسلم ولا عكس.

وقوله: ﴿وَٱلْقَانِتِينَ وَٱلْقَانِتَاتِ﴾ القنوت على ما قيل لزوم الطاعة مع الخضوع وقوله: «والصادقين والصادقات» الصدق مطابقة ما يخبر به الإنسان أو يظهره، للواقع. فهم صادقون في دعواهم صادقون في قولهم صادقون في وعدهم.

وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ فهم متلبسون بالصبر عند المصيبة والنائبة بالصبر على الطاعة وبالصبر عن المعصية، وقوله: «والخاشعين والخاشعات» الخشوع تذلل باطني بالقلب كما أن الخضوع تذلل ظاهري بالجوارح.

وقوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ والصدقة إنفاق المال في سبيل الله ومنه الزكاة الواجبة، وقوله: «والصائمين والصائمات» بالصوم الواجب والمندوب، وقوله: «والحافظين فروجهم والحافظات» أي لفروجهن وذلك بالتجنب عن غير ما أحل الله لهم، وقوله: «والذاكرين الله كثيراً والذاكرات» أي الله كثيراً حذف لظهوره وهم الذين يكثرون من

ذكر الله بلسانهم وجنانهم ويشمل الصلاة والحج.

وقوله: «أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً» التنكير للتعظيم.

بحث روائي:

في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾ كان سبب نزولها أنه لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة خيبر وأصاب كنز آل أبي الحقيق قلن أزواجه: أعطنا ما أصبت فقال لهن رسول الله ﷺ: قسمته بين المسلمين على ما أمر الله عز وجل فغضبن من ذلك، وقلن: لعلك ترى أنك إن طلّقتنا أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوّجونا؟.

فأنف الله عزّ وجل لرسوله فأمره أن يعزلهن فاعتزلهن رسول الله ﷺ في مشربة أُم إبراهيم تسعة وعشرين يوماً حتى حضن وطهرن ثم أنزل الله عز وجل هذه الآية وهي آية التخيير فقال: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك ـ الى قوله ـ أجراً عظيماً﴾ فقامت أُم سلمة أول من قامت فقالت: قد اخترت الله ورسوله فقمن كلهن فعانقنه وقلن مثل ذلك الحديث.

أقول: وروي ما يقرب من ذلك من طرق أهل السنة وفيها أن أول من اختارت الله ورسوله منهن عائشة.

وفي الكافي بإسناده عن داود بن سرحان عن أبي عبدالله عليه السلام أن زينب بنت جحش قالت: يرى رسول الله إن خلى سبيلنا أن لا نجد زوجاً غير وقد كان اعتزل نساءه تسعة وعشرين ليلة فلما قالت زينب الذي قالت بعث الله جبرائيل الى محمّد ﷺ فقال: «قل لأزواجك» الآيتين كلتيهما فقلن: بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة.

وفيه بإسناده عن عيص بن القاسم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن رجل خيّر امرأته فاختارت نفسها بانت؟ قال: لا. إنما هذا شيء كان لرسول الله ﷺ خاصة أُمر بذلك ففعل، ولو اخترن أنفسهن لطلقهن وهو قول الله عزّ وجل: ﴿قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة

الدنيا وزينتها، فتعالين أُمتعكن وأُسرحكن سراحاً جميلاً﴾.

وفي المجمع روى الواحدي بالإسناد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً مع حفصة فتشاجرا بينهما فقال لها: هل لك أن أجعل بيني وبينك رجلاً؟ قالت: نعم.

فأرسل الى عمر فلما أن دخل عليهما قال لها: تكلمي. فقالت: يا رسول الله تكلم ولا تقل إلّا حقاً فرفع عمر يده فوجأ وجهها ثم رفع يده فوجأ وجهها.

فقال له النبي ﷺ: كف، فقال عمر: يا عدوّة الله النبي لا يقول إلّا حقاً والذي بعثه بالحق، لولا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتي فقام النبي ﷺ فصعد الى غرفة فمكث فيها شهراً لا يقرب شيئاً من نسائه يتغدّى ويتعشّى فيها فأنزل الله تعالى هذه الآيات.

وفي الخصال عن الصادق عليه السلام قال: تزوج رسول الله ﷺ بخمس عشرة امرأة ودخل بثلاث عشر امرأة منهن، وقبض عن تسع فأما اللتان لم يدخل بهما فعمرة وسنا. وأما الثلاث عشرة اللاتي دخل بهن فأولهن خديجة بنت خويلد ثم سودة بنت زمعة ثم أُم سلمة واسمها هند بنت أبي أُمية ثم أُم عبدالله عائشة بنت أبي بكر ثم حفصة بنت عمر ثم زينب بنت خزيمة بن الحارث أُم المساكين، ثم زينب بنت جحش ثم أُم حبيب رملة بنت أبي سفيان ثم ميمونة بنت الحارث ثم زينب بنت عميس ثم جويرية بنت الحارث ثم صفية بنت حيي بن أخطب والتي وهبت نفسها للنبي خولة بنت حكيم السلمي.

وكان له سرّيتان يقسم لهما مع أزواجه مارية القبطية وريحانة الخندفية.

والتسع اللاتي قبض عنهن عائشة وحفصة وأُم سلمة وزينب بنت جحش وميمونة بنت الحارث وأُم حبيب بنت أبي سفيان وجويرية وسودة وصفية. وأفضلهن خديجة بنت خويلد ثم أُم سلمة ثم ميمونة.

وفي المجمع قوله: ﴿يا نساء النبي من يأت منكن﴾ الآيتين: روى محمّد بن أبي عمير عن

ابراهيم بن عبدالحميد عن علي بن عبدالله بن الحسين عن أبيه عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال رجل : إنكم أهل بيت مغفور لكم . قال : فغضب وقال : نحن أحرى أن يجري فينا ما أجرى الله في أزواج النبي من أن نكون كما تقول إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ولمسيئنا ضعفين من العذاب .

وفي تفسير القمي مسنداً عن أبي عبدالله عن أبيه عليهما السلام في هذه الآية «ولا تبرّجن تبرُّج الجاهلية الاولى» قال : أي ستكون جاهلية اخرى .

أقول : وهو استفادة لطيفة .

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني عن أُم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لفاطمة : ائتيني بزوجك وابنيه فجاءت بهم فألقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم كساء فدكياً ثم وضع يده عليهم ثم قال : اللهم إن هؤلاء أهل محمد ـ وفي لفظ آل محمّد ـ فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمّد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

قالت ام سلمة : فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي وقال : إنك على خير .

أقول : ورواه في غاية المرام عن عبدالله بن أحمد بن حنبل عن أبيه بإسناده عن ام سلمة .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ام سلمة قالت : نزلت هذه الآية في بيتي : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ وفي البيت سبعة جبرئيل وميكائيل وعلي وفاطمة والحسن والحسين وأنا على باب البيت . قلت : يا رسول الله ألست من أهل البيت ؟ قال : إنك على خير إنك من أزواج النبي .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ام سلمة زوج النبي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ببيتها على منامة له عليه كساء خيبري فجاءت فاطمة ببُرمة فيها خزيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ادعي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً فدعتهم فبينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

ويطهركم تطهيراً﴾.

فأخذ النبي ﷺ بفضلة إزاره فغشاهم إياها ثم أخرج يده من الكساء وأومأ بها الى السماء ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. قالها ثلاث مرات.

قالت ام سلمة: فأدخلت رأسي في الستر فقلت: يا رسول الله وأنا معكم؟ فقال: إنك الى خير مرتين.

أقول: وروى الحديث في غاية المرام عن عبدالله بن أحمد بن حنبل بثلاث طرق عن أُم سلمة وكذا عن تفسير الثعلبي.

وفيه أخرج ابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال: كان يوم أُم سلمة أُم المؤمنين فنزل جبريل الى رسول الله ﷺ بهذه الآية: **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾** قال: فدعا رسول الله ﷺ بحسن وحسين وفاطمة وعلي فضمهم اليه ونشر عليهم الثوب، والحجاب على أُم سلمة مضروب، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. قالت أُم سلمة: فأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنت على مكانك وإنك على خير.

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: نزلت هذه الآية في خمسة فيّ وفي علي وفاطمة وحسن وحسين: **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾.**

أقول: ورواه أيضاً في غاية المرام عن الثعلبي في تفسيره.

وفيه أخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أُم سلمة قالت: في بيتي نزلت: **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾** وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم رسول الله ﷺ

بكساء كان عليه ثم قال : هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

وفي غاية المرام عن الحميدي قال : الرابع والستون من المتفق عليه من الصحيحين عن البخاري ومسلم من مسند عائشة عن مصعب بن شيبة عن صفية بنت شيبة عن عائشة قالت : خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً .

أقول : والحديث مروي عنها بطرق مختلفة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : لما دخل علي بفاطمة جاء النبي ﷺ أربعين صباحاً الى بابها يقول : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته الصلاة رحمكم الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً أنا حرب لمن حاربتم أنا سلم لمن سالمتم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ .

أقول : ورواه أيضاً عن الطبراني عن أبي الحمراء ولفظه رأيت رسول الله ﷺ يأتي باب علي وفاطمة ستة أشهر فيقول : ﴿ إنما يريد الله ﴾ الآية ؛ وأيضاً عن ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء ولفظه حفظت من رسول الله ﷺ ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج الى صلاة الغداة إلاّ أتى الى باب علي فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال : الصلاة الصلاة ﴿ إنما يريد الله ليذهب ﴾ الآية .

ورواه أيضاً عن ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس ولفظه أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة إذا

خرج الى صلاة الفجر ويقول: الصلاة يا أهل البيت الصلاة إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً.

أقول: والروايات في هذه المعاني من طرق أهل السنة كثيرة وكذا من طرق الشيعة، ومن أراد الاطلاع عليها فليراجع غاية المرام للبحراني والعبقات.

وفي غاية المرام عن الحمويني بإسناده عن يزيد بن حيان قال: دخلنا على زيد بن أرقم فقال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: ألا إني تركت فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله عزّ وجل من اتبعه كان على هدى ومن تركه كان على ضلالة، ثم أهل بيتي أُذكركم الله في أهل بيتي ثلاث مرات.

قلنا: من أهل بيته نساؤه؟ قال: لا أهل بيته عصبته الذين حرموا الصدقة بعده آل علي وآل عباس وآل جعفر وآل عقيل.

وفيه أيضاً عن مسلم في صحيحه بإسناده عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: إني تارك فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة، فقلنا: من أهل بيته نساؤه؟ قال: لا أيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر ثم الدهر ثم يطلقها فترجع الى أهلها وقومها. أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده.

أقول: فسّر البيت بالنسب كما يطلق عرفاً على هذا المعنى، يقال: بيوتات العرب بمعنى الأنساب، لكن الروايات السابقة عن أُم سلمة وغيرها تدفع هذا المعنى وتفسر أهل البيت بعلي وفاطمة وابنيها عليهم السلام.

وفي المجمع قال مقاتل بن حيان: لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب دخلت على نساء رسول الله ﷺ فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا.

فأتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن النساء لفي خيبة وخسار . فقال ﷺ : وممَّ ذلك ؟ قالت : لأنهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال ، فأنزل الله تعالى هذه الآية «إن المسلمين والمسلمات» الخ .

أقول : وفي روايات أُخر أن القائلة هي أم سلمة .

٣٦ • وَمٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاٰ مُؤْمِنَةٍ إِذٰا قَضَى ٱللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ ٱللّٰهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً مُبِيناً .

٣٧ • وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللّٰهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللّٰهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنّٰاسَ وَٱللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشٰاهُ فَلَمّٰا قَضىٰ زَيْدٌ مِنْهٰا وَطَراً زَوَّجْنٰاكَهٰا لِكَيْ لاٰ يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوٰاجِ أَدْعِيٰائِهِمْ إِذٰا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكٰانَ أَمْرُ ٱللّٰهِ مَفْعُولاً .

٣٨ • مٰا كٰانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمٰا فَرَضَ ٱللّٰهُ لَهُ سُنَّةَ ٱللّٰهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكٰانَ أَمْرُ ٱللّٰهِ قَدَراً مَقْدُوراً .

٣٩ • ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسٰالاٰتِ ٱللّٰهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا ٱللّٰهَ وَكَفىٰ بِٱللّٰهِ حَسِيباً .

٤٠ • مٰا كٰانَ مُحَمَّدٌ أَبٰا أَحَدٍ مِنْ رِجٰالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ ٱللّٰهِ وَخٰاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ وَكٰانَ ٱللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً .

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الخ: يشهد السياق على أن المراد بالقضاء هو القضاء التشريعي دون التكويني فقضاء الله تعالى حكمه التشريعي في شيء مما يرجع الى أعمال العباد أو تصرفه في شأن من شؤنهم بواسطة رسول من رسله، وقضاء رسوله هو الثاني من القسمين وهو التصرف في شأن من شؤن الناس بالولاية التي جعلها الله تعالى له بمثل قوله: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾.

فقضاؤه ﷺ قضاء منه بولايته وقضاء من الله سبحانه لأنه الجاعل لولايته المنفذ أمره، ويشهد سياق قوله: «إذا قضى الله ورسوله أمراً» حيث جعل الأمر الواحد متعلقاً لقضاء الله ورسوله معاً، على أن المراد بالقضاء التصرف في شؤن الناس دون الجعل التشريعي المختص بالله.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي ما صح ولا يحق لأحد من المؤمنين والمؤمنات أن يثبت لهم الاختيار من أمرهم بحيث يختارون ما شاؤا وقوله: «إذا قضى الله ورسوله أمراً» ظرف لنفي الاختيار.

وضميرا الجمع في قوله: «لهم الخيرة من أمرهم» للمؤمن والمؤمنة المراد بهما جميع المؤمنين والمؤمنات لوقوعهما في حيّز النفي ووضع الظاهر موضع المضمر حيث قيل «من أمرهم» ولم يقل: أن يكون لهم الخيرة فيه للدلالة على منشأ توهّم الخيرة وهو انتساب الأمر اليهم.

والمعنى: ليس لأحد من المؤمنين والمؤمنات إذا قضى الله ورسوله بالتصرف في أمر من أُمورهم أن يثبت لهم الاختيار من جهته لانتسابه اليهم وكونه أمراً من أُمورهم فيختاروا منه

غير ما قضى الله ورسوله بل عليهم أن يتبعوا إرادة الله ورسوله.

والآية عامة لكنها لوقوعها في سياق الآيات التالية يمكن أن تكون كالتمهيد لما سيجيء من قوله: «ما كان محمّد أبا أحد من رجالكم» الآية: حيث يلوح منه أن بعضهم كان قد اعترض على تزوج النبي ﷺ بزوج زيد وتعييره بأنها كانت زوج ابنه المدعو له بالتبني وسيجيء في البحث الروائي بعض ما يتعلق بالمقام.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الى آخر الآية المراد بهذا الذي أنعم الله عليه وأنعم النبي عليه زيد بن حارثة الذي كان عبداً للنبي ﷺ ثم حرَّره واتخذه ابناً له وكان تحته زينب بنت جحش بنت عمة النبي ﷺ أتى زيد النبي فاستشاره في طلاق زينب فنهاه النبي ﷺ عن الطلاق ثم طلقها زيد فتزوجها النبي ﷺ ونزلت الآيات.

فقوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي بالهداية الى الايمان وتحبيبه الى النبي ﷺ وقوله: «وأنعمت عليه» أي بالإحسان اليه وتحريره وتخصيصه بنفسك، وقوله: «أمسك عليك زوجك واتق الله» كناية عن الكف عن تطليقها. ولا يخلو من إشعار بإصرار زيد على تطليقها.

وقوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي مظهره «وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه» ذيل الآيات أعني قوله: ﴿الذين يبلّغون رسالات الله ولا يخشون أحداً إلّا الله﴾ دليل على أن خشيته ﷺ الناس لم تكن خشية على نفسه بل كان خشية في الله فأخفى في نفسه ما أخفاه استشعاراً منه أنه لو أظهره عابه الناس وطعن فيه بعض من في قلبه مرض فأثر ذلك أثراً سيئاً في إيمان العامة، وهذا الخوف ـ كما ترى ـ ليس خوفاً مذموماً بل خوف في الله هو في الحقيقة خوف من الله سبحانه.

فقوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَىٰهُ﴾ الظاهر في نوع من العتاب

ردع عن نوع من خشية الله وهي خشيته عن طريق الناس وهداية الى نوع آخر من خشيته تعالى وأنه كان من الحري أن يخشى الله دون الناس ولا يخفي ما في نفسه ما الله مبديه وهذا نعم الشاهد على أن الله كان قد فرض له أن يتزوج زوج زيد الذي كان تبناه ليرتفع بذلك الحرج عن المؤمنين في التزويج بأزواج الأدعياء وهو ﷺ كان يخفيه في نفسه الى حين مخافة سوء أثره في الناس فأمنه الله ذلك بعتابه عليه نظير ما تقدم في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي بلّغ ما أُنزل اليك من ربك ـ الى قوله ـ والله يعصمك من الناس﴾ الآية.

فظاهر العتاب الذي يلوح من قوله: «وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه» مسوق لانتصاره وتأييد أمره قبال طعن الطاعنين ممن في قلوبهم مرض نظير ما تقدم في قوله: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ (التوبة / ٤٣).

ومن الدليل على أنه انتصار وتأييد في صورة العتاب قوله بعد: «فلما قضى زيد منها وطراً زوّجناكها» حيث أخبر عن تزويجه إياها كأنه أمر خارج عن إرادة النبي ﷺ واختياره ثم قوله: «وكان أمر الله مفعولاً».

فقوله: «فلما قضى زيد منها وطراً زوَّجناكها» متفرع على ما تقدم من قوله: «وتخفي في نفسك ما الله مبديه» وقضاء الوطر منها كناية عن الدخول والتمتع، وقوله: «لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم لما قضوا منهن وطراً» تعليل للتزويج ومصلحة للحكم، وقوله: «وكان أمر الله مفعولاً» مشير الى تحقق الوقوع وتأكيد للحكم.

ومن ذلك يظهر أن الذي كان النبي ﷺ يخفيه في نفسه هو ما فرض الله له أن يتزوجها لا هواها وحبه الشديد لها وهي بعد مزوجة كما ذكره جمع من المفسرين واعتذروا عنه بأنها حالة جبليّة لا يكاد يسلم منها البشر، فإن فيه أولاً: منع أن يكون بحيث لا يقوى عليه التربية الإلهية، وثانياً: أنه لا معنى حينئذ للعتاب على كتمانه وإخفائه في نفسه فلا مجوّز في الإسلام لذكر حلائل الناس والتشبب بهن.

قوله تعالى: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾ الخ: الفرض هو التعيين والإسهام يقال: فرض له كذا أي عيّنه له وأسهمه به. وقيل: هو في المقام بمعنى الإباحة والتجويز. والحرج الكلفة والضيق. والمراد بنفي الحرج نفي سببه وهو المنع عما فرض له.

والمعنى: ما كان على النبي من منع فيما عيّن الله له أو أباح الله له حتى يكون عليه حرج في ذلك.

وقوله: ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ اسم موضوع موضع المصدر فيكون مفعولاً مطلقاً والتقدير سنّ الله ذلك سنّة. والمراد بالذين خلوا من قبل هم الأنبياء والرسل الماضون بقرينة قوله بعد: «الذين يبلّغون رسالات الله» الخ.

وقوله: ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ أي يقدّر من عنده لكل أحد ما يلائم حاله ويناسبها. والأنبياء لم يمنعوا مما قدّره الله وأباحه لغيرهم حتى يمنع النبي ﷺ من بعض ما قدّر وأبيح.

قوله تعالى: ﴿الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلّا الله﴾ الخ: الموصول بيان للموصول المتقدم أعني قوله: «الذين خلوا من قبل».

والخشية هي تأثر خاص للقلب عن المكروه وربما ينسب الى السبب الذي يتوقع منه المكروه. يقال: خشيت أن يفعل بي فلان كذا أو خشيت فلاناً أن يفعل بي كذا. والأنبياء يخشون الله ولا يخشون أحداً غيره لأنه لا مؤثر في الوجود عندهم إلّا الله.

وهذا غير الخوف الذي هو توقع المكروه بحيث يترتب عليه الاتقاء عملاً سواء كان معه تأثر قلبي أو لا فإنه أمر عملي ربما ينسب الى الأنبياء كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ففرت منكم لما خفتكم﴾ (الشعراء / ٢١). وقوله في النبي ﷺ: ﴿وإما تخافنّ من قوم خيانة﴾ (الأنفال / ٥٨). وهذا هو الأصل في معنى الخوف والخشية وربما استعملا

كالمترادفين.

ومما تقدم يظهر أن الخشية منفية عن الأنبياء عليهم السلام مطلقاً وإن كان سياق قوله: «يبلّغون رسالات الله ويخشونه» الخ؛ يلوّح الى أن المنفي هو الخشية في تبليغ الرسالة. على أن جميع أفعال الأنبياء كأقوالهم من باب التبليغ فالخشية في أمر التبليغ مستوعبة لجميع أعمالهم.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ أي محاسباً يحاسب على الصغيرة والكبيرة فيجب أن يخشى ولا يخشى غيره.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ الخ؛ لا شك في أن الآية مسوقة لدفع اعتراضهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه تزوج زوج ابنه ومحصل الدفع أنه ليس أبا زيد ولا أبا أحد من الرجال الموجودين في زمن الخطاب حتى يكون تزوجه بزوج أحدهم بعده تزوجاً بزوج ابنه فالخطاب في قوله: «من رجالكم» للناس الموجودين في زمن نزول الآية، والمراد بالرجال ما يقابل النساء والولدان ونفي الابوّة نفي تكويني لا تشريعي ولا تتضمن الجملة شيئاً من التشريع.

والمعنى: ليس محمّد صلى الله عليه وآله وسلم أبا أحد من هؤلاء الرجال الذين هم رجالكم حتى يكون تزوجه بزوج أحدهم بعده تزوجاً منه بزوج ابنه وزيد أحد هؤلاء الرجال فتزوجه بعد تطليقه ليس تزوجاً بزوج الابن حقيقة وأما تنبيه زيداً فإنه لا يترتب عليه شيء من آثار الابوة والبنوة وما جعل أدعياءكم أبناءكم.

وأما القاسم والطيب والطاهر[1] وإبراهيم فإنهم أبناؤه حقيقة لكنهم ماتوا قبل أن يبلغوا فلم يكونوا رجالاً حتى ينتقض الآية وكذا الحسن والحسين وهما ابنا رسول الله فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبض قبل أن يبلغا حدّ الرجال.

---

١. هذا على ما هو المعروف وقال بعضهم: ان الطيب والطاهر لقبان للقاسم.

ومما تقدم ظهر أن الآية لا تقتضي نفي أبوّته ﷺ للقاسم والطيب والطاهر وإبراهيم وكذا للحسنين لما عرفت أنها خاصة بالرجال الموجودين في زمن النزول على نعت الرجولية.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الخاتم بفتح التاء ما يختم به كالطابع والقالب بمعنى ما يطبع به وما يقلب به والمراد بكونه خاتم النبيين أن النبوة اختتمت به ﷺ فلا نبي بعده.

وقد عرفت فيما مر معنى الرسالة والنبوة وأن الرسول هو الذي يحمل رسالة من الله الى الناس والنبي هو الذي يحمل نبأ الغيب الذي هو الدين وحقائقه ولازم ذلك أن يرتفع الرسالة بارتفاع النبوة فإن الرسالة من أنباء الغيب. فإذا انقطعت هذه الأنباء انقطعت الرسالة.

ومن هنا يظهر أن كونه ﷺ خاتم النبيين يستلزم كونه خاتماً للرسل.

وفي الآية إيماء الى أن ارتباطه ﷺ وتعلقه بكم تعلق الرسالة والنبوة وأن ما فعله كان بأمر من الله سبحانه.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ أي ما بينه لكم إنما كان بعلمه[1].

بحث روائي:

في الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت: أنا خير منه حسباً وكانت امرأة فيها حدة فأنزل الله «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة» الآية كلها.

أقول: وفي معناها روايات أُخر.

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: نزلت في أُم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط

---

١. الاحزاب ٣٦ـ ٤٠: بحث روائي في تزويج الرسول الكريم ﷺ زينب بنت جحش بأمر الله.

وكانت أول امرأة هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبي ﷺ فزوجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالت: إنما أردنا رسول الله فزوجنا عبده فنزلت.

أقول: والروايتان أشبه بالتطبيق منهما بسبب النزول.

وفي العيون في باب مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون مع أصحاب الملل في حديث يجيب فيه عن مسألة علي بن الجهم في عصمة الأنبياء:

قال: وأما محمد ﷺ وقول الله عزّ وجل: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ فإن الله عزّ وجل عرّف نبيه ﷺ أسماء أزواجه في دار الدنيا وأسماء أزواجه في الآخرة وأنهن أُمهات المؤمنين وأحد من سمي له زينب بنت جحش وهي يومئذ تحت زيد بن حارثة فأخفى ﷺ اسمها في نفسه ولم يبده لكيلا يقول أحد من المنافقين: إنه قال في امرأة في بيت رجل: أنها أحد أزواجه من أُمهات المؤمنين وخشي قول المنافقين.

قال الله عزّ وجل: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ يعني في نفسك الحديث.

أقول: وروى ما يقرب منه فيه عنه عليه السلام في جواب مسألة المأمون عنه في عصمة الأنبياء.

وفي المجمع في قوله تعالى: «وتخفي في نفسك ما الله مبديه» قيل: إن الذي أخفاه في نفسه هو أن الله سبحانه أعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيداً سيطلقها فلما جاء زيد وقال له: أُريد أن أُطلق زينب قال له: أمسك عليك زوجك. فقال سبحانه: لم قلت: أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك؟ وروي ذلك عن علي بن الحسين عليه السلام.

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري والترمذي وابن المنذر والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو زينب الى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقول: اتق الله وامسك عليك زوجك فنزلت: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾.

قال أنس: فلو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه الآية. فتزوجها رسول الله ﷺ

الحديث.

أقول: والروايات كثيرة في المقام وإن كان كثير منها لا يخلو من شيء وفي الروايات: ما أولم رسول الله ﷺ على امرأة من نسائه ما أولم على زينب ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم، وفي الروايات أنها كانت تفتخر على سائر نساء النبي بثلاث أن جدها وجدّ النبي ﷺ واحد فإنها كانت بنت أُميمة بنت عبدالمطلب عمة النبي ﷺ وأن الذي زوَّجها منه هو الله سبحانه وأن السفير جبرئيل.

وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾: وصح الحديث عن جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ قال: إنما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وحسنها إلّا موضع لبنة. فكان من دخلها ونظر اليها فقال: ما أحسنها إلّا موضع هذه البنة. قال ﷺ: فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء، أورده البخاري ومسلم في صحيحهما.

أقول: وروى هذا المعنى غيرهما كالترمذي والنسائي وأحمد وابن مردويه عن غير جابر كأبي سعيد وأبي هريرة.

وفي الدر المنثور أخرج ابن الأنباري في المصاحف عن أبي عبدالرحمن السلميّ قال: كنت أُقرىء الحسن والحسين فمرّ بي علي بن أبي طالب وأنا أُقرئهما فقال لي: أقرئهما وخاتم النبيين بفتح التاء.

٤١ ۞ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً.

٤٢ ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً.

٤٣ ۞ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً.

٤٤ ◈ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً.

٤٥ ◈ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً.

٤٦ ◈ وَداعِياً إِلَى ٱللّٰهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً.

٤٧ ◈ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ فَضْلاً كَبِيراً.

٤٨ ◈ وَلا تُطِعِ ٱلْكافِرِينَ وَٱلْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذيهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ وَكَفىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللّٰهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ الذكر ما يقابل النسيان وهو توجيه الإدراك نحو المذكور وأما التلفظ بما يدل عليه من أسمائه وصفاته فهو بعض مصاديق الذكر.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ التسبيح هو التنزيه وهو مثل الذكر لا يتوقف على اللفظ وإن كان التلفظ بمثل سبحان الله بعض مصاديق التسبيح.

والبكرة أول النهار والأصيل آخره بعد العصر وتقييد التسبيح بالبكرة والأصيل لما فيهما من تحول الأحوال فيناسب تسبيحه وتنزيهه من التغير والتحول وكل نقص طار، ويمكن أن يكون البكرة والأصيل معاً كناية عن الدوام كالليل والنهار في قوله: ﴿يسبحون له بالليل والنهار﴾ (حم السجدة / ٣٨).

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ المعنى الجامع للصلاة على ما يستفاد من موارد استعمالها هو الانعطاف فيختلف باختلاف ما نسب اليه ولذلك قيل: إن الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ومن

الناس الدعاء لكن الذي نسب من الصلاة الى الله سبحانه في القرآن هو الصلاة بمعنى الرحمة الخاصة بالمؤمنين وهي التي تترتب عليها سعادة العقبى والفلاح المؤيد ولذلك علّل تصليته عليهم بقوله: «ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيماً».

وقد رتب سبحانه في كلامه على نسيانهم له نسيانه لهم وعلى ذكرهم له ذكره لهم فقال: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ (التوبة / ٦٧)، وقال: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ (البقرة / ١٥٢) وتصليته عليهم ذكر منه لهم بالرحمة فإن ذكروه كثيراً وسبّحوه بكرة وأصيلاً صلى عليهم كثيراً وغشيهم بالنور وأبعدهم من الظلمات.

ومن هنا يظهر أن قوله: «هو الذي يصلي عليكم» الخ: في مقام التعليل لقوله: «يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً» وتفيد التعليل أنكم إن ذكرتم الله كثيراً ذكركم برحمته كثيراً وبالغ في إخراجكم من الظلمات الى النور ويستفاد منه أن الظلمات إنما هي ظلمات النسيان والغفلة والنور نور الذكر.

وقوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ وضع الظاهر موضع المضمر، أعني قوله: «بالمؤمنين» ولم يقل: وكان بكم رحيماً، ليدل به على سبب الرحمة وهو وصف الايمان.

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ ظاهر السياق أن «تحيتهم» مصدر مضاف الى المفعول أي إنهم يحيّون - بالبناء للمفعول - يوم يلقون ربهم من عند ربهم ومن ملائكته بالسلام أي إنهم يوم اللقاء في أمن وسلام لا يصيبهم مكروه ولا يمسهم عذاب.

وقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ أي وهيأ الله لهم ثواباً جزيلاً.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ شهادته ﷺ على الأعمال أن يتحملها في هذه النشأة ويؤديها يوم القيامة، وقد تقدم في قوله: ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة / ١١٢)، وغيره من آيات الشهادة

أنه ﷺ شهيد الشهداء.

وكونه مبشراً ونذيراً تبشيره المؤمنين المطيعين لله ورسوله بثواب الله والجنة وإنذاره الكافرين والعاصين بعذاب الله والنار.

قوله تعالى: ﴿وَدَاعِياً إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ دعوته الى الله هي دعوته الناس الى الايمان بالله وحده، ولازمه الايمان بدين الله وتقيد الدعوة بإذن الله يجعلها مساوقة للبعثة.

وكونه ﷺ سراجاً منيراً هو كونه بحيث يهتدي به الناس الى سعادتهم وينجون من ظلمات الشقاء والضلالة فهو من الإستعارة. وقول بعضهم: إن المراد بالسراج المنير القرآن والتقدير ذا سراج منير تكلف من غير موجب.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾. الفضل من العطاء ما كان من غير استحقاق ممن يأخذه وقد وصف الله عطاءه فقال: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ (الأنعام / ١٦٠)، وقال: ﴿لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد﴾ (ق / ٣٥)، فبين أنه يعطي من الثواب ما لا يقابل العمل وهو الفضل ولا دليل في الآية يدل على اختصاصه بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الخ: تقدم معنى طاعة الكافرين والمنافقين في أول السورة.

وقوله: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي اترك ما يؤذونك بالاعراض عنه وعدم الاشتغال به والدليل على هذا المعنى قوله: «وتوكل على الله» أي لا تستقلّ بنفسك في دفع أذاهم بل اجعل الله وكيلاً في ذلك وكفى بالله وكيلاً[1].

---

١. الاحزاب ٤١ ـ ٤٨: بحث روائي في ذكر الله الكثير.

٤٩ ● يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذٰا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنٰاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمٰا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهٰا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرٰاحاً جَمِيلاً.

٥٠ ● يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّٰا أَحْلَلْنٰا لَكَ أَزْوٰاجَكَ اللاّٰتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمٰا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمّٰا أَفٰاءَ ٱللّٰهُ عَلَيْكَ وَبَنٰاتِ عَمِّكَ وَبَنٰاتِ عَمّٰاتِكَ وَبَنٰاتِ خٰالِكَ وَبَنٰاتِ خٰالاٰتِكَ اللاّٰتِي هٰاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهٰا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرٰادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهٰا خٰالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنٰا مٰا فَرَضْنٰا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوٰاجِهِمْ وَمٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ لِكَيْلاٰ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكٰانَ ٱللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً.

٥١ ● تُرْجِي مَنْ تَشٰاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشٰاءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاٰ جُنٰاحَ عَلَيْكَ ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاٰ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمٰا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا فِي قُلُوبِكُمْ وَكٰانَ ٱللّٰهُ عَلِيماً حَلِيماً.

٥٢ ● لاٰ يَحِلُّ لَكَ النِّسٰاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاٰ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوٰاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاّٰ مٰا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكٰانَ ٱللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً.

٥٣ ● يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاّٰ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ

إِلىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاٰ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَٱللّٰهُ لاٰ يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللّٰهِ وَلاٰ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ ٱللّٰهِ عَظِيماً.

٥٤ ❁ إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللّٰهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً.

٥٥ ❁ لاٰ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاٰ أَبْنَائِهِنَّ وَلاٰ إِخْوَانِهِنَّ وَلاٰ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاٰ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاٰ نِسَائِهِنَّ وَلاٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللّٰهَ إِنَّ ٱللّٰهَ كَانَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً.

٥٦ ❁ إِنَّ ٱللّٰهَ وَمَلاٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً.

٥٧ ❁ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللّٰهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللّٰهُ فِي الدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً.

٥٨ ❁ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً.

٥٩ ❁ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاٰبِيبِهِنَّ ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلاٰ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ

ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

٦٠ ﴿ لَـئِنْ لَـمْ يَـنْتَهِ ٱلْـمُنَافِقُونَ وَٱلَّـذِينَ فِـي قُـلُوبِهِمْ مَـرَضٌ
وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا
إِلاَّ قَلِيلاً.

٦١ ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً.

٦٢ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَـنْ تَـجِدَ لِسُـنَّةِ ٱللَّـهِ
تَبْدِيلاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ المراد بنكاحهن العقد عليهن بالنكاح، وبالمس الدخول، وبالتمتيع إعطاؤهن شيئاً من المال يناسب شأنهن وحالهن والتسريح بالجميل إطلاقهن من غير خصومة وخشونة.

والمعنى: إذا طلقتم النساء بعد النكاح وقبل الدخول فلا عدة لهن للطلاق ويجب تمتيعهن بشيء من المال والسراح الجميل.

والآية مطلقة تشمل ما إذا فرض لهن فريضة المهر وما إذا لم يفرض فيقيدها قوله: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ (البقرة / ٢٣٧)، وتبقى حجة فيما لم يفرض لهن فريضة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾

الى آخر الآية: يذكر سبحانه لنبيه ﷺ بالاحلال سبعة أصناف من النساء: الصنف الأول ما في قوله: «أزواجك اللاتي آتيت أجورهن» والمراد بالاجور المهور. والثاني ما في قوله: «وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك» أي من يملكه من الإماء الراجعة اليه من الغنائم والأنفال. وتقييد ملك اليمين بكونه مما أفاء الله عليه كتقييد الأزواج بقوله: «اللاتي آتيت أجورهن» للتوضيح لا للاحتراز.

والثالث والرابع ما في قوله: «وبنات عمك وبنات عماتك» قيل: يعني نساء قريش. والخامس والسادس ما في قوله: «وبنات خالك وبنات خالاتك» قيل: يعني نساء بني زهرة، وقوله: «اللاتي هاجرن معك» قال في المجمع: هذا إنما كان قبل تحليل غير المهاجرات ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل.

والسابع ما في قوله: «وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها» وهي المرأة المسلمة التي بذلت نفسها للنبي ﷺ بمعنى أن ترضى أن يتزوج بها من غير صداق ومهر فإن الله أحلها له إن أراد أن يستنكحها. وقوله: «خالصة لك من دون المؤمنين» إيذان بأن هذا الحكم ـ أي حلية المرأة للرجل ببذل النفس ـ من خصائصه لا يجري في المؤمنين، وقوله بعده: «قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم» تقرير لحكم الاختصاص.

وقوله: ﴿لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ تعليل لقوله في صدر الآية: «إنا أحللنا لك» أو لما في ذيلها من حكم الاختصاص والأول أظهر وقد ختمت الآية بالمغفرة والرحمة.

قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ الخ: الإرجاء التأخير والتبعيد. وهو كناية عن الرد. والإيواء: الإسكان في المكان وهو كناية عن القبول والضم اليه.

والسياق يدل على أن المراد به أنه ﷺ على خيرة من قبول من وهبت نفسها له أو

ردّه.

وقوله: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾. الابتغاء هو الطلب أي ومن طلبتها من اللاتي عزلتها ولم تقبلها فلا إثم عليك ولا لوم أي يجوز لك أن تضم اليك من عزلتها ورددتها من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لك بعد العزل والرد.

ويمكن أن يكون إشارة الى أن له ﷺ أن يقسم بين نسائه وأن يترك القسم فيؤخر من يشاء منهن ويقدم من يشاء ويعزل بعضهن من القسم فلا يقسم لها أو يبتغيها فيقسم لها بعد العزل وهو أوفق لقوله بعده: «ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى ـ أي أقرب ـ أن تقر أعينهن ـ أي يسررن ـ ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم» وذلك لسرور المتقدمة بما قسمت له ورجاء المتأخرة أن تتقدم بعد.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً﴾ أي يعلم مصالح عباده ولا يعاجل في العقوبة.

وفي الآية أقوال مختلفة أُخر والذي أوردناه هو الأوفق لوقوعها في سياق سابقتها متصلة بها وبه وردت الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كما سيجيء.

قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ الخ: ظاهر الآية لو فرضت مستقلة في نفسها غير متصلة بما قبلها تحريم النساء له ﷺ إلّا من خيّرهن فاخترن الله ونفي جواز التبدل بهن يؤيد ذلك.

لكن لو فرضت متصلة بما قبلها وهو قوله: «إنا أحللنا لك» الخ: كان مدلولها تحريم ما عدا المعدودات وهي الأصناف الستة التي تقدمت.

وفي بعض الروايات عن بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد بالآية محرمات النساء المحدودة في قوله: ﴿حرّمت عليكم أُمهاتكم وبناتكم﴾ الآية: (النساء / ٢٣).

فقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أي من بعد اللاتي اخترن الله ورسوله وهي التسعة على المعنى الأول أو من بعد من عددناه في قولنا «إنا أحللنا لك» على المعنى الثاني أو

من بعد المحللات وهي المحرمات على المعنى الثالث.

وقوله: ﴿أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ﴾ أي أن تطلق بعضهن وتزوج مكانها من غيرهن، وقوله: «إلّا ما ملكت يمينك» يعني الإماء وهو استثناء من قوله في صدر الآية: «لا يحل لك النساء».

وقوله: ﴿وَكانَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾ معناه ظاهر وفيه تحذير عن المخالفة.

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاّٰ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ - الى قوله - مِنَ الْحَقِّ﴾ بيان لأدب الدخول في بيوت النبي ﷺ، وقوله: «إلّا أن يؤذن لكم» استثناء من النهي، وقوله: «الى طعام» متعلق بالإذن، وقوله: «غير ناظرين إناه» أي غير منتظرين لورود إناء الطعام بأن تدخلوا من قبل فتطيلوا المكث في انتظار الطعام ويبيّنه قوله: «ولكن إذا دعيتم فادخلوا وإذا طعمتم - أي أكلتم - فانتشروا»، وقوله: «ولا مستأنسين لحديث» عطف على قوله: «غير ناظرين إناه» وهو حال بعد حال. أي غير ماكثين في حال انتظار الإناء قبل الطعام ولا في حال الاستئناس لحديث بعد الطعام.

وقوله: ﴿إِنَّ ذٰلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ تعليل للنهي أي لا تمكثوا كذلك لأن مكثكم ذلك كان يتأذى منه النبي فيستحيي منكم أن يسألكم الخروج وقوله: «والله لا يستحيي من الحق» أي من بيان الحق لكم وهو ذكر تأذيه والتأديب بالأدب اللائق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذٰا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ ذٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، ضمير «هن» لأزواج النبي ﷺ وسؤالهن متاعاً كناية عن تكليمهن لحاجة أي إذا مسّت الحاجة الى تكليمكم أزواج النبي ﷺ فكلموهن من وراء حجاب، وقوله: «ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن» بيان لمصلحة الحكم.

قوله تعالى: ﴿وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللّٰهِ وَلاٰ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ

مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً ﴾الخ: أي ليس لكم إيذاؤه بمخالفة ما أُمرتم في نسائه وفي غير ذلك وليس لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم أي نكاحكم أزواجه من بعده كان عند الله عظيماً. وفي الآية إشعار بأن بعضهم ذكر ما يشير الى نكاحهم أزواجه بعده وهو كذلك كما سيأتي في البحث الروائي الآتي.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ معناه ظاهر وهو في الحقيقة تنبيه تهديدي لمن كان يؤذي النبي ﷺ أو يذكر نكاح أزواجه من بعده.

قوله تعالى: ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ﴾ الى آخر الآية ضمير «عليهن» لنساء النبي ﷺ، والآية في معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب وقد استثنى الآباء والأبناء والإخوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات وهؤلاء محارم، قيل: ولم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم من الممكن أن يصفوهن لأبنائهم.

واستثنى أيضاً نساءهن وإضافة النساء الى ضميرهن يلوّح الى أن المراد النساء المؤمنات دون الكوافر كما مرّ في قوله تعالى: ﴿أو نسائهن﴾ (النور / ٣١)، واستثنى أيضاً ما ملكت أيمانهن من العبيد والإماء.

وقوله: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ فيه تأكيد الحكم وخاصة من جهة الالتفات من الغيبة الى الخطاب في «اتقين الله».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ قد تقدم أن أصل الصلاة الانعطاف فصلاته تعالى انعطافه عليه بالرحمة انعطافاً مطلقاً لم يقيد في الآية بشيء دون شيء وكذلك صلاة الملائكة عليه انعطاف عليه بالتزكية والاستغفار وهي من المؤمنين الدعاء بالرحمة.

وفي ذكر صلاته تعالى وصلاة ملائكته عليه قبل أمر المؤمنين بالصلاة عليه دلالة على أن

في صلاة المؤمنين له اتباعاً لله سبحانه وملائكته وتأكيداً للنهي الآتي.

وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن طريق صلاة المؤمنين أن يسألوا الله تعالى أن يصلي عليه وآله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾ من المعلوم أن الله سبحانه منزه من أن يناله الأذى وكل ما فيه وصمة النقص والهوان فذكره مع الرسول وتشريكه في إيذائه تشريف للرسول وإشارة الى أن من قصد رسوله بسوء فقد قصده أيضاً بالسوء إذ ليس للرسول بما أنه رسول إلّا ربه فمن قصده فقد قصد ربه.

وقد أوعدهم باللعن في الدنيا والآخرة واللعن هو الابعاد من الرحمة والرحمة الخاصة بالمؤمنين هي الهداية إلى الاعتقاد الحق وحقيقة الإيمان، ويتبعه العمل الصالح فالإبعاد من الرحمة في الدنيا تجزيه عليه جزاءً لعمله فيرجع الى طبع القلوب كما قال: ﴿لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ (المائدة / ١٣)، وقال: ﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلّا قليلاً﴾ (النساء / ٤٦)، وقال: ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ (سورة محمد / ٢٣).

وأما اللعن في الآخرة فهو الابعاد من رحمة القرب فيها وقد قال تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ (المطففين / ١٥).

ثم أوعدهم بأنه أعد لهم ـ أي في الآخرة ـ عذاباً مهيناً ووصف العذاب بالمهين لأنهم يقصدون باستكبارهم في الدنيا إهانة الله ورسوله فقوبلوا في الآخرة بعذاب يهينهم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ تقييد إيذائهم بغير ما اكتسبوا لأن إيذائهم بما اكتسبوا كما في القصاص والحد والتعزير لا إثم فيه.

وأما إيذاؤهم بغير ما اكتسبوا ومن دون استحقاق فيعدّه سبحانه احتمالاً للبهتان والإثم المبين، والبهتان هو الكذب على الغير يواجهه به، ووجه كون الإيذاء من غير اكتساب بهتاناً أن المؤذي إنما يؤذيه لسبب عنده يعدّه جرماً له يقول: لِمَ قال كذا؟ لِمَ فعل كذا؟ وليس بجرم فيبهته عند الإيذاء بنسبة الجرم اليه مواجهة وليس بجرم.

وكونه إثماً مبيناً لأن الافتراء والبهتان مما يدرك العقل كونه إثماً من غير حاجة الى ورود النهي عنهما شرعاً.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ الخ: الجلابيب جمع جلباب وهو ثوب تشتمل به المرأة فيغطي جميع بدنها أو الخمار الذي تغطي به رأسها ووجهها.

وقوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أي يسترن بها فلا تظهر جيوبهن وصدورهن للناظرين.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي ستر جميع البدن أقرب الى أن يعرفن أنهن أهل الستر والصلاح فلا يؤذين أي لا يؤذيهن أهل الفسق بالتعرض لهن.

وقيل: المعنى ذلك أقرب من أن يعرفن أنهن مسلمات حرائر فلا يتعرض لهن بحسبان أنهن إماء أو من غير المسلمات من الكتابيات أو غيرهن والأول أقرب.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ الخ: الانتهاء عن الشيء الامتناع والكف عنه، والإرجاف إشاعة الباطل للاغتمام به وإلقاء الاضطراب بسببه، والإغراء بالفعل التحريض عليه.

والمعنى: أُقسم لئن لم يكف المنافقون والذين في قلوبهم مرض عن الإفساد والذين يشيعون الأخبار الكاذبة في المدينة لإلقاء الاضطراب بين المسلمين لنحرضنّك عليهم ثم لا

يجاورونك في المدينة بسبب نفيهم عنها إلّا زماناً قليلاً وهو ما بين صدور الأمر وفعلية إجرائه.

قوله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ الثقف إدراك الشيء والظفر به. والجملة حال من المنافقين ومن عطف عليهم أي حال كونهم ملعونين أينما وجدوا أُخذوا وبولغ في قتلهم فعمّهم القتل.

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ السنة هي الطريقة المعمولة التي تجري بطبعها غالباً أو دائماً.

يقول سبحانه هذا النكال الذي أوعدنا به المنافقين ومن يحذو حذوهم من النفي والقتل الذريع هي سنة الله التي جرت في الماضين فكلما بالغ قوم في الإفساد وإلقاء الاضطراب بين الناس وتمادوا وطغوا في ذلك أخذناهم كذلك ولم تجد لسنة الله تبديلاً فتجري فيكم كما جرت في الامم من قبلكم[١].

٦٣ ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً.

٦٤ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً.

٦٥ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً.

٦٦ ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا.

---

١. الاحزاب ٤٩ ـ ٦٢: بحث روائي في الزواج والطلاق؛ زوجات النبي ﷺ؛ معنى صلاة الله وصلاة الملائكة وصلاة المؤمن على رسول الله.

٦٧ ● وَقالُوا رَبَّنا إِنّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ.

٦٨ ● رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً.

٦٩ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللّٰهُ
مِمّا قالُوا وَكانَ عِنْدَ ٱللّٰهِ وَجِيهاً.

٧٠ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللّٰهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً.

٧١ ● يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ ٱللّٰهَ
وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً.

٧٢ ● إِنّا عَرَضْنَا ٱلْأَمانَةَ عَلَى السَّمٰواتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبالِ فَأَبَيْنَ
أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا ٱلْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً
جَهُولاً.

٧٣ ● لِيُعَذِّبَ ٱللّٰهُ ٱلْمُنافِقِينَ وَٱلْمُنافِقاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكاتِ
وَيَتُوبَ ٱللّٰهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِناتِ وَكانَ ٱللّٰهُ غَفُوراً
رَحِيماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَسأَلُكَ النّاسُ عَنِ السّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ ٱللّٰهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ تذكر الآية سؤال الناس عن الساعة وإنما كانوا يريدون أن يقدّر لهم زمن وقوعها وأنها قريبة أو بعيدة كما يومي اليه التعبير عنها بالساعة فامر أن يجيبهم بقصر العلم بها في الله سبحانه وعلى ذلك جرت الحال كلما ذكرت في القرآن.

وقوله: ﴿وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ زيادة في الإبهام وليعلموا أن

النبي ﷺ مثل غيره في عدم العلم بها وليس من الستر الذي أسرّه اليه وستره من الناس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً﴾ لعن الكفار إبعادهم من الرحمة، والإعداد التهيئة، والسعير النار التي أُشعلت فالتهبت، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ الفرق بين الولي والنصير أن الولي يلي بنفسه تمام الأمر والمولى عليه بمعزل، والنصير يعين المنصور على بعض الأمر وهو إتمامه فالولي يتولى الأمر كله والنصير يتصدى بعضه، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنَا أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ﴾ تقلب وجوههم في النار تحولها لحال بعد حال فتصفرّ وتسودّ وتكون كالحة أو انتقالها من جهة الى جهة لتكون أبلغ في مس العذاب كما يفعل باللحم المشوي.

وقولهم: «يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا» كلام منهم على وجه التحسر والتمني.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾ السادة جمع سيد وهو ـ على ما في المجمع ـ المالك المعظم الذي يملك تدبير السواد الأعظم وهو الجمع الأكثر، والكبراء جمع كبير ولعل المراد به الكبير سناً فالعامة تطيع وتقلد أحد رجلين إما سيد القوم وإما أسنهم.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ الضعفان المثلان وإنما سألوا لهم ضعفي العذاب لأنهم ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم، ولذلك أيضاً سألوا لهم اللعن الكبير.

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ ٱللَّهِ وَجِيهاً﴾ نهي عن أن يكونوا كبعض بني إسرائيل فيعاملوا نبيهم بمثل ما عامل به بنو إسرائيل من الايذاء وليس المراد مطلق الإيذاء بقول أو فعل وإن كان منهياً عنه بل قوله: «فبرأه الله» يشهد بأنه كان إيذاء من قبيل التهمة والافتراء المحوج في

رفعه الى التبرئة والتنزيه.

ولعل السكوت عن ذكر ما آذوا به موسى عليه السلام يؤيد ما ورد في الحديث أنهم قالوا: ليس لموسى ما للرجال فبرأه الله من قولهم وسيوافيك.

وأوجه ما قيل في إيذائهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه إشارة الى قصة زيد وزينب، وإن يكن كذلك فمن إيذائه صلى الله عليه وآله وسلم ما في كثير من روايات القصة من سردها على نحو لا يناسب ساحة قدسه.

وقوله: ﴿وَكَانَ عِنْدَ ٱللَّهِ وَجِيهاً﴾ أي ذا جاه ومنزلة والجملة مضافاً الى اشتمالها على التبرئة إجمالاً تعلل تبرءته تعالى له وللآية وما بعدها نوع اتصال بالآيات الناهية عن إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾، السديد من السداد وهو الإصابة والرشاد فالسديد من القول ما يجتمع فيه مطابقة الواقع وعدم كونه لغواً أو ذا فائدة غير مشروعة كالنميمة وغير ذلك فعلى المؤمن أن يختبر صدق ما يتكلم به وأن لا يكون لغواً أو يفسد به إصلاح.

قوله تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ رتب على ملازمة القول السديد إصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب وذلك أن النفس إذا لازمت القول السديد انقطعت عن كذب القول ولغو الحديث والكلام الذي يترتب عليه فساد، وبرسوخ هذه الصفة فيها تنقطع طبعاً عن الفحشاء والمنكر واللغو في الفعل وعند ذلك يصلح أعمال الإنسان فيندم بالطبع على ما ضيّعه من عمره في موبقات الذنوب إن كان قد ابتلى بشيء من ذلك وكفى بالندم توبة.

ويحفظه الله فيما بقي من عمره عن اقتحام المهلكات وإن رام شيئاً من صغائر الذنوب غفر الله له فقد قال الله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ (النساء / ٣١)، فملازمة القول السديد تسوق الإنسان الى صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب بإذن الله.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ وعد جميل على الإتيان بجميع الأعمال الصالحة والاجتناب عن جميع المناهي بترتيب الفوز العظيم على طاعة الله ورسوله.

وبذلك تختتم السورة في معناها في الحقيقة لأن طاعة الله ورسوله هي الكلمة الجامعة بين جميع الأحكام السابقة، من واجبات ومحرمات والآيتان التاليتان كالمتمم لمعنى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً - الى قوله - غَفُوراً رَحِيماً﴾ الأمانة - أيا ما كانت - شيء يودع عند الغير ليحتفظ عليه ثم يرده الى من أودعه، فهذه الأمانة المذكورة في الآية شيء ائتمن الله الإنسان عليه ليحفظ على سلامته واستقامته ثم يرده اليه سبحانه كما أودعه.

ويستفاد من قوله: «ليعذب الله المنافقين والمنافقات» الخ؛ أنه أمر يترتب على حمله النفاق والشرك والايمان، فينقسم حاملوه باختلاف كيفية حملهم الى منافق ومشرك ومؤمن.

فهو لا محالة أمر مرتبط بالدين الحق الذي يحصل بالتلبس به وعدم التلبس به النفاق والشرك والايمان.

فهل هو الاعتقاد الحق والشهادة على توحده تعالى، أو مجموع الاعتقاد والعمل بمعنى أخذ الدين الحق بتفاصيله مع الغض عن العمل به، أو التلبس بالعمل به أو الكمال الحاصل للإنسان من جهة التلبس بواحد من هذه الامور.

وليست هي الأول أعني التوحيد فإن السماوات والأرض وغيرهما من شيء توحده تعالى وتسبّح بحمده، وقد قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلّا يسبح بحمده﴾ (الإسراء / ٤٤)، والآية تصرّح بإبائها عنه.

وليست هي الثاني أعني الدين الحق بتفاصيله فإن الآية تصرح بحمل الانسان كائناً من

كان من مؤمن وغيره له ومن البيّن أن أكثر من لا يؤمن لا يحمله ولا علم له به . وبهذا يظهر أنها ليست بالثالث وهو التلبس بالعمل بالدين الحق تفصيلاً .

وليست هي الكمال الحاصل له بالتلبس بالتوحيد فإن السماوات والأرض وغيرهما ناطقة بالتوحيد فعلاً متلبسة به .

وليست هي الكمال الحاصل من أخذ دين الحق والعلم به إذ لا يترتب على نفس الاعتقاد الحق والعلم بالتكاليف الدينية نفاق ولا شرك ولا إيمان ولا يستعقب سعادة ولا شقاء وإنما يترتب الأثر على الالتزام بالاعتقاد الحق والتلبس بالعمل .

فبقي أنها الكمال الحاصل له من جهة التلبس بالاعتقاد والعمل الصالح وسلوك سبيل الكمال بالارتقاء من حضيض المادة الى أوج الإخلاص الذي هو أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره فيتولى هو سبحانه تدبير أمره وهو الولاية الإلهية .

فالمراد بالأمانة الولاية الإلهية وبعرضها على هذه الأشياء اعتبارها مقيسة اليها والمراد بحملها والإباء عنه وجود استعدادها وصلاحية التلبس بها وعدمه . وهذا المعنى هو القابل لأن ينطبق على الآية فالسماوات والأرض والجبال على ما فيها من العظمة والشدة والقوة فاقدة لاستعداد حصولها فيها وهو المراد بإبائهن عن حملها وإشفاقهن منها .

لكن الانسان الظلوم الجهول لم يأب ولم يشفق من ثقلها وعظم خطرها فحملها على ما بها من الثقل وعظم الخطر فتعقب ذلك أن انقسم الإنسان من جهة حفظ الأمانة وعدمه بالخيانة الى منافق ومشرك ومؤمن بخلاف السماوات والأرض والجبال فما منها إلّا مؤمن مطيع .

فان قلت : ما بال الحكيم العليم حمل على هذا المخلوق الظلوم الجهول حملاً لا يتحمله لثقله وعظم خطره السماوات والأرض والجبال على عظمتها وشدتها وقوتها وهو يعلم أنه أضعف من أن يطيق حمله وإنما حمله على قبولها ظلمه وجهله وأجرأه عليه غروره وغفلته عن عواقب الامور فما تحميله الأمانة باستدعائه لها ظلماً وجهلاً إلّا كتقليد مجنون ولاية عامة يأبى قبولها

العقلاء ويشفقون منها يستدعيها المجنون لفساد عقله وعدم استقامة فكره.

قلت: الظلم والجهل في الإنسان وإن كانا بوجه ملاك اللوم والعتاب فهما بعينهما مصحح حمله الأمانة والولاية الإلهية فإن الظلم والجهل إنما يتصف بهما من كان من شأنه الاتصاف بالعدل والعلم فالجبال مثلاً لا تتصف بالظلم والجهل فلا يقال: جبل ظالم أو جاهل لعدم صحة اتصافه بالعدل والعلم وكذلك السماوات والأرض لا يحمل عليها الظلم والجهل لعدم صحة اتصافها بالعدل والعلم بخلاف الانسان.

والأمانة المذكورة في الآية وهي الولاية الإلهية وكمال صفة العبودية إنما تتحصل بالعلم بالله والعمل الصالح الذي هو العدل وإنما يتصف بهذين الوصفين أعني العلم والعدل الموضوع القابل للجهل والظلم فكون الانسان في حد نفسه وبحسب طبعه ظلوماً جهولاً هو المصحح لحمل الأمانة الإلهية فافهم ذلك.

فمعنى الآيتين[١] يناظر بوجه معنى قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ (التين / ٦).

فقوله تعالى: «إنا عرضنا الأمانة» أي الولاية الإلهية والإستكمال بحقائق الدين الحق علماً وعملاً وعرضها هو اعتبارها مقيسة الى هذه الأشياء.

وقوله: ﴿عَلَى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ أي هذه المخلوقات العظيمة التي خلقها أعظم من خلق الإنسان كما قال: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ (المؤمن / ٥٧)، وقوله: «فأبين أن يحملنا وأشفقن منها» إباؤها عن حملها وإشفاقها منها عدم اشتمالها على صلاحية التلبس وتجافيها عن قبولها وفي التعبير بالحمل إيماء الى أنها ثقيلة ثقلاً لا يحتملها السماوات والأرض والجبال.

---

١. فالآية الاولى تحاذي الاولى والثانية تحاذي الثانية والثالثة.

وقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَانُ﴾ أي اشتمل على صلاحيتها والتهيؤ للتلبس بها على ضعفه وصغر حجمه «إنه كان ظلوماً جهولا» أي ظالماً لنفسه جاهلاً بما تعقبه هذه الأمانة لو خانها من وخيم العاقبة والهلاك الدائم.

وبمعنى أدق لكون الإنسان خالياً بحسب نفسه عن العدل والعلم قابلاً للتلبس بما يفاض عليه من ذلك والارتقاء من حضيض الظلم والجهل الى أوج العدل والعلم.

والظلوم والجهول وصفان من الظلم والجهل معناهما من كان من شأنه الظلم والجهل نظير قولنا: فرس شموس ودابة جموح وماء طهور أي من شأنها ذلك كما قاله الرازي أو معناهما المبالغة في الظلم والجهل كما ذكر غيره، والمعنى مستقيم كيفما كانا.

وقوله: ﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ﴾ اللام للغاية أي كانت عاقبة هذا الحمل أن يعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات وذلك أن الخائن للأمانة يتظاهر في الأغلب بالصلاح والأمانة وهو النفاق وقليلاً ما يتظاهر بالخيانة لها ولعل اعتبار وهذا المعنى هو الموجب لتقديم المنافقين والمنافقات في الآية على المشركين والمشركات.

وقوله: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ عطف على «يعذب» أي وكان عاقبة ذلك أن يتوب الله على المؤمنين والمؤمنات، والتوبة من الله هي رجوعه الى عبده بالرحمة فيرجع الى الإنسان إذا آمن به ولم يخن بالرحمة ويتولى أمره وهو ولي المؤمنين فيهديه اليه بالستر على ظلمه وجهله وتحليته بالعلم النافع والعمل الصالح لأنه غفور رحيم.

فإن قلت: ما هو المانع من جعل الأمانة بمعنى التكليف وهو الدين الحق وكون الحمل بمعنى الاستعداد والصلاحية والإباء هو فقده والعرض هو اعتبار القياس فيجري فيه حينئذ جميع ما تقدم في بيان الانطباق على الآية.

قلت: نعم لكن التكليف إنما هو مطلوب لكونه مقدمة لحصول الولاية الإلهية وتحقق صفة العبودية الكاملة فهي المعروضة بالحقيقة والمطلوبة لنفسها.

والالتفات في قوله: «ليعذب الله» من التكلم الى الغيبة والإتيان باسم الجلالة للدلالة على أن عواقب الامور الى الله سبحانه لأنه الله.

ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله: «ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات» للاشعار بكمال العناية في حقهم والاهتمام بأمرهم.

سورة سبأ مكية وهي أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي لَهُ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمٰا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَـهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ.

٢ • يَعْلَمُ مٰا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمٰا يَخْرُجُ مِنْهٰا وَمٰا يَـنْزِلُ مِـنَ السَّمٰاءِ وَمٰا يَعْرُجُ فِيهٰا وَهُوَ الرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ.

٣ • وَقٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَأْتِينَا السّٰاعَةُ قُلْ بَلىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عٰالِمُ ٱلْغَيْبِ لاٰ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقٰالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوٰاتِ وَلاٰ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاٰ أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلاٰ أَكْبَرُ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ.

٤ • لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ أُولٰئِكَ لَـهُمْ مَـغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ.

٥ • وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيٰاتِنٰا مُعٰاجِزِينَ أُولٰئِكَ لَـهُمْ عَـذٰابٌ مِـنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ.

٦ ● وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

٧ ● وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.

٨ ● أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ.

٩ ● أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ.

بيان:

تتكلم السورة حول الاصول الثلاثة أعني الوحدانية والنبوة والبعث فتذكرها وتذكر ما لمنكريها من الاعتراض فيها والشبه التي ألقوها ثم تدفعها بوجوه الدفع من حكمة وموعظة ومجادلة حسنة وتهتم ببيان أمر البعث أكثر من غيره فتذكره في مفتتح الكلام ثم تعود اليه عودة بعد عودة الى مختتمه.

وهي مكية بشهادة مقاصد آياتها على ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الخ: المطلوب بيان البعث والجزاء بياناً لا يعتريه شك بالاشارة الى الحجة التي ينقطع بها الخصم والأساس الذي يقوم عليه ذلك أمران أحدهما عموم ملكه تعالى لكل شيء من كل جهة حتى يصح له أي تصرف أراد فيها من إبداء ورزق وإماتة وإحياء بالإعادة وجزاء، وثانيهما كمال

علمه تعالى بالأشياء من جميع جهاتها علماً لا يطرأ عليه عزوب وزوال حتى يعيد كل من أراد ويجزيه على ما علم من أعماله خيراً أو شراً.

وقد أُشير الى أولى الأمرين في الآية الاولى التي نحن فيها والى الثانية في الآية الثانية وبذلك يظهر أن الآيتين تمهيد لما في الآية الثالثة والرابعة.

فقوله: ﴿ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ثناء عليه على ملكه المنبسط على كل شيء بحيث له أن يتصرف في كل شيء بما شاء وأراد.

وقوله: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ تخصيص الحمد بالآخرة لما أن الجملة الاولى تتضمن الحمد في الدنيا فإن النظام المشهود في السماوات والأرض نظام دنيوي كما يشهد به قوله تعالى: ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ (إبراهيم / ٤٨).

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ختم الآية بالإسمين الكريمين للدلالة على أن تصرفه في نظام الدنيا ثم تعقيبه بنظام الآخرة مبني على الحكمة والخبرة فبحكمته عقّب الدنيا بالآخرة وإلّا لغت الخلقة وبطلت ولم يتميز المحسن من المسيء كما قال: ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ـ الى أن قال ـ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ (ص / ٢٨)، وبخبرته يحشرهم ولا يغادر منهم أحداً ويجزي كل نفس بما كسبت.

والخبير من أسماء الله الحسنى مأخوذة من الخبرة وهي العلم بالجزئيات فهو أخصّ من العليم.

قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ الولوج مقابل الخروج والعروج مقابل النزول وكأن العلم بالولوج والخروج والنزول والعروج كناية عن علمه بحركة كل متحرك وفعله واختتام الآية بقوله: «وهو الرحيم الغفور» كأن فيه إشارة الى أن له رحمة ثابتة ومغفرة ستصيب قوماً

بإيمانهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ الخ: يذكر إنكارهم لإتيان الساعة وهي يوم القيامة وهم ينكرونه مع ظهور عموم ملكه وعلمه بكل شيء ولا مورد للارتياب في إتيانها مع ذلك كما تقدم فضلاً عن إنكار إتيانها ولذلك أمر النبي ﷺ أن يجيب عن قولهم بقوله: «قل بلى وربي لتأتينكم» أي الساعة.

ولما كان السبب العمدة في إنكارهم هو اختلاط الأشياء ومنها أبدان الأموات بعضها ببعض وتبدّل صورها تبدلاً بعد تبدل بحيث لا خبر عن أعيانها فيمتنع إعادتها من دون تميز بعضها من بعض أشار الى دفع ذلك بقوله: «عالم الغيب لا يعزب» أي لا يفوت «عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض».

وقوله: ﴿وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ تعميم لعلمه لكل شيء وفيه مع ذلك إشارة الى أن للأشياء كائنة ماكانت ثبوتاً في كتاب مبين لا تتغير ولا تتبدل وإن زالت رسومها عن صفحة الكون وقد تقدم بعض الكلام في الكتاب المبين في سورة الأنعام وغيرها.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ اللام في «ليجزي» للتعليل وهو متعلق بقوله: «لتأتينكم» وفي قوله: «لهم مغفرة ورزق كريم» نوع محاذاة لقوله السابق: «وهو الرحيم الغفور».

وفي الآية بيان أحد السببين لقيام الساعة وهو أن يجزي الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنة بما فيها والسبب الاخير ما يشير اليه قوله: «والذين سعوا في آياتنا معاجزين» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ

أَلِيمٌ ﴾ السعي الجد في المشي والمعاجزة المبالغة في الإعجاز وقيل: المسابقة والكلام مبني على الاستعارة بالكناية كأن الآيات مسافة يسيرون فيها سيراً حثيثاً ليعجزوا الله ويسبقوه والرجز كالرجس القذر ولعل المراد به العمل السيىء فيكون إشارة الى تبدل العمل عذاباً أليماً عليهم أو سبباً لعذابهم. وقيل: الرجز هو سيىء العذاب.

وفي الآية تعريض للكفار الذين يصرّون على إنكار البعث.

قوله تعالى: ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ الموصول الأول فاعل يرى والموصول الثاني مفعوله الأول والحق مفعوله الثاني والمراد بالذين أُوتوا العلم العلماء بالله وبآياته. وبالذي أُنزل اليه القرآن النازل اليه ﷺ.

وجملة «ويرى» الخ: استئناف متعرض لقوله السابق: «وقال الذين كفروا» أو حال من فاعل كفروا، والمعنى: أُولئك يقولون: لا تأتينا الساعة وينكرونه جهلا، والعلماء بالله وآياته يرون أن هذا القرآن النازل اليك المخبر بأن الساعة آتية هو الحق.

وقوله: ﴿ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ معطوف على الحق أي ويرون القرآن يهدي الى صراط من هو عزيز لا يغلب على ما يريد محمود يثنى على جميع أفعاله لأنه لا يفعل مع عزته إلّا الجميل وهو الله سبحانه. وفي التوصيف بالعزيز الحميد مقابلة لما وصفهم به في قوله: «الذين سعوا في آياتنا معاجزين».

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ كلام منهم وارد مورد الاستهزاء يعرّفون فيه النبي ﷺ بعضهم لبعض بالقول بالمعاد.

والتمزيق التقطيع والتفريق، وكونهم في خلق جديد استقرارهم فيه أي تجديد خلقتهم بإحيائهم بعد موتهم ووجودهم ثانياً بعد عدمهم، وقوله: «إذا مزقتم» ظرف لقوله: «إنكم لفي خلق جديد».

والمعنى: وقال الذين كفروا بعضهم لبعض على طريق الاستهزاء بالنبي ﷺ لإنذاره إياهم بالبعث والجزاء: هل ندلكم على رجل والمراد به النبي ﷺ ينبئكم ويخبركم أنكم ستستقرون في خلق جديد ويتجدد لكم الوجود إذا فرّقت أبدانكم كل التفريق وقطعت بحيث لا يتميز شيء منها من شيء.

قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ الخ: الاستفهام للتعجيب فإن القول ببعث الأجساد بعد فنائها عجيب عندهم لا يقول به عاقل إلّا لتلبيس الأمر على الناس وإضلالهم لينال بعض ما عندهم وإلّا فكيف يتلبس فيه الأمر على عاقل، ولهذا رددوا الأمر بين الافتراء والجنة في الاستفهام والمعنى: أهو عاقل يكذب على الله افتراء عليه بالقول بالبعث أم به نوع جنون يتفوه بما بدا له من غير فكر مستقيم.

وقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ رد لقولهم وإضراب عن الترديد الذي أتوا به مستفهمين، ومحصله أن ذلك ليس افتراء على الله ولا جنون فيه بل هؤلاء الكفار مستقرون في عذاب سيظهر لهم وقد أبعدهم ذلك عن الحق فكانوا في ضلال بعيد لا يسعهم مع ذلك أن يعقلوا الحق ويذعنوا به.

ووضع الموصول موضع الضمير في قوله: «بل الذين لا يؤمنون بالآخرة» للدلالة على أن علة وقوعهم فيما وقعوا فيه من العذاب والضلال عدم إيمانهم بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ الخ: وعظ وإنذار لهم باستعظام ما اجترؤا عليه من تكذيب آيات الله والاستهزاء برسوله فالمراد بقوله: «ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض» إحاطة السماء والأرض بهم من بين أيديهم ومن خلفهم فأينما نظروا وجدوا سماء تظلهم وأرضاً تقلهم لا مفر لهم منهما.

وقوله: ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾

أي إذ أحاط بهم الأرض والسماء وهما مدبرتان بتدبيرنا منقادتان مسخرتان لنا إن نشأ نخسف بهم الأرض فنهلكهم أو نسقط عليهم قطعة من السماء فنهلكهم فما لهم لا ينتهون عن هذه الأقاويل؟

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾، أي فيما ذكر من إحاطة السماء والأرض وكونهما مدبرتين لله سبحانه إن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء لآية لكل عبد منيب، راجع الى ربه بالطاعة، فهؤلاء لا يستهينون بهذه الامور ولا يجترؤن على تكذيب هذه الآيات إلّا لكونهم مستكبرين عاتين لا يريدون إنابة الى ربهم ورجوعاً الى طاعته.

١٠ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ.

١١ ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَٱعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

١٢ ﴿ وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ.

١٣ ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ ٱعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ.

١٤ ﴿ فَلَمّا قَضَيْنا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلىٰ مَوْتِهِ إِلّا دابَّةُ ٱلْأَرْضِ

تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ.

١٥ ● لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ.

١٦ ● فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ.

١٧ ● ذٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا ٱلْكَفُورَ.

١٨ ● وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ.

١٩ ● فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.

٢٠ ● وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ.

٢١ ● وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ

ٱلْحَدِيدَ ﴾ الفضل العطية والتأويب الترجيع من الأوب بمعنى الرجوع والمراد به ترجيع الصوت بالتسبيح بدليل قوله فيه في موضع آخر: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أواب﴾ (ص / ١٩). والطير معطوف على محل الجبال ومنه يظهر فساد قول بعضهم: أن الأوب بمعنى السير وأن الجبال كانت تسير معه حيثما سار.

وقوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ بيان للفضل الذي أُوتي داود وقد وضع فيه الخطاب الذي خوطبت به الجبال والطير فسخرتا به موضع نفس التسخير الذي هو العطية وهو من قبيل وضع السبب موضع المسبّب والمعنى: سخّرنا الجبال له تؤوب معه والطير، وهذا هو المتحصل من تسخير الجبال والطير له كما يشير اليه قوله: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أبواب﴾ (ص / ١٩).

وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي وجعلناه ليناً له على ما به من الصلابة.

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ الخ؛ السابغات جمع سابغة وهي الدرع الواسعة، والسرد نسج الدرع، وتقديره الاقتصاد فيه بحيث تتناسب حلقه أي اعمل دروعاً واسعة واجعلها متناسبة الحلق. وجملة «أن اعمل» الخ؛ نوع تفسير لإلانة الحديد له.

وقوله: ﴿وَٱعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ معنى الجملة في نفسها ظاهر وهي لوقوعها في سياق بيان إيتاء الفضل وعدّ النعم تفيد معنى الأمر بالشكر كأنه قيل: وقلنا اشكر النعم أنت وقومك بالعمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ الخ؛ أي وسخرنا لسليمان الريح مسير غدو تلك الريح ـ وهو أول النهار الى الظهر ـ مسير شهر ورواح تلك الريح ـ وهو من الظهر الى آخر النهار ـ مسير شهر أي إنها تسير في يوم مسير شهرين.

وقوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ الإسالة إفعال من السيلان بمعنى الجريان والقطر

النحاس أي وأذبنا له القطر فسالت كالعين الجارية.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾، أي وجمع من الجن ـ بدليل قوله بعد «يعملون له» ـ يعمل بين يديه بإذن ربه مسخرين له «ومن يزغ» أي ينحرف «عن أمرنا» ولم يطع سليمان «نذقه من عذاب السعير» ظاهر السياق أن المراد به عذاب النار في الدنيا دون الآخرة. وفي لفظ الآية دلالة على أن المسخر له كان بعض الجن لا جميعهم.

قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ الخ: المحاريب جمع محراب وهو مكان إقامة الصلاة والعبادة. والتماثيل جمع تمثال وهي الصورة المجسمة من الشيء. والجفان جمع جفنة وهي صحفة الطعام. والجوابي جمع جابية الحوض الذي يجبى أي يجمع فيه الماء. والقدور جمع قدر وهو ما يطبخ فيه الطعام. والراسيات الثابتات والمراد بكون القدور راسيات كونها ثابتات في أمكنتها لا يزلن عنها لعظمها.

وقوله: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ خطاب لسليمان وسائر من معه من آل داود أن يعملوا ويعبدوا الله شكراً له. وقوله: «وقليل من عبادي الشكور» أي الشاكر لله شكراً بعد شكر والجملة إما في مقام ترفيع مقام أهل الشكر بأن المتمكنين في هذا المقام قليلون وهم الأوحديون من الناس. وإما في مقام التعليل كأنه قيل: إنهم قليل فكثروا عدتهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ المراد بدابة الأرض الأرضة على ما وردت به الروايات والمنسأة العصا وقوله: «فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين» الخرور السقوط على الأرض.

ويستفاد من السياق أنه عليه السلام لما قبض كان متكئاً على عصاه فبقي على تلك الحال قائماً

متكئاً على عصاه زماناً لا يعلم بموته إنس ولا جن فبعث الله عزّ وجل أرضه فأخذت في أكل منسأته حتى إذا أكلت انكسرت العصا وسقط سليمان على الأرض فعلموا عند ذلك بموته وتبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان المستور عنهم وما لثبوا هذا المقدار من الزمان ـ وهو من حين قبضه الى خروره ـ في العذاب المهين المذلّ لهم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ الخ: سبأ العرب العاربة باليمن سمّوا ـ كما قيل ـ باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقوله: «عن يمين وشمال» أي عن يمين مسكنهم وشماله.

وقوله: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أمر بالأكل من جنتين وهو كناية عن رزقهم منهما، ثم بالشكر له على نعمته ورزقه، وقوله: «بلدة طيبة ورب غفور» أي بلدة ملائمة صالحة للمقام ورب كثير الغفران لا يؤاخذكم بسيئاتكم.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ العرم المسنّاة التي تحبس الماء، وقيل: المطر الشديد وقيل غير ذلك، والاكل بضمتين كل ثمرة مأكولة، والخمط ـ على ما قيل ـ كل نبت أخذ طعماً من المرارة، والأثل الطرفاء، وقيل: شجر يشبهها أعظم منها لا ثمرة له، والسدر معروف، والأثل وشيء معطوف على «أُكل» لا على خمط.

والمعنى: فأعرضوا أي قوم سبأ عن الشكر الذي أُمروا به فجازيناهم وأرسلنا عليهم سيل العرم فأغرق بلادهم وذهب بجنتيهم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي ثمرة مرة وذواتي طرفاء وشيء قليل من السدر.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ «ذلك» إشارة الى ما ذكر من إرسال السيل وتبديل الجنتين ومحله النصب مفعولاً ثانياً لجزيناهم والفرق بين الجزاء والمجازاة ـ كما قيل ـ أن المجازاة لا تستعمل إلّا في الشر والجزاء أعم.

والمعنى: جزينا سبأ ذلك الجزاء بسبب كفرهم وإعراضهم عن الشكر ـ أو في مقابلة ذلك ـ ولا نجازي بالسوء إلّا من كان كثير الكفران لأنعم الله.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ الخ: ضمير «بينهم» لسبأ والكلام مسوق لبيان تتمة قصتهم المطلوب ذكرها وهو عطف على قوله: «كان لسبأ» والمراد بالقرى التي باركنا فيها القرى الشامية، والمراد بكون القرى ظاهرة كونها متقاربة يرى بعضها من بعض.

وقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلنا السير فيها على نسبة مقدّرة متناسبة غير مختلفة فالنسبة بين واحدة منها وما يليها كالنسبة بين ما يليها وما يليه. وقوله: «سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين» على تقدير القول أي وقلنا: سيروا في هذه القرى على أمن إن شئتم ليالي وإن شئتم أياماً. والمراد قرّرنا فيها الأمن يسيرون فيها متى ما شاؤا من غير خوف وقلق.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الخ: أي أنعمنا عليهم ما أنعمنا من وفور الفواكه وقرب المنازل وأمن الطرق وسهولة السير ورغد العيش فملوا ذلك وسئموه وقالوا: ربنا باعد بين أسفارنا أي اجعل أسفارنا ذوات مسافات بعيدة نركب فيها الرواحل ونقطع المفاوز والبوادي وهذا بغي منهم وكفران كما طلبت بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى.

وبالجملة أتم الله نعمه عليهم في السفر بقرب المنازل وأمن الطرق ووفور النعمة كما أتم نعمه عليهم في الحضر وأراد منهم الشكر على ذلك فكفروا بنعمه في السفر كما كفروا بها في الحضر. فأسرع الله في إسعاف ما اقترحوه فخرّب بلادهم وفرّق جمعهم وشتّت شملهم.

فقوله: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ اقتراح ضمني لتخريب بلادهم. وقوله: «وظلموا أنفسهم» أي بالمعاصي.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي أزلنا أعيانهم

وآثارهم فلم يبق منهم إلّا أحاديث يحدث بها فيما يحدث فعادوا أسماء لا مسمى لهم إلّا في وهم المتوهم وخيال المتخيل وفرّقناهم كل تفرق فلم يبق من أجزاء وجودهم جزآن مجتمعان إلّا فرقنا بينهما فصاروا كسدى لا شبح له بعد ما كانوا مجتمعاً ذا قوة وشوكة حتى ضرب بهم المثل «تفرقوا أيادي سبأ».

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي في هذا الذي ذكر من قصتهم لآيات لكل من كثر صبره في جنب الله وكثر شكره لنعمه التي لا تحصى يستدل بتلك الآيات على أن على الإنسان أن يعبد ربه شكراً لنعمه وأن وراءه يوماً يبعث فيه ويجزى بعمله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حقق إبليس عليهم ظنه أو وجد ظنه صادقاً عليهم إذ قال لربه: «لاغوينهم ولاضلّنهم» «ولا تجد أكثرهم شاكرين»، وقوله: «فاتبعوه إلّا فريقاً من المؤمنين» بيان لتصديقه ظنه.

ومنه يظهر أن ضمير الجمع في «عليهم» ههنا وكذا في الآية التالية لعامة الناس لا لسبأ خاصة وإن كانت الآية منطبقة عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ ظاهر السياق أن المراد أنهم لم يتبعوه عن سلطان له عليهم يضطرهم الى اتباعه حتى يكونوا معذورين بل إنما اتبعوه عن سوء اختيارهم فهم يختارون اتباعه فيتسلط عليهم لا أنه يتسلط فيتبعونه. قال تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتبعك من الغاوين﴾ (الحجر / ٤٢). وقال حاكياً عن إبليس يوم القيامة: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ (إبراهيم / ٢٢).

ومنشأ اتباعهم له ريب وشك في قلوبهم من الآخرة يظهر منهم بظهور أثره الذي هو الاتباع لابليس، فإذنه سبحانه لابليس أن يتسلط عليهم من طريق اختيارهم هذا المقدار من التسلط ليمتاز به أهل الشك في الآخرة من أهل الايمان به ولا يرفع ذلك مسؤليتهم في اتباعه لكونه عن اختيار منهم.

فقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ نفي لكل سلطان، وقوله: «إلّا لنعلم» أي لنميز «من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك» استثناء لسلطانه عليهم من طريق اتباعهم له عن اختيار منهم. وقد وضع فيه الغاية موضع ذي الغاية أي التمييز المذكور موضع التسلط من طريق الاتباع الاختياري.

وتقييد الايمان والشك بالآخرة في الآية لمكان أن الرادع الوحيد عن المعصية والداعي الى الطاعة هو الايمان بالآخرة دون الايمان بالله ورسوله لولا الآخرة كما قال تعالى: ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (ص / ٢٦).

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي عالم علماً لا يفوته المعلوم بنسيان أو سهو أو غير ذلك وفيه تحذير عن الكفران والمعصية وإنذار لأهل الكفر والمعصية[1].

٢٢ ۞ قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ.

٢٣ ۞ وَلَا تَنْفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ.

---

١. سبأ ١٠ ـ ٢١: بحث روائي في قصة داود عليه السلام وسليمان عليه السلام؛ قبض روح سليمان عليه السلام: سبأ.

٢٤ ● قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللّٰهُ وَإِنّٰا أَوْ
إِيّٰاكُمْ لَعَلىٰ هُدىً أَوْ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ.
٢٥ ● قُلْ لاٰ تُسْأَلُونَ عَمّٰا أَجْرَمْنٰا وَلاٰ نُسْأَلُ عَمّٰا تَعْمَلُونَ.
٢٦ ● قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنٰا رَبُّنٰا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنٰا بِالْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتّٰاحُ ٱلْعَلِيمُ.
٢٧ ● قُلْ أَرُونِي ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكٰاءَ كَلاّٰ بَلْ هُوَ ٱللّٰهُ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ.
٢٨ ● وَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ كٰافَّةً لِلنّٰاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ
النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ.
٢٩ ● وَيَقُولُونَ مَتىٰ هٰذٰا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ.
٣٠ ● قُلْ لَكُمْ مِيعٰادُ يَوْمٍ لاٰ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سٰاعَةً وَلاٰ
تَسْتَقْدِمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ لاٰ يَمْلِكُونَ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ﴾ الى آخر الآية؛ أمر النبي ﷺ أن يحتج على إبطال أُلوهية آلهتهم بعدم قدرتهم على استجابة الدعاء، فقوله: «قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله» أي ادعوا الذين زعمتموهم آلهة من دون الله ـ فمفعولا «زعمتم» محذوفان لدلالة السياق عليها ـ ودعاؤهم هو مسألتهم شيئاً من الحوائج.

وقوله: ﴿لاٰ يَمْلِكُونَ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوٰاتِ وَلاٰ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ واقع موقع الجواب كأنه قيل: فماذا يكون إذا دعوهم؟ فقيل: لا يستجيبون لهم بشيء لأنهم «لا يملكون

مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض» ولو ملكوا لاستجابوا، ولا تتم الربوبية والالوهية إلّا بأن يملك الرب والإله شيئاً مما يحتاج اليه الانسان فيملّكه له وينعم عليه به فيستحق بإزائه العبادة شكراً له فيعبد، أما إذا لم يملك شيئاً فلا يكون رباً ولا إلهاً.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ كان الملك المنفي في الجملة السابقة «لا يملكون» الخ: الملك المطلق المنبسط على الجميع والمنفي في هذه الجملة الملك المحدود المتبعض الذي ينبسط على البعض دون الكل إما مشاعاً أو مفروزاً. لكن المشركين ما كانوا يقولون بالملك المشترك بينهم وبين الله سبحانه مشاعاً بل كانوا يقولون بملك كل من آلهتهم لنوع من الخلقة أو بعض منها، وأما الله سبحانه فهو رب الأرباب وإله الآلهة.

وعلى هذا كان من الواجب أن يستجيب آلهتهم إذا دعوا فيما يملكونه من الخلقة وعدم استجابتهم كاشف عن عدم ربوبيتهم وأُلوهيتهم.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي ليس لله سبحانه منهم كلاً أو بعضاً من معين يعينه فيما يفرض فيه عجزه عن القيام بأمر تدبيره إذ لو كان له منهم ظهير يظهره على التدبير كان مالكاً فيستجيب إذا دعي فيما هو ظهير بالنسبة اليه وإذ ليس فليس.

فتبين مما تقدم أن احتجاج الآية على نفي الملك بانتفاء استجابتهم دعاء الداعي يجري في جميع الصور الثلاث وهي ملكهم لما في السماوات وما في الأرض مطلقاً وملكهم على وجه الشركة مع الله سبحانه وكونهم أو بعضهم ظهيراً لله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ المشركون كانوا يقولون بشفاعة آلهتهم كما حكاه الله سبحانه عنهم بقوله: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ (يونس / ١٨)، وليس مرادهم بالشفاعة شفاعة يوم القيامة التي يثبتها القرآن الكريم فإنهم ما كانوا يقولون بالمعاد بل الشفاعة في الدنيا لعبادهم عند الله سبحانه ليسعدهم بقضاء حوائجهم وإصلاح شؤونهم بتوسط آلهتهم.

وإذ كانت الآلهة مخلوقين لله مملوكين له من وكل وجه فلا يملكون الشفاعة من عند أنفسهم مستقلين بها إلّا أن يملّكهم الله سبحانه ذلك وهو الإذن لهم في أن يشفعوا فأصل شفاعتهم لو شفعوا بإذن الله سبحانه.

وقوله: ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ يحتمل أن يكون اللام في «لمن» لام الملك والمراد بمن أذن له الشافع من الملائكة، والمعنى: لا تنفع الشفاعة إلّا أن يملكه الشافع بالإذن من الله وأن يكون لام التعليل والمراد بمن أذن له المشفوع له. والمعنى: لا تنفع الشافعة إلّا لأجل من أذن له من المشفوع لهم. قال في الكشاف: وهذا يعني الوجه الثاني وجه لطيف وهو الوجه. انتهى.

وهو الوجه فإن الملائكة على ما يستفاد من كلامه تعالى وسائط لإنفاذ الأمر الإلهي وإجرائه. قال تعالى: ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ (الأنبياء / ٢٧)، وقال: ﴿ جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة ﴾ (فاطر / ١)، والوساطة المذكورة من الشفاعة كما تقدم في مباحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب.

فالملائكة جميعاً شفعاء لكن لا في كل أمر ولكل أحد بل في أمر أذن الله فيه ولمن أذن له فنفي شفاعتهم إلّا مع الإذن يناسب المشفوع لهم دون الشفعاء. فالآية في معنى قوله: ﴿ ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى ﴾ (الأنبياء / ٢٨)، لا في معنى قوله: ﴿ ما من شفيع إلّا من بعد إذنه ﴾ (يونس / ٣).

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ التفزيع إزالة الفزع وكشفه وضمائر الجمع ـ على ما يعطيه السياق ـ للشفعاء وهم الملائكة.

ولازم قوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ ـ وهو غاية ـ أن يكون هناك أمر مغيّى بها وهو كون قلوبهم في فزع ممتد في انتظار أمر الله سبحانه حتى يرتفع بصدور الأمر منه، فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿ ولله يسجد ـ الى أن قال ـ والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون

ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ (النحل / ٥٠)، فالفزع هو التأثر والإنقباض من الخوف هو المراد بسجدتهم تذللاً من خوف ربهم من فوقهم.

وبذلك يظهر أن المراد بفزعهم حتى يفزّع عنهم أن التذلل غشي قلوبهم وهو تذللهم من حيث أنهم أسباب وشفعاء في نفوذ الأوامر الإلهية ووقوعه على ما صدر وكما أُريد، وكشف هذا التذلل هو تلقّيهم الأمر الإلهي واشتغالهم بالعمل كأنهم بحيث لا يظهر من وجودهم إلّا فعلهم وطاعتهم لله فيما أمرهم به وأنه لا واسطة بين الله سبحانه وبين الفعل إلّا أمره فافهم ذلك.

وإنما نسب الفزع والتفزيع الى قلوبهم للدلالة على أنهم ذاهلون منصرفون عن أنفسهم وعن كل شيء إلّا ربهم وهم على هذه الحالة لا يشعرون بشيء غيره حتى إذا كشف الفزع عن قلوبهم عند صدور الأمر الإلهي بلا مهل ولا تخلّف فليس الأمر بحيث يعطّل أو يتأخر عن الوقوع، قال تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (يس / ٨٢)، فالمستفاد من الآية نظراً الى هذا المعنى أنهم في فزع حتى إذا أُزيل فزعهم بصدور الأمر الإلهي.

وقوله: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا ٱلْحَقَّ﴾ يدل على أنهم طوائف كثيرون يسأل بعضهم بعضاً عن الأمر الإلهي بعد صدوره وانكشاف الفزع عن قلوب السائلين.

ويتبين منه أن كشف الفزع ونزول الأمر الى بعضهم أسبق منه الى بعض آخر فإن لازم السؤال أن يكون المسؤل عالماً بما سئل عنه قبل السائل.

فلم مراتب مختلفة ومقامات متفاوتة بعضها فوق بعض تتلقى الدانية منها الامر الإلهي من العالية من غير تخلّف ولا مهلة وهو طاعة الداني منهم للعالي، كما يستفاد ذلك أيضاً بالتدبر في قوله: ﴿وما منّا إلّا له مقام معلوم﴾ (الصافات / ١٦٤)، وقوله في وصف الروح الأمين: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾ (التكوير / ٢١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ الخ:

احتجاج آخر على المشركين من جهة الرزق الذي هو الملاك العمدة في اتخاذهم الآلهة فإنهم يتعللون في عبادتهم الآلهة بأنها ترضيهم فيوسعون لهم في رزقهم فيسعدون بذلك.

فأمر النبي ﷺ أن يسألهم من يرزقهم من السماوات والأرض؟ والجواب عنه أنه الله سبحانه لأن الرزق خلق في نفسه ولا خالق ـ حتى عند المشركين ـ إلّا الله عز اسمه لكنهم يستنكفون عن الاعتراف به بألسنتهم وإن أذعنت به قلوبهم ولذلك أمر أن ينوبهم في الجواب فقال: «قل الله».

وقوله: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾، تتمة قول النبي ﷺ وهذا القول بعد إلقاء الحجة القاطعة ووضوح الحق في مسألة الالوهية مبني على سلوك طريق الإنصاف، ومفاده أن كل قول إما هدى أو ضلال لا ثالث لهما نفياً وإثباتاً ونحن وأنتم على قولين مختلفين لا يجتمعان فإما أن نكون نحن على هدى وأنتم في ضلال وإما أن تكونوا أنتم على هدى ونحن في ضلال فانظروا بعين الإنصاف الى ما أُلقي اليكم من الحجة وميزوا المهدي من الضال والمحق من المبطل.

واختلاف التعبير في قوليه «على هدى» و «في ضلال» بفظة على وفي ـ كما قيل ـ للإشارة الى أن المهتدي كأنه مستعل على منار يتطلع على السبيل وغايتها التي فيها سعادته، والضالّ منغمر في ظلمة لا يدري أين يضع قدمه والى أين يسير وماذا يراد به؟

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي إن العمل وخاصة عمل الشر لا يتعدى عن عامله ولا يلحق وباله إلّا به فلا يسأل عنه غيره فلا تسألون عما أجرمنا بل نحن المسؤلون عنه ولا نسأل عما تعملون بل أنتم المسؤلون.

وهذا تمهيد لما في الآية التالية من حديث الجمع والفتح فإن الطائفتين إذا اختلفا في الأعمال خيراً وشراً كان من الواجب أن يفتح بينهما ويتميز كل من الاخرى حتى يلحق به جزاء عمله من خير أو شر أو سعادة أو شقاء والذي يفتح ويميز هو الرب تعالى.

وفي التعبير عن عمل أنفسهم بالإجرام وفي ناحية المشركين بقوله: «تعملون» ولم يقل تجرمون أخذ بحسن الأدب في المناظرة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ لما كان من الواجب أن يلحق بكل من المحسن والمسيء جزاء عمله وكان لازمه التميز بينهما بالجمع ثم الفرق كان ذلك شأن مدبر الأمر وهو الرب أمر نبيه ﷺ أن يذكرهم أن الذي يجمع بين الجميع ثم يفتح بينهم بالحق هو الله، فهو رب هؤلاء وأولئك فإنه هو الفتّاح العليم يفتح بين كل شيئين بالخلق والتدبير فيتميز بذلك الشيء من الشيء كما قال: ﴿أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ (الأنبياء / ٣٠)، وهو العليم بكل شيء.

فالآية تثبت البعث لتمييز المحسن من المسيء أولاً ثم انحصار التمييز والجزاء في جانبه تعالى بانحصار الربوبية فيه ويبطل بذلك ربوبية من اتخذوه من الأرباب.

والفتاح من أسماء الله الحسنى والفتح إيجاد الفصل بين شيئين لفائدة تترتب عليه كفتح الباب للدخول بإيجاد الفصل بين مصراعيه والفتح بين الشيئين ليتميّز كل منهما عن الآخر بذاته وصفاته وأفعاله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أمر آخر للنبي ﷺ أن يسألهم أن يروه آلهتهم حتى يختبر هل فيهم الصفات الضرورية للإله المستحق للعبادة من الاستقلال بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر؟ وهذا معنى قوله: «أروني الذين ألحقتم به شركاء» أي ألحقتموهم به شركاء له.

ثم ردع بنفسه وقال: كلا لا يكونون شركاء له لأنهم إما أن يروه الأصنام بما أنها معبودة لهم معدودة آلهتهم وهي أجسام ميتة خالية عن الحياة والعلم والقدرة وإما أن يروه أرباب هذه الأصنام وهم الملائكة وغيرهم يجعل الأصنام تماثيل مشيرة اليهم وهم وإن لم يخلوا عن حياة وعلم وقدرة إلّا أن ما لهم من صفات الكمال مفاضة عليهم من الله سبحانه لا استقلال لهم في

شيء من هذه الصفات ولا في الأفعال المتفرعة عليها فأين الاستقلال في التدبير الذي يدعون أنه مفوض اليهم؟ فالوجود الواجبي بكماله اللامتناهي يمنع أن يكون في خلقه من يشاركه في شيء من كماله.

اللهم إلّا أن يدعوا أنه شاركهم في بعض ما له من الشؤون لتدبير خلقه من غير صلاحية لهم ذاتية وهذا ينافي حكمته تعالى.

وقد أُشير الى هذه الحجة بقوله: «بل هو الله العزيز الحكيم» فإن عزته تعالى ـ وهو منع جانبه أن يعدو الى حريم كماله عاد لكونه لا يحد بحد ـ تمنع أن يشاركه في شيء من صفات كماله كالربوبية والالوهية المنتهيتين الى الذات أحد غيره هذا لو كانت الشركة عن صلاحية ذاتية من الشريك ولو كانت عن إرادة جزافية منه من غير صلاحية حقيقة من الشريك فالحكمة الإلهية تمنع ذلك.

وقد تبين بذلك أن الآية متضمنة لحجة قاطعة برهانية فأحسن التدبر فيها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال الراغب في المفردات: الكف كف الإنسان وهي ما بها يقبض ويبسط وكففته أصبت كفه. وكففته أصبته بالكف ودفعته بها وتعورف الكف بالدفع على أي وجه كان بالكف كان أو غيرها حتى قيل: رجل مكفوف لمن قبض بصره. وقوله: وما أرسلناك إلّا كافة للناس أي كافاً لهم عن المعاصي والهاء فيه للمبالغة كقولهم: راوية وعلامة ونسابة. انتهى.

ويؤيد هذا المعنى توصيفه ﷺ بالبشير والنذير. فقوله: «بشيراً ونذيراً» حالان يبينان صفته لقوله: «كافة للناس».

واعلم أن منطوق الآية وإن كان راجعاً الى النبوة وفيها انتقال من الكلام في التوحيد الى الكلام في النبوة على حد الآيات التالية. لكن في مدلولها حجة أُخرى على التوحيد وذلك أن

الرسالة من لوازم الربوبية التي شأنها تدبير الناس في طريق سعادتهم ومسيرهم الى غايات وجودهم فعموم رسالته صلى الله عليه وآله وسلم وهو رسول الله تعالى لا رسول غيره دليل على أن الربوبية منحصرة في الله سبحانه فلو كان هناك رب غيره لجاءهم رسوله ولم يعم رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو عمتهم واحتاجوا معه الى غيره، وهذا معنى قول علي عليه السلام ـ على ما روي ـ لو كان لربك شريك لأتتك رسله.

ويؤيده ما في ذيل الآية من قوله: «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» فإن دالة انحصار الرسالة في رسل الله على انحصار الربوبية في الله عز اسمه أمسّ بجهل الناس من كونه صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً كافاً لهم عن المعاصي بشيراً ونذيراً.

فمفاد الآية على هذا: لا يمكنهم أن يروك شريكاً له والحال أنا لم نرسلك إلّا كافاً لجميع الناس بشيراً ونذيراً ولو كان لهم إله غيرنا لم يسع لنا أن نرسلك اليهم وهم عباد لإله آخر والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ سؤال عن وقت الجمع والفتح وهو البعث فالآية متصلة بقوله السابق: «قل يجمع بيننا ربنا» الآية؛ وهذا أيضاً من شواهد ما قدّمنا من المعنى لقوله: «وما أرسلناك إلّا كافة» وإلّا كانت هذه الآية والتي بعدها متخللتين بين قوله: «وما أرسلناك» الآية؛ والآيات التالية المتعرضة لمسألة النبوة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أمر منه تعالى أن يجيبهم بأن لهم ميعاد يوم مقضيّ محتوم لا يتخلف عن الوقوع فهو واقع قطعاً ولا يختلف وقت وقوعه البتة أي إن الله وعد به وعداً لا يخلفه إلّا أن وقت وقوعه مستور لا يعلمه إلّا الله سبحانه.

٣١ ● وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

وَلَوْ تَرىٰ إِذِ الظّٰالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلىٰ
بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لَوْلاٰ
أَنْتُمْ لَكُنّٰا مُؤْمِنِينَ.

٣٢ ● قٰالَ الَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنٰاكُمْ عَنِ
ٱلْهُدىٰ بَعْدَ إِذْ جٰاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ.

٣٣ ● وَقٰالَ الَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ
وَالنَّهٰارِ إِذْ تَأْمُرُونَنٰا أَنْ نَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدٰاداً وَأَسَرُّوا
النَّدٰامَةَ لَمّٰا رَأَوُا ٱلْعَذٰابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلاٰلَ فِي أَعْنٰاقِ الَّذِينَ
كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ.

٣٤ ● وَمٰا أَرْسَلْنٰا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰا إِنّٰا بِمٰا
أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ.

٣٥ ● وَقٰالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوٰالاً وَأَوْلاٰداً وَمٰا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ.

٣٦ ● قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَيَقْدِرُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ
النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ.

٣٧ ● وَمٰا أَمْوٰالُكُمْ وَلاٰ أَوْلاٰدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنٰا زُلْفىٰ إِلاّٰ مَنْ
آمَنَ وَعَمِلَ صٰالِحاً فَأُولٰئِكَ لَهُمْ جَزٰاءُ الضِّعْفِ بِمٰا عَمِلُوا
وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفٰاتِ آمِنُونَ.

٣٨ ● وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيٰاتِنٰا مُعٰاجِزِينَ أُولٰئِكَ فِي ٱلْعَذٰابِ
مُحْضَرُونَ.

٣٩ ● قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرّازِقِينَ.

٤٠ ● وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ.

٤١ ● قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ.

٤٢ ● فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ.

٤٣ ● وَإِذا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هٰذا إِلاّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَقالُوا ما هٰذا إِلاّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّا جاءَهُمْ إِنْ هٰذا إِلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ.

٤٤ ● وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ.

٤٥ ● وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ.

٤٦ ● قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنىٰ وَفُرادىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ.

٤٧ ● قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى اللّٰهِ

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

٤٨ ◈ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ.

٤٩ ◈ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ.

٥٠ ◈ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا
يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

٥١ ◈ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ.

٥٢ ◈ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.

٥٣ ◈ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.

٥٤ ◈ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ
إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ المراد بالذين كفروا المشركون والمراد بالذي بين يديه الكتب السماوية من التوراة والانجيل وذلك أن المشركين وهم الوثنيون ليسوا قائلين بالنبوة ويتبعها الكتاب السماوي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الخ؛ الظاهر أن اللام في «الظالمون» للعهد، وهذه الآية والآيتان بعدها تشير الى أن وبال هذا الكفر ـ وأساسه ضلال أئمة الكفر وإضلالهم تابعيهم ـ سيلحق بهم وسيندمون عليه ولن ينفعهم الندم.

فقوله: «ولو ترى» خطاب النبي ﷺ إذ هم بمعزل عن فهم الخطاب «إذ الظالمون» وهم الكافرون بكتب الله ورسله، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر «موقوفون عند ربهم» للحساب

والجزاء يوم القيامة «يرجع بعضهم الى بعض القول» أي يتحاورون ويتراجعون في الكلام متخاصمين «يقول الذين استضعفوا» بيان لرجوع بعضهم الى بعض في القول والمستضعفون الأتباع الذين استضعفتهم المتبوعون «للذين استكبروا» وهم الأئمة القادة «لولا أنتم لكنا مؤمنين» يريدون أنكم أجبرتمونا على الكفر وحلتم بيننا وبين الإيمان.

«قال الذين استكبروا للذين استضعفوا» جواباً عن قولهم ورداً لما اتهموهم به من الإجبار والإكراه «أنحن صددناكم» الاستفهام للانكار أي أنحن صرفناكم «عن الهدى بعد إذ جاءكم» فبلوغه اليكم بالدعوة النبوية أقوى الدليل على أنّا لم نحل بينه وبينكم وكنتم مختارين في الإيمان به والكفر «بل كنتم مجرمين» متلبسين بالإجرام مستمرين عليه فأجرمتم بالكفر به لما جاءكم من غير أن نجبركم عليه فكفركم منكم ونحن برءآء منه.

«وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا» رداً لقولهم ودعواهم البراءة «بل مكر الليل والنهار» أي مكركم بالليل والنهار حملنا على الكفر «إذ كنتم تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً» وأمثالاً من الآلهة أي إنكم لم تزالوا في الدنيا تمكرون الليل والنهار وتخطّون الخطط لتستضعفونا وتتآمّروا علينا فتحملونا على طاعتكم فيما تريدون. فلم نشعر إلّا ونحن مضطرّون على الائتمار بأمركم إذ تأمروننا بالكفر والشكر.

«وأسرُّوا» وأخفوا «الندامة لما رأوا العذاب» وشاهدوا أن لا مناص. وإخفاؤهم الندامة يوم القيامة ـ وهو يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ـ نظير كذبهم على الله وإنكارهم الشرك بالله وحلفهم لله كان بين كل ذلك من قبيل ظهور ملكاتهم الرذيلة التي رسخت في نفوسهم فقد كانوا يسرّون الندامة في الدنيا خوفاً من شماتة الأعداء وكذلك يفعلون يوم القيامة مع ظهور ما أسرّوا واليوم يوم تبلى السرائر كما يكذبون بمقتضى ملكة الكذب مع ظهور أنهم كاذبون في قولهم.

ثم ذكر سبحانه أخذهم للعذاب فقال: «وجعلنا الأغلال» السلاسل «في أعناق الذين

كفروا هل يجزون إلّا ما كانوا يعملون » فصارت أعمالهم أغلالاً في أعناقهم تحبسهم في العذاب .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ المترفون اسم مفعول من الإتراف وهو الزيادة في التنعيم . وفيه إشعار بأن الإتراف يفضي الى الاستكبار على الحق كما تفيده الآية اللاحقة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ضمير الجمع للمترفين ، ومن شأن الإتراف والترفّه والتقلب في نعم الدنيا أن يتعلق قلب الانسان بها ويستعظمها فيرى السعادة فيها سواء وافق الحق أم خالفه فلا يذكر إلّا ظاهر الحياة وينسى ما وراءه .

ولذا حكى سبحانه عنهم ذلك إذ قالوا : « نحن أكثر أموالاً وأولاداً » فلا سعادة إلّا فيها ولا شقوة معها « وما نحن بمعذبين » في آخرة ، ولم ينفوا العذاب إلّا للغفلة والانصراف عما وراء كثرة الأموال والأولاد فإذ كانت هي السعادة والفلاح فحسب فالعذاب في فقدها ولا عذاب معها .

وها هنا وجه آخر وهو أنهم لغرورهم بما رزقوا به من المال والولد ظنوا أن لهم كرامة على الله سبحانه وهم على كرامتهم عليهم ما داموا ، والمعنى : أنّا ذوو كرامة على الله بما أُوتينا من كثرة الأموال والأولاد ونحن على كرامتنا فما نحن بمعذّبين لو كان هناك عذاب .

فتكون الآية في معنى قوله : ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضرّاء مسّته ليقولنّ هذا لي وما أظنُّ الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ (حم السجدة / ٥٠) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الآية وما يتلوها الى تمام أربع آيات جواب عن قولهم : « نحن أكثر أموالا » الخ : وقد أُجيب عنه بوجهين أحدهما أن أمر الرزق من الأموال والأولاد سعة وضيقاً بيد الله

على ما تستدعيه الحكمة والمصلحة وهيأ من الأسباب لا بمشية الإنسان ولا لكرامة له على الله فربما بسط في رزق مؤمن أو كافر أو عاقل ذي حزم أو أحمق خفيف العقل، وربما بسط على واحد ثم قدر له. فلا دلالة في الإتراف على سعادة أو كرامة.

وهذا معنى قوله: «قل إن ربي» نسبة الى نفسه لأنهم لم يكونوا يرون الله رباً لأنفسهم والرزق من شؤن الربوبية «يبسط» أي يوسع «الرزق لمن يشاء» من عباده بحسب الحكمة والمصلحة «ويقدر» أي يضيق «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» فينسبونه ما لم يؤتوه الى الأسباب الظاهرية الاتفاقية ثم إذا أُوتوه نسبوه الى حزمهم وحسن تدبيرهم أنفسهم وكفى به دليلاً على الحمق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ﴾ الى آخر الآيتين: هذا هو الجواب الثاني عن قولهم: «نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين» ومحصله أن انتفاء العذاب المترتب على القرب من الله لا يترتب على الأموال والأولاد إذ لا توجب الأموال والأولاد قرباً وزلفى من الله حتى ينتفي معها العذاب الإلهي فوضع تقريب المال في الآية موضع انتفاء العذاب من قبيل وضع السبب موضع السبب.

وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ﴾ التي تعتمدون عليها في السعادة وانتفاء عذاب الله «بالتي» أي بالجماعة التي «تقربكم عندنا زلفى» أي تقريباً.

«إلّا من آمن وعمل صالحاً» في ماله وولده بأن أنفق من أمواله في سبيل الله وبثّ الإيمان والعمل الصالح في أولاده بتربية دينية «فاولئك لهم جزاء الضعف» لعلة من إضافة الموصوف الى الصفة أي الجزاء المضاعف من جهة أنهم اهتدوا وهدوا وأيضاً من جهة تضعيف الحسنات الى عشر أضعافها وزيادة «وهم في الغرفات» أي في القباب العالية «آمنون» من العذاب فما هم بمعذبين.

«والذين يسعون في آياتنا معاجزين - أي يجدون في آياتنا وهم يريدون أن يعجزونا أو ان

يسبقونا ـ أولئك في العذاب محضرون» وإن كثرت أموالهم أولادهم.

وفي قوله: ﴿وَمٰا أَمْوٰالُكُمْ وَلاٰ أَوْلاٰدُكُمْ﴾ الخ: انتقال الى خطاب عامة الناس من الكفار وغيرهم والوجه فيه أن ما ذكره من الحكم حكم الأموال والأولاد سواء في ذلك المؤمن والكافر فالمال والولد إنما يؤثران أثرهما الجميل إذا كان هناك إيمان وعمل صالح فيهما وإلّا فلا يزيدان إلّا وبالاً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمٰا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرّٰازِقِينَ﴾ قال في مجمع البيان: يقال: أخلف الله له وعليه إذا أبدل له ما ذهب عنه. انتهى.

سياق الآية يدل على أن المراد بالإنفاق فيها الإنفاق في وجوه البر والمراد بيان أن هذا النحو من الإنفاق لا يضيع عند الله بل يخلفه ويرزق بدله.

فقوله في صدر الآية: «قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» للإشارة الى أن أمر الرزق في سعته وضيقه الى الله سبحانه لا ينقص بالإنفاق ولا يزيد بالإمساك ثم قال: «وما أنفقتم من شيء» قليلاً كان أو كثيراً وأياً ما كان من المال «فهو يخلفه» ويرزقكم بدله إما في الدنيا وإما في الآخرة «وهو خير الرازقين» فإنه يرزق جوداً ورزق غيره معاملة في الحقيقة ومعاوضة، ولأنه الرازق في الحقيقة وغيره ممن يسمّى رازقاً واسطة لوصول الرزق.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاٰئِكَةِ أَهٰؤُلاٰءِ إِيّٰاكُمْ كٰانُوا يَعْبُدُونَ﴾ المراد بهم جميعاً بشهادة السياق العابدون والمعبودون جميعاً.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاٰئِكَةِ أَهٰؤُلاٰءِ إِيّٰاكُمْ كٰانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ليس سؤال استخبار عن أصل عبادتهم لهم ولو كان كذلك لم يسعهم إنكارها لأنهم عبدوهم في الدنيا وقد أنكروها كما في الآية بل المراد السؤال عن رضاهم بعبادتهم على حد قوله تعالى لعيسى بن مريم: «أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله».

والغرض من السؤال تبكيت المشركين وإقناطهم من نصرة الملائكة وشفاعتهم لهم وقد عبدوهم في الدنيا لذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ أخذت الملائكة في جوابهم عن سؤاله تعالى بجوامع الأدب فنزهوه سبحانه أولاً تنزيهاً مطلقاً فيه تنزيهه من أن يعبدوا من دونه ثم نفوا رضاهم بعبادة المشركين لهم لكن لا بالتصريح بنفي الرضا بالعبادة ولا بالتفوّة بعبادتهم صوناً لساحة المخاطبة عما يقرع السمع بذلك، ولو تصوراً لا تصديقاً بل أجابوا بقصر ولايتهم فيه تعالى ونفيها عنهم ليدل على نفي الرضا بعبادتهم لهم على طريق الكناية فإن الرضا بعبادتهم لازمه الموالاة بينهم، والموالاة بينهم تنافي قصر الولاية في الله سبحانه فإذا انحصرت الولاية فيه تعالى لم تكن موالاة وإذا لم تكن موالاة لم يكن رضا.

ثم قالوا على ما حكاه الله سبحانه: «بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون» والجن هم الطائفة الثانية من الطوائف الثلاث التي يعبدهم الوثنيون وهم الملائكة والجن والقديسون من البشر. والأقدم في استحقاق العبادة عندهم هم الطائفتان الاوليان والطائفة الثالثة ملحقة بهما بعد الكمال وإن كانوا أفضل منهما.

والإضراب في قولهم: «بل كانوا يعبدون الجن» يدل على أن الجن كانوا على رضى من عبادتهم لهم.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ نوع تفريع على تبري الملائكة منهم وقد بين تبري عامة المتبوعين من تابعيهم والتابعين من متبوعيهم في مواضع كقوله تعالى: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ (فاطر / ١٤)، وقوله: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ (العنكبوت / ٢٥). ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هٰذا إِلّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ﴾ الخ: خطابهم هذا لعامتهم بعد استماع الآيات تنبيه لهم على الجد في التمسك بدين آبائهم وتحريض لهم عليه ﷺ، وفي توصيف الآيات بالبينات نوع عتبي كأنه قيل إذا تتلى عليهم هذه الآيات وهي بينة لا ريب فيها فبدلاً من أن يدعوا عامتهم الى اتّباعها حثّوهم على الإصرار على تقليد آبائهم وحرضوهم عليه ـ وفي إضافة الآباء الى ضمير «كم» مبالغة في التحريض والإثارة.

وقوله: ﴿وَقالُوا ما هٰذا إِلّا إِفْكٌ مُفْتَرىً﴾ معطوف على «قالوا» أي وقالوا مشيراً الى الآيات البينات إشارة تحقير: ليس هذا الا كلاماً مصروفاً عن وجهه مكذوباً به على الله، بدلاً من أن يقولوا: إنها آيات بينات نازلة من عند الله تعالى ـ وقد أشاروا الى الآيات البينات بهذا دلالة على أنهم لم يفهموا منها إلّا أنها شيء ما لا أزيد من ذلك.

ثم غيّر سبحانه السياق وقال: «وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين» ومجيء الحق لهم بلوغه وظهوره لهم، والأخذ بوصف الكفر للإشعار بالتعليل والمعنى: والذين كفروا بعثهم الكفر الى أن يقولوا للحق الصريح الذي بلغهم وظهر لهم هذا سحر ظاهر سحريته وبطلانه.

وأكد إصرارهم على دحض الحق باتباع الهوى من غير دليل يدل عليه بقوله: «وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير» والجملة حالية أي وعدّ الذين كفروا ـ أي كفار قريش ـ الحق الصريح الظاهر لهم سحراً مبيناً والحال انا لم نعطهم كتباً يدرسونها حتى يميزوا بها الحق من الباطل ولم نرسل اليهم قبلك من رسول ينذرهم ويبين لهم ذلك فيقولوا استناداً الى الكتاب الإلهي أو الى قول الرسول النذير: إنه حق أو باطل.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ ضميرا الجمع الأول والثاني لكفار قريش ومن يتلوهم

والثالث والرابع للذين من قبلهم، والمعشار العُشر والنكير الانكار. والمراد به في الآية لازمه وهو الأخذ بالعذاب.

والمعنى: وكذب بالحق من الآيات الذين كانوا من قبل كفار قريش من الامم الماضية ولم يبلغ كفار قريش عشر ما آتيناهم من القوة والشدة فكذب أولئك الأقوام رسلي فكيف كان أخذي بالعذاب وما أهون أمر قريش. والالتفات في الآية الى التكلم لاستعظام الجرم وتهويل المؤاخذة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ المراد بالموعظة الوصية كناية أو تضميناً. وقوله: «أن تقوموا لله» أي تنهضوا لأجل الله ولوجهه الكريم. وقوله: «مثنى وفرادى» أي اثنين اثنين وواحداً واحداً كناية عن التفرق وتجنب التجمع والغوغاء فإن الغوغاء لا شعور لها ولا فكر وكثيراً ما تميت الحق وتحيي الباطل.

وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ استئناف «ما» نافية ويشهد بذلك قوله بعد: «إن هو إلّا نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ويمكن أن يكون «ما» استفهامية أو موصولة و«من جنة» بياناً له.

والمراد بصاحبكم النبي ﷺ نفسه والوجه في التعبير به تذكرتهم بصحبته الممتدة لهم أربعين سنة من حين ولادته الى حين بعثته ليتذكرا أنهم لم يعهدوا منه اختلالاً في فكر أو خفة في رأي أو أي شيء يوهم أن به جنوناً.

والمعنى: قل لهم: إنما أوصيكم بالعظة أن تنهضوا وتنتصبوا لوجه الله متفرقين حتى يصفو فكركم ويستقيم رأيكم اثنين اثنين وواحداً واحداً وتتفكروا في أمري فقد صاحبتكم طول عمري على سداد من الرأي وصدق وأمانة ليس فيَّ من جنة. ما أنا إلّا نذير لكم بين يدي عذاب شديد في يوم القيامة فأنا ناصح لكم غير خائن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ الخ: كناية عن عدم سؤال أجر على الدعوة فإنه إذا وهبهم كل ما سألهم من أجر فليس له عليهم أجر مسؤل ولازمه أن لا يسألهم وهذا تطييب لنفوسهم أن لا يتهموه بأنه جعل الدعوة ذريعة الى نيل مال أو جاه.

ثم تمم القول بقوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لئلا يردّ عليه قوله بأنه دعوى غير مسموعة فإن الانسان لا يروم عملاً بغير غاية فدفعه بأن لعملي أجراً لكنه على الله لا عليكم وهو يشهد عملي وهو على كل شيء شهيد.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ القذف الرمي، وقوله: «علّام الغيوب» خبر بعد خبر أو خبر لمبتدأ محذوف وهو الضمير الراجع اليه تعالى.

ومقتضى سياق الآيات السابقة أن المراد بالحق المقذوف القرآن النازل اليه بالوحي من عنده تعالى الذي هو قول فصل يحق الحق ويبطل الباطل فهو الحق المقذوف اليه ﷺ من عند علّام الغيوب فيدمغ الباطل ويزهقه. قال تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ (الأنبياء / ١٨)، وقال: ﴿قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ (الإسراء / ٨١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ المراد بمجيء الحق على ما تهدي اليه الآية السابقة نزول القرآن المبطل بحججه القاطعة وبراهينه الساطعة لكل باطل من أصله.

وقوله: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي ما يظهر أمراً ابتدائياً جديداً بعد مجيء الحق وما يعيد أمراً كان قد أظهره من قبل إظهاراً ثانياً بنحو الإعادة فهو كناية عن بطلان الباطل وسقوطه عن الأثر من أصله بالحق الذي هو القرآن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ بيان لأثر الحق الذي هو الوحي فإنه عرفه حقاً

مطلقاً فالحق إذا كان حقاً من كل جهة لم يخطىء في إصابة الواقع في جهة من الجهات وإلّا كان باطلاً من تلك الجهة فالوحي يهدي ولا يخطىء البتة.

ولذا قال تأكيداً لما تقدم: «قل إن ضللت» وفرض مني ضلال «فإنما أضل» مستقراً ذلك الضلال «على نفسي» فإن للإنسان من نفسه أن يضل «وإن اهتديت فبما يوحي الى ربي» فوحيه حق لا يحتمل ضلالاً ولا يؤثر إلّا الهدى.

وقد علل الكلام بقوله: «إنه سميع قريب» للدلالة على أنه يسمع الدعوة ولا يحجبه عنها حاجب البعد وقد مهد له قبلاً وصفه تعالى في قذف الحق بأنه علام الغيوب فلا يغيب عنه أمر يخل بأمره ويمنع نفوذ مشيته هداية الناس بالوحي قال تعالى: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسوله فإنه يسلك من بينه يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً**﴾ (الجن / ٢٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَـانٍ قَـرِيبٍ﴾ ظاهر السياق السابق ويشعر به قوله الآتي: «وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل» أن الآيات الأربع وصف حال مشركي قريش ومن يلحق بهم حال الموت.

فقوله: «ولو ترى إذ فزعوا» أي حين فزع هؤلاء المشركون عند الموت «فلا فوت» أي لا يفوتون الله بهرب أو تحصن أو أي حائل آخر.

وقوله: ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ كناية عن عدم فصل بينهم وبين من يأخذهم وقد عبر بقوله: «أُخذوا» مبنياً للمفعول ليستند الأخذ اليه سبحانه، وقد وصف نفسه بأنه قريب، وكشف عن معنى قربه بقوله: ﴿**ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون**﴾ (الواقعة / ٨٥)، وأزيد منه في قوله: ﴿**من حبل الوريد**﴾ (ق / ١٦)، وأزيد منه في قوله: ﴿**إن الله يحول بين المرء وقلبه**﴾ (الأنفال / ٢٤)، فبين أنه أقرب الى الانسان من نفسه وهذا الموقف هو المرصاد الذي ذكره في قوله: ﴿**إن ربك لبالمرصاد**﴾ (الفجر / ١٤)، فكيف يتصور

فوت الإنسان منه وهو أقرب اليه من نفسه ؟ أو من ملائكته المكرمين الذين يأخذون الأمر منه تعالى من غير حاجب يحجبهم عنه أو واسط يتوسط بينه وبينهم.

فقوله: ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ نوع تمثيل لقربه تعالى من الإنسان بحسب ما نتصوره من معنى القرب لاحتباسنا في سجن الزمان والمكان وأُنسنا بالامور المادية وإلّا فالأمر أعظم من ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ التناوش التناول وضمير «به» للقرآن على ما يعطيه السياق.

والمراد بكونهم في مكان بعيد أنهم في عالم الآخرة وهي دار تعين الجزاء وهي أبعد ما يكون من عالم الدنيا التي هي دار العمل وموطن الاكتساب بالاختيار وقد تبدل الغيب شهادة لهم والشهادة غيباً كما تشير اليه الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ حال من الضمير في «وأنى لهم التناوش» والمراد بقوله: «ويقذفون بالغيب من مكان بعيد» رميهم عالم الآخرة وهم في الدنيا بالظنون مع عدم علمهم به وكونه غائباً عن حواسهم إذ كانوا يقولون: لا بعث ولا جنة ولا نار، وقيل: المراد به رميهم النبي ﷺ بالسحر والكذب والإفتراء والشعر.

والعناية في إطلاق المكان البعيد على الدنيا بالنسبة الى الآخرة نظيرة إطلاقه على الآخرة بالنسبة الى الدنيا وقد تقدمت الإشارة اليه.

ومعنى الآيتين: وقال المشركون حينما أُخذوا آمنّا بالحق الذي هو القرآن وأنّى لهم تناول الإيمان به ـ إيماناً يفيد النجاة ـ من مكان بعيد وهو الآخرة والحال أنهم كفروا به من قبل في الدنيا وهم ينفون أُمور الآخرة بالظنون والأوهام من مكان بعيد وهو الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ ظاهر السياق أن المراد بما يشتهون اللذائذ المادية الدنيوية التي يحال بينهم وبينها بالموت، والمراد بأشياعهم من قبل أشباههم من الامم الماضية أو موافقوهم في المذهب، وقوله: «إنهم كانوا في شك مريب» تعليل لقوله: «كما فعل» الخ.

والمعنى: ووقعت الحيلولة بين المشركين المأخوذين وبين ما يشتهون من ملاذّ الدنيا كما فعل ذلك بأشباههم من مشركي الامم الدارجة من قبلهم إنهم كانوا في شك مريب من الحق أو من الآخرة فيقذفونها بالغيب.

واعلم أن ما قدمناه من الكلام في هذه الآيات الأربع مبني على ما يعطيه ظاهر السياق وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن الآيات ناظرة الى خسف جيش السفياني بالبيداء وهو من علائم ظهور المهدي عليه السلام المتصلة به فعلى تقدير نزول الآيات في ذلك يكون ما قدمناه من المعنى من باب جري الآيات فيه[1].

---

١. سبأ ٣١ ـ ٥٤: بحث روائي في: الانفاق؛ السفياني؛ ظهور القائم عليه السلام.

سورة فاطر مكية وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ فاطِرِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلٰئِكَةِ رُسُلاً
أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنىٰ وَثُلاٰثَ وَرُبٰاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مٰا يَشٰاءُ
إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

بيان:

غرض السورة بيان الاصول الثلاثة: وحدانيته تعالى في ربوبيته ورسالة الرسول والمعاد اليه وتقرير الحجة لذلك وقد توسل لذلك بعد جمل من نعمه العظيمة السماوية والأرضية والإشارة الى تدبيره المتقن لأمر العالم عامة والإنسان خاصة.

وقد قدم على هذا التفصيل الإشارة الإجمالية الى انحصار فتح الرحمة وإمساكها وهو إفاضة النعمة والكف عنها فيه تعالى بقوله: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها﴾ الآية.

وقدم على ذلك الإشارة الى وسائط هذه الرحمة المفتوحة والنعم الموهوبة وهم الملائكة المتوسطون بينه تعالى وبين خلقه في حمل أنواع النعم من عنده تعالى وإيصالها الى خلقه فافتتح السورة بذكرهم.

والسورة مكية كما يدل عليه سياق آياتها، وقد استثنى بعضهم آيتين وهما قوله تعالى: ﴿إن الذين يتلون آيات الله﴾ الآية؛ وقوله: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا﴾ الآية؛ وهو غير ظاهر من سياق الآيتين.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضِ﴾ الفطر ـ على ما ذكره الراغب ـ هو الشق طولاً فإطلاق الفاطر عليه تعالى بعناية استعارية كأنه شق العدم فأخرج من بطنها السماوات والأرض فحصل معناه أنه موجد السماوات والأرض إيجاداً ابتدائياً من غير مثال سابق، فيقرب معناه من معنى البديع والمبدع والفرق بين الإبداع والفطر أن العناية في الإبداع متعلقة بنفي الحال السابق وفي الفطر بطرد العدم وإيجاد الشيء من رأس لا كالصانع الذي يؤلف مواد مختلفة فيظهر به صورة جديدة لم تكن.

والمراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود فيشملها وما فيها من مخلوق فيكون من قبيل إطلاق معظم الأجزاء وإرادة الكل مجازاً، أو المراد نفس السماوات والأرض اعتناء بشأنهما لكبر خلقتهما وعجيب أمرهما كما قال: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ (المؤمن / ٥٧).

وكيف كان فقوله: «فاطر السماوات والأرض» من أسمائه تعالى أجري صفة لله والمراد بالوصف الاستمرار دون الماضي فقط لأن الإيجاد مستمرٌ وفيض الوجود غير منقطع ولو انقطع لانعدمت الأشياء.

والإتيان بالوصف بعد الوصف للإشعار بأسباب انحصار الحمد فيه تعالى كأنه قيل: الحمد لله على ما أوجد السماوات والأرض وعلى ما جعل الملائكة رسلا أُولي أجنحة فهو تعالى

محمود ما أتى فيا أتى إلا الجميل.

قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلٰئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنىٰ وَثُلاٰثَ وَرُبٰاعَ﴾ الملائكة جمع ملك بفتح اللام وهم موجودات خلقهم الله وجعلهم وسائط بينه وبين العالم المشهود وكلهم بامور العالم التكوينية والتشريعية عباد مكرمون لا يعصون الله فيا أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلٰئِكَةِ رُسُلاً﴾ يشعر بل يدل على كون جميع الملائكة ـ والملائكة جمع محلى باللام مفيد للعموم ـ رسلاً وسائط بينه وبين خلقه في إجراء أوامر التكوينية والتشريعية.

ولا موجب لتخصيص الرسل في الآية بالملائكة النازلين على الأنبياء عليهم السلام وقد أطلق القرآن الرسل على غيرهم من الملائكة كقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ (الأنعام / ٦١)، وقوله: ﴿إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ (يونس / ٢١)، وقوله: ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية﴾ (العنكبوت / ٣١).

والأجنحة جمع جناح وهو من الطائر بمنزلة اليد من الانسان يتوسل به الى الصعود الى الجو والنزول منه والانتقال من مكان الى مكان بالطيران.

فوجود الملك مجهز بما يفعل به نظير ما يفعله الطائر بجناحه فينتقل به من السماء الى الأرض بأمر الله يعرج به منها اليها ومن أي موضع الى أي موضع، وقد سماه القرآن جناحاً ولا يستوجب ذلك إلا ترتب الغاية المطلوبة من الجناح عليه وأما كونه من سنخ جناح غالب الطير ذا ريش وزغب فلا يستوجبه مجرد إطلاق اللفظ كما لم يستوجبه في نظائره كألفاظ العرش والكرسي واللوح والقلم وغيرها.

وقوله: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنىٰ وَثُلاٰثَ وَرُبٰاعَ﴾ صفة للملائكة، ومثنى وثلاث ورباع ألفاظ دالة على تكرر العدد أي اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة كأنه قيل: جعل

الملائكة بعضهم ذا جناحين وبعضهم ذا ثلاثة أجنحة وبعضهم ذا أربعة أجنحة.

وقوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ لا يخلو من إشعار بحسب السياق بأن منهم من يزيد أجنحته على أربعة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لجميع ما تقدمه أو الجملة الأخيرة والأول أظهر[1][2].

٢ ● مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

٣ ● يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ.

٤ ● وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

٥ ● يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ.

٦ ● إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ.

---

١. فاطر ١: بحث روائي في: الملائكة: خلقة الملائكة: اجزاء الملائكة.

٢. فاطر ١: كلام في الملائكة.

٧ ● الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ.

٨ ● أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الخ: المعنى أن ما يؤتيه الله الناس من النعمة وهو الرزق فلا مانع عنه وما يمنع فلا مؤتى له فكان مقتضى الظاهر أن يقال: ما يرسل الله للناس، الخ: كما عبر في الجملة الثانية بالإرسال لكنه عدل عن الإرسال الى الفتح لما وقع مكرراً في كلامه أن لرحمته خزائن كقوله: ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾ (ص / ٩) وقوله: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق﴾ (الإسراء / ١٠٠) والتعبير بالفتح أنسب من الإرسال في الخزائن ففيه اشارة الى أن الرحمة التي يؤتاها الناس مخزونة في خزائن محيطة بالناس لا يتوقف نيلهم منها إلا الى فتحها من غير مؤنة زائدة.

وقد عبر عن الرزق الذي هو النعمة بالرحمة للدلالة على أن إفاضته تعالى لهذه النعم ناشئة من مجرد الرحمة من غير توقع لنفع يعود اليه أو كمال يستكمل به.

وقوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي وما يمنع من الرحمة فلا مرسل له من دونه، وفي التعبير بقوله: «من بعده» إشارة الى أنه تعالى أول في المنع كما أنه أول في الاعطاء.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقرير للحكم المذكور في الآية الكريمة بالاسمين الكريمين فهو تعالى لكونه عزيزاً لا يغلب اذا أعطى فليس لمانع أن يمنع عنه واذا منع فليس لمعط أن يعطيه، وهو تعالى حكيم اذا أعطى أعطى عن حكمة ومصلحة واذا منع منع عن حكمة ومصلحة وبالجملة لا معطي إلا الله ولا مانع إلا هو، ومنعه وإعطائه عن حكمة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الخ: لما قرر في الآية السابقة أن الإعطاء والمنع لله سبحانه لا يشاركه في ذلك أحد احتج في هذه الآية بذلك على توحده في الربوبية.

وتقرير الحجة أن الإله إنما يكون إلهاً معبوداً لربوبيته وهي ملكه تدبير أمر الناس وغيرهم، والذي يملك تدبير الأمر بهذه النعم التي يتقلب فيها الناس وغيرهم ويرتزقون بها هو الله سبحانه دون غيره من الآلهة التي اتخذوها لأنه سبحانه هو الذي خلقها دونهم والخلق لا ينفك عن التدبير ولا يفارقه فهو سبحانه إلهكم لا إله إلا هو لأنه ربكم الذي يدبر أمركم بهذه النعم التي تتقلبون فيها وإنما كان رباً مدبراً بهذه النعم لأنه خالقها وخالق النظام الذي يجري عليها.

وبذلك يظهر أن المراد بالناس المخاطبين الوثنيون وغيرهم ممن اتخذ لله شريكاً.

وقوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ المراد بالذكر ما يقابل النسيان دون الذي الذكر اللفظي.

وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الرزق هو ما يمد به البقاء ومبدؤه السماء بواسطة الأشعة والأمطار وغيرهما والأرض بواسطة النبات والحيوان وغيرهما.

وبذلك يظهر أيضاً أن في الآية إيجازاً لطيفاً فقد بدلت الرحمة في الآية السابقة نعمة في هذه الآية أولاً ثم النعمة رزقاً ثانياً وكان مقتضى سياق الآيتين أن يقال: هل من رازق أو هل من

منعم أو هل من راحم لكن بدّل ذلك من قوله: «هل من خالق» ليكون إشارة الى برهان ثان ينقطع به الخصام، فإنهم يرون تدبير العالم لآلهتهم بإذن الله فلو قيل: هل من رازق أو منعم غير الله لم ينقطع الخصام وأمكن أن يقولوا نعم آلهتنا بتفويض التدبير من الله اليهم لكن لما قيل «هل من خالق» أُشير بالوصف إلى أن الرازق والمدبر هو خالق الرزق لا غير فانقطع الخصام ولم يمكنهم إلا أن يجيبوا بنفي خالق غير الله يرزقهم من السماء والأرض.

وقوله: ﴿لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ﴾ اعتراض بالتوحيد يفيد التعظيم نظير قوله: ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه﴾.

أي لا معبود بالحق إلا هو لأن المستحق للعبادة هو الذي ينعم عليكم ويرزقكم وليس إلا الله.

وقوله: ﴿فَأَنّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ توبيخ متفرع على ما سبق من البرهان أي فإذا كان الأمر هكذا وأنتم تقرون بذلك فإلى متى تصرفون عن الحق الى الباطل ومن التوحيد الى الإشراك.

وفي إعراب الآية أعني قوله: «هل من خالق غير الله» الخ: بين القوم مشاجرات طويلة والذي يناسب ما تقدم من تقرير البرهان أن «من» زائدة للتعميم، وقوله: «غير الله» صفة لخالق تابع لمحله، وكذا قوله: «يرزقكم» الخ: و«من خالق» مبتدء محذوف الخبر وهو موجود، وقوله: «لا إله إلا هو» اعتراض، وقوله: «فأنى تؤفكون» تفريع على ما تقدمه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أي وإن يكذبوك بعد استماع هذه البراهين الساطعة فلا تحزن فليس ذلك ببدع فقد كذبت رسل من قبلك كذبتهم أُممهم وأقوامهم والى الله ترجع عامة الامور فيجازيهم بما يستحقونه بتكذيبهم الحق بعد ظهوره فليسوا بمعجزين بتكذيبهم.

ومن هنا يظهر أن قوله: «فقد كذبت رسل من قبلك» من قبيل وضع السبب موضع

المسبب وأن قوله: «والى الله ترجع الامور» معطوف على قوله: «قد كذبت» الخ؛

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ خطاب عام للناس يذكرهم بالمعاد كما كان الخطاب العام السابق يذكرهم بتوحده تعالى في الربوبية والالوهية.

فقوله: «إن وعد الله حق» أي وعده أنه يبعثكم فيجازي كل عامل بعمله إن خيراً وإن شراً حق أي ثابت واقع، وقد صرح بهذا الوعد في قوله الآتي: «الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير».

وقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ النهي وإن كان متوجهاً الى الحياة الدنيا صورة لكنه في الحقيقة متوجه اليهم، والمعنى اذا كان وعد الله حقاً فلا تغتروا بالحياة الدنيا بالاشتغال بزينتها والتهلي بما ينسيكم يوم الحساب من ملاذها وملاهيها والاستغراق في طلبها والإعراض عن الحق.

وقوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الغرور بفتح الغين صيغة مبالغة من الغرور بالضم وهو الذي يبالغ في الغرور ومن عادته ذلك، والظاهر ـ كما قيل ـ أن المراد به الشيطان ويؤيده التعليل الواقع في الآية التالية «إن الشيطان لكم عدو» الخ.

ومعنى غروره بالله توجيهه أنظارهم الى مظاهر حلمه وعفوه تعالى تارة ومظاهر ابتلائه واستدراجه وكيده أُخرى فيرون أن الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة والإعراض عن الحق والحقيقة لا يستعقب عقوبة ولا يستتبع مؤاخذة، وأن أبناء الدنيا كلما أمعنوا في طلبهم وتوغلوا في غفلتهم واستغرقوا في المعاصي والذنوب زادوا في عيشهم طيباً وفي حياتهم راحة وبين الناس جاهاً وعزة فيلقي الشيطان عند ذلك في قلوبهم أن لا كرامة إلا في التقدم في الحياة الدنيا، ولا خبر عما وراءها وليس ما تتضمنه الدعوة الحقة من الوعد والوعيد وتخبر به النبوة من البعث والحساب والجنة والنار إلا خرافة.

فالمراد بغرور الشيطان الانسان بالله اغترار الإنسان بما يعامل به الله الانسان على غفلته وظلمه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾ الخ: تعليل للنهي المتقدم في قوله: «ولا يغرنكم بالله الغرور» والمراد بعداوة الشيطان أنه لا شأن له إلا إغواء الإنسان وتحريمه سعادة الحياة وحسن العاقبة. والمراد باتخاذ الشيطان عدوا التجنب من اتباع دعوته الى الباطل وعدم طاعته فيما يشير اليه في وساوسه وتسويلاته ولذلك علل عداوته بقوله: «إنما يدعو حزبه».

فقوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ في مقام تعليل ما تقدمه والحزب هو العدة من الناس يجمعهم غرض واحد. واللام في «ليكونوا» للتعليل فكونهم من أصحاب السعير علة غائية لدعوته. والسعير النار المسعرة وهو من أسماء جهنم في القرآن.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هذا هو الوعد الحق الذي ذكره الله سبحانه. وتنكير العذاب للدلالة على التفخيم على أن لهم دركات ومراتب مختلفة من العذاب باختلاف كفرهم وفسوقهم فالابهام أنسب ويجري نظير الوجهين في قوله: «مغفرة وأجر».

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ تقرير وبيان للتقسيم الذي تتضمنه الآية السابقة أعني تقسيم الناس الى كافر له عذاب شديد ومؤمن عامل بالصالحات له مغفرة وأجر كبير والمراد أنهما لا يستويان فلا تستوي عاقبة أمرهما.

فقوله: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ مبتدء خبره محذوف أي كمن ليس كذلك. والفاء لتفريع الجملة على معنى الآية السابقة. والاستفهام للإنكار. والمراد بمن

زين له سوء عمله فرآه حسنا الكافر ويشير به الى أنه منكوس فهمه مغلوب على عقله يرى عمله على غير ما هو عليه، والمعنى أنه لا يستوي من زين له عمله السيىء فرآه حسناً والذي ليس كذلك بل يرى السيىء سيئاً.

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ تعليل للإنكار السابق في قوله: «أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا» أي الكافر الذي شأنه ذلك والمؤمن الذي بخلافه لا يستويان لأن الله يضل أحدهما بمشيته وهو الكافر الذي يرى السيئة حسنة ويهدي الآخر بمشيته وهو المؤمن الذي يعمل الصالحات ويرى السيئة سيئة.

وهذا الإضلال إضلال على سبيل المجازاة وليس إضلالاً ابتدائياً فلا ضير في انتسابه الى الله سبحانه.

وبالجملة اختلاف الكافر والمؤمن في عاقبتها بحسب الوعد الإلهي بالعذاب والرحمة لاختلافهما بالإضلال والهداية الإلهيين واختلافهما بالإضلال والهداية باختلافهما في رؤية السيئة حسنة وعدمها.

وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ الحسرات جمع حسرة وهي الغم لما فات والندم عليه، وهي منصوبة لأنه مفعول لأجله والمراد بذهاب باختلافهما في رؤية السيئة حسنة وعدمها.

وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ الحسرات جمع حسرة وهي الغم لما فات والندم عليه، وهي منصوبة لأنه مفعول لأجله والمراد بذهاب النفس عليهم هلاكها فيهم لأجل الحسرات الناشئة من عدم إيمانهم.

والجملة متفرعة على الفرق السابق أي إذا كان الطائفتان مختلفتين بالإضلال والهداية من جناب الله فلا تهلك نفسك حسرات عليهم إذ كذبوك وكفروا بك فإن الله هو الذي يضلهم جزاء لكفرهم ورؤيتهم السيئة حسنة وهو عليم بما يصنعون فلا يختلط عليه الأمر ولا يفعل

بهم إلا الحق ولا يجازيهم إلا بالحق.

٩ ● وَاللّٰهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيٰاحَ فَتُثِيرُ سَحٰاباً فَسُقْنٰاهُ إِلىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ
فَأَحْيَيْنٰا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا كَذٰلِكَ النُّشُورُ.
١٠ ● مَنْ كٰانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلّٰهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ
الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصّٰالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئٰاتِ لَهُمْ
عَذٰابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولٰئِكَ هُوَ يَبُورُ.
١١ ● وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوٰاجاً وَمٰا
تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَلاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ وَمٰا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلاٰ
يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ.
١٢ ● وَمٰا يَسْتَوِي الْبَحْرٰانِ هٰذٰا عَذْبٌ فُرٰاتٌ سٰائِغٌ شَرٰابُهُ وَهٰذٰا
مِلْحٌ أُجٰاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً
تَلْبَسُونَهٰا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوٰاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ.
١٣ ● يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهٰارِ وَيُولِجُ النَّهٰارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مٰا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ.
١٤ ● إِنْ تَدْعُوهُمْ لاٰ يَسْمَعُوا دُعٰاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجٰابُوا لَكُمْ
وَيَوْمَ الْقِيٰامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاٰ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ الخ: العناية في المقام بتحقق وقوع الأمطار وإنبات النبات بها، ولذلك قال: «الله الذي أرسل الرياح» وهذا بخلاف ما في سورة الروم من قوله: ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ (الروم / ٤٨).

وقوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾ عطف على «أرسل» والضمير للرياح والإتيان بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية والإثارة إفعال من ثار الغبار يثور ثوراناً إذا انتشر ساطعاً.

وقوله: ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ أي الى أرض لا نبات فيها «فأحيينا به الأرض بعد موتها» وأنبتنا فيها نباتاً بعد ما لم تكن، ونسبة الإحياء الى الأرض وإن كانت مجازية لكن نسبته الى النبات حقيقة وأعمال النبات من التغذية والنمو وتوليد المثل وما يتعلق بذلك أعمال حيوية تنبعث من أصل الحياة.

ولذلك شبه البعث وإحياء الأموات بعد موتهم بإحياء الأرض بعد موتها أي إنبات النبات بعد توقفه عن العمل وركوده في الشتاء فقال: «كذلك النشور» أي البعث فالنشور بسط الأموات يوم القيامة بعد إحيائهم وإخراجهم من القبور.

وفي قوله: ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ الخ: التفات من الغيبة الى التكلم مع الغير فهو تعالى في قوله: «والله أرسل» بنعت الغيبة وفي قوله: «فسقناه» الخ: بنعت التكلم مع الغير ولعل النكتة في ذلك هي أنه لما قال: «والله أرسل الرياح» أخذ لنفسه نعت الغيبة ويتبعه فيه الإرسال فإن فعل الغائب غائب، ثم لما قال: «فتثير سحاباً» على نحو حكاية الحال الماضية صار المخاطب كأنه يرى الفعل ويشاهد الرياح وهي تثير السحاب وتنشره في الجو فصار كأنه يرى من يرسل الرياح لأن مشاهدة الفعل كادت أن لا تنفك عن مشاهدة الفاعل فلما ظهر

تعالى بنعت الحضور غيّر سياق كلامه من الغيبة الى التكلم واختار لفظ التكلم مع الغير للدلالة على العظمة.

وقوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾ ولم يقل: فأحييناه مع كفايته وكذا قوله: «بعد موتها» مع جواز الاكتفاء بما تقدمه للأخذ بصريح القول الذي لا ارتياب دونه.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ قال الراغب في المفردات: العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم: أرض عزاز أي صلبة قال تعالى: «أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً» انتهى.

فالصلابة هو الأصل في معنى العزة ثم توسع فاستعمل العزيز فيمن يقهر ولا يقهر كقوله تعالى: ﴿يا أيها العزيز مسنا﴾ (يوسف / ٨٨). وكذا العزة بمعنى الغلبة قال تعالى: ﴿وعزني في الخطاب﴾ (ص / ٢٣) والعزة بمعنى القلة وصعوبة المنال. قال تعالى: ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ (حم السجدة / ٤١) والعزة بمعنى مطلق الصعوبة قال تعالى: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ (التوبة / ١٣٨) والعزة بمعنى الأنفة والحمية قال تعالى: ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ (ص / ٢) الى غير ذلك.

ثم إن العزة بمعنى كون الشيء قاهراً غير مقهور أو غالباً غير مغلوب تختص بحقيقة معناها بالله عز وجل إذ غيره تعالى فقير في ذاته ذليل في نفسه لا يملك لنفسه شيئاً إلا أن يرحمه الله ويؤتيه شيئاً من العزة كما فعل ذلك بالمؤمنين به قال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (المنافقون / ٨).

وبذلك يظهر أن قوله: «من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً» ليس بمسوق لبيان اختصاص العزة بالله بحيث لا ينالها غيره وأن من أرادها فقد طلب محالاً وأراد ما لا يكون بل المعنى من كان يريد العزة فليطلبها منه تعالى لأن العزة له جميعاً لا توجد عند غيره بالذات.

فوضع قوله: «فلله العزة جميعاً» في جزاء الشرط من قبيل وضع السبب موضع المسبب

وهو طلبها من عنده أي اكتسابها منه بالعبودية التي لا تحصل إلا بالايمان والعمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ الكلم - كما قيل - اسم جنس جمعي يذكر ويؤنث، وقال في المجمع: والكلم جمع كلمة يقال؟ هذا كلم وهذه كلم فيذكر ويؤنث، وكل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء يجوز فيه التذكير والتأنيث انتهى.

والمراد بالكلم على أي حال ما يفيد معنى تاماً كلامياً ويشهد به توصيفه بالطيب فطيب الكلم هو ملاءمته لنفس سامعه ومتكلمه بحيث تنبسط منه وتستلذه وتستكمل به وذلك إنما يكون بإفادته معنى حقاً فيه سعادة النفس وفلاحها.

وبذلك يظهر أن المراد به ليس مجرد اللفظ بل بما أن له معنى طيباً فالمراد به الاعتقادات الحقة التي يسعد الإنسان بالإذعان لها وبناء عمله عليها والمتيقن منها كلمة التوحيد التي يرجع اليها سائر الاعتقادات الحقة وهي المشمولة لقوله تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها﴾ (إبراهيم / ٢٥) وتسمية الاعتقاد قولاً وكلمة أمر شائع بينهم.

وصعود الكلم الطيب اليه تعالى هو تقربه منه تعالى اعتلاء وهو العلي الأعلى رفيع الدرجات، وإذ كان اعتقاداً قائماً بمعتقده فتقربه منه تعالى تقرب المعتقد به منه. وقد فسروا صعود الكلم الطيب بقبوله تعالى له وهو من لوازم المعنى.

ثم أن الاعتقاد والايمان إذا كان حق الاعتقاد صادقاً الى نفسه صدقه العمل ولم يكذبه أي يصدر عنه العمل على طبقه فالعمل من فرع العلم وآثاره التي لا تنفك عنه. وكلما تكرر العمل زاد الاعتقاد رسوخاً وجلاء وقوي في تأثيره فالعمل الصالح وهو العمل الحري بالقبول الذي طبع عليه بذل العبودية والإخلاص لوجهه الكريم يعين الاعتقاد الحق في ترتب أثره عليه وهو الصعود اليه تعالى وهو المعزي اليه بالرفع فالعمل الصالح يرفع الكلم الطيب.

فقد تبين بما مر معنى قوله: «اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» وأن ضمير

«اليه» لله سبحانه والمراد بالكلم الطيب الاعتقاد الحق كالتوحيد، وبصعوده تقربه منه تعالى، وبالعمل الصالح ما كان على طبق الاعتقاد الحق ويلائمه وأن الفاعل في «يرفعه» ضمير مستكن راجع الى العمل الصالح وضمير المفعول راجع الى الكلم الطيب.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ذكروا أن «السيآت» وصف قائم مقام موصوف محذوف وهو المكرات، ووضع اسم الإشارة موضع الضمير في «مكر أُولئك» للدلالة على أنهم متعينون لا مختلطون بغيرهم والمعنى والذين يمكرون المكرات السيآت لهم عذاب شديد ومكر أُولئك الماكرين هو يبور ويهلك فلا يستعقب أثراً حياً فيه سعادتهم وعزتهم.

وقد بان أن المراد بالسيآت أنواع المكرات والحيل التي يتخذها المشركون وسائل لكسب العزة. والآية مطلقة، وقيل: المراد بالمكرات التي اتخذتها قريش على رسول الله ﷺ في دار الندوة وغيرها من إثبات أو إخراج أو قتل فرد الله كيدهم اليهم وأخرجهم الى بدر وقتلهم وأثبتهم في القليب فجمع عليهم الإثبات والإخراج والقتل وهذا وجه حسن لكن الآية مطلقة.

ووجه اتصال ذيل الآية بصدرها أعني اتصال قوله: «اليه يصعد» الى آخر الآية بقوله: «ومن كان يريد العزة فلله العزة جميعاً» أن المشركين كانوا يعتزون بآلهتهم كما قال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً﴾ (مريم / ٨١) فدعاهم الله سبحانه وهم يطلبون العز الى نفسه بتذكيرهم أن العزة لله جميعاً وبين تعالى ذلك بأن توحيده يصعد اليه والعمل الصالح يرفعه فيكتسب الإنسان بالتقرب منه عزة من منبع العزة وأما الذين يمكرون كل مكر سيىء لاكتساب العزة فلهم عذاب شديد وما مكروه من المكر بائر هالك لا يصعد الى محل ولا يكسب لهم عزا.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً﴾

الخ: يشير تعالى الى خلق الإنسان فابتدء خلقه من تراب وهو المبدء البعيد الذي تنتهي اليه الخلقة ثم من نطفة وهي مبدء قريب تتعلق به الخلقة.

والفرق بين الوجوه الثلاثة أن في الأول نسبة الخلق من تراب اليهم على طريق المجاز العقلي، وفي الثاني المراد بخلقهم خلق آدم ولا مجاز في النسبة، وفي الثالث المراد خلق كل واحد من الأفراد من التراب حقيقة من غير مجاز إلا أنه خلق إجمالي لا تفصيلي وبهذا يفارق ما قدمناه من الوجه.

ويمكن تأييد القول الأول بقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾ (الرحمن / ١٤)، والثاني بنحو قوله: ﴿وبدء خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ (السجدة / ٨)، والثالث بقوله: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ (الأعراف / ١١) ولكل وجه.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوٰاجاً﴾ أي ذكوراً وإناثاً، وقيل: أي قدر بينكم الزوجية وزوج بعضكم من بعض، وهو كما ترى، وقيل: أي أصنافاً وشعوباً. وهو كسابقه.

وقوله: ﴿وَمٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَلاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ﴾ من زائدة لتأكيد النفي، والباء في «بعلمه» للمصاحبة وهو حال من الحمل والوضع، والمعنى ما تحمل ولا تضع أنثى إلا وعلمه يصاحب حمله ووضعه، وذكر بعضهم أنه حال من الفاعل وأن كونه حالاً من الحمل والوضع وكذا من مفعوليهما أي المحمول والموضوع خلاف الظاهر وهو ممنوع.

وقوله: ﴿وَمٰا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلاٰ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ﴾ أي وما يمد ويزاد في عمر أحد فيكون معمراً ولا ينقص من عمره أي عمر أحد إلا في كتاب.

فقوله: ﴿وَمٰا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ من قبيل قوله: «إني أراني أعصر خمراً» (يوسف / ٢٦) فوضع معمر موضع نائب الفاعل وهو أحد بعناية أنه بعد تعلق التعمير به يصير معمراً وإلا فتعمير المعمر لا معنى له.

وقوله: ﴿وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ الضمير في «عمره» راجع الى «معمر» باعتبار موصوفه المحذوف وهو أحد والمعنى ولا ينقص من عمر أحد وإلا فنقص عمر المفروض معمراً تناقض خارق للفرض.

وقوله: ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ الذي لا سبيل للتغيير اليه فقد كتب فيه أن فلاناً يزاد في عمره كذا لسبب كذا وفلاناً ينقص من عمره كذا لسبب كذا وأما كتاب المحو والإثبات فهو مرود التغير وسياق الآية يفيد وصف العلم الثابت ولهم في قوله: «وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره» وجوه أُخر ضعيفة لا جدوى في التعرض لها.

وقوله: ﴿إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ﴾ تعليل وتقرير لما في الآية من وصف خلق الإنسان وكيفية إحداثه وإبقائه والمعنى أن هذا التدبير الدقيق المتين المهيمن على كليات الحوادث وجزئياتها المقرر كل شيء في مقره على الله يسير لأنه الله العلم القدير المحيط بكل شيء بعلمه وقدرته فهو تعالى رب الإنسان كما أنه رب كل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ الى آخر الآية؛ قيل: العذب من الماء طيبه. والفرات الماء الذي يكسر العطش أو البارد كما في المجمع. والسائغ هو الذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته والاجاج الذي يحرق لملوحته أو المر.

وقوله: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ اللحم الطري الغض الجديد. والمراد لحم السمك أو السمك والطير البحري. والحلية المستخرجة من البحر اللؤلؤ والمرجان والأصداف قال تعالى: ﴿يخرج منها اللؤلؤ والمرجان﴾ (الرحمن / ٢٢).

وفي الآية تمثل للمؤمن والكافر بالبحر العذاب والمالح يتبين به عدم تساوي المؤمن والكافر في الكمال الفطري وإن تشاركا في غالب الخواص الإنسانية وآثارها فالمؤمن باق على

فطرته الأصلية ينال بها سعادة الحياة الدائمة والكافر منحرف فيها متلبس بما لا تستطيبه الفطرة الإنسانية وسيعذب بأعماله فمثلهما مثل البحرين المختلفين عذوبة وملوحة فهما مختلفان من حيث البقاء على فطرة الماء الأصلية وهي العذوبة والخروج عنها بالملوحة وإن اشتركا في بعض الآثار التي ينتفع بها، فمن كل منهما تأكلون لحماً طرياً وهو لحم السمك والطير المصطاد من البحر وتستخرجون حلية تلبسونها كاللؤلؤ والمرجان والأصداف.

فظاهر الآية أن الحلية المستخرجة مشتركة بين البحر العذب والبحر المالح.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ضمير «فيه» للبحر، ومواخر جمع ماخرة من المخر بمعنى الشق عدت السفينة ماخرة لشقها الماء بجؤجئها.

قيل: إنما أُفرد ضمير الخطاب في قوله: «ترى» بخلاف الخطابات المتقدمة والمتأخرة لأن الخطاب لكل أحد يتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط.

وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي مخر الفلك البحر بتسخيره لتطلبوا من عطائه وهو الرزق ورجاء أن تشكروا الله سبحانه، وقد تقدم أن الترجي الذي تفيده «لعل» في كلامه تعالى قائم بالمقام دون المتكلم.

وقد قيل في هذه الآية «وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله» وفي سورة النحل ﴿وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله﴾ فاختلفت الآيتان في تقديم «فيه» على «مواخر» وتأخيره منه وعطف «لتبتغوا» وعدمه.

ولعل النكتة في ذلك أن آية النحل مصدرة بكلمة التسخير فهي مسوقة لبيان كيفية التسخير والأنسب لذلك تأخير «فيه» ليتعلق بمواخر ويشير الى مخر البحر فيصرح بالتسخير بخلاف ما ههنا ثم التسخير له غايات كثيرة منها ابتغاء الفضل والأنسب لذلك عطف «لتبتغوا» على محذوف ليدل على عدم انحصار الغاية في ابتغاء الفضل بخلاف ما ههنا

فإن الغرض بيان أنه الرازق المدبر ليرتدع المكذبون ـ وقد تقدم ذكر تكذيبهم ـ عن تكذيبهم ويكفي في ذلك بيان ابتغائهم الفضل غاية من غير حاجة الى العطف. والله أعلم.

وقال في روح المعاني في المقام: والذي يظهر لي في ذلك أن آية النحل سيقت لتعداد النعم كما يؤذن بذلك سوابقها ولواحقها وتعقيب الآيات بقوله سبحانه: «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» فكان الأهم هناك تقديم ما هو نعمة وهو مخر الفلك للماء بخلاف ما هنا فإنه إنما سيق استطراداً أو تتمة للتمثيل كما علمت آنفاً فقدم فيه «فيه» إيذاناً بأنه ليس المقصود بالذات ذلك، وكان الاهتمام بما هناك اقتضى أن يقال في تلك الآية: «ولتبتغوا» بالواو ومخالفة ما هنا لذلك اقتضت ترك الواو في قوله: «لتبتغوا» انتهى.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الخ؛ إيلاج الليل في النهار قصر النهار بطول الليل وإيلاج النهار في الليل قصر الليل بطول النهار، والمراد بالجملتين الإشارة الى اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر المستمر في أيام السنة بتغير الأيام ولذا عبر بقوله: «يولج» الدال على استمرار التغيير بخلاف جريان الشمس والقمر فإنه ثابت على حاله ولذا عبر فيه بقوله: «وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى» والعناية صورية مسامحية.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ بمنزلة النتيجة لما تقدم أي إذا كان أمر خلقكم وتدبيركم براً وبحراً وأرضاً وسماء منتسباً اليه مدبراً بتدبيره فذلكم الله ربكم الذي يملككم ويدبر أمركم.

وقوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ مستنتج مما قبله وتوطئة وتمهيد لما بعده من قوله: «والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ القطمير على ما قاله الراغب الأثر على رأس النواة وذلك مثل للشيء الطفيف، وفي المجمع: القطمير لفافة النواة.

وقيل: الحبة في بطن النواة انتهى والكلام على أي حال مبالغة في نفي أصل الملك.

والمراد بالذين تدعون من دون الله آلهتهم الذين كانوا يدعونها من الأصنام وأربابها.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ الخ؛ بيان وتقرير لما تقدم من قوله: «والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير» أي تصديق كونهم لا يملكون شيئاً أنكم إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم لأن الأصنام جمادات لا شعور لها ولا حس وأرباب الأصنام كالملائكة والقديسين من البشر في شغل شاغل من ذلك على أنهم لا يملكون سمعاً من عند أنفسهم فلا يسمعون إلا بإسماعه.

وقوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ إذ لا قدرة لهم على الاستجابة قولاً ولا فعلاً أما الأصنام فظاهر وأما أرباب الأصنام فقدرتهم من الله سبحانه ولن يأذن الله لأحد أن يستجيب أحداً يدعوه بالربوبية قال تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ (النساء / ١٧٢).

وقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي يردون عبادتكم اليكم ويتبرؤن منكم بدلاً من أن يكونوا شفعاء لكم ﴿إذ تبرء الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾ (البقرة / ١٦٦).

فالآية في نفي الاستجابة وكفر الشركاء يوم القيامة في معنى قوله: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ (الأحقاف / ٦).

وقوله: ﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي لا يخبرك عن حقيقة الأمر مخبر مثل مخبر خبير وهو خطاب خاص بالنبي ﷺ بعد الإعراض عن خطابهم لعدم تفقههم بالبيان الحق أو خطاب عام في صورة الخطاب الخاص خوطب به السامع أي من كان كقوله: ﴿وترى الفلك

فيه مواخر﴾ الآية السابقة؛ وقوله: ﴿وترى الشمس إذا طلعت﴾ الآية (الكهف / ١٧)؛ وقوله: ﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾ (الكهف / ١٨).

١٥ ● يٰا أَيُّهَا النّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرٰاءُ إِلَى اللّٰهِ وَاللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ الحَمِيدُ.

١٦ ● إِنْ يَشَأْ يُذهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ.

١٧ ● وَمٰا ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ بِعَزِيزٍ.

١٨ ● وَلاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلىٰ حِمْلِهٰا لاٰ
يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذٰا قُرْبىٰ إِنَّمٰا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقٰامُوا الصَّلوٰةَ وَمَنْ تَزَكّىٰ فَإِنَّمٰا يَتَزَكّىٰ لِنَفْسِهِ
وَإِلَى اللّٰهِ المَصِيرُ.

١٩ ● وَمٰا يَسْتَوِي الأَعْمىٰ وَالْبَصِيرُ.

٢٠ ● وَلاَ الظُّلُمٰاتُ وَلاَ النُّورُ.

٢١ ● وَلاَ الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ.

٢٢ ● وَمٰا يَسْتَوِي الأَحْيٰاءُ وَلاَ الأَمْوٰاتُ إِنَّ اللّٰهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشٰاءُ
وَمٰا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

٢٣ ● إِنْ أَنْتَ إِلاّ نَذِيرٌ.

٢٤ ● إِنّٰا أَرْسَلْنٰاكَ بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاّ خَلا فِيهٰا
نَذِيرٌ.

٢٥ ● وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

بِالبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالكِتَابِ الْمُنِيرِ.

٢٦ ● ثُمَّ أَخَذتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللّٰهِ وَاللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ لا ريب أن في الآية نوع تمهيد بالنسبة الى الآيتين التاليتين يتبين بها مضمونها وهي مع ذلك مستقلة في مفادها.

بيان ذلك: أن السياق يشعر بأن أعمال هؤلاء المكذبين كانت تكشف عن أنهم كانوا يتوهمون أن لهم أن يستغنوا عن الله سبحانه بعبادة آلهتهم وأن لله اليهم حاجة ولذلك يدعوهم الى نفسه بالدعوة الإلهية التي يقوم بها رسله فهناك غني وفقر ولهم نصيب من الغنى ولله نصيب من الفقر تعالى عن ذلك.

فرد الله سبحانه زعمهم ذلك بقوله: «يا أيها أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني» فقصر الفقر فيهم وقصر الغنى فيه سبحانه فكل الفقر فيهم وكل الغنى فيه سبحانه. وإذ كان الغنى والفقر وهما الوجدان والفقدان متقابلين لا يرتفعان عن موضوعهما كان لازم القصر السابق قصر آخر وهو قصرهم في الفقر وقصره تعالى في الغنى فليس لهم إلا الفقر وليس له تعالى إلا الغنى.

فالله سبحانه غني بالذات له أن يذهبهم ويستغني عنهم وهم فقراء بالذات ليس لهم أن يستغنوا عنه بغيره.

والملاك في غناه تعالى عنهم وفقرهم أنه تعالى خالقهم ومدبر أمرهم واليه الإشارة بأخذ لفظ الجلالة في بيان فقرهم وبيان غناه. والإشارة الى الخلق والتدبير في قوله: «إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد» وكذا توصيفه تعالى بالحميد وهو المحمود في فعله الذي هو

خلقه وتدبيره.

فيعود معنى الكلام الى نحو من قولنا: يا أيها الناس أنتم بما أنكم مخلوقون مدبرون لله الفقراء الى الله فيكم كل الفقر والحاجة والله بما أنه الخالق المدبر، الغني لا غنى سواه.

وتذييل الآية بصفة الحميد للإشارة الى أنه غني محمود الأفعال إن أعطى وإن منع لأنه إذا أعطى لم يعطه لبدل لغناه عن الجزاء والشكر وكل بدل مفروض وإن منع لم يتوجه اليه لائمة إذ لا حق لأحد عليه ولا يملك منه شيء.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي إن يرد إذهابكم يذهبكم أيها الناس لأنه غني عنكم لا يستضر بذهابكم ويأت بخلق جديد يحمدونه ويثنون عليه لا لحاجة منهم اليهم بل لأنه حميد ومقتضاه أن يجود فيحمد وليس ذلك على الله بصعب لقدرته المطلقة لأنه الله عز اسمه.

فقد بان أن مضمون الآية متفرعة على مضمون الآية السابقة فقوله: «إن يشأ يذهبكم» متفرع على كونه تعالى غنياً، وقوله: «ويأت بخلق جديد» متفرع على كونه تعالى حميداً، وقد فرع مضمون الجملتين في موضع آخر على غناه ورحمته قال تعالى: ﴿وربك للغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ (الأنعام / ١٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ﴾ الخ: قال الراغب: الوزر - بفتحتين - الملجأ الذي يلتجأ اليه من الجبل، قال تعالى: «كلا لا وزر» والوزر - بالكسر فالسكون - الثقل تشبيهاً بوزر الجبل، ويعبر به عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل قال تعالى: «وليحملوا أوزارهم كاملة» الآية؛ كقوله: ﴿ليحملوا أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾. انتهى فالمعنى لا تحمل نفس حاملة للإثم إثم نفس أخرى ولازم ذلك أن لا تؤاخذ نفس إلا بما حملت من إثم نفسها واكتسبته من الوزر.

فقوله: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ﴾ أي لا تحمل نفس حاملة للوزر والإثم إثم

نفس أُخرى حاملة.

وقوله: ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة أثقلها حملها من الاثم غيرها إلى ما حملته من الإثم ليحمله عنها لا يستجاب لها ولا يحمل من حملها شيء ولو كان المدعو ذا قربى للداعي كالأب والام والأخ والاخت.

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ أي هؤلاء المكذبون لا ينتفعون بالإنذار ولا تتحقق معهم حقيقة الإنذار لأنهم مطبوع على قلوبهم إنما تنذر وينفع إنذارك الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة التي هي أفضل العبادات وأهمها وبالجملة يؤمنون بالله ويعبدونه أي الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة إثر إنذارك لا أنهم يخشون ربهم ويصلون ثم ينذرون بعد ذلك حتى يلزم تحصيل الحاصل فالآية كقوله: ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ (يوسف / ٣٦).

وقوله: ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾ بدل الخشية وإقامة الصلاة من التزكي للإشارة الى أن المطلوب بالدعوة والإنذار هو التزكي وتزكية النفس تلبسها بالخشية من الله على الغيب وإقامة الصلاة.

وفيه تقرير وتأكيد لما تقدم من كونه تعالى غنياً حميداً فهو تعالى لا ينتفع بما يدعو اليه من التزكي بل الذي تزكى فإنما يتزكى لنفع نفسه.

وقد ختم الآية بقوله: «والى الله المصير» للدلالة على أن تزكية من تزكى لا يذهب سدى، فإن كلا من الفريقين صائرون الى ربهم لا محالة وهو يحاسبهم ويجازيهم فيجازي هؤلاء المتزكين أحسن الجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ الظاهر أنه عطف على قوله: «والى الله المصير» تعليل في صورة التمثيل لعدم مساواة هؤلاء المتزكين لاولئك المكذبين. وقيل:

عطف على قوله السابق: ﴿وما يستوي البحران﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ تكرار حروف النفي مرة بعد مرة في الآية وما يليها لتأكيد النفي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ الحرور شدة حر الشمس على ما قيل وقيل: هو السموم وقيل: السموم يهب نهاراً والحرور يهب ليلاً ونهاراً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ الى آخر الآية عطف على قوله: «وما يستوي الأعمى والبصير» وإنما كرر قوله: «ما يستوي» ولم يعطف «الأحياء ولا الأموات» على قوله: «الأعمى والبصير» كرابعته لطول الفصل فاعيد «ما يستوي» لئلا يغيب المعنى عن ذهن السامع فهو كقوله: ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله - الى أن قال - كيف وإن يظهروا عليكم﴾ الخ (التوبة / ٨).

والجمل المتوالية المترتبة أعني قوله: «وما يستوي الأعمى والبصير - الى قوله - وما يستوي الأحياء ولا الأموات» تمثيلات للمؤمن والكافر وتبعات أعمالهما.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ وهو المؤمن كان ميتاً فأحياه الله فأسمعه لما في نفسه من الاستعداد لذلك قال تعالى: ﴿أو كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً﴾ (الأنعام / ١٢٢)، وأما النبي ﷺ فإنما هو وسيلة والهدى هدى الله.

وقوله: «وما أنت بمسمع من في القبور» أي الأموات والمراد بهم الكفار المطبوع على قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ قصر إضافي أي ليس لك إلا إنذارهم وأما هداية من اهتدى منهم وإضلال من ضل ولم يهتد جزاء له بسيىء عمله فإنما ذلك سبحانه. ولم يذكر البشير مع النذير مع كونه ﷺ متلبساً بالوصفين معاً لأن المقام مقام الإنذار فالمناسب هو التعرض لوصف الانذار مع أنه مذكور في الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ المفاد على ما يقتضيه السياق إنا أرسلناك بالتبشير والإنذار وليس ببدع مستغرب فما من أمة من الامم إلا وقد خلا ومضى فيها نذير فذلك من سنن الله الجارية في خلقه.

وظاهر السياق أن المراد بالنذير الرسول المبعوث من عند الله وفسر بعضهم النذير بمطلق من يقوم بالعظة والإنذار من نبي أو عالم غير نبي وهو خلاف ظاهر الآية.

نعم ليس من الواجب أن يكون نذير كل أمة من أفرادها فقد قال تعالى: «خلا فيها» ولم يقل «خلا منها».

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ البينات هي الآيات المعجزة التي تشهد على حقية الرسل، والزبر جمع زبور ولعل المراد بها بقرينة مقابلتها للكتاب الصحائف والكتب التي فيها ذكر الله تعالى من غير أن تتضمن الأحكام والشرائع، والكتاب المنير الكتاب المنزل من السماء المتضمن للشرائع ككتاب نوح وإبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم السلام، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ الأخذ كناية عن التعذيب، والنكير الإنكار، والباقي ظاهر[1].

٢٧ ● أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ.

---

١. فاطر ١٥ـ٢٦: كلام في معنى عموم الانذار.

٢٨ ● وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا
يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَؤُاْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ.
٢٩ ● إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلوٰةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ.
٣٠ ● لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ.
٣١ ● وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ.
٣٢ ● ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ
لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ
هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ.
٣٣ ● جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ
وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ.
٣٤ ● وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ
شَكُورٌ.
٣٥ ● الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ
يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ.
٣٦ ● وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ
يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ.
٣٧ ● وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي

كُنّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ.

٣٨ • إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها﴾ الخ: حجة أُخرى على التوحيد وهو أن الله سبحانه ينزل الماء من السماء بالإمطار وهو أقوى العوامل المعينة لخروج الثمرات، ولو كان خروجها عن مقتضى طباع هذا العامل وهو واحد لكان جميعها ذا لون واحد فاختلاف الألوان يدل على وقوع التدبير الإلهي.

والقول بأن اختلافها منوط باختلاف العوامل المؤثرة فيها ومنها اختلاف العناصر الموجودة فيها نوعاً وقدراً وخصوصية التأليف.

مدفوع بأن الكلام منقول حينئذ الى اختلاف نفس العناصر وهي منتهية الى المادة المشتركة التي لا اختلاف فيها فاختلاف العناصر المكونة منها يدل على عامل آخر وراء المادة يدبر أمرها ويسوقها الى غايات مخلفة.

والظاهر أن المراد باختلاف ألوان الثمرات اختلاف نفس ألوانها ويلزمه اختلافات أُخر من حيث الطعم والرائحة والخواص، وقيل المراد باختلاف الألوان اختلاف الأنواع فكثيراً ما يطلق اللون في الفواكه والأطعمة على النوع كما يقال: قدم فلان ألواناً من الطعام والفاكهة فهو من الكناية، وقوله بعد: «ومن الجبال جدد بيض وحمر» لا يخلو من تأييد للوجه الأول.

وفي قوله: ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ الخ: التفات من الغيبة الى التكلم. قيل: إن ذلك لكمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبيء عن كمال القدرة والحكمة.

ونظير الوجه يجري في قوله السابق: «إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً» وأما ما في الآية السابقة من قوله: «ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير» فلعل الوجه فيه أن أمرهم الى الله لا يتخلل بينه وبينهم أحد حتى يشفع لهم أو ينصرهم فينجوا من العذاب.

وقوله: ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ الجدد بالضم فالفتح جمع جدة بضم الجيم وهي الطريقة والجادة، والبيض والحمر جمع ابيض وأحمر. والظاهر أن قوله: «مختلف ألوانها» صفة لجدد و«ألوانها» فاعل «مختلف» ولو كانت الجملة مبتدء وخبراً لقيل: مختلفة ألوانها كما قيل. والغرابيب جمع غربيب وهو الأسود الشديد السواد ومنه الغراب و«سود» بدل أو عطف بيان لغرابيب.

والمعنى: ألم تر أن من الجبال طرائق بيض وحمر وسود مختلف ألوانها، والمراد إما الطرق المسلوكة في الجبال ولها ألوان مختلفة، وإما نفس الجبال التي هي خطوط مختلفة ممدودة على وجه الأرض بيض وحمر وسود مختلف ألوانها.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ﴾ أي ومن الناس والدواب التي تدب في الأرض والأنعام كالابل والغنم والبقر بعض مختلف ألوانه بالبياض والحمرة والسواد كاختلاف الثمرات والجبال في ألوانها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ استئناف يوضح أن الاعتبار بهذه الآيات إنما يؤثر أثره ويورث الإيمان بالله حقيقة والخشية منه بتمام معنى الكلمة في العلماء دون الجهال، وقد مر أن الإنذار إنما ينجح فيهم حيث قال: «إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة» فهذه الآية كالموضحة لمعنى تلك تبين أن الخشية حق الخشية إنما توجد في العلماء.

والمراد بالعلماء العلماء بالله وهم الذين يعرفون الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله معرفة تامة تطمئن بها قلوبهم وتزيل وصمة الشك والقلق عن نفوسهم وتظهر آثارها في أعمالهم فيصدق فعلهم قولهم. والمراد بالخشية حينئذ حق الخشية ويتبعها خشوع في باطنهم وخضوع في ظاهرهم. هذا ما يستدعيه السياق في معنى الآية.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ يفيد معنى التعليل فلعزته تعالى وكونه قاهراً غير مقهور وغالباً غير مغلوب من كل جهة يخشاه العارفون، ولكونه غفوراً كثير المغفرة للآثام والخطيئات يؤمنون به ويتقربون اليه ويشتاقون الى لقائه.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ تلاوة الكتاب قراءة القرآن وقد أثنى عليها الله سبحانه، وإقامة الصلاة إدامة إتيانها وحفظها من أن تترك، والإنفاق من الرزق سراً وعلانية بذل المال سراً تحذراً من الرياء وزوال الإخلاص في الإنفاق المسنون، وبذل المال علانية ليشيع بين الناس كما في الإنفاق الواجب.

وقوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ أي لن تهلك بالخسران، وذكر بعضهم أن قوله: «يرجون» الخ: خبر إن في صدر الآية وعند بعضهم الخبر مقدر يتعلق به قوله: «ليوفيهم» الخ: «أي فعلوا ما فعلوا ليوفيهم أجورهم» الخ.

قوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ متعلق بقوله: «يتلون» وما عطف عليه في الآية السابقة أي أنهم عملوا ما عملوا لأن يوفيهم ويؤتيهم إيتاء تاماً كاملاً أجورهم وثوابات أعمالهم.

وقوله: ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يمكن أن يراد بهذه الزيادة تضعيف الثواب أضعافاً كما في قوله: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ (الأنعام / ١٦٠) وقوله: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف

لمن يشاء﴾ (البقرة / ٢٦١) ، ويمكن أن يراد بها زيادة ليست من سنخ ثواب الأعمال كما في قوله : ﴿لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد﴾ (ق / ٣٥) .

وقوله : ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تعليل لمضمون الآية وزيادة فهو تعالى لكونه غفوراً يغفر زلاتهم ولكونه شكوراً يثيبهم ويزيد من فضله .

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ ضمير الفصل واللام في قوله : « هو الحق » للتأكيد لا للقصر أي هو حق لا يشوبه باطل .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الى آخر الآية : يقال : أورثه مالاً كذا أي تركه فيهم يقومون بأمره بعده وقد كان هو القائم بأمره المتصرف فيه ، وكذا إيراث العلم والجاه ونحوهما تركه عند الغير يقوم بأمره بعد ما كان عند غيره ينتفع به فايراث القوم الكتاب تركه عندهم يتناولونه خلفاً عن سلف وينتفعون به .

وتصح هذه النسبة وإن كان القائم به بعض القوم دون كلهم ، قال تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لاولي الألباب﴾ (المؤمن / ٥٤) ، وقال : ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله﴾ (المائدة / ٤٤) ، وقال : ﴿وإن الذين أُورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾ (الشورى / ١٤) . فبنو إسرائيل أُورثوا الكتاب وإن كان المؤدون حقه القائمون بأمره بعضهم لا جميعهم .

والمراد بالكتاب في الآية على ما يعطيه السياق هو القرآن الكريم كيف ؟ وقوله في الآية السابقة : « والذي أوحينا اليك من الكتاب » نص فيه ، فاللام في الكتاب للعهد دون الجنس فلا يعبأ بقول من يقول : إن اللام للجنس والمراد بالكتاب مطلق الكتاب السماوي المنزل على الأنبياء .

والاصطفاء أخذ صفوة الشيء ويقرب من معنى الاختيار والفرق أن الاختيار أخذ الشيء

من بين الأشياء بما أنه خيرها والاصطفاء أخذه من بينها بما أنه صفوتها وخالصها.

وقوله: ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ يحتمل أن يكون «من» للتبيين أو للابتداء أو للتبعيض الأقرب الى الذهن أن يكون بيانية وقد قال تعالى: ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ (النمل / ٥٩).

وقوله: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ يحتمل أن يكون ضمير «منهم» راجعاً الى «الذين اصطفينا» فيكون الطوائف الثلاث الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات شركاء في الوراثة وإن كان الوارث الحقيقي العالم بالكتاب والحافظ له هو السابق بالخيرات.

ويحتمل أن يكون راجعاً الى عبادنا ـ من غير إفادة الإضافة للتشريف ـ فيكون قوله: «فمنهم» مفيداً للتعليل والمعنى إنما أورثنا الكتاب بعض عبادنا وهم المصطفون لا جميع العباد لأن من عبادنا من هو ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق ولا يصلح الكل للوراثة.

ويمكن تأييد أول الاحتمالين بأن لا مانع من نسبة الوراثة الى الكل مع قيام البعث بها حقيقة كما نجد نظيره في قوله تعالى: ﴿وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ (المؤمن / ٥٤).

وما في الآية من المقابلة بين الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات يعطي أن المراد بالظالم لنفسه من عليه شيء من السيئات وهو مسلم من أهل القرآن لكونه مصطفى ووارثاً، والمراد بالمقتصد المتوسط الذي هو في قصد السبيل وسواء الطريق والمراد بالسابق بالخيرات بإذن الله من سبق الظالم والمقتصد الى درجات القرب فهو أمام غيره بإذن الله سبب فعل الخيرات قال تعالى: ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ (الواقعة / ١١).

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ أي ما تقدم من الإيراث هو الفضل الكبير من الله لا دخل للكسب فيه.

قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ

وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ التحلية هي التزيين والأساور جمع أسورة وهي جمع سوار بكسر السين قال الراغب : سوار المرأة معرب وأصله دستواره . انتهى .

وقوله : « جنات عدن » الخ ؛ ظاهره أنه بيان للفضل الكبير قال في المجمع : هـذا تـفسير للفضل كأنه قيل : ما ذلك الفضل ؟ فقال : هي جنات أي جزاء جنات أو دخول جنات ويجوز أن يكون بدلاً من الفضل كأنه قال : ذلك دخول جنات . انتهى . والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ قيل : المراد بالحزن الذي يحمدون الله على إذهابه بإدخالهم الجنة الحزن الذي كان يتوجه اليهم في الحياة الدنيا وما يحف بها من الشدائد والنوائب .

وقيل : المراد به الحزن الذي كان قد أحاط بهم بعد الارتحال من الدنيا ، وقيل الدخول في جنة الآخرة إشفاقاً مما اكتسبوه من السيئات .

وعلى هذا فالقول قول الظالم لنفسه منهم أو قوله وقول المقتصد وأما السابق بـالخيرات منهم فلا سيئة في صحيفة أعماله حتى يعذب بها . وهذا الوجه أنسب لقولهم في آخر حمدهم : « إن ربنا لغفور شكور » .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ المقامة الإقامة ، ودار المقامة المنزل الذي لا خروج منه ولا تحول .

والنصب بفتحتين التعب والمشقة ، واللغوب بضم اللام : العي والتعب في طـلب المـعاش وغيره .

والمعنى : الذي جعلنا حالين في دار الخلود من فضله من غير استحقاق منا عليه لا يمسنا في هذه الدار وهي الجنة مشقة وتعب ولا يمسنا فيها عي ولا كلال في طلب ما نريد أي إنا لنا فيها ما نشاء .

وفي قوله : « من فضله » مناسبة خاصة مع قوله السابق : « ذلك هو الفضل الكبير » .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ الى آخر الآية اللام في «لهم» للاختصاص ويفيد كون النار جزاء لهم لا ينفك عنهم، وقوله: «لا يقضى عليهم فيموتوا» اي لا يحكم عليهم بالموت حتى يموتوا فهم أحياء على ما هم فيه من شدة العذاب ولا يخفف عنهم من عذاب النار كذلك نجزي كل كفور شديد الكفران أو كثيره.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ الى آخر الآية؛ في الجمع: الاصطراخ الصياح والنداء بالاستغاثة افتعال من الصراخ انتهى.

وقوله: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ الخ؛ بيان لاصطراخهم، وقوله: «أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر» الخ؛ جواب اصطراخهم وقوله: «فذوقوا» وقوله: «فما للظالمين من نصير» كل منها متفرع على ما قبله.

والمعنى، وهؤلاء الذين في النار من الكفار يصطرخون ويصيحون بالاستغاثة فيها قائلين: ربنا أخرجنا من النار نعمل صالحاً غير سيىء غير الذي كنا نعمل فيقال لهم رداً عليه: ـ كلا ـ أولم نعمركم عمراً يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فأنذركم هذا العذاب فلم تتذكروا ولم تؤمنوا؟ فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير ينصرهم ليتخلصوا من العذاب.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ الخ؛ بيان لاصطراخهم. وقوله: «أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر» الخ؛ جواب اصطراخهم وقوله: «فذوقوا» وقوله: «فما للظالمين من نصير» كل منها متفرع على ما قبله.

والمعنى، وهؤلاء الذين في النار من الكفار يصطرخون ويصيحون بالاستغاثة فيها قائلين: ربنا أخرجنا من النار نعمل صالحاً غير سيىء غير الذي كنا نعمل فيقال لهم رداً عليهم: ـ كلا ـ أولم نعمركم عمراً يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فأنذركم هذا العذاب فلم تتذكروا ولم تؤمنوا؟ فذقوقوا العذاب فما للظالمين من نصير ينصرهم ليتخلصوا من

العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيعاملكم بما في باطنكم من الاعتقاد وآثار الأعمال ويحاسبكم عليه سواء وافق ظاهركم باطنكم أو خالف قال تعالى: ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ (البقرة / ٢٨٤)، وقال: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ (الطارق / ٩)[١].

٣٩ ◉ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاٰ يَزِيدُ الْكٰافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاّٰ مَقْتاً وَلاٰ يَزِيدُ الْكٰافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاّ خَساراً.

٤٠ ◉ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكٰاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَرُونِي مٰاذٰا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوٰاتِ أَمْ آتَيْنٰاهُمْ كِتٰاباً فَهُمْ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظّٰالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاّٰ غُرُوراً.

٤١ ◉ إِنَّ اللّٰهَ يُمْسِكُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زٰالَتٰا إِنْ أَمْسَكَهُمٰا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كٰانَ حَلِيماً غَفُوراً.

٤٢ ◉ وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ لَئِنْ جٰاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ نَذِيرٌ مٰا زٰادَهُمْ إِلاّٰ نُفُوراً.

---

١. فاطر ٢٧ ـ ٣٨: بحث روائي حول قوله تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء»: الذين اصطفاهم الله من عباده: انواع العلم.

٤٣ ❁ إِسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَحْوِيلاً.

٤٤ ❁ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَما كانَ اللّٰهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمٰواتِ وَلاَ فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً.

٤٥ ❁ وَلَوْ يُؤاخِذُ اللّٰهُ النّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلىٰ ظَهْرِها مِنْ دابَّةٍ وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللّٰهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الخ: الخلائف جمع خليفة، وكون الناس خلائف في الأرض هو قيام كل لاحق منهم مقام سابقه وسلطته على التصرف والانتفاع منها كما كان السابق مسلطاً عليه. وهم إنما نالوا هذه الخلافة من جهة نوع الخلقة وهو الخلقة من طريق النسل والولادة فإن هذا النوع من الخلقة يقسم المخلوق الى سلف وخلف.

فجعل الخلافة الأرضية نوع من التدبير مشوب بالخلق غير منفك عنه ولذلك استدل به على توحده تعالى في ربوبيته لأنه مختص به تعالى لا مجال لدعواه لغيره.

فقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ حجة على توحده تعالى في ربوبيته انتفائها عن شركائهم: تقريره أن الذي جعل الخلافة الأرضية في العالم الانساني هو

ربهم المدبر لأمرهم، وجعل الخلافة لا ينفك عن نوع الخلقة فخالق الإنسان هو رب الإنسان لكن الخلاق هو الله سبحانه حتى عند الخصم فالله هو رب الإنسان.

وقوله: ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي فالله سبحانه هو رب الإنسان فمن كفر وستر هذه الحقيقة ونسب الربوبية الى غيره تعالى فعلى ضرره كفره.

وقوله: ﴿وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً﴾ بيان لكون كفرهم عليهم وهو أن كفرهم يورث لهم مقتاً عند ربهم والمقت شدة البغض لأن فيه إعراضاً عن عبوديته واستهانة بساحته، ويورث لهم خسارا في أنفسهم لأنهم بدلوا السعادة الإنسانية شقاء ووبالاً سيصيبهم في مسيرهم ومنقلبهم الى دار الجزاء.

وإنما عبر عن أثر الكفر بالزيادة لأن الفطرة الإنسانية بسيطة ساذجة واقعة في معرض الاستكمال والازدياد فإن أسلم الإنسان زاده ذلك كمالاً وقربا من الله وإن كفر زاده ذلك مقتاً عند الله وخسارا.

وإنما قيد المقت بقوله: «عند ربهم» دون الخسار لأن الخسار من تبعات تبديل الإيمان كفراً والسعادة شقاء وهو أمر عند أنفسهم وأما المقت وشدة البغض فمن عند الله سبحانه.

والحب والبغض المنسوبان الى الله سبحانه من صفات الأفعال وهي معان خارجة عن الذات غير قائمة بها، ومعنى حبه تعالى لأحد انبساط رحمته عليه وانجذابها اليه وبغضه تعالى لأحد انقباض رحمته منه وابتعادها عنه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الى آخر الآية: إضافة الشركاء اليهم بعناية أنهم يدعون أنهم شركاء لله فهي إضافة لامية مجازية.

وفي الآية تلقين النبي ﷺ الحجة على نفي ربوبية آلهتهم الذين كانوا يعبدونهم وتقرير الحجة أنهم لو كانوا أرباباً آلهة من دون الله لكان لهم شيء من تدبير العالم فكانوا خالقين لما

يدبرونه لأن الخلق والتدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر ولو كانوا خالقين لدل عليه دليل والدليل إما من العالم أو من قبل الله سبحانه أما العالم فلا شيء منه يدل على كونه مخلوقاً لهم ولو بنحو الشركة وهو قوله: «أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات».

وأما من قبله تعالى فلو كان لكان كتاباً سماوياً نازلاً من عنده سبحانه يعترف بربوبيتهم ويجوز للناس أن يعبدوهم ويتخذوهم آلهة، ولم ينزل كتاب على هذه الصفة وهم معترفون بذلك وهو قوله: «أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه».

وإنما عبر عن نفي خالقيتهم في الأرض بقوله: «أروني ماذا خلقوا من الأرض» ولم يقل: أنبئوني ألهم شرك في الأرض؟ وعبر في السماوات بقوله: «أم لهم شرك في السماوات» ولم يقل: أم ماذا خلقوا من السماوات.

لأن المراد بالأرض ـ على ما يدل عليه سياق الاحتجاج ـ العالم الأرضي وهو الأرض بما فيها وما عليها والمراد بالسماوات العالم السماوي المشتمل على السماوات وما فيها وما عليها فقوله: «ماذا خلقوا من الأرض» في معنى ألهم شرك في الأرض ولا يكون إلا بخلق شيء منها، وقوله: «أم لهم شرك في السماوات» في معنى أم ماذا خلقوا من السماوات، وقد اكتفي بذكر الخلق في جانب الأرض إشارة الى أن الشرك في الربوبية لا يكون إلا بخلق.

وقوله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ أي بل آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه أي على حجة ظاهرة من الكتاب أن لشركائهم معناه وذلك بدلالته على أنهم شركاء لله.

وقد قال: «أم آتيناهم كتاباً» ولم يقل: أم لهم كتاب ونحو ذلك ليتأكد النفي والإنكار فإن قولنا: أم لهم كتاب ونحو ذلك إنكار لوجود الكتاب لكن قوله: «أم آتيناهم كتاباً» إنكار لوجود الكتاب ممن ينزل الكتاب لو نزل.

وقد تبين بما تقدم أن ضمير الجمع في «آتيناهم» وفي «فهم على بينة» للمشركين فلا يعبأ بما قيل: إن الضمير للشركاء.

وقوله: ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً﴾ إضراب عما تقدم من الاحتجاج بأن الذي حملهم على الشرك ليس هو حجة تحملهم عليه ويعتمدون عليها بل غرور بعضهم بعضاً بوعد الشفاعة والزلفى فأسلافهم يغرون أخلافهم ورؤساؤهم وأئمتهم يغرون مرؤسيهم وتابعيهم ويعدونهم شفاعة الشركاء عند الله سبحانه ولا حقيقة لها.

وحجة الآية عامة على المشركين عبدة الأصنام وهم الذين يعبدون الملائكة والجن وقد يسي البشر ويتخذون لهم أصناماً يتوجهون اليها، وعلى الذين يعبدون روحانيي الكواكب ويتوجهون الى الكواكب ثم يتخذون للكواكب أصناماً، وعلى الذين يعبدون الملائكة والعناصر من غير أن يتخذوا لها أصناماً كما ينقل عن الفرس القدماء، وعلى الذين يعبدون بعض البشر كالنصارى للمسيح عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الخ: قيل: إن الآية استئناف مقرر لغاية قبح الشرك وهوله أي أن الله تعالى يحفظ السماوات والأرض كراهة أن تزولا أو لئلا تزولا وتضمحلا لأن الممكن كما يحتاج الى الواجب حال إيجاده يحتاج اليه حال بقائه. انتهى.

والظاهر أنه تعالى لما استدل على توحده في الربوبية بجعل الخلافة في النوع الإنساني بقوله: «هو الذي جعلكم خلائف في الأرض» الآية؛ ثم نفى الشركة مطلقاً بالحجة عمم الحجة بحيث تشمل الخلق كله أعني السماوات والأرض فاحتج على توحده بإبقاء الخلق بعد إحداثه فإن من البين الذي لا يرتاب فيه أن حدوث الشيء وأصل تلبسه بالوجود بعد العدم غير بقائه وتلبسه بالوجود بعد الوجود على نحو الاستمرار فبقاء الشيء بعد حدوثه يحتاج الى إيجاد بعد إيجاد على نحو الاتصال والاستمرار.

وإبقاء الشيء بعد إحداثه كما أنه إيجاد بعد الإيجاد كذلك هو تدبير لأمره فإنك إن دققت النظر وجدت أن النظام الجاري في الكون إنما يجري بالإحداث والإبقاء فقط. والموجد

والخالق هو الله سبحانه حتى عند الخصم فالله سبحانه هو الخالق المدبر للسماوات والأرض وحده لا شريك له.

فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ الإمساك بمعناه المعروف وقوله: «أن تزولا» ـ وتقديره كراهة أن تزولا أو لئلا تزولا ـ متعلق به، وقيل: الإمساك بمعنى المنع أو بمعنى الحفظ وعلى أي حال فالإمساك كناية عن الإبقاء وهو الإيجاد بعد الإيجاد على سبيل الاتصال والاستمرار، والزوال هو الاضمحلال والبطلان.

ونقل عن بعضهم أنه فسر الزوال بالانتقال المكاني، والمعنى أن الله يمنع السماوات والأرض من أن ينتقل شيء منها عن مكانه الذي استقر فيه فيرتفع أو ينخفض انتهى والشأن في تصور مراده تصوراً صحيحاً.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ السياق يعطي أن المراد بالزوال ههنا الإشراف على الزوال إذ نفس الزوال لا يجتمع معه الإمساك والمعنى وأُقسم لئن أشرفتا على الزوال لم يمسكهما أحد من بعد الله سبحانه إذ لا مفيض للوجود غيره ويمكن أن يكون المراد بالزوال معناه الحقيقي والمراد بالإمساك القدرة على الإمساك وقد تبين أن «من» الاولى زائدة للتأكيد والثانية للابتداء، وضمير «من بعده» راجع اليه تعالى، وقيل: راجع الى الزوال.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ فهو لحلمه لا يعجل الى أمر ولمغفرة يستر جهات العدم في الأشياء، ومقتضى الاسمين أن يمسك السموات والأرض أن تزولا الى أجل مسمى.

وقال في إرشاد العقل السليم: إنه كان حليماً غفوراً غير معاجل بالعقوبة التي تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدّا هداً حسبما قال تعالى: ﴿تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض﴾ انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ

مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلّا نُفُوراً ﴾ قال الراغب: الجهد - بفتح الجيم - والجهد - بضمها - الطاقة والمشقة - الى أن قال - وقال تعالى: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم» أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم. انتهى. وقال: النفر الانزعاج عن الشيء والى الشيء كالفزع الى الشيء وعن الشيء يقال: نفر عن الشيء نفوراً قال تعالى: «ما زادهم إلا نفوراً». انتهى.

قيل[1]: بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الامم انتهى، وسياق الآية يصدق هذا النقل ويؤيده.

فقوله: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ ﴾ الضمير لقريش وقد حلفوا هذا الحلف قبل بعثة النبي ﷺ بدليل قوله بعد: «فلما جاءهم نذير»، والمقسم به قوله: «لئن جاءهم نذير» الخ.

وقوله: ﴿لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدىٰ مِنْ إِحْدىٰ الأُمَمِ ﴾ أي إحدى الامم التي جاءهم نذير كاليهود والنصارى وإنما قال: «ليكونن أهدى من إحدى الامم» ولم يقل: أهدى منهم لأن المعنى أنهم كانوا أُمة ما جاءهم نذير ثم لو جاءهم نذير كانوا أُمة ذات نذير كإحدى تلك الامم المنذرة ثم بتصديق النذير يصيرون أهدى من التي ماثلوها وهو قوله: «أهدى من إحدى الامم» فافهمه.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلّا نُفُوراً ﴾ المراد بالنذير النبي ﷺ والنفور التباعد والهرب.

قوله تعالى: ﴿إِسْتِكْباراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ

---

١. رواه في الدر المنثور عن أبي هلال وعن ابن جريج.

إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ قال الراغب: المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة، وذلك ضربان: مكر محمود وذلك أن يتحرى بذلك فعل جميل وعلى ذلك قال تعالى: «والله خير الماكرين» ومذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح قال تعالى: «لا يحيق المكر السيىء إلا بأهله» انتهى.

وقال أيضاً: قال عز وجل: «ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله» أي لا ينزل ولا يصيب. قيل: وأصله حق فقلب نحو زل وزال وقد قرىء فأزلها الشيطان وأزالها وعلى هذا ذمه وذامه. انتهى.

وقوله: «استكباراً في الأرض» مفعول لأجله لقوله: «نفوراً» أي نفروا عنه وتباعدوا للاستكبار في الأرض وقوله: «ومكر السيىء» معطوف على «استكباراً» ومفعول لأجله مثله. وقيل: معطوف على «نفوراً» والإضافة فيه من إضافة الموصوف الى الصفة بدليل قوله ثانياً: «ولا يحيق المكر السيىء» الخ.

وقوله: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ أي لا يصيب ولا ينزل المكر السيىء إلا بأهله ولا يستقر إلا فيه. فان المكر السيىء وإن كان ربما أصاب به مكروه للممكور به، لكنه سيزول ولا يدوم إلا أن أثره السيىء بما أنه المكر سيىء يبقى في نفس الماكر وسيظهر فيه ويجزى به إما في الدنيا وإما في الآخرة البتة، ولهذا فسر الآية في مجمع البيان بقوله: والمعنى لا ينزل جزاء المكر السيىء إلا بمن فعله.

والكلام مرسل إرسال المثل كقوله تعالى: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾ (يونس / ٢٣) ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ (الفتح / ١٠).

وقوله: ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ النظر والانتظار بمعنى التوقع والفاء للتفريع والجملة استنتاج مما تقدمها والاستفهام للإنكار والمعنى وإذ مكروا المكر السيىء والمكر السيىء يحيق بأهله فهم لا ينتظرون إلا السنة الجارية في الامم الماضين وهي العذاب الإلهي النازل بهم إثر مكرهم وتكذيبهم بآيات الله.

وقوله: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّٰهِ تَحْوِيلاً﴾ تبديل السنة أن توضع العافية والنعمة موضع العذاب، وتحويلها أن ينقل العذاب من قوم يستحقونه الى غيرهم، وسنة الله لا تقبل تبديلا ولا تحويلا لأنه تعالى على صراط مستقيم لا يقبل حكمه تبعيضا ولا استثناء.

وقد أخذ الله بالعذاب هؤلاء المشركين الماكرين يوم بدر فقتل عامتهم. والخطاب للنبي ﷺ أو لكل سامع.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكٰانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ استشهاد على سنته الجارية في الامم الماضية وقد كانوا أشد قوة من مشركي مكة فأخذهم الله بالعذاب لما مكروا وكذبوا.

قوله تعالى: ﴿وَمٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمٰوٰاتِ وَلاٰ فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كٰانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ تتميم لسابق البيان لمزيد إنذارهم وتخويفهم، والمحصل ليتقوا الله وليؤمنوا به ولا يمكروا به ولا يكذبوا فإن سنة الله في ذلك هي العذاب كما يشهد به ما جرى في الامم السابقة من الإهلاك والتعذيب وقد كانوا أشد قوة منهم والله سبحانه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض بقوة أو مكر فإنه عليم على الإطلاق لا يغفل ولا يجهل حتى ينخدع بمكر أو حيلة قدير على الإطلاق لا يقاومه شيء.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤٰاخِذُ اللّٰهُ النّٰاسَ بِمٰا كَسَبُوا مٰا تَرَكَ عَلىٰ ظَهْرِهٰا مِنْ دٰابَّةٍ﴾ الخ: المراد بالمؤاخذه الدنيوية كما يدل عليه قوله الآتي: «ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى» الخ؛ والمراد بالناس جميعهم فإن الآية مسبوقة بذكر مؤاخذة بعضهم وهم الماكرون المكذبون بآيات الله، والمراد بما كسبوا المعاصي التي اكتسبوها بقرينة المؤاخذة التي هو العذاب وقد قال في نظيرة الآية من سورة النحل: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة﴾ (النحل / ٦١).

والمراد بظهرها ظهر الأرض لأن الناس يعيشون عليه على أن الأرض تقدم ذكرها في الآية السابقة.

والمراد بالدابة كل ما يدب في الأرض من إنسان ذكر أو أُنثى أو كبير أو صغير واحتمل أن يكون المراد كل ما يدب في الأرض من حيوان وإهلاك غير الإنسان من أنواع الحيوان إنما هو لكونها مخلوقة للإنسان كما قال تعالى: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ (البقرة / ٢٩).

وقول بعضهم: ذلك لشؤم المعاصي وقد قال تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ مدفوع بأن شؤم المعصية لا يتعدى العاصي الى غيره وقد قال تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أُخرى﴾ (فاطر / ١٨) وأما الآية أعني قوله: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ (الأنفال / ٢٥) فمدلولها على ما تقدم من تفسيرها اختصاص الفتنة بالذين ظلموا منهم خاصة لا عمومها لهم ولغيرهم فراجع.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وهو الموت أو القيامة وقوله: «فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا» أي فيجازي كلا بما عمل فإنه بصير بهم عليم بأعمالهم لأنهم عباده وكيف يمكن أن يجهل الخالق خلقه والرب عمل عبده؟

وقد بان بما تقدم أن قوله: «فإن الله كان بعباده بصيرا» من وضع السبب موضع المسبب الذي هو الجزاء.

سورة يس مكية وهي ثلاث وثمانون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● يٰسٓ.

٢ ● وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ.

٣ ● إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.

٤ ● عَلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

٥ ● تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ.

٦ ● لِتُنْذِرَ قَوْماً مٰا أُنْذِرَ آبٰاؤُهُمْ فَهُمْ غٰافِلُونَ.

٧ ● لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ.

٨ ● إِنّٰا جَعَلْنٰا فِي أَعْنٰاقِهِمْ أَغْلاٰلاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقٰانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ.

٩ ● وَجَعَلْنٰا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنٰاهُمْ فَهُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ.

١٠ ● وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ.

١١ ● إِنَّمٰا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ.

١٢ ● إِنّٰا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتىٰ وَنَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَآثٰارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِي إِمٰامٍ مُبِينٍ.

بيان:

غرض السورة بيان الاصول الثلاثة للدين فهي تبتدىء بالنبوة وتصف حال الناس في قبول الدعوة وردها وأن غاية الدعوة الحقة إحياء قوم بركوبهم صراط السعادة وتحقيق القول على آخرين وبعبارة أُخرى تكميل الناس في طريق السعادة والشقاء.

ثم تنتقل السورة الى التوحيد فتعد جملة من آيات الوحدانية ثم تنتقل الى ذكر المعاد فتذكر بعث الناس للجزاء وامتياز المجرمين يومئذ من المتقين وتصف ما تؤول اليه حال كل من الفريقين.

ثم ترجع الى ما بدأت فتلخص القول في الاصول الثلاثة وتستدل عليها وعند ذلك تختتم السورة.

ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى: **﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾** فالسورة عظيمة الشأن تجمع أُصول الحقائق وأعراقها وقد ورد من طرق العامة والخاصة أن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس[1].

---

١. رواه الصدوق في ثواب الاعمال عن ابي عبدالله عليه السلام والسيوطي في الدر المنثور عن أنس وأبي هريرة ومعقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿يس، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ - الى قوله - فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ إقسام منه تعالى بالقرآن الحكيم على كون النبي ﷺ من المرسلين، وقد وصف القرآن بالحكيم لكونه مستقراً فيه الحكمة وهي حقائق المعارف وما يتفرع عليها من الشرائع والعبر والمواعظ.

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ مقسم عليه كما تقدم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ خبر بعد خبر لقوله: «إنك»، وتنكير الصراط - كما قيل - للدلالة على التفخيم وتوصيفه بالمستقيم للتوضيح فإن الصراط هو الطريق الواضح المستقيم، والمراد به الطريق الذي يوصل عابريه الى الله تعالى أي الى السعادة الإنسانية التي فيها كمال العبودية لله والقرب، وقد تقدم في تفسير الفاتحة بعض ما ينفع في هذا المقام من الكلام.

وقوله: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ وصف للقرآن مقطوع عن الوصفية منصوب على المدح، والمصدر بمعنى المفعول ومحصل المعنى أعني بالقرآن ذاك المنزل الذي أنزله الله العزيز الرحيم الذي استقر فيه العزة والرحمة.

والتذييل بالوصفين للإشارة الى أنه قاهر غير مقهور وغالب غير مغلوب فلا يعجزه إعراض المعرضين عن عبوديته ولا يستذله جحود الجاحدين وتكذيب المكذبين، وأنه ذو رحمة واسعة لمن يتبع الذكر ويخشاه بالغيب لا لينتفع بإيمانهم بل ليهديهم الى ما فيه سعادتهم وكمالهم فهو بعزته ورحمته أرسل الرسول وأنزل عليه القرآن الحكيم لينذر الناس فيحق كلمة العذاب على بعضهم ويشمل الرحمة منهم آخرين.

وقوله: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ تعليل للإرسال والتنزيل و«ما» نافية والجملة صفة لقوله: «قوماً» والمعنى إنما أرسلك وأنزل عليك القرآن لتنذر وتخوف قوماً لم ينذر آباءهم فهو غافلون.

والمراد بالقوم إن كان هو قريش ومن يلحق بهم فالمراد بآبائهم آباؤهم الأدنون فإن الأبعدين من آبائهم كان فيهم النبي إسماعيل ذبيح الله، وقد أُرسل الى العرب رسل آخرون كهود وصالح وشعيب عليهم السلام، وإن كان المراد جميع الناس المعاصرين نظراً الى عموم الرسالة فكذلك أيضاً فآخر رسول معروف بالرسالة قبله صلى الله عليه وآله وسلم هو عيسى عليه السلام وبينهما زمان الفترة.

واعلم أن ما ذكرناه في تركيب الآيات هو الذي يسبق منها الى الفهم وقد أوردوا في ذلك وجوهاً أُخر بعيده عن الفهم تركناها من أرادها فليراجع المطولات.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اللام للقسم أي أُقسم لقد ثبت ووجب القوم على أكثرهم، والمراد بثبوت القول عليهم صيرورتهم مصاديق يصدق عليهم القول.

والمراد بالقول الذي حق عليهم كلمة العذاب التي تكلم بها الله سبحانه في بدء الخلقة مخاطباً بها إبليس ﴿الحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ (ص / ٨٥) والمراد بتبعية إبليس طاعته فيما يأمر به بالوسوسة والتسويل بحيث تثبت الغواية وترسخ في النفس كما يشير اليه قوله تعالى خطاباً لإبليس: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ (الحجر / ٤٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ الأعناق جمع عنق بضمتين وهو الجيد، والاغلال جمع غل بالكسر وهي على ما قيل ما تشد به اليد الى العنق للتعذيب والتشديد، ومقمحون اسم مفعول من الإقماح وهو رفع الرأس كأنهم قد ملأت الأغلال ما بين صدورهم الى أذقانهم فبقيت رؤوسهم مرفوعة الى السماء لا يتأتى لهم أن ينكسوها فينظروا الى ما بين أيديهم من الطريق فيعرفوها ويميزوها من غيرها.

وتنكير قوله: «أغلالا» للتفخيم والتهويل.

والآية في مقام التعليل لقوله السابق: «فهم لا يؤمنون».

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ السد الحاجز بين الشيئين. وقوله: «من بين أيديهم ومن خلفهم» كناية عن جميع الجهات. والغشي والغشيان التغطية يقال: غشية كذا أي غطاه وأغشى الأمر فلاناً أي جعل الأمر يغطيه، والآية متممة للتعليل السابق وقوله: «جعلنا» معطوف على «جعلنا» المتقدم.

وعن الرازي في تفسيره في معنى التشبيه في الآيتين أن المانع عن النظر في الآيات قسمان: قسم يمنع عن النظر في الأنفس فشبه ذلك بالغل الذي يجعل صاحبه مقمحاً لا يرى نفسه ولا يقع بصره على بدنه، وقسم يمنع عن النظر في الآفاق فشبه ذلك بالسد المحيط فإن المحاط بالسد لا يقع على الآفاق فلا يظهر له ما فيها من الآيات فمن ابتلي بهما جرم عن النظر بالكلية.

ومعنى الآيتين أنهم لا يؤمنون لأنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً بها أيديهم على أعناقهم فهي الى الأذقان فهم مرفوعة رؤسهم باقون على تلك الحال وجعلنا من جميع جهاتهم سداً فجعلناه يغطيهم فهم لا يبصرون فلا يهتدون.

ففي الآيتين تمثيل لحالهم في حرمانهم من الاهتداء الى الإيمان وتحريمه تعالى عليهم ذلك جزاء لكفرهم وغوايتهم وطغيانهم في ذلك.

وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا﴾ (البقرة / ٢٦) في الجزء الأول من الكتاب أن ما وقع في القرآن الكريم من هذه الأوصاف ونظائرها التي وصف بها المؤمنون والكفار يكشف عن حياة أخرى للإنسان في باطن هذه الحياة الدنيوية مستورة عن الحس المادي ستظهر له إذا انكشفت الحقائق بالموت أو البعث. وعليه فالكلام في أمثال هذه الآيات جار في مجرى الحقيقة دون المجاز كما عليه القوم.

قوله تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عطف

تفسير وتقرير لما تتضمنه الآيات الثلاث المتقدمة وتلخيص للمراد وتمهيد لما يتلوه من قوله: «إنما تنذر من اتبع الذكر» الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ القصر للإفراد، والمراد بالإنذار الإنذار النافع الذي له أثر، وبالذكر القرآن الكريم، وباتباعه تصديقه والميل اليه إذا تليت آياته، والتعبير بالماضي للإشارة الى تحقق الوقوع، والمراد بخشية الرحمن بالغيب خشيته تعالى من وراء الحجاب وقبل انكشاف الحقيقة بالموت أو البعث، وقيل: أي حال غيبته من الناس بخلاف المنافق وهو بعيد.

وقد علقت الخشية على اسم الرحمن الدال على صفة الرحمة الجالبة للرجاء للإشعار بأن خشيتهم خوف مشوب برجاء وهو الذي يقر العبد في مقام العبودية فلا يأمن ولا يقنط.

وتنكير «مغفر» و«أجر كريم» للتفخيم أي فبشره بمغفرة عظيمة من الله وأجر كريم لا يقادر قدره وهو الجنة، والدليل على جميع ما تقدم هو السياق.

والمعنى: إنما تنذر الإنذار النافع الذي له أثر، من اتبع القرآن إذا تليت عليه آياته وما اليه وخشي الرحمن خشية مشوبة بالرجاء فبشره بمغفرة عظيمة وأجر كريم لا يقادر قدره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ المراد بإحياء الموتى إحياؤهم للجزاء.

والمراد بما قدموا الأعمال التي عملوها قبل الوفاة فقدموها على موتهم، والمراد بآثارهم ما تركوها لما بعد موتهم من خير يعمل به كتعليم علم ينتفع به أو بناء مسجد يصلى فيه أو ميضاة يتوضأ فيها، أو شر يعمل به كوضع سنة مبتدعة يستن بها أو بناء مفسقة يعصى الله فيها.

والمراد بكتابة ما قدموا وآثارهم ثبتها في صحائف أعمالهم وضبطها فيها بواسطة كتبة

الأعمال من الملائكة وهذه الكتابة غير كتابة الأعمال وإحصائها في الامام المبين الذي هو اللوح المحفوظ وإن توهم بعضهم أن المراد بكتابة ما قدموا وآثارهم هو إحصاؤها في الكتاب المبين وذلك أنه تعالى يثبت في كلامه كتاباً يحصي كل شيء ثم لكل أُمة كتاباً يحصي أعمالهم ثم لكل إنسان كتاباً يحصي أعماله كما قال: ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ (الأنعام / ٥٩)، وقال: ﴿كل أمة تدعى الى كتابها﴾ (الجاثية / ٢٨)، وقال: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا﴾ (الإسراء / ١٣)، وظاهر الآية أيضاً يقضي بنوع من البينونة بين كتاب الأعمال والإمام المبين حيث فرق بينهما بالخصوص والعموم واختلاف التعبير بالكتابة والاحصاء.

وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ من التغيير الذي يشتمل على تفصيل قضائه سبحانه في خلقه فيحصي كل شيء وقد ذكر في كلامه تعالى بأسماء مختلفة كاللوح المحفوظ وام الكتاب والكتاب المبين والإمام المبين كل منها بعناية خاصة.

ولعل العناية في تسميته إماماً مبيناً أنه لإشتماله على القضاء المحتوم متبوع للخلق مقتدى لهم وكتب الأعمال كما سيأتي في تفسير سورة الجاثية مستنسخة منه قال تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ (الجاثية / ٢٩).

وقيل: المراد بالإمام المبين صحف الأعمال وليس بشيء، وقيل: علمه تعالى وهو كسابقه نعم لو أُريد به العلم الفعلي كان له وجه[1].

١٣ ۞ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ.

---

١. يس ١ ـ ١٢: بحث روائي في الذين تآمروا على النبي ﷺ ليقتلوه.

١٤ ❁ إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ.

١٥ ❁ قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَكْذِبُونَ.

١٦ ❁ قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ.

١٧ ❁ وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ.

١٨ ❁ قالُوا إِنّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنّا عَذابٌ أَلِيمٌ.

١٩ ❁ قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ.

٢٠ ❁ وَجاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعىٰ قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ.

٢١ ❁ اِتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ.

٢٢ ❁ وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

٢٣ ❁ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونَ.

٢٤ ❁ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ.

٢٥ ❁ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ.

٢٦ ❁ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ.

٢٧ ❁ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ.

٢٨ ● وَمٰا أَنْزَلْنٰا عَلىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَمٰا كُنّٰا مُنْزِلِينَ.

٢٩ ● إِنْ كٰانَتْ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً فَإِذٰا هُمْ خٰامِدُونَ.

٣٠ ● يٰا حَسْرَةً عَلَى الْعِبٰادِ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاّٰ كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ.

٣١ ● أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنٰا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاٰ يَرْجِعُونَ.

٣٢ ● وَإِنْ كُلٌّ لَمّٰا جَمِيعٌ لَدَيْنٰا مُحْضَرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحٰابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جٰاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ المثل كلام أو قصة يمثل به مقصد من المقاصد فيتضح للمخاطب، ولما كانت قصتهم توضح ما تقدم من الوعد والوعيد أمر نبيه ﷺ أن يضربها مثلاً لهم.

والظاهر أن «مثلاً» مفعول ثان لقوله: «اضرب» ومفعوله الأول قوله: «أصحاب القرية» والمعنى واضرب لهم أصحاب القرية وحالهم هذه الحال مثلاً وقد قدم المفعول الثاني تحرزاً عن الفصل المخل.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنٰا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمٰا فَعَزَّزْنٰا بِثٰالِثٍ فَقٰالُوا إِنّٰا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ التعزيز من العزة بمعنى القوة والمنعة، وقوله: «إذ أرسلنا اليهم» بيان تفصيلي بقوله: «إذ جاءها المرسلون».

والمعنى: واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية وهم في زمان أرسلنا اليهم رسولين اثنين من

رسلنا فكذبوهما أي الرسولين فقويناهما برسول ثالث فقالت الرسل إنا اليكم مرسلون من جانب الله.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ كانوا يرون أن البشر لا ينال النبوة والوحي. ويستدلون على ذلك بأنفسهم حيث لا يجدون من أنفسهم شيئاً من ذاك القبيل فيسرون الحكم الى نفوس الأنبياء مستندين الى أن حكم الأمثال واحد.

وعلى هذا التقرير يكون معنى قوله: «وما أنزل الرحمن من شيء» لم ينزل الله وحياً ولو نزل شيئاً على بشر لنلناه من نفوسنا كما تدعون أنتم ذلك. وتعبيرهم عن الله سبحانه بالرحمن إنما هو لكونهم كسائر الوثنيين معترفين بالله سبحانه واتصافه بكرائم الصفات[1] كالخلق والرحمة والملك غير أنهم يرون أنه فوض أمر التدبير الى مقربي خلقه كالملائكة الكرام فهم الأرباب المدبرون والآلهة المعبودون. وأما الله عز اسمه فهو رب الأرباب وإله الآلهة.

ومن الممكن أن يكون ذكر اسم الرحمان في الحكاية دون المحكي فيكون التعبير به لحلمه ورحمته تعالى قبال إنكارهم وتكذيبهم للحق الصريح.

وقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ بمنزلة النتيجة لصدر الآية. ومحصل قولهم أنكم بشر مثلنا ولا نجد نحن على بشريتنا في نفوسنا شيئاً من الوحي النازل الذي تدعونه وأنتم مثلنا فما أنزل الرحمان شيئاً من الوحي فدعواكم كاذبة وإذ ليس لكم إلا هذه الدعوى فإن أنتم إلا تكذبون.

ويظهر بما تقدم نكتة الحصر في قوله: «إن أنتم إلا تكذبون» وكذا الوجه في نفي الفعل ولم يقل: إن أنتم إلا كاذبون لأن المراد نفي الفعل في الحال دون الاستمرار والاستقبال.

---

١. لكنهم مختلفون في تفسيرها والصابئون يفسرونها بالنفي فمعنى العالم والقادر عندهم من ليس بجاهل وعاجز.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ لم يحك الله سبحانه عن هؤلاء الرسل جواباً عن حجة قومهم، ما أنتم إلا بشر مثلنا، الخ. كما نقل عن الرسل المبعوثين الى الامم الدارجة لما احتجت أُممهم بمثل هذه الحجة «إن أنتم إلا بشر مثلنا» فردتها رسلهم بقولهم: ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ (إبراهيم / ١١) وقد مر تقريره.

بل حكى عنهم أنهم ذكروا للقوم أنهم مرسلون اليهم مأمورون بتبليغ الرسالة ليس عليهم إلا ذلك وأنهم في غنى عن تصديقهم لهم وإيمانهم بهم ويكفيهم فيه أن يعلم ربهم بأنهم مرسلون لا حاجة لهم الى أزيد من ذلك.

فقوله: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ إخبار عن رسالتهم وقد أُكد الكلام بإن المشددة المكسورة واللام، والاستشهاد بعلم ربهم بذلك. وقوله: «ربنا يعلم» معترض بمنزلة القسم، والمعنى إنا مرسلون اليكم صادقون في دعوى الرسالة ويكفينا في ذلكم علم ربنا الذي أرسلنا بها ولا حاجة لنا فيه الى تصديقكم لنا ولا نفع لنا فيه من أجر ونحوه ولا يهمنا تحصيله منكم بل الذي يهمنا هو تبليغ الرسالة وإتمام الحجة.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ البلاغ هو التبليغ والمراد به تبليغ الرسالة أي لم يؤمر ولم نكلف إلا بتبليغ الرسالة وإتمام الحجة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ القائلون أصحاب القرية والمخاطبون هم الرسل. والتطير هو التشأم وقولهم: «لئن لم تنتهوا» الخ؛ تهديد منهم للرسل.

والمعنى: قالت أصحاب القرية لرسلهم: إنا تشأمنا بكم ونقسم لئن لم تنتهوا عن التبليغ ولم تكفوا عن الدعوة لنرجمنكم بالحجارة وليصلن اليكم وليقعن بكم منا عذاب أليم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾

القائلون هم الرسل يخاطبون به أصحاب القرية .

وقوله : ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ الطائر في الأصل هو الطير وكان يتشاءم به ثم توسع واستعمل في كل ما يتشاءم به ، وربما يستعمل فيما يستقبل الإنسان من الحوادث ، وربما يستعمل في البخت الشقي الذي هو أمر موهوم يرونه مبدء لشقاء الإنسان وحرمانه من كل خير .

وكيف كان فقوله : «طائركم معكم» ظاهر معناه أن الذي ينبغي أن تتشأموا به هو معكم وهو حالة إعراضكم عن الحق الذي هو التوحيد واقبالكم الى الباطل الذي هو الشرك .

وقيل : المعنى طائركم أي حظكم ونصيبكم من الخير والشر معكم من أفعالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، هذا وهو أخذ الطائر بالمعنى الثاني لكن قوله بعد : «أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون» أنسب بالنسبة الى المعنى الأولى .

وقوله : ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ استفهام توبيخي والمراد بالتذكير تذكيرهم بالحق من وحدانيته تعالى ورجوع الكل اليه ونحوهما وجزاء الشرط محذوف في الكلام تلويحاً الى أنه مما لا ينبغي أن يذكر أو يتفوه به والتقدير ءإن ذكرتم بالحق قابلتموه بمثل هذا الجحود الشفيع والصنيع الفظيع من التطير والتوعد .

وقوله : ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ أي مجاوزون للحد في المعصية وهو إضراب عما تقدم والمعنى بل السبب الأصلي في جحودكم وتكذيبكم للحق أنكم قوم تستمرون على الإسراف ومجاوزة الحد .

قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ أقصى المدينة أبعد مواضعها بالنسبة الى مبدء مفروض ، وقد بدلت القرية في أول الكلام مدينة هنا للدلالة على عظمها والسعي هو الإسراع في المشي .

ووقع نظير هذا التعبير في قصة موسى والقبطي وفيها : ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة

يسعى﴾ فقدم «رجل» هناك وأُخر ههنا ولعل النكتة في ذلك أن الاهتمام هناك بمجيىء الرجل وإخباره موسى بائتمار الملاء لقتله فقدم الرجل ثم أُشير الى اهتمام الرجل نفسه بإيصال الخبر وإبلاغه فجيىء بقوله: «يسعى» حالاً مؤخراً بخلاف ما ههنا فالاهتمام بمجيئه من أقصى المدينة ليعلم أن لا تواطؤ بينه وبين الرسل في أمر الدعوة فقدم «من أقصى المدينة» وأُخر الرجل وسعيه.

قوله تعالى: ﴿إتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ بيان لقوله: «اتبعوا المرسلين» وفي وضع قوله: «من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون» في هذه الآية موضع قوله: «المرسلين» في الآية السابقة إشعار بالعلية وبيانها أن عدم جواز اتباع قائل في قوله إنما يكون لأحد أمرين: إما لكون قوله ضلالاً والقائل به ضالاً ولا يجوز اتباع الضال في ضلاله، وإما لأن القول وإن كان حقاً والحق واجب الاتباع لكن لقائله غرض فاسد يريد أن يتوسل اليه بكلمة الحق كاقتناء المال واكتساب الجاه والمقام ونحو ذلك، وأما إذا كان القول حقاً وكان القائل بريئاً من الغرض الفاسد منزهاً من الكيد والمكر والخيانة كان من الواجب اتباعه في قوله، وهؤلاء الرسل مهتدون في قولهم: لا تعبدوا إلا الله، وهم لا يريدون منكم أجراً من مال أو جاه فمن الواجب عليكم أن تتبعوهم في قولهم.

أما أنهم مهتدون فلقيام الحجة على صدق ما يدعون اليه من التوحيد وكونه حقاً، والحجة هي قوله: «ومالي لا أعبد» الى تمام الآيتين.

وأما انهم لا يريدون منكم أجراً فلما دل عليه قولهم: «ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون» وقد تقدم تقريره.

وبهذا البيان يتأيد ما قدمناه من كون قولهم: «ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون» مسوقاً لنفي إرادتهم من القوم أجراً أو غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ

آلِهَةً ـ الى قوله ـ وَلاَ يُنْقِذُونَ ﴾ شرع في استفراغ الحجة على التوحيد ونفي الآلهة في آيتين واختار لذلك سياق التكلم وحده إلا في جملة اعترض بها في خلال الكلام وهي قوله: «واليه ترجعون» وذلك بإجراء الحكم في نفسه بما أنه إنسان أوجده الله وفطره حتى يجري في كل إنسان هو مثله والأفراد أمثال فقوله: «وما لي لا أعبد» الخ: في معنى وما للإنسان لا يعبد. الخ؛ أيتخذ الإنسان من دونه آلهة. الخ.

وقد عبر عنه تعالى بقوله: «الذي فطرني» للإشعار بالعلية فإن فطره تعالى للإنسان وإيجاده له بعد العدم لازمه رجوع كل ما للإنسان من ذات وصفات وأفعال اليه تعالى وقيامه به وملكه له فليس للإنسان إلا العبودية محضة فعلى الإنسان أن ينصب نفسه في مقام العبودية ويظهرها بالنسبة اليه تعالى وهذا هو العبادة فعليه أن يعبده تعالى لأنه أهل لها.

وهذا هو الذي أشرنا اليه آنفاً أن الرجل كان يعبد الله بالإخلاص له لا طمعاً في جنة ولا خوفاً من نار بل لأنه أهل للعبادة.

وإذ كان الإيمان به تعالى وعبادته هكذا أمراً لا يناله عامة الناس فإن الأكثرين منهم إنما يعبدون خوفاً أو طمعاً أو لكليهما التفت الرجل بعد بيان حال نفسه الى القوم فقال: «واليه ترجعون» يريد به إنذارهم بيوم الرجوع وأنه تعالى سيحاسبهم على ما عملوا فيجازيهم بمساوي أعمالهم فقوله: «واليه ترجعون» كالمعترضة الخارجة عن السياق أو هي هي.

ثم إن الآيتين قائمتان على إبطال ما احتج به الوثنية وبنوا على ذلك عبادة الأصنام وأربابها.

توضيح ذلك أنهم قالوا: إن الله سبحانه أجل من أن يحيط به حس أو خيال أو عقل لا يناله شيء من القوى الإدراكية فلا يمكن التوجه اليه بالعبادة فسبيل العبادة أن نتوجه الى مقربي حضرته والأقوياء من خلقه كالملائكة الكرام والجن والقديسين من البشر حتى يكونوا شفعاء لنا عند الله في إيصال الخيرات ودفع الشرور والمكاره.

والجواب عن أُولى الحجتين بما حاصله أن الإنسان وإن كان لا يحيط علماً بالذات المتعالية لكنه يعرفه تعالى بصفاته الخاصة به مثل كونه فاطراً له موجداً إياه فله أن يتوجه اليه من طريق هذه الصفات وإنكار إمكانه مكابرة ، وهذا الجواب هو الذي أشار اليه بقوله : «وما لي لا أعبد الذي فطرني».

وعن الثانية أن هؤلاء الآلهة إن كانت لهم شفاعة كانت مما أفاضه الله عليهم والله سبحانه لا يعطيهم ذلك إلا فيما لا تتعلق به منه إرادة حاتمة ولازمه أن شفاعتهم فيما أذن الله لهم فيه كما قال : ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ (يونس / ٣) أما إذا أراد الله شيئاً إرادة حتم فلا تنفع شفاعتهم شيئاً في المنع عن نفوذها فاتخاذهم آلهة وعدمه سواء في عدم التأثير لجلب خير أو دفع شر ، والى ذلك أشار بقوله : «ءأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمان بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون».

وتعبيره عنه تعالى بالرحمان إشارة الى سعة رحمته وكثرتها وأن النعم كلها من عنده وتدبير الخير والشر اليه ويتحصل من هنا برهان آخر على وحدانيته تعالى في الربوبية ، إذ لما كان جميع النعم وكذا النظام الجاري فيها ، من رحمته وقائمة به من غير استقلال في شيء منها كان المستقل بالتدبير هو تعالى حتى أن تدبير الملائكة لو فرض تدبيرهم لشيء من رحمته تدبيره تعالى وكانت الربوبية له تعالى وحده وكذا الالوهية .

قوله تعالى : ﴿إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ تسجيل للضلال على اتخاذ الآلهة .

قوله تعالى : ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ من كلام الرجل خطاباً للرسل وقوله : «فاسمعون» كناية عن الشهادة بالتحمل ، وقوله : «إني آمنت بربكم» الخ : تجديد الشهادة بالحق وتأكيد للإيمان فإن ظاهر السياق أنه إنما قال : «إني آمنت بربكم» بعد محاجته خطاباً للرسل ليستشهدهم على إيمانه وليؤيدهم بإيمانهم بمرئى من القوم ومسمع .

قوله تعالى : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي

رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ الخطاب للرجل وهو ـ كما يفيده السياق ـ يلوح الى أن القوم قتلوه فنودي من ساحة العزة أن ادخل الجنة كما يؤيده قوله بعد: «وما أنزلنا على قومه من بعده» الخ؛ فوضع قوله: «قيل ادخل الجنة» موضع الإخبار عن قتلهم إياه إشارة الى أنه لم يكن بين قتله بأيديهم وبين أمره بدخول الجنة أي فصل وانفكاك كأن قتله بأيدهم هو أمره بدخول الجنة.

والمراد بالجنة على هذا جنة البرزخ دون جنة الآخرة، وقول بعضهم: إن المراد بها جنة الآخرة والمعنى سيقال له: ادخل الجنة. يوم القيامة والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع تحكم من غير دليل كما قيل: إن الله رفعه الى السماء فقيل له ادخل الجنة فهو حي يتنعم فيها الى قيام السعة، وهو تحكم كسابقه.

وقوله: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ استئناف كسابقه كالجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل: ماذا كان بعد تأييده للرسل؟ فقيل «قيل ادخل الجنة» ثم قيل: فماذا كان بعد؟ فقيل «قال يا ليت قومي يعلمون» الخ؛ وهو نصح منه لقومه ميتاً كما كان ينصحهم حياً.

و ﴿ مَا ﴾ في قوله: «بما غفر لي» الخ، مصدرية، وقوله: «وجعلني» عطف على «غفر» والمعنى بمغفرة ربي لي وجعله إياي من المكرمين.

وموهبة الإكرام وإن كانت وسيعة ينالها كثيرون كالإكرام بالنعمة كما في قوله: ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن﴾ (الفجر / ١٥)، وقوله: ﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ (الحجرات / ١٣) فإن كرامة العبد عند الله إكرام منه له لكنه لم يعد من المكرمين بوصف الاطلاق إلا طائفتين من خلقه: الملائكة الكرام كما في قوله: ﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ (الأنبياء / ٢٧)، والكاملين في إيمانهم من المؤمنين سواء كانوا من المخلصين بكسر اللام كما في قوله: ﴿ اولئك في جنات مكرمون ﴾

(المعارج / ٣٥) ، أو من المخلصين بفتح اللام كما في قوله : ﴿ إلا عباد الله المخلصين ـ الى أن قال ـ وهم مكرمون ﴾ (الصافات / ٤٢).

والآية من أدلة وجود البرزخ .

قوله تعالى : ﴿ وَمٰا أَنْزَلْنٰا عَلىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَمٰا كُنّٰا مُنْزِلِينَ ﴾ الضميران للرجل ، و« من بعده » أي من بعد قتله . و« من » الاولى والثالثة لابتداء الغاية ، والثانية مزيدة لتأكيد النفي .

والآية توطئة للآية التالية ، وهي مسوقة لبيان هوان أمر القوم والانتقام منهم بإهلاكهم على الله سبحانه وأنه لا يحتاج في إهلاكهم الى عدة وعدة حتى ينزل من السماء جنداً من الملائكة يقاتلونهم فيهلكونهم فلم يفعل ذلك فيهم ولا فعل ذلك في إهلاك من أهلك من الامم الماضين وإنما أهلكهم بصيحة واحدة تقضي عليهم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كٰانَتْ إِلّٰا صَيْحَةً وٰاحِدَةً فَإِذٰا هُمْ خٰامِدُونَ ﴾ أي ماكان الأمر الذي كان سبب إهلاكهم بمشيتنا إلا صيحة واحدة . وتأنيث الفعل لتأنيث الخبر وتنكير « صيحة » وتوصيفها بالوحدة للاستحقار ، والخمود السكون ، واستئناف الجملة لكونها كالجواب لسؤال مقدر كأنه قيل : فماذا كان سبب إهلاكهم ؟ فقيل : إن كانت إلا صيحة واحدة .

والمعنى : كان سبب هلاكهم أيسر أمر وهي صيحة واحدة ففاجأهم السكون فصاروا ساكنين لا يسمع لهم حس وهم عن آخرهم موتى لا يتحركون .

قوله تعالى : ﴿ يٰا حَسْرَةً عَلَى الْعِبٰادِ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلّٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ﴾ أي يا ندامة العباد ونداء الحسرة عليهم أبلغ من إثباتها لهم . وسبب الحسرة ما يتضمنه قوله : « ما يأتيهم من رسول » الخ .

ومن هذا السياق يستفاد أن المراد بالعباد عامة الناس وتتأكد الحسرة بكونهم عباداً فان رد العبد دعوة مولاه وتمرده عنه أشنع من رد غيره نصيحة الناصح .

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ توبيخ لاولئك الذين نودي عليهم بالحسرة، و«من القرون» بيان لكم، والقرون جمع قرن وهو أهل عصر واحد.

وقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ بيان لقوله: «كم أهلكنا قبلهم من القرون» ضمير الجمع الأول للقرون والثاني والثالث للعباد.

والمعنى: ألم يعتبروا بكثرة المهلكين بأمر الله من القرون الماضية وأنهم مأخوذون بأخذ إلهي لا يتمكنون من الرجوع الى ما كانوا يترفون فيه؟

وللقوم في مراجع الضمائر وفي معنى الآية أقوال أُخر بعيدة عن الفهم تركنا إيرادها.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ لفظة «إن» حرف نفي و«كل» مبتدء تنويه عوض عن المضاف اليه، و«لما» بمعنى إلا، وجميع بمعنى مجموع، ولدينا ظرف متعلق به، ومحضرون خبر بعد خبر وهو جميع، واحتمل بعضهم أن يكون صفة لجميع.

والمعنى: وما كلهم إلا مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء يوم القيامة فالآية في معنى قوله: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ (هود / ١٠٣)[١].

٣٣ ● وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ.

٣٤ ● وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ.

٣٥ ● لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ.

---

١. يس ١٣ ـ ٣٢: بحث روائي في رسولين من الحواريين اللذين بعثهما عيسى عليه السلام الى مدينة انطاكية.

٣٦ ● سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ
أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ.

٣٧ ● وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ.

٣٨ ● وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ.

٣٩ ● وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ.

٤٠ ● لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ
وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.

٤١ ● وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ.

٤٢ ● وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ.

٤٣ ● وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ.

٤٤ ● إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلىٰ حِينٍ.

٤٥ ● وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ.

٤٦ ● وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ.

٤٧ ● وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ
آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللّٰهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ
مُبِينٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ يذكر سبحانه في الآية واللتين بعدها آية من آيات الربوبية وهي تدبير أمر أرزاق الناس وتغذيتهم من أثمار النبات من الحبوب والتمر والعنب وغيرها.

فقوله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها﴾ وإن كان ظاهره أن الآية هي الأرض إلا أن الجملتين توطئتان لقوله: «وأخرجنا منها حباً» الخ؛ ومسوقتان للإشارة الى أن هذه الأغذية النباتية من آثار نفخ الحياة في الأرض الميتة وتبديلها حباً وتمراً يأكلون من ذلك فالآية بنظر هي الأرض الميتة من حيث ظهور هذه الخواص فيها وتمام تدبير أرزاق الناس بها.

وقوله: ﴿وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبّاً﴾ أي وأخرجنا من الأرض بإنبات النبات حباً كالحنطة والشعير والأرز وسائر البقولات.

وقوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ تفريع على إخراج الحب وبالأكل يتم التدبير، وضمير «فمنه» للحب.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنا فِيها جَنّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ﴾ قال الراغب: الجنة كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض انتهى. والنخيل جمع نخل وهو معروف، والأعناب جمع عنب يطلق على الشجرة وهي الكرم وعلى الثمرة.

وقال الراغب: العين الجارحة ـ الى أن قال ـ ويستعار العين لمعان هي موجودة في الجارحة بنظرات مختلفة ـ الى أن قال ـ ويقال لمنبع الماء عين تشبيهاً بها لما فيها من الماء انتهى، والتفجير في الأرض شقها لإخراج المياه، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ اللام

لتعليل ما ذكر في الآية السابقة أي جعلنا فيها جنات وفجرنا فيها العيون بشقها ليأكل الناس من ثمره.

وقوله: «من ثمره» قيل: الضمير للمجعول من الجنات ولذا أُفرد وذكر ولم يقل: من ثمرها أي من ثمر الجنات، أو من ثمرها أي من ثمر النخيل والأعناب.

وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ العمل هو الفعل والفرق بينهما ـ على ما ذكره الراغب ـ أن اكثر ما يستعمل العمل في الفعل المقارن للقصد والإرادة، ولذلك يشذ استعماله في الحيوان والجماد، ولذلك أيضاً يتصف العمل بالصلاح وخلافه. فيقال عمل صالح وعمل طالح ولا يتصف بهما مطلق الفعل.

و«ما» في ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ نافية والمعنى ولم يعمل الثمر أيديهم حتى يشاركونا في تدبير الأرزاق بل هو مما اختصصنا بخلقه وتتميم التدبير به من دون أن تستعين بهم فما بالهم لا يشكرون.

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى في أواخر السورة وهو يمتن عليهم بخلق الأنعام لتدبير أمر رزقهم وحياتهم: ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً ـ الى أن قال ـ ومنها يأكلون ولهم فيا منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾.

وقوله: ﴿أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ توبيخ واستقباح لعدم شكره، وشكره تعالى منهم على هذا التدبير إظهارهم جميل نعمه بذكره قولاً وفعلاً أي إظهارهم أنهم عباد له مدبرون بتدبيره وهو العبادة فشكره تعالى هو الاعتراف بربوبيته واتخاذه إلهاً معبوداً.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ إنشاء لتنزيهه تعالى، لما ذكر عدم شكرهم له على ما خلق لهم من أنواع النبات ورزقهم من الحبوب والأثمار، وإنما عمل ذلك بتزويج بعض النبات بعضا كما قال: ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ (ق / ٧) أشار الى ما هو أعظم وأوسع من خلق

أزواج النبات وهو خلق الأزواج كلها وتنظيم العالم المشهود باستيلاد كل شيء من فاعل ومنفعل قبله هما أبواه كالذكر والانثى من الإنسان والحيوان والنبات، وكل فاعل ومنفعل يتلاقيان فينتجان بتلاقيهما أمراً ثالثاً، أشار تعالى الى ذلك فنزه نفسه بقوله: «سبحان الذي خلق الأزواج كلها» الخ؛ فقوله: «سبحان الذي خلق الأزواج كلها» إنشاء تسبيح على ما يعطيه السياق لا إخبار.

وقوله: ﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ هو وما بعده بيان للأزواج والذي تنبت الأرض هو النبات ولا يبعد شموله الحيوان وقد قال تعالى في الإنسان وهو من أنواع الحيوان: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ (نوح / ١٧) ويؤيد ذلك أن ظاهر سياق البيان استيعابه للمبين مع عدم ذكر الحيوان في عداد الأزواج.

وقوله: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي الناس. وقوله: «ومما لا يعلمون» وهو الذي يجهله الإنسان من الخليقة أو يجهل كيفية ظهوره أو ظهور الكثرة فيه.

قال الراغب: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والانثى في الحيوانات المتزاوجة: زوج، ولكل قرينين فيها وفي غيرها: زوج كالخف والنعل، ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً: زوج، قال: وقوله: «خلقنا زوجين» فبين أن كل ما في العالم زوج من حيث إن له ضداً ما أو مثلاً ما أو تركيباً ما بل لا ينفك بوجه من تركيب. انتهى.

فزوجية الزوج هي كونه مفتقراً في تحققه الى تألف وتركب ولذلك يقال لكل واحد من القرينين من حيث هما قرينان: زوج لافتقاره الى قرينه، وكذا يقال لمجموع القرينين: زوج لافتقاره في تحققه زوجاً الى التألف والتركب فكون الأشياء أزواجاً مقارنة بعضها بعضاً لانتاج ثالث أو كونه مولداً من تألف اثنين.

قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ آية أُخرى من آيات الربوبية الدالة على وقوع التدبير العام السماوي للعالم الانساني مذكورة في

أربع آيات.

ولاشك أن الآية تشير الى مفاجأة الليل عقيب ذهاب النهار، والسلخ في الآية بمعنى الإخراج ولذلك عدي بمن ولو كان بمعنى النزع كما في قولنا: سلخت الإهاب عن الشاة تعين تعديه بعن دون من.

ويؤيد ذلك أنه تعالى عبر في مواضع من كلامه عن ورود كل من الليل والنهار عقيب الآخر بإيلاجه فيه فقال في مواضع من كلامه: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ (الحج / ٦١) فإذا كان ورود النهار بعد الليل إيلاجاً للنهار في الليل اعتباراً كان مفاجأة الليل بعد النهار إخراجاً للنهار من الليل اعتباراً.

كأن الليل أطبق عليهم وأحاطت بهم ظلمته ثم ولج فيه النهار فوسعهم نوره وضياؤه ثم خرج منه ففاجأهم الليل ثانياً بانطباق الظلام وإحاطته بما أضاءه النهار ففي الكلام نوع من الاستعارة بالكناية.

ولعل فيما ذكرناه من الوجه كفاية عما أطنبوا فيه من البحث في معنى سلخ النهار من الليل ثم مفاجأة الليل.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ جريها حركتها وقوله: «لمستقر لها» اللام بمعنى الى أو للغاية، والمستقر مصدر ميمي أو اسم زمان أو مكان، والمعنى أنها تتحرك نحو مستقرها أو حتى تنتهي الى مستقرها اي استقرارها وسكونها بانقضاء أجلها أو زمن استقرارها أو محله.

وأما جريها وهو حركتها فظاهر النظر الحسي يثبت لها حركة دورية حول الأرض لكن الأبحاث العلمية تقضي بالعكس وتكشف أن لها مع سياراتها حركة انتقالية نحو النسر الواقع.

وكيف كان فمحصل المعنى أن الشمس لا تزال تجري ما دام النظام الدنيوي على حاله حتى تستقر وتسكن بانقضاء أجلها فتخرب الدنيا ويبطل هذا النظام، وهذا المعنى يرجع

بالمآل الى معنى القراءة المنسوبة الى أهل البيت وغيرهم «والشمس تجري لامستقر لها» كما قيل.

وأما حمل جريها على حركتها الوضعية حول مركزها فهو خلاف ظاهر الجري الدال على الانتقال من مكان الى مكان.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي الجري المذكور تقدير وتدبير ممن لا يغلبه غالب في إرادته ولا يجهل جهات الصلاح في أفعاله.

قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ المنازل جمع منزل اسم مكان من النزول والظاهر أن المراد به المنازل الثمانية والعشرون التي تقطعها القمر في كل ثمانية وعشرين يوماً وليلة تقريباً.

والعرجون عود عذق النخلة من بين الشمراخ الى منبته وهو عود أصفر مقوس يشبه الهلال. والقديم العتيق.

وقد اختلفت الأنظار في معنى الآية للاختلاف في تركيبها، وأقرب التقديرات من الفهم قول من قال: إن التقدير والقمر قدرناه ذا منازل أو قدرنا له منازل حتى عاد هلالاً يشبه العرجون العتيق المصفر لونه.

تشير الآية الى اختلاف مناظر القمر بالنسبة الى أهل الأرض فإن نوره مكتسب من الشمس يستنير بها نصف كرته تقريباً وما يقرب من النصف الآخر غير المسامت للشمس مظلم ثم يتغير موضع الاستنارة ولا يزال كذلك حتى يعود الى الوضع الأول ويعرض ذلك أن يظهر لأهل الأرض في صورة هلال ثم لا يزال ينبسط عليه النور حتى يتبدر ثم لا يزال ينقص حتى يعود الى ما كان عليه أوله.

ولاختلاف صورة آثار بارزة في البر والبحر وحياة الناس على ما بين في الأبحاث المربوطة.

فالآية الكريمة تذكر من آية القمر أحواله الطارئة له بالنسبة الى الأرض وأهلها دون حاله في نفسه ودون حاله بالنسبة الى الشمس فقط.

ومن هنا لا يبعد أن يقال في قوله تعالى: «والشمس تجري لمستقر لها» أن المراد بقوله: «تجري» الإشارة الى ما يعطيه ظاهر الحس من حركتها اليومية والفصلية والسنوية وهي حالها بالنسبة الينا، وبقوله: «لمستقر لها» حالها في نفسها وهي سكونها بالنسبة الى سياراتها المتحركة حولها كأنه قيل: وآية لهم أن الشمس على استقرارها تجري عليهم وقد دبر العزيز العليم بذلك كينونة العالم الأرضي وحياة أهله والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ لفظة ينبغي تدل على الترجح ونفي ترجح الإدراك من الشمس نفي وقوعه منها، والمراد به أن التدبير ليس مما يجري يوماً ويقف آخر بل هو تدبير دائم غير مختل ولا منقوض حتى ينقضي الأجل المضروب منه تعالى لذلك.

فالمعنى أن الشمس والقمر ملازمان لما خط لهما من المسير فلا تدرك الشمس القمر حتى يختل بذلك التدبير المعمول بهما ولا الليل سابق النهار وهما متعاقبان في التدبير فيتقدم الليل النهار فيجتمع ليلتان ثم نهاران بل يتعاقبان.

ولم يتعرض لنفي إدراك القمر للشمس ولا لنفي سبق النهار الليل لأن المقام مقام بيان انحفاظ النظم الإلهي عن الاختلال والفساد فنفى إدراك ما هو أعظم وأقوى وهو الشمس لما هو أصغر وأضعف وهو القمر، ويعلم منه حال العكس ونفى سبق الليل الذي هو افتقاده للنهار الذي هو ليله والليل مضاف اليه متأخر طبعاً منه ويعلم به حال العكس.

وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي كل من الشمس والقمر وغيرهما من النجوم والكواكب يجرون في مجرى خاص به كما يسبح السمكة في الماء. فالفلك هو المدار الفضائي الذي يتحرك فيه الجرم العلوي، ولا يبعد حينئذ أن يكون المراد بالكل كل من الشمس والقمر

والليل والنهار وإن كان لا يوجد في كلامه تعالى ما يشهد على ذلك.

والإتيان بضمير الجمع الخاص بالعقلاء في قوله: «يسبحون» لعله للإشارة الى كونها مطاوعة لمشيته مطيعة لأمره تعالى كالعقلاء كما في قوله: ﴿ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ (حم السجدة / ١١).

قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال الراغب: الذرية أصلها الصغار من الأولاد، وتقع في التعارف على الصغار والكبار معاً، ويستعمل للواحد والجمع وأصله للجمع. انتهى. والفلك السفينة، والمشحون المملوء.

آية أُخرى من آيات ربوبيته تعالى وهو جريان تدبيره في البحر حيث يحمل ذريتهم في الفلك المشحون بهم وبأمتعتهم يجوزون به من جانب الى جانب للتجارة وغيرها، ولا حامل لهم فيه ولا حافظ لهم عن الغرق إلا هو تعالى والخواص التي يستفيدون منها في ركوب البحر أُمور مسخرة له تعالى منتهية الى خلقه على أن هذه الأسباب لو لم تنته اليه تعالى لم تغن طائلاً.

وإنما نسب الحمل الى الذرية دونهم أنفسهم فلم يقل: إنا حملناهم لإثارة الشفقة والرحمة.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ المراد به ـ على ما فسروه ـ الأنعام قال تعالى: ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ (الزخرف / ١٢) وقال: ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ (المؤمن / ٨٠).

وفسر بعضهم الفلك المذكور في الآية السابقة بسفينة نوح عليه السلام وما في هذه الآية بالسفن والزوارق المعمولة بعدها وهو تفسير رديء، ومثله تفسير ما في هذه الآية بالإبل خاصة.

وربما فسر ما في هذه الآية بالطيارات والسفن الجوية المعمولة في هذه الأعصار والتعميم أولى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ الصريخ هو

الذي يجيب الصراخ ويغيث الاستغاثة، والإنقاذ هو الانجاء من الغرق.

والآية متصلة بقوله السابق: «إنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون» أي إن الأمر الى مشيتنا فإن نشأ نغرقهم فلا يغيثهم مغيث ولا ينقذهم منقذ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ﴾ استثناء مفرغ والتقدير لا ينجون بسبب من الأسباب وأمر من الامور إلا لرحمة منا تنالهم ولتمتع الى حين الأجل المسمى قدرناه لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لما ذكر الآيات الدالة على الربوبية ذمهم على عدم رعايتهم حقها وعدم إقبالهم عليها وعدم ترتيبهم عليها آثارها فإذا قيل لهم هذه الآيات البينات ناطقة أن ربكم الله فاتقوا معصيته في حالكم الحاضرة وما قدمتم من المعاصي، أو عذاب الشرك والمعاصي التي أنتم مبتلون بها وما خلفتم وراءكم، او اتقوا ما بين أيديكم من الشرك والمعاصي في الحياة الدنيا وما خلفكم من العذاب في الآخرة، أعرضوا عنه ولم يستجيبوا له على ما هو دأبهم في جميع الآيات التي ذكروا بها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ المراد بإتيان الآيات موافاتها لهم بالمشاهدة أو بالتلاوة والذكر، وأيضاً هي أعم من أن تكون آية آفاقية أو أنفسية، أو تكون آية معجزة كالقرآن، فهم معرضون عنها جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ الى آخر الآية كان قوله: «وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم» متعرضاً لجوابهم إذا دعوا الى عبادة الله وهي أحد ركني الدين الحق، وهذه الآية تعرضت لجوابهم إذا دعوا الى عبادة الله وهي أحد ركني الدين الحق، وهذه الآية تعرضت لجوابهم إذا دعوا الى الشفقة على خلق الله وهو الركن الآخر ومعلوم أن جوابهم الرد دون القبول.

فقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ يتضمن دعوتهم الى الانفاق على الفقراء والمساكين من أموالهم وفي التعبير عن الأموال بما رزقهم الله إشعار بأن المالك لها حقيقة هو الله الذي رزقهم بها وسلطهم عليها، وهو الذي خلق الفقراء والمساكين وأقام حاجتهم الى ما عند هؤلاء من فضل المؤن الذي لا يفتقرون اليه فلينفقوا عليهم وليحسنوا وليجملوا والله يحب الاحسان وجميل الفعل.

وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ جوابهم للدعوة الى الإنفاق، وإنما أظهر القائل ـ الذين كفروا ـ ومقتضى المقام الإضمار للإشارة الى أن كفرهم بالحق وإعراضهم عنه باتباع الشهوات هو الذي دعاهم الى الاعتذار بمثل هذا العذر المبني على الإعراض عما تدعو اليه الفطرة من الشفقة على خلق الله وإصلاح ما فسد في المجتمع كما أن الإظهار في قوله: «للذين آمنوا» للإشارة الى أن قائل «أنفقوا مما رزقكم الله» هم الذين آمنوا.

وفي قوله: ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ إشعار بأن المؤمنين إنما قالوا لهم: «أنفقوا مما رزقكم الله» بعنوان أنه مما يشاؤه الله ويريده حكماً دينياً فردوه بأن إرادة الله لا تتخلف عن مراده فلو شاء أن يطعمهم أطعمهم أي وسع في رزقهم وجعلهم أغنياء.

وهذه مغالطة منهم خلطوا فيه بين الإرادة التشريعية المبنية على الابتلاء والامتحان وهداية العباد الى ما فيه صلاح حالهم في دنياهم وآخرتهم ومن الجائز أن تتخلف عن المراد بالعصيان، وبين الإرادة التكوينية التي لا تتخلف عن المراد ومن المعلوم أن مشيئة الله وإرادته المتعلقة بإطعام الفقراء والإنفاق عليهم من المشيئة التشريعية دون التكوينية فتخلفها في مورد الفقراء إنما يدل على عصيان الذين كفروا وتمردهم عما أُمروا به لا على عدم تعلق الإرادة به وكذب مدعيه.

وهذه مغالطة بنوا عليها جل ما افتعلوه من سنن الوثنية وقد حكى الله سبحانه ذلك عنهم

في قوله: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ (النحل / ٣٥)، وقوله: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ (الأنعام / ١٤٨)، وقوله: ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ (الزخرف / ٢٠).

وقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ من تمام قول الذين كفروا يخاطبون به المؤمنين أي إنكم في ضلال مبين في دعواكم أن الله أمرنا بالإنفاق وشاء منا ذلك[1].

٤٨ * وَيَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

٤٩ * ما يَنْظُرُونَ إِلاّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ.

٥٠ * فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ.

٥١ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الأَجْداثِ إِلىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ.

٥٢ * قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هٰذا ما وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ.

٥٣ * إِنْ كانَتْ إِلاّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ.

٥٤ * فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

٥٥ * إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ.

٥٦ * هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرائِكِ مُتَّكِئُونَ.

٥٧ * لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ.

---

١. يس ٣٣ـ٤٧: بحث روائي في الشمس والقمر والليل والنهار.

٥٨ ● سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ.

٥٩ ● وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ.

٦٠ ● أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ.

٦١ ● وَأَنِ اعْبُدُونِي هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ.

٦٢ ● وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ.

٦٣ ● هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ.

٦٤ ● اِصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ.

٦٥ ● الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلىٰ أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ كلام منهم وارد مورد الاستهزاء مبني على الإنكار، ولعله لذلك جيء باسم الإشارة الموضوعة للقريبة ولأن النبي ﷺ والمؤمنين كثيراً ما كانوا يسمعونهم حديث يوم القيامة وينذرونهم به، والوعد يستعمل في الخير والشر إذا ذكر وحده وإذا قبل الوعيد تعين الوعد للخير والوعيد للشر.

قوله تعالى: ﴿ما يَنْظُرُونَ إِلاّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ النظر بمعنى الانتظار، والمراد بالصيحة نفخة الصور الاولى باعانة السياق، وتوصيف الصيحة بالوحدة للاشارة الى هوان أمرهم على الله جلت عظمته فلا حاجة الى مؤنة زائدة،

و« يخصمون » أصله يختصمون من الاختصام بمعنى المجادلة والمخاصمة .

والآية جواب لقولهم : « متى هذا الوعد » مسوقة سوق الاستهزاء بهم والاستهانة بأمرهم كما كان قولهم كذلك ، والمعنى ما ينتظر هؤلاء القائلون : متى هذا الوعد في سؤالهم عن وقت الوعد المنبيء عن الانتظار إلا صيحة واحدة ـ يسيرة علينا بلا مؤنة ولا تكلف ـ تأخذهم فلا يسعهم أن يفروا وينجوا منها والحال أنهم غافلون عنها يختصمون فيما بينهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي يتفرع على هذه الصيحة بما أنها تفاجئهم ولا تمهلهم ان يموتوا من فورهم فلا يستطيعوا توصية ـ على أن الموت يعمهم جميعاً دفعة فلا يترك منهم أحداً يوصي اليه ـ ولا أن يرجعوا الى أهلهم إذا كانوا في الخارج من بيوتهم مثلاً .

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ هذه هي نفخة الصور الثانية التي بها الإحياء والبعث ، والأجداث جمع جدث وهو القبر والنسل الإسراع في المشي وفي التعبير عنه بقوله : « الى ربهم » تقريع لهم لأنهم كانوا ينكرون ربوبيته والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ البعث والإقامة ، والمرقد محل الرقاد والمراد به القبر ، وتعبيرهم عنه تعالى بالرحمان نوع استرحام وقد كانوا يقولون في الدنيا ﴿ وما الرحمان ﴾ (الفرقان / ٦٠) ، وقوله : « وصدق المرسلون » عطف على قوله : « هذا ما وعد الرحمان » والجملة الفعلية قد تعطف على الاسمية .

وقولهم : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا مبني على إنكارهم البعث وهم في الدنيا ورسوخ أثر الإنكار والغفلة عن يوم الجزاء في نفوسهم وهم لا يزالون مستغرقين في الأهواء فإذا قاموا من قبورهم مسرعين الى المحشر فاجأهم الورود في عالم لا يستقبلهم فيه إلا توقع الشر فأخذهم

الفزع الأكبر والدهشة التي لا تقوم لها الجبال ولذا يتبادرون أولاً الى دعوة الويل والهلاك كما كان ذلك دأبهم في الدنيا عند الوقوع في المخاطر ثم سألوا عمن بعثهم من مرقدهم لأن الذي أحاط بهم من الدهشة أذهلهم من كل شيء.

ثم ذكروا ما كانت الرسل عليهم السلام يذكرونهم به من الوعد الحق بالبعث والجزاء فشهدوا بحقية الوعد واستعصموا بالرحمة فقالوا: «هذا ما وعد الرحمان» على ما هو دأبهم في الدنيا حيث يكيدون عدوهم إذا ظهر عليهم بالتملق وإظهار الذلة والاعتراف بالظلم والتقصير ثم صدقوا الرسل بقولهم: «وصدق المرسلون».

قوله تعالى: ﴿إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾ اسم كان محذوف والتقدير إن كانت الفعلة أو النفخة إلا نفخة واحدة تفاجئهم أنهم مجموع محضرون لدينا من غير تأخير ومهلة.

والتعبير بقوله: «لدينا» لأن اليوم يوم الحضور لفصل القضاء عند الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي في هذا اليوم يقضي بينهم قضاء عدلا ويحكم حكماً حقا فلا تظلم نفس شيئاً.

وقوله: ﴿وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عطف تفسير لقوله: «فاليوم لا تظلم نفس شيئاً» وهو في الحقيقة بيان برهاني لانتفاء الظلم يومئذ لدلالته على أن جزاء أعمال العاملين يومئذ نفس أعمالهم، ولا يتصور مع ذلك ظلم لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه وتحميل العامل عمله وضع الشيء في موضعه ضرورة.

وخطاب الآية من باب تمثيل يوم القيامة وإحضار من فيه بحسب العناية الكلامية، وليس -كما توهم- حكاية عما سيقال لهم أو يخاطبون به من جانب الله سبحانه أو الملائكة أو المؤمنين يوم القيامة فلا موجب له من جهة السياق.

والمخاطب بقوله: «ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون» السعداء والأشقياء جميعاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ الشغل الشأن الذي شغل الإنسان ويصرفه عما عداه، والفاكه من الفكاهة وهي التحديث بما يسر أو التمتع والتلذذ ولا فعل له من الثلاثي المجرد على ما قيل.

والمعنى أن أصحاب الجنة في هذا اليوم في شأن يشغلهم عن كل شيء دونه وهو التنعم في الجنة متمتعون فيها.

قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ الظلال جمع ظل وقيل جمع ظلة بالضم وهي السترة من الشمس من سقف أو شجر أو غير ذلك، والأريكة كل ما يتكى عليه من وسادة أو غيرها.

والمعنى: هم أي أصحاب الجنة وأزواجهم من حلائلهم المؤمنات في الدنيا أو من الحور العين في ظلال أو أستار من الشمس وغيرها متكئون على الأرائك اتكاء الأعزة.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ الفاكهة ما يتفكه به من الثمرات كالتفاح والاترج ونحوهما، وقوله: «يدعون» من الادعاء بمعنى التمني أي لهم في الجنة فاكهة ولهم فيها ما يتمنونه ويطلبونه.

قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ سلام مبتدء محذوف الخبر والتنكير للتفخيم والتقدير سلام عليهم أو لهم سلام، و«قولا» مفعول مطلق لفعل محذوف والتقدير أقوله قولا من رب رحيم.

والظاهر أن السلام منه تعالى وهو غير سلام الملائكة المذكور في قوله: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ (الرعد / ٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي ونقول اليوم للمجرمين امتازوا من أصحاب الجنة وهو تمييزهم منهم يوم القيامة وإنجاز لما في قوله في موضع آخر: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ (ص /

٢٨)، وقوله: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم﴾ (الجاثية / ٢١).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ العهد الوصية . والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيا يوسوس ويأمر به إذ لا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته . وقد علل النهي عن طاعته بكونه عدواً مبيناً لأن العدو لا يريد بعدوه خيراً.

وإنما وجه الخطاب الى المجرمين بعنوان أنهم بنو آدم لأن عداوة الشيطان إنما نشبت أول ما نشبت بآدم حيث أمر أن يسجد له فأبى واستكبر فرجم ثم عاد ذريته بعداوته وأوعدهم كما حكاه الله تعالى إذ قال: ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا﴾ (الإسراء / ٦٢).

وأما عهده تعالى ووصيته الى بني آدم أن لا يطيعوه فهو الذي وصاهم به بلسان رسله وأنبيائه وحذرهم عن اتباعه كقوله تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ (الأعراف / ٢٧) وقوله: ﴿ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ (الزخرف / ٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ عطف تفسير لما سبقه ، وقد تقدم كلام في معنى الصراط المستقيم في تفسير قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ من سورة الفاتحة .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ الجبل الجماعة وقيل: الجماعة الكثيرة والكلام مبنى على التوبيخ والعتاب .

قوله تعالى: ﴿هٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي كان يستمر عليكم الايعاد بها مرة بعد مرة بلسان الأنبياء والرسل عليهم السلام وأول ما أوعد الله سبحانه بها حين قال لإبليس: ﴿إن

عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ (الحجر / ٤٣) وفي لفظ الآية إشارة الى إحضار جهنم يومئذ.

قوله تعالى: ﴿إِصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الصلا: اللزوم والاتباع، وقيل: مقاساة الحرارة ويظهر بقوله: «بما كنتم تكفرون» أن الخطاب للكفار وهم المراد بالمجرمين.

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي يشهد كل منها بما كانوا يكسبونه بواسطته فالأيدي بالمعاصي التي كسبوها بها والأرجل بالمعاصي الخاصة بها على ما يعطيه السياق.

ومن هنا يظهر أن كل عضو ينطق بما يخصه من العمل وأن ذكر الأيدي والأرجل من باب الأنموذج ولذا ذكر في موضع آخر السمع والبصر والفؤاد كما في سورة أسرى الآية ٣٦. وفي موضع آخر الجلود كما في سورة حم السجدة الآية ٢٠، وسيأتي بعض ما يتعلق به من الكلام في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله[1].

٦٦ ● وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ.

٦٧ ● وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ.

٦٨ ● وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ.

٦٩ ● وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ.

٧٠ ● لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ.

---

١. يس ٤٨ ـ ٦٥: بحث روائي حول قوله تعالى: «ما ينظرون الا صيحة واحدة»: نفخ الصور: اصحاب الجنة.

٧١ ● أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ.

٧٢ ● وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ.

٧٣ ● وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ.

٧٤ ● وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ.

٧٥ ● لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ.

٧٦ ● فَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ.

٧٧ ● أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ.

٧٨ ● وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ.

٧٩ ● قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ.

٨٠ ● الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ.

٨١ ● أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ.

٨٢ ● إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

٨٣ ● فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ قال في مجمع البيان: الطمس محو الشيء حتى يذهب أثره فالطمس على العين كالطمس على الكتاب ومثله الطمس على المال وهو إذهابه حتى لا يقع عليه إدراك، وأعمى مطموس وطميس وهو أن يذهب الشق الذي بين الجفنين، انتهى.

فقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي لو أردنا لأذهبنا أعينهم فصارت ممسوحة لا أثر منها فذهبت به أبصارهم وبطل إبصارهم.

وقوله: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي أرادوا السبق الى الطريق الواضح الذي لا يخطىء قاصده ولا يظل سالكه فلم يبصروه ولن يبصروه فالاستبعاد المفهوم من قوله: «فأنى يبصرون» كناية عن الامتناع.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ قال في المجمع: والمسخ قلب الصورة الى خلقة مشوهة كما مسخ قوم قردة وخنازير وقال: والمكانة والمكان واحد. انتهى. المراد بمسخهم على مكانتهم تشويه خلقهم وهم قعود في مكانهم الذي هم فيه من غير أن يغيرهم عن حالهم بعلاج وتكلف بل بمجرد المشية فهو كناية عن كونه هيناً سهلا عليه تعالى من غير أي صعوبة.

وقوله: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي مضياً في العذاب ولا يرجعون الى حالهم قبل العذاب والمسخ فالمضي والرجوع كنايتان عن الرجوع الى حال السلامة والبقاء على حال العذاب والمسخ.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ التعمير التطويل العمر، والتنكيس تقليب الشيء بحيث يعود أعلاه أسفله ويتبدل قوته ضعفاً وزيادته نقصاً

والانسان في عهد الهرم منكس الخلق يتبدل قوته ضعفاً وعلمه جهلا وذكره نسيانا.

والآية في مقام الاستشهاد بتنكيس الخلق على إمكان مضمون الآيتين السابقتين والمراد أن الذي ينكس خلق الانسان إذا عمره قادر على أن يطمس على أعينهم وعلى أن يمسخهم على مكانتهم.

وفي قوله: ﴿أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ توبيخهم على عدم التعقل وحثهم على التدبر في هذه الامور والاعتبار بها.

قوله تعالى: ﴿وَمٰا عَلَّمْنٰاهُ الشِّعْرَ وَمٰا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ عطف ورجوع الى ما تقدم في صدر السورة من تصديق رسالة النبي ﷺ وكون كتابه تنزيلاً من عنده تعالى.

فقوله: ﴿وَمٰا عَلَّمْنٰاهُ الشِّعْرَ﴾ نفي أن يكون علمه الشعر ولازمه أن يكون بحيث لا يحسن قول الشعر لا أن يحسنه ويمتنع من قوله لنهي من الله متوجه اليه، ولا أن النازل من القرآن ليس بشعر وإن أمكنه ﷺ أن يقوله.

وبه يظهر أن قوله: «وما ينبغي له» في مقام الامتنان عليه بأنه نزهه عن أن يقول شعراً فالجملة في مقام دفع الدخل والمحصل أن عدم تعليمنا إياه الشعر ليس يوجب نقصاً فيه ولا أنه تعجيز له بل لرفع درجته وتنزيه ساحته عما يتعاوره العارف بصناعة الشعر فيقع في معرض تزيين المعاني بالتخيلات الشعرية الكاذبة التي كلما أمعن فيها كان الكلام أوقع في النفس. وتنظيم الكلام بأوزان موسيقية ليكون أوقع في السمع. فلا ينبغي له ﷺ أن يقول الشعر وهو رسول من الله وآية رسالته ومتن دعوته القرآن المعجز في بيانه الذي هو ذكر وقرآن مبين.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ تفسير وتوضيح لقوله: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له» بما أن لازم معناه أن القرآن ليس بشعر فالحصر المستفاد من قوله: «إن هو إلا

ذكر» الخ؛ من قصر القلب والمعنى ليس هو بشعر ما هو إلا ذكر وقرآن مبين.

ومعنى كونه ذكراً وقرآنا أنه ذكر مقرو من الله ظاهر ذلك.

قوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كٰانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكٰافِرِينَ﴾ تعليل متعلق بقوله: «وما علمناه الشعر» والمعنى ولم نعلمه الشعر لينذر بالقرآن المنزه من أن يكون شعرا من كان حياً، الخ؛ أو متعلق بقوله: «إن هو إلا ذكر» الخ؛ والمعنى ليس ما يتلوه على الناس إلا ذكرا وقرآنا مبينا نزلناه اليه لينذر من كان حيا، الخ؛ ومآل الوجهين واحد.

والآية ـ كما ترى ـ تعد غاية إرسال الرسول وإنزال القرآن إنذار من كان حياً ـ وهو كناية عن كونه يعقل الحق ويسمعه ـ وحقية القول ووجوبه على الكافرين فمحاذاة الآية لما في صدر السورة من الآيات في هذا المعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّٰا خَلَقْنٰا لَهُمْ مِمّٰا عَمِلَتْ أَيْدِينٰا أَنْعٰاماً فَهُمْ لَهٰا مٰالِكُونَ﴾ ذكر آية من آيات التوحيد تدل على ربوبيته تعالى وتدبيره للعالم الإنساني وهي نظيرة ما تقدم في ضمن آيات التوحيد السابقة من إحياء الأرض الميتة بإخراج الحب والثمرات وتفجير العيون.

والمراد بكون الأنعام مما عملته أيديه تعالى عدم إشراكهم في خلقها واختصاصه به تعالى فعمل الأيدي كناية عن الاختصاص.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَهٰا مٰالِكُونَ﴾ تفريع على قوله: «خلقنا لهم» فإن المعنى خلقنا لأجلهم فهي مخلوقة لأجل الانسان ولازمه اختصاصها به وينتهي الاختصاص الى الملك فإن الملك الاعتباري الذي في المجتمع من شعب الاختصاص.

قوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنٰاهٰا لَهُمْ فَمِنْهٰا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهٰا يَأْكُلُونَ﴾ تذليل الأنعام جعلها منقادة لهم غير عاصية وهو تسخيرها لهم، والركوب بفتح الراء الحمولة كالابل والبقر، وقوله: «ومنها يأكلون» أي من لحمها يأكلون.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ المراد بالمنافع ما ينتفعون به من شعرها ووبرها وجلودها وغير ذلك، والمشارب جمع مشرب ـ مصدر ميمي بمعنى المفعول ـ والمراد بها الألبان، والكلام في معنى الشكر كالكلام فيما تقدم في قوله: «وما عملته أيديهم أفلا يشكرون».

ومعنى الآيات الثلاث: أو لم يعلموا أنا خلقنا لأجلهم ولتدبير أمر حياتهم الدنيا أنعاما من الإبل والبقر والغنم فتفرع على ذلك أنهم مالكون لها ملكا يصحح لهم أنواع تصرفاتهم فيها من غير معارض، وذللناها لهم بجعلها مسخرة لهم منقادة غير عاصية فمنها ركوبهم الذي يركبونه، ومنها أي من لحومها يأكلون، ولهم فيها منافع ينتفعون بأشعارها وأوبارها وجلودها ومشروبات من ألبانها يشربونها أفلا يشكرون الله على هذا التدبير الكامل الذي يكشف عن ربوبيته لهم؟ أولا يعبدونه شكراً لأنعمه؟

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ضمائر الجمع للمشركين، والمراد بالآلهة الأصنام أو الشياطين وفراعنة البشر دون الملائكة المقربين والأولياء من الإنسان لعدم ملاءمة ذيل الكلام «وهم لهم جند محضرون» لذلك.

وإنما اتخذوهم آلهة رجاء أن ينصروا من ناحيتهم لأن عامتهم تتخذ إلها زعما منهم أن تدبير أمره مفوض الى من اتخذه إلها من خير أو شر فيعبده العابد منهم ليرضيه بعبادته فلا يسخط فيقطع النعمة أو يرسل النقمة.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ أي لا يستطيع هؤلاء الآلهة الذين اتخذوهم آلهة نصر هؤلاء المشركين لأنهم لا يملكون شيئاً من خير أو شر.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ الظاهر أن أول الضميرين للمشركين وثانيهما للآلهة من دون الله والمراد أن المشركين جند للآلهة وذلك أن من لوازم معنى الجندية التبعية

والملازمة والمشركون هم المعدودون أتباعاً لآلهتهم مطيعين لهم دون العكس.

والمراد بالإحضار بالإحضار في قوله: «محضرون» الإحضار للجزاء يوم القيامة قال تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضورن﴾ (الصافات / ٥٧). ومحصل المعنى لا يستطيع الآلهة المتخذون نصر المشركين وهم أي المشركون لهم أي لآلهتهم أتباع مطيعون محضرون معهم يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿فَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ الفاء لتفريع النهي عن الحزن على حقيقة اتخاذهم الآلهة من دون الله رجاء للنصر أي إذا كان هذا حقيقة حالهم أن الذين استنصروهم لا يستطيعون نصرهم أبداً وأنهم سيحضرون معهم للعذاب فلا يحزنك قولهم ما قالوا به من الشرك فإنا لسنا بغافلين عنهم حتى يعجزونا أو يفسدوا علينا بعض الأمر بل نعلم ما يسرون من أقوالهم وما يعلنون. وفي تركيب الآية بعض أقوال رديئة أضربنا عنه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ رجوع الى ما تقدم من حديث البعث والاحتجاج عليه إثر إنكارهم، ولا يبعد أن يكون بيانا تفصيلياً لقولهم المشار اليه في قوله تعالى: «فلا يحزنك قولهم» الخ؛ والمراد بالرؤية العلم القطعي أي أولم يعلم الإنسان علماً قاطعاً أنا خلقناه من نطفة، وتنكير نطفة للتحقير والخصيم المصر على خصومته وجداله.

والاستفهام للتعجب والمعنى من العجيب أن الإنسان يعلم أنا خلقناه من نطفة مهينة فيفاجؤه أنه خصيم مجادل مبين.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ الرميم البالي من العظام، و«نسي خلقه» حال من فاعل ضرب، وقوله: «قال من يحيي العظام وهي رميم» بيان للمثل الذي ضربه الإنسان، ولذلك جيء به مفصولا من غير

عطف لأن الكلام في معنى أن يقال: فماذا ضرب مثلا؟ فقيل: قال من يحيي العظام وهي رميم.

والمعنى وضرب الإنسان لنا مثلا وقد نسي خلقه من نطفة لأول مرة، ولو كان ذاكره لم يضرب المثل الذي ضربه وهو قوله: «من يحيي العظام وهي بالية؟» لأنه كان يرد على نفسه ويجيب عن المثل الذي ضربه بخلقه الأول كما لقنه الله تعالى لنبيه ﷺ جوابا عنه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ تلقين الجواب للنبي ﷺ.

الإنشاء هو الإيجاد الابتدائي وتقييده بقوله: «أول مرة» للتأكيد، وقوله: «وهو بكل خلق عليم» إشارة الى أنه تعالى لا ينسى ولا يجهل شيئاً من خلقه فإذا كان هو خالق هذه العظام لأول مرة وهو لا يجهل شيئاً مما كانت عليه قبل الموت وبعده فإحياؤه ثانيا بمكان من الإمكان لثبوت القدرة وانتفاء الجهل والنسيان.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ بيان لقوله: «الذي أنشأها أول مرة» والإيقاد إشعال النار.

والآية مسوقة لرفع استبعاد جعل الشيء الموات شيئاً ذا حياة والحياة والموت متنافيان والجواب أنه لا استبعاد فيه فإنه هو الذي جعل لكم من الشجر الأخضر الذي يقطر ماء ناراً فإذا أنتم منه توقدون وتشعلون النار، والمراد به على المشهور بين المفسرين شجر[1] المرخ والعفار كانوا يأخذون منها على خضرتها فيجعل العفار زنداً أسفل ويجعل المرخ زنداً أعلى فيسحق الأعلى على الاسفل فتنقدح النار بإذن الله فحصول الحي من الميت ليس بأعجب من انقداح النار من الشجرة الخضراء وهما متضادان.

---

١. المرخ بالفتح فالسكون والخاء المعجمة، والعفار بعين مفتوحة ثم الفاء ثم الراء المهملة شجرتان تشتعلان بسحق أحدهما على الاخر.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِقٰادِرٍ عَلىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلىٰ وَهُوَ الْخَلّاقُ الْعَلِيمُ﴾ الاستفهام للإنكار والآية بيان للحجة السابقة المذكورة في قوله: «قل يحييها الذي أنشأها أول مرة» الخ؛ ببيان أقرب الى الذهن وذلك بتبديل إنشائهم أول مرة من خلق السماوات والأرض الذي هو أكبر من خلق الإنسان كما قال تعالى: «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس» (المؤمن / ٥٧).

فالآية في معنى قولنا: وكيف يمكن أن يقال: إن الله الذي خلق عوالم السماوات والأرض بما فيها من سعة الخلقة البديعة وعجيب النظام العام المتضمن لما لا يحصى من الأنظمة الجزئية المدهشة للعقول المحيرة للالباب والعالم الإنساني جزء يسير منها، لا يقدر أن يخلق مثل هؤلاء الناس، بلى وإنه خلاق عليم.

والمراد بمثلهم قيل: هم وأمثالهم وفيه أنه مغاير لمعنى مثل على ما يعرف من اللغة والعرف.

فالحق أن يقال: إن المراد بخلق مثلهم إعادتهم للجزاء بعد الموت كما يستفاد من كلام الطبرسي ﷺ في مجمع البيان.

بيانه أن الإنسان مركب من نفس وبدن، والبدن في هذه النشأة في معرض التحلل والتبدل دائماً فهو لا يزال يتغير أجزاؤه والمركب ينتفي بانتفاء أحد أجزائه فهو في كلا آن غيره في الآن السابق بشخصه وشخصية الإنسان محفوظة بنفسه ـ روحه ـ المجردة المنزهة عن المادة والتغيرات الطارئة من قبلها المأمونة من الموت والفساد.

والمتحصل من كلامه تعالى أن النفس لا تموت بموت البدن وأنها محفوظة حتى ترجع الى الله سبحانه كما تقدم استفادته من قوله تعالى: ﴿وقالوا ءإذا ضللنا في الأرض ءإنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون﴾ (الم السجدة / ١١).

فالبدن اللاحق من الإنسان إذا أعتبر بالقياس الى البدن السابق منه كان مثله لا عينه لكن الإنسان ذا البدن اللاحق إذا قيس الى الإنسان ذي البدن السابق كان عينه لا مثله لأن الشخصية بالنفس وهي واحدة بعينها.

ولما كان استبعاد المشركين في قولهم: «من يحيي العظام وهي رميم» راجعاً الى خلق البدن الجديد دون النفس أجاب سبحانه بإثبات إمكان خلق مثلهم وأما عودهم بأعيانهم فهو إنما يتم بتعلق النفوس والأرواح المحفوظة عند الله بالأبدان المخلوقة جديداً، فتكون الأشخاص الموجودين في الدنيا من الناس بأعيانهم كما قال تعالى: **﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى﴾** (الأحقاف / ٣٣) فعلق الإحياء على الموتى بأعيانهم فقال: على أن يحيي الموتى ولم يقل: على أن يحيي أمثال الموتى.

قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** الآية من غرر الآيات القرآنية تصف كلمة الايجاد وتبين أنه تعالى لا يحتاج في إيجاد شيء مما أراده الى ما وراء ذاته المتعالية من سبب يوجد له ما أراده أو يعينه في إيجاده أو يدفع عنه مانعا يمنعه.

وقد اختلف تعبيره تعالى عن هذه الحقيقة في كلامه فقال: **﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾** (النحل / ٤٠)، وقال: **﴿وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾** (البقرة / ١١٧).

فقوله: **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾** الظاهر أن المراد بالأمر الشأن، وقوله في آية النحل المنقولة آنفا: «إنما قولنا لشيء إذا أردنا» إن كان يؤيد كون كون الأمر بمعنى القول وهو الأمر اللفظي بلفظة كن إلا أن التدبر في الآيات يعطي أن الغرض فيها وصف الشأن الإلهي عند إرادة خلق شيء من الأشياء لا بيان أن قوله تعالى عند خلق شيء من الأشياء هذا القول دون غيره. فالوجه حمل القول على الأمر بمعنى الشأن بمعنى أنه جيء به لكونه مصداقا للشأن لا حمل الأمر على

القول بمعنى ما يقابل النهي.

وقوله: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً﴾ أي إذا أراد إيجاد شيء كما يعطيه سياق الآية وقد ورد في عدة من الآيات القضاء مكان الإرادة كقوله: ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾[١] ولا ضير فالقضاء هو الحكم والقضاء والحكم والإرادة من الله شيء واحد وهو كون[٢] الشيء الموجود بحيث ليس له من الله سبحانه إلا أن يوجد فمعنى إذا أردناه إذا أوقفناه موقف تعلق الإرادة.

وقوله: ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ خبر إنما أمره أي يخاطبه بكلمة كن ومن المعلوم أن ليس هناك لفظ يتلفظ به وإلا احتاج في وجوده الى لفظ آخر وهلم جرا فيتسلسل ولا أن هناك مخاطبا ذا سمع يسمع الخطاب فيوجد به لأدائه الى الخلف فالكلام تمثيل لإفاضته تعالى وجود الشيء من غير حاجة الى شيء آخر وراء ذاته المتعالية ومن غير تخلف ولا مهل.

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الملكوت مبالغة في معنى الملك كالرحموت والرهبوت في معنى الرحمة والرهبة.

وانضمام الآية الى ما قبلها يعطي أن المراد بالملكوت الجهة التالية له تعالى من وجهي وجود الأشياء، وبالملك الجهة التالية للخلق أو الأعم الشامل للوجهين. وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ (الأنعام / ٧٥). وقوله: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض﴾ (الأعراف / ١٨٥) وقوله: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ (المؤمنون / ٨٨).

وجعل الملكوت بيده تعالى للدلالة على أنه متسلط عليها لا نصيب فيها لغيره.

---

١. البقرة: ١١٧، آل عمران: ٤٧، مريم: ٣٥، المؤمن: ٦٨.

٢. فإن هذه الارادة صفة فعلية خارجة عن الذات منتزعة عن مقام الفعل.

ومآل المعنى في قوله: «فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء» تنزيهه تعالى عما استبعدوا منكرين للمعاد لغفلتهم عن أن ملكوت كل شيء بيده وفي قبضته.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ خطاب لعامة الناس من مؤمن ومشرك، وبيان لنتيجة البيان السابق بعد التنزيه[1].

---

١. يس ٦٦ ـ ٨٣: بحث روائي حول قوله تعالى: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين»؛ احياء الموتى: مكان روح المحسن والمسيء بعد الموت».

سورة الصافات مكية وهي مائة واثنان وثمانون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● وَالصَّافَّاتِ صَفّاً.

٢ ● فَالزَّاجِراتِ زَجْراً.

٣ ● فَالتَّالِياتِ ذِكْراً.

٤ ● إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَواحِدٌ.

٥ ● رَبُّ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ.

٦ ● إِنّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ.

٧ ● وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مَارِدٍ.

٨ ● لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى المَلَأِ الأَعْلىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ.

٩ ● دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ.

١٠ ● إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ.

١١ ● فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنّا خَلَقْناهُمْ مِنْ

طِينٍ لازِبٍ.

بيان:

في السورة احتجاج على التوحيد، وإنذار للمشركين وتبشير للمخلصين من المــؤمنين، وبيان ما يؤل اليه حال كل من الفريقين ثم ذكر عدة من عباده المؤمنين ممن مـن الله عـليهم وقضى أن ينصرهم على عدوهم، وفي خاتمة السورة ما هو بمنزلة محصل الغرض منها وهـو تنزيهه السلام على عباده المرسلين وتحميده تعالى فيما فعل والسورة مكية بشهادة سياقها.

قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفّاً، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً﴾ الصافات ـ على ما قيل ـ جمع صافة وهي جمع صاف، والمراد بها على أي حال الجماعة التي تصطف أفرادها والزاجرات من الزجر وهو الصرف عن الشيء بـالتخويف بـذم أو عـقاب والتاليات من التلاوة بمعنى القراءة.

وقد أقسم الله تعالى بهذه الطوائف الثلاث: الصافات والزاجرات والتاليات وقد اختلفت كلماتهم في المراد بها:

فأما الصافات فقيل: إن المراد بها المـلائكة تـصف أنـفسها في السماء صـفوفا كـصفوف المؤمنين في الصلاة، وقيل: إنهـا المـلائكة تـصف أجـنحتها في الهـواء إذا أرادت النزول الى الأرض واقفة في انتظار أمر الله تعالى، وقيل: إنها الجماعة من المؤمنين يقومون في الصلاة أو في الجهاد مصطفين.

وأما الزاجرات فقيل: إنها الملائكة تزجر العباد عـن المـعاصي فـيوصله الله الى قـلوب الناس في صورة الخطرات كما يوصل وسـاوس الشـياطين، وقـيل: إنهـا المـلائكة المـوكلة بالسحاب تزجرها وتسوقها الى حيث أراد الله سبحانه، وقيل: هي زواجر القرآن وهي آياته الناهية عن القبائح، وقيل: هم المؤمنون يرفعون أصواتهم بالقرآن عند قراءته فـيزجـرون

الناس عن المنهيات.

وأما التاليات فقيل: هم الملائكة يتلون الوحي على النبي الموحى اليه، وقيل: هي الملائكة تتلو الكتاب الذي كتبه الله وفيها ذكر الحوادث، وقيل: جماعة قراء القرآن يتلونه في الصلاة.

ويحتمل - والله العالم - أن يكون المراد بالطوائف الثلاث المذكورة في الآيات طوائف الملائكة النازلين بالوحي المأمورين بتأمين الطريق ودفع الشياطين عن المداخلة فيه وإيصاله الى النبي مطلقا أو خصوص محمد ﷺ كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم﴾ (الجن / ٢٨).

وعليه فالمعنى أقسم بالملائكة الذين يصفون في طريق الوحي صفا فبالذين يزجرون الشياطين ويمنعونهم عن المداخلة في الوحي فبالذين يتلون على النبي الذكر وهو مطلق الوحي أو خصوص القرآن كما يؤيده التعبير عنه بتلاوة الذكر.

ويؤيد ما ذكرنا وقوع حديث رمي الشياطين بالشهب بعد هذه الآيات، وكذا قوله بعد: «فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا» الآية؛ كما سنشير اليه.

ولا ينافي ذلك إسناد النزول بالقرآن الى جبريل وحده في قوله: ﴿من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾ (البقرة / ٩٧) وقوله: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ (الشعراء / ١٩٤) لأن الملائكة المذكورين أعوان جبريل فنزولهم به نزوله به وقد قال تعالى: ﴿في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة﴾ (عبس / ١٦)، وقال حكاية عنهم: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾ (مريم / ٦٤)، وقال: ﴿وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون﴾ (الصافات / ١٦٦) وهذا كنسبة التوفي الى الرسل من الملائكة في قوله: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ (الأنعام / ٦١) والى ملك الموت وهو رئيسهم في قوله:

﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ (السجدة / ١١).

ولا ضير في التعبير عن الملائكة بلفظ الإناث: الصافات والزاجرات والتاليات لأن موصوفها الجماعة، والتأنيث لفظي.

وهذه أول سورة في القرآن صدرت بالقسم وقد اقسم الله سبحانه في كلامه بكثير من خلقه كالسماء والأرض والشمس والقمر والنجم والليل والنهار والملائكة والناس والبلاد والأثمار، وليس ذلك إلا لما فيها من الشرف باستناد خلقها اليه تعالى وهو قيومها المنبع لكل شرف وبهاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَواحِدٌ﴾ الخطاب لعامة الناس وهو مقسم به، وهو كلام مسوق بدليل كما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ﴾ خبر بعد خبر لأن، أو خبر لمبتدء محذوف والتقدير هو رب السماوات، الخ؛ أو بدل من واحد.

وفي سوق الأوصاف إشعار بعلة كون الإله واحدا كما أن خصوصية القسم مشعر بعلة كونه رب السماوات والأرض وما بينهما.

كأنه قيل إن إلهكم لواحد لأن الملاك في الوهية الإله وهي كونه معبوداً بالحق أن يكون ربا يدبر الإمر على ما تعترفون وهو سبحانه رب السماوات والأرض وما بينهما الذي يدبر أمرها ويتصرف في جميعها.

وكيف لا؟ وهو تعالى يوحي الى نبيه فيتصرف في السماء وسكانها بإرسال ملائكة يصطفون بينها وبين الأرض وهناك مجال الشياطين فيزجرونهم وهو تصرف منه فيما بين السماء والأرض وفي الشياطين ثم يتلون الذكر على نبيه وفيه تكميل للناس وتربية لهم سواء صدقوا أم كذبوا ففي الوحي تصرف منه في السماوات والأرض وما بينهما فهو على وحدانيته رب الجميع المدبر لأمرها والإله الواحد.

وقوله: ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أي مشارق الشمس باختلاف الفصول أو المراد مشارق مطلق النجوم أو مطلق المشارق، وفي تخصيص المشارق بالذكر مناسبة لطلوع الوحي بملائكته من السماء وقد قال تعالى: ﴿ولقد رآه بالافق المبين﴾ (التكوير / ٢٣)، وقال: ﴿وهو بالافق الأعلى﴾ (النجم / ٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ المراد بالزينة ما يزين به، والكواكب بيان أو بدل من الزينة وقد تكرر حديث تزيين السماء الدنيا بزينة الكواكب في كلامه كقوله: ﴿وزينا السماء بمصابيح﴾ (حم السجدة / ١٢) وقوله: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ (الملك / ٥)، وقوله: ﴿أولم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها﴾ (ق / ٦).

ولا يخلو من ظهور في كون السماء الدنيا من السماوات السبع التي يذكرها القرآن هو عالم الكواكب فوق الأرض وإن وجهه بعضهم بما يوافق مقتضى الهيئة القديمة أو الجديدة.

قوله تعالى: ﴿وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ حفظا مفعول مطلق لفعل محذوف والتقدير وحفظناها حفظاً من كل شيطان مارد، والمراد بالشيطان الشرير من الجن والمارد الخبيث العاري من الخير.

قوله تعالى: ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أصل «لا يسمعون» لا يتسمعون والتسمع الإصغاء، وهو كناية عن كونهم ممنوعين مدحورين وبهذه العناية صار وصفاً لكل شيطان ولو كان بمعنى الإصغاء صريحاً أفاد لغواً من الفعل إذ لو كانوا لا يصغون لم يكن وجه لقذفهم.

والملأ من الناس الأشراف منهم الذين يملؤن العيون، والملأ الأعلى هم الذين يريد الشياطين التسمّع اليهم وهم الملائكة الكرام الذين هم سكنة السماوات العلى ـ على ما يدل عليه كلامه تعالى كقوله: ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا﴾ (الإسراء / ٩٥).

وقصدهم من التسمع الى الملأ الأعلى الإطلاع على أخبار الغيب المستوردة عن هذا العالم الأرضي كالحوادث المستقبلة والأسرار المكنونة كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون﴾ (الشعراء / ٢١٢)، وقوله حكاية عن الجن: ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً وأنا كنا نقعد مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ (الجن / ٩).

وقوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ﴾ القذف الرمي والجانب الجهة.

قوله تعالى: ﴿دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ﴾ الدحور الطرد والدفع، وهو مصدر بمعنى المفعول منصوب حالا أي مدحورين أو مفعول له أو مفعول مطلق، والواصب الواجب اللازم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ﴾ الخطفة الاختلاس والاستلاب، والشهاب ما يرى في الجو كالكوكب المنقض، والثقوب الركوز وسمي الشهاب ثاقباً لأنه لا يخطيء هدفه وغرضه.

والمراد بالخطفة اختلاس السمع وقد عبر عنه في موضع آخر باستراق السمع قال تعالى: ﴿إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ (الحجر / ١٨)، والاستثناء من ضمير الفاعل في قوله: «لا يسّمّعون» وجوَّز بعضهم كون الاستثناء منقطعاً.

ومعنى الآيات الخمس: إنا زينا السماء التي هي أقرب السماوات منكم ـ أو السماء السفلي بزينة وهي الكواكب، وحفظناها حفظاً من كل شيطان خبيث عار من الخير ممنوعين من الإصغاء الى الملأ الأعلى ـ للإطلاع الى ما يلقون بين أنفسهم من أخبار الغيب ـ ويرمون من كل جهة حال كونهم مطرودين ولهم عذاب لازم لا يفارقهم إلا من اختلس من أخبارهم

الاختلاسة فأتبعه شهاب ثاقب لا يخطىء غرضه[١].

١٢ ● بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ.

١٣ ● وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ.

١٤ ● وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ.

١٥ ● وَقَالُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ.

١٦ ● ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُراباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ.

١٧ ● أَوَ آباؤُنا الأَوَّلُونَ.

١٨ ● قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ.

١٩ ● فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ.

٢٠ ● وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هٰذَا يَوْمُ الدِّينِ.

٢١ ● هٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ.

٢٢ ● أُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ.

٢٣ ● مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَاهْدُوهُمْ إِلىٰ صِرَاطِ الجَحِيمِ.

٢٤ ● وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ.

٢٥ ● مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ.

٢٦ ● بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ.

٢٧ ● وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ.

---

١. الصافات ١ ـ ١١: كلام في معنى الشهب.

٢٨ ❁ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ.

٢٩ ❁ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.

٣٠ ❁ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ.

٣١ ❁ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ.

٣٢ ❁ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ.

٣٣ ❁ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ.

٣٤ ❁ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ.

٣٥ ❁ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ.

٣٦ ❁ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ.

٣٧ ❁ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ.

٣٨ ❁ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

٣٩ ❁ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.

٤٠ ❁ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ.

٤١ ❁ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ.

٤٢ ❁ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ.

٤٣ ❁ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

٤٤ ❁ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ.

٤٥ ❁ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ.

٤٦ ❁ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ.

٤٧ ● لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ.

٤٨ ● وَعِنْدُهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ.

٤٩ ● كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ.

٥٠ ● فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ.

٥١ ● قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ.

٥٢ ● يَقُولُ ءَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ.

٥٣ ● ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَدِينُونَ.

٥٤ ● قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ.

٥٥ ● فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوآءِ الجَحِيمِ.

٥٦ ● قَالَ تَاللّٰهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ.

٥٧ ● وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ.

٥٨ ● أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ.

٥٩ ● إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ.

٦٠ ● إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

٦١ ● لِمِثْلِ هٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ.

٦٢ ● أَذٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ.

٦٣ ● إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ.

٦٤ ● إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحِيمِ.

٦٥ ● طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ.

٦٦ ● فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ.

٦٧ ● ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ.

٦٨ ● ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ.

٦٩ ● إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ.

٧٠ ● فَهُمْ عَلىٰ آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيبهم إياك مع دعوتك إياهم الى كلمة الحق، وهم يسخرون ويهزؤن من تعجبك منهم أو من دعائك إياهم الى الحق، وإذا ذكروا بآيات الله الدالة على التوحيد ودين الحق لا يذكرون ولا يتنبهون.

قوله تعالى: ﴿وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ في مجمع البيان: سخر واستخر بمعنى واحد. انتهى.

والمعنى: وإذا رأوا هؤلاء المشركون اية معجزة من آيات الله المعجزة كالقرآن وشق القمر ويستهزؤن بها.

قوله تعالى: ﴿وَقالُوا إِنْ هٰذا إِلّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ في إشارتهم الى الآية بلفظة هذا إشعار منهم أنهم لا يفقهون منها إلا أنها شيء ما من غير زيادة وهو من أقوى الإهانة والاستسخار.

قوله تعالى: ﴿ءَإِذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ آباؤُنا الْأَوَّلُونَ﴾ إنكار منهم للبعث مبني على الاستبعاد فمن المستبعد عند الوهم أن يموت الإنسان

فيتلاشى بدنه ويعود ترابا وعظاما ثم يعود الى صورته الاولى.

ومن الدليل على أن الكلام مسوق لإفادة الاستبعاد تكرارهم الاستفهام الإنكاري بالنسبة الى آبائهم الأولين فإن استبعاد الوهم لبعثهم وقد انمحت رسومهم ولم يبق منهم إلا أحاديث أشد وأقوى من استبعاده بعثهم أنفسهم.

ولو كان إنكارهم البعث مبنياً على أنهم ينعدمون بالموت فتستحيل إعادتهم كان الحكم فيهم وفي آبائهم على نهج واحد ولم يحتج الى تجديد استفهام بالنسبة الى آبائهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أمر تعالى نبيه ﷺ أن يجيبهم بأنهم مبعوثون.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي صاغرون مهانون أذلاء، وهذا في الحقيقة احتجاج بعموم القدرة ونفوذ الارادة من غير مهلة، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ولذا عقبه بقوله: «فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون» وقد قال تعالى: ﴿ولله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير﴾ (النحل / ٧٧).

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ الخ: الفاء لإفادة التعليل والجملة تعليل لقوله: «وأنتم داخرون» وفي التعبير بزجرة إشعار باستذلالهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ معطوف على قوله: «ينظرون» المشعر بأنهم مبهوتون مدهوشون متفكرون ثم يتنبهون بكونه يوم البعث فيه الدين والجزاء وهم يحذرون منه بما كفروا وكذبوا ولذا قالوا: يوم الدين، ولم يقولوا يوم البعث، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع.

وقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ قيل هو كلام بعضهم لبعض وقيل: كلام الملائكة أو كلامه تعالى لهم، ويؤيده الآية التالية. والفصل هو التمييز بين الشيئين

وسمي يوم الفصل لكونه يوم التميز بين الحق والباطل بقضائه وحكمه تعالى أو التمييز بين المجرمين والمتقين قال تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ (يس / ٥٩).

قوله تعالى: ﴿أُحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَمَا كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَاهْدُوهُمْ إِلىٰ صِراطِ الجَحِيمِ﴾ من كلامه تعالى للملائكة والمعنى وقلنا للملائكة: احشروهم وقيل: هو من كلام الملائكة بعضهم لبعض.

والحشر ـ على ما ذكره الراغب ـ إخراج الجماعة عن مقرّهم وإزعاجهم عنه الى الحرب ونحوها.

والمراد بالذين ظلموا على ما يؤيده آخر الآية المشركون ولا كل المشركين بل المعاندون للحق الصادّون عنه منهم قال تعالى: ﴿فأذّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون﴾ (الأعراف / ٤٥)، والتعبير بالماضي في المقام يفيد فائدة الوصف فليس المراد بالذين ظلموا من تحقق منه ظلم مّا ولو مرة واحدة بل تعريف لهم بحاصل ما اكتسبوا في حياتهم الدنيا كما لو قيل: ماذا فعل فلان في حياته فيقال ظلم، فالفعل يفيد فائدة الوصف، وفي كلامه تعالى من ذلك شيء كثير كقوله تعالى: ﴿وسيق الذين اتقوا إلى الجنة زمرا﴾ (الزمر / ٧٣) وقوله: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا﴾ (الزمر / ٧١) وقوله: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ (يونس / ٢٦).

وقوله: ﴿وَأَزْواجَهُمْ﴾ الظاهر أن المراد به قرناؤهم من الشياطين قال تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين ـ الى أن قال ـ حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ (الزخرف / ٣٨).

وقوله: ﴿وَمَا كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ﴾ الظاهر أن المراد به الأصنام التي يعبدونها نظراً الى ظاهر «ما» فالآية نظيرة قوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب

جهنم ﴾ (الأنبياء / ٩٨).

ويمكن أن يكون المراد بلفظة «ما» ما يعم اولي العقل من المعبودين كالفراعنة والنماردة، وأما الملائكة المعبودون والمسيح ﷺ فيخرجهم من العموم قوله تعالى: ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون ﴾ (الأنبياء / ١٠١).

وقوله: ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ الجحيم من أسماء جهنم في القرآن وهو من الجحمة بمعنى شدة تأجج النار على ما ذكره الراغب.

والمراد بهدايتهم الى صراطها إيصالهم اليه وإيقاعهم فيه بالسوق. وقيل: تسمية ذلك بالهداية من الاستهزاء. وقال في مجمع البيان: إنما عبر عن ذلك بالهداية من حيث كان بدلا من الهداية الى الجنة كقوله: ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ من حيث إن هذه البشارة وقعت لهم بدلا من البشارة بالنعيم. انتهى.

قوله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ قال في المجمع يقال: وقفت أنا ووقفت غيري ـ أي يعدّي ولا يعدى ـ وبعض بني تميم يقول: أوقفت الدابة والدار. انتهى.

فقوله: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ ﴾ أي احبسوهم لأنهم مسؤلون أي حتى يسأل عنهم. والسياق يعطي أن هذا الأمر بالوقوف والسؤال إنما يقع في صراط الجحيم.

فالسؤال عن عدم تناصرهم سؤال عن سبب الاستكبار الذي كانوا عليه في الدنيا فقد تبين به أن المسؤل عنه هو كل حق أعرضوا عنه في الدنيا من اعتقاد حق أو عمل صالح استكباراً على الحق تظاهراً بالتناصر.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ـ الى قوله ـ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ تخاصم واقع بين الأتباع والمتبوعين يوم القيامة، والتعبير عنه بالتساؤل لأنه في معنى سؤال بعضهم بعضاً تلاوماً وتعاتباً يقول التابعون لمتبوعيهم: لم أضللتمونا؟ فيقول

المتبوعون: لم قبلتم منا ولا سلطان لنا عليكم؟

فقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ البعض الأول هم المعترضون والبعض الثاني المعترض عليهم كما يعطيه سياق التساؤل وتساؤلهم تخاصمهم.

وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي من جهة الخير والسعادة فاستعمال اليمين فيها شائع كثير كقوله: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ (الواقعة / ٢٧) والمعنى أنكم كنتم تأتوننا من جهة الخير والسعادة فتقطعون الطريق وتحولون بيننا وبين الخير والسعادة وتضلوننا.

وقيل: المراد باليمين الدين وهو قريب من الوجه السابق، وقيل: المراد باليمين القهر والقوة كما في قوله تعالى: ﴿فراغ عليهم ضربا باليمين﴾ (الصافات / ٩٣) ولا يخلو من وجه نظراً الى جواب المتبوعين.

وقوله: ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ـ الى قوله ـ غَاوِينَ﴾ جواب المتبوعين بتبرئة أنفسهم من إشقاء التابعين وأن جرمهم مستند الى سوء اختيار أنفسهم.

فقالوا: بل لم تكونوا مؤمنين أي لم نكن نحن السبب الموجب لإجرامكم وهلاككم بخلوكم عن الايمان بل لم تكونوا مؤمنين لا أنا جردناكم من الإيمان.

ثم قالوا: «وما كان لنا عليكم سلطان» وهو في معنى الجواب على فرض التسليم كأنه قيل: ولو فرض أنه كان لكم إيمان فما كان لنا عليكم من سلطان حتى نسلبه منكم ونجردكم منه. على أن سلطان المتبوعين إنما هو بالتابعين فهم الذين يعطونهم السلطة والقوة فيتسلطون عليهم أنفسهم.

ثم قالوا: «بل كنتم قوما طاغين» والطغيان هو التجاوز عن الحد وهو إضراب عن قوله: «لم تكونوا مؤمنين» كأنه قيل: ولم يكن سبب هلاككم مجرد الخلو من الإيمان بل كنتم قوما

طاغين كما كنا مستكبرين طاغين فتعاضدنا جميعا على ترك سبيل الرشد واتخاذ سبيل الغي فحق علينا كلمة العذاب التي قضى بها الله سبحانه قال تعالى: ﴿إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآبا﴾ (النبأ / ٢٢) وقال: ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى﴾ (النازعات / ٣٩).

ولهذا المعنى عقّب قوله: «بل كنتم قوما طاغين» بقوله: «فحق علينا قوم ربنا إنا لذائقون» أي لذائقون العذاب.

ثم قالوا: «فأغويناكم إنا كنا غاوين» وهو متفرع على ثبوت كلمة العذاب وآخر الأسباب لهلاكهم فإن الطغيان يستتبع الغواية ثم نار جهنم. قال تعالى لإبليس: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ (الحجر / ٤٣).

فكأنه قيل: فلما تلبستم بالطغيان حل بكم الغواية بأيدينا من غير سلطان لنا عليكم إلا اتباعكم لنا واتصالكم بنا فسرى اليكم ما فينا من الصفة وهي الغواية فالغاوي لا يتأتى منه إلا الغواية والإناء لا يترشح منه إلا ما فيه. وبالجملة إنكم لم تجبروا ولم تسلبوا الاختيار منذ بدأتم في سلوك سبيل الهلاك الى أن وقعتم في ورطته وهي الغواية فحق عليكم القول.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ـ الى قوله ـ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ضمير «فإنهم» للتابعين والمتبوعين فهم مشتركون في العذاب لاشتراكهم في الظلم وتعاونهم على الجرم من غير مزية لبعضهم على بعض.

واستظهر بعضهم أن المغوين أشد عذابا وذلك في مقابلة أوزارهم وأوزار أمثال أوزارهم فالشركة لا تقتضي المساواة والحق أن الآيات مسوقة لبيان اشتراكهم في الظلم والجرم والعذاب اللاحق بهم من قبله. ويمكن مع ذلك أن يلحق بكل من المتبوعين والتابعين ألوان من العذاب ناشئة عن خصوص شأنهم قال تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم﴾

(العنكبوت / ١٣). وقال: ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ (الاعراف / ٣٨).

وقوله: ﴿إنا كذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ تأكيد لتحقيق العذاب، والمراد بالمجرمين المشركون بدليل قوله بعد: «إنهم إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون» أي إذا عرض عليهم التوحيد أن يؤمنوا به أو كلمة الاخلاص أن يقولوها استمروا على استكبارهم ولم يقبلوا.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لَشاعِرٍ مَجْنُونٍ بَلْ جاءَ بِالحَقِّ وَصَدَّقَ المُرْسَلِينَ﴾ قولهم هذا إنكار منهم للرسالة بعد استكبارهم عن التوحيد وانكارهم له. وقوله: «بل جاء بالحق وصدق المرسلين» رد لقولهم: «لشاعر مجنون» حيث رموه ﷺ بالشعر والجنون وفيه رمي لكتاب الله بكونه شعراً ومن هفوات الجنون فرد عليهم بأن ما جاء به حق وفيه تصديق الرسل السابقين فليس بباطل من القول كالشعر وهفوة الجنون وليس ببدع غير مسبوق في معناه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذائِقُوا العَذابِ الأَلِيمِ﴾ تهديد لهم بالعذاب لاستكبارهم ورميهم الحق بالباطل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي لا ظلم فيه لأنه نفس عملكم يرد اليكم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبادَ اللّٰهِ المُخْلَصِينَ ـ الى قوله ـ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ استثناء منقطع من ضمير «لذائقوا» أو من ضمير «ما تجزون» ولكل وجه والمعنى على الأول لكن عباد الله المخلصين أُولئك لهم رزق معلوم وليسوا بذائقي العذاب الأليم والمعنى على الثاني لكن عباد الله المخلصين أُولئك لهم رزق معلم وراء جزاء عملهم وسيجيء الإشارة الى معناه.

واحتمال كون الاستثناء متصلاً ضعيف لا يخلو من تكلف.

وقد سماهم الله سبحانه عباد الله المخلصين فأثبت لهم عبودية نفسه والعبد هو الذي لا يملك

لنفسه شيئاً من إرادة ولا عمل فهؤلاء لا يريدون إلا ما أراده الله ولا يعملون إلا له .

ثم أثبت لهم أنهم مخلصون بفتح اللام أي إن الله تعالى أخلصهم لنفسه فلا يشاركه فيهم أحد فلا تعلق لهم بشيء غيره تعالى من زينة الحياة الدنيا ولا من نعم العقبى وليس في قلوبهم إلا الله سبحانه .

ومن المعلوم أن من كانت هذه صفته كان التذاذه وتنعمه غير ما يلتذ ويتنعم غيره وارتزاقه بغير ما يرتزق به سواه وإن شاركهم في ضروريات المأكل والمشرب ومن هنا يتأيد أن المراد بقوله : « أولئك لهم رزق معلوم » الإشارة الى أن رزقهم في الجنة ـ وهم عباد مخلصون ـ رزق خاص لا يشبه رزق غيرهم و لا يختلط بما يتمتع به من دونهم وإن اشتركا في الاسم .

فقوله : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ أي رزق خاص متعين ممتاز من رزق غيرهم فكونه معلوماً كناية عن امتيازه كما في قوله : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ (الصافات / ١٦٤) والإشارة بلفظ البعيد للدلالة على علو مقامهم .

وأما ما فسره بعضهم أن المراد بكون رزقهم معلوماً كونه معلوم الخصائص مثل كونه غير مقطوع ولا ممنوع حسن المنظر لذيذ الطعم طيب الرائحة ، وكذا ما ذكره آخرون أن المراد أنه معلوم الوقت لقوله : ﴿ لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ (مريم / ٦٢) وكذا قول القائل : إن المراد به الجنة فهي وجوه غير سديدة .

ومن هنا يظهر أن أخذ قوله : « إلا عباد الله المخلصين » استثناء من ضمير « وما تجزون » لا يخلو من وجه كما تقدمت الإشارة اليه .

وقوله : ﴿ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ الفواكه جمع فاكهة وهي ما يتفكه به من الأثمار بيان لرزقهم المعلوم غير أنه تعالى شفّعه بقوله : « وهم مكرمون » للدلالة على امتياز هذا الرزق أعني الفاكهة مما عند غيرهم بأنها مقارنة لإكرام خاص يخصهم قبال

اختصاصهم بالله سبحانه وكونه لهم لا يشاركهم فيه شيء.

وفي إضافة الجنات الى النعيم إشارة الى ذلك فقد تقدم في قوله: ﴿فأُولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ الآية (النساء / ٦٩)، وقوله: ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ (المائدة / ٣) وغيرهما أن حقيقة النعمة هي الولاية وهي كونه تعالى هو القائم بأمر عبده.

وقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ السرر جمع سرير وهو معروف وكونهم متقابلين معناه استئناس بعضهم ببعض واستمتاعهم بنظر بعضهم في وجه بعض من غير أن يرى بعضهم قفا بعض.

وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ الكأس إناء الشرب ونقل عن كثير من اللغويين أن إناء الشراب لا يسمى كأساً إلا وفيه الشراب فإن خلا منه فهو قدح والمعين من الشراب الظاهر منه من عان الماء إذا ظهر وجرى على وجه الأرض، والمراد بكون الكأس من معين صفاء الشراب فيها ولذا عقبه بقوله: «بيضاء».

وقوله: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي صافية في بياضها لذيذة للشاربين فاللذة مصدر أُريد به الوصف مبالغة أو هي مؤنث لذّ بمعنى لذيذ كما قيل.

وقوله: ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ الغول الإضرار والإفساد. قال الراغب: الغول إهلاك الشيء من حيث لا يحس به انتهى. فنفي الغول عن الخمر نفي مضارها والإنزاف فسر بالمسكر المذهب للعقل وأصله إذهاب الشيء تدريجاً.

ومحصل المعنى: أنه ليس فيها مضار الخمر التي في الدنيا ولا اسكارها بإذهاب العقل.

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ وصف للحور التي يرزقونها وقصور طرفهن كناية عن نظرهن نظرة الغنج والدلال ويؤيده ذكر العين بعده وهو جمع عيناء مؤنث أعين وهي الواسعة العين في جمال.

وقيل: المراد بقاصرات الطرف أنهن قصرن طرفهن على أزواجهن لا يردن غيرهم لحبهن

لهم، وبالعين أن أعينهن شديدة في سوادها شديدة في بياضها.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ البيض معروف وهو اسم جنس واحدته بيضة والمكنون هو المستور بالادخار قيل: المراد تشبيههن بالبيض الذي كنه الريش في العش أو غيره في غيره فلم تمسه الأيدي ولم يصبه الغبار، وقيل: المراد تشبيههن ببطن البيض قبل أن يقشّر وقبل أن تمسه الأيدي.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ - الى قوله - فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ حكاية محادثة تقع بين أهل الجنة فيسأل بعضهم عن أحوال بعض ويحدث بعضهم بما جرى عليه في الدنيا وتنتهي المحادثة الى تكليمهم بعض أهل النار وهو في سواء الجحيم.

فقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ضمير الجمع لأهل الجنة من عباد الله المخلصين وتساؤلهم ـ كما تقدم ـ سؤال بعضهم عن بعض وما جرى عليه.

وقوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي قال قائل من أهل الجنة المتسائلين إني كان لي في الدنيا مصاحب يختص بي من الناس. كذا يعطي السياق.

وقيل: المراد بالقرين القرين من الشياطين وفيه أن القرآن إنما يثبت قرناء الشياطين في المعرضين عن ذكر الله والمخلصون في عصمة إلهية من قرين الشياطين وكذا من تأثير الشيطان فيهم كما حكى عن إبليس استثناءهم من الاغواء: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ (ص / ٨٣) نعم ربما أمكن أن يتعرض لهم الشيطان من غير تأثير فيهم لكنه غير أثر القرين.

وقوله: ﴿يَقُولُ ءَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ ضمير «يقول» للقرين، ومفعول «المصدقين» البعث للجزاء وقد قام مقامه قوله: «ءإذا متنا» الخ؛ والمدينون المجزيون.

والمعنى: كان يقول لي قريني مستبعداً منكراً ءإنك لمن المصدقين للبعث للجزاء ءإذا متنا وكنا ترابا وعظاما فتلاشت أبداننا وتغيرت صورها ءإنا لمجزيون بالإحياء والإعادة؟ فهذا مما لا ينبغي أن يصدق.

وقوله: ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ ضمير «قال» للقائل المذكور قبلا، والإطلاع الإشراف والمعنى ثم قال القائل المذكور مخاطباً لمحادثيه من أهل الجنة: هل أنتم مشرفون على النار حتى تروا قريني والحال التي هو فيها؟

وقوله: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ السواء الوسط ومنه سواء الطريق أي وسطه والمعنى فأشرف القائل المذكور على النار فرآه أي قرينه في وسط الجحيم.

وقوله: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ «إن» مخففة من الثقيلة، والإرداء السقوط من مكان عال كالشاهق ويكنى به عن الهلاك والمعنى أقسم بالله إنك قربت أن تهلكني وتسقطني فيما سقطت فيه من الجحيم.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ المراد بالنعمة التوفيق والهداية الإلهية، والإحضار الإشخاص للعذاب قال في مجمع البيان: ولا يستعمل «أحضر» مطلقا إلا في الشر.

والمعنى ولولا توفيق ربي وهدايته لكنت من المحضرين للعذاب مثلك.

وقوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ الاستفهام للتقرير والتعجيب، والمراد بالموتة الاولى هي الموتة عن الحياة الدنيا وأما الموتة عن البرزخ المدلول عليها بقوله: ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ (المؤمن / ١١) فلم يعبأ بها لأن الموت الذي يزعم الزاعم فيه الفناء والبطلان هو الموت الدنيوي.

والمعنى ـ على ما في الكلام من الحذف والإيجاز ـ ثم يرجع القائل المذكور الى نفسه وأصحابه فيقول متعجباً أنحن خالدون منعمون فما نحن بميتين إلا الموتة الأولى وما نحن

بمعذبين ؟

قال في مجمع البيان : ويريدون به التحقيق لا الشك وإنما قالوا هذا القول لأن لهم في ذلك سروراً مجدداً وفرحاً مضاعفاً وإن كان قد عرفوا أنهم سيخلدون في الجنة وهذا كما أن الرجل يعطى المال الكثير فيقول مستعجباً : كل هذا المال لي ؟ وهو يعلم أن ذلك له وهذا كقوله :

أبطحاء مكة هذا الذي أراه عيانا وهـذا أنـا ؟

قال : ولهذا عقبه بقوله : ﴿إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ انتهى .

وقوله : ﴿إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ هو من تمام قول القائل المذكور وفيه إعـظام لموهبة الخلود وارتفاع العذاب وشكر للنعمة .

وقوله : ﴿لِمِثْلِ هٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ ظاهر السياق أنه من قول القائل المذكور والإشارة بهذا الى الفوز أو الثواب أي لمثل هذا الفوز أو الثـواب فـليعمل العـاملون في دار التكليف ، وقيل : هو من قول الله سبحانه وقيل : من قول أهل الجنة .

قوله تعالى : ﴿أَذٰلِكَ خَيْرٌ نُـزُلاً أَمْ شَـجَرَةُ الزَّقُّـومِ ـ الى قـوله ـ يُـهْرَعُونَ ﴾ مقايسة بين ما هيأه الله نزلا لأهل الجنة بما وصفه من الرزق الكريم وبين ما أعده نزلا لأهل النار من شجرة الزقوم التي طلعها كأنه رؤس الشياطين وشراب من حميم .

فقوله : ﴿أَذٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ الإشـارة بـذلك الى الرزق الكـريم المذكورة سابقاً المعد لورود أهل الجنة والنزل بضمتين ما يهيؤ لورود الضيف فيقدم اليـه إذا ورد من الفواكه ونحوها .

والزقوم ـ على ما قيل ـ اسم شجرة صغيرة الورق مرة كريهة الرائحة ذات لبن إذا أصاب جسـد إنسان تورم تكون في تهامة والبـلاد المجـدبة المجـاورة للـصحراء سمـيت بـه الشـجرة الموصوفة بما في الآية من الأوصاف . وقيل : إن قريشاً ما كانت تعرفه وسيأتي ذلك في البحث الروائي .

ولفظة خير في الآية بمعنى الوصف دون التفضيل إذ لا خيرية في الزقوم أصلاً فهو كقوله: ﴿ما عند الله خير من اللهو﴾ (الجمعة / ١١) والآية على ما يعطيه السياق من كلامه تعالى.

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ الضمير لشجرة الزقوم، والفتنة المحنة والعذاب.

وقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ وصف لشجرة الزقوم، وأصل الجحيم قعرها، ولا عجب في نبات شجرة في النار وبقائها فيها فحياة الإنسان وبقاؤها خالداً فيها أعجب والله يفعل ما يشاء.

وقوله: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ الطلع حمل النخلة أو مطلق الشجرة أول ما يبدو، وتشبيه ثمرة الزقوم برؤس الشياطين بعناية أن الأوهام العامية تصور الشيطان في أقبح صورة كما تصور الملك في أحسن صورة وأجملها قال تعالى: ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾ (يوسف / ٣١)، وبذلك يندفع ما قيل: إن الشيء إنما يشبه بما يعرف ولا معرفة لأحد برؤس الشياطين.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ الفاء للتعليل يبين به كونها نزلاً للظالمين يأكلون منها، وفي قوله: «فمالؤن منها البطون» إشارة الى تسلط جوع شديد عليهم يحرصون به على الأكل كيفما كان.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ﴾ الشوب المزيج والخليط، والحميم الماء الحار البالغ في حرارته، والمعنى ثم إن لاولئك الظالمين ـ زيادة عليها ـ لخليطاً مزيجاً من ماء حار بالغ الحرارة يشربونه فيختلط به ما ملؤا منه البطون من الزقوم.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي إنهم بعد شرب الحميم يرجعون الى الجحيم فيستقرون فيها ويعذبون، وفي الآية تلويح الى أن الحميم خارج الجحيم.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ ألفيت كذا

أي وجدته وصادفته. والإهراع الإسراع والمعنى أن سبب أكلهم وشربهم ثم رجوعهم الى الجحيم أنهم صادفوا آباءهم ضالين - وهم مقلدون وأتباع لهم وهم أصلهم ومرجعهم - فهم يسرعون على آثارهم فجوزوا بنزل كذلك والرجوع الى الجحيم جزاء وفاقا[١].

٧١ ● وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ.

٧٢ ● وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ.

٧٣ ● فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ.

٧٤ ● إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ.

٧٥ ● وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ.

٧٦ ● وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ.

٧٧ ● وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ.

٧٨ ● وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ.

٧٩ ● سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ.

٨٠ ● إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.

٨١ ● إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ.

٨٢ ● ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ.

٨٣ ● وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ.

---

١. الصافات ١٢ - ٧٠: بحث روائي في مواقف يوم القيامة؛ اهل الجنّة واهل النار؛ معنى ذبح الموت يوم القيامة بين الجنة والنار.

٨٤ ● إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

٨٥ ● إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ماذا تَعْبُدُونَ.

٨٦ ● أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللّٰهِ تُرِيدُونَ.

٨٧ ● فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ.

٨٨ ● فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ.

٨٩ ● فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ.

٩٠ ● فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ.

٩١ ● فَراغَ إِلىٰ آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ.

٩٢ ● ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ.

٩٣ ● فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ.

٩٤ ● فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ.

٩٥ ● قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ.

٩٦ ● وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ.

٩٧ ● قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ.

٩٨ ● فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ.

٩٩ ● وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ.

١٠٠ ● رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصّالِحِينَ.

١٠١ ● فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ.

١٠٢ ● فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرىٰ فِي الْمَنامِ أَنِّي

أَذبَحُكَ فَانْظُرْ ماذا تَرى قَالَ يا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ.

١٠٣ ● فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ.

١٠٤ ● وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْراهِيمُ.

١٠٥ ● قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.

١٠٦ ● إِنَّ هٰذا لَهُوَ البَلَاءُ المُبِينُ.

١٠٧ ● وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ.

١٠٨ ● وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ.

١٠٩ ● سَلَامٌ عَلىٰ إِبْراهِيمَ.

١١٠ ● كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.

١١١ ● إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ.

١١٢ ● وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ.

١١٣ ● وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلىٰ إِسْحٰقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ ـ الى قوله ـ المُخْلَصِينَ﴾ كلام مسوق لإنذار مشركي هذه الامة بتنظيرهم للامم الهالكين من قبلهم فقد ضل أكثرهم كما ضل هؤلاء وأرسل اليهم رسل منذرون كما أرسل منذر الى هؤلاء فكذبوا فكان عاقبة أمرهم الهلاك إلا المخلصين منهم.

واللام في «لقد ضل» للقسم وكذا في «لقد أرسلنا» والمنذرين الأول بكسر الذال المعجمة وهم الرسل والثاني بفتح الذال المعجمة وهم الامم الأولون، و«إلا عباد الله» إن كان المراد بهم من في الامم من المخلصين كان استثناء متصلا وإن عم الأنبياء كان منقطعا إلا بتغليبه غير الأنبياء عليهم والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ اللامان للقسم وهو يدل على كمال العناية بنداء نوح وإجابته تعالى، وقد مدح تعالى نفسه في إجابته فإن التقدير فلنعم المجيبون نحن، وجمع المجيب لإفادة التعظيم وقد كان نداء نوح ـ على ما يفيده السياق ـ دعاءه على قومه واستغاثته بربه المنقولين في قوله تعالى: ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ (نوح / ٢٦)، وفي قوله تعالى: ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ (القمر / ١٠).

قوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ الكرب ـ على ما ذكره الراغب ـ الغم الشديد والمراد به الطوفان أو أذى قومه، والمراد بأهله أهل بيته والمؤمنون به من قومه وقد قال تعالى في سورة هود: ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ﴾ (هود / ٤٠) والأهل كما يطلق على زوج الرجل وبنيه يطلق على كل من هو من خاصته.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ أي الباقين من الناس بعد قرنهم وقد بحثنا في هذا المعنى في قصة نوح من سورة هود.

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ المراد بالترك الإبقاء وبالآخرين الامم الغابرة غير الأولين، وقد ذكرت هذه الجملة بعد ذكر إبراهيم عليه السلام أيضاً في هذه السورة وقد بدلت في القصة بعينها من سورة الشعراء من قوله: ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ (الشعراء / ٨٤) واستفدنا منه هناك أن المراد بلسان صدق كذلك أن يبعث الله بعده من يقوم

بدعوته ويدعو الى ملته وهي دين التوحيد.

فيتأيد بذلك أن المراد بالإبقاء في الآخرين هو إحياؤه تعالى دعوة نوح عليه السلام الى التوحيد ومجاهدته في سبيل الله عصرا بعد عصر وجيلا بعد جيل الى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ المراد بالعالمين جميعها لكونه جمعا محلى باللام مفيدا للعموم، والظاهر أن المراد به عالموا البشر وامهم وجماعاتهم الى يوم القيامة فإنه تحية من عند الله مباركة طيبة تهدى اليه من قبل الامم الإنسانية ما جرى فيها شيء من الخيرات اعتقاداً أو عملا فانه عليه السلام أول من انتهض لدعوة التوحيد ودحض الشرك وما يتبعه من العمل وقاسى في ذلك أشد المحنة فيما يقرب من ألف سنة لا يشاركه في ذلك أحد فله نصيب من كل خير واقع بينهم الى يوم القيامة، ولا يوجد في كلامه تعالى سلام على هذه السعة على أحد ممن دونه.

وقيل: المراد بالعالمين عوالم الملائكة والثقلين من الجن والإنس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لما امتن عليه من الكرامة كإجابة ندائه وتنجيته وأهله من الكرب العظيم وإبقاء ذريته وتركه عليه في الآخرين والسلام عليه في العالمين، وتشبيه جزائه بجزاء عموم المحسنين من حيث أصل الجزاء الحسن لا في خصوصياته فلا يوجب ذلك اشتراك الجميع فيما اختص به عليه السلام وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليل لإحسانه المدلول عليه بالجملة السابقة وذلك لأنه عليه السلام لكونه عبداً لله بحقيقة معنى الكلمة كان لا يريد ولا يفعل إلا ما يريده الله، ولكونه من المؤمنين حقاً كان لا يرى من الاعتقاد إلا الحق وسرى ذلك الى جميع أركان وجوده ومن كان كذلك لا يصدر منه إلا الحسن الجميل فكان من المحسنين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ ثم للتراخي الكلامي دون الزماني والمراد بالآخرين قومه المشركون.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ الشيعة هم القوم المشايعون لغيرهم الذاهبون على أثرهم وبالجملة كل من وافق غيره في طريقته فهو من شيعته تقدم أو تأخر قال تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل﴾ (سبأ / ٥٤).

وظاهر السياق أن ضمير «شيعته» لنوح أي إن إبراهيم كان ممن يوافقه في دينه وهو دين التوحيد، وقيل: الضمير لمحمد ﷺ ولا دليل عليه من جهة اللفظ.

قيل: ومن حسن الارداف في نظم الآيات تعقيب قصة نوح عليه السلام وهو آدم الثاني أبو البشر بقصة إبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء اليه تنتهي أنساب جل الأنبياء بعده وعلى دينه تعتمد أديان التوحيد الحية اليوم كدين موسى وعيسى ومحمد ﷺ، وأيضاً نوح عليه السلام نجاه الله من الغرق وإبراهيم عليه السلام نجاه الله من الحرق.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مجيئه ربه كناية عن تصديقه له إيمانه به، ويؤيد ذلك أن المراد بسلامة القلب عروه عن كل ما يضر التصديق والايمان بالله سبحانه من الشرك الجلي والخفي ومساوي الأخلاق وآثار المعاصي وأي تعلق بغيره ينجذب اليه الانسان ويختل به صفاء توجهه اليه سبحانه.

وبذلك يظهر أن المراد بالقلب السليم ما لا تعلق له بغيره تعالى كما في الحديث وسيجيء إن شاء الله في البحث الروائي الآتي.

والظرف في الآية متعلق بقوله سابقا: «من شيعته» والظروف يغتفر فيها مالا يغتفر في غيرها، وقيل متعلق باذكر المقدر.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أي أيّ شيء تعبدون؟ وانما سألهم عن معبودهم وهو يرى أنهم يعبدون الأصنام تعجباً واستغرابا.

قوله تعالى: ﴿أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي تقصدون آلهة دون الله افكا وافتراء، انما قدم الافك والآلهة لتعلق عنايته بذلك.

قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ لا شك أن ظاهر الآيتين أن اخباره عليه السلام بأنه سقيم مرتبط بنظرته في النجوم ومبني عليه ونظرته في النجوم اما لتشخيص الساعة وخصوص الوقت كمن به حمى ذاته نوبة يعين وقتها بطلوع كوكب أو غروبها أو وضع خاص من النجوم واما للوقوف على الحوادث المستقبلة التي كان المنجمون يرون أن الأوضاع الفلكية تدل عليها، وقد كان الصابئون مبالغين فيها وكان في عهده عليه السلام منهم جم غفير.

فعلى الوجه الأول لما أراد أهل المدينة أن يخرجوا كافة الى عيد لهم نظر الى النجوم وأخبرهم أنه سقيم ستعتريه العلة فلا يقدر على الخروج معهم.

وعلى الوجه الثاني نظر عليه السلام حينذاك الى النجوم نظرة المنجمين فأخبرهم أنها تدل على أنه سيسقم فليس في وسعه الخروج معهم.

وأول الوجهين أنسب لحاله عليه السلام وهو في إخلاص التوحيد بحيث لا يرى لغيره تعالى تأثيراً، ولا دليل لنا قويا يدل على أنه عليه السلام لم يكن به في تلك الأيام سقم أصلا، وقد أخبر القرآن بإخباره بأنه سقيم وذكر سبحانه قبيل ذلك أنه جاء ربه بقلب سليم فلا يجوز عليه كذب ولا لغو من القول.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ ضمير الجمع للقوم وضمير الإفراد لإبراهيم عليه السلام أي خرجوا من المدينة وخلفوه.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ الروغ والرواغ والروغان الحياد والميل، وقيل أصله الميل في جانب ليخدع من يريده.

وفي قوله: «ألا تأكلون»؟ تأييد لما ذكروا أن المشركين كانوا يضعون أيام أعيادهم طعاماً عند آلهتهم.

وقوله: «ألا تأكلون؟ ما لكم لا تنطقون»؟ تكليم منه لآلهتهم وهي جماد وهو يعلم أنها

جماد لا تأكل ولا تنطق لكن الوجد وشدة الغيظ حمله على أنه يمثل موقفها موقف العقلاء ثم يؤاخذها مؤاخذة العقلاء كما يفعل بالمجرمين.

فنظر اليها وهي ذوات أبدان كهيئة من يتغذى ويأكل وعندها شيء من الطعام فامتلأ غيظا وجاش وجدا فقال: ألا تأكلون؟ فلم يسمع منها جوابا فقال: «ما لكم لا تنطقون»؟ وأنتم آلهة يزعم عبادكم أنكم عقلاء قادرون مدبرون لامورهم فلما لم يسمع لها حساً راغ عليها ضربا باليمين.

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ أي تفرع على ذاك الخطاب أن مال على آلهتهم يضربهم ضربا باليد اليمنى أو بقوة بناء على كون المراد باليمين القوة.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ الزف والزفيف الإسراع في المشي أي فجائوا الى إبراهيم والحال أنهم يسرعون اهتماما بالحادثة التي يظنون أنه الذي أحدثها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيه إيجاز وحذف من حديث القبض عليه والإتيان به على أعين الناس ومسألته وغيرها.

والاستفهام للتوبيخ وفيه مع ذلك احتجاج على بطلان طريقتهم فهو يقول: لا يصلح ما نحته الإنسان بيده أن يكون ربا للإنسان معبوداً له والله سبحانه خلق الإنسان وما يعمله والخلق لا ينفك عن التدبير فهو رب الإنسان ومن السفه أن يترك هذا ويعبد ذاك.

ولا ضير في نسبة الخلق الى ما عمله الإنسان أو الى عمله لأن ما يريده الإنسان ويعمله من طريق اختياره مراد الله سبحانه من طريق إرادة الإنسان واختياره ولا يوجب هذا النوع من تعلق الإرادة بالفعل بطلان تأثير إرادة الإنسان وخروج الفعل عن الاختيار وصيرورته مجبراً عليه، وهو ظاهر.

ولو كان المراد نسبة خلق أعمالهم الى الله سبحانه بلا واسطة لا من طريق إرادتهم بل بتعلق إرادته بنفس عملهم وأفاد الجبر لكان القول أقرب الى أن يكون عذراً لهم من أن يكون

توبيخا وتقبيحا، وكانت الحجة لهم لا عليهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الجَحِيمِ﴾ البنيان مصدر بنى يبني والمراد به المبنى، والجحيم النار في شدة تأججها.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ الكيد الحيلة والمراد احتيالهم الى إهلاكه وإحراقه بالنار.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ كناية عن جعل إبراهيم فوقهم لا يؤثر فيه كيدهم شيئاً إذ قال سبحانه: ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ (الأنبياء / ٦٩).

وقد اختتم بهذا فصل من قصص إبراهيم عليه السلام وهو انتهاضه أولا على عبادة الأوثان واختصامه لعبادها وانتهاء أمره الى إلقائه النار وإبطاله تعالى كيدهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فصل آخر من قصصه عليه السلام يذكر عزمه على المهاجرة من بين قومه واستيهابه من الله ولداً صالحاً وإجابته الى ذلك وقصة ذبحه ونزول الفداء.

فقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ الخ؛ كالإنجاز لما وعدهم به مخاطبا لآزر ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا﴾ (مريم / ٤٨) ومنه يعلم أن مراده بالذهاب الى ربه الذهاب الى مكان يتجرد فيه لعبادته تعالى ودعائه وهو الأرض المقدسة.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حكاية دعاء إبراهيم عليه السلام ومسألته الولد أي قال: رب هب لي، الخ؛ وقد قيده بكونه من الصالحين.

قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ أي فبشرناه أنا سنرزقه غلاما حليما وفيه إشارة الى أنه يكون ذكراً ويبلغ حد الغلمان، وأخذ الغلومة في وصفه مع أنه بلغ مبلغ الرجال للإشارة الى حاله التي يظهر فيها صفة كماله وصفاء ذاته وهو حلمه الذي مكنه من الصبر في

ذات الله إذ قال: «يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين».

ولم يوصف في القرآن من الأنبياء بالحلم إلا هذا النبي الكريم في هذه الآية وأبوه في قوله تعالى: ﴿إن إبراهيم لحليم اواه منيب﴾ (هود / ٧٥).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرىٰ فِي المَنامِ أَنِّي أَذبَحُكَ فَانْظُرْ ماذا تَرَى﴾ الخ: الفاء في أول الآية فصيحة تدل على محذوف والتقدير فلما ولد له ونشأ وبلغ معه السعي، والمراد ببلوغ السعي بلوغه من العمر مبلغا يسعى فيه لحوائج الحياة عادة وهو سن الرهاق، والمعنى فلما راهق الغلام قال له: يا بني، الخ.

وقوله: ﴿قالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرىٰ فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذبَحُكَ﴾ هي رؤيا إبراهيم ذبح ابنه، وقوله: «إني أرى» يدل على تكرر هذه الرؤيا له كما في قوله: ﴿وقال الملك إني أرى﴾ الخ (يوسف / ٤٣).

وقوله: ﴿فَانْظُرْ ماذا تَرَى﴾ هو من الرأي بمعنى الاعتقاد أي فتفكر فيما قلت وعين ما هو رأيك فيه، وهذه الجملة دليل على أن إبراهيم عليه السلام فهم من منامه أنه أمر له بالذبح مثّل له في مثال نتيجة الأمر ولذا طلب من ابنه الرأي فيه وهو يختبره بماذا يجيبه؟

وقوله: ﴿قَالَ يا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ جواب ابنه، وقوله: «يا أبت افعل ما تؤمر» إظهار رضى بالذبح في صورة الأمر وقد قال: افعل ما تؤمر ولم يقل: اذبحني إشارة الى أن أباه مأمور بأمر ليس له إلا ائتماره وطاعته.

وقوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ تطييب منه لنفس أبيه أنه لا يجزع منه ولا يأتي بما يهيج وجد الوالد عن ولده المزمل بدمائه، وقد زاد في كلامه صفاء على صفاء إذ قيد وعده بالصبر بقوله: «إن شاء الله» فأشار الى أن اتصافه بهذه الصفة الكريمة أعني الصبر ليس له من نفسه ولا أن زمامه بيده بل هو من مواهب الله ومننه إن يشأ تلبس به وله أن لا يشاء فينزعه منه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ الإسلام الرضا والاستسلام: والتل الصرع والجبين أحد جانبي الجبهة واللام في «للجبين» لبيان ما وقع عليه الصراع كقوله: ﴿يخرون للأذقان سجداً﴾ (الإسراء / ١٠٧)، والمعنى فلما استسلما إبراهيم وابنه لأمر الله ورضيا به وصرعه إبراهيم على جبينه.

وجواب لما محذوف إيماء الى شدة المصيبة ومرارة الواقعة.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ معطوف على جواب لما المحذوف، وقوله: «قد صدقت الرؤيا» أي أوردتها مورد الصدق وجعلتها صادقة وامتثلت الأمر الذي أمرناك فيها أي إن الأمر فيها كان امتحانياً يكفي في امتثاله تهيؤ المأمور للفعل وإشرافه عليه فحسب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ الإشارة بكذلك الى قصة الذبح بما أنها محنة شاقة وابتلاء شديد والإشارة بهذا اليها أيضاً وهو تعليل لشدة الأمر.

والمعنى: إنا على هذه الوتيرة نجزي المحسنين فنمتحنهم امتحانات شاقة صورة هينة معنى فاذا أتموا الابتلاء جزيناهم أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة، وذلك لأن الذي ابتلينا به إبراهيم هو البلاء المبين.

قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي وفدينا ابنه بذبح عظيم وكان كبشاً أتا به جبريل من عند الله سبحانه فداء على ما في الأخبار، والمراد بعظمة الذبح عظمة شأنه بكونه من عند الله سبحانه وهو الذي فدى به الذبيح.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ تقدم الكلام فيه.

قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ تحية منه تعالى عليه، وفي تنكير سلام تفخيم له.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم

تفسير الآيتين.

قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الضمير لابراهيم عليه السلام.

واعلم أن هذه الآية المتضمنة للبشرى بإسحاق بوقوعها بعد البشرى السابقة بقوله: «فبشرناه بغلام حليم» المتعقبة بقوله: «فلما بلغ معه السعي» الى آخر القصة ظاهرة كالصريحة أو هي صريحة في أن الذبيح غير إسحاق وهو إسماعيل عليه السلام وقد فصلنا القول في ذلك في قصص إبراهيم عليه السلام من سورة الأنعام.

قوله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلىٰ إِسْحٰقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ المباركة على شيء جعل الخير والنماء والثبات فيه أي وجعلنا فيما أعطينا إبراهيم وإسحاق الخير الثابت والنماء.

ويمكن أن يكون قوله: «ومن ذريتهما» الخ؛ قرينة على أن المراد بقوله: «باركنا» إعطاء البركة والكثرة في أولاده وأولاد إسحاق، والباقي ظاهر.

١١٤ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلىٰ مُوسىٰ وَهٰارُونَ.

١١٥ ﴿ وَنَجَّيْنٰاهُمٰا وَقَوْمَهُمٰا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ.

١١٦ ﴿ وَنَصَرْنٰاهُمْ فَكٰانُوا هُمُ الغٰالِبِينَ.

١١٧ ﴿ وَآتَيْنٰاهُمَا الْكِتٰابَ الْمُسْتَبِينَ.

١١٨ ﴿ وَهَدَيْنٰاهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ.

١١٩ ﴿ وَتَرَكْنٰا عَلَيْهِمٰا فِي الْآخِرِينَ.

١٢٠ ﴿ سَلاٰمٌ عَلىٰ مُوسىٰ وَهٰرُونَ.

١٢١ ﴿ إِنّٰا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.

١٢٢ ❁ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ.

١٢٣ ❁ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.

١٢٤ ❁ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ.

١٢٥ ❁ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ.

١٢٦ ❁ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ.

١٢٧ ❁ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ.

١٢٨ ❁ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ.

١٢٩ ❁ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ.

١٣٠ ❁ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ.

١٣١ ❁ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.

١٣٢ ❁ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ المن الإنعام ومن المحتمل أن يكون المراد به ما سيعده مما أنعم عليهما وعلى قومهما من التنجية والنصر وإيتاء الكتاب والهداية وغيرها فيكون قوله: «ونجيناهما» الخ؛ من عطف التفسير.

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الغم الشديد من استضعاف فرعون لهم يسومهم سوء العذاب ويذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ وهو الذي أدى الى خروجهم من مصر وجوازهم البحر وهلاك فرعون وجنوده.

وبذلك يندفع ما توهم أن مقتضى الظاهر أن يذكر النصر قبل التنجية لتوقفها عليه، وذلك أن النصر إنما يكون فيما إذا كان للمنصور قوة مّا لكنها لا تكفي لدفع الشر فتتم بالنصر وكان لبني إسرائيل عند الخروج من مصر بعض القوة فناسب إطلاق النصر على إعانتهم على ذلك بخلاف أصل تخليصهم من يد فرعون فإنهم كانوا أسراء مستعبدين لا قوة لهم فلا يناسب هذا الاعتبار إلا ذكر التنجية دون النصر.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ أي يستبين المجهولات الخفية فيبينها وهي التي يحتاج اليها الناس في دنياهم وآخرتهم.

قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ المراد بها الهداية بتمام معنى الكلمة، ولذا خصها بهما ولم يشرك فيها معهما قومهما، ولقد تقدم كلام في معنى البداية الى الصراط المستقيم في سورة الفاتحة.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ -الى قوله- الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم تفسيرها.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قيل: إنه ﷺ من آل هارون كان مبعوثا الى بعلبك[1] ولم يذكر في كلامه ما يستشهد به عليه.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ -الى قوله- الْأَوَّلِينَ﴾ شطر من دعوته ﷺ يدعو قومه فيها الى التوحيد ويوبخهم على عبادة بعل -صنم كان لهم- وترك عبادة الله سبحانه.

وكلامه ﷺ على ما فيه من التوبيخ واللوم يتضمن حجة تامة على توحيده تعالى فإن قوله: «وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الأولين» يوبخهم أولاً على ترك عبادة

---

١. ولعلهم أخذوه من بعل فقد قيل: أن بعلبك سمي به لأن بعلا كان منصوبا في معبد فيه.

أحسن الخالقين. والخلق والإيجاد كما يتعلق بذوات الأشياء يتعلق بالنظام الجاري فيها الذي يسمى تدبيرا فكما أن الخلق اليه تعالى فالتدبير أيضاً اليه فهو المدبر كما أنه الخالق؛ وأشار الى ذلك بقوله: «الله ربكم» بعد وصفه تعالى بأحسن الخالقين.

ثم أشار الى أن ربوبيته تعالى لا تختص بقوم دون قوم كالأصنام التي يتخذ كل قوم بعضا منها دون بعض فيكون صنم ربا لقوم دون آخرين بل هو تعالى رب لهم ولآبائهم الأولين لا يختص ببعض دون بعض لعموم خلقه وتدبيره، واليه أشار بقوله: «الله ربكم ورب آباؤكم الأولين».

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي مبعوثون ليحضروا العذاب، وقد تقدم أن الاحضار إذا أُطلق أفاد معنى الشر.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ دليل على أنه كان في قومه جمع منهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ـ الى قوله ـ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تقدم الكلام في نظائرها[١].

١٣٣ ❁ وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.

١٣٤ ❁ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ.

١٣٥ ❁ إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ.

١٣٦ ❁ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ.

١٣٧ ❁ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ.

١٣٨ ❁ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

---

١. الصافات ١١٤ـ١٣٢: كلام في قصة الياس عليه السلام (قصته في القرآن، الاحاديث فيه).

١٣٩ ۞ وإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.

١٤٠ ۞ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ.

١٤١ ۞ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ.

١٤٢ ۞ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ.

١٤٣ ۞ فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ.

١٤٤ ۞ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ.

١٤٥ ۞ فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ.

١٤٦ ۞ وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ.

١٤٧ ۞ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ.

١٤٨ ۞ فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلىٰ حِينٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ وإنما نجاه وأهله من العذاب النازل على قومه وهو الخسف وإمطار حجارة من سجيل على ما ذكره الله تعالى في سائر كلامه.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ﴾ أي في الباقين في العذاب المهلكين به وهي امرأة لوط.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ التدمير الاهلاك، والآخرين قومه الذين أُرسل اليهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ فإنهم

على طريق الحجاز الى الشام، والمراد بالمرور عليهم المرور على ديارهم الخربة وهي اليوم مستورة بالماء على ما قيل.

قوله تعالى: ﴿وإنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي السفينة المملوءة من الناس والإباق هرب العبد من مولاه.

والمراد بإباقه الى الفلك خروجه من قومه معرضاً عنهم وهو عليه السلام وإن لم يعص في خروجه ذلك ربه ولا كان هناك نهي من ربه عن الخروج لكن خروجه إذ ذاك كان ممثلاً لإباق العبد من خدمة مولاه فأخذه الله بذلك. وقد تقدم بعض الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه﴾ (الأنبياء / ٨٧).

قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ المساهمة المقارعة والإدحاض الغلبة أي فقارع من في السفينة فكان من المغلوبين، وقد كان عرض لسفينتهم الحوت فاضطروا الى أن يلقوا واحداً منهم في البحر ليبتلعه ويخلي السفينة فقارعوا فأصابت يونس عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ الالتقام الابتلاع، ومليم من ألام أي دخل في اللوم كأحرم إذا دخل في الحرم أو بمعنى صار ذا ملامة.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ عده من المسبحين وهم الذين تكرر منهم التسبيح وتمكن منهم حتى صار وصفاً لهم يدل على دوام تلبسه زماناً بالتسبيح. قيل: أي من المسبحين قبل التقام الحوت إياه، وقيل: بل في بطن الحوت، وقيل: أي كان من المسبحين قبل التقام الحوت وفي بطنه.

والذي حكي من تسبيحه في كلامه تعالى قوله في سورة الأنبياء: ﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ (الأنبياء / ٨٧) ولازم ذلك أن يكون من المسبحين في بطن الحوت خاصة أو فيه وفيما قبله فاحتمال كون المراد تسبيحه قبل التقام

الحوت مرجوح لا ينبغي أن يصار اليه .

على أن تسبيحه مع اعترافه بالظلم في قوله : « سبحانك إني كنت من الظالمين » ـ على ما سيجيء ـ تسبيح له تعالى عما كان يشعر به[١] فعله من ترك قومه وذهابه على وجهه ، وقوله : « فلولا أنه كان من المسبحين » الخ ؛ يدل على أن تسبيحه كان هو السبب المستدعي لنجاته ، ولازم ذلك أن يكون إنما ابتلي بما ابتلي به ليتزهه تعالى فينجو بذلك من الغم الذي ساقه اليه فعله الى ساحة العافية .

وبذلك يظهر أن العناية في الكلام إنما هي بتسبيحه في بطن الحوت خاصة فخير الأقوال الثلاثة أوسطها .

فالظاهر أن المراد بتسبيحه نداؤه في الظلمات بقوله : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » وقد قدم التهليل ليكون كالعلة المبينة لتسبيحه كأنه يقول : لا معبود بالحق يتوجه اليه غيرك فأنت منزه مما كان يشعر به فعلي أني آبق منك معرض عن عبوديتك متوجه الى سواك اني كنت ظالماً لنفسي في فعلي فها أنا متوجه اليك متبرىء مما كان يشعر به فعلي من التوجه عنك الى غيرك .

فهذا معنى تسبيحه ولولا ذلك منه لم ينج أبداً إذ كان سبب نجاته منحصراً في التسبيح والتنزيه بالمعنى الذي ذكر .

وبذلك يظهر أن المراد بقوله : « للبث في بطنه الى يوم يبعثون » تأبيد مكثه في بطنه الى أن يبعث فيخرج منه كالقبر الذي يقبر فيه الانسان ويلبث فيه حتى يبعث فيخرج منه قال تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أُخرى ﴾ (طه / ٥٥).

ولا دلالة في الآية على كونه عليه السلام على تقدير اللبث حياً في بطن الحوت الى يوم يبعثون أو

---

١. وهو أن الله لا يقدر عليه كما قال تعالى : « وظن أن لن نقدر عليه ».

ميتاً وبطنه قبره مع بقاء بدنه وبقاء جسد الحوت على حالها أو بنحو آخر فلا مساغ لاختلافهم في كونه ﷺ حياً على هذا التقدير أو ميتاً وبطنه قبره، وأن المراد بيوم يبعثون النفخة الاولى التي فيها يموت الخلائق أو النفخة الثانية أو التأجيل بيوم القيامة كناية عن طول اللبث.

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ النبذ طرح الشيء والرمي به، والعراء المكان الذي لا سترة فيه يستظل بها من سقف أو خباء أو شجر.

والمعنى على ما يعطيه السياق أنه صار من المسبحين فأخرجناه من بطن الحوت وطرحناه خارج الماء في أرض لا ظل فيها يستظل به وهو سقيم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ اليقطين من نوع القرع ويكون ورقه عريضاً مستديراً وقد أنبتها الله عليه ليستظل بورقها.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْناهُ إِلىٰ مائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أو في مورد الترقي وتفيد معنى بل، والمراد بهذه الجماعة أهل نينوى.

قوله تعالى: ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلىٰ حِينٍ﴾ أي آمنوا به فلم نعذبهم ولم نهلكهم بما أشرف عليهم من العذاب فمتعناهم بالحياة والبقاء الى أجلهم المقدر لهم.

والآية في إشعارها برفع العذاب عنهم وتمتيعهم تشير الى قوله تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ (يونس / ٩٨).

ولا يخلو السياق من إشعار ـ بل دلالة ـ على أن المراد من إرساله في قوله: «فأرسلناه» أمره بالذهاب ثانياً الى القوم، وبإيمانهم في قوله: «فآمنوا» الخ: إيمانهم بتصديقه واتباعه بعدما

آمنوا وتابوا حين رأوا العذاب[١].

١٤٩ ◉ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ.

١٥٠ ◉ أَمْ خَلَقْنَا المَلٰئِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ.

١٥١ ◉ أَلاٰ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ.

١٥٢ ◉ وَلَدَ اللّٰهُ وَإِنَّهُمْ لَكاٰذِبُونَ.

١٥٣ ◉ أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ.

١٥٤ ◉ مَا لَكُمْ كَيْفَ تحَكُمُوُنَ.

١٥٥ ◉ أَفَلا تَذَكَّرُونَ.

١٥٦ ◉ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ.

١٥٧ ◉ فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

١٥٨ ◉ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ.

١٥٩ ◉ سُبْحانَ اللّٰهِ عَمَّا يَصِفُونَ.

١٦٠ ◉ إِلَّا عِبادَ اللّٰهِ الْمُخْلَصِينَ.

١٦١ ◉ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ.

١٦٢ ◉ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ.

---

١. الصافات ١٣٣ ـ ١٤٨: كلام في قصة يونس عليه السلام في فصول (تعرض الى قصته في القرآن الكريم. قصته عند اهل الكتاب. ثناؤه تعالى عليه).

١٦٣ ❁ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ.

١٦٤ ❁ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ.

١٦٥ ❁ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ.

١٦٦ ❁ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ.

١٦٧ ❁ وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ.

١٦٨ ❁ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ.

١٦٩ ❁ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ.

١٧٠ ❁ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.

١٧١ ❁ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ.

١٧٢ ❁ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ.

١٧٣ ❁ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغالِبُونَ.

١٧٤ ❁ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ.

١٧٥ ❁ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ.

١٧٦ ❁ أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ.

١٧٧ ❁ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ.

١٧٨ ❁ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ.

١٧٩ ❁ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ.

١٨٠ ❁ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ.

١٨١ ❁ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ.

١٨٢ ● وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ حلل سبحانه قولهم: إن الملائكة بنات الله الى ما يستلزمه من اللوازم وهي أن الملائكة أولاده، وأنهم بنات، وأنه تعالى خص نفسه بالبنات وهم مخصوصون بالبنين ثم رد هذه اللوازم واحداً بعد واحد فرد قولهم: إن له البنات ولهم البنين بقوله: «فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون» وهو استفهام إنكاري لقولهم بما يلزمه من تفضيلهم على الله لما أنهم يفضلون البنين على البنات ويتنزهون منهن ويئدونهن.

قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلٰئِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أم منقطعة أي بل أخلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون يشهدون خلقهم ولم يكونوا شاهدين خلقهم ولا لهم أن يدّعوا ذلك، والذكورة والانوثة مما لا يثبت إلا بنوع من الحس، وهذا رد لقولهم بانوثة الملائكة.

قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ رد لقولهم بالولادة بأنه من الإفك أي صرف القول عن وجهه الى غير وجهه أي من الحق الى الباطل فيوجهون خلقهم بما يعدونه ولادة ويعبّرون عنه بها فهم آفكون كاذبون.

قوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ كرر الإنكار على اصطفاء البنات من بين لوازم قولهم لشدة شناعته.

ثم وبخهم بقوله: «ما لكم كيف تحكمون» لكون قولهم حكماً من غير دليل ثم عقبه بقوله: «أفلا تذكّرون» توبيخاً وإشارة الى أن قولهم ذلك ـ فضلاً عن كونه مما لا دليل عليه ـ الدليل على خلافه ولو تذكّروا لانكشف لهم فقد تنزهت ساحته تعالى عن أن يتجزى فيلد أو يحتاج فيتخذ ولداً، وقد احتج عليهم بذلك في مواضع من كلامه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أم منقطعة والمراد بالسلطان وهو البرهان كتاب نازل من عند الله سبحانه يخبر فيه أن الملائكة بناته على ما يعطيه السياق إذ لما لم يثبت بعقل أو حس بقي أن يثبت بكتاب من عند الله نازل بالوحي فلو كانت دعواهم حقة وهم صادقون فيها كان لهم أن يأتوا بالكتاب.

وإضافة الكتاب اليهم بعناية فرضه دالاً على دعواهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ جعل النسب بينه وبين الجنة قولهم: إن الجنة أولاده وقد تقدم تفصيل قولهم في تفسير سورة هود في الكلام على عبادة الأصنام.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي للحساب أو للنار على ما يفيده إطلاق «لمحضرون» وكيف كان فهم يعلمون أنهم مربوبون لله سيحاسبهم ويجازيهم بما عملوا فبينهم وبين الله سبحانه نسبة الربوبية والعبودية لا نسب الولادة ومن كان كذلك لا يستحق العبادة.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ضمير «يصفون» ـ نظراً الى اتصال الآية بما قبلها ـ راجع الى الكفار المذكورين قبل، والاستثناء منه منقطع والمعنى هو منزه عن وصفهم ـ أو عما يصفه الكفار به من الأوصاف كالولادة والنسب والشركة ونحوها ـ لكن عباد الله المخلصين يصفونه تعالى وصفاً يليق به ـ أو بما يليق به من الأوصاف ـ.

وللآيتين باستقلالهما معنى أوسع من ذلك وأدق وهو رجوع ضمير «يصفون» الى الناس، والوصف مطلق يشمل كل ما يصفه به واصف، والاستثناء متصل والمعنى هو منزه عن كل ما يصفه الواصفون إلا عباد الله المخلصين.

وذلك أنهم إنما يصفونه بمفاهيم محدودة عندهم وهو سبحانه غير محدود لا يحيط به حد ولا

يدركه نعت فكلما وصف به فهو أجل منه وكل ما توهم أنه هو فهو غيره لكن له سبحانه عباد أخلصهم لنفسه وخصهم بنفسه لا يشاركه فيهم أحد غيره فعرفهم نفسه وأنساهم غيره يعرفونه ويعرفون غيره به فإذا وصفوه في نفوسهم وصفوه بما يليق بساحة كبريائه وإذا وصفوه بألسنتهم ـ والألفاظ قاصرة والمعاني محدودة ـ اعترفوا بقصور البيان وأقروا بكلال اللسان كما قال النبي ﷺ وهو سيد المخلصين: لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك[١] فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ تفريع على حكم المستثنى والمستثنى منه أو المستثنى خاصة. والمعنى لما كان ما وصفتموه ضلالا ـ وعباد الله المخلصون لا يضلون في وصفهم ـ فلستم بمضلين به إلا سالكي سبيل النار.

والظاهر من السياق أن «ما» في «ما تعبدون» موصولة والمراد بها الأصنام فحسب أو الأصنام وآلهة الضلال كشياطين الجن، و«ما» في «ما أنتم» نافية، وضمير «عليه» لله سبحانه والظرف متعلق بفاتنين. وفاتنين اسم فاعل من الفتنة بمعنى الإضلال و«صالي» من الصلو بمعنى الاتباع فصالي الجحيم هو المتبع للجحيم السالك سبيل النار، والاستثناء مفرغ تقديره ما أنتم بفاتنين أحداً إلا من هو صال الجحيم.

والمعنى فإنكم وآلهة الضلال التي تعبدونها لستم جميعاً بمضلين أحداً على الله إلا من هو متبع الجحيم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ الآيات الثلاث ـ على ما يعطيه السياق ـ اعتراض من كلام جبريل أو هو

---

١. فقد أثنى على الله وتمم نقصه بأنه يريد ما يريده الله من الثناء على نفسه.

وأعوانه من ملائكة الوحي نظير قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ﴾ الخ (مريم / ٦٤).

والآيات الثلاث مسوقة لرد قولهم بألوهية الملائكة بإيراد نفس اعترافهم بما ينتفي به قول الكفار وهم لا ينفون العبودية عن الملائكة بل يرون أنهم مربوبون لله سبحانه أرباب وآلهة لمن دونهم يستقلون بالتصرف فيما فوض اليهم من أمر العالم من غير أن يرتبط شيء من هذا التدبير الى الله سبحانه وهذا هو الذي ينفيه الملائكة عن أنفسهم لاكونهم أسبابا متوسطة بينه تعالى وبين خلقه كما قال تعالى: ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ (الأنبياء / ٢٧).

فقوله: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ أي معين مشخص أُقيم فيه ليس له أن يتعداه بأن يفوض اليه أمر فيستقل فيه بل مجبول على طاعة الله فيما يأمر به وعبادته.

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ أي نصفّ عند الله في انتظار أوامره في تدبير العالم لنجريها على ما يريد. كما قال تعالى: ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ هذا ما يفيده السياق، وربما قيل: إن المراد إنا نصفّ للصلاة عند الله وهو بعيد من الفهم لا شاهد عليه.

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ أي المنزهون له تعالى عما لا يليق بساحة كبريائه كما قال تعالى: ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ (الأنبياء / ٢٠).

فالآيات الثلاث تصف موقف الملائكة في الخلقة وعملهم المناسب لخلقتهم وهو الاصطفاف لتلقي أمره تعالى والتنزيه لساحة كبريائه عن الشريك وكل ما لا يليق بكمال ذاته المتعالية.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ رجوع الى السياق السابق.

والضمير في قوله: «وإن كانوا ليقولون» لقريش ومن يتلوهم، و«إن» مخففة من الثقيلة، والمراد بذكر من الأولين كتاب سماوي من جنس الكتب النازلة على الأولين.

والمعنى لو أن عندنا كتاباً سماوياً من جنس الكتب النازلة قبلنا على الأولين لاهتدينا وكنا عباد الله المخلصين يريدون أنهم معذورون لو كفروا لعدم قيام الحجة عليهم من قبل الله سبحانه.

وهذا في الحقيقة هفوة منهم فإن مذهب الوثنية يحيل النبوة والرسالة ونزول الكتاب السماوي.

قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الفاء فصيحة، والمعنى فأنزلنا عليهم الذكر وهو القرآن الكريم فكفروا به ولم يفوا بما قالوا فسوف يعلمون وبال كفرهم وهذا تهديد منه تعالى لهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ كلمته تعالى لهم قوله الذي قاله فيهم وهو حكمه وقضاؤه في حقهم وسبق الكلمة تقدمها عهداً أو تقدمها بالنفوذ والغلبة واللام تفيد معنى النفع أي إنا قضينا قضاء محتوماً فيهم أنهم لهم المنصورون وقد أكد الكلام بوجوه من التأكيد.

وقد أُطلق النصر من غير تقييده بدنيا أو آخرة أو بنحو آخر بل القرينة على خلافه قال تعالى: ﴿انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ (المؤمن / ٥١).

فالرسل عليهم السلام منصورون في الحجة لأنهم على الحق والحق غير مغلوب.

وهم منصورون على أعدائهم اما بإظهارهم عليهم واما بالانتقام منهم قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك الا رجالاً نوحي اليهم من أهل القرى ـ الى أن قال ـ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾

(يوسف / ١١٠).

وهم منصورون في الآخرة كما قال تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ (التحريم / ٨)، وقد تقدم آنفاً آية في سورة المؤمن في هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الجند هو المجتمع الغليظ ولذا يقال للعسكر جند فهو قريب المعنى من الحزب[1] وقد قال تعالى في موضع آخر من كلامه: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ (المائدة / ٥٦).

والمراد بقوله: «جندنا» هو المجتمع المؤتمر بأمره المجاهد في سبيله وهم المؤمنون خاصة أو الأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين وفي الكلام على التقدير الثاني تعميم بعد التخصيص، وكيف كان فالمؤمنون منصورون كمتبوعيهم من الأنبياء قال تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران / ١٣٩) وقد مر بعض الآيات الدالة عليه آنفاً.

والحكم أعني النصر والغلبة حكم اجتماعي منوط على العنوان لا غير أي إن الرسل وهم عباد أرسلهم الله والمؤمنون وهم جند لله يعملون بأمره ويجاهدون في سبيله ما داموا على هذا النعت منصورون غالبون، وأما اذا لم يبق من الايمان الا اسمه ومن الانتساب الا حديثه فلا ينبغي أن يرجي نصر ولا غلبة.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ تفريع على حديث النصر والغلبة ففيه وعد للنبي ﷺ بالنصر والغلبة وايعاد للمشركين ولقريش خاصة.

والأمر بالإعراض عنهم ثم جعله مغيا بقوله: «حتى حين» يلوح الى أن الأمد غير بعيد وكان كذلك فهاجر النبي ﷺ بعد قليل وأباد الله صناديد قريش في غزوة بدر وغيرها.

---

١ - قال تعالى: «اذ جاءتكم جنود» الاحزاب: ٩. وقال فيهم بعينهم: «ولما رأى المؤمنون الاحزاب» الاحزاب: ٢٢.

قوله تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ الأمر بالإبصار والإخبار بـإبصارهم عاجلا وعطف الكلام على الأمر بالتولي معجلا يفيد بحسب القياس أن المعنى أنظرهم وأبصر ما هم عليه من الجحود والعناد قبال انذارك وتخويفك فسوف يبصرون وبال جحودهم واستكبارهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ توبيخ لهم لاستعجالهم وقولهم: متى هذا الوعد؟ متى هذا الفتح؟ وإيذان بأن هذا العذاب مما لا ينبغي أن يستعجل لأنه يعقب يوماً بئيساً وصباحا مشؤما.

ونزول العذاب بساحتهم كناية عن نزوله بهم على نحو الشمول والإحاطة، وقوله: «فساء صباح المنذرين» أي بئس صباحهم صباحا. والمنذرون هم المشركون من قريش.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد لما مر بتكرار الآيتين على ما قيل، واحتمل بعضهم أن يكون المراد بما تقدم التهديد بعذاب الدنيا وبهذا، التهديد بعذاب الآخرة. ولا يخلو من وجه فإن الواقع في الآية «وأبصر» من غير مفعول كما في الآية السابقة من قوله: «وأبصرهم» والحذف يشعر بالعموم وأن المراد إبصار ما عليه عامة الناس من الكفر والفسوق ويناسبه التهديد بعذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيه له تعالى عما يصفه به الكفار المخالفون لدعوة النبي ﷺ مما تقدم ذكره في السورة.

والدليل عليه إضافة التنزيه الى قوله: «ربك» أي الرب الذي تعبده وتدعو اليه، وإضافة الرب ثانيا الى العزة المفيد لاختصاصه تعالى بالعزة فهو منيع الجانب على الإطلاق فلا يذله مذل ولا يغلبه غالب ولا يفوته هارب فالمشركون أعداء الحق المهددون بالعذاب ليسوا له بمعجزين.

قوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ تسليم على عامة المرسلين وصون لهم من أن

يصيبهم من قبله تعالى ما يسوؤهم ويكرهونه.

قوله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تقدم الكلام فيه في تفسير سورة الفاتحة.

سورة ص مكية وهي ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● صٓ وَٱلقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ.

٢ ● بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ.

٣ ● كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ.

٤ ● وَعَجِبُوا أَنْ جَآءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ.

٥ ● أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ.

٦ ● وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ.

٧ ● مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ.

٨ ● ءَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ.

٩ ❁ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ.

١٠ ❁ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ.

١١ ❁ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ.

١٢ ❁ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ.

١٣ ❁ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْئَيْكَةِ أُولٰئِكَ الْأَحْزَابُ.

١٤ ❁ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ.

١٥ ❁ وَمَا يَنْظُرُ هٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ.

١٦ ❁ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ.

بيان:

يدور الكلام في السورة حول كون النبي ﷺ منذراً بالذكر النازل عليه من عند الله سبحانه الداعي الى التوحيد وإخلاص العبودية له تعالى.

فتبدء بذكر اعتزاز الكفار وشقاقهم وبالجملة استكبارهم عن اتباعه والايمان به وصد الناس عنه وتفوههم بباطل القول في ذلك ورده في فصل.

ثم تأمل النبي ﷺ بالصبر وذكر قصص عباده الأولين في فصل ثم يذكر مآل حال المتقيم والطاغين في فصل. ثم تأمر النبي ﷺ بإبلاغ نذارته ودعوته الى توحيد الله وأن مآل اتباع الشيطان الى النار على ما قضى به الله يوم أمر الملائكة بالسجدة لآدم فأبى إبليس فرجمه وقضى عليه وعلى من تبعه النار. في فصل.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ المراد بالذكر ذكر الله تعالى بتوحيده وما يتفرع عليه من المعارف الحقة من المعاد والنبوة وغيرهما، والعزة الامتناع، والشقاق المخالفة، قال في مجمع البيان: وأصله أن يصير كل من الفريقين في شق أي في جانب ومنه يقال: شق فلان العصا إذا خالف انتهى.

والمستفاد من سياق الآيات أن قوله: «والقرآن ذي الذكر» قسم نظير ما في قوله: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ ﴿قٓ والقرآن المجيد﴾ ﴿نٓ والقلم﴾ لا عطف على ما تقدمه، وأما المقسم عليه فالذي يدل عليه الإضراب في قوله: «بل الذين كفروا في عزة وشقاق أنه أمر يمتنع عن قبوله القوم ويكفرون به عزة وشقاقا وقد هلك فيه قرون كثيرة ثم ذكر إنذار النبي ﷺ وما قاله الكفار عليه وما أمرهم به ملؤهم حول إنذاره ﷺ أنه أعني المقسم عليه نحو من قولنا: إنك لمن المنذرين. ويشهد على ذلك أيضاً التعرض في السورة بإنذاره ﷺ بالذكر مرة بعد اخرى.

والمعنى ـ والله أعلم ـ اقسم بالقرآن المتضمن للذكر ـ إنك لمن المنذرين ـ بل الذين كفروا في امتناع عن قبوله واتباعه ومخالفة له.

قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ القرن أهل عصر واحد، والمناص بالنون مصدر ناص ينوص أي تأخر كما أنه بالباء الموحدة بمعنى التقدم على ما في المجمع وقيل: هو بمعنى الفرار.

والمعنى: كثيراً ما أهلكنا من قبل هؤلاء الكفار من قرن وامة بتكذيبهم الرسل المنذرين فنادوا عند نزول العذاب بالويل كقولهم: يا ويلنا إنا كنا ظالمين أو بالاستغاثة بالله سبحانه وليس الحين حين تأخر الأخذ والعذاب أو ليس الحين حين فرار.

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي تعجبوا من مجيء منذر من نوعهم بأن كان بشرا فإن الوثنية تنكر رسالة

البشر.

وقوله: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يشيرون بهذا الى النبي ﷺ يرمونه بالسحر لكونهم عاجزين عن الإتيان بمثل ما أتى به وهو القرآن، وبالكذب لزعمهم أنه يفتري على الله بنسبة القرآن وما فيه من المعارف الحقة اليه تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً واحِداً إِنَّ هَـذا لَشَـيْءٌ عُـجَابٌ﴾ العجاب بتخفيف الجيم اسم مبالغة من العجب وهو بتشديد الجيم أبلغ.

وهو من تتمة قول الكافرين والاستفهام للتعجيب والجعل بمعنى التصيير وهو كما قيل تصيير بحسب القول والاعتقاد والدعوى لا بحسب الواقع كما في قوله تعالى: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا﴾ (الزخرف / ١٩) فمعنى جعله ﷺ الآلهة إلها واحدا هو إبطاله الوهية الآلهة من دون الله وحكمه بأن الإله هو الله لا إله إلا هو.

قوله تعالى: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ نسبة الانطلاق الى ملإهم وأشرافهم وقولهم ما قالوا يلوح الى أن اشراف قريش اجتمعوا على النبي ﷺ ليحلوا مشكلة دعوته الى التوحيد ورفض الآلهة بنوع من الاستمالة وكلموه في ذلك فما وافقهم في شيء منه ثم انطلقوا وقال بعضهم لبعض أو قالوا لأتباعهم أن امشوا واصبروا، الخ؛ وهذا يؤيد ما ورد في أسباب النزول مما سيجيء في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

وقوله: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ بتقدير القول أي قائلين أن امشوا واصبروا على آلهتكم ولا تتركوا عبادتها وإن عابها وقدح فيها، وظاهر السياق أن القول قول بعضهم لبعض، ويمكن أن يكون قولهم لتبعتهم.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ ظاهره أنه إشارة الى ما يدعو اليه النبي ﷺ ويطلبه وأن مطلوبه شيء يراد بالطبع وهو السيادة والرئاسة وإنما جعل الدعوة ذريعة اليه فهو نظير

قول الملإ من قوم نوح لعامتهم: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ (المؤمنون / ٢٤).

قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أرادوا بالملة الآخرة المذهب الذي تداوله الآخرون من الامم المعاصرين لهم أو المقارنين لعصرهم قبال الملل الاولى التي تداولتها الأولون كأنهم يقولون: ليس هذا من الملة الآخرة التي يرتضيها أهل الدنيا اليوم بل من أساطير الأولين.

وقيل: المراد بالملة الآخرة النصرانية لأنها آخر الملل وهم لا يقولون بالتوحيد بل التثليث. وضعفه ظاهر إذ لم يكن للنصرانية وقع عندهم كالإسلام.

وقوله: ﴿إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي كذب وافتعال.

قوله تعالى: ﴿ءَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ استفهام إنكاري بداعي التكذيب أي لا مرجح عند محمد ﷺ يترجح به علينا فينزل عليه الذكر دوننا فهو في إنكار الاختصاص بنزول الذكر نظير قولهم: ما أنت إلا بشر مثلنا في نفي الاختصاص بالرسالة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ إضراب عن جميع ما قالوه أي إنهم لم يقولوا عن إيمان واعتقاد به بل هم في شك من ذكري وهو القرآن.

وليس شكهم فيه من جهة خفاء دلالة آية النبوة وقصورها عن إفادة اليقين بل تعلق قلوبهم بما عندهم من الباطل ولزومهم التقليد يصرفهم عن النظر في دلالة الآية الإلهية المعجزة فشكوا في الذكر والحال أنه آية معجزة.

وقوله: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ إضراب عن الإضراب أي ليس إنكارهم وعدم إيمانهم به عن شك منهم فيه بل لأنهم لعتوهم واستكبارهم لا يعترفون بحقيته ولو لم يكن شك، حتى يذوقوا عذابي فيضطروا الى الاعتراف كما فعل غيرهم.

وفي قوله: «لما يذوقوا عذاب» أي لم يذوقوا بعد عذابي، تهديد بعذاب واقع.

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ الكلام في موقع الإضراب و«أم» منقطعة والكلام ناظر الى قولهم: «ما أنزل عليه الذكر من بيننا» أي بل أعندهم خزائن رحمة ربك التي ينفق منها على من يشاء حتى يمنعوك منها بل هي له تعالى وهو أعلم حيث يجعل رسالته ويخص برحمته من يشاء.

وتذييل الكلام بقوله: «العزيز الوهاب» لتأييد محصل الجملة أي ليس عندهم شيء من خزائن رحمته لأنه عزيز منيع جانبه لا يداخل في أمره أحد، ولا لهم أن يصرفوا رحمته عن أحد لأنه وهاب كثير الهبات.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ «أم» منقطعة، والأمر في قوله: «ليرتقوا» للتعجيز والارتقاء الصعود، والأسباب المعارج والمناهج التي يتوسل بها الى الصعود الى السماوات ويمكن أن يراد بارتقاء لأسباب التسبب بالعلل والحيل الذي يحصل به لهم المنع والصرف.

والمعنى: بل أنهم ملك السماوات والأرض فيكون لهم أن يتصرفوا فيها فيمنعوا نزول الوحي السماوي الى بشر أرضي فإن كان كذلك فليصعدوا معارج السماوات أو فليتسببوا الأسباب وليمنعوا من نزول الوحي عليك.

قوله تعالى: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ الهزيمة الخذلان و«من» الأحزاب» بيان لقوله: «جندما» و«ما» للتقليل والتحقير، والكلام مسوق لتحقير أمرهم رغما لما يشعر به ظاهر كلامهم من التعزز والإعجاب بأنفسهم.

يدل على ذلك تنكير «جند» وتتميمه بلفظة «ما» والإشارة الى مكانتهم بهنالك الدال على البعيد وعدهم من الأحزاب المتحزبين على الرسل الذين قطع الله دابر الماضين منهم كما سيذكر ولذلك عد هذا الجند مهزوما قبل انهزامهم.

والمعنى: هم جندما أقلاء أذلاء منهزمون هنالك من اولئك الأحزاب المتحزبين على

الرسل الذين كذبوهم فحق عليهم عقابي.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ـ الى قوله ـ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ ذو الأوتاد وصف فرعون والأوتاد جمع وتد وهو معروف. قيل: سمي بذي الأوتاد لانه كانت له ملاعب من أوتاد يلعب له عليها. وقيل: لأنه كان يعذب من غضب عليه من المجرمين بالأوتاد يوتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض فيعذبه وقيل: معناه ذو الجنود أوتاد الملك، وقيل: غير ذلك من الوجود، ولا دليل على شيء منها يعول عليه.

وأصحاب الأيكة قوم شعيب وقد تقدم في سورة الحجر والشعراء، وقوله: «فحق عقاب» أي ثبت في حقهم واستقر فيهم عقابي فأهلكتهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ النظر الانتظار والفواق الرجوع والمهلة اليسيرة، والمعنى وما ينتظر هؤلاء المكذبون من امتك إلا صيحة واحدة تقضي عليهم وتهلكهم مالها من رجوع أو مهلة وهي عذاب الاستئصال.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ القط النصيب والحظ، وهذه الكلمة استعجال منهم للعذاب قبل يوم القيامة استهزاء بحديث يوم الحساب والوعيد بالعذاب فيه[1].

١٧ ❁ اِصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ.

١٨ ❁ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ.

١٩ ❁ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ.

٢٠ ❁ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ.

---

١. ص ١ ـ ١٦: بحث روائي في مباحثة قريش ورسول الله: الصلاة.

٢١ ۞ وَهَلْ أَتٰيكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرٰابَ.

٢٢ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلىٰ دٰاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قٰالُوا لاٰ تَخَفْ خَصْمٰانِ
بَغىٰ بَعْضُنٰا عَلىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنٰا بِالْحَقِّ وَلاٰ تُشْطِطْ
وَاهْدِنٰا إِلىٰ سَوٰاءِ الصِّرٰاطِ.

٢٣ ۞ إِنَّ هٰذٰا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقٰالَ
أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطٰابِ.

٢٤ ۞ قٰالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤٰالِ نَعْجَتِكَ إِلىٰ نِعٰاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ
الْخُلَطٰاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ إِلاّٰ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصّٰالِحاتِ وَقَلِيلٌ مٰا هُمْ وَظَنَّ دٰاوُودُ أَنَّما فَتَنّٰاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ
وَخَرَّ رٰاكِعاً وَأَنٰابَ.

٢٥ ۞ فَغَفَرْنٰا لَهُ ذٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ.

٢٦ ۞ يٰا دٰاوُودُ إِنّٰا جَعَلْنٰاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّٰاسِ
بِالْحَقِّ وَلاٰ تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ إِنَّ الَّذِينَ
يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا نَسُوا يَوْمَ
الْحِسٰابِ.

٢٧ ۞ وَمٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَالْأَرْضَ وَمٰا بَيْنَهُمٰا بٰاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّٰارِ.

٢٨ ۞ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي
الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّٰارِ.

٢٩ ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ الأيد القوة وكان ﷺ ذا قوة في تسبيحه تعالى يسبح ويسبح معه الجبال والطير وذا قوة في ملكه وذا قوة في علمه وذا قوة وبطش في الحروب وقد قتل جالوت الملك كما قصه الله في سورة البقرة.

والأواب اسم مبالغة من الأوب بمعنى الرجوع والمراد به كثرة رجوعه الى ربه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ الظاهر أن «معه» متعلق بقوله: «يسبحن» وجملة «معه يسبحن» بيان لمعنى التسخير وقدم الظرف لتعلق العناية بتبعيتها لداد واقتدائها به في التسبيح لكن قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ (الأنبياء / ٧٩) يؤيد تعلق الظرف بسخرنا، وقد وقع في موضع آخر من كلامه تعالى: ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾ (سبأ / ١٠) والعشي والإشراق الرواح والصباح.

وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا﴾ الخ: «ان» فيه للتعليل والآية وما عطف عليها من الآيات بيان لكونه ﷺ ذا ايد في تسبيحه وملكه وعلمه وكونه أوابا الى ربه.

قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ المحشورة من الحشر بمعنى الجمع بإزعاج أي وسخرنا معه الطير مجموعة له تسبح معه.

وقوله: «كل له أواب» استئناف يقرر ما تقدمه من تسبيح الجبال والطير أي كل من الجبال والطير أواب أي كثير الرجوع الينا بالتسبيح فإن التسبيح من مصاديق الرجوع اليه

تعالى. ويحتمل رجوع ضمير «له» الى داود على بعد.

ولم يكن تأييد داود ﷺ في أصل جعله تعالى للجبال والطير تسبيحا فإن كل شيء مسبح لله سبحانه قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (الإسراء / ٤٤) بل في موافقة تسبيحها لتسبيحه وقرع تبسيحها أسماع الناس وقد تقدم كلام في معنى تسبيح الأشياء لله سبحانه في تفسير قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ الآية؛ وأنه بلسان الحال.

قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال الراغب: الشد العقد القوي يقال: شددت الشيء قويت عقده. انتهى فشد الملك من الاستعارة بالكناية والمراد به تقوية الملك وتحكيم أساسه بالهيبة والجنود والخزائن وحسن التدبير وسائر ما يتقوى به الملك.

والحكمة في الأصل بناء نوع من الحكم والمراد بها المعارف الحقة المتقنة التي تنفع الإنسان وتكمله، وقيل: المراد النبوة، وقيل الزبور وعلم الشرائع، وقيل غير ذلك وهي وجوه ردية.

وفصل الخطاب تفكيك الكلام الحاصل من مخاطبة واحد لغيره وتميز حقه من باطله وينطبق على القضاء بين المتخاصمين في خصامهم.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ الخصم مصدر كالخصومة اريد به القوم الذي استقر فيهم الخصومة، والتسور الارتقاء الى أعلى السور وهو الحائط الرفيع كالتسنم بمعنى الارتقاء الى سنام البعير والتذري بمعنى الارتقاء الى ذروة الجبل، وقد فسر المحراب بالغرفة والعلية، والاستفهام والتشويق الى استماع الخبر.

والمعنى هل أتاك يا محمد خبر القوم المتخاصمين إذ علوا سور المحراب محراب داود ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ الى آخر الآية: لفظة «إن» هذه

ظرف لقوله: «تسوروا» كما أن «إذ» الاولى ظرف لقوله: «نبؤ الخصم» ومحصل المعنى أنهم دخلوا على داود وهو في محرابه لا من الطريق العادي بل بتسوره بالإرتقاء الى سوره والورود عليه منه ولذا فزع منهم لما رآهم دخلوا عليه من غير الطريق العادي وبغير إذن.

وقوله: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ قال الراغب: الفزع انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع ولا يقال: فزعت من الله كما يقال: خفت منه. انتهى.

وقد تقدم أن الخشية تأثير القلب بحيث يستتبع الاضطراب والقلق وهي رذيلة مذمومة إلا الخشية من الله سبحانه ولذا كان الأنبياء عليهم السلام لا يخشون غيره قال تعالى: ﴿ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ (الأحزاب / ٣٩).

وأن الخوف هو التأثير عن المكروه في مقام العمل بتهيئة ما يتحرز من الشر ويدفع به المكروه لا في مقام الإدراك فليس برذيلة مذمومة لذاته بل هو حسن فيما يحسن الاتقاء قال تعالى خطابا لرسوله: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾ (الأنفال / ٥٨).

وإذا كان الفزع هو الانقباض والنفار الحاصل من الشيء المخوف كان أمراً راجعا الى مقام العمل دون الإدراك فلم يكن رذيلة بذاته بل كان فضيلة عند تحقق مكروه ينبغي التحرز منه فلا ضير في نسبته الى داود عليه السلام في قوله: «ففزع منهم» وهو من الأنبياء الذين لا يخشون إلا الله.

وقوله: ﴿قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لما رأوا ما عليه داود عليه السلام من الفزع أرادوا تطييب نفسه وإسكان روعه فقالوا: «لا تخف» وهو نهي عن الفزع بالنهي عن سببه الذي هو الخوف «خصمان بغى» الخ؛ أي نحن خصمان أي فريقان متخاصمان تجاوز بعضنا ظلما على بعض.

وقوله: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ﴾ الخ؛ الشطط الجور أي فاحكم بيننا حكما مصاحبا للحق ولا تجر في حكمك ودلنا على الوسط العدل من الطريق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هٰذٰا أَخِي﴾ الى آخر الآية بيان لخصومتهم وقوله: «إن هذا أخي» كلام لواحد من أحد الفريقين يشير الى آخر من الفريق الآخر بأن هذا أخي له» الخ.

وقوله: ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقٰالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الخِطٰابِ﴾ النعجة الانثى من الضأن. و«أكفلنيها» أي اجعلها في كفالتي وتحت سلطتي و«عزني في الخطاب» أي غلبني فيه والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قٰالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤٰالِ نَعْجَتِكَ إِلىٰ نِعٰاجِهِ ـ الى قوله ـ وَقَلِيلٌ مٰا هُمْ﴾ جواب داود ﷺ. ولعله قضاء تقديري قبل استماع كلام المتخاصم الآخر فإن من الجائز أن يكون عنده من القول ما يكشف عن كونه محقا فيما يطلبه ويقترحه على صاحبه لكن صاحب النعمجة الواحدة ألقى كلامه بوجه هيج الرحمة والعطوفة منه ﷺ فبادر الى هذا التصديق التقديري فقال: «لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه».

فاللام للقسم. والسؤال ـ على ما قيل ـ مضمن معنى الإضافة ولذا عدي الى المفعول الثاني بإلى. والمعنى اقسم لقد ظلمك بسؤال إضافة نعجتك الى نعاجه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطٰاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ وَقَلِيلٌ مٰا هُمْ﴾ من تمام كلام داود ﷺ يقرر به كلامه الأول والخلطاء الشركاء المخالطون.

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دٰاوُدُ أَنَّمٰا فَتَنّٰاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رٰاكِعاً وَأَنٰابَ﴾ أي علم داود أنما فتناه بهذه الواقعة إي أنها إنما كانت فتنة فتناه بها والفتنة الامتحان. وقيل: ظن بمعناه المعروف الذي هو خلاف اليقين وذكر استغفاره وتوبته مطلقين يؤيد ما قدمناه ولو كان الظن بمعناه المعروف كان الاستغفار والتوبة على تقدير كونها فتنة واقعاً وإطلاق اللفظ يدفعه.
والخر على ما ذكره الراغب سقوط يسمع منه خرير والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو. والركوع ـ على ما ذكره ـ مطلق الانحناء.

والإنابة الى الله ـ على ما ذكره الراغب ـ الرجوع اليه بالتوبة وإخلاص العمل وهي من النوب بمعنى رجوع الشيء مرة بعد أُخرى.

والمعنى: وعلم داود أن هذه الواقعة إنما كانت امتحاناً امتحناه وأنه أخطأ فاستغفر ربه ـ مما وقع منه ـ وخر منحنياً وتاب اليه.

وأكثر المفسرين تبعاً للروايات على أن هؤلاء الخصم الداخلين على داود ﷺ كانوا ملائكة أرسلهم الله سبحانه اليه ليمتحنه وستعرف حال الروايات.

لكن خصوصيات القصة كتسورهم المحراب ودخولهم عليه دخولاً غير عادي بحيث أفزعوه، وكذا تنبهه بأنه إنما كان فتنة من الله له لا واقعة عادية. وقوله تعالى بعد: «فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى» الظاهر في أن الله ابتلاه بما ابتلى لينبهه ويسدده في خلافته وحكمه بين الناس، كل ذلك يؤيد كونهم من الملائكة وقد تمثلوا له في صورة رجال من الإنس.

وعلى هذا فالواقعة تمثل فيه الملائكة في صورة متخاصمين لأحدهما نعجة واحدة يسألها آخر له تسع وتسعون نعجة وسألوه القضاء فقال لصاحب النعجة الواحدة: «لقد ظلمك» الخ؛ وكان قوله ﷺ ـ لو كان قضاء منجّزاً ـ حكماً منه في ظرف التمثل كما لو كان رآهم فيما يرى النائم فقال لهم ما قال وحكم فيهم بما حكم ومن المعلوم أن لا تكليف في ظرف التمثل كما لا تكليف في عالم الرؤيا وإنما التكليف في عالمنا المشهود وهو عالم المادة ولم تقع الواقعة فيه ولا كان هناك متخاصمان ولا نعجة ولا نعاج إلا في ظرف التمثل فكانت خطيئة داود ﷺ في هذا الظرف من التمثل ولا تكليف هناك كخطيئة آدم ﷺ في الجنة من أكل الشجرة قبل الهبوط الى الأرض وتشريع الشرائع وجعل التكاليف، واستغفاره وتوبته مما صدر منه كاستغفار آدم وتوبته مما صدر منه وقد صرح الله بخلافته في كلامه كما صرح بخلافة آدم ﷺ في كلامه وقد مر توضيح ذلك في قصة آدم ﷺ من سورة البقرة في الجزء الأول من الكتاب.

وأما على قول بعض المفسرين من أن المتخاصمين الداخلين عليه كانوا بشراً والقصة على ظاهرها فينبغي أن يؤخذ قوله: «لقد ظلمك» الخ: قضاء تقديرياً أي إنك مظلوم لو لم يأت خصيمك بحجة بينة. وإنما ذلك للحفظ على ما قامت عليه الحجة من طريق العقل والنقل أن الأنبياء معصومون بعصمة من الله لا يجوز عليهم كبيرة ولا صغيرة.

على أن الله سبحانه صرح قبلاً بأنه آتاه الحكمة وفصل الخطاب ولا يلائم ذلك خطأه في القضاء.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ الزلفة والزلفى المنزلة والحظوة. والمآب المرجع. وتنكير «زلفى» و«مآب» للتفخيم. والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ الى آخر الآية الظاهر أن الكلام بتقدير القول والتقدير فغفرنا له ذلك وقلنا يا داود، الخ.

وظاهر الخلافة إنها خلافة الله فتنطبق على ما في قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (البقرة / ٣٠) ومن شأن الخلافة أن يحاكي الخليفة من استخلفه في صفاته وأعماله فعلى خليفة الله في الأرض أن يتخلق بأخلاق الله ويريد ويفعل ما يريده الله ويحكم ويقضي بما يقضي به الله ـ والله يقضي بالحق ـ ويسلك سبيل الله ولا يتعداها.

ولذلك فرّع على جعل خلافته قوله: «فاحكم بين الناس بالحق» وهذا يؤيد أن المراد بجعل خلافته إخراجها من القوة الى الفعل في حقه لا مجرد الخلافة الشأنية لأن الله أكمله في صفاته وآتاه الملك يحكم بين الناس.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ العطف والمقابلة بينه وبين ما قبله يعطيان أن المعنى ولا تتبع في قضائك الهوى هوى النفس فيضلك عن الحق الذي هو سبيل لله فتفيد الآية أن سبيل الله هو الحق.

قال بعضهم: إن في أمره ﷺ بالحكم بالحق ونهيه عن اتباع الهوى تنبيهاً لغيره ممن يلي

امور الناس أن يحكم بينهم بالحق ولا يتبع الباطل وإلا فهو ﷺ من حيث إنه معصوم لا يحكم إلا بالحق ولا يتبع الباطل.

وفيه أن أمر تنبيه غيره بما وجه اليه من التكليف في محله لكن عصمة المعصوم وعدم حكمه إلا بالحق لا يمنع توجه التكليف بالأمر والنهي اليه فإن العصمة لا توجب سلب اختياره وما دام اختياره باقياً جاز بل وجب توجه التكليف اليه كما يتوجه الى غيره من النـاس، ولولا توجه التكليف الى المعصوم لم يتحقق بالنسبة اليه واجب ومحرم ولم تتميز طاعة من معصية فلغى معنى العصمة التي هي المصونية عن المعصية.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ تعليل للنهي عن اتباع الهوى بأنه يلازم نسيان يوم الحساب وفي نسيانه عذاب شديد والمراد بنسيانه عدم الاعتناء بأمره.

وفي الآية دلالة على أن كل ضلال عن سبيل الله سبحانه بمعصية من المعاصي لا ينفك عن نسيان يوم الحساب.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾ الى آخر الآية، لما انتهى الكلام الى ذكر يوم الحساب عطف عنان البيان عليه فاحتج عليه بحجتين إحداهما ما ساقه في هذه الآية بقوله: «وما خلقنا السماء» الخ؛ وهو احتجاج من طريق الغايات إذ لو لم يكن خلق السماء والأرض وما بينهما ـ وهي أُمور مخلوقة مؤجلة توجد وتفنى ـ مؤدياً الى غاية ثابتة باقية غير مؤجلة كان باطلاً والباطل بمعنى ما لا غاية له ممتنع التحقق في الأعيان. على أنه مستحيل من الحكيم ولا ريب في حكمته تعالى.

وربما أُطلق الباطل وأُريد به اللعب ولو كان المراد ذلك كانت الآية في معنى قوله: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق﴾ (الدخان / ٣٩).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي خلق العالم

باطلاً لا غاية له وانتفاء يوم الحساب الذي يظهر فيه ما ينتجه حساب الامور ظن الذين كفروا بالمعاد فويل لهم من عذاب النار .

قوله تعالى : ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ هذه هي الحجة الثانية على المعاد وتقريرها أن للإنسان كسائر الأنواع كمالاً بالضرورة وكمال الإنسان هو خروجه في جانبي العلم والعمل من القوة الى الفعل بأن يعتقد الاعتقادات الحقة ويعمل الأعمال الصالحة اللتين يهديه اليهما فطرته الصحيحة وهما الايمان بالحق والعمل الصالح اللذين بهما يصلح المجتمع الإنساني الذي في الأرض .

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم المتقون هم الكاملون من الإنسان والمفسدون في الأرض بفساد اعتقادهم وعملهم وهم الفجار هم الناقصون الخاسرون في إنسانيتهم حقيقة ، ومقتضى هذا الكمال والنقص أن يكون بإزاء الكمال حياة سعيدة وعيش طيب وبإزاء خلافه خلاف ذلك .

ومن المعلوم أن هذه الحياة الدنيا التي يشتركان فيها هي تحت سيطرة الأسباب والعوامل المادية ونسبتها الى الكامل والناقص والمؤمن والكافر على السواء فمن أجاد العمل ووافقته الأسباب المادية فاز بطيب العيش ومن كان على خلاف ذلك لزمه الشقاء وضنك المعيشة .

فلو كانت الحياة مقصورة على هذه الحياة الدنيوية التي نسبتها الى الفريقين على السواء ولم تكن هناك حياة تختص بكل منهما وتناسب حاله كان ذلك منافياً للعناية الإلهية بإيصال كل ذي حق حقه وإعطاء المقتضيات ما تقتضيه .

وإن شئت فقل: تسوية[1] بين الفريقين وإلغاء ما يقتضيه صلاح هذا وفساد ذلك خلاف عدله تعالى.

والآية ـ كما ترى ـ لا تنفي استواء حال المؤمن والكافر وإنما قررت المقابلة بين من آمن وعمل صالحاً وبين من لم يكن كذلك سواء كان غير مؤمن أو مؤمناً غير صالح ولذا أتت بالمقابلة ثانياً بين المتقين والفجار.

قوله تعالى: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أي هذا كتاب من وصفه كذا وكذا. وتوصيفه بالإنزال المشعر بالدفعة دون التنزيل الدال على التدريج لأن ما ذكر من التدبر والتذكر يناسب اعتباره مجموعاً لا نجوماً مفرقة.

والمقابلة بين «ليدبروا» و«ليتذكر أُولوا الألباب» تفيد أن المراد بضمير الجمع الناس عامة.

والمعنى: هذا كتاب أنزلناه اليك كثير الخيرات والبركات للعامة والخاصة ليتدبره الناس فيهتدوا به أو تتم لهم الحجة وليتذكر به أُولو الألباب فيهتدوا الى الحق باستحضار حجته وتلقيها من بيانه[2][3].

٣٠ ● وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّابٌ.

٣١ ● إِذ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصافِناتُ الْجِيادُ.

---

١. الحجة الاولى برهانية والثانية جدلية.

٢. ص ١٧ ـ ٢٩: بحث روائي في نبأ داود ﷺ والمتخاصمين.

٣. ص ١٧ ـ ٢٩: كلام في قصص داود في فصول (قصته في القرآن. جميل الثناء عليه في القرآن).

٣٢ ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ.

٣٣ ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ.

٣٤ ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ.

٣٥ ﴿ قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.

٣٦ ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ.

٣٧ ﴿ وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ.

٣٨ ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ.

٣٩ ﴿ هٰذَا عَطَاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

٤٠ ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي وهبناه له ولداً والباقي ظاهر مما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصافِنَاتُ الْجِيادُ ﴾ العشي مقابل الغداة وهو آخر النهار بعد الزوال. والصافنات على ما في المجمع جمع الصافنة من الخيل وهي التي تقوم على ثلاث قوائم وترفع إحدى يديها حتى تكون على طرف الحافر. قال: والجياد جمع جواد والياء ههنا منقلبة عن واو والأصل جِواد وهي السراع من الخيل كأنتها تجود بالركض. انتهى.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ الضمير لسليمان. والمراد بالخير: الخيل ـ على ما قيل ـ فإن العرب تسمي الخيل خيراً وعن النبي ﷺ الخير معقود بنواصي الخيل الى يوم القيامة.

وقيل: المراد بالخير المال الكثير وقد استعمل بهذا المعنى في مواضع من كلامه تعالى كقوله: ﴿إن ترك خيراً﴾ (البقرة / ١٨٠).

وقوله: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ قالوا: إن «أحببت» مضمن معنى الإيثار و«عن» بمعنى على. والمراد إني آثرت حب الخيل عن ذكر ربي وهو الصلاة محباً إياه أو أحببت الخيل حباً مؤثراً إياه على ذكر ربي ـ فاشتغلت بما عرض علي من الخيل عن الصلاة حتى غربت الشمس.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ الضمير على ما قالوا للشمس والمراد بتواريها بالحجاب غروبها واستتارها تحت حجاب الافق، ويؤيد هذا المعنى ذكر العشي في الآية السابقة إذ لولا ذلك لم يكن غرض ظاهر يترتب على ذكر العشي.

فحصل معنى الآية أني شغلني حب الخيل ـ حين عرض الخيل علي ـ عن الصلاة حتى فات وقتها بغروب الشمس. وإنما كان يحب الخيل في الله ليتهيأ به للجهاد في سبيل الله فكان الحضور للعرض عبادة منه فشغلته عبادة عن عبادة غير أنه يعد الصلاة أهم.

قوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ قيل: الضمير في «ردوها» للشمس وهو امر منه للملائكة برد الشمس ليصلي صلاته في وقتها، وقوله: «فطفق مسحاً بالسوق والأعناق» أي شرع يمسح ساقيه وعنقه ويأمر أصحابه أن يمسحوا سوقهم وأعناقهم وكان ذلك وضوءهم ثم صلى وصلوا. وقد ورد ذلك في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾

الجسد هو الجسم الذي لا روح فيه.

قيل: المراد بالجسد الملقى على كرسيه هو سليمان نفسه لمرض امتحنه الله به وتقدير الكلام ألقيناه على كرسيه جسداً أي كجسد لا روح فيه من شدة المرض.

وفيه أن حذف الضمير من «ألقيناه» وإخراج الكلام على صورته التي في الآية الظاهرة في أن الملقى هو الجسد مخل بالمعنى المقصود لا يجوز حمل أفصح الكلام عليه.

ولسائر المفسرين أقوال مختلفة في المراد من الآية تبعاً للروايات المختلفة الواردة فيها والذي يمكن أن يؤخذ من بينها إجمالاً أنه كان جسد صبي له أماته الله وألقى جسده على كرسيه، ولقوله: «ثم أناب قال رب اغفر لي» إشعار أو دلالة على أنه كان له ﷺ فيه رجاء أو امنية في الله فأماته الله سبحانه وألقاه على كرسيه فنبهه أن يفوض الأمر الى الله ويسلم له.

قوله تعالى: ﴿قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ظاهر السياق أن الاستغفار مرتبطة بما في الآية السابقة من إلقاء الجسد على كرسيه، والفصل لكون الكلام في محل الدخل كأنه لما قيل «ثم أناب» قيل: فماذا قال؟ فقيل: «قال رب اغفر لي» الخ.

قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ متفرع على سؤاله الملك وإخباره عن إجابة دعوته وبيان الملك الذي لا ينبغي لأحد غيره وهو تسخير الريح والجن.

والرخاء بالضم اللينة والظاهر أن المراد بكون الريح تجري بأمره رخاء مطاوعتها لأمره وسهولة جريانها على ما يريده ﷺ فلا يرد أن توصيف الريح ههنا بالرخاء يناقض توصيفه في قوله: ﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره﴾ (الأنبياء / ٨١) بكونها عاصفة.

وربما أُجيب عنه بأن من الجائز أن يجعلها الله رخوة تارة وعاصفة اخرى حسب ما أراد سليمان ﷺ.

وقوله: ﴿حَيْثُ أَصابَ﴾ أي حيث شاء سليمان عليه السلام وقصد وهو متعلق بتجري.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنّاءٍ وَغَوّاصٍ﴾ أي وسخرنا له الشياطين من الجن كل بناء منهم يبني له في البر وكل غواص يعمل له في البحر فيستخرج اللئالي وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ الأصفاد جمع صفد وهو الغل من الحديد، والمعنى سخرنا له آخرين منهم مجموعين في الأغلال مشدودين بالسلاسل.

قوله تعالى: ﴿هٰذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ أي هذا الذي ذكر من الملك عطاؤنا لك بغير حساب والظاهر أن المراد بكونه بغير حساب أنه لا ينفد بالعطاء والمن ولذا قيل «فامنن أو أمسك» أي أنهما يستويان في عدم التأثير فيه.

وقيل: المراد بغير حساب أنك لا تحاسب عليه يوم القيامة. وقيل: المراد أن إعطاءه تفضل لا مجازاة وقيل غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ تقدم معناه[١].

٤١ ۞ وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ.

٤٢ ۞ اُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ.

٤٣ ۞ وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنّا وَذِكْرىٰ لِأُولِي الْأَلْبابِ.

٤٤ ۞ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّابٌ.

---

١. ص ٣٠ ـ ٤٠: بحث روائي في قصة سليمان عليه السلام ورد الشمس.

٤٥ ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ.

٤٦ ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ.

٤٧ ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ.

٤٨ ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ دعاء منه عليه السلام وسؤال للعافية وأن يكشف عنه ربه ما أصابه من سوء الحال، ولم يصرح بما يريده ويسأله تواضعاً وتذللاً غير أن نداءه تعالى بلفظ ربي يشعر بأنه يناديه لحاجة.

والنصب التعب، وقوله: «إذ نادى» الخ؛ بدل اشتمال من «عبدنا» أو «أيوب» وقوله: «أني مسني» الخ: حكاية ندائه.

والظاهر من الآيات التالية أن مراده من النصب والعذاب ما أصابه من سوء الحال في بدنه وأهله وهو الذي ذكره عنه عليه السلام في سورة الأنبياء من ندائه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين بناء على شمول الضر مصيبته في نفسه وأهله ولم يشر في هذه السورة ولا في سورة الأنبياء الى ذهاب ماله وإن وقع ذكر المال في الروايات.

والظاهر أن المراد من مس الشيطان له بالنصب والعذاب استناد نصبه وعذابه الى الشيطان بنحو من السببية والتأثير وهو الذي يظهر من الروايات. ولا ينافي استناد المرض ونحوه الى الشيطان استناده أيضاً الى بعض الأسباب العادية الطبيعية لأن السببين ليسا عرضيين

متدافعين بل أحدهما في طول الآخر وقد أوضحنا ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء﴾ (الأعراف / ٩٦).

ولا دليل يدل على امتناع وقوع هذا النوع من التأثير للشيطان في الانسان وقد قال تعالى: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾ (المائدة / ٩٠) فنسبها أنفسها أليه. وقال حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين﴾ (القصص / ١٥) يشير الى الاقتتال.

ولو أُغمض عن الروايات أمكن أن يحتمل أن يكون المراد بانتساب ذلك الى الشيطان إغراؤه الناس بوسوسته أن يتجنبوا من الاقتراب منه وابتعادهم وطعنهم فيه أن لو كان نبياً لم تحط به البلية من كل جانب ولم يصر الى ما صار اليه من العاقبة السوآى وشماتتهم واستهزاؤهم به.

وقد أنكر في الكشاف ما تقدم من الوجه قائلاً: لا يجوز أن يسلط الله الشيطان على أنبيائه عليهم السلام ليقضي من تعذيبهم وإتعابهم وطرد ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب. انتهى.

وفيه أن الذي يخص الأنبياء وأهل العصمة أنهم لمكان عصمتهم في أمن من تأثير الشيطان في نفوسهم بالوسوسة، وأما تأثيره في أبدانهم وسائر ما ينسب اليهم بإيذاء أوإتعاب أو نحو ذلك من غير إضلال فلا دليل يدل على امتناعه. وقد حكى الله سبحانه عن فتى موسى وهو يوشع النبي عليه السلام: ﴿فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ (الكهف / ٦٣).

ولا يلزم من تسلطه على نبي بالايذاء والإتعاب لمصلحة تقتضيه كظهور صبره في الله سبحانه وأوبته اليه أن يقدر على ما يشاء فيمن يشاء من عباد الله تعالى إلا أن يشاء الله ذلك وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿أُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذٰا مُغْتَسَلٌ بٰارِدٌ وَشَرٰابٌ﴾ وقوع الآية عقيب نداءه ومسألته يعطي أنه إيذان باستجابة دعائه وأن قوله تعالى: «اركض برجلك» الخ؛ حكاية لما اوحي اليه عند الكشف عن الاستجابة أو هو بإضمار القول والتقدير فاستجبنا له وقلنا: اركض. الخ؛ وسياق الأمر مشعر بل كاشف عن أنه كان لا يقدر على القيام والمشي بقدميه وكان مصاباً في سائر بدنه فأبرء الله ما في رجليه من ضر وأظهر له عيناً هناك وأمره أن يغتسل منها ويشرب حتى يبرء ظاهر بدنه وباطنه ويتأيد بذلك ما سيأتي من الرواية.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنٰا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنّٰا وَذِكْرىٰ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ﴾ ورد في الرواية أنه ابتلي فيما ابتلي بموت جميع أهله إلا امرأته وأن الله أحياهم له ووهبهم له ومثلهم معهم. وقيل: إنهم كانوا قد تفرقوا عنه أيام ابتلائه فجمعهم الله اليه بعد برئه وتناسلوا فكانوا مثلي ما كانوا عدداً.

وقوله: «رحمة منا وذكرى لاولي الألباب» مفعول له أي فعلنا به ما فعلنا ليكون رحمة منا وذكرى لاولي الألباب يتذكرون به.

قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلاٰ تَحْنَثْ إِنّٰا وَجَدْنٰاهُ صٰابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ﴾ في المجمع: الضغث ملء الكف من الشجرة والحشيش والشماريخ ونحو ذلك انتهى. وكان عليه السلام قد حلف لئن عوفي أن يجلد امرأته مائة جلدة لأمر أنكره عليه على ما سيأتي من الرواية فلما عافاه الله تعالى أمره أن يأخذ بيده ضغثاً بعدد ما حلف عليه من الجلدات فيضربها به ولا يحنث.

وفي سياق الآية تلويح الى ذلك وإنما طوي ذكر المرءة وسبب الحلف تأدباً ورعاية لجانبه.

وقوله: ﴿إِنّٰا وَجَدْنٰاهُ صٰابِراً﴾ أي فيما ابتليناه به من المرض وذهاب الأهل والمال، والجملة تعليل لقوله: «واذكر» أو لقوله: «عبدنا» أي لتسميته عبداً وإضافته اليه تعالى، والأول أولى.

وقوله: «نعم العبد إنه أواب» مدح له عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ مدحهم بتوصيفهم بأن لهم الأيدي والأبصار ويد الإنسان وبصره إنما يمدحان إذا كانا يد إنسان وبصر إنسان واستعملا فيما خلقا له وخدما الإنسان في إنسانيته فتكتسب اليد صالح العمل ويجري منها الخير على الخلق ويميز البصر طرق العافية والسلامة من موارد الهلكة ويصيب الحق ولا يلتبس عليه الباطل.

فيكون كونهم اولي الأيدي والأبصار كناية عن قوتهم في الطاعة وإيصال الخير وتبصرهم في إصابة الحق في الاعتقاد والعمل وقد جمع المعنيين في قوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ (الأنبياء / ٧٣) فجعلهم أئمة والأمر والوحي لأبصارهم وفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة لأيديهم[١] واليه يؤل ما في الرواية من تفسير ذلك باولي القوة في العبادة والبصر فيها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ الخالصة وصف قائم مقام موصوفه، والباء للسببية والتقدير بسبب خصلة خالصة، وذكر الدار بيان للخصلة والدار هي الدار الآخرة.

والآية أعني قوله: «إنا أخلصناهم» الخ؛ لتعليل ما في الآية السابقة من قوله: «أولي الأيدي والأبصار» أو لقوله: «عبادنا» أو لقوله: «واذكر» وأوجه الوجوه أولها، وذلك لأن استغراق الإنسان في ذكرى الدار الآخرة وجوار رب العالمين وركوز همه فيها يلازم كمال معرفته في جنب الله تعالى وإصابة نظره في حق الاعتقاد والتبصر في سلوك سبيل العبودية

---

١. رواها القمي في تفسيره عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام.

والتخلص عن الجمود على ظاهر الحياة الدنيا وزينتها كما هو شأن أبنائها قال تعالى: ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ (النجم / ٣٠).

ومعنى الآية وإنما كانوا اولي الأيدي والأبصار لأنا أخلصناهم بخصلة خالصة غير مشوبة عظيمة الشأن هي ذكر الدار الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ﴾ تقدم أن الاصطفاء يلازم الإسلام التام لله سبحانه. وفي الآية إشارة الى قوله تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ (آل عمران / ٣٣).

والأخيار جمع خير مقابل الشر على ما قيل. وقيل: جمع خيّر بالتشديد أو التخفيف كأموات جمع ميت بالتشديد أو بالتخفيف.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمٰعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ﴾ معناه ظاهر[1][2].

٤٩ ● هٰذٰا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ.

٥٠ ● جَنّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ.

٥١ ● مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ.

٥٢ ● وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ.

٥٣ ● هٰذٰا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ.

---

١. ص ٤١ ـ ٤٨: كلام في قصة ايوب عليه السلام في فصول (قصته في القرآن، جميل ثنائه، قصته في الروايات).

٢. ص ٤١ ـ ٤٨: خبر اليسع وذي الكفل.

٥٤ ۞ إِنَّ هٰذٰا لَرِزْقُنٰا مٰا لَهُ مِنْ نَفٰادٍ.

٥٥ ۞ هٰذٰا وَإِنَّ لِلطّٰاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ.

٥٦ ۞ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهٰا فَبِئْسَ الْمِهٰادُ.

٥٧ ۞ هٰذٰا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسّٰاقٌ.

٥٨ ۞ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوٰاجٌ.

٥٩ ۞ هٰذٰا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لاٰ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صٰالُوا النّٰارِ.

٦٠ ۞ قٰالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاٰ مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنٰا فَبِئْسَ الْقَرٰارُ.

٦١ ۞ قٰالُوا رَبَّنٰا مَنْ قَدَّمَ لَنٰا هٰذٰا فَزِدْهُ عَذٰاباً ضِعْفاً فِي النّٰارِ.

٦٢ ۞ وَقٰالُوا مٰا لَنٰا لاٰ نَرىٰ رِجٰالاً كُنّٰا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرٰارِ.

٦٣ ۞ أَتَّخَذْنٰاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زٰاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصٰارُ.

٦٤ ۞ إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخٰاصُمُ أَهْلِ النّٰارِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿هٰذٰا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ الإشارة بهذا الى ما ذكر من قصص الأوابين من الأنبياء الكرام عليهم السلام، والمراد بالذكر الشرف والثناء الجميل أي هذا الذي ذكر شرف وذكر جميل وثناء حسن لهم يذكرون به في الدنيا أبداً ولهم حسن مآب من ثواب الآخرة. كذا قالوا.

وعلى هذا فالمراد بالمتقين هم المذكورون من الأنبياء بالخصوص أو عموم أهل التقوى وهم داخلون فيهم ويكون ذكر مآب الطاغين بعد من باب الاستطراد.

والظاهر أن الإشارة بهذا الى القرآن والمراد بالذكر ما يشتمل عليه من الذكر وفي الكلام

عود الى ما بدىء به في السورة من قوله: «والقرآن ذي الذكر» فهو فصل من الكلام يذكر فيه الله سبحانه ما في الدار الآخرة من ثواب المتقين وعقاب الطاغين.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ المآب المرجع والتنكير للتفخيم، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ﴾ أي جنات استقرار وخلود وكون الأبواب مفتحة لهم كناية عن أنهم غير ممنوعين عن شيء من النعم الموجودة فيها فهي مهيأة لهم مخلوقة لأجلهم، وقيل: المراد أن أبوابها مفتحة لهم لا تحتاج الى الوقوف وراءها ودقها. وقيل: المراد أنها تفتح بغير مفتاح وتغلق بغير مغلاق.

والآية وما بعدها بيان لحسن مآبهم.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ﴾ أي حالكونهم جالسين فيها بنحو الاتكاء والاستناد جلسة الأعزة والأشراف.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ﴾ الخ: أي يتحكون فيها بدعوة الفاكهة وهي كثيرة والشراب فإذا دعيت فاكهة أو دعي شراب أجابهم المدعو فأتاهم من غير حاجة الى من يحمله ويناوله.

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ﴾ الضمير للمتقين وقاصرات الطرف صفة قائمة مقام الموصوف والتقدير وعندهم أزواج قاصرات الطرف والمراد قصور طرفهن على أزواجهن يرضين بهم ولا يرون غيرهم أو هو كناية عن كونهن ذوات غنج ودلال.

والأتراب الأقران أي إنهن أمثال لا يختلفن سناً أو جمالاً أو إنهن أمثال لأزواجهن فكلما زادوا نوراً وبهاء زدن حسناً وجمالاً.

قوله تعالى: ﴿هٰذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ﴾ الإشارة الى ما ذكر من الجنة

ونعيمها. والخطاب للمتقين في الكلام التفات من الغيبة الى الخطاب والنكتة فيه إظهار القرب منهم والإشراف عليهم ليكمل نعمهم الصورية بهذه النعمة المعنوية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هٰذٰا لَرِزْقُنٰا مٰا لَهُ مِنْ نَفٰادٍ﴾ النفاد الفناء والانقطاع. والآية من تمام الخطاب الذي في الآية السابقة على ما يعطيه السياق.

قوله تعالى: ﴿هٰذٰا وَإِنَّ لِلطّٰاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ الإشارة بهذا الى ما ذكر من مقام المتقين أي هذا ما للمتقين من المآب. ويمكن أن يكون هذا اسم فعل أي خذ هذا. والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهٰا فَبِئْسَ الْمِهٰادُ﴾ الصلي دخول النار ومقاساة حرارتها أو اتباعها والمهاد ـ على ما في المجمع ـ الفراش الموطأ يقال: مهدت له تمهيداً مثل وطأت له توطئة. والآية وما بعدها تفسير لمآب الطاغين.

قوله تعالى: ﴿هٰذٰا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسّٰاقٌ﴾ الحميم الحار الشديد الحرارة والغسّاق ـ على ما في المجمع ـ قيح شديد النتن، وفسر بتفاسير أُخر. وقوله: «حميم وغساق» بيان لهذا. وقوله: «فليذوقوه» دال على إكراههم وحملهم على ذوقه وتقديم المخبر عنه وجعله اسم إشارة يؤكد ذلك. والمعنى هذا حميم وغساق عليهم أن يذوقوه ليس إلا.

قوله تعالى: ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوٰاجٌ﴾ شكل الشيء ما يشابهه وجنسه والأزواج الأنواع والأقسام أي وهذا آخر من جنس الحميم والغساق أنواع مختلفة ليذوقوها.

قوله تعالى: ﴿هٰذٰا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ـ الى قوله ـ فِي النّٰارِ﴾ الآيات الثلاث ـ على ما يعطيه السياق ـ حكاية ما يجري بين التابعين والمتبوعين من الطاغين في النار من التخاصم والمجاراة.

فقوله: ﴿هٰذٰا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ خطاب يخاطب به المتبوعون يشار به الى التابعين الذين يدخلون النار مع المتبوعين فوجاً. والاقتحام الدخول في الشيء بشدة

وصعوبة.

وقوله: ﴿لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ جواب المتبوعين لمن يخاطبهم بقوله: «هذا فوج» ومرحباً تحية للوارد معناه عرض رحب الدار وسعتها له فقولهم: «لا مرحباً بهم» معناه نفي الرحب والسعة عنهم. وقولهم: «إنهم صالوا النار» أي داخلوها ومقاسوا حرارتها أو متبعوها تعليل لتحيتهم بنفي التحية.

وقوله: ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ نقل كلام التابعين وهم القائلون يردون الى متبوعيهم نفي التحية ويذمون القرار في النار.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾ لم يذكر تعالى جواب المتبوعين لقولهم: «أنتم قدمتموه لنا» الخ: وقد ذكره في سورة الصافات فيما حكى من تساؤلهم بقوله: ﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين﴾ الخ (الآية ٣٠) فقولهم: «ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار» كلامهم بعد الانقطاع عن المخاصمة.

وجملة «من قدم» الخ: شرط وجزاء، والضعف المثل و«عذاباً ضعفاً» أي ذا ضعف ومثل أي ضعفين من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لاَ نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ﴾ القائلون ـ على ما يعطيه السياق ـ مطلق أهل النار، ومرادهم بالرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار المؤمنون وهم في الجنة فيطلبهم أهل النار فلا يجدونهم فيها.

قوله تعالى: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ أي أتخذناهم سخرياً في الدنيا فأخطأنا وقد كانوا ناجين أم عدلت أبصارنا فلا نراهم وهم معنا في النار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ إشارة الى ما حكي من تخاصمهم وبيان أن تخاصم أهل النار ثابت واقع لا ريب فيه وهو ظهور ما استقر في نفوسهم في الدنيا من

ملكة التنازع والتشاجر.

٦٥ ❁ قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا أَللّٰهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ.

٦٦ ❁ رَبُّ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ.

٦٧ ❁ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ.

٦٨ ❁ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ.

٦٩ ❁ مَا كانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ.

٧٠ ❁ إِنْ يُوحىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ.

٧١ ❁ إِذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ.

٧٢ ❁ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ.

٧٣ ❁ فَسَجَدَ الْمَلٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ.

٧٤ ❁ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

٧٥ ❁ قَالَ يا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ.

٧٦ ❁ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ.

٧٧ ❁ قَالَ فَاخْرُجْ مِنها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ.

٧٨ ❁ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

٧٩ ❁ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ.

٨٠ ❁ قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ.

٨١ ● إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ.

٨٢ ● قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ.

٨٣ ● إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ.

٨٤ ● قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ.

٨٥ ● لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

٨٦ ● قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ.

٨٧ ● إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ.

٨٨ ● وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ـ الى قوله ـ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ في الآيتين أمر النبي ﷺ بابلاغ أنه منذر وأن الله تعالى واحد في الالوهية فقوله: «إنما أنا منذر» يفيد قصره في كونه منذراً ونفي سائر الأغراض التي ربما تتلبس به الدعوة بين الناس من طلب مال أو جاه كما يشير اليه ما في آخر الآيات من قوله: «قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين».

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الى آخر الآيتين إبلاغ لتوحيده تعالى بحجة يدل عليها ما اورد من صفاته المدلول عليها بأسمائه.

فقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ نفي لكل إله ـ والإله هو المعبود بالحق ـ غيره تعالى وأما ثبوت أُلوهيته تعالى فهو مسلّم بانتفاء الوهية غيره إذ لا نزاع بين الإسلام والشرك في أصل ثبوت الإله وإنما النزاع في أن الإله وهو المعبود بالحق هو الله تعالى أو غيره. على أن ما

ذكر في الآيتين من الصفات متضمن لإثبات الوهيته كما أنها حجة على انتفاء الوهية غيره تعالى.

وقوله: ﴿الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يدل على توحده تعالى في وجوده وقهره كل شيء وذلك أنه تعالى واحد لا يماثله شيء في وجوده ولا تناهي كماله الذي هو عين وجوده الواجب فهو الغني بذاته وعلى الإطلاق وغيره من شيء فقير يحتاج اليه من كل جهة ليس له من الوجود وآثار الوجود إلا ما أنعم وأفاض فهو سبحانه القاهر لكل شيء على ما يريد وكل شيء مطيع له فيما أراد خاضع له فيما شاء.

وهذا الخضوع الذاتي هو حقيقة العبادة فلو جاز أن يُعبد شيء في الوجود عملاً بأن يؤتى بعمل يمثل به العبودية والخضوع فهي عبادته سبحانه إذ كل شيء مفروض دونه فهو مقهور خاضع له لا يملك لنفسه ولا لغيره شيء ولا يستقل من الوجود وآثار الوجود بشيء فهو سبحانه الإله المعبود بالحق لا غير.

وقوله: ﴿رَبُّ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يفيد حجة اخرى على توحده تعالى في الالوهية وذلك أن نظام التدبير الجاري في العالم برمته نظام واحد متصل غير متبعض ولا متجز وهو آية وحدة المدبر، وقد تقدم كراراً أن الخلق والتدبير لا ينفكان فالتدبير خلق بوجه كما أن الخلق تدبير بوجه، والخالق الموجد للسماوات والأرض وما بينهما هو الله سبحانه ـ حتى عند الخصم ـ فهو تعالى ربهما المدبر لها جميعاً فهو وحده الإله الذي يجب أن يقصد بالعبادة تمثيل عبودية العابد ومملوكيته تجاه مولوية المعبود ومالكيته وتصرفه في المعبود بإفاضة النعمة ودفع النقمة فهو سبحانه الإله في السماوات والأرض وما بينهما لا إله غيره. فافهم ذلك.

ويمكن أن يكون قوله: «رب السماوات والأرض وما بينهما» بياناً لقوله: «القهار» أو «الواحد القهار».

وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ يفيد حجة اخرى على توحده تعالى في الالوهية وذلك أنه تعالى عزيز لا يغلبه شيء بإكراهه على ما لم يرد أو بمنعه عما أراد فهو العزيز على الإطلاق وغيره من شيء ذليل عنده قانت له والعبادة إظهار للمذلة ولا يستقيم إلا قبال العزة ولا عزة لغيره تعالى إلا به.

وأيضاً غاية العبادة وهي تمثيل العبودية التقرب الى المعبود ورفع وصمة البعد عن العبد العابد وهو مغفرة الذنب والله سبحانه هو المستقل بالرحمة التي لا تنفد خزائنها وهو الذي يورد عباده العابدين له في الآخرة دار كرامته فهو الغفار الذي يجب أن يعبد طمعاً في مغفرته.

ويمكن أن يكون قوله: «العزيز الغفار» تلويحاً الى وجه الدعوة الى التوحيد أو وجوب الايمان به المفهوم بحسب المقام من قوله: «وما من إله إلا الله الواحد القهار» والمعنى أدعوكم الى توحيده فآمنوا به لأنه العزيز الذي لا يشوبه ذلة الغفار للذنوب وهكذا يجب أن يكون الإله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ مرجع الضمير ما ذكره من حديث الوحدانية في قوله: «وما من إله إلا الله» الخ.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الملأ الأعلى جماعة الملائكة وكأن المراد باختصامهم ما أشار تعالى اليه بقوله: ﴿إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ الى آخر الآيات.

وكأن المعنى إني ما كنت أعلم اختصام الملأ الأعلى حتى أوحى الله إليّ ذلك في كتابه فإنما أنا منذر أتبع الوحي.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ تأكيد لقوله: «إنما أنا منذر» وبمنزلة التعليل لقوله: «ما كان لي من علم بالملإ الأعلى» والمعنى لم أكن أعلم ذلك لأن علمي ليس من قبل نفسي وإنما هو بالوحي وليس يوحى إلي إلا ما يتعلق بالإنذار.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ الذي يعطيه

السياق أن الآية وما بعدها ليست تتمة لقول النبي ﷺ «إنما أنا منذر» الخ؛ والشاهد عليه قوله: «ربك» فهو من كلامه تعالى يشير الى زمان اختصام الملاء الأعلى والظرف متعلق بما تعلق به قوله: «إذ يختصمون» أو متعلق بمحذوف والتقدير «اذكر إذ قال ربك للملائكة» الخ: فان قوله تعالى للملائكة ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ وقوله لهم: «إني خالق بشراً من طين» متقارنان وقعا في ظرف واحد.

وعلى هذا يؤل معنى قوله: «إذ قال ربك» الخ؛ الى نحو من قولنا: اذكر وقتئذ قال ربك كذا وكذا فهو وقت اختصامهم.

وقوله: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ﴾ البشر الإنسان. قال الراغب: البشر ظاهر الجلد والأدمة باطنه. كذا قال عامة الأدباء، قال: وعبر عن الإنسان بالبشر اعتبارا بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الوبر، واستوى في لفظ البشر الواحد والجمع وثني فقال تعالى: ﴿أنؤمن لبشرين﴾ وخص في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر. انتهى.

وقد عد في الآية مبدء خلق الإنسان الطين، وفي سورة الروم التراب وفي سورة الحجر صلصال من حماء مسنون، وفي سورة الرحمان صلصال كالفخار ولا ضير فإنها أحوال مختلفة لمادته الأصلية التي منها خلق وقد أُشير في كل موضع الى واحدة منها.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ تسوية الإنسان تعديل أعضائه بتركيب بعضها على بعض وتتميمها صورة إنسان تام، ونفخ الروح فيه جعله ذا نفس حية إنسانية وإضافة الروح اليه تعالى تشريفية وقوله: «فقعوا» أمر من الوقوع وهو متفرع على التسوية والنفخ.

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ظاهر الدلالة على سجود الملائكة له من غير استثناء.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي استكبر إبليس فلم يسجد له وكان قبل ذلك من الكافرين كما حكى سبحانه عنه في سورة الحجر قوله: ﴿لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون﴾ (الحجر / ٣٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ نسبة خلقه الى اليد للتشريف بالإختصاص كما قال: «ونفخت فيه من روحي» وتثنية اليد كناية عن الإهتمام التام بخلقه وصنعه فان الإنسان إنما يستعمل اليدين فيما يهتم به من العمل فقوله: «خلقت بيدي» كقوله: ﴿مما عملت أيدينا﴾ (يس / ٧١).

وقيل: المراد باليد القدرة والتثنية لمجرد التأكيد كقوله: ﴿فارجع البصر كرتين﴾ (الملك / ٣) وقد وردت به الرواية.

وقوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ استفهام توبيخ أي أكان عدم سجودك لأنك استكبرت أم كنت من الذين يعلون أي يعلو قدرهم أن يؤمروا بالسجود. ولذا قال بعضهم بالإستفادة من الآية إن العالين قوم من خلقه تعالى مستغرقون في التوجه الى ربهم لا يشعرون بغيره تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ تعليل عدم سجوده بما يدعيه من شرافة ذاته وأنه لكون خلقه من نار خير من آدم المخلوق من طين، وفيه تلويح أن الأمر الإلهي إنما يطاع إذا كان حقاً لا لذاته، وليس أمره بالسجود له حقاً، ويؤل الى إنكار إطلاق ملكه تعالى وحكمته وهو الأصل الذي ينتهي اليه كل معصية فإن المعصية إنما تقع بالخروج عن حكم عبوديته تعالى ومملوكيته وبالإعراض عن كون تركها أولى من فعلها واقترافها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ

الدِّينِ ﴾ الرجم الطرد، ويوم الدين يوم الجزاء.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ وفي سورة الحجر: ﴿وإن عليك اللعنة﴾ (الآيـة ٣٥) قيل في وجهه: لو كانت اللام للعهد فلا فرق بين التعبيرين، ولو كانت للجنس فكذلك أيضاً لأن لعن غيره تعالى من الملائكة والناس عليه إنما يكون طرداً له حقيقة وإبعاداً من الرحمة إذا كان بأمر الله وبإبعاده من رحمته.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ - الى قوله - إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ ظاهر تغير الغاية في السؤال والجواب حيث قال: «الى يوم يبعثون» فأجيب بقوله: «الى يوم الوقت المعلوم» أن ما اجيب اليه غير ما سأله فهو لا محالة آخر يوم يعصي فيه الناس ربهم وهو قبل يوم البعث، والظاهر أن المراد باليوم الظرف فتقيد إضافته الى الوقت التأكيد.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الباء في «فبعزتك» للقسم اقسم بعزته ليغوينهم أجمعين واستثنى منهم المخلصين وهم الذين أخلصهم الله لنفسه فلا نصيب فيهم لإبليس ولا لغيره.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ جوابه تعالى لإبليس وهو يتضمن القضاء عليه وعلى من تبعه بالنار.

فقوله: ﴿ فَالْحَقُّ ﴾ مبتدء محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدء، والفاء لترتيب ما بعده على ما قبله، والمراد بالحق ما يقابل الباطل على ما يؤيده إعادة الحق ثانياً باللام والمراد به ما يقابل الباطل قطعاً والتقدير فالحق أقسم به لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم، أو فقولي الحق لأملأن، الخ.

وقوله: ﴿ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ جملة معترضة تشير الى حتمية القضاء وترد على إبليس ما يلوح اليه قوله: «أنا خير منه» الخ؛ من كون قوله تعالى وهو أمره بالسجود غير حق، وتقديم

الحق في «والحق أقول» وتحليته باللام لإفادة الحصر.

وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ متن القضاء الذي قضى به وكأن المراد بقوله: «منك» جنس الشياطين حتى يشمل إبليس وذريته وقبيله، وقوله: «وممن تبعك منهم» أي من الناس ذرية آدم.

وقد أشبعنا الكلام في نظائر الآيات من سورة الحجر وفي القصة من سور البقرة والأعراف والإسراء فعليك بالرجوع اليها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ رجوع الى ما تقدم في أول السورة وخلال آياتها أن القرآن ذكر وأن ليس النبي ﷺ إلا منذرا لا غير ورد لما رموه بقولهم: ﴿امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد﴾.

فقوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي أجرا دنيويا من مال أو جاه، وقوله: «وما أنا من المتكلفين» أي من أهل التكلف وهو التصنع والتحلي بما ليس له.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ أي القرآن ذكر عام للعالمين من جماعات الناس ومختلف الشعوب والامم وغيرهم لا يختص بقوم دون قوم حتى يؤخذ على تلاوته مال وعلى تعليمه أجر بل هو للجميع.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ أي لتعلمن ما أخبر به القرآن من الوعد والوعيد وظهوره على الأديان وغير ذلك بعد حين أي بعد مرور زمان.

قيل: المراد بعد حين يوم القيامة، وقيل: يوم الموت، وقيل: يوم بدر، ولا يبعد أن يقال: إن نبأه مختلف لا يختص بيوم من هذه الأيام حتى يكون هو المراد بل المراد به المطلق فلكل من أقسام نبائه حينه(١).

---

١. ص ٦٥ـ٨٨: بحث روائي في اختصام الملأ الأعلى، سجود الملائكة لآدم واستكبار ابليس.

سورة الزمر مكية وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

٢ ● إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ.

٣ ● أَلا لِلّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما
نَعْبُدُهُمْ إِلاّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللّهِ زُلْفى إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما
هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفّارٌ.

٤ ● لَوْ أَرادَ اللّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفى مِمّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ
سُبْحانَهُ هُوَ اللّهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ.

٥ ● خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ
وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفّارُ.

٦ ● خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَأَنْزَلَ لَكُمْ

مِنَ الأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً
مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا
إِلٰهَ إِلاّ هُوَ فأَنّىٰ تُصْرَفُونَ.

٧ ❁ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضىٰ لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ
تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ
مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

٨ ❁ وإِذا مَسَّ الإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً
مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلّٰهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ
عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ.

٩ ❁ أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقآئِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ
وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا
يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبابِ.

١٠ ❁ قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ
الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللّٰهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ
بِغَيْرِ حِسابٍ.

بيان:

يظهر من خلال آيات السورة أن المشركين من قومه ﷺ سألوه أن ينصرف عما هو عليه

من التوحيد والدعوة اليه والتعرض لآلهتهم وخوفوه بآلهتهم فنزلت السورة ـ وهي قرينة سورة ص بوجه ـ وهي تؤكد الأمر بأن يخلص دينه لله سبحانه ولا يعبأ بآلهتهم وأن يعلمهم أنه مأمور بالتوحيد وإخلاص الدين الذي تواترت الآيات من طريق الوحي والعقل جميعاً عليه.

ولذلك نراه سبحانه يعطف الكلام عليه في خلال السورة مرة بعد مرة كقوله في مفتتح السورة: ﴿ **فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص** ﴾ ثم يرجع اليه ويقول: ﴿ **قل إني امرت أن أعبد الله مخلصا له الدين** ﴾ الى قوله: ﴿ **قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه** ﴾.

ثم يقول: ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ الخ؛ ثم يقول: ﴿ **أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه** ﴾ ثم يقول: ﴿ **قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل** ﴾ ثم يقول: ﴿ **قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون** ﴾ الى غير ذلك من الإشارات.

ثم عمم الاحتجاج على توحده تعالى في الربوبية والالوهية من الوحي ومن طريق البرهان وقايس بين المؤمنين والمشركين مقايسات لطيفة فوصف المؤمنين بأجمل أوصافهم وبشرهم بما سيثيبهم في الآخرة مرة بعد مرة وذكر المشركين وأنذرهم بما سيلحقهم من الخسران وعذاب الآخرة مضافا الى ما يصيبهم في الدنيا من وبال أمرهم كما أصاب الذين كذبوا من الامم الدارجة من عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر.

ومن ثم وصفت السورة يوم البعث وخاصة في مختتمها بأوضح الوصف وأتمه.

والسورة مكية لشهادة سياق آياتها بذلك وكأنها نزلت دفعة واحدة لما بين آياتها من الإتصال.

والآيات العشر المنقولة تجمع الدعوة من طريق الوحي والحجة العقلية بادئة بالنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ « تنزيل الكتاب » خبر لمبتدء محذوف، وهو مصدر بمعنى المفعول فيكون إضافته الى الكتاب من إضافة الصفة الى موصوفها و« من الله » متعلق بتنزيل والمعنى هذا كتاب منزل من الله العزيز الحكيم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ عبر بالإنزال دون التنزيل كما في الآية السابقة لأن القصد الى بيان كونه بالحق وهو يناسب مجموع ما نزل اليه من ربه.

وقوله: ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ الباء فيه للملابسة أي أنزلناه اليك ملتبسا بالحق فما فيه من الأمر بعبادة الله وحده حق، وعلى هذا المعنى فرّع عليه قوله: « فاعبد الله مخلصا له الدين » والمعنى فإذا كان بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين لأن فيه ذلك.

والمراد بالدين ـ على ما يعطيه السياق ـ العبادة ويمكن أن يراد به سنة الحياة وهي الطريقة المسلوكة في الحياة في المجتمع الانساني، ويراد بالعبادة تمثيل العبودية بسلوك الطريق التي شرعها الله سبحانه والمعنى فأظهر العبودية لله في جميع شئون حياتك باتباع ما شرعه لك فيها والحال أنك مخلص له دينك لا تتبع غير ما شرعه لك.

قوله تعالى: ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ إظهار وإعلان لما أضمر وأجمل في قوله: « بالحق » وتعميم لما خصص في قوله: « فاعبد الله مخلصا له الدين » أي إن الذي أوحيناه اليك من إخلاص الدين لله واجب على كل من سمع هذا النداء، ولكون الجملة نداء مستقلاً أظهر اسم الجلالة وكان مقتضى الظاهر أن يضمر ويقال: له الدين الخالص.

ومعنى كون الدين الخالص له أنه لا يقبل العبادة ممن لا يعبده وحده سواء عبده وغيره أو عبد غيره وحده.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ الى آخر الآية تقدم أن الوثنية يرون أن الله سبحانه أجلّ من أن يحيط به

الإدراك الإنساني من عقل أو وهم أو حس فيتنزه تعالى عن أن يقع عليه توجه عبادي منا.

فمن الواجب أن نتقرب اليه بالتقرب الى مقربيه من خلقه وهم الذين فوض اليهم تدبير شئون العالم فنتخذهم أربابا من دون الله ثم آلهة تعبدهم ونتقرب اليهم ليشفعوا لنا عند الله ويقربونا اليه زلفى وهؤلاء هم الملائكة والجن وقديسوا البشر وهؤلاء هم الأرباب والآلهة بالحقيقة.

وقوله: ﴿مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللّٰهِ زُلْفىٰ﴾ تفسير لمعنى اتخاذ الأولياء من دون الله وهو حكاية لقولهم أو بتقدير القول أي يقولون: ما نعبدهم هؤلاء إلا ليقربونا بسبب عبادتنا لهم الى الله تقريبا فهم عادلون منه تعالى الى غيره، وإنما سموا مشركين لأنهم يشركون به تعالى غيره حيث يقولون بكونهم أربابا وآلهة للعالم وكونه تعالى ربا وإلها لاولئك الأرباب والآلهة، وأما الشركة في الخلق والإيجاد فلم يقل به لا مشرك ولا موحد.

وقوله: ﴿إِنَّ اللّٰهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مٰا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قيل: ضمير الجمع للمشركين وأوليائهم أي إن الله يحكم بين المشركين وبين أوليائهم فيما هم فيه يختلفون، وقيل: الضميران راجعان الى المشركين وخصمائهم من أهل الإخلاص في الدين المفهوم من السياق، والمعنى أن الله يحكم بينهم المخلصين للدين.

وقوله: ﴿إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ هُوَ كٰاذِبٌ كَفّٰارٌ﴾ الكفار كثير الكفران لنعم الله أو كثير الستر للحق. وفي الجملة إشعار بل دلالة على أن الحكم يوم القيامة على المشركين لا لهم وأنهم مسيرون الى العذاب، والمراد بالهداية الإيصال الى حسن العاقبة.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرٰادَ اللّٰهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفىٰ مِمّٰا يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ سُبْحٰانَهُ هُوَ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ﴾ احتجاج على نفي قولهم: إن الله اتخذ ولدا، وقول بعضهم: الملائكة بنات الله. والقول بالولد دائر بين عامة الوثنية على اختلاف مذاهبهم وقد قالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت اليهود على ما حكاه القرآن عنهم: عزير ابن الله

وكأنها بنوة تشريفية.

والبنوة كيفما كانت تقتضي شركة ما بين الابن والأب والولد والوالد فإن كانت بنوة حقيقية وهي اشتقاق شيء من شيء وانفصاله منه اقتضت الشركة في حقيقة الذات والخواص والآثار المنبعثة من الذات كبنوة إنسان لإنسان المقتضية لشركة الابن لأبيه في الإنسانية ولوازمها، وإن كانت اعتبارية كالبنوة الاجتماعية وهو التبني اقتضت الاشتراك في الشؤنات الخاصة بالأب كالسؤدد والملك والشرف والتقدم والوراثة وبعض أحكام النسب، والحجة المسوقة في الآية تدل على استحالة اتخاذ الولد عليه تعالى بكلا المعنيين.

فقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ شرط صدر بلو الدال على الامتناع للامتناع، وقوله: «لاصطفى مما يخلق ما يشاء» أي لاختار لذلك مما يخلق ما يتعلق به مشيئته على ما يفيده السياق وكونه مما يخلق لكون ما عداه سبحانه خلقاً له.

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له سبحانه، وقوله: «هو الله الواحد القهار» بيان لاستحالة الشرط وهو إرادة اتخاذ الولد ليترتب عليه استحالة الجزاء وهو اصطفاء ما يشاء مما يخلق وذلك لأنه سبحانه واحد في ذاته المتعالية لا يشاركه فيها شيء ولا يماثله فيها أحد لأدلة التوحيد، وواحد في صفاته الذاتية التي هي عين ذاته كالحياة والعلم والقدرة، وواحد في شؤنه التي هي من لوازم ذاته كالخلق والملك والعزة والكبرياء لا يشاركه فيها أحد.

وهو سبحانه قهار يقهر كل شيء بذاته وصفاته فلا يستقبل قبال ذاته ووجوده شيء في ذاته ووجوده ولا يستغني عنه شيء في صفاته وآثار وجوده فالكل أذلاء داخرون بالنسبة اليه مملوكون له فقراء اليه.

فمحصل حجة الآية قياس استثنائي ساذج يستثنى فيه نقيض المقدم لينتج نقيض التالي وهو نحو من قولنا: لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى لذلك بعض من يشاء من خلقه لكن إرادته اتخاذ الولد ممتنعة لكونه واحداً قهاراً فاصطفاؤه لذلك بعض من يشاء من خلقه ممتنع.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ﴾ لا يبعد أن يكون ما فيه من الإشارة الى الخلق والتدبير بيانا لقهاريته تعالى لكن اتصال الآيتين وارتباطهما مضمونا وانتهاء الثانية الى قوله: «ذلكم الله ربكم» الخ؛ كالصريح في أن ذلك استئناف بيان للاحتجاج على توحيد الربوبية.

فالآية والتي تليها مسوقتان لتوحيد الربوبية وقد جمع فيهما بين الخلق والتدبير لما مر مراراً أن إثبات وحدة الخالق لا يستلزم عند الوثني نفي تعدد الأرباب والآلهة لأنهم لا ينكرون انحصار الخلق والإيجاد فيه تعالى لكنه سبحانه فيما يحتج على توحده في الربوبية والالوهية في كلامه يجمع بين الخلق والتدبير إشارة الى أن التدبير غير خارج من الخلق بل هو خلق بوجه كما أن الخلق تدبير بوجه وعند ذلك يتم الاحتجاج على رجوع التدبير اليه تعالى وانحصاره فيه برجوع الخلق اليه.

وقوله: ﴿خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ﴾ إشارة الى الخلقة، وفي قوله: «بالحق» ـ والباء للملابسة ـ إشارة الى البعث فإن كون الخلقة حقاً غير باطل يلازم كونها لغاية تقصدها وتنساق اليها وهي البعث قال تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا﴾ (ص / ٢٧).

وقوله: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهٰارِ وَيُكَوِّرُ النَّهٰارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ قال في المجمع: التكوير طرح الشيء بعضه على بعض. انتهى فالمراد طرح الليل على النهار وطرح النهار على الليل فيكون من الاستعارة بالكناية قريب المعنى من قوله: ﴿يغشي الليل والنهار﴾ (الأعراف / ٥٤) والمراد استمرار توالي الليل والنهار بظهور هذا على ذاك ثم ذاك على هذا وهكذا، وهو من التدبير.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي سخر الشمس والقمر فأجراهما للنظام الجاري في العالم الأرضي الى أجل مسمى معين لا يتجاوزانه.

وقوله: ﴿أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ يمكن أن يكون في ذكر الاسمين إشارة الى ما يحتج به على توحده تعالى في الربوبية والالوهية فإن العزيز الذي لا يعتريه ذلة إن كان فهو الله وهو المتعين للعبادة لا غيره الذي تغشاه الذلة وتغمره الفاقة وكذا الغفار للذنوب إذا قيس الى من ليس من شأنه ذلك.

ويمكن أن يكون ذكرهما تحضيضا على التوحيد والايمان بالله الواحد والمعنى انبهكم أنه هو العزيز فآمنوا به واعتزوا بعزته، الغفار فآمنوا به يغفر لكم.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الخ: الخطاب لعامة البشر، والمراد بالنفس الواحدة ـ على ما تؤيده نظائره من الآيات ـ آدم أبو البشر، والمراد بزوجها امرأته التي من نوعها وتماثلها في الانسانية، و«ثم» للتراخي بحسب رتبة الكلام.

والمراد أنه تعالى خلق هذا النوع وكثر أفراده من نفس واحدة وزوجها.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الأنعام هي الابل والبقر والضأن والمعز، وكونها ثمانية أزواج باعتبار انقسامها الى الذكر والأنثى.

وتسمية خلق الأنعام في الأرض إنزالا لها باعتبار أنه تعالى يسمي ظهور الأشياء في الكون بعد ما لم يكن إنزالاً لها من خزائنه التي هي عنده ومن الغيب الى الشهادة قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١).

وقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ بيان لكيفية خلق من تقدم ذكره من البشر والأنعام، وفي الخطاب تغليب اولي العقل على غيرهم. والخلق من بعد الخلق التوالي والتوارد كخلق النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وهكذا، والظلمات الثلاث هي ظلمة البطن والرحم والمشيمة كما قيل ورواه في المجمع عن أبي جعفر عليه السلام.

وقيل: المراد بها ظلمة الصلب والرحم والمشيمة وهو خطأ فإن قوله: «في بطون امهاتكم» صريح في أن المراد بالظلمات الثلاث ما في بطون النساء دون أصلاب الرجال.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي الذي وصف لكم في الآيتين بالخلق والتدبير هو ربكم دون غيره لأن الرب هو المالك الذي يدبر أمر ما ملكه وإذ كان خالقا لكم ولكل شيء دونكم وللنظام الجاري فيكم فهو الذي يملككم ويدبر أمركم فهو ربكم لا غير.

وقوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي على جميع المخلوقات في الدنيا والآخرة فهو المليك على الإطلاق وتقديم الظرف يفيد الحصر. والجملة خبر بعد خبر لقوله: «ذلكم الله» كما أن قوله: «لا إله إلا هو» كذلك. وانحصار الالوهية فيه تعالى فرع انحصار الربوبية فيه لأن الإله إنما يعبد لأنه رب مدبر فيعبد إما خوفا منه أو رجاء فيه أو شكراً له.

وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته الى عبادة غيره وهو ربكم الذي خلقكم ودبر أمركم هو المليك عليكم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ الى آخر الآية. مسوق لبيان أن الدعوة الى التوحيد وإخلاص الدين لله سبحانه ليست لحاجة منه تعالى الى إقبالهم اليه بالإنصراف عن عبادة غيره بل لعناية منه تعالى بهم فيدعوهم الى سعادتهم اعتناء بها كما يعتني برزقهم فيفيض النعم عليهم وكما يعتني بحفظهم فيلهمهم أن يدفعوا الآفات عن أنفسهم.

فقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ الخطاب لعامة المكلفين أي إن تكفروا بالله فلم توحدوه فإنه غني عنكم لذاته لا ينتفع بإيمانكم وطاعتكم ولا يتضرر بكفركم ومعصيتكم فالنفع والضرر إنما يتحققان في مجال الإمكان والحاجة وأما الواجب الغني بذاته فلا يتصور في حقه انتفاع ولا تضرر.

وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ دفع لما ربما يمكن أن يتوهم من قوله: «فإن الله

غني عنكم» أنه إذا لم يتضرر بكفر ولم ينتفع بإيمان فلا موجب له أن يريد منا الايمان والشكر فدفعه بأن تعلق العناية الإلهية بكم يقتضي أن لا يرضى بكفركم وأنتم عباده.

والمراد بالكفر كفر النعمة الذي هو ترك الشكر بقرينة مقابلة قوله: «وإن تشكروا يرضه لكم» وبذلك يظهر أن التعبير بقوله: «لعباده» دون أن يقول: لكم للدلالة على علة الحكم أعني سبب عدم الرضا.

والمحصل أنكم عباد مملوكون لله سبحانه منغمرون في نعمه ورابطة المولوية والعبودية وهي نسبة المالكية والمملوكية لا تلائمه أن يكفر العبد بنعمة سيده فينسى ولاية مولاه ويتخذ لنفسه أولياء من دونه ويعصي المولى ويطيع عدوه وهو عبد عليه طابع العبودية لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ الضمير للشكر نظير قوله تعالى: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ (المائدة / ٨) والمعنى وإن تشكروا الله بالجري على مقتضى العبودية وإخلاص الدين له يرضى الشكر لكم وأنتم عباده، والشكر والكفر المقابل له ينطبقان على الايمان والكفر المقابل له.

وقوله: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ﴾ أي لا تحمل نفس حاملة حمل نفس اخرى أي لا يؤاخذ بالذنب إلا من ارتكبه.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ﴾ أي هذا في الدنيا من كفر أو شكر ثم يبعثكم الله فيظهر لكم حقيقة أعمالكم ويحاسبكم على ما في قلوبكم وقد تكرر الكلام في معاني هذه الجمل فيما تقدم[١].

قوله تعالى: ﴿وإِذٰا مَسَّ الْإِنْسٰانَ ضُرٌّ دَعٰا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ﴾ الى آخر الآية:

---

١. الزمر ١ ـ ١٠: كلام في معنى الرضا والسخط من الله.

الإنابة الرجوع، والتخويل العطية العظيمة على وجه الهبة وهي المنحة. على ما في المجمع.

لما مر في الآية السابقة ذكر من كفر النعمة وأن الله سبحانه على غناه من الناس لا يرضى لهم ذلك نبه في هذه الآية على أن الانسان كفور بالطبع مع أنه يعرف ربه بالفطرة ولا يلبث عند الاضطرار دون أن يرجع اليه فيسأله كشف ضره كما قال: ﴿وكان الإنسان كفورا﴾ (الإسراء / ٦٧)، وقال: ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ (إبراهيم / ٣٤).

فقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ﴾ أي إذا أصاب الإنسان ضر من شدة أو مرض أو قحط ونحوه دعا ربه ـ وهو الله يعترف عند ذلك بربوبيته ـ راجعا اليه معرضا عمن سواه يسأله كشف الضر عنه.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وإذا أعطاه ربه سبحانه بعد كشف الضر نعمة منه اشتغل به مستغرقا ونسي الضر الذي كان يدعو اليه أي الى كشفه من قبل إعطاء النعمة.

فما في قوله: ﴿مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ﴾ موصولة والمراد به الضر وضمير «اليه» له وقيل: مصدرية والضمير للرب سبحانه والمعنى نسي دعاءه الى ربه من قبل الإعطاء، وقيل: موصولة والمراد به الله سبحانه وهو أبعد الوجوه.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الأنداد الأمثال والمراد بها ـ على ما قيل ـ الأصنام وأربابها، واللام في «ليضل عن سبيله» للعاقبة، والمعنى واتخذ لله أمثالاً يشاركونه في الربوبية والالوهية على مزعمته لينتهي به ذلك الى إضلال الناس عن سبيل الله لأن الناس مطبوعون على التقليد يتشبه بعضهم ببعض، وفي الفعل دعوة كالقول.

ولا يبعد أن يراد بالأنداد مطلق الأسباب التي يعتمد عليها الإنسان ويطمئن اليها ومن جملتها أرباب الأصنام عند الوثني وذلك لأن الآية تصف الإنسان وهو أعم من المشرك نعم مورد الآية هو الكافر.

وقوله : ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي تمتع تمتعا قليلا لا يدوم لك لأنك من أصحاب النار مصيرك اليها ، وهو أمر تهديدي في معنى الإخبار أي إنك الى النار ولا يدفعها عنك تمتعك بالكفر أياما قلائل .

قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ الآية لا تخلو عن مناسبة واتصال بقوله السابق : « ولا تزر وازرة وزر اخرى » فإن فحواه أن الكافر والشاكر لا يستويان ولا يختلطان فأوضح ذلك في هذه الآية بأن القانت الذي يخاف العذاب ويرجو رحمة ربه لا يساوي غيره .

فقوله : « أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » أحد شقي الترديد محذوف والتقدير أهذا الذي ذكرناه خير أم من هو قانت ؟ الخ .

والقنوت ـ على ما ذكره الراغب ـ لزوم الطاعة مع الخضوع ، والآناء جمع أنى وهو الوقت ، و« يحذر الآخرة » أي عذاب الله في الآخرة قال تعالى : ﴿إن عذاب ربك كان محذورا﴾ (الإسراء / ٥٧) ، وقوله : « يرجو رحمة ربك » هو وما قبله يجمعان خوف العذاب ورجاء الرحمة ، ولم يقيد الرحمة بالآخرة فإن رحمة الآخرة ربما وسعت الدنيا .

والمعنى أهذا الذي هو من أصحاب النار خير أم من هو لازم للطاعة والخضوع لربه في أوقات الليل إذا جن عليه ساجداً في صلاته تارة قائما فيها اخرى يحذر عذاب الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟ أي لا يستويان .

وقوله : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ العلم وعدمه مطلقان لكن المراد بهما بحسب ما ينطبق على مورد الآية العلم بالله وعدمه فإن ذلك هو الذي يكمل به الإنسان وينتفع بحقيقة معنى الكلمة ويتضرر بعدمه ، وغيره من العلم كالمال ينتفع به في الحياة الدنيا ويفنى بفنائها .

وقوله : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ أي ذوو العقول وهو في مقام التعليل لعدم

تساوي الفريقين بأن أحد الفريقين يتذكر حقائق الامور دون الفريق الآخر فلا يستويان بل يترجح الذين يعلمون على غيرهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ الى آخر الآية. الجار والمجرور «في هذه الدنيا» متعلق بقوله: «احسنوا» فالمراد بالجملة وعد الذين أحسنوا أي لزموا الأعمال الحسنة أن لهم حسنة لا يقدر وصفها بقدر.

وقد أُطلق الحسنة فلم يقيدها بدنيا أو آخرة وظاهرها ما يعلم الدنيا فللمؤمنين المحسنين في هذه الدنيا طيب النفس وسلامة الروح وصون النفوس عما يتقلب فيه الكفار من تشوش البال وتقسم القلب وغل الصدر والخضوع للأسباب الظاهرية وفقد من يرجى في كل نائبة وينصر عند طروق الطارقة ويطمأن اليه في كل نازلة وفي الآخرة سعادة دائمة ونعيم مقيم.

وقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ حث وترغيب لهم في الهجرة من مكة إذ كان التوقف فيها صعبا على المؤمنين بالنبي ﷺ والمشركون يزيدون كل يوم في التشديد عليهم وفتنتهم، والآية بحسب لفظها عامة.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ توفيه الأجر إعطاؤه تاما كاملا. والسياق يفيد أن القصر في الكلام متوجه الى قوله: «بغير حساب» فالجار والمجرور متعلق بقوله: «يوفى» صفة لمصدر يدل عليه والمعنى لا يعطى الصابرون أجرهم إلا إعطاء بغير حساب. فالصابرون لا يحاسبون على أعمالهم ولا ينشر لهم ديوان ولا يقدر أجرهم بزنة عملهم.

وقد اطلق الصابرون في الآية ولم يقيد بكون الصبر على الطاعة أو عن المعصية أو عند المصيبة وإن كان الذي ينطبق على مورد الآية هو الصبر على مصائب الدنيا وخاصة ما يصيب من جهة أهل الكفر والسوق من آمن بالله وأخلص له دينه واتقاه.

١١ ۞ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ.
١٢ ۞ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ.
١٣ ۞ قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.
١٤ ۞ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي.
١٥ ۞ فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ.
١٦ ۞ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ.
١٧ ۞ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ.
١٨ ۞ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ.
١٩ ۞ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ.
٢٠ ۞ لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ـ الى قوله ـ أَوَّلَ

الْمُسْلِمِينَ ﴾ نحو رجوع الى قوله تعالى في مفتتح السورة: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب فاعبد الله مخلصا له الدين**﴾ بداعي أن يؤيسهم من نفسه. فلا يطمعوا فيه أن يترك دعوتهم ويوافقهم على الإشراك بالله كما يشير اليه أول سورة ص وآيات أُخر.

فكأنه يقول: قل لهم إن الذي تلوت عليكم من أمره تعالى بعبادته بإخلاص الدين ـ وقد وجه به الخطاب الى ـ ليس المراد به مجرد دعوتكم الى ذلك بإقامتي في الخطاب مقام السامع فيكون من قبيل «إياك أعني واسمعي يا جارة» بل أنا كأحدكم مأمور بعبادته مخلصا له الدين، ولا ذلك فحسب، بل مأمور بأن أكون أول المسلمين لما ينزل الى من الوحي فأسلم له أولاً ثم ابلغه لغيري ـ فأنا أخاف ربي وأعبده بالإخلاص آمنتم به أو كفرتم فلا تطمعوا في.

فقوله: «قل إني امرت أن أعبد الله مخلصا له الدين» إشارة الى أنه ﷺ يشارك غيره في الأر بدون الإخلاص.

وقوله: ﴿ **وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ إشارة الى أن في الأمر المتوجه الى زيادة على ما توجه اليكم من التكليف وهو أني امرت بما امرت وقد توجه الخطاب الى قبلكم والغرض منه أن أكون أول من أسلم لهذا الأمر وآمن به.

قيل: اللام في قوله: «لأن أكون» للتعليل والمعنى وأُمرت بذلك لأجل أن أكون أول المسلمين، وقيل: اللام زائدة كما تركت اللام في قوله تعالى: ﴿**قل إني أُمرت أن أكون أول من أسلم**﴾ (الأنعام / ١٤).

ومآل الوجهين واحد بحسب المعنى فإن كونه ﷺ أول المسلمين يعطى عنوانا لإسلامه وعنوان الفعل يصح أن يجعل غاية للأمر بالفعل وأن يجعل متعلقا للامر فيؤمر به يقال: اضربه للتأديب، ويقال: أدبه بالضرب.

قال في الكشاف: وفي معناه أوجه: أن أكون أول من أسلم في زماني ومن قومي لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها، وأن أكون أول الذين دعوتهم الى الإسلام

إسلاما . وأن أكون أول من دعا نفسه الى ما دعا غيره لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعا ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون . وأن أفعل ما أستحق به الأولية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب . انتهى .

وأنت خبير بأن الأنسب لسياق الآيات هو الوجه الثالث وهو الذي قدمناه ويلزمه سائر الوجوه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ المراد بمعصية ربه بشهادة السياق مخالفة أمره بعبادته مخلصا له الدين ، وباليوم العظيم يوم القيامة والآية كالتوطئة لمضمون الآية التالية .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ تصريح بأنه ممتثل لأمر ربه مطيع له بعد التكنية عنه في الآية السابقة ، وإيآس لهم أن يطمعوا فيه أن يخالف أمر ربه .

وتقديم المفعول في قوله : « قل الله أعبد » يفيد الحصر ، وقوله : « مخلصا له ديني » يؤكد معنى الحصر ، وقوله : « فاعبدوا ما شئتم من دونه » أمر تهديدي بمعنى أنهم لا ينفعهم ذلك فإنهم مصيبهم وبال إعراضهم عن عبادة الله بالإخلاص كما يشير اليه ذيل الآية « قل إن الخاسرين » الخ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الخ : الخسر والخسران ذهاب رأس المال إما كلا أو بعضا والخسران أبلغ من الخسر . وخسران النفس هو إيرادها مورد الهلكة والشقاء بحيث يبطل منها استعداد الكمال فيفوتها السعادة بحيث لا يطمع فيها وكذا خسارة الأهل .

وفي الآية تعريض للمشركين المخاطبين بقوله : « فاعبدوا ما شئتم من دونه » كأنه يقول : فأياما عبدتم فإنكم تخسرون أنفسكم بإيرادها بالكفر مورد الهلكة وأهليكم وهم خاصتكم

بحملهم على الكفر والشرك وهي الخسران بالحقيقة.

وقوله: ﴿أَلا ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ وذلك لأن الخسران المتعلق بالدنيا ـ وهو الخسران في مال أو جاه ـ سريع الزوال منقطع الآخر بخلاف خسران يوم القيامة الدائم الخالد فإنه لا زوال له ولا انقطاع.

على أن المال أو الجاه إذا زال بالخسران أمكن أن يخلفه آخر مثله أو خير منه بخلاف النفس إذا خسرت.

هذا على تقدير كون المراد بالأهل خاصة الإنسان في الدنيا. وقيل: المراد بالأهل من أعده الله في الجنة للإنسان لو آمن واتقى من أزواج وخدم وغيرهم وهو أوجه وأنسب للمقام فإن النسب وكل رابطة من الروابط الدنيوية الاجتماعية مقطوعة يوم القيامة قال تعالى: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ﴾ (المؤمنون / ١٠١) وقال: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئا﴾ (الانفطار / ١٩) الى غير ذلك من الآيات.

ويؤيده أيضاً قوله تعالى: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسروراً﴾ (الإنشقاق / ٩).

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ الخ: الظلل جمع ظلة وهي ـ كما قيل ـ الستر العالي.

والمراد بكونها من فوقهم ومن تحتهم إحاطتها بهم فإن المعهود من النار الجهتان والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللّٰهِ لَهُمُ الْبُشْرىٰ﴾ قال الراغب: الطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله ويستعمل في الواحد والجمع. انتهى. والظاهر أن المراد بها في الآية الأوثان وكل معبود طاغ من دون الله.

ولم يقتصر على مجرد اجتناب عبادة الطاغوت بل أضاف اليه قوله: «وأنابوا الى الله»

إشارة الى أن مجرد النفي لا يجدي شيئاً بل الذي ينفع الإنسان بمجموع النفي والإثبات، عبادة الله وترك عبادة غيره وهو عبادته مخلصاً له الدين.

وقوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ إنشاء بشرى وخبر لقوله: «والذين اجتنبوا» الخ.

قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ الى آخر الآية؛ كان مقتضى الظاهر أن يقال: فبشرهم غير أنه قيل: فبشر عباد واضيف الى ضمير التكلم لتشريفهم به ولتوصيفهم بقوله: «الذين يستمعون القول» الخ.

والمراد بالقول بقرينة ما ذكر من الإتباع ماله نوع ارتباط ومساس بالعمل فأحسن القول أرشده في إصابة الحق وأنصحه للإنسان، والإنسان إذا كان ممن يحب الحسن وينجذب الى الجمال كان كلما زاد الحسن زاد انجذابا فإذا وجد قبيحا وحسنا مال الى الحسن، وإذا وجد حسنا وأحسن قصد ما هو أحسن. وأما لو لم يمل الى الأحسن وانجمد على الحسن كشف ذلك عن أنه لا ينجذب اليه من حيث حسنه وإلا زاد الانجذاب بزيادة الحسن.

فتوصيفهم باتباع أحسن القول معناه أنهم مطبوعون على طلب الحق وإرادة الرشد وإصابة الواقع فكلما دار الأمر بين الحق والباطل والرشد والغي اتبعوا الحق والرشد وتركوا الباطل والغي وكلما دار الأمر بين الحق والأحق والرشد وما هو أكثر رشداً أخذوا بالأحق الأرشد.

فالحق والرشد هو مطلوبهم ولذلك يستمعون القول ولا يردون قولا بمجرد ما قرع سمعهم اتباعاً لهوى أنفسهم من غير أن يتدبروا فيه ويفقهوه.

فقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ مفاده أنهم طالبوا الحق والرشد يستمعون القول رجاء أن يجدوا فيه حقا وخوفا أن يفوتهم شيء منه.

وقيل: المراد باستماع القول واتباع أحسنه استماع القرآن وغيره واتباع القرآن، وقيل: المراد استماع أوامر الله تعالى واتباع أحسنها كالقصاص والعفو فيتبعون العفو وإبداء الصدقات

وإخفائها فيتبعون الإخفاء؛ والقولان من قبيل التخصيص من غير مخصص.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ إشارة الى أن هذه الصفة هي الهداية الإلهية وهذه الهداية أعني طلب الحق والتهيأ التام لاتباع الحق أينما وجد هي الهداية الإجمالية واليها تنتهي كل هداية تفصيلية الى المعارف الإلهية.

وقوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ذوو العقول ويستفاد منه أن العقل هو الذي به الإهتداء الى الحق وآيته صفة اتباع الحق، وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ (البقرة / ١٣٠) أنه يستفاد منه أن العقل ما يتبع به دين الله.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ ثبوت كلمة العذاب وجوب دخول النار بالكفر بقوله عند إهباط آدم الى الأرض: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أُولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة / ٣٩) وما في معناه من الآيات.

ومقتضى السياق أن في الآية إضماراً يدل عليه قوله: «أفأنت تنقذ من في النار» والتقدير أفمن حقت عليه كلمة العذاب ينجو منه وهو اولى من تقدير قولنا: خير أم من وجبت عليه الجنة.

وقيل: المعنى أفمن وجب عليه وعيده تعالى بالعقاب أفأنت تخلصه من النار فاكتفى بذكر «من النار» عن ذكر الضمير العائد الى المبتدء وجيء بالاستفهام مرتين للتأكيد تنبيها على المعنى.

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الغرف جمع غرفة وهي المنزل الرفيع. قيل: وهذا في مقابلة قوله في الكافرين: «لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل».

وقوله: ﴿ وَعْدَ اللّٰهِ ﴾ اي وعدهم الله ذلك وعداً فهو مفعول مطلق قائم مقام فعله وقوله: «لا يخلف الله الميعاد» إخبار عن سنته تعالى في مواعيده وفيه تطييب لنفوسهم.

٢١ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسَلَكَهُ يَنٰابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوٰانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرٰيهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطٰاماً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ.

٢٢ ۞ أَفَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ فَهُوَ عَلىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقٰاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللّٰهِ أُولٰئِكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ.

٢٣ ۞ اللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتٰاباً مُتَشٰابِهاً مَثٰانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلىٰ ذِكْرِ اللّٰهِ ذٰلِكَ هُدَى اللّٰهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشٰاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ.

٢٤ ۞ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذٰابِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَقِيلَ لِلظّٰالِمِينَ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ.

٢٥ ۞ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتٰيهُمُ الْعَذٰابُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَشْعُرُونَ.

٢٦ ۞ فَأَذٰاقَهُمُ اللّٰهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيٰا وَلَعَذٰابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ.

٢٧ ۞ وَلَقَدْ ضَرَبْنٰا لِلنّٰاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

٢٨ ◉ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ.

٢٩ ◉ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ.

٣٠ ◉ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ.

٣١ ◉ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ.

٣٢ ◉ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ.

٣٣ ◉ وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ.

٣٤ ◉ لَهُمْ ما يَشاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ.

٣٥ ◉ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ.

٣٦ ◉ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ.

٣٧ ◉ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ﴾ الى آخر الآية. قال في المجمع: الينابيع جمع ينبوع وهو الذي ينبع منه الماء، يقال نبع الماء من موضع كذا إذا فار منه. والزرع ما ينبت على غير ساق والشجر ما له ساق وأغصان النبات يعم الجميع. وهاج النبت يهيج هيجا إذا جف وبلغ نهايته في اليبوسة. والحطام فتات التبن

والحشيش. انتهى.

وقوله: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فأدخله في عيون ومجاري في الأرض هي كالعروق في الأبدان تنقل ما تحمله من جانب الى جانب، والباقي ظاهر والآية ـ كما ترى ـ تحتج على توحده تعالى في الربوبية.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الخ: لما ذكر في الآية السابقة أن فيما ذكره من إنزال الماء وإنبات النبات ذكر لاولى الألباب وهم عباده المتقون وقد ذكر قبل أنهم الذين هداهم الله ذكر في هذه الآية أنهم ليسوا كغيرهم من الضالين وأوضح السبب في ذلك وهو أنهم على نور من ربهم يبصرون به الحق وفي قلوبهم لين لا تعصي عن قبول ما يلقى اليهم من أحسن القول.

فقوله: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ خبره محذوف يدل عليه قوله: «فويل للقاسية قلوبهم» الخ: أي كالقاسية قلوبهم والاستفهام للانكار أي لا يستويان.

وشرح الصدر بسطه ليسع ما يلقى اليه من القول وإذ كان ذلك للاسلام وهو التسليم لله فيما أراد وليس إلا الحق كان معناه كون الإنسان بحيث يقبل ما يلقى اليه من القول الحق ولا يرده، وليس قبولاً من غير دراية وكيفما كان بل عن بصيرة بالحق وعرفان بالرشد ولذا عقبه بقوله: «فهو على نور من ربه» فجعله بحسب التمثيل راكب نور يسير عليه ويبصر ما يمر به في ساحة صدره الرحب الوسيع من الحق فيبصره ويميزه من الباطل بخلاف الضال الذي لا في صدره شرح فيسع الحق ولا هو راكب نور من ربه فيبصر الحق ويميزه.

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ تفريع على الجملة السابقة بما يدل على أن القاسية القلوب ـ وقساوة القلب وصلابته لازمة عدم شرح الصدر وعدم النور ـ لا يتذكرون بآيات الله فلا يهتدون الى ما تدل عليه من الحق، ولذا عقبه بقوله: «أولئك في ضلال مبين».

وفي الآية تعريف الهداية بلازمها وهو شرح الصدر وجعله على نور من ربه، وتعريف الضلال بلازمه وهو قساوة القلب من ذكر الله.

وقد تقدم في تفسير قوله: ﴿ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام﴾ الآية (الأنعام / ١٢٥) كلام في معنى الهداية فراجع.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾ الى آخر الآية كالاجمال بعد التفصيل بالنسبة الى الآية السابقة بالنظر الى ما يتحصل من الآية في معنى الهداية وان كانت بيانا لهداية القرآن.

فقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ هو القرآن الكريم والحديث هو القول كما في قوله تعالى: ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ (الطور / ٣٤)، وقوله: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ (المرسلات / ٥٠) فهو أحسن القول لاشتماله على محض الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو كلامه المجيد.

وقوله: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ أي يشبه بعض أجزائه بعضا وهذا غير التشابه الذي في المتشابه المقابل للمحكم فإنه صفة بعض آيات الكتاب وهذا صفة الجميع.

وقوله: ﴿مَثَانِيَ﴾ جمع مثنية بمعنى المعطوف لانعطاف بعض آياته على بعض ورجوعه اليه بتبين بعضها ببعض وتفسير بعضها لبعض من غير اختلاف فيها بحيث يدفع بعضه بعضاً ويناقضه كما قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ (النساء / ٨٢).

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ صفة الكتاب وليس استئنافا، والاقشعرار تقبض الجلد تقبضا شديداً لخشية عارضة عن استماع أمر هائل أو رؤيته، وليس ذلك إلا لأنهم على تبصر من موقف نفوسهم قبال عظمة ربهم فإذا سمعوا كلامه توجهوا الى ساحة العظمة والكبرياء فغشيت قلوبهم الخشية وأخذت جلودهم في الاقشعرار.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ «تلين» مضمنة معنى السكون والطمأنينة ولذا عدي بالى والمعنى ثم تسكن وتطمئن جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله لينة تقبله أو تلين له ساكنة اليه.

ولم يذكر القلوب في الجملة السابقة عند ذكر الاقشعرار لأن المراد بالقلوب النفوس ولا اقشعرار لها وإنما لها الخشية.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ما يأخذهم من اقشعرار الجلود من القرآن ثم سكون جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله هو هدى الله وهذا تعريف آخر للهداية بلازمها.

وقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يهدي بهداه من يشاء من عباده وهو الذي لم يبطل استعداده للاهتداء ولم يشغل بالموانع عنه كالفسق والظلم وفي السياق إشعار بأن الهداية من فضله وليس بموجب فيها مضطر اليها.

فالهداية كلها لله إما بلا واسطة أو بواسطة الهداة المهديين من خلقه وعلى هذا فمن أضله من خلقه بأن لم يهده بالواسطة ولا بلا واسطة فلا هادي له وذلك قوله في ذيل الآية: «ومن يضلل الله فما له من هاد» وسيأتي الجملة بعد عدة آيات وهي متكررة في كلامه تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ مقايسة بين أهل العذاب يوم القيامة والآمنين منه والفريقان هما أهل الضلال وأهل الهدى ولذا عقب الآية السابقة بهذه الآية.

والاستفهام للإنكار وخبر «من» محذوف والتقدير كمن هو في أمن منه، ويوم القيامة متعلق بيتقي. والمعنى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة لكون يده التي بها كان يتقي المكاره مغلولة الى عنقه كمن هو آمن من العذاب لا يصيبه مكروه. كذا قيل.

وقوله: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ القول لملائكة النار،

والظاهر أن الجملة بتقدير قد أو بدونه والأصل وقيل لهم ذوقوا، الخ؛ لكن وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على علة الحكم وهي الظلم.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَيهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أي من الجهة التي لا يحتسبون ففوجؤا وأخذوا على غفلة وهو أشد الأخذ. وفي الآية وما بعدها بيان لما أصاب بعض الكفار من عذاب الخزي ليكون عبرة لغيرهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الخزي هو الذل والصغار. وقد أذاقهم الله ذلك في ألوان من العذاب أنزلنا عليهم كالغرق والخسف والصيحة والرجفة والمسخ والقتل.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ضربنا لهم من كل نوع من الأمثال شيئاً لعلهم يتنبهون ويعتبرون ويتعظون بتذكر ما تتضمنه.

قوله تعالى: ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ العوج الانحراف والانعطاف. «قرآنا عربيا» منصوب على المدح بتقدير أمدح أو أخص ونحوه أو حال معتمد على الوصف.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ الخ؛ قال الراغب: الشكس ـ بالفتح فالكسر ـ سيىء الخلق، وقوله: «شركاء متشاكسون» أي متشاجرون لشكاسة خلقهم. انتهى وفسروا السلم بالخالص الذي لا يشترك فيه كثيرون.

مثل ضربه الله للمشرك الذي يعبد أربابا وآلهة مختلفين فيشتركون فيه وهم متنازعون فيأمره هذا بما ينهاه عنه الآخر وكل يريد أن يتفرد فيه ويخصه بخدمة نفسه، وللموحد الذي هو خالص لمخدوم واحد لا يشاركه فيه غيره فيخدمه فيما يريد منه من غير تنازع يؤدي الى

الحيرة فالمشرك هو الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون والموحد هو الرجل الذي هو سلم لرجل. لا يستويان بل الذي هو سلم لرجل أحسن حالا من صاحبه.

وهذا مثل ساذج ممكن الفهم لعامة الناس لكنه عند المداقة يرجع الى قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ (الأنبياء / ٢٢) وعاد برهاناً على نفي تعدد الأرباب والآلهة.

وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناء لله بما أن عبوديته خير من عبودية من سواه.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مزية عبادته على عبادة غيره على ما له من الظهور التام لمن له أدنى بصيرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ الآية الاولى تمهيد لما يذكر في الثانية من اختصامهم يوم القيامة عند ربهم والخطاب في «إنكم» للنبي ﷺ وامته أو المشركين منهم خاصة والاختصام ـ كما في المجمع ـ رد كل واحد من الاثنين ما أتى به الآخر على وجه الإنكار عليه.

والمعنى: إن عاقبتك وعاقبتهم الموت ثم إنكم جميعا يوم القيامة بعد ما حضرتم عند ربكم تختصمون وقد حكى مما يلقيه النبي ﷺ: ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ (الفرقان / ٣٠).

والآيتان عامتان بحسب لفظهما لكن الآيات الأربع التالية تؤيد أن المراد بالاختصام ما يقع بين النبي ﷺ وبين الكافرين من امته يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ في الآية وما بعدها مبادرة الى ذكر ما ينتهي اليه أمر اختصامهم يوم القيامة وتلويح الى ما هو نتيجة القضاء بينهم كأنه قيل: ونتيجة ما يقضى به بينكم معلومة اليوم وأنه من هو الناجي منكم، ومن هو الهالك؟ فإن القضاء يومئذ يدور مدار الظلم والإحسان ولا أظلم من الكافر والمؤمن متق محسن والظلم الى النار والإحسان الى

الجنة. هذا ما يعطيه السياق.

فقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي افترى عليه بأن ادعى أن له شركاء والظلم يعظم بعظم من تعلق به وإذا كان هو الله سبحانه كان أعظم من كل ظلم ومرتكبه أظلم من كل ظالم.

وقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ المراد بالصدق الصادق من النباء وهو الدين الإلهي الذي جاء به الرسول بقرينة قوله: «إذ جاءه».

وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ﴾ المثوى اسم مكان بمعنى المنزل والمقام. والاستفهام للتقرير أي إن في جهنم مقام هؤلاء الظالمين لتكبرهم على الحق الموجب لافترائهم على الله وتكذيبهم بصادق النباء الذي جاء به الرسول.

والآية خاصة بمشركي عهد النبي ﷺ أو بمشركي امته بحسب السياق وعامة لكل من ابتدع بدعة وترك سنة من سنن الدين.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ المراد بالمجيء بالصدق الإتيان بالدين الحق والمراد بالتصديق به الإيمان به والذي جاء به النبي ﷺ.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ لعل الإشارة الى الذي جاء به بصيغة الجمع لكونه جمعا بحسب المعنى وهو كل نبي جاء بالدين الحق وآمن بما جاء به بل وكل مؤمن آمن بالدين الحق ودعى اليه فإن الدعوة الى الحق قولا وفعلا من شئون اتباع النبي. قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ (يوسف / ١٠٨).

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ هذا جزاؤهم عند ربهم وهو أن لهم ما تتعلق به مشيتهم فالمشية هناك هي السبب التام لحصول ما يشاؤه الإنسان أياما كان بخلاف ما عليه الأمر في الدنيا فإن حصول شيء من مقاصد الحياة فيها يتوقف ـ مضافا الى المشية ـ على عوامل وأسباب كثيرة منها السعي والعمل المستمد من

الاجتماع والتعاون.

فالآية تدل أولاً على إقامتهم في دار القرب وجوار رب العالمين. وثانياً أن لهم ما يشاؤن فهذان جزاء المتقين وهم المحسنون فإحسانهم هو السبب في إيتائهم الأجر المذكور وهذه هي النكتة في إقامة الظاهر مقام الضمير في قوله: «وذلك جزاء المحسنين» وكان مقتضى الظاهر أن يقال: وذلك جزاؤهم.

وتوصيفهم بالإحسان وظاهره العمل الصالح أو الاعتقاد الحق والعمل الحسن جميعا يشهد أن المراد بالتصديق المذكور هو التصديق قولا وفعلا. على أن القرآن لا يسمي تارك بعض ما أنزله الله من حكم مصدقا به.

قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَءَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ الى آخر الآية ومن المعلوم أنه إذا كفر أسوء أعمالهم كفر ما دون ذلك، والمراد بأسوء الذي عملوا ما هو كالشرك والكبائر.

قال في مجمع البيان في الآية: أي أسقط الله عنهم عقاب الشرك والمعاصي التي فعلوها قبل ذلك بإيمانهم وإحسانهم ورجوعهم الى الله تعالى انتهى وهو حسن من جهة تعميم الأعمال السيئة، ومن جهة تقييد التكفير بكونه قبل ذلك بالايمان والإحسان والتوبة فإن الآية تبين أثر تصديق الصدق الذي أتاهم وهو تكفير السيئات بالتصديق والجزاء الحسن في الآخرة.

وقوله: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يمكن أن يقال: إن المراد أنه ينظر الى أرفع أعمالهم درجة فيترفع درجتهم بحسبه فلا يضيع شيء مما هو آخر ما بلغه عملهم من الكمال لكن في جريان نظير الكلام في تكفير الأسوء خفاء.

وقيل: صيغة التفضيل في الآية «أسوء» و«أحسن» مستعملة في الزيادة المطلقة من غير نظر الى مفضل عليه فإن معصية الله كلها أسوء وطاعته كلها أحسن.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ المراد

بالذين من دون آلهتهم من دون الله على ما يستفاد من السياق. والمراد بالعبد من مدحه الله تعالى في الآيات السابقة ويشتمل النبي ﷺ شمولا أولياً.

والاستفهام للتقرير والمعنى هو يكفيهم. وفيه تأمين للنبي ﷺ قبال تخويفهم إياه بآلهتهم وكناية عن وعده بالكفاية كما صرح به في قوله: ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾ (البقرة / ١٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ الخ: جملتان كالمتعاكستين مرسلتان إرسال الضوابط الكلية ولذا جيء فيهما باسم الجلالة وكان من قبيل وضع الظاهر موضع الضمير.

وفي تعقيب قوله: «أليس الله بكاف» الخ؛ بقوله: «ومن يضلل» الخ؛ إشارة الى أن هؤلاء المخوفين لا يهتدون بالإيمان أبداً ولن ينجح مسعاهم وأنهم لن ينالوا بغيتهم ولا امنيتهم من النبي ﷺ فإن الله لن يضله وقد هداه.

قوله: ﴿أَلَيْسَ اللّٰهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقٰامٍ﴾ استفهام للتقرير أي هو كذلك، وهو تعليل ظاهر لقوله: «ومن يضلل الله» الخ؛ فإن عزته وكونه ذا انتقام يقتضيان أن ينتقم ممن جحد الحق وأصر على كفره فيضله ولا هادي يهديه لأنه تعالى عزيز لا يغلبه فيما يريد غالب. وكذا إذا هدى عبداً من عباده لتقواه وإحسانه لم يقدر على إضلاله مضل.

وفي التعليل دلالة على أن الإضلال المنسوب الى الله تعالى هو ما كان على نحو المجازاة والانتقام دون الضلال الابتدائي وقد مر مراراً.

٣٨ ۞ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ إِنْ أَرٰادَنِيَ اللّٰهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ

كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ
قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ.
٣٩ • قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.
٤٠ • مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ.
٤١ • إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ
وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ.
٤٢ • اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها
فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرىٰ إِلىٰ أَجَلٍ
مُسَمًّى إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.
٤٣ • أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ
شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ.
٤٤ • قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ.
٤٥ • وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ
بِالآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ.
٤٦ • قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ
أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.
٤٧ • وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ
لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما

لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ.

٤٨ ● وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ.

٤٩ ● فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

٥٠ ● قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

٥١ ● فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ.

٥٢ ● أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ الى آخر الآية: شروع في إقامة الحجة وقد قدم لها مقدمة تبتني الحجة عليها وهي مسلمة عند الخصم وهي أن خالق العالم هو الله سبحانه فإن الخصم لا نزاع له في أن الخالق هو الله وحده لا شريك له وإنما يدعي لشركائه التدبير دون الخلق.

وإذا كان الخلق اليه تعالى فما في السماوات والأرض من عين ولا أثر إلا وينتهي وجوده اليه تعالى فما يصيب كل شيء من خير أو شر كان وجوده منه تعالى وليس لأحد أن يمسك خيراً يريده تعالى له أو يكشف شرا يريده تعالى له لأنه من الخلق والايجاد ولا شريك له تعالى في الخلق والايجاد حتى يزاحمه في خلق شيء أو يمنعه من خلق شيء أو يسبقه الى خلق شيء

والتدبير نظم الامور وترتيب بعضها على بعض خلق وإيجاد فالله الخالق لكل شيء كاف في تدبير أمر العالم لأنه الخالق لكل شيء وليس وراء الخلق شيء حتى يتوهم إستناده الى غيره فهو الله رب كل شيء وإلهه لا رب سواه ولا إله غيره.

فقوله: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي أقم الحجة عليهم بانياً لها على هذه المقدمة المسلمة عندهم أن الله خالق كل شيء وقل مفرعاً عليه أخبروني عما تدعون من دون الله. والتعبير عن آلهتهم بلفظة «ما» دون «من» ونحوه يفيد تعميم البيان للأصنام وأربابها جميعا فإن الخواص منهم وإن قصروا العبادة على الأرباب من الملائكة وغيرهم واتخذوا الأصنام قبلة وذريعة الى التوجه الى أربابها لكن عامتهم ربما أخذوا الأصنام نفسها أربابا وآلهة يعبدونها ونتيجة الحجة عامة تشمل الجميع.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ الضر كالمرض والشدة ونحوهما. وظاهر مقابلته الرحمة عمومه لكل مصيبة. وإضافة الضر والرحمة الى ضميره تعالى في «كاشفات ضره» و«ممسكات رحمته» لحفظ النسبة لأن المانع من كشف الضر وإمساك الرحمة هو نسبتها اليه تعالى.

وتخصيص الضر والرحمة به ﷺ من عموم الحجة له ولغيره لكونه المخاصم الأصيل لهم وقد خوفوه بآلهتهم من دون الله.

وإرجاع ضمير الجمع المؤنث الى ما يدعونه من دون الله لتغليب جانب غير اولي العقل من الأصنام وهو يؤيد ما قدمناه في قوله: «أفرأيتم ما تدعون من دون الله» أن التعبير بما لتعميم الحجة للأصنام وأربابها.

وقوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أمر بالتوكل عليه تعالى كما يدل عليه قوله بعده: «عليه يتوكل المتوكلون» وهو موضوع موضع نتيجة الحجة كأنه قيل: قل لهم: إني اتخذت الله وكيلا

لأن أمر تدبيري اليه كما أن أمر خلقي اليه فهو في معنى قولنا: فقد دلت الحجة على ربوبيته وصدقت ذلك عملا باتخاذه وكيلا في اموري.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ تقديم الظرف على متعلقة للدلالة على الحصر أي عليه يتوكلون لا على غيره، وإسناد الفعل الى الوصف من مادته للدلالة على كون المراد المتوكلين بحقيقة معنى التوكل ففي الجملة ثناء عليه تعالى بأنه الأهل للتوكل عليه يتوكل أهل البصيرة في التوكل فلا لوم علي إن توكلت عليه وقلت: حسبي الله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ ـ الى قوله ـ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾ المكانة هي المنزلة والقدر وهي في المعقولات كالمكان في المحسوسات فأمرهم بأن يعملوا على مكانتهم معناه أمرهم أن يستمروا على الحالة التي هم عليها من الكفر والعناد والصد عن سبيل الله.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ﴾ الظاهر أن «من» استفهامية لا موصولة لظهور العلم فيما يتعلق بالجملة لا بالمفرد.

وقوله: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾ أي دائم وهو المناسب للحلول. وتفكيك أمر العذابين يشهد أن المراد بالأول عذاب الدنيا وبالثاني عذاب الآخرة. وفي الكلام أشد التهديد.

والمعنى قل مخاطباً للمشركين من قومك: يا قوم اعملوا ـ مستمرين ـ على حالتكم التي أنتم عليها من الكفر والعناد إني عامل ـ كما اؤمر غير منصرف عنه ـ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويذله؟ وهو عذاب الدنيا كما في يوم بدر ويحل عليه ولا يفارقه عذاب دائم وهو عذاب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ الى آخر الآية. في مقام التعليل للأمر الذي في الآية السابقة، واللام في قوله: «للناس» للتعليل أي لأجل الناس أن

تتلوه عليهم وتبلغهم ما فيه . والباء في قوله : «بالحق» للملابسة أي ملابسا للحق لا يشوبه باطل .

وقوله : ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي يتفرع على هذا الإنزال أن من اهتدى فإنما يعود نفعه من سعادة الحياة وثواب الدار الآخرة الى نفسه ، ومن ضل ولم يهتد به فإنما يعود شقاؤه ووباله من عقاب الدار الآخرة الى نفسه فالله سبحانه أجل من أن ينتفع بهداهم أو يتضرر بضلالهم .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي مفوضاً اليه أمرهم قائما بتدبير شئونهم حتى توصل ما فيه من الهدى الى قلوبهم .

والمعنى إنما أمرناك أن تهددهم بما قلنا لأنا نزلنا عليك الكتاب بالحق لأجل أن تقرأه على الناس لا غير فمن اهتدى منهم فإنما يعود نفعه الى نفسه ومن ضل ولم يهتد به فإنما يعود ضرره الى نفسه وما أنت وكيلا من قبلنا عليهم تدبر شئونهم فتوصل الهدى الى قلوبهم فليس لك من الأمر شيء .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ الى آخر الآية ، قال في المجمع : التوفي قبض الشيء على الإيفاء والإتمام يقال : توفيت حقي من فلان واستوفيته بمعنى . انتهى .

تقديم المسند اليه في الآية يفيد الحصر أي هو تعالى المتوفي لها لا غير وإذا انضمت الآية الى مثل قوله تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ (السجدة / ١١) ، وقوله : ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ﴾ (الأنعام / ٦١) أفادت معنى الأصالة والتبعية أي إنه تعالى هو المتوفي بالحقيقة وملك الموت والملائكة الذين هم أعوانه أسباب متوسطة يعملون بأمره .

وقوله : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ المراد بالأنفس الأرواح المتعلقة بالأبدان لا مجموع الأرواح والأبدان لأن المجموع غير مقبوض عند الموت وإنما المقبوض هو

الروح يقبض من البدن بمعنى قطع تعلقه بالبدن تعلق التصرف والتدبير والمراد بموتها موت أبدانها إما بتقدير المضاف أو بنحو المجاز العقلي، وكذا المراد بمنامها.

وقوله: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ معطوف على الأنفس في الجملة السابقة، والظاهر أن المنام اسم زمان وفي منامها متعلق بيتوفى والتقدير ويتوفى الأنفس التي لم تمت في وقت نومها.

ثم فصل تعالى في القول في الأنفس المتوفاة في وقت النوم فقال: «فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى» أي فيحفظ النفس التي قضي عليها الموت كما يحفظ النفس التي توفاها حين موتها ولا يردها الى بدنها، ويرسل النفس الاخرى التي لم يقض عليها الموت الى بدنها الى أجل مسمى تنتهي اليه الحياة.

وجعل الأجل المسمى غاية للإرسال دليل على أن المراد بالإرسال جنسه بمعنى أنه يرسل بعض الأنفس إرسالاً واحداً وبعضها إرسالا بعد إرسال حتى ينتهي الى الأجل المسمى.

ويستفاد من الآية أولاً: أن النفس موجود مغاير للبدن بحيث تفارقه وتستقل عنه وتبق بحيالها.

وثانيا: أن الموت والنوم كلاهما توف وإن افترقا في أن الموت توف لا إرسال بعده والنوم توف ربما كان بعده إرسال.

ثم تمم الآية بقوله: «إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» فيتذكرون أن الله سبحانه هو المدبر لأمرهم وأنهم اليه راجعون سيحاسبهم على ما عملوا.

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ الخ: «أم» منقطعة أي بل اتخذ المشركون من دون الله شفعاء وهم آلهتهم الذين يعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله سبحانه كما قال في أول السورة: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ وقال: ﴿يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند

الله ﴾ (يونس / ١٨).

وقوله: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ أمر بأن يرده عليهم بالمناقشة في إطلاق كلامهم فإن من البديهي أن الشفاعة تتوقف على علم في الشفيع يعلم به ما يريد؟ وممن يريد؟ ولمن يريد؟ فلا معنى لشفاعة الجماد الذي لا شعور له وكذا تتوقف على أن يملك الشفيع الشفاعة ويكون له حق أن يشفع ولا ملك لغير الله إلا أن يملكه الله شيئاً ويأذن له في التصرف فيه فقولهم بشفاعة أوليائهم مطلقا الشامل لما لا يملكونه ولا علم لهم بإذنه تعالى لهم فيها تخرص.

فالاستفهام في «أو لو كانوا» الخ؛ للإنكار والمعنى قل لهم: هل تتخذونهم شفعاء لكم ولو كانوا لا يملكون من عند أنفسهم شيئاً كالملائكة ولا يعقلون شيئاً كالأصنام؟ فإنه سفه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلّٰهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الخ؛ توضيح وتأكيد لما مر من قوله: «قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً» واللام في «لله» للملك، وقوله: «له ملك السماوات والأرض» في مقام التعليل الجملة السابقة. والمعنى كل شفاعة فإنها مملوكة لله فإنه المالك لكل شيء إلا أن يأذن لأحد في شيء منها فيملكه إياها. وأما استغلال بعض عباده كالملائكة بملك الشفاعة مطلقاً كما يقولون فمما لا يكون قال تعالى: ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ (يونس / ٣).

وللآية معنى آخر أدق إذا انضمت الى مثل قوله تعالى: ﴿ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ (الأنعام / ٥١) وهو أن الشفيع بالحقيقة هو الله سبحانه وغيره من الشفعاء لهم الشفاعة بإذن منه فقد تقدم في بحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب أن الشفاعة ينتهي الى توسط بعض صفاته تعالى بينه وبين المشفوع له لإصلاح حاله كتوسط الرحمة والمغفرة بينه وبين عبده المذنب لانجائه من وبال الذنب وتخليصه من العذاب.

والفرق بين هذا الملك وما في الوجه السابق أن المالك لا يتصف بمملوكه في الوجه السابق

كما في ملك زيد للدار بخلاف الملك في هذا الوجه فإن المالك فيه يتصف بمملوكه كملك زيد الشجاع لشجاعته.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تعليل آخر لكونه يملك الشفاعة جميعا الدال على الحصر وذلك أن الشفاعة إنما يملكها الذي ينتهي اليه أمر المشفوع له إن شاء قبلها وأصلح حال المشفوع له وأما غيره فإنما يملكها إذا رضي بها وأذن فيها والله سبحانه هو الذي يرجع اليه العباد دون الذين يدعون من دون الله فالله هو المالك للشفاعة جميعا فقولهم يكون أوليائهم شفعاء لهم مطلقا ثم عبادتهم لهم كذلك بناء بلا مبنى يعتمد عليه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ الخ: المراد من ذكره تعالى وحده جعله مفردا بالذكر من غير ذكر آلهتهم ومن مصاديقه قول لا إله إلا الله، والاشمئزاز الانقباض والنفور عن الشيء.

وإنما ذكر من وصفهم عدم إيمانهم بالآخرة لأن ذلك هو الأصل في اشمئزازهم ولو كانوا مؤمنين بالآخرة وأنهم يرجعون الى الله فيجازيهم بأعمالهم عبدوه دون أوليائهم ولم يرغبوا عن ذكره وحده.

وقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ المراد بالذين من دونه آلهتهم، والاستبشار سرور القلب بحيث يظهر أثره في الوجه.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ﴾ الخ: لما بلغ الكلام مبلغا لا يرجى معه فيهم خير لنسيانهم أمر الآخرة وإنكارهم الرجوع اليه تعالى حتى كانوا يشمئزون من ذكره تعالى وحده أمره ﷺ أن يذكره تعالى وحده ويذكرهم حكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه في صورة الإلتجاء اليه تعالى على ما فيه من الإقرار بالبعث وقد وصف الله تعالى بأنه فاطر السماوات والأرض أي مخرجها من كتم العدم الى ساحة الوجود، وعالم الغيب والشهادة فلا يخفى عليه شيء، ولازمه أن يحكم بالحق

وينفذ حكمه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الخ: المراد بالذين ظلموا هم الذين ظلموا في الدنيا فالفعل يفيد مفاد الوصف، والظالمون هم المنكرون للمعاد كما قال: ﴿أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون﴾ (الأعراف / ٤٥).

والمعنى: ولو أن الظالمين المنكرين للمعاد ضعفي ما في الأرض من أموال وذخائر وكنوز لجعلوه فدية من سوء العذاب.

وقوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ البداء والبدو بمعنى الظهور والحساب والحسبان العد، والاحتساب الاعتداد بالشيء بمعنى البناء على عده شيئاً وكثيراً ما يستعمل الحسبان والاحتساب بمعنى الظن كما قيل ومنه قوله: «ما لم يكونوا يحتسبون» أي ما لم يكونوا يظنون لكن فرق الراغب بين الحسبان والظن حيث قال: والحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك، ويقارب ذلك الظن لكن الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر. انتهى.

ومقتضى سياق الآية أن المراد بيان أنهم سيواجهون يوم القيامة اموراً على صفة هي فوق ما تصوروه وأعظم وأهول مما خطر ببالهم لا أنهم يشاهدون أموراً ما كانوا يعتقدونها ويذعنون بها وبالجملة كانوا يسمعون أن الله حساباً ووزنا للأعمال وقضاء وناراً وألواناً من العذاب فيقيسون ما سمعوه ـ على إنكار منهم له ـ على ما عهدوه من هذه الامور في الدنيا فلما شاهدوها إذ ظهرت لهم وجدوها أعظم مما كان يخطر ببالهم من صفتها فهذه الآية في وصف عذابه نظير قوله في وصف نعيم أهل الجنة: ﴿فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعين﴾

(السجدة / ١٧).

وأيضاً مقتضى السياق أن البدو المذكور من قبيل الظهور بعد الخفاء والإنكشاف بعد الاستتار كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ (ق / ٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ الى آخر الآية أي ظهر لهم سيئات أعمالهم بعد ما كانت خفية عليهم فهو كقوله: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء﴾ (آل عمران / ٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ونزل عليهم وأصابهم ما كانوا يستهزؤن به في الدنيا إذا سمعون من أولياء الدين من شدائد يوم القيامة وأهواله وأنواع عذابه.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الخ؛ الآية في مقام التعليل البياني لما تقدم من وصف الظالمين ولذا صدرت بالفاء لتتفرع على ما تقدم تفرع البيان على المبين.

فهو تعالى لما ذكر من حالهم أنهم أعرضوا عن كل آية دالة على الحق ولم يصغوا الى الحجج المقامة عليهم ولم يسمعوا موعظة ولم يعتدوا بعبرة فجحدوا ربوبيته تعالى وأنكروا البعث والحساب وبلغ بهم ذلك أن اشمأزت قلوبهم إذا ذكر الله وحده.

بيّن أن ذلك مما يستدعيه طبع الإنسان المائل الى اتباع هوى نفسه والاغترار بما زين له من نعم الدنيا والأسباب الظاهرية الحافة بها فالإنسان حليف النسيان إذا مسه الضر أقبل الى ربه وأخلص له ودعاه ثم إذا خوله ربه نعمة نسبه الى علم نفسه وخبرته ونسي ربه وجهل أنها فتنة فتن بها.

فقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ أي مرض أو شدة «دعانا» أي خصنا بالدعاء

وانقطع عن غيرنا.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلىٰ عِلْمٍ﴾ التخويل الإعطاء على نحو الهبة، وتقييد النعمة بقوله: «منا» للدلالة على كون وصف النعمة محفوظاً لها والمعنى خولناه نعمة ظاهراً كونها نعمة.

وضمير «اوتيته» للنعمة بما أنه شيء أو مال والعناية في ذلك بالإشارة الى أنه لا يعترف بكونها نعمة منا بل يقطعها عنا فيسميها شيئاً أو مالاً ونحوه ولا يسميها نعمة حتى يضطره ذلك الى الاعتراف بمنعم والإشارة اليه كما قال: «اوتيته» فصفح عن الفاعل لذلك والتعبير ان أعني «نعمة منا» «إنما اوتيته» من لطيف تعبير القرآن. وقد وجهوا تذكير الضمير في «اوتيته» بوجوه أُخر غير موجهة من أرادها فليرجع الى المفصلات.

والملائم لسياق الآية أن يكون معنى «على علم» على علم مني أي اوتيت هذا الذي أُوتيت على علم مني وخبرة بطرق كسب المعاش واقتناء الثروة وجمع المال.

وقوله: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي بل النعمة التي خولناه منا فتنة أي ابتلاء وامتحان نمتحنه بذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون بذلك.

قوله تعالى: ﴿قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنىٰ عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا﴾ ضمير «قد قالها» راجع الى القول السابق باعتبار أنه مقالة أو كلمة.

والآية رد لقولهم وإثبات لكونها فتنة يمتحنون بها بأنهم لو اوتوها على علم منهم واكتسبوها بحولهم وقوتهم لأغنى عنهم كسبهم ولم يصبهم سيئات ما كسبوا وحفظوها لأنفسهم وتنعموا بها ولم يهلكوا دونها وليس كذلك فهؤلاء الذين قبلهم قالوا هذه المقالة فما أغنى عنهم كسبهم وأصابهم سيئات ما كسبوا.

والظاهر أن الآية تشير بقوله: «قد قالها الذين من قبلهم» الى قارون وأمثاله وقد حكي

عنه قول: «إنما اوتيته على علم مني» في قصته من سورة القصص.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هٰؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ الإشارة بهؤلاء الى قومه ﷺ والمعنى أن هؤلاء الذين ظلموا من قومك سبيلهم سبيل من قبلهم سيصيبهم سيئات كسبهم ووبالات عملهم وما هم بمعجزين لله.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ الخ: جواب آخر عن قول القائل منهم «إنما اوتيته على علم» وقد كان الجواب الأول «قد قالها الذين من قبلهم» الخ: جوابا من طريق النقض وهذا جواب من طريق المعارضة بالإشارة الى دلالة الدليل على أن الله سبحانه هو الذي يبسط الرزق ويقدر.

بيان ذلك: أن سعي الانسان عن علم وإرادة لتحصيل الرزق ليس سببا تاما موجبا لحصول الرزق وإلا لم يتخلف ومن البين خلافه فكم من طالب رجع آيساً وساع خاب سعيه.

فهناك علل وشرائط زمانية ومكانية وموانع مختلفة باختلاف الظروف خارجة عن حد الإحصاء، إذا اجتمعت وتوافقت أنتج ذلك حصول الرزق[١].

٥٣ ● قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

٥٤ ● وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ.

---

١. الزمر ٣٨ ـ ٥٢: بحث في بسط الرزق بمشيئته تعالى: بحث روائي في توفي الانفس حين موتها.

٥٥ ● وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ.

٥٦ ● أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ.

٥٧ ● أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ.

٥٨ ● أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ.

٥٩ ● بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ.

٦٠ ● وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ.

٦١ ● وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ الخ: أمره ﷺ أن يدعوهم من قبله ويناديهم بلفظة يا عبادي وفيه تذكير بحجة الله سبحانه على دعوتهم الى عبادتهم وترغيب لهم الى استجابة الدعوة أما التذكير بالحجة فلأنه يشير الى أنهم عباده وهو مولاهم ومن حق المولى على عبده أن يطيعه ويعبده فله أن يدعوه الى طاعته وعبادته. وأما ترغيبهم الى استجابة الدعوة فلما فيه من الإضافة اليه

تعالى الباعث لهم الى التمسك بذيل رحمته ومغفرته.

وقوله: ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ الإسراف ـ على ما ذكره الراغب ـ تجاوز الحد في كل فعل يفعله الانسان وإن كان ذلك في الانفاق أشهر؛ وكأن الفعل مضمن معنى الجناية أو ما يقرب منها ولذا عدي بعلى. والإسراف على النفس هو التعدي عليها باقتراف الذنب أعم من الشرك وسائر الذنوب الكبيرة والصغيرة على ما يعطيه السياق.

وقال جمع: إن المراد بالعباد المؤمنون وقد غلب استعماله فيهم مضافاً اليه تعالى في القرآن فمعنى يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم أيها المؤمنون المذنبون.

ويدفعه أن قوله: «يا عبادي الذين أسرفوا» الى تمام سبع آيات ذو سياق واحد متصل يفصح عن دعوتهم وقوله في ذيل الآيات: «بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت» الخ؛ كالصريح أو هو صريح في شمول العباد للمشركين.

وما ورد في كلامه تعالى من لفظ «عبادي» والمراد به المؤمنون بضعة عشر مورداً جميعها محفوفة بالقرينة وليس بحيث ينصرف عند الاطلاق الى المؤمنين كما أن الموارد التي أُطلق فيها واريد به الأعم من المشرك والمؤمن في كلامه كذلك.

وبالجملة شمول «عبادي» في الآية للمشركين لا ينبغي أن يرتاب فيه، والقول بأن المراد به المشركون خاصة نظراً الى سياق الآيات كما نقل عن ابن عباس أقرب الى القبول من تخصيصه بالمؤمنين.

وقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ القنوط اليأس، والمراد بالرحمة بقرينة خطاب المذنبين ودعوتهم هو الرحمة المتعلقة بالآخرة دون ما هي أعم الشاملة للدنيا والآخرة ومن المعلوم أن الذي يفتقر اليه المذنبون من شئون رحمة الآخرة بلا واسطة هو المغفرة فالمراد بالرحمة المغفرة ولذا علل النهي عن القنوط من الرحمة بقوله: «إن الله يغفر الذنوب جميعاً».

وفي الآية التفات من التكلم الى الغيبة حيث قيل «إن الله يغفر» ولم يقل: إني أغفر وذلك للإشارة الى أنه الله الذي له الأسماء الحسنى ومنها أنه غفور رحيم كأنه يقول لا تقنطوا من رحمتي فإني أنا الله أغفر الذنوب جميعا لأن الله هو الغفور الرحيم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ تعليل للنهي عن القنوط وإعلام بأن جميع الذنوب قابلة للمغفرة عامة لكنها تحتاج الى سبب مخصص ولا تكون جزافا، والذي عده القرآن سبباً للمغفرة أمران: الشفاعة[1] والتوبة لكن ليس المراد في قوله: «إن الله يغفر الذنوب جميعاً» المغفرة الحاصلة بالشفاعة لأن الشفاعة لا تنال الشرك بنص القرآن في آيات كثيرة وقد مر أيضاً أن قوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء / ٤٨) ناظر الى الشفاعة والآية أعني قوله: «إن الله يغفر الذنوب جميعاً» موردها الشرك وسائر الذنوب.

فلا يبقى إلا أن يكون المراد المغفرة الحاصلة بالتوبة وكلامه تعالى صريح في مغفرة الذنوب جميعاً حتى الشرك بالتوبة.

على أن الآيات السبع ـ كما عرفت ـ كلام واحد ذو سياق واحد متصل ينهى عن القنوط ـ وهو تمهيد لما يتلوه ـ ويأمر بالتوبة والإسلام والعمل الصالح وليست الآية الاولى كلاما مستقلا منقطعا عما يتلوه حتى يحتمل عدم تقييد عموم المغفرة فيها بالتوبة وأي سبب آخر مفروض للمغفرة.

والآية أعني قوله: «إن الله يغفر الذنوب جميعاً» من معارك الآراء بينهم فقد ذهب قوم الى تقييد عموم المغفرة فيها بالشرك وسائر الكبائر التي وعد الله عليها النار مع عدم تقييد العموم بالتوبة فالمغفرة لا تنال إلا الصغائر من الذنوب.

---

١. وقد مر الكلام فيها في مباحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ عطف على قوله: «لا تقنطوا»، والإنابة الى الله الرجوع اليه وهو التوبة. وقوله: «الى ربكم» من وضع الظاهر موضع المضمر وكان مقتضى الظاهر أن يقال: وأنيبوا اليه والوجه فيه الإشارة الى التعليل فإن الملاك في عبادة الله سبحانه صفة ربوبية.

والمراد بالإسلام التسليم لله والانقياد له فيما يريد، وإنما قال: «وأسلموا له» ولم يقل: وآمنوا به لأن المذكور قبل الآية وبعدها استكبارهم على الحق والمقابل له الإسلام.

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ متعلق بقوله: «وأنيبوا وأسلموا» والمراد بالعذاب عذاب الآخرة بقرينة الآيات التالية، ويمكن على بعد أن يراد مطلق العذاب الذي لا تقبل معه التوبة ومنه عذاب الاستئصال قال تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده﴾ (المؤمن / ٨٥).

والمراد بقوله: «ثم لا تنصرون» أن المغفرة لا تدرككم بوجه لعدم تحقق سببها فالتوبة مفروضة العدم والشفاعة لا تشمل الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الخطاب عام للمؤمن والكافر كالخطابات السابقة والقرآن قد انزل الى الفريقين جميعاً.

وفي الآية أمر بإتباع أحسن ما انزل من الله قيل: المراد به اتباع الأحكام من الحلال والحرام دون القصص، وقيل: اتباع ما أُمر به ونهي عنه كاتيان الواجب والمستحب واجتناب الحرام والمكروه دون المباح، وقيل: الاتباع في العزام وهي الواجبات والمحرمات، وقيل: اتباع الناسخ دون المنسوخ، وقيل: ما أُنزل هو جنس الكتب السماوية وأحسنها القرآن فاتباع أحسن ما انزل وهو اتباع القرآن.

والإنصاف أن قوله في الآية السابقة: «وأسلموا له» يشمل مضمون كل من هذه الأقوال

فحمل قوله: «واتبعوا أحسن ما انزل اليكم» على شيء منها لا يخلو عن تكرار من غير موجب.

ولعل المراد من أحسن ما أُنزل الخطابات التي تشير الى طريق استعمال حق العبودية في امتثال الخطابات الإلهية الاعتقادية والعملية وذلك كالخطابات الداعية الى ذكر الله تعالى بالاستغراق والى حبه والى تقواه حق تقاته والى إخلاص الدين له فإن اتباع هذه الخطابات يحيي الانسان حياة طيبة وينفخ فيه روح الايمان ويصلح أعماله ويدخله في ولاية الله تعالى وهي الكرامة ليست فوقها كرامة.

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذٰابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ﴾ أنسب لهذا المعنى فإن الدعوة الى عمل بالتخويف من مفاجاة الحرمان ومباغتة المانع إنما تكون غالبا فيما يساهل المدعو في أمره ويطيب نفسه بسوف ولعل. وهذا المعنى أمس بإصلاح الباطن منه بإصلاح الظاهر والإتيان بأجساد الأعمال. ويقرب منه قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ (الأنفال / ٢٤).

قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يٰا حَسْرَتىٰ عَلىٰ مٰا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللّٰهِ﴾ الخ؛ قال في المجمع: التفريط إهمال ما يجب أن يتقدم فيه حتى يفوت وقته. وقال: التحسر الاغتمام مما فات وقته لانحساره عنه بما لا يمكن استدراكه. انتهى. وقال الراغب: الجنب الجارحة. قال: ثم يستعار في الناحية التي تليها لعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال. انتهى. فجنب الله جانبه وناحيته وهي ما يرجع اليه تعالى مما يجب على العبد أن يعامله ومصداق ذلك أن يعبده وحده ولا يعصيه والتفريط في جنب الله التقصير في ذلك.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السّٰاخِرِينَ﴾ «إن» مخففة من الثقيلة، والساخرين اسم فاعل من سخر بمعنى استهزء.

ومعنى الآية إنما نخاطبكم بهذا الخطاب حذر أن تقول أو لئلا تقول نفس منكم يا حسرتا على ما قصرت في جانب الله وإني كنت من المستهزئين، ومواطن القول يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ضمير تقول للنفس، والمراد بالهداية الإرشاد وإراءة الطريق، والمعنى ظاهر وهو قطع للعذر.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لو للتمني والكرة الرجعة، والمعنى أو تقول نفس متمنية حين ترى العذاب يوم القيامة: ليت لي رجعة الى الدنيا فأكون من المحسنين.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ رد لها وجواب لخصوص قولها ثانيا: «لو أن الله هداني لكنت من المتقين» وموطن الجواب يوم القيامة كما أن موطن القول ذلك ولسياق الجواب شهادة عليه.

وقد فصل بين قولها وجوابه بقوله: «أو تقول حين ترى» الخ؛ ولم يجب إلا عن قولها: «لو أن الله هداني» الخ.

والوجه في الفصل أن الأقوال الثلاثة المنقولة عنها مرتبة على ترتيب صدورها عن المجرمين يوم القيامة فإذا قامت القيامة ورأى المجرمون أن اليوم يوم الجزاء بالأعمال وقد فرطوا فيها وفاتهم وقتها تحسروا على ما فرطوا ونادوا بالحسرة على تفريطهم «يا حسرتا على ما فرطت» قال تعالى: **﴿حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾** (الأنعام / ٣١).

ثم إذا حوسبوا وأمر المتقون بدخول الجنة وقيل **﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾** (يس / ٥٩) تعللوا بقولهم: «لو أن الله هداني لكنت من المتقين».

ثم إذا امروا بدخول النار فأوقفوا عليها ثم ادخلوا فيها تمنوا الرجوع الى الدنيا ليحسنوا فيها فيسعدوا «أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة» قال تعالى: **﴿ولو ترى إذ وقفوا على**

النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ (الأنعام / ٢٧)، وقال حاكيا عنهم: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ (المؤمنون / ١٠٧).

ثم لما نقل الأقوال على ما بينها من الترتيب أخذ في الجواب ولو أخر القول المجاب عنه حتى يتصل بالجواب أو قدم الجواب حتى يتصل به اختل النظم[١].

وقد خص قولهم الثاني: «لو أن الله هداني» الخ: بالجواب وأمسك عن جواب قولهم الأول والثالث لأن في الأول حديث استهزائهم بالحق وأهله وفي الثالث تمنيهم للرجوع الى الدنيا والله سبحانه يزجر هؤلاء يوم القيامة ويمنعهم أن يكلموه ولا يجيب عن كلامهم كما يشير الى ذلك قوله: ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسؤا فيها ولا تكلمون إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ (المؤمنون / ١١١).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الكذب على الله هو القول بأن له شريكا وأن له ولداً ومنه البدعة في الدين.

وسواد الوجه آية الذلة وهي جزاء تكبرهم ولذا قال: «أليس في جهنم مثوى للمتكبرين».

قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الظاهر أن مفازة مصدر ميمي بمعنى الفوز وهو الظفر بالمراد، والباء في «بمفازتهم» للملابسة أو السببية فالفوز الذي يقضيه الله لهم اليوم سبب تنجيتهم.

---

١. وأصل الوجه مأخوذ من تفسير أبي السعود باصلاح منا.

وقوله: «لا يمسهم» الخ: بيان لتنجيتهم كأنه قيل: ينجيهم لا يمسهم السود من خارجهم ولا هم يحزنون في أنفسهم.

وللآية نظر الى قوله تعالى في ذيل آيات سورة المؤمنون المنقولة آنفا: «إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون» فتدبر ولا تغفل[1].

٦٢ ❁ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ.

٦٣ ❁ لَهُ مَقالِيدُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللّٰهِ أُولٰئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ.

٦٤ ❁ قُلْ أَفَغَيْرَ اللّٰهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ.

٦٥ ❁ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ.

٦٦ ❁ بَلِ اللّٰهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ.

٦٧ ❁ وَما قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَالسَّمٰواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالىٰ عَمّا يُشْرِكُونَ.

٦٨ ❁ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاّ مَنْ شاءَ اللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرىٰ فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ.

٦٩ ❁ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ.

---

١. الزمر ٥٣ ـ ٦١: بحث روائي في رحمة الله تعالى في الذين اسرفوا على انفسهم، التوبة.

٧٠ ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ.

٧١ ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ.

٧٢ ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ.

٧٣ ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ.

٧٤ ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ.

٧٥ ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هذا هو الذي ذكر اعتراف المشركين به من قبل في قوله: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ (الآية ٣٨ من السورة) وبنى عليه إستناد الأشياء في تدبيرها اليه.

والجملة في المقام تمهيد لما يذكر بعدها من كون التدبير مستنداً اليه لما تقدم مراراً أن الخلق

لا ينفك عن التدبير فانتقل في المقام من استناد الخلق اليه الى اختصاص الملك به وهو قوله: «له مقاليد السماوات والأرض» ومن اختصاص الملك به الى كونه هو الوكيل على كل شيء القائم مقامه في تدبير أمره.

وقد تقدم في ذيل قوله: ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء﴾ (الأنعام / ١٠٢) في الجزء السابع من الكتاب كلام في معنى عموم الخلقة لكل شيء.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ وذلك لأن انتهاء خلق كل شيء وجوده اليه يقتضي أن يكون تعالى هو المالك لكل شيء فلا يملك شيء من الأشياء لا نفسه ولا شيئاً مما يترشح من نفسه إلا بتمليك الله تعالى، فهو لفقره مطلقاً لا يملك تدبيراً والله المالك لتدبيره.

وأما تمليكه تعالى له نفسه وعمله فهو أيضاً نوع من تدبيره تعالى مؤكد لملكه غير ناف ولا مناف حتى أن توكيله الملائكة على شيء من الأمر من شئون وكالته تعالى عليهم لا تفويض للأمر وإبطال للوكالة فافهم ذلك.

وبالجملة إذ كان كل شيء من الأشياء لا يملك لنفسه شيئاً كان سبحانه هو الوكيل عليه القائم مقامه المدبر لأمره والأسباب والمسببات في ذلك سواء فالله سبحانه هو ربها وحده.

فقد تبين أن الجملة مسوقة للإشارة الى توحده في الربوبية وهو المقصود بيانه فقول بعضهم إن ذكر ذلك بعد قوله: «الله خالق كل شيء» للدلالة على أنه هو الغني المطلق وأن المنافع والمضار راجعة الى العباد، أو أن المراد أنه تعالى حفيظ على كل شيء فيكون إشارة الى أن الأشياء محتاجة اليه في بقائها كما أنها محتاجة اليه في حدوثها، أجنبي عن معنى الآية بالمرة.

قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ الخ: المقاليد - كما قيل - بمعنى المفاتيح ولا مفرد له من لفظه.

ومفاتيح السماوات والأرض مفاتيح خزائنها قال تعالى: ﴿ولله خزائن السماوات

والأرض ﴾ (المنافقون / ٧) وخزائنها غيبها الذي يظهر منه الأشياء والنظام الجاري فيها فتخرج الى الشهادة قال تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ (الحجر / ٢١).

وملك مقاليد السماوات والأرض كناية عن ملك خزائنها التي منها وجودات الأشياء وأرزاقها وأعمارها وآجالها وسائر ما يواجهها في مسيرها من حين تبتدىء منه تعالى الى حين ترجع اليه.

وهو أعني قوله: «له مقاليد» الخ؛ في مقام التعليل لقوله: «وهو على كل شيء وكيل» ولذا جيء به مفصولا من غير عطف.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ ﴾ قد تقدم أن قوله: «الله خالق كل شيء - الى قوله - والأرض» ذكر خلاصة ما تفيده الحجج المذكورة في خلال الآيات السابقة، وعليه فقوله: «والذين كفروا بآيات ربهم» الخ؛ معطوف على قوله: «الله خالق كل شيء» والمعنى الذي تدل عليه الآيات والحجج المتقدمة أن الله سبحانه خالق فمالك فوكيل على كل شيء أي متوحد في الربوبية والالوهية والذين كفروا بآيات ربهم فلم يوحدوه ولم يعبدوه أولئك هم الخاسرون.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّها الْجاهِلُونَ ﴾ لما أورد سبحانه خلاصة ما تنطق به الحجج المذكورة في السورة من توحده تعالى بالخلق والملك والتدبير ولازم ذلك توحده تعالى في الربوبية والالوهية أمر نبيه ﷺ أن يخاطب المشركين المقترحين عليه أن يعبد آلهتهم أنه لا يبقى مع هذه الحجج الباهرة الظاهرة محل لعبادته غير الله وإجابة اقتراحهم وهل هي إلا الجهل.

فقوله: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ﴾ الفاء لتفريع مضمون الجملة على قوله: «الله خالق كل شيء» الى آخر الآيتين. والاستفهام إنكاري. و«غير الله» مفعول «أعبد» قدم

عليه لتعلق العناية به، و«تأمروني» معترض بين الفعل ومفعوله وأصله تأمرونني أُدغمت فيه إحدى النونين في الاخرى.

وقوله: ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ خطابهم بصفة الجهل للإشارة الى أن أمرهم إياه بعبادة غير الله واقتراحهم بذلك مع ظهور آيات وحدته في الربوبية والالوهية ليس إلا جهلا منهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الخ؛ فيه تأييد لمدلول الحجج العقلية المذكورة بالوحي كأنه قيل: لا تعبد غير الله فإنه جهل وكيف يسوغ لك أن تعبده وقد دل الوحي على النهي عنه كما دل العقل على ذلك.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ اللام للقسم، وقوله: «لئن أشركت ليحبطن عملك» بيان لما اوحي اليه، وتقدير الكلام وأُقسم لقد أُوحي اليك لئن أشركت، الخ؛ والى الذين من قبلك من الأنبياء والرسل لئن أشركت ليحبطن عملكم ولتكونن من الخاسرين.

وخطاب النبي ﷺ وسائر الأنبياء ﵈ بالنهي عن الشرك وإنذارهم بحبط العمل والدخول في زمرة الخاسرين خطاب وإنذار على حقيقة معناهما كيف؟ وغرض السورة ـ كما تقدمت الإشارة اليه ـ بيان أن النبي ﷺ مأمور بالايمان بما يدعو المشركين الى الايمان به مكلف بما يكلفهم ولا يسعه أن يجيبهم الى ما يقترحون به عليه من عبادة آلهتهم.

وأما كون الأنبياء معصومين بعصمة إلهية يمتنع معها صدور المعصية عنهم فلا يوجب ذلك سقوط التكليف عنهم وعدم صحة توجهه اليهم ولو كان كذلك لم تتصور في حقهم معصية كسائر من لا تكليف عليه فلم يكن معنى لعصمتهم.

على أن العصمة ـ وهي قوة يمتنع معها صدور المعصية ـ من شئون مقام العلم ـ كما تقدمت الإشارة اليه في تفسير قوله تعالى: ﴿وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء﴾ (النساء / ١١٣) ـ لا تنافي ثبوت الاختيار الذي هو من شئون مقام العمل وصحة صدور الفعل والترك عن الجوارح.

فمنع العلم القطعي بمفسدة شيء منعا قطعيا عن صدوره عن العالم به كمنع العلم بأثر السم عن شربه لا ينافي كون العالم بذلك مختارا في الفعل لصحة صدوره ولا صدوره عن جوارحه فالعصمة لا تنافي بوجه التكليف .

وقوله : ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ ﴾ ظهر معناه مما تقدم ويمكن أن يكون اللام في الخاسرين مفيداً للعهد ، والمعنى ولتكونن من الخاسرين الذين كفروا بآيات الله وأعرضوا عن الحجج الدالة على وحدانيته .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ اللّٰهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّٰاكِرِينَ ﴾ إضراب عن النهي المفهوم من سابق الكلام كأنه قيل : فلا تعبد غير الله بل الله فاعبد ، وتقديم اسم الجلالة للدلالة على الحصر .

والفاء في « فاعبد » زائدة للتأكيد على ما قيل ، وقيل : هي فاء الجزاء وقد حذف شرطه والتقدير بل إن كنت عابدا أو عاقلا فاعبد الله .

وقوله : ﴿ وَكُنْ مِنَ الشّٰاكِرِينَ ﴾ أي وكن بعبادتك له من الذين يشكرونه على نعمه الدالة على توحده في الربوبية والالوهية ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ (آل عمران / ١٤٤) وقوله : ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ (الأعراف / ١٧) أن مصداق الشاكرين بحقيقة معنى الكلمة هم المخلصون بفتح اللام فراجع .

قوله تعالى : ﴿ وَمٰا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ الى آخر الآية قدر الشيء هو مقداره وكميته من حجم أو عدد أو وزن وما أشبه ذلك ثم استعير للمعنويات من المكانة والمنزلة .

فقوله : « وما قدروا الله حق قدره » تمثيل أُريد به عدم معرفتهم به تعالى واجب المعرفة إذ لم يعرفوه من حيث المعاد ورجوع الأشياء اليه كما يدل عليه تعقيب الجملة بقوله : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة » الى آخر السورة حيث ذكر فيه انقطاع كل سبب دونه يوم القيامة ، وقبضه الأرض وطيه السماوات ونفخ الصور لإماتة الكل ثم لإحيائهم وإشراق الأرض بنور

ربها ووضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء وتوفية كل نفس ما عملت وسوق المجرمين الى النار والمتقين الى الجنة فمن كان شأنه في الملك والتصرف هذا الشأن وعرف بذلك أوجبت هذه المعرفة والاقبال اليه بعبادته وحده والإعراض عن غيره بالكلية.

لكن المشركين لما لم يؤمنوا بالمعاد ولم يقدروه حق قدره ولم يعرفوه واجب معرفته أعرضوا عن عبادته الى عبادة من سواه.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي الأرض بما فيها من الأجزاء والأسباب الفعالة بعضها في بعض، والقبضة مصدر بمعنى المقبوضة، والقبض على الشيء وكونه في القبضة كناية عن التسلط التام عليه أو انحصار التسلط عليه في القابض والمراد ههنا المعنى الثاني كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿والأمر يومئذ لله﴾ (الإنفطار / ١٩) وغيره من الآيات.

وقوله: ﴿وَالسَّمٰوٰاتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ يمين الشيء يده اليمنى وجانبه القوى ويكنى بها عن القدرة، ويستفاد من السياق أن محصل الجملتين أعني قوله: «والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه» تقطع الأسباب الأرضية والسماوية وسقوطها وظهور أن لا مؤثر في الوجود إلا الله سبحانه.

وقوله: ﴿سُبْحٰانَهُ وَتَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له تعالى عما أشركوا غيره في ربوبيته والوهيته فنسبوا تدبير العالم الى آلهتهم وعبدوها.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاّٰ مَنْ شٰاءَ اللّٰهُ﴾ الخ: ظاهر ما ورد في كلامه تعالى في معنى نفخ الصور أن النفخ نفختان نفخة للإماتة ونفخة للإحياء، وهو الذي تدل عليه روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام وبعض ما ورد من طرق أهل السنة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان بعض آخر من رواياتهم لا يخلو عن إبهام ولذا اختار بعضهم أنها ثلاث نفخات نفخة للإماتة ونفخة للإحياء والبعث ونفخة للفزع

والصعق وقال بعضهم : إنها أربع نفخات ولكن دون إثبات ذلك من ظواهر الآيـات خـرط القتاد .

ولعل انحصار النفخ في نفختي الإماتة والإحياء هو الموجب لتفسيرهم الصعق في النفخة الاولى بالموت مع أن المعروف من معنى الصعق الغشية ، قال في المصباح : يقال : صعق الرجل صعقا وتصاعقاً أي غشي عليه وأصعقه غيره ، ثم قال : وقوله تعالى : « فصعق من في السماوات ومن في الأرض » أي مات . انتهى .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ استثناء من أهل السماوات والأرض واختلف في من هم ؟

نعم لو تصور لله سبحانه خلق وراء السماوات والأرض جاز استثناؤهم من أهلها استثناء منقطعا أو قيل : إن الموت إنما يلحق الأجساد بانقطاع تعلق الأرواح بها وأما الأرواح فإنها لا تموت فالأرواح هم المستثنون استثناء متصلا ، ويؤيد هذا الوجه بعض[1] الروايات المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وقوله : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ ضمير « فيه » للـصور ، و« اخرى » صفة محذوف موصوفها أي نفخة أُخـرى ، وقـيام جمـع قـائم و« يـنظرون » أي ينتظرون أو من النظر بمعناه المعروف .

والمعنى : ونفخ في الصور نفخة اخرى فإذا هم قائمون من قبورهم ينتظرون ما يؤمرون أو ينتظرون ماذا يفعل بهم أو فإذا هم قائمون ينظرون نظر المبهوت المتحير .

ولا ينافي ما في هذه الآية من كونهم بعد النفخ قياما ينظرون ما في قوله : ﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ (يس / ٥١) أي يسرعون ، وقوله : ﴿ يوم ينفخ في

---

١ . وهو ما ورد في قوله تعالى « لمن الملك اليوم » المؤمن : ١٦ أن الجواب بقوله « لله الواحد القهار » من أرواح الأنبياء وغير ذلك من الروايات .

الصور فتأتون أفواجا ﴾ (النبأ / ١٨). وقوله: ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض ﴾ (النمل / ٨٧) فإن فزعهم فالنفخ وإسراعهم في المشي الى عرصة المحشر وإتيانهم اليها أفواجا كقيامهم ينظرون حوادث متقارنة لا يدفع بعضها بعضا.

قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ الى آخر الآية: إشراق الأرض إضاءتها. والنور معروف المعنى وقد استعمل النور في كلامه تعالى في النور الحسي كثيراً واطلق أيضاً على الايمان وعلى القرآن بعناية أن كلا منهما يظهر للمتلبس به ما خفي عليه لولاه قال تعالى: ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ (البقرة / ٢٥٧)، وقال: ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ﴾ (التغابن / ٨).

ولا يبعد أن يراد ـ والله أعلم ـ من إشراق الأرض بنور ربها ما هو خاصة يوم القيامة من انكشاف الغطاء وظهور الأشياء بحقائقها وبدو الأعمال من خير أو شر أو طاعة أو معصية أو حق أو باطل للناظرين، وإشراق الشيء هو ظهوره بالنور ولا ريب أن مظهرها يومئذ هو الله سبحانه إذ الأسباب ساقطة دونه فالأشياء مشرقة بنور مكتسب منه تعالى.

وهذا الإشراق وإن كان عاما لكل شيء يسعه النور لكن لما كان الغرض بيان ما للأرض وأهله يومئذ من الشأن خصها بالبيان فقال: «وأشرقت الأرض بنور ربها» وذكره تعالى بعنوان ربوبية الأرض تعريضاً للمشركين المنكرين لربوبيته تعالى للأرض وما فيها.

والمراد بالأرض مع ذلك الأرض وما فيها وما يتعلق بها كما تقدم أن المراد بالأرض في قوله: «والأرض جميعا قبضته» ذلك.

ويستفاد ما قدمناه من مواضع كثيرة من كلامه تعالى كقوله تعالى: ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ (ق / ٢٢) وقوله: ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء ﴾ (آل عمران / ٣٠)، وقوله: ﴿ يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة

خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (الزلزال / ٨) وآيات اخرى كثيرة تدل على ظهور الأعمال وتجسمها وشهادة الأعضاء وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قيل: المراد به الحساب وهو كما ترى وقيل: المراد به صحائف الأعمال التي يحاسب عليها ويقضى بها. وقيل: المراد به اللوح المحفوظ ويؤيده قوله تعالى: ﴿هكذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ (الجاثية / ٢٩).

وقوله: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ أما النبيون فليسألوا عن أداء رسالتهم كما يشعر به السياق قال تعالى: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ (الأعراف / ٦). وأما الشهداء وهم شهداء الأعمال فليؤدوا ما تحملوه من الشهادة قال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ (النساء / ٤١).

وقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ ضمير الجمع للناس المعلوم من السياق. والقضاء بينهم هو القضاء فيما اختلفوا فيه الوارد كراراً في كلامه تعالى قال: ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (يونس / ٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ التوفية الإعطاء بالتمام وقد علقت بنفس ما عملت دون جزائه ويقطع ذلك الريب في كونه قسطاً وعدلا من أصله والآية بمنزلة البيان لقوله: «وهم لا يظلمون».

وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي ليس حكمه بهذا النمط من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء عن جهل منه وحاجة بل لأن يجري حكمه على القسط والعدل فهو أعلم بما يفعلون.

والآية السابقة تتضمن القضاء والحكم وهذه الآية إجراؤه والآيات اللاحقة تفصيل إجرائه.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الى آخر الآية السوق بالفتح

فالسكون ـ على ما في المجمع ـ الحث على السير. والزمر جمع زمرة وهي ـ كما في الصحاح ـ الجماعة من الناس.

والمعنى «وسيق» وحث على السير «الذين كفروا الى جهنم زمرا» جماعة بعد جماعة «حتى إذا جاؤها» بلغوها «فتحت أبوابها» لأجل دخولهم وهي سبعة قال تعالى: ﴿لها سبعة أبواب﴾ (الحجر / ٤٤) «وقال لهم خزنتها» وهم الملائكة الموكلون عليها يقولون لهم تهجيناً وإنكاراً عليهم «ألم يأتيكم رسل منكم» من نوعكم من البشر «يتلون» ويقرؤن «عليكم آيات ربكم» من الحجج الدالة على وحدانيته ووجوب عبادته «قالوا» بلى قد جاؤا وتلوا «ولكن» كفرنا وكذبنا و«حقت كلمة العذاب على الكافرين» وكلمة العذاب هي قوله تعالى حين أمر آدم بالهبوط: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أُولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة / ٣٩).

قوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ القائل ـ على ما يفيده السياق ـ خزنة جهنم، وفي قوله: «فبئس مثوى المتكبرين» دلالة على أن هؤلاء الذين كفروا هم المكذبون بآيات الله المعاندون للحق.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتّىٰ إِذا جاؤُوها فُتِحَتْ أَبْوابُها﴾ لم يذكر في الآية جواب إذا إشارة الى أنه أمر فوق ما يوصف ووراء ما يقدر بقدر، وقوله: «وفتحت أبوابها» حال أي جاؤها وقد فتحت أبوابها. وقوله: «خزنتها» هم الملائكة الموكلون عليها.

والمعنى «وسيق» وحث على السير «الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا» جماعة بعد جماعة «حتى إذا جاؤها و» قد «فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها» الموكلون عليها مستقبلين لهم «سلام عليكم» أنتم في سلام مطلق لا يلقاكم إلا ما ترضون «طبتم» ولعله تعليل لإطلاق السلام «فادخلوها خالدين» فيها. وهو أثر طيبهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ الى آخر الآية. القائلون هم المتقون والمراد بالوعد ما تكرر في كلامه تعالى وفيما اوحي الى سائر الأنبياء من وعد المتقين بالجنة قال: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات﴾ (آل عمران / ١٥) وقال: ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ (القلم / ٣٤)، كذا قيل. وقيل: المراد بالوعد الوعد بالبعث والثواب.

ولا يبعد أن يراد بالوعد الوعد بإيراث الجنة كما في قوله: ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ (المؤمنون / ١١) ويكون قوله: «وأورثنا الأرض» عطف تفسير لقوله: «صدقنا وعده».

وقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ المراد بالأرض ـ على ما قالوا ـ أرض الجنة وهي التي عليها الاستقرار فيها وقد تقدم في أول سورة المؤمنون أن المراد بوراثتهم الجنة بقاؤها لهم بعد ما كانت في معرض أن يشاركها غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فانتقلت اليهم.

وقوله: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ بيان لإيراثهم الأرض، وتبديل ضمير الأرض بالجنة للاشارة الى أنها المراد بالأرض.

وقيل: المراد بالأرض هي أرض الدنيا وهو سخيف إلا أن يوجه بأن الجنة هي عقبى هذه الدار قال تعالى: ﴿أولئك لهم عقبى الدار﴾ (الرعد / ٢٢).

والمعنى وقال المتقون بعد دخول الجنة: الحمد لله الذي صدقنا وعده أن سيدخلنا أو أن سيورثنا الجنة نسكن منها حيث نشاء ونختار ـ فلهم ما يشاؤن فيها ـ.

وقوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي فنعم الأجر أجر العاملين لله تعالى، وهو على ما يعطيه السياق قول أهل الجنة، واحتمل أن يكون من قوله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الى آخر الآية؛ الحف الإحداق والإحاطة بالشيء، والعرش هو المقام الذي يصدر

منه الفرامين والأوامر الإلهية التي يدبر بها العالم. والملائكة هم المجرون لمشيته العاملون بأمره، ورؤية الملائكة على تلك الحال كناية عن ظهور ذلك وقد طويت السماوات.

والمعنى: وترى يومئذ الملائكة والحال أنهم محدقون بالعرش مطيفون به لإجراء الأمر الصادر منه وهم يسبحون بحمد ربهم.

وقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ احتمل رجوع الضمير الى الملائكة، ورجوعه الى الناس والملائكة جميعا، ورجوعه الى جميع الخلائق، ورجوعه الى الناس فالقضاء بين أهل الجنة وأهل النار منهم أو بين الأنبياء واممهم.

ويضعف الاحتمال الأخير أن القضاء بين الناس قد ذكر قبلا في قوله: «وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون» فذكر القضاء بينهم ثانياً تكرار من غير موجب.

لكن ظاهر القضاء بين جماعة هو الحكم لبعضهم على بعض لوجود اختلاف ما بينهم ولا تحقق للاختلاف بين الملائكة، وهذا يؤيد أن يكون الضمير لغيرهم والقضاء بين الناس غير أن القضاء كما يطلق على نفس حكم الحاكم يصح إطلاقه على مجموع الحكم ومقدماته وتبعاته من حضور المتخاصمين وطرح الدعوى وشهادة الشهود وحكم الحاكم وإيفاء المحق حقه فمن الممكن أن يكون المراد بالقضاء المذكور أولاً نفس الحكم الإلهي وبهذا القضاء المذكور ثانيا هو مجموع ما يجري عليهم من حين يبعثون الى حين دخول أهل النار النار وأهل الجنة الجنة واستقرارهم فيها وبذلك يندفع إشكال التكرار من غير موجب.

وقوله: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كلمة خاتمة للبدء والعود وثناء عام له تعالى أنه لم يفعل ولا يفعل إلا الجميل.

قيل: قائله المتقون وكان حمدهم الأول على دخولهم الجنة والثاني للقضاء بينهم وبين غيرهم بالحق، وقيل: قائله الملائكة ولم ينسب اليهم صريحاً لتعظيم أمرهم، وقيل: القائل جميع الخلائق.

ويؤيد الأول قوله تعالى في صفة أهل الجنة : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ (يونس / ١٠) وهو حمد عام خاتم للخلقة كما سمعت .

سورة المؤمن مكية وهي خمس وثمانون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● حٰمٓ.

٢ ● تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ.

٣ ● غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ
هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

٤ ● مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللّٰهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ
فِي الْبِلَادِ.

٥ ● كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ
بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ
فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ.

٦ ● وَكَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ
النَّارِ.

بيان:

تتكلم السورة في استكبار الكافرين ومجادلتهم بالباطل ليدحضوا به الحق الذي يدعون اليه ولذلك نراها تذكر جدالهم وتعود اليه عودة بعد عودة «ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد» «الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا» «ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون».

فتكسر سورة استكبارهم وجدالهم بذكر ما عاقب الله به الماضين من الامم المكذبين وما أعد الله لهم من العذاب المهين بذكر طرف مما يجري عليهم في الآخرة.

وتدحض باطل أقاويلهم بوجوه من الحجج الناطقة بتوحده في الربوبية والالوهية وتأمر النبي ﷺ بالصبر وتعده والمؤمنين به بالنصر، وتأمرهم أن يؤذنهم أنه مسلم لربه غير تارك لعبادته فلييأسوا منه.

والسورة مكية كلها لاتصال آياتها وشهادة مضامينها بذلك، وما قيل فيه من الآيات أنه نزل بالمدينة لا يعبؤ به وسيجيء الإشارة اليها إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿حمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ التنزيل مصدر بمعنى المفعول فقوله: «تنزيل الكتاب» من قبيل إضافة الصفة الى موصوفها والتقدير هذا كتاب منزل من الله.

وتخصيص الوصفين «العزيز العليم» بالذكر قيل: للإشارة الى ما في القرآن من الإعجاز وأنواع العلوم التي يضيق عنها نطاق الأفهام، وقيل: هو من باب التفنن.

والوجه أن يقال: إن السورة لما كانت تتكلم حول جحد الجاحدين ومجادلتهم في آيات الله بالباطل جهلا وهم يحسبونه علما ويعتزون به كما حكى ذلك عنه في خاتمة السورة بقوله: «فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم» وكما حكى عن فرعون قوله لقومه في

موسى: «إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد» وقوله لهم: «ما اريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد».

افتتح الكلام في السورة بما فيه إشارة الى أن هذا الكتاب النازل عليهم تنزيل ممن هو عزيز على الإطلاق لا يغلبه غالب حتى يخاف على ما نزله من استعلائهم واستكبارهم بحسب أوهامهم، عليم على الإطلاق لا يداخل علمه جهل وضلال فلا يقاوم جدالهم بالباطل ما نزله من الحق وبينه بحججه الباهرة.

ويؤيد هذا الوجه ما في الآية التالية من قوله: «غافر الذنب وقابل التوب» الخ؛ على ما سنبين.

قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ الإتيان بصيغة اسم الفاعل في «غافر الذنب وقابل التوب» ـ لعله ـ للدلالة على الاستمرار التجددي فإن المغفرة وقبول التوب من صفاته الفعلية ولا يزال تعالى يغفر الذنب ثم يغفر ويقبل التوب ثم يقبل.

وإنما عطف قابل التوب على ما قبله دون «شديد العقاب ذي الطول» لأن غافر الذنب وقابل التوب مجموعهما كصفة واحدة متعلقة بالعباد المذنبين يغفر لهم تارة بتوبة وتارة بغيرها كالشفاعة.

والعقاب والمعاقبة المؤاخذه التي تكون في عاقبة الذنب قال الراغب: والعُقُب والعقبى يختصان بالثواب نحو خير ثوابا وخير عقبا، وقال تعالى: أُولئك لهم عقبى الدار، والعاقبة إطلاقها يختص بالثواب نحو والعاقبة للمتقين، وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة نحو ثم كان عاقبة الذين أساؤا، وقوله: فكان عاقبتهما أنهما في النار يصح أن يكون ذلك استعارة من ضده، والعقوبة والمعاقبة والعقاب تختص بالعذاب. انتهى.

فشديد العقاب كذي انتقام من أسماء الله الحسنى تحكي صفته تعالى في جانب العذاب كما

يحكي الغفور والرحيم صفته تعالى في جانب الرحمة.

والطول ـ على ما في المجمع ـ الإنعام الذي تطول مدته على صاحبه فذو الطول من أسمائه الحسنى في معنى المنعم لكنه أخص من المنعم لعدم شموله النعم القصار.

وذكر هذه الأسماء الأربعة: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول بعد اسم العليم للاشارة الى أن تنزيل هذا الكتاب المشتمل على دعوته الحقة المبني على العلم مبني على أساس ما تقتضيه مضامين هذه الأسماء الأربعة.

وقوله: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ذكر كلمة التوحيد للاشارة الى وجوب عبادته وحده فلا تلغو الدعوة الدينية بتنزيل الكتاب. وذكر كون مصير الكل ورجوعهم اليه وهو البعث للإشارة الى أنه هو السبب العمدة الداعي الى الايمان بالكتاب واتباعه فيما يدعو اليه لأن الاعتقاد بيوم الحساب هو الذي يستتبع الخوف والرجاء خوف العقاب ورجاء الثواب الداعيين الى عبادة الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ لما ذكر تنزيل الكتاب وأشار الى الحجة الباهرة على حقيّته، المستفادة من صفاته الكريمة المعدودة في الآيتين، الدالة على أنه منزّل بعلمه الذي لا يشوبه جهل وبالحق الذي لا يدحضه باطل تعرض لحال الذين قابلوا حججه الحقة بباطل جدالهم فلوّح الى إن هؤلاء أهل العقاب وليسوا بفائتين ولا مغفولاً عنهم فإنهم كما نزّل الكتاب ليغفر الذنب ويقبل التوب كذلك نزّله ليعاقب أهل العقاب فلا يسوءن النبي ﷺ جدالهم ولا يغرنه ما يشاهده من حالهم.

فقوله: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ لم يقل: ما يجادل فيه أي في القرآن ليدل على أن الجدال في الحق الذي تدل عليه الآيات بما هي آيات. على أن طرف جدالهم هو النبي ﷺ وهو داع الى الحق الذي تدل الآيات فجدالهم لدفع الحق لا للدفاع عن الحق. على أن الجدال

في الآية التالية مقيدة بالباطل لإدحاض الحق.

فالمراد بالمجادلة في آيات الله هي المجادلة لإدحاضها ودفعها وهي المذمومة ولا تشمل الجدال لإثبات الحق والدفاع عنه كيف؟ وهو سبحانه يأمر نبيه ﷺ بذلك إذا كان جدالاً بالتي هي أحسن قال تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل / ١٢٥).

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظاهر السياق أنهم الذين رسخ الكفر في قلوبهم فلا يرجى زواله، وقد قيل «ما يجادل» ولم يقل: لا يجادل، وكذا ظاهر قوله: «فلا يغررك تقلبهم في البلاد» أن المراد بهم الكفار المعاصرون للنبي ﷺ وإن لم يكونوا من أهل مكة.

وتقلبهم في البلاد انتقالهم من طور من أطوار الحياة الى طور آخر ومن نعمة الى نعمة في سلامة وصحة وعافية، وتوجيه النهي عن الغرور الى تقلبهم في البلاد كناية عن نهي النبي ﷺ عن الاغترار بما يشاهده منهم أن يحسب أنهم أعجزوه سبحانه.

قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الخ: في مقام الجواب عما يسبق الى الوهم أنهم استكبروا وجادلوا في آيات الله فلم يكن بهم بأس وسبقوا في ذلك.

ومحصل الجواب: أن الامم الماضين كقوم نوح والأحزاب من بعدهم كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم سبقوا هؤلاء الى مثل صنيعهم من التكذيب والجدال بالباطل وهموا برسولهم ليأخذوه فحلّ بهم العقاب وكذلك قضى في حق الكفار العذاب فتوهم أن هؤلاء سبقوا الله الى ما يريد توهم باطل.

فقوله: «كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم» دفع للدخل السابق ولذا جيء بالفصل، وقوله: «وهمّت كل أُمة برسولهم ليأخذوه» يقال: هم به أي قصده ويغلب فيه القصد بالسوء أي قصدوا رسولهم ليأخذوه بالقتل أو الإخراج أو غيرهما كما قصه الله تعالى في قصصهم.

وقوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ الإدحاض الإزالة والإبطال وقوله: «فأخذتهم» أي عذبتهم، وفيه التفات من الغيبة الى التكلم وحده والنكتة فيه الإشارة الى أن أمرهم في هذا الطغيان والاستكبار الى الله وحده لا يدخل بينه وبينهم أحد بنصرة أو شفاعة كما قال: ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد﴾ (الفجر / ١٤).

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ توجيه لذهن المخاطب الى ما يعلمه من كيفية إهلاكهم وقطع دابرهم ليحضر شدة ما نزل بهم وقد قصه الله فيما قص من قصصهم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ظاهر السياق أن المشبه به هو ما في الآية السابقة من أخذهم وعقابهم، والمراد بالذين كفروا مطلق الكفار من الماضين، والمعنى كما أخذ الله المكذبين من الماضين بعذاب الدنيا كذلك حقت كلمته على مطلق الكافرين بعذاب الآخرة، والذين كفروا من قومك منهم.

وفي قوله: ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: كلمتي تطييب لنفس النبي ﷺ وتأييد له بالإشارة الى أن الركن الذي يركن اليه هو الشديد القوي.

٧ ● الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ.

٨ ● رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

٩ ● وَقِهِمُ السَّيِّآتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّآتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

١٠ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللّٰهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ.

١١ ● قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ.

١٢ ● ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللّٰهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلّٰهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الى آخر الآية. لم يعرّف سبحانه هؤلاء الحاملين للعرش من هم؟ ولا في كلامه تصريح بأنهم من الملائكة لكن يشعر عطف قوله: «ومن حوله» عليهم وقد قال فيهم: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾ (الزمر / ٧٥) أن حملة العرش أيضاً من الملائكة.

وقد تقدم تفصيل الكلام في معنى العرش في الجزء الثامن من الكتاب.

فقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ أي الملائكة الذين يحملون العرش الذي منه تظهر الأوامر وتصدر الأحكام الإلهية التي بها يدبر العالم، والذين حول العرش من الملائكة وهم المقربون منهم.

وقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ اي ينزهون الله سبحانه والحال أن تنزيههم له

يصاحب ثناءهم لربهم فهم ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بساحة قدسه ومن ذلك وجود الشريك في ملكه ويثنون عليه على فعله وتدبيره.

وقوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ إيمانهم به ـ والحال هذه الحال عرش الملك والتدبير لله وهم حاملوه أو مطيفون حوله لتلقي الأوامر وينزهونه عن كل نقص ويحمدونه على أفعاله ـ معناه الإيمان بوحدانيته في ربوبيته وأُلوهيته ففي ذكر العرش ونسبة التنزيه والتحميد والإيمان الى الملائكة رد للمشركين حيث يعدون الملائكة المقربين شركاء لله في ربوبيته وأُلوهيته ويتخذونهم أربابا آلهة يعبدونهم.

وقوله: «ويستغفرون للذين آمنوا» أي يسألون الله سبحانه أن يغفر للذين آمنوا.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ الخ؛ حكاية متن استغفارهم وقد بدؤا فيه بالثناء عليه تعالى بسعة الرحمة والعلم، وإنما ذكروا الرحمة وشفعوها بالعلم لأنه برحمته ينعم على كل محتاج فالرحمة مبدء إفاضة كل نعمة، وبعلمه يعلم حاجة كل محتاج مستعد للرحمة.

وقوله: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ تفريع على ما أثنوا به من سعة الرحمة والعلم، والمراد بالسبيل التي اتبعوها هو ما شرع لهم من الدين وهو الإسلام واتباعهم له هو تطبيق عملهم عليه فالمراد بتوبتهم رجوعهم اليه تعالى بالايمان والمعنى فاغفر للذين رجعوا اليك بالايمان بوحدانيتك وسلوك سبيلك الذي هو الإسلام وقهم عذاب الجحيم وهو غاية المغفرة وغرضها.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ الى آخر الآية تكرار النداء بلفظة ربنا لمزيد الاستعطاف والمراد بالوعد وعده تعالى لهم بلسان رسله وفي كتبه.

وقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ عطف على موضع الضمير في قوله: «وأدخلهم» والمراد بالصلوح صلاحية دخول الجنة، والمعنى وأدخل من

صلح لدخول الجنة من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم جنات عدن.

ثم من المعلوم من سياق الآيات أن استغفارهم لعامة المؤمنين، ومن المعلوم أيضاً أنهم قسموهم قسمين اثنين قسموهم الى الذين تابوا واتبعوا سبيل الله وقد وعدهم الله جنات عدن، والى من صلح وقد جعلوا الطائفة الاولى متبوعين والثانية تابعين.

ويظهر منه أن الطائفة الاولى هم الكاملون في الإيمان والعمل على ما هو مقتضى حقيقة معنى قولهم: «الذين تابوا واتبعوا سبيلك» فذكروهم وسألوه أن يغفر لهم وينجز لهم ما وعدهم من جنات عدن، والطائفة الثانية هؤلاء في المنزلة ممن لم يستكمل الإيمان والعمل من ناقص الإيمان ومستضعف وسيىء العمل من منسوبي الطائفة الاولى فذكروهم وسألوه تعالى أن يلحقهم بالطائفة الاولى الكاملين في جناتهم ويقيهم السيئات.

فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ (الطور / ٢١) غير أن الآية التي نحن فيها أوسع وأشمل لشمولها الآباء والأزواج بخلاف آية سورة الطور، والمأخوذ فيها الصلوح وهو أعم من الإيمان المأخوذ في آية الطور.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تعليل لقولهم: «فاغفر للذين تابوا» الى آخر مسألتهم، وكان الذي يقتضيه الظاهر أن يقال: إنك أنت الغفور الرحيم لكنه عدل الى ذكر الوصفين: العزيز الحكيم لأنه وقع في مفتتح مسألتهم الثناء عليه تعالى بقولهم: «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً». ولازم سعة الرحمة وهي عموم الإعطاء أن له أن يعطي ما يشاء لمن يشاء ويمنع ما يشاء ممن يشاء وهذا معنى العزة التي هي القدرة على الإعطاء والمنع، ولازم سعة العلم لكل شيء أن ينفذ العلم في جميع أقطار الفعل فلا يداخل الجهل شيئاً منها ولازمه إتقان الفعل وهو الحكمة.

فقوله: «إنك أنت العزيز الحكيم» في معنى الاستشفاع بسعة رحمته وسعة علمه تعالى

المذكورتين في مفتتح المسألة تمهيداً وتوطئة لذكر الحاجة وهي المغفرة والجنة.

قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّآتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّآتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ الخ؛ ظاهر السياق أن الضمير في «قهم» للذين تابوا ومن صلح جميعاً.

والمراد بالسيآت ـ على ما قيل ـ تبعات المعاصي وهي جزاؤها وسميت التبعات سيآت لأن جزاء السيىء سيىء قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ (الشورى / ٤٠).

وقيل: المراد بالسيآت المعاصي والذنوب نفسها والكلام على تقدير مضاف والتقدير وقهم جزاء السيآت أو عذاب السيآت.

والظاهر أن الآية من الآيات الدالة على أن الجزاء بنفس الأعمال خيرها وشرها، وقد تكرر في كلامه تعالى أمثال قوله: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ (التحريم / ٧).

وكيف كان فالمراد بالسيآت التي سألوا وقايتهم عنها هي الأهوال والشدائد التي تواجههم يوم القيامة غير عذاب الجحيم فلا تكرار في قوليهم «وقهم عذاب الجحيم» «وقهم السيآت».

وقيل: المراد بالسيآت نفس المعاصي التي في الدنيا، وقولهم: «يومئذ» إشارة الى الدنيا، والمعنى واحفظهم من اقتراف المعاصي وارتكابها في الدنيا بتوفيقك.

وفيه أن السياق يؤيد كون المراد بيومئذ يوم القيامة كما يشهد به قولهم: «وقهم عذاب الجحيم» وقولهم: «وأدخلهم جنات عدن» الخ؛ فالحق أن المراد بالسيآت ما يظهر للناس يوم القيامة من الأهوال والشدائد.

ويظهر من هذه الآيات المشتملة على دعاء الملائكة ومسألتهم:

أولاً: أن من الأدب في الدعاء أن يبدء بحمده والثناء عليه تعالى ثم يذكر الحاجة ثم يستشفع بأسمائه الحسنى المناسبة له.

وثانياً: أن سؤال المغفرة قبل سؤال الجنة وقد كثر ذكر المغفرة قبل الجنة في كلامه تعالى إذا

ذكرا معاً، وهو الموافق للاعتبار فإن حصول استعداد أي نعمة كانت بزوال المانع قبل حصول نفس النعمة.

وذكر بعضهم أن في قوله: «فاغفر للذين تابوا» الآية دلالة على أن إسقاط العقاب عند التوبة تفضل من الله تعالى إذ لو كان واجباً لكان لا يحتاج فيه الى مسألتهم بل كان يفعله الله سبحانه لا محالة.

وفيه أن وجوب صدور الفعل عنه تعالى لا ينافي صحة مسألته وطلبه منه تعالى كما يشهد به قولهم بعد الاستغفار: «ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم» فقد سألوا لهم الجنة مع اعترافهم بأن الله وعدهم إياها ووعده تعالى واجب الإنجاز فإنه لا يخلف الميعاد، وأصرح من هذه الآية قوله يحكي عن المؤمنين: ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾ (آل عمران / ١٩٤).

وقبول التوبة مما أوجبه الله تعالى على نفسه وجعله حقاً للتائبين عليه قال تعالى: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم﴾ (النساء / ١٧) فطلب كل حق أوجبه الله تعالى على نفسه منه كسؤال المغفرة للتائب هو في الحقيقة رجوع اليه لاستنجاز ما وعده وإظهار اشتياق للفوز بكرامته.

وكذا لا يستلزم التفضل منه تعالى كون الفعل جائز الصدور غير واجبه فكل عطية من عطاياه تفضل سواء كانت واجبة الصدور أم لم تكن إذ لو كان فعل من أفعاله واجب الصدور عنه لم يكن إيجابه عليه بتأثير من غيره فيه وقهره عليه إذ هو المؤثّر في كل شيء لا يؤثر فيه غيره بل كان ذلك بإيجاب منه تعالى على نفسه ويؤل معناه الى قضائه تعالى فعل شيء من الأفعال وإفاضة عطية من العطايا قضاء حتم فيكون سبحانه إنما يفعله بمشيّة من نفسه منزهاً عن إلزام الغير إياه عليه متفضلاً به فالفعل تفضل منه وإن كان واجب الصدور، وأما لو لم يكن الفعل واجب الصدور فكونه تفضلاً أوضح.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ المقت أشد البغض. لما ذكر المؤمنين ببعض ما لهم من جهة إيمانهم رجع الى ذكر الكافرين ببعض ما عليهم من جهة كفرهم.

وظاهر الآية والآية التالية أن هذا النداء المذكور فيها إنما ينادون به في الآخرة بعد دخول النار حين يذوقون العذاب لكفرهم فيظهر لهم أن كفرهم في الدنيا إذ كانوا يدعون من قبل الأنبياء الى الايمان كان مقتاً وشدة بغض منهم لأنفسهم حيث أوردوها بذلك مورد الهلاك الدائم.

وينادون من جانب الله سبحانه فيقال لهم: أُقسم لمقت الله وشدة بغضه لكم أكبر من مقتكم أنفسكم وشدة بغضكم لها إذ تدعون - حكاية حال ماضية - الى الايمان من قبل الأنبياء فتكفرون.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ سياق الآية وما قبلها يشعر بأنهم يقولون هذا القول بعد استماع النداء السابق، وإنما يقولونه وهم في النار بدليل قولهم: «فهل الى خروج من سبيل».

وتقديم هذا الاعتراف منهم نوع تسبيب وتوسل الى التخلص من العذاب ولات حين مناص: وذلك أنهم كانوا - وهم في الدنيا - في ريب من البعث والرجوع الى الله فأنكروه ونسوا يوم الحساب وكان نسيان ذلك سبب استرسالهم في الذنوب وذهابهم لوجوههم في المعاصي ونسيان يوم الحساب مفتاح كل معصية وضلال قال تعالى: ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (ص / ٢٦).

ثم لما أماتهم الله إماتة بعد إماتة وأحياهم إحياءة بعد إحياءة زال ارتيابهم في أمر البعث والرجوع الى الله بما عاينوا من البقاء بعد الموت والحياة بعد الحياة وقد كانوا يرون أن الموت فناء، ويقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

وبالجملة زال عنهم الارتياب بحصول اليقين وبقيت الذنوب والمعاصي ولذلك توسلوا الى التخلص من العذاب بالاعتراف فتارة اعترفوا بحصول اليقين كما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ (الم السجدة / ١٢)، وتارة اعترفوا بذنوبهم كما في الآية المبحوث عنها وقد كانوا يرون أنهم أحرار مستقلون في إرادتهم وأفعالهم لهم أن يشاؤا ما شاؤا وأن يفعلوا ما فعلوا ولا حساب ولا ذنب.

ومن ذلك يظهر وجه ترتب قولهم: «فاعترفنا بذنوبنا» على قولهم: «أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين» فالاعتراف في الحقيقة مترتب على حصول اليقين بالمعاد الموجب لحصول العلم بكون انحرافاتهم عن سبيل الله ضلالات وذنوباً.

والمراد بقولهم: «أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين» ـ كما قيل ـ الإماتة عن الحياة الدنيا والإحياء للبرزخ ثم الإماتة عن البرزخ والإحياء للحساب يوم القيامة فالآية تشير الى الإماتة بعد الحياة الدنيا والإماتة بعد الحياة البرزخية والى الإحياء في البرزخ والإحياء ليوم القيامة ولولا الحياة البرزخية لم تتحقق الإماتة الثانية لأن كلا من الإماتة والإحياء يتوقف تحققه على سبق خلافه.

ولم يتعرضوا للحياة الدنيا ولم يقولوا: وأحييتنا ثلاثاً وإن كانت إحياء لكونها واقعة بعد الموت الذي هو حال عدم ولوج الروح لأن مرادهم ذكر الإحياء الذي هو سبب الإيقان بالمعاد وهو الإحياء في البرزخ ثم في القيامة وأما الحياة الدنيوية فإنها وإن كانت إحياء لكنها لا توجب بنفسها يقيناً بالمعاد فقد كانوا مرتابين في المعاد وهم أحياء في الدنيا.

وقولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ دعاء ومسألة في صورة الاستفهام، وفي تنكير الخروج والسبيل إشارة الى رضاهم بأي نوع من الخروج كان من أي سبيل كانت فقد بلغ بهم الجهد واليوم يوم تقطعت بهم الأسباب فلا سبب يرجى أثره في تخلصهم من العذاب.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللّٰهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ الخ: خطاب تشديد للكفار موطنه يوم القيامة، ويحتمل أن يكون موطنه الدنيا خوطبوا بداعي زجرهم عن الشرك.

والإشارة بقوله: «ذلكم» إلى ما هم فيه من الشدة، وفي قوله: «وإن يشرك به» دلالة على الاستمرار، والكلام مسوق لبيان معاندتهم للحق ومعاداتهم لتوحيده تعالى فهم يكفرون بكل ما يلوح فيه أثر التوحيد ويؤمنون بكل ما فيه سمة الشرك فهم لا يراعون لله حقاً ولا يحترمون له جانباً فالله سبحانه يحرم عليهم رحمته ولا يراعي في حكمه لهم جانباً.

وبهذا المعنى يتصل قوله: «فالحكم لله العلي الكبير» بأول الآية ويتفرع عليه كأنه قيل: فإذا قطعتم عن الله بالمرة وكفرتم بكل ما يريده وآمنتم بكل ما يكرهه فهو يقطع عنكم ويحكم فيكم بما يحكم من غير أي رعاية لحالكم.

فالآية في معنى قوله: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ (التوبة / ٦٧)، والجملة أعني قوله: «فالحكم لله العلي الكبير» خاصة بحسب السياق وإن كانت عامة في نفسها، وفيها تهديد ويتأكد التهديد باختتامها بالاسمين العلي الكبير.

١٢ ● هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ.

١٤ ● فَادْعُوا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ.

١٥ ● رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ.

١٦ ● يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفىٰ عَلَى اللّٰهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ

الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.

١٧ ۞ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

١٨ ۞ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ.

١٩ ۞ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ.

٢٠ ۞ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الى آخر الآية المراد بالآيات هي العلائم والحجج الدالة على وحدانيته تعالى في الربوبية والالوهية بدليل ما سيجيىء من تفريع قوله: «فادعوا الله مخلصين له الدين» عليه. والآيات مطلقة شاملة للآيات الكونية المشهودة في العالم لكل إنسان صحيح الإدراك والآيات التي تجري على أيدي الرسل والحجج القائمة من طريق الوحي.

والجملة مشتملة على حجة فإنه لو كان هناك إله تجب عبادته على الإنسان وكانت عبادته كمالاً للإنسان وسعادة له كان من الواجب في تمام التدبير وكامل العناية أن يهدي الإنسان اليه، والذي تدل الآيات الكونية على ربوبيته وأُلوهيته ويؤيد دلالتها الرسل والأنبياء بالدعوة والإتيان بالآيات هو الله سبحانه. وأما آلهتهم الذين يدعونهم من دون الله فلا آية من قبلهم تدل على شيء فالله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له. والى هذه الحجة يشير عليّ ﷺ بقوله

فيما روي عنه: «لو كان لربك شريك لأتتك رسله».

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً﴾ حجة أُخرى على وحدانيته تعالى من جهة الرزق فإن رزق العباد من شؤن الربوبية والالوهية والرزق من الله دون شركائهم فهو الرب الاله دونهم.

وقد فسروا الرزق بالمطر، والسماء بجهة العلو. ولا يبعد أن يراد بالرزق نفس الأشياء التي يرتزق بها وبنزولها من السماء بروزها من الغيب الى الشهادة على ما يفيده قوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١).

وقوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ معترضة تبين أن حصول التذكر بهذه الحجج إنما هو شأن إحدى الطائفتين المذكورتين من قبل وهم المنيبون الراجعون الى ربهم دون المجادلين الكافرين فإن الكفر والجحود يبطل استعداد التذكر بالحجة والاتباع للحق.

قوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ الأنسب للسياق أن يكون الخطاب عاماً للمؤمنين وغيرهم متفرعاً على الحجة السابقة غير أنه لا يشمل الكافرين المذكورين في آخر الآية وهم المكذبون المجادلون بالباطل.

كأنه قيل: إذا كانت الآيات تدل على وحدانيته تعالى وهو الرزاق فعلى غير الكافرين الذين كذبوا وجادلوا أن يدعوا الله مخلصين له الدين، وأما الكافرون الكارهون للتوحيد فلا مطمع فيهم ولا آية تفيدهم ولا حجة تقنعهم فاعبدوه بالإخلاص ودعوا الكافرين يكرهون ذلك.

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الخ؛ صفات ثلاث له تعالى وكل منها خبر بعد خبر للضمير في قوله: «هو الذي يريكم آياته» والآية وما بعدها مسوقة للإنذار.

وقد أورد لقوله: «رفيع الدرجات» تفاسير شتى فقيل: معناه رافع درجات الأنبياء

والأولياء في الجنة، وقيل: رافع السماوات السبع التي منها تصعد الملائكة الى عرشه، وقيل: رفيع مصاعد عرشه، وقيل: كناية عن رفعة شأنه وسلطانه.

والذي يعطيه التدبر أن الآية وما بعدها يصفان ملكه تعالى على خلقه أن له عرشاً تجتمع فيه أزمة أُمور الخلق ويتنزل منه الأمر متعالياً بدرجات رفيعة هي مراتب خلقه ولعلها السماوات التي وصفها في كلامه بأنها مساكن ملائكته وأن أمره يتنزل بينهن وهي التي تحجب عرشه عن الناس.

ثم إن له يوماً هو يوم التلاقي يرفع فيه الحجاب ما بينه وبين الناس بكشف الغطاء عن بصائرهم وطي السماوات بيمينه وإظهار عرشه لهم فينكشف لهم أنه هو المليك على كل شيء لا ملك إلا ملكه فيحكم بينهم.

فالمراد بالدرجات الدرجات التي يرتقي منها الى عرشه ويعود قوله: «رفيع الدرجات ذو العرش كناية استعارية عن تعالي عرش ملكه عن مستوى الخلق وغيبته واحتجابه عنهم قبل يوم القيامة بدرجات رفيعة ومراحل بعيدة.

وقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ إشارة الى أمر الرسالة التي من شأنها الإنذار، وتقييد الروح بقوله: «من أمره» دليل على أن المراد بها الروح التي ذكرها في قوله: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ (الإسراء / ٨٥)، وهي التي تصاحب ملائكة الوحي كما يشير اليه قوله: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا﴾ (النحل / ٢).

فالمراد بالقاء الروح على من يشاء تنزيلها مع ملائكة الوحي عليه، والمراد بقوله: «من يشاء من عباده» الرسل الذين اصطفاهم الله لرسالته، وفي معنى الروح الملقاة على النبي أقوال أُخر لا يعبؤ بها.

وقوله: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ وهو يوم القيامة سمي به لالتقاء الخلائق فيه أو لالتقاء

الخالق والمخلوق أو لالتقاء أهل السماء والأرض أو لالتقاء الظالم والمظلوم أو لالتقاء المرء وعمله ولكل من هذه الوجوه قائل.

ويمكن أن يتأيد القول الثاني بما تكرر في كلامه تعالى من حديث اللقاء كقوله: ﴿بلقاء ربهم لكافرون﴾ (الروم / ٨)، وقوله: ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ (هود / ٢٩)، وقوله: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ (الإنشقاق / ٦) ومعنى اللقاء تقطع الأسباب الشاغلة وظهور أن الله هو الحق المبين وبروزهم لله.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ الخ: تفسير ليوم التلاق، ومعنى بروزهم لله ظهور ذلك لهم وارتفاع الأسباب الوهمية التي كانت تجذبهم الى نفسها وتحجبهم عن ربهم وتغفلهم عن إحاطة ملكه وتفرده في الحكم وتوحده في الربوبية والالوهية.

فقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ إشارة الى ارتفاع كل سبب حاجب، وقوله: «لا يخفى على الله منهم شيء» تفسير لمعنى بروزهم لله وتوضيح فقلوبهم وأعمالهم بعين الله وظاهرهم وباطنهم وما ذكروه وما نسوه مكشوفة غير مستورة.

وقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ سؤال وجواب من ناحيته سبحانه تبين بهما حقيقة اليوم وهي ظهور ملكه وسلطانه تعالى على الخلق على الإطلاق.

وفي توصيفه تعالى بالواحد القهار تعليل لانحصار الملك فيه لأنه إذ قهر كل شيء ملكه وتسلط عليه بسلب الاستقلال عنه وهو واحد فله الملك وحده.

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ الباء في «بما كسبت» للصلة والمراد بيان خصيصة اليوم وهي أن كل نفس تجزى عين ما كسبت فجزاؤها عملها، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ (التحريم / ٧).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ تعليل لنفي الظلم في قوله: «لا ظلم اليوم» أي إنه تعالى سريع في المحاسبة لا يشغله حساب نفس عن حساب أُخرى حتى يخطىء فيجزي نفساً غير جزائها فيظلمها.

وهذا التعليل ناظر الى نفي الظلم الناشيء عن الخطاء وأما الظلم عن عمد وعلم فانتفاؤه مفروغ عنه لأن الجزاء لما كان بنفس العمل لم يتصور معه ظلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ الى آخر الآية. الآزفة من أوصاف القيامة ومعناها القريبة الدانية قال تعالى: ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ (المعارج / ٧).

وقوله: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ الحناجر جمع حنجرة وهي رأس الغلصمة من خارج وكون القلوب لدى الحناجر كناية عن غاية الخوف كأنها تزول عن مقرها وتبلغ الحناجر من شدة الخوف، وكاظمين من الكظم وهو شدة الاغتمام.

وقوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ الحميم القريب أي ليس لهم قريب يقوم بنصرهم بحمية القرابة قال تعالى: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ﴾ (المؤمنون / ١٠١)، ولا شفيع يطاع في شفاعته.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ قيل: الخائنة مصدر كالخيانة نظيرة الكاذبة واللاغية بمعنى الكذب واللغو، وليس المراد بخائنة الأعين كل معصية من معاصيها بل المعاصي التي لا تظهر للغير كسارقة النظر بدليل ذكرها مع ما تخفي الصدور.

وقيل «خائنة الأعين» من قبيل إضافة الصفة الى الموصوف، ولازمه كون العلم بمعنى المعرفة والمعنى يعرف الأعين الخائنة، والوجه هو الأول.

وقوله: «وما تخفي الصدور» وهو ما تسره النفس وتستره من وجوه الكفر والنفاق

وهيئات المعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ الخ: هذه حجة أخرى على توحده تعالى بالالوهية أقامها بعد ما ذكر حديث انحصار الملك فيه يوم القيامة وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور تمهيداً وتوطئة.

ومحصلها أن من اللازم الضروري في الالوهية أن يقضي الإله في عباده وبينهم والله سبحانه هو يقضي بين الخلق وفيهم يوم القيامة والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء لأنهم عباد مملوكون لا يملكون شيئاً.

ومن قضائه تعالى تدبيره جزئيات أُمور عباده بالخلق بعد الخلق فإنه مصداق القضاء والحكم قال تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (يس / ٨٢)، وقال: ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ (آل عمران / ٤٧)، ولا نصيب لغيره تعالى في الخلق فلا نصيب له في القضاء.

ومن قضائه تعالى تشريع الدين وارتضاؤه سبيلاً لنفسه قال تعالى: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ الآية (الإسراء / ٢٣).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي له حقيقة العلم بالمسموعات والمبصرات لذاته، وليس لغيره من ذلك إلا ما ملكه الله وأذن فيه لا لذاته[1].

٢١ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ.

---

١. المؤمن ١٣ ـ ٢٠: بحث روائي في: روح القدس؛ يوم القيامة؛ قوله تعالى: «لمن الملك اليوم».

٢٢ • ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنٰاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقٰابِ.

٢٣ • وَلَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ بِآيٰاتِنا وَسُلْطٰانٍ مُبِينٍ.

٢٤ • إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَهٰامٰانَ وَقٰارُونَ فَقٰالُوا سٰاحِرٌ كَذّٰابٌ.

٢٥ • فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قٰالُوا اقْتُلُوا أَبْنٰاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسٰاءَهُمْ وَمٰا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ.

٢٦ • وَقٰالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخٰافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسٰادَ.

٢٧ • وَقٰالَ مُوسىٰ إِنِّي عُذتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاٰ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسٰابِ.

٢٨ • وَقٰالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللّٰهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالبَيِّنٰاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صٰادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللّٰهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّٰابٌ.

٢٩ • يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ اليَوْمَ ظٰاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللّٰهِ إِنْ جٰاءَنٰا قٰالَ فِرْعَوْنُ مٰا أُرِيكُمْ إِلاّٰ ما أَرىٰ وَمٰا أَهْدِيكُمْ إِلاّٰ سَبِيلَ الرَّشَادِ.

٣٠ • وَقٰالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزابِ.

٢١ ❁ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللّٰهُ
يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ.
٣٢ ❁ وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ.
٣٣ ❁ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ
اللّٰهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ.
٣٤ ❁ وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمّا
جاءَكُمْ بِهِ حَتّىٰ إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللّٰهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً
كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللّٰهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ.
٣٥ ❁ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتيهُمْ كَبُرَ مَقْتاً
عِنْدَ اللّٰهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ قَلْبِ
مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ.
٣٦ ❁ وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبابَ.
٣٧ ❁ أَسْبابَ السَّمٰواتِ فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلٰهِ مُوسىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً
وَكَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ
فِرْعَوْنَ إِلّاٰ فِي تَبابٍ.
٣٨ ❁ وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ.
٣٩ ❁ يا قَوْمِ إِنَّما هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دارُ
الْقَرارِ.
٤٠ ❁ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزىٰ إِلّاٰ مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ

ذَكَرٍ أَوْ أُنثىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ.

٤١ ❁ وَيا قَوْمِ مالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجوٰةِ وَتَدْعُونَنِي إِلىٰ النّارِ.

٤٢ ❁ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفّارِ.

٤٣ ❁ لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللّٰهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النّارِ.

٤٤ ❁ فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ.

٤٥ ❁ فَوَقيٰهُ اللّٰهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ.

٤٦ ❁ النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ.

٤٧ ❁ وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفٰؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا كُنّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنّا نَصِيباً مِنَ النّارِ.

٤٨ ❁ قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللّٰهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ.

٤٩ ❁ وَقالَ الَّذِينَ فِي النّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ.

٥٠ ﴿ قالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّناتِ قالُوا بَلىٰ قالُوا فَادْعُوا وَما دُعٰؤُا الْكافِرِينَ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ.

٥١ ﴿ إِنّٰا لَنَنْصُرُ رُسُلَنٰا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهٰادُ.

٥٢ ﴿ يَوْمَ لاٰ يَنْفَعُ الظّٰالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدّٰارِ.

٥٣ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى الْهُدىٰ وَأَوْرَثْنٰا بَنِي إِسْرٰائِيلَ الْكِتٰابَ.

٥٤ ﴿ هُدىً وَذِكْرىٰ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ الى آخر الآية الاستفهام إنكاري، والواقي اسم فاعل من الوقاية بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره.

والمعنى: أو لم يسيروا هؤلاء الذين أرسلناك اليهم «في الأرض فينظروا» نظر تفكر واعتبار «كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم» من الامم الدارجة المكذبين لرسلهم «كانوا هم أشد منهم قوة» أي قدرة وتمكنا وسلطة «وآثارا» كالمدائن الحصينة والقلاع المنيعة والقصور العالية المشيدة «في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم» وأهلكهم بأعمالهم «وما كان لهم من الله من واق» يقيهم وحافظ يحفظهم.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ﴾ الخ: الإشارة بذلك الى الأخذ الإلهي، والمراد بالبينات الآيات الواضحات، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ بِآيٰاتِنٰا وَسُلْطٰانٍ مُبِينٍ﴾ لعل المراد بالآيات الخوارق المعجزة التي أرسل بها كالعصا واليد وغيرهما وبالسلطان المبين السلطة الإلهية

القاهرة التي أيد بها فمنعت فرعون أن يقتله ويطفىء نوره، وقيل: المراد بالآيات الحجج والدلالات وبالسلطان معجزاته من العصا واليد وغيرهما، وقيل: غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ فرعون جبار القبط ومليكهم، وهامان وزيره وقارون من طغاة بني إسرائيل ذو الخزائن المليئة؟ وإنما اختص الثلاثة من بين الامتين بالذكر لكونهم اصولاً ينتهي اليهم كل فساد وفتنة فيها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ الخ: مقايسة بين ما جاءهم به موسى ودعاهم اليه وبين ما قابلوه به من كيدهم فقد جاءهم بالحق وكان من الواجب أن يقبلوه لأنه حق وكان ما جاء به من عند الله وكان من الواجب أن يقبلوه ولا يردوه فقابلوه بالكيد وقالوا ما قالوا لئلا يؤمن به أحد لكن الله أضل كيدهم فلم يصب المؤمنين معه.

ويشعر السياق أن من القائلين بهذا القول قارون وهو من بني إسرائيل ولا ضير فيه لأن الحكم بقتل الأبناء واستحياء النساء كان قبل الدعوة صادرا في حق بني إسرائيل عامة وهذا الحكم في حق المؤمنين منهم خاصة فلعل قارون وافقهم عليه لعداوته وبغضه موسى والمؤمنين من قومه.

وفي قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ ولم يقل: آمنوا به إشارة الى مظاهرتهم موسى في دعوته.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ الخ: «ذروني» أي اتركوني، خطاب يخاطب به ملأه، وفيه دلالة على أنه كان هناك قوم يشيرون عليه أن لا يقتل موسى ويكف عنه كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿قالوا أرجه وأخاه﴾ (الشعراء / ٣٦).

وقوله: «وليدع ربه» كلمة قالها كبراً وعتواً يقول: اتركوني أقتله وليدع ربه فلينجه من يدي وليخلصه من القتل إن قدر.

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ تعليل لما عزم عليه من القتل وقد ذكر أنه يخافه عليهم من جهة دينهم ومن جهة دنياهم. أما من جهة دينهم ـ وهو عبادة الأصنام ـ فأن يبدله ويضع موضعه عبادة الله وحده. وأما من جهة دنياهم فكأن يعظم أمره ويتقوى جانبه ويكثر متبعوه فيتظاهروا بالتمرد والمخالفة فيؤل الأمر الى المشاجرة والقتال وانسلاب الأمن.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ مقابلة منه ﷺ لتهديد فرعون إياه بالقتل واستعاذة منه بربه. وقوله: «عذت بربي وربكم» فيه مقابلة منه أيضاً لفرعون في قوله: «وليدع ربه» حيث خص ربوبيته تعالى بموسى فأشار موسى بقوله: «عذت بربي وربكم» الى أنه تعالى ربهم كما هو ربه نافذ حكمه فيهم كما هو نافذ فيه فله أن يقي عائذه من شرهم وقد وقى.

ومن هنا يظهر أن الخطاب في قوله: «وربكم» لفرعون ومن معه دون قومه من بني إسرائيل.

وقوله: «من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب» يشير به الى فرعون وكل من يشاركه في صفتي التكبر وعدم الايمان بيوم الحساب ولا يؤمن ممن اجتمعت فيه الصفتان شر أصلا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ الى آخر الآية. ظاهر السياق أن «من آل فرعون» صفة رجل و«يكتم إيمانه» صفة اخرى فكان الرجل من القبط من خاصة فرعون وهم لا يعلمون بإيمانه لكتمانه إياهم ذلك تقية.

وقيل: قوله: «من آل فرعون» مفعول ثان لقوله: «يكتم» قدم عليه. والغالب فيه وإن كان التعدي الى المفعول الثاني بنفسه كما في قوله: ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾ (النساء / ٤٢) لكنه قد يتعدى اليه بمن كما صرح به في المصباح.

وفيه أن السياق يأباه فلا نكتة ظاهرة تقتضي تقدم المفعول الثاني على الفعل من حصر

ونحوه. على أن الرجل يكرر نداء فرعون وقومه بلفظة «يا قومي» ولو لم يكن منهم لم يكن له ذلك.

وقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللّٰهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إنكار لعزمهم على قتله، وفي قوله: «من ربكم» دليل على أن في البينات التي جاء بها دلالة على أن الله ربهم أيضاً كما اتخذه ربا فقتله قتل رجل جاء بالحق من ربهم.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ قيل: إن ذكره هذا التقدير تلطف منه لا أنه كان شاكا في صدقه.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ فيه تنزل في المخاصمة بالاكتفاء على أيسر التقادير وأقلها كأنه يقول: وإن يك صادقا يصبكم ما وعدكم من أنواع العذاب ولا أقل من إصابة بعض ما يعدكم مع أن لازم صدقه إصابة جميع ما وعد.

وقوله: ﴿إِنَّ اللّٰهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ تعليل للتقدير الثاني فقط والمعنى إن يك كاذبا كفاه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم لأنكم حينئذ مسرفون متعدون طوركم كذابون في نفي ربوبية ربكم واتخاذ أرباب من دونه والله لا يهدي من هو مسرف كذاب، وأما على تقدير كذبه فلا ربوبية لمن اتخذه ربا حتى يهديه أو لا يهديه.

ومن هنا يظهر أن ما ذكره بعضهم من كون الجملة تعليلا للتقديرين جميعا متعلقة بكلتا الجملتين غير مستقيم.

قوله تعالى: ﴿يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللّٰهِ إِنْ جاءَنا﴾ ظهورهم غلبتهم وعلوهم في الأرض. والأرض أرض مصر. وبأس الله أخذه وعذابه والاستفهام للإنكار.

والمعنى: يا قوم لكم الملك حال كونكم غالبين عالين في أرض مصر على من دونكم من بني

إسرائيل فمن ينصرنا من أخذ الله وعذابه كما يعدنا به موسى إن جاءنا ؟ وقد أدخل نفسه فيهم على تقدير مجيء البأس ليكون أبلغ في النصح وأوقع في قلوبهم أنه يريد لهم من العافية ما يريده لنفسه .

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي طريق الصواب المطابقة للواقع يريد أنه على يقين مما يهدي اليه قومه من الطريق وهي مع كونها معلومة له مطابقة للواقع، وهذا كان تمويها منه وتجلدا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ـ الى قوله ـ لِلْعِبَادِ﴾ المراد بالذي آمن هو مؤمن آل فرعون، ولا يعبؤ بما قيل: إنه موسى لقوة كلامه. والمراد بالأحزاب الامم المذكورون في الآية التالية قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم. وقوله: «مثل دأب قوم نوح» بيان للمثل السابق والدأب هو العادة.

والمعنى: يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأقوام الماضين مثل العادة الجارية من العذاب عليهم واحداً بعد واحد لكفرهم وتكذيبهم الرسل، أو مثل جزاء عادتهم الدائمة من الكفر والتكذيب وما الله يريد ظلما للعباد.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ـ الى قوله ـ مِنْ هَادٍ﴾ يوم التناد يوم القيامة، ولعل تسميته بذلك لكون الظالمين فيه ينادي بعضهم بعضا وينادون بالويل والثبور على ما اعتادوا به في الدنيا.

وقيل: المراد بالتنادي المناداة التي تقع بين أصحاب الجنة وأصحاب النار على ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف، وهناك وجوه آخر ذكروها لا جدوى فيها.

وقوله: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ المراد به يوم القيامة ولعل المراد أنهم يفرون في النار من شدة عذابها ليتخلصوا منها فردوا اليها كما قال

تعالى: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أُعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾ (الحج / ٢٢).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ بمنزلة التعليل لقوله: «ما لكم من الله من عاصم» أي تفرون مدبرين ما لكم من عاصم ولو كان لكان من جانب الله وليس وذلك لأن الله أضلهم ومن يضلل الله فما له من هاد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الى آخر الآية؛ لما ذكر أن الله أضلهم ولا هادي لهم استشهد له بما عاملوا به يوسف عليه السلام في رسالته اليهم حيث شكوا في نبوته ما دام حيا ثم إذا مات قالوا: لا نبي بعده.

فالمعنى: وأُقسم لقد جاءكم يوسف من قبل بالآيات البينات التي لا تدع ريبا في رسالته من الله فما زلتم في شك مما جاءكم به ما دام حيا حتى إذا هلك ومات قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا فناقضتم أنفسكم ولم تبالوا.

ثم أكده ـ وهو في معنى التعليل ـ بقوله: «كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب».

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ الخ؛ وصف لكل مسرف مرتاب فإن من تعدى طوره بالاعراض عن الحق واتباع الهوى واستقر في نفسه الإرتياب فكان لا يستقر على علم ولا يطمئن الى حجة تهديه الى الحق جادل في آيات الله بغير برهان إذا خالفت مقتضى هواه.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ يفيد أن قلوبهم مطبوع عليها فلا يفقهون حجة ولا يركنون الى برهان.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً ـ الى قوله ـ فِي تَبَابٍ﴾ أمر منه لوزيره هامان أن يبني له بناء يتوصل به الى الإطلاع الى إله موسى ولعله أصدر هذا الأمر أثناء محاجة الذي آمن وبعد الإنصراف عن قتل موسى ولذلك وقع ذكره بين مواعظ

الذي آمن واحتجاجاته .

والصرح ـ على ما في المجمع ـ البناء الظاهر الذي لا يخفى على عين الناظر وإن بعد ، والأسباب جمع سبب وهو ما تتوصل به الى ما يبتعد عنك .

وقوله : ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبابَ﴾ في معنى التعليل لأمره ببناء الصرح ، والمعنى آمرك ببنائه لأني أرجو أن أبلغ بالصعود عليه الأسباب ثم فسر الأسباب بقوله : «أسباب السماوات» وفرع عليه قوله : «فأطلع الى إله موسى» كأنه يقول : إن الإله الذي يدعوه ويدعو اليه موسى ليس في الأرض إذ لا إله فيها غيري فلعله في السماء فابن لي صرحاً لعلي أبلغ بالصعود عليه الأسباب السماوية الكاشفة عن خبايا السماء فأطلع من جهتها الى إله موسى وإني لأظنه كاذبا .

وقوله : ﴿وَكَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ مفاد السياق أنه في معنى إعطاء الضابط لما واجه به فرعون الحق الذي كان يدعوه اليه موسى فقد زين الشيطان له قبيح عمله فرآه حسنا وصده عن سبيل الرشاد فرآى انصداده عنها ركوبا عليها فجادل في آيات الله بالباطل وأتى بمثل هذه الأعمال القبيحة والمكائد السفهية لإدحاض الحق .

ولذلك ختمت الآية بقوله : «وما كيد فرعون إلا في تباب» أي هلاك وانقطاع .

قوله تعالى : ﴿وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ﴾ يدعوهم الى اتباعه ليهديهم ، واتباعه اتباع موسى ، وسبيل الرشاد السبيل التي في سلوكها إصابة الحق والظفر بالسعادة ، والهداية بمعنى إرادة الطريق ، وفي قوله : «أهدكم سبيل الرشاد» تعريض لفرعون حيث قال : «وما أهديكم إلا سبيل الرشاد» والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿يا قَوْمِ إِنَّما هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ﴾ هذا هو السناد الذي يستند اليه سلوك سبيل الرشاد والتدين بدين الحق لا غنى عنه

بحال وهو الاعتقاد بأن للإنسان حياة خالدة مؤبدة هي الحياة الآخرة وأن هذه الحياة الدنيا متاع في الآخرة ومقدمة مقصودة لأجلها، ولذلك بدء به في بيان سبيل الرشاد ثم ذكر السيئة والعمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ الى آخر الآية. أي إن الذي يصيبه ويعيش به في الآخرة يشاكل ما أتى به في هذه الحياة الدنيا التي هي متاع فيها فإنما الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء.

من عمل في الدنيا سيئة ذات صفة المساءة فلا يجزى في الآخرة إلا مثلها مما يسوؤه ومن عمل صالحا من ذكر أو انثى من غير فرق بينهما في ذلك والحال أنه مؤمن فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب.

وفيه إشارة الى المساواة بين الذكر والانثى في قبول العمل وتقييد العمل الصالح في تأثيره بالايمان لكون العمل حبطا بدون الإيمان قال تعالى: ﴿ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله﴾ (المائدة / ٥) الى غيرها من الآيات.

وقد جمع الدين الحق وهو سبيل الرشاد في أوجز بيان وهو أن للإنسان دار قرار يجزى فيها بما عمل في الدنيا من عمل سيىء أو صالح فليعمل صالحا ولا يعمل سيئاً، وزاد بيانا إذ أفاد أنه إن عمل صالحا يرزق بغير حساب.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ـ الى قوله ـ الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ كأنه لما دعاهم الى التوحيد قابلوه بدعوته الى عبادة آلهتهم أو قدّرها لهم لما شاهد جدالهم بالباطل وإصرارهم على الشرك فنسب اليهم الدعوة بشهادة حالهم فأظهر العجب من مقابلتهم دعوته الحقة بدعوتهم الباطلة.

فقال: ويا قوم مالي أدعوكم الى النجاة أي النجاة من النار وتدعونني الى النار وقد كان يدعوهم الى سبب النجاة ويدعونه الى سبب دخول النار فجعل الدعوة الى السببين دعوة الى

المسببين أو لأن الجزاء هو العمل بوجه.

ثم فسر ما دعوه اليه وما دعاهم اليه فقال: تدعونني لأكفر أي الى أن أكفر بالله وأُشرك به ما ليس لي به علم أي أُشرك به شيئا لا حجة لي على كونه شريكا فأفتري على الله بغير علم، وأنا أدعوكم الى العزيز الذي يغلب ولا يغلب، الغفار لمن تاب اليه وآمن به أي أدعوكم الى الايمان به والاسلام له.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ الخ: لا جرم بمعنى حقا أو بمعنى لابد، ومفاد الآية إقامة الحجة على عدم كون ما يدعون اليه إلهاً من طريق عدم الدعوة اليه وفي ذلك تأييد لقوله في الآية السابقة: «ما ليس لي به علم».

والمعنى: ثبت ثبوتا أن ما تدعونني اليه ما تسمونه شريكا له سبحانه ليس له دعوة في الدنيا إذ لم يعهد نبي أُرسل الى الناس من ناحيته ليدعوهم الى عبادته، ولا في الآخرة إذ لا رجوع اليه فيها من أحد، وأما الذي أدعوكم اليه وهو الله سبحانه فإن له دعوة في الدنيا وهي التي تصداها أنبياؤه ورسله المبعوثون من عنده المؤيدون بالحجج والبينات، وفي الآخرة وهي التي يتبعها رجوع الخلق اليه لفصل القضاء بينهم، قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾ (الاسراء / ٥٢).

ومن المعلوم كما قررناه في ذيل قوله تعالى: ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ (الآية ١٣ من السورة) أن الربوبية لا تتم بدون دعوة في الدنيا ونظيرتها الدعوة في الآخرة، وإذ كان الذي يدعوهم اليه ذا دعوة في الدنيا والآخرة دون ما يدعونه اليه فهو الإله دون ما يدعون اليه.

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ معطوف على قوله: «أن ما تدعونني» أي لا جرم أن مردنا الى الله فيجب الإسلام له واتباع سبيله

ورعاية حدود العبودية، ولا جرم أن المسرفون وهم المتعدون طور العبودية ـ وهم أنتم ـ أصحاب النار فالذي أدعوكم اليه فيه النجاة دون ما تدعونني اليه.

قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ صدر الآية موعظة وتخويف لهم وهو تفريع على قوله: «وأن مردنا الى الله» الخ؛ أي إذ كان لابد من الرجوع الى الله وحلول العذاب بالمسرفين وأنتم منهم ولم تسمعوا اليوم ما أقول لكم فستذكرون ما أقول لكم حين عاينتم العذاب وتعلمون عند ذاك أني كنت ناصحاً لكم.

وقوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ التفويض على ما فسره الراغب هو الرد فتفويض الأمر الى الله رده إليه فيقرب من معنى التوكل والتسليم والاعتبار مختلف: فالتفويض من العبد رده ما نسب اليه من الأمر الى الله سبحانه وحال العبد حينئذ حال من هو أعزل لا أمر راجعا اليه، والتوكل من العبد جعله ربه وكيلا يتصرف فيما له من الأمر. والتسليم من العبد مطاوعته المحضة لما يريده الله سبحانه فيه ومنه من غير نظر الى انتساب أمر اليه فهي مقامات ثلاث من مقامات العبودية: التوكل ثم التفويض وهو أدق من التوكل ثم التسليم وهو أدق منهما.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ تعليل لتفويضه أمره الى الله. وفي وضع اسم الجلالة موضع ضميره ـ وكان مقتضى الظاهر الاضمار إشارة الى علة بصيرته بالعباد كأنه قيل: إنه بصير بالعباد لأنه الله عز اسمه.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ تفريع على تفويضه الأمر الى الله فكفاه الله شرهم ووقاه سيئات مكرهم، وفيه إشارة الى أنهم قصدوه بالسوء لكن الله دفعهم عنه.

قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ـ الى قوله ـ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾

أي نزل بهم وأصابهم العذاب السيىء فسوء العذاب من إضافة الصفة الى موصوفها وفي التوصيف بالمصدر مبالغة. وآل فرعون أشياعه وأتباعه، وربما يقال آل فلان ويشمل نفسه.

وقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾ ظاهر السياق أنه بيان لسوء العذاب وليس من الاستئناف في شيء.

والآية صريحة أولاً في أن هناك عرضا على النار ثم إدخالا فيها والإدخال أشد من العرض، وثانياً: في أن العرض على النار قبل قيام الساعة التي فيها الإدخال وهو عذاب البرزخ ـ عالم متوسط بين الموت والبعث ـ وثالثاً: أن التعذيب في البرزخ ويوم تقوم الساعة بشيء واحد وهو نار الآخرة لكن البرزخين يعذبون بها من بعيد وأهل الآخرة بدخولها.

وفي قوله: ﴿غُدُوّاً وَعَشِيّاً﴾ إشارة الى التوالي من غير انقطاع، ولعل لأهل البرزخ لعدم انقطاعهم عن الدنيا بالكلية نسبة ما الى الغداة والعشي.

وفي قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا﴾ إيجاز بالحذف والتقدير يقال: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَوُّا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ـ الى قوله ـ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ يفيد السياق أن الضمير في «يتحاجون» لآل فرعون ومن الدليل على ذلك تغيير السياق في قوله بعد: «وقال الذين في النار» والمعنى وحاق بآل فرعون سوء العذاب إذ يتحاجون في النار أو واذكر من سوء عذابهم إذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء منهم للذين استكبروا إنا كنا في الدنيا لكم تبعاً وكان لازم ذلك أن تكفونا في الحوائج وتنصرونا في الشدائد ولا شدة أشد مما نحن فيه فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار وإن لم يكن جميع عذابها فقد قنعنا بالبعض.

وهذا ظهور مما رسخ في نفوسهم في الدنيا من الإلتجاء بكبريائهم ومتبوعيهم من دون الله

يظهر منهم ذلك يوم القيامة وهم يعلمون أنهم في يوم لا تغني فيه نفس عن نفس شيئاً والأمر يومئذ لله وله نظائر محكية عنهم في كلامه تعالى من كذبهم يومئذ وخلفهم وإنكارهم أعمالهم وتكذيب بعضهم لبعض وغير ذلك.

وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ جواب من مستكبريهم عن قولهم ومحصله أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل فالأسباب ساقطة عن التأثير وقد طاحت منا ما كنا نتوهمه لأنفسنا في الدنيا من القوة والقدرة فحالنا وحالكم ـ ونحن جميعاً في النار ـ واحدة.

فقولهم: «إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد» مفاده أن ظهور الحكم الإلهي قد أبطل أحكام سائر الأسباب وتأثيراتها وأثبتنا على ما نحن فيه من الحال في حد سواء فلسنا نختص دونكم بقوة حتى نغني عنكم شيئاً من العذاب.

ومما قيل في الآية أن الضمير في قوله: «يتحاجون» لمطلق الكفار من أهل النار وهو بعيد كما عرفت، وقيل: الضمير لقريش وهو أبعد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ﴾ مكالمة بين أهل النار ـ ومنهم آل فرعون ـ وبين خزنة جهنم أوردها سبحانه تلو قصة آل فرعون. وهم إنما سألوا الخزنة أن يدعوا لهم ليأسهم من أن يستجاب منهم أنفسهم.

والمراد باليوم من العذاب ما يناسب من معنى اليوم لعالمهم الذي هم فيه. ويؤل معناه الى قطعة من العذاب.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أجابوهم بالاستخبار عن إتيان رسلهم إياهم بالبينات فاعترفوا بذلك وهو اعتراف منهم بأنهم كفروا بهم مع العلم بكونهم على الحق

وهو الكفر بالنبوة فلم يجبهم الخزنة فيا سألوهم من الدعاء إثباتا ولا نفيا بل ردوهم الى أنفسهم مشيرين الى أنهم لا يستجاب لهم دعاء.

وقوله: ﴿وَما دُعَؤُا الْكَافِرِينَ إِلاّ فِي ضَلاَلٍ﴾ أي إن دعاءهم قد أحاط به الضلال فلا يهتدي الى هدف الإجابة وهو تتمة كلام الخزنة على ما يعطيه السياق، ويحتمل أن يكون من كلامه تعالى، على بعد.

والجملة على أي حال تفيد معنى التعليل والمحصل: ادعوا فلا يستجاب لكم فإنكم كافرون. والكافرون لا يستجاب لهم دعاء.

وتعليق حكم عدم الإستجابة بوصف الكفر مشعر بعليته وذلك أن الله سبحانه وإن وعد عباده وعداً قطعياً أن يجيب دعوة من دعاه منهم فقال: ﴿أُجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ (البقرة / ١٨٦). والدعاء إذا كان واقعا على حقيقته لا يرد البتة لكن الذي يتضمنه متن هذا الوعد هو أن يكون هناك دعاء وطلب حقيقة وأن يتعلق ذلك بالله حقيقة أي يدعو الداعي ويطلب جدا وينقطع في ذلك الى الله عن سائر الأسباب التي يسميها أسبابا.

والكافر بعذاب الآخرة وهو الذي ينكرها ويستر حقيقتها لا يتمشى منه طلب جدي لرفعه أما في الدنيا فظاهر. وأما في الآخرة فلأنه وإن أيقن به بالمعاينة وانقطع الى الله سبحانه لما هو فيه من الشدة وقد انقطعت عنه الأسباب لكن صفة الإنكار لزمته وبالاً وقد جوزي بها فلا تدعه يطلب ما كان ينكره طلبا جديا.

على أن الكلام في انقطاعه الى الله أيضاً كالكلام في طلبه الجدي للتخلص وأنى له الإنقطاع الى الله هناك ولم يتلبس به في الدنيا فافهمه.

وبذلك يظهر ضعف الاستدلال بالآية على أن دعاء الكافر لا يستجاب مطلقا فإنك عرفت أن مدلول الآية عدم استجابة دعائه فيما يكفر به وينكره لا مطلقا كيف؟ وهناك آيات كثيرة تذكر استجابة دعائه في موارد الاضطرار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ الأشهاد جمع شهيد بمعنى شاهد، والآية وعد نوعي لا وعد شخصي لكل واحد شخصي منهم في كل واقعة شخصية، وقد تقدم كلام في معنى النصر الإلهي في تفسير قوله تعالى: ﴿إنهم لهم المنصورون﴾ (الصافات / ١٧٢).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ تفسير ليوم يقوم الأشهاد، وظاهر إضافة المصدر الى فاعله في قوله: «معذرتهم» ولم يقل: أن يعتذروا، تحقق معذرة ما منهم يومئذ، وأما قوله: ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ (المرسلات / ٣٦) فمحمول على بعض مراحل يوم القيامة وعقباته لدلالة آيات اخرى على وقوع تكلم ما منهم يومئذ.

وقوله: ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي البعد من رحمة الله، وقوله: «لهم سوء الدار» أي الدار السيئة وهي جهنم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ـ الى قوله ـ الْأَلْبَابِ﴾ خاتمة لما تقدم من إرسال موسى بالآيات والسلطان المبين ومجادلة آل فرعون في الآيات بالباطل ومحاجة مؤمن آل فرعون، يشير بها وقد صدرت بلام القسم الى حقية ما ارسل به وظلمهم فيما قابلوه به.

والمراد بالهدى الدين الذي اوتيه موسى، و«بإيراث بني إسرائيل الكتاب» إبقاء التوراة بينهم يعملون بها ويهتدون.

وقوله: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي حال كون الكتاب هدى يهتدي به عامتهم وذكرى يتذكر به خاصتهم من اولي الألباب.

٥٥ ۞ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ.

٥٦ ۞ إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللّٰهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتيهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاّٰ كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

٥٧ ۞ لَخَلْقُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّٰاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ.

٥٨ ۞ وَمٰا يَسْتَوِي الْأَعْمىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰالِحاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ.

٥٩ ۞ إِنَّ السّٰاعَةَ لَآتِيَةٌ لاٰ رَيْبَ فِيها وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يُؤْمِنُونَ.

٦٠ ۞ وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ﴾ الى آخر الآية: تفريع على ما تقدم من الأمر بالاعتبار في قوله: «أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم» وما أورد بعده من قصة موسى ومآل أمر المستكبرين المجادلين بالباطل ونصره تعالى للحق وأهله.

والمعنى: إذا كان الأمر على ذلك فاصبر على إيذاء المشركين ومجادلتهم بالباطل إن وعد الله حق وسيفي لك بما وعد، والمراد بالوعد ما في قوله قبيل هذا: «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا» الآية: من وعد النصر.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أمر له بالاستغفار لما يعد بالنسبة اليه ذنبا وإن لم يكن ذنبا بمعنى المخالفة للأمر المولوي لمكان عصمته ﷺ، وقد تقدم كلام في معنى الذنب والمغفرة في أواخر الجزء السادس من الكتاب.

وللذنب المنسوب اليه ﷺ معنى آخر سنشير اليه في تفسير أول سورة الفتح إن شاء الله تعالى، وقيل: المراد بذنبه ﷺ ذنب امته أُعطي الشفاعة فيه.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي نزهه سبحانه مصاحبا لحمده على جميل آلائه مستمرا متواليا بتوالي الأيام أو في كل صباح ومساء، وكونه بالعشي والإبكار على المعنى الأول من قبيل الكناية.

وقيل: المراد به صلاتا الصبح والعصر، والآية مدنية.

وفيه أن المسلم من الروايات ومنها أخبار المعراج أن الصلوات الخمس فرضت جميعا بمكة قبل الهجرة فلو كان المراد به الفريضتين كان ذلك بمكة قبل فرض بقية الصلوات الخمس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ الخ: تأكيد لما تقدم في الآية السابقة من أمره ﷺ بالصبر وتطييب نفسه بتأييد وعد النصر، ومحصله أن هؤلاء المجادلين لا ينالون بغيتهم ولن ينالوا فلا يحزنك جدالهم وطب نفساً من ناحيتهم.

فقوله: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ حصر للسبب الموجب لمجادلتهم في الكبر أي ليس عاملهم في ذلك طلب الحق أو الارتياب في آياتنا والشك فيها حتى يريدوا بها ظهور الحق ولا حجة ولا سلطان عندهم حتى يريدوا إظهارها بل الذي في صدورهم وهو الداعي لهم الى الجدال، الكبر، يريدون به إدحاض الحق الصريح.

وقوله: ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ الضمير لكبر باعتبار مسببه فإن الكبر سبب للجدال

والجدال يراد به إبطال الحق ومحق الدعوة الحقة. والمعنى ما هم ببالغي مرادهم وبغيتهم من الجدال الذي يأتون به لكبرهم.

وقوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي فاستعذ بالله منهم بما لهم من الكبر كما استعاذ موسى من كل متكبر مجادل كما قال: ﴿وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾.

وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي السميع لدعاء عباده البصير بحوائجهم والذي يبصر ما هم فيه من شدة أو رخاء.

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ﴾ اللام للقسم، والمراد بالسماوات والأرض مجموع العالم، ومعنى الآية حسب ما يعطيه المقام أنهم ليسوا ببالغي بغيتهم وليسوا بمعجزين فإن الله الذي قدر على خلق مجموع العالم ولم يعجزه ذلك على ما فيه من العظمة ليس يعجزه جزء يسير منه وهو الناس المخلوقون الذين هم أهون عليه ولكن أكثر الناس جاهلون يظنون بجهلهم أنهم يعجزون الله بجدال يجادلونه أو أي كيد يكيدونه.

قوله تعالى: ﴿وَمٰا يَسْتَوِي الْأَعْمىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ الخ: لما ذكر أن أكثر الناس لا يعلمون أكده بأنهم ليسوا على وتيرة واحدة فإن منهم الأعمى والبصير ولا يستويان وعطف عليهما الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء فالطائفة الاولى اولو بصيرة يتذكرون بها والثانية أعمى الله قلوبهم فلا يتذكرون.

وقوله: ﴿قَلِيلاً مٰا تَتَذَكَّرُونَ﴾ خطاب للناس بداعي التوبيخ وهو الوجه في الالتفات من الغيبة الى الحضور.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ السّٰاعَةَ لَآتِيَةٌ لاٰ رَيْبَ فِيهٰا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يُؤْمِنُونَ﴾ ذكّرهم تعالى في هذه الآية بإتيان الساعة وفي الآية التالية بدعوة ربهم إياهم الى دعائه

وعبادته كما نبه الذي آمن من آل فرعون في القصة السابقة بإتيان الساعة وبأن لله الدعوة وليس لآلهتهم دعوة في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ دعوة منه تعالى لعباده الى دعائه ووعد بالاستجابة، وقد اطلق الدعوة والدعاء والإستجابة إطلاقاً، وقد أشبعنا الكلام في معنى الدعاء والإجابة في ذيل قوله تعالى: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ (البقرة / ١٨٦) في الجزء الأول من الكتاب.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ الدخول الذلة، وقد بدل الدعاء عبادة فدل على أن الدعاء عبادة.

٦١ ● اَللّٰهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاٰ يَشْكُرُونَ.

٦٢ ● ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ.

٦٣ ● كَذٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللّٰهِ يَجْحَدُونَ.

٦٤ ● اللّٰهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذٰلِكُمُ اللّٰهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللّٰهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

٦٥ ● هُوَ الْحَيُّ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

٦٦ ● قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لَمَّا

جاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

٦٧ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ
مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمّىً وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

٦٨ ۞ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ الآية؛ أي جعل لأجلكم الليل مظلما لتسكنوا فيه من التعب الذي عرض لكم وجه النهار من جهة السعي في طلب الرزق، والنهار مبصراً لتبتغوا من فضل ربكم وتكسبوا الرزق، وهذا من أركان تدبير الحياة الإنسانية.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ امتنان عليهم بالفضل وتقريع لهم بعدم شكرهم له قبال هذا الفضل العظيم ولو شكروه لعبدوه ووضع «الناس» الثاني موضع الضمير للإشارة الى أن من طبع الناس بما هم ناس كفران النعم كما قال: ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ (إبراهيم / ٣٤).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي ذلكم الذي يدبر أمر حياتكم ورزقكم بسكون الليل وسعي النهار هو الله تعالى وهو ربكم لأن تدبير أمركم اليه.

وقوله: ﴿خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي ورب كل شيء لأنه خالق كل شيء والخلق لا ينفك

عن التدبير ولازم ذلك أن لا يكون في الوجود رب غيره لا لكم ولا لغيركم ولذلك عقبه بقوله: «لا إله إلا هو» أي فإذن لا معبود بالحق غيره إذ لو كان هناك معبود آخر كان رب آخر فإن الالوهية من شئون الربوبية.

وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته الى عبادة غيره.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي كمثل هذا الإفك يؤفك الجاحدون لآيات الله فإن الآيات ظاهرة غير خفية فالإنصراف عن مدلولها لا سبب له إلا الجحد.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ الى آخر الآية؛ القرار المستقر الذي يستقر عليه، والبناء ـ على ما قيل ـ القبة ومنه أبنية العرب للقباب المضروبة عليهم. يذكر تعالى نعمة استقرار الإنسان على الأرض وتحت السماء.

وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ الفاء للتفسير والمعنى أحسن خلق صوركم وذلك أن الإنسان جهز من دقائق التجهيز في صورته بما يقوى به من الأعمال المتنوعة العجيبة على ما لا يقوى عليه شيء من سائر الموجودات الحية، ويلتذ من مزايا الحياة بما لا يتيسر لغيره أبداً.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ هي الأرزاق المتنوعة التي تلائم بطبائعها طبيعة الإنسان من الحبوب والفواكه واللحوم وغيرها، وليس في الحيوان متنوع في الرزق كالإنسان.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي المدبر لأمركم، وقوله: «فتبارك الله رب العالمين» ثناء عليه عز وجل بربوبيته لجميع العالمين، وقد فرعه على ربوبيته وتدبيره للإنسان إشارة الى أن الربوبية واحدة وتدبيره لأمر الإنسان عين تدبيره لأمر العالمين جميعا فإن النظام الجاري نظام واحد روعي في انطباقه على كل، انطباقه على الكل فهو سبحانه متبارك منشأ

للخير الكثير فتبارك الله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لاٰ إِلَهَ إِلاّٰ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الخ: في جملة «هو الحي» إطلاق لا مقيد له لا عقلا ولا نقلا مضافا الى إفادة الحصر فمفادها أن له تعالى وحده حياة لا يداخلها موت ولا يزيلها فناء فهو تعالى حي بذاته وغيره كائنا ما كان حي بإحياء غيره.

وإذا فرض هناك حي بذاته وحي بغيره لم يستحق العبادة بذاته إلا من كان حيا بذاته، ولذلك عقب قوله: «هو الحي» بقوله: «لا إله إلا هو».

وقد سيقت الجملتان توطئة للأمر بدعائه ولا مطلق دعائه بل دعائه بالتوحيد وإخلاص الدين له وحده لأنه الحي بذاته دون غيره ولأنه المعبود بالاستحقاق الذاتي دون غيره. ولذلك فرع على قوله: «هو الحي لا إله إلا هو» قوله: «فادعوه مخلصين له الدين».

وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثناء عليه بربوبيته للعالمين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ معنى الآية ظاهر، وفيه إيآس للمشركين من موافقته لهم في عبادة آلهتهم» وقد تكرر هذا المعنى في سورة الزمر ويمكن أن يستأنس منه أن هذه السورة نزلت بعد سورة الزمر.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ الخ: المراد بخلقهم من تراب خلق أبيهم آدم من تراب فإن خلق غيره ينتهي اليه فخلقه من تراب هو خلقهم منه أو المراد بخلقهم من تراب تكوين النطفة من البسائط الأرضية.

وقوله: ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ الخ: أي ثم خلقناكم من نطفة حقيرة معلومة الحال «ثم من علقة» كذلك «ثم يخرجكم» من بطون امهاتكم «طفلا» أي أطفالا، والطفل - كما قيل - يطلق على الواحد والجمع قال تعالى: ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾

(النور / ٣١).

﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ اللام للغاية وكأن متعلقها محذوف والتقدير ثم ينشئكم لتبلغوا أشدكم وهو من العمر زمان اشتداد القوى «ثم لتكونوا شيوخا» معطوف على «لتبلغوا» «ومنكم من يتوفى من قبل» فلا يبلغ أحد هذه المراحل من العمل كالشيخوخة وبلوغ الأشد وغيرهما.

﴿ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمّىً ﴾ وهو النهاية من الأمد المضروب الذي لا سبيل للتغير اليه أصلا. وهو غاية عامة لجميع الناس كيفما عمروا قال تعالى: ﴿وأجل مسمى عنده﴾ (الأنعام / ٢). ولذلك لم تعطف الجملة بثم حتى تتميز من الغايتين المذكورتين سابقا.

وقوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تدركون الحق بالتعقل المغروز فيكم، وهذا غاية خلقة الإنسان بحسب حياته المعنوية كما أن بلوغ الأجل المسمى غاية حياته الدنيا الصورية.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ الخ: أي هو الذي يفعل الاحياء والإماتة وفيهما نقل الأحياء من عالم الى عالم وكل منهما مبدء لتصرفاته بالنعم التي يتفضل بها على من يدبر أمره.

وقوله: ﴿ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ تقدم تفسيره كراراً.

٦٩ ● أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ.

٧٠ ● الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.

٧١ ● إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ.

٧٢ ● فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ.

٧٣ ● ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ.

٧٤ ● مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ.

٧٥ ● ذٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ.

٧٦ ● أُدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ.

٧٧ ● فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ.

٧٨ ● وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ «ألم تر» مفيد للتعجيب و«أنى» بمعنى كيف، والمعنى ألا تعجب أو ألم تعجب من أمر هؤلاء المجادلين في آيات الله كيف يصرفون عن الحق الى الباطل وعن الهدى الى الضلال.

والتعرض لحال المجادلين ههنا من حيث الإشارة الى كونهم مصروفين عن الحق والهدى ومآل ذلك، وفيما تقدم من قوله: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ من حيث إن الداعي لهم الى ذلك الكبر وأنهم لا يبلغون ما

يريدون فلا تكرار.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الذي يعطيه سياق الآيات التالية أن المراد بهؤلاء المجادلين هم المجادلون من قوم النبي ﷺ، وعليه فالأنسب أن يكون المراد بالكتاب هو القرآن الكريم، وبقوله: «بما أرسلنا به رسلنا» ما جاءت به الرسل عليهم السلام من عند الله من كتاب ودين فالوثنية منكرون للنبوة.

وقوله: «فسوف يعلمون» تفريع على مجادلتهم وتكذيبهم وتهديد لهم أي سوف يعلمون حقيقة مجادلتهم في آيات الله وتكذيبهم بالكتاب وبالرسل.

قوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ في المجمع: الأغلال جمع غل وهو طوق يدخل في العنق للذل والألم وأصله الدخول. وقال: السلاسل جمع سلسلة وهي الحلق منتظمة في جهة الطول مستمرة وقال: السحب جر الشيء على الأرض. هذا أصله. وقال: السجر أصله إلقاء الحطب في معظم النار كالتنور الذي يسجر بالوقود. انتهى.

وقوله: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ ظرف لقوله: «فسوف يعلمون» قيل: الإتيان بإذ ـ وهو للماضي» للدلالة على تحقق الوقوع وإن كان موقعه المستقبل فلا تنافي، في الجمع بين سوف وإذ.

و«الأغلال في أعناقهم» مبتدء وخبر. و«السلاسل» معطوف على الأغلال، و«يسحبون في الحميم» خبر بعد خبر، و«في النار سيجرون» معطوف على «يسحبون».

والمعنى: سوف يعلمون حقيقة عملهم حين تكون الأغلال والسلاسل في أعناقهم يجرون في الماء الحار الشديد الحرارة ثم يقذفون في النار.

وقيل: معنى قوله: «ثم في النار يسجرون» ثم يصيرون وقود النار، ويؤيده قوله تعالى في

صفة جهنم: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ (البقرة / ٢٤)، وقوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ (الأنبياء / ٩٨).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ الى آخر الآية؛ أي قيل لهم وهم يتقلبون بين السحب والسجر: أين ما كنتم تشركون من شركائكم من دون الله حتى ينصروكم بالإنجاء من هذا العذاب أو يشفعوا لكم كما كنتم تزعمون أنهم سيشفعون لكم قبال عبادتكم لهم؟

وقوله: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي غابوا عنا من قولهم: ضلت الدابة إذا غابت فلم يعرف مكانها، وهذا جوابهم عما قيل لهم: أين ما كنتم تشركون من دون الله.

وقوله: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾ إضراب منهم عن الجواب الأول لما يظهر لهم أن الآلهة كانوا يزعمونهم شركاء لم يكونوا الى أسماء لا مسميات لها ومفاهيم لا يطابقها شيء ولم يكن عبادتهم لها إلا سدى. ولذلك نفوا أن يكونوا يعبدون شيئاً قال تعالى: ﴿فزيلنا بينهم﴾ (يونس / ٢٨) وقال: ﴿لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ (الأنعام / ٩٤).

وقيل: هذا من كذبهم يوم القيامة على حد قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ (الأنعام / ٢٣).

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي إضلاله تعالى للكافرين وهم الساترون للحق يشبه هذا الضلال وهو أنهم يرون الباطل حقا فيقصدونه ثم يتبين لهم بعد ضلال سعيهم أنه لم يكن إلا باطلا في صورة حق وسراباً في سيماء الحقيقة.

والمعنى: على الوجه الثاني أعني كون قولهم: «بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً» كذبا منهم: كمثل هذا الإضلال يضل الله الكافرين فيؤل أمرهم الى الكذب حيث لا ينفع مع علمهم بأنه لا ينفع.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ الفرح مطلق السرور، والمرح الإفراط فيه وهو مذموم. وقال الراغب: الفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية، وقال: المرح شدة الفرح والتوسع فيه. انتهى.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ﴾ الاشارة الى ما هم فيه من العذاب والباء في «بما كنتم» للسببية أو المقابلة.

والمعنى: ذلكم العذاب الذي أنتم فيه بسبب كونكم تفرحون في الأرض بغير الحق من اللذات العاجلة وبسبب كونكم تفرطون في الفرح وذلك لتعلق قلوبهم بعرض الدنيا وزينتها ومعاداتهم لكل حق يخالف باطلهم فيفرحون ويمرحون بإحياء باطلهم وإماتة الحق واضطهاده.

قال في المجمع: قيد الفرح وأطلق المرح لأن الفرح قد يكون بحق فيحمد عليه وقد يكون بالباطل فيذم عليه، والمرح لا يكون إلا باطلا. انتهى.

قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي ادخلوا أبوابها المقسومة لكم خالدين فيها فبئس مقام الذين يتكبرون عن الحق جهنم، وقد تقدم أن أبواب جهنم دركاتها.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ لما بين مآل أمر المجادلين في آيات الله وهي النار وأن الله يضلهم بكفرهم فرع عليه أمر نبيه ﷺ بالصبر معللا ذلك بأن وعد الله حق.

وقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ هو عذاب الدنيا «أو نتوفينك» بالموت فلم نرك ذلك «فإلينا يرجعون» ولا يفوتوننا فننجز فيهم ما وعدناه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ الخ: بيان لكيفية النصر المذكور في الآية السابقة أن آية النصر

ـ التي جرت سنة الله على إنزالها للقضاء بين كل رسول وامته وإظهار الحق على الباطل كما يشير اليه قوله: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ (يونس / ٤٧) ـ لم يفوض أمرها الى رسول من الرسل من قبلك بل كان يأتي بها من يأتي منهم بإذن الله، وحالك حالهم، فمن الممكن أن نأذن لك في الإتيان بها فنريك بعض ما نعدهم، ومن الممكن أن نتوفاك فلا نريك غير أن أمر الله إذا جاء قضي بينهم بالحق وخسر هنالك المبطلون. هذا ما يفيده السياق.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ مسوق للإشارة الى كون ما سيذكره سنة جارية منه تعالى.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية؛ وإن كانت أعم من الآية المعجزة التي يؤتاها الرسول لتأييد رسالته، والآية التي تنصر الحق وتقضي بين الرسول وبين امته والكل بإذن الله لكن مورد الكلام كما استفدناه من السياق القسم الثاني وهي القاضية بين الرسول وامته.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي فإذا جاء أمر الله بالعذاب قضي بالحق فأظهر الحق وأزهق الباطل وخسر عند ذلك المتمسكون بالباطل في دنياهم بالهلاك وفي آخرتهم بالعذاب الدائم.

واستدل بالآية على أن من الرسل من لم تذكر قصته في القرآن، وفيه أن الآية مكية لا تدل على أزيد من عدم ذكر قصة بعض الرسل الى حين نزولها بمكة، وقد ورد في سورة النساء: ﴿ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك﴾ (النساء / ١٦٤) ولم يذكر في السور النازلة بعد سورة النساء اسم أحد من الرسل المذكورين بأسمائهم في القرآن.

وفي المجمع وروي عن علي عليه السلام أنه قال: بعث الله نبيا أسود لم يقص علينا قصته، وروى في الدر المنثور عن الطبراني في الأوسط وابن مردويه عنه ما في معناه.

٧٩ ❁ اَللّٰهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ.

٨٠ ❁ وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْها
وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ.

٨١ ❁ وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللّٰهِ تُنْكِرُونَ.

٨٢ ❁ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَما
أَغْنىٰ عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ.

٨٣ ❁ فَلَمّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّناتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ
وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ.

٨٤ ❁ فَلَما رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِمَا كُنّا بِهِ
مُشْرِكِينَ.

٨٥ ❁ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّةَ اللّٰهِ الَّتِي قَدْ
خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿اَللّٰهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ﴾ ذكر سبحانه مما ينتفع به الإنسان في حياته ويدبر به أمره الأنعام والمراد بها الإبل والبقر والغنم، وقيل: المراد بها ههنا الإبل خاصة.

فقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ﴾ الجعل هنا الخلق أو

التسخير، واللام في «لتركبوا» للغرض و«من» للتبعيض، والمعنى خلق لأجلكم أو سخّر لكم الأنعام والغرض من هذا الجعل أن تركبوا بعضها كبعض الإبل وبعضها كبعض الإبل والبقر والغنم تأكلون.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ الخ: كانتفاعكم بألبانها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها وغير ذلك، وقوله: «ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم» أي ومن الغرض من جعلها أن تبلغوا، حال كونكم عليها بالركوب، حاجة في صدوركم وهي الانتقال من مكان الى مكان لأغراض مختلفة.

وقوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ كناية عن قطع البر والبحر بالأنعام والفلك.

قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ تقدم معنى إراءته تعالى آياته في تفسير أوائل السورة، وكأن الجملة أعني قوله: «ويريكم آياته» غير مقصودة لنفسها حتى يلزم التكرار وإنما هي تمهيد وتوطئة للتوبيخ الذي في قوله: «فأي آيات الله تنكرون» أي أيّ هذه الآيات التي يريكم الله إياها عياناً وبياناً، تنكرون إنكاراً يمهد لكم الإعراض عن توحيده.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ الى آخر الآية توبيخ لهم وعطف لأنظارهم الى ما جرى من سنّة القضاء والحكم في الامم السالفة، وقد تقدمت نظيره الآية في أوائل السورة وكان الغرض هناك أن يتبين لهم أن الله أخذ كلا منهم بذنوبهم لما كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فيكفرون بهم ولذا ذيل الآية بقوله: «فأخذهم الله بذنوبهم»، والغرض ههنا أن يتبين لهم أنهم لم يغنهم ما كسبوا ولم ينفعهم في دفع عذاب الله ما فرحوا به من العلم الذي عندهم ولا توبتهم وندامتهم مما عملوا.

وقد صدّرت الآية بفاء التفريع فقيل «أفلم يسيروا» الخ؛ مع الالتفات من الخطاب الى

الغيبة، وكأن الكلام تفريع على قوله: «فأي آيات الله تنكرون» فكأنه لما ذمهم وأنكر إنكارهم لآياته رجع وانصرف عنهم الى النبي ﷺ مشيراً الى سقوطه من منزلة الخطاب وقال: إذا كانت آياته تعالى ظاهرة بينة لا تقبل الانكار ومن جملتها ما في آثار الماضين من الآيات الناطقة وهم قد ساروا في الأرض وشاهدوها فلمَ لم ينظروا فيها فيتبين لهم أن الماضين مع كونهم أقوى من هؤلاء كماً وكيفاً لم ينفعهم ما فرحوا به من علم وقوة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الخ: ضمائر الجمع في الآية ـ وهي سبع ـ للذين من قبلهم، والمراد بما عندهم من العلم ما وقع في قلوبهم وشغل نفوسهم من زينة الحياة الدنيا وفنون التدبير للظفر بها وبلوغ لذائذها وقد عد الله سبحانه ذلك علماً لهم وقصر علمهم فيه، قال تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ (الروم / ٧)، وقال: ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم﴾ (النجم / ٣٠).

والمراد بفرحهم بما عندهم من العلم شدة إعجابهم بما كسبوه من الخبرة والعلم الظاهري وانجذابهم اليه الموجب لإعراضهم عن المعارف الحقيقية التي جاءت بها رسلهم، واستهانتهم بها وسخريتهم لها، ولذا عقب فرحهم بما عندهم من العلم بقوله: «وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن».

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ البأس شدة العذاب، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ الخ: وذلك لعدم استناد الإيمان حينئذ الى الاختيار، وقوله: «سنّة الله التي قد خلت في عباده» أي سنها الله سنّة ماضية في عباده أن لا تقبل توبة بعد رؤية البأس «وخسر هنالك الكافرون».

سورة حم السجدة مكية وهي اربع وخمسون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● حٰمٓ.

٢ ● تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.

٣ ● كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

٤ ● بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ.

٥ ● وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ
بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ.

٦ ● قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ
فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ.

٧ ● الَّذِينَ لاٰ يُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ.

٨ ● إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ.

٩ ● قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ

وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذٰلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ.

١٠ ❁ وَجَعَلَ فِيهٰا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهٰا وَبٰارَكَ فِيهٰا وَقَدَّرَ فِيهٰا أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيّامٍ سَواءً لِلسّائِلِينَ.

١١ ❁ ثُمَّ اسْتَوىٰ إِلَى السَّمٰاءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقٰالَ لَهٰا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قٰالَتٰا أَتَيْنا طائِعِينَ.

١٢ ❁ فَقَضٰيهُنَّ سَبْعَ سَمٰواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحىٰ فِي كُلِّ سَمٰاءٍ أَمْرَهٰا وَزَيَّنَّا السَّمٰاءَ الدُّنْيا بِمَصٰابِيحَ وَحِفْظاً ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿حمٓ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ خبر مبتدء محذوف. والمصدر بمعنى المفعول. والتقدير هذا منزل من الرحمان الرحيم. والتعرض للصفتين الكريمتين: الرحمان الدال على الرحمة العامة للمؤمن والكافر. والرحيم الدال على الرحمة الخاصة بالمؤمنين للإشارة الى أن هذا التنزيل يصلح للناس دنياهم كما يصلح لهم آخرتهم.

قوله تعالى: ﴿كِتٰابٌ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ خبر بعد خبر. والتفصيل يقابل الإحكام والإجمال. والمراد بتفصيل آيات القرآن تمييز أبعاضه بعضها من بعض بإنزاله الى مرتبة البيان بحيث يتمكن السامع العارف بأساليب البيان من فهم معانيه وتعقل مقاصده والى هذا يشير قوله تعالى: ﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ (هود / ١). وقوله: ﴿والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أُم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ (الزخرف / ٤).

وقوله: «قرآناً عربياً» حال من الكتاب أو من آياته، وقوله: «لقوم يعلمون» اللام للتعليل أو للاختصاص، ومفعول «يعلمون» إما محذوف والتقدير لقوم يعلمون معانيه لكونهم عارفين باللسان الذي نزّل به وهم العرب وإما متروك والمعنى لقوم لهم علم.

ولازم المعنى الأول أن يكون هناك عناية خاصة بالعرب في نزول القرآن عربياً وهو الذي يشعر به أيضاً قوله الآتي: «ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا فصلت آياته ءأعجمي وعربي» الآية؛ وقريب منه قوله: ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ماكانوا به يؤمنون﴾ (الشعراء / ١٩٩).

ولا ينافي ذلك عموم دعوته ﷺ لعامة البشر لأن دعوته ﷺ كانت مرتبة على مراحل فأول ما دعى الناس بالموسم فقوبل بإنكار شديد منهم ثم كان يدعو بعد ذلك سراً مدة ثم أمر بدعوة عشيرته الأقربين كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (الشعراء / ٢١٤) ثم أُمر بدعوة قومه كما يشير اليه قوله: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ (الحجر / ٩٤) ثم أُمر بدعوة الناس عامة كما يشير اليه قوله: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ (الأعراف / ١٥٨)، وقوله: ﴿وأُوحي إليّ هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ﴾ (الأنعام / ١٩).

على أن من المسلّم تاريخاً أنه كان من المؤمنين به سلمان وكان فارسياً، وبلال وكان حبشياً، وصهيب وكان رومياً، ودعوته لليهود ووقائعه ﷺ معهم، وكذا كتابه الى ملك إيران ومصر وحبشة والروم في دعوتهم الى الإسلام كل ذلك دليل على عموم الدعوة.

قوله تعالى: ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ «بشيراً ونذيراً» حالان من الكتاب في الآية السابقة. والمراد بالسمع المنفي سمع القبول كما يدل عليه قرينة الإعراض.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ الى آخر الآية؛ قال

الراغب: الكِن ما يحفظ فيه الشيء. قال: الكنان الغطاء الذي يكن فيه الشيء والجمع أكنة نحو غطاء وأغطية قال تعالى: «وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه». انتهى.

فقوله: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ كناية عن كون قلوبهم بحيث لا تفقه ما يدعو ﷺ اليه من التوحيد كأنها مغطاة بأغطية لا يتطرق اليها شيء من خارج.

وقوله: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي ثقل من الصمم فلا تسمع شيئاً من هذه الدعوة، وقوله: «ومن بيننا وبينك حجاب» أي حاجز يحجزنا منك فلا نجتمع معك على شيء مما تريد فقد أيأسوه ﷺ من قبول دعوته بما أخبروه أولاً بكون قلوبهم في أكنة فلا تقع فيها دعوته حتى يفقهوها، وثانياً بكون طرق ورودها الى القلوب وهي الآذان مسدودة فلا تلجها دعوة ولا ينفذ منها إنذار وتبشير، وثالثاً بأن بينهم وبينه ﷺ حجاباً مضروباً لا يجمعهم معه جامع وفيه تمام الإيأس.

وقوله: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ تفريع على ما سبق، ولا يخلو من شوب تهديد، وعليه فالمعنى إذا كان لا سبيل الى التفاهم بيننا فاعمل بما يمكنك العمل به في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ في مقام الجواب عن قولهم: «قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه» على ما يعطيه السياق فمحصله قل لهم: إنما أنا بشر مثلكم أعاشركم كما يعاشر بعضكم بعضاً وأُكلمكم كما يكلم أحدكم صاحبه فلست من جنس يباينكم كالملك حتى يكون بيني وبينكم حجاب مضروب أولاً ينفذ كلامي في آذانكم أولاً يرد قولي في قلوبكم غير أن الذي أقول لكم وأدعوكم اليه وحي يوحى إليّ وهو أنما إلهكم الذي يستحق أن تعبدوه إله واحد لا آلهة متفرقون.

وقوله: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي فإذا لم يكن إلا إلهاً واحداً لا شريك له

فاستووا اليه بتوحيده ونفي الشركاء عنه واستغفروه فيما صدر عنكم من الشرك والذنوب.

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لاٰ يُؤْتُونَ الزَّكوٰةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ تهديد للمشركين الذين يثبتون لله شركاء ولا يوحدونه. وقد وصفهم من أخص صفاتهم بصفتين هما عدم إيتائهم الزكاة وكفرهم بالآخرة.

والمراد بإيتاء الزكاة مطلق إنفاق المال للفقراء والمساكين لوجه الله فإن الزكاة بمعنى الصدقة الواجبة في الإسلام لم تكن شرعت بعد عند نزول السورة وهي من أقدم السور المكية.

وقوله: ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وصف آخر للمشركين هو من لوازم مذهبهم وهو إنكار المعاد، ولذلك أتى بضمير الفصل ليفيد أنهم معروفون بالكفر بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع بل متصل دائم كما فسره بعضهم، وفسره آخرون بغير معدود كما قال تعالى: ﴿يرزقون فيها بغير حساب﴾ (المؤمن / ٤٠).

وجوّز أن يكون المراد أنه لا أذى فيه من المن الذي يكدر الصنيعة. ويمكن أن يوجه هذا الوجه بأن في تسمية ما يؤتونه بالأجر دلالة على ذلك لإشعاره بالاستحقاق وإن كان هذا الاستحقاق بجعل من الله تعالى لا لهم من عند أنفسهم قال تعالى: ﴿إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً﴾ (الدهر / ٢٢).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً﴾ الآية، أمره ثانياً أن يستفهم عن كفرهم بالله بمعنى شركهم مع ظهور آيات وحدانية في خلق السماوات والأرض وتدبير أمرهما بعد ما أمره أولاً بدفع قولهم: «قلوبنا في أكنة» الخ.

والاستفهام للتعجيب ولذا أُكد المستفهم عنه بإن واللام كأن المستفهم لا يكاد يذعن

بكفرهم بالله وقولهم بالأنداد مع ظهور المَحَجّة واستقامة الحجة.

وقوله: ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ﴾ تفسير لقوله: «لتكفرون بالذي خلق الأرض» الخ؛ والأنداد جمع ند وهو المثل، والمراد بجعل الأنداد له اتخاذ شركاء له يماثلونه في الربوبية والالوهية.

وقوله: ﴿ ذٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ في الإشارة بلفظ البعيد رفع لساحته تعالى وتنزيهه عن أمثال هذه الأوهام فهو رب العالمين المدبر لأمر الخلق أجمعين فلا مسوّغ لأن يتوهم ربّاً آخر سواه وإلهاً آخر غيره.

والمراد باليوم في قوله: «خلق الأرض في يومين» برهة من الزمان دون مصداق اليوم الذي نعهده ونحن على بسيط أرضنا هذه وهو مقدار حركة الكرة الأرضية حول نفسها مرة واحدة فإنه ظاهر الفساد، وإطلاق اليوم على قطعة من الزمان تحوي حادثة من الحوادث كثير الورود شائع الاستعمال، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ (آل عمران / ١٤٠)، وقوله: ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ (يونس / ١٠٢)، وغير ذلك.

فاليومان اللذان خلق الله فيهما الأرض قطعتان من الزمان تم فيهما تكوّن الأرض أرضاً تامة، وفي عدهما يومين لا يوماً واحداً دليل على أن الأرض لاقت زمان تكونها الأوّلي مرحلتين متغايرتين كمرحلة النيء والنضج أو الذوبان والانعقاد أو نحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ الى آخر الآية. معطوف على قوله: «خلق الأرض في يومين» ولا ضير في تخلل الجملتين «وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين» بين المعطوف والمعطوف عليه لأن الاولى تفسير لقوله: «لتكفرون» والثانية تقرير للتعجيب الذي فيده الاستفهام.

والرواسي صفة لموصوف محذوف والتقدير جبالاً رواسي أي ثابتات على الأرض وضمائر

التأنيث الخمس في الآية للأرض.

وقوله: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي جعل فيها الخير الكثير الذي ينتفع به ما على الأرض من نبات وحيوان وإنسان في حياته أنواع الانتفاعات.

وقوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ قيل: الظرف أعني قوله: «في أربعة أيام» بتقدير مضاف وهو متعلق بقدّر، والتقدير قدر الأقوات في تتمة أربعة أيام من حين بدء الخلق ـ فيومان لخلق الأرض ويومان ـ وهما تتمة أربعة أيام ـ لتقدير الأقوات.

والذي ذكر في هذه الآيات من أيام خلق السماوات والأرض أربعة أيام يومان لخلق الأرض ويومان لتسوية السماوات سبعاً بعد كونها دخاناً وأما أيام الأقوات فقد ذكرت أياماً لتقديرها لا لخلقها، وما تكرر في كلامه تعالى هو خلق السماوات والأرض في ستة أيام لا مجموع خلقها وتقدير أمرها فالحق أن الظرف قيد للجملة الأخيرة فقط ولا حذف ولا تقدير في الآية والمراد بيان تقدير أقوات الأرض وأرزاقها في الفصول الأربعة من السنة.

وقوله: ﴿سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ مفعول مطلق لفعل مقدر أي استوت الأقوات المقدرة استواء للسائلين أو حال من الأقوات أي قدرها حال كونها مستوية للسائلين يقتاتون بها جميعاً وتكفيهم من دون زيادة أو نقيصة.

والسائلون هم أنواع النبات والحيوان والإنسان فإنهم محتاجون في بقائهم الى الأرزاق والأقوات فهم سائلون ربهم[1] قال تعالى: ﴿يسأله من في السماوات والأرض﴾ (الرحمن / ٢٩)، وقال: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ (إبراهيم / ٣٤).

---

١. ظاهر الآيتين وإن كان اختصاصهما بذوي العقول لكنهما وخاصة الثانية تفيدان إن المراد بالسؤال هو الحاجة والاستعداد وعليه فالآية تعم النبات والاتيان بضمير اولي العقل للتغليب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوىٰ إِلَى السَّمٰاءِ وَهِيَ دُخٰانٌ فَقٰالَ لَهٰا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيٰا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قٰالَتٰا أَتَيْنٰا طٰائِعِينَ﴾ الاستواء ـ على ما ذكره الراغب ـ إذا عدّي بعلى أفاد معنى الاستيلاء نحو الرحمان على العرش استوى، وإذا عدي بإلى أفاد معنى الانتهاء اليه.

وأيضاً في المفردات أن الكرة بفتح الكاف المشقة التي تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بإكراه، والكره بضم الكاف ما تناله من ذاته وهو يعافه.

فقوله: «ثم استوى الى السماء» أي توجه اليها وقصدها بالخلق دون القصد المكاني الذي لا يتم إلا بانتقال القاصد من مكان الى مكان ومن جهة الى جهة لتنزهه تعالى عن ذلك.

وظاهر العطف بثم تأخر خلق السماوات عن الأرض لكن قيل: إن «ثم» لإفادة التراخي بحسب الخبر لا بحسب الوجود والتحقق ويؤيده قوله تعالى: ﴿أم السماء بناها ـ إلى أن قال ـ والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها﴾ (النازعات / ٣٢) فإنه يفيد تأخر الأرض عن السماء خلقاً.

والاعتراض عليه بأن مفاده تأخر دحو الأرض عن بناء السماء ودحوها غير خلقها مدفوع بأن الأرض كروية فليس دحوها وبسطها غير تسويتها كرة وهو خلقها على أنه تعالى أشار بعد ذكر دحو الأرض الى إخراج مائها ومرعاها وإرساء جبالها وهذه بعينها جعل الرواسي من فوقها والمباركة فيها وتقدير أقواتها التي ذكرها في الآيات التي نحن فيها مع خلق الأرض وعطف عليها خلق السماء بثم فلا مناص عن حمل ثم على غير التراخي الزماني فإن قوله في آية النازعات: ﴿بعد ذلك﴾ أظهر في التراخي الزماني من لفظة «ثم» فيه في آية حمٓ السجدة والله أعلم.

وقوله: ﴿وَهِيَ دُخٰانٌ﴾ حال من السماء أي استوى الى السماء بالخلق حال كونها شيئاً سماه الله دخاناً وهو مادتها التي ألبسها الصورة وقضاها سبع سماوات بعد ما لم تكن معدودة

متميزاً بعضها من بعض، ولذا أفرد السماء فقال: «استوى الى السماء».

وقوله: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ تفريع على استوائه الى السماء والمورد مورد التكوين بلا شك فقوله لها وللأرض: «ائتيا طوعاً أو كرهاً» كلمة إيجاد وأمر تكويني كقوله لشيء أراد وجوده: كن، قال تعالى: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن ﴾ (يس / ٨٣).

ومجموع قوله لها: «ائتيا» الخ؛ وقولهما له: «أتينا» الخ؛ تمثيل لصفة الإيجاد والتكوين على الفهم الساذج العرفي وحقيقة تحليلية بناء على ما يستفاد من كلامه تعالى من سراية العلم في الموجودات وكون تكليم كل شيء بحسب ما يناسب حاله. وقد أوردنا بعض الكلام فيه فيما تقدم من المباحث، وسيجيء شطر من الكلام فيه في تفسير قوله: ﴿ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ (الآية ٢١ من السورة) إن شاء الله.

وفي قوله: ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ إيجاب الإتيان عليهما وتخييرهما بين أن تفعلا ذلك بطوع أو كره، ولعل المراد بالطوع والكره ـ وهما بوجه قبول الفعل ونوع ملاءمة وعدمه ـ هو الاستعداد السابق للكون وعدمه فيكون قوله: «ائتيا طوعاً أو كرهاً» كناية عن وجوب إتيانهما بلا مناص وأنه أمر لا يتخلف البتة أرادتا أو كرهتا سألتاه أو لم تسألا فأجابتا أنهما يمتثلان الأمر عن استعداد سابق وقبول ذاتي وسؤال فطري إذ قالتا: أتينا طائعين.

وقوله: ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ جواب السماء والأرض لخطابه تعالى باختيار الطوع، والتعبير باللفظ الخاص بأولي العقل ـ طائعين ـ لمكان المخاطبة والجواب وهما من خواص أُولي العقل. والتعبير بلفظ الجمع دون أن تقولا: أتينا طائعتين لعله تواضع منهما بعدّ أنفسهما غير متميزة من سائر مخلوقاته تعالى المطيعة لأمره فأجابتا عن لسان الجميع، نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ (الحمد / ٥).

ثم إن تشريك الأرض مع السماء في خطاب «ائتيا» الخ؛ مع ذكر خلقها وتدبير أمرها قبلاً لا

يخلو من إشعار بأن بينهما نوع ارتباط في الوجود واتصال في النظام الجاري فيهما وهو كذلك فإن الفعل والانفعال والتأثير والتأثر دائر بين أجزاء العالم المشهود.

وفي قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ تلويح على اي حال إلى كون «ثم» في قوله: «ثم استوى» للتراخي بحسب رتبة الكلام.

قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ الأصل في معنى القضاء فصل الأمر، وضمير «هن» للسماء على المعنى. و«سبع سماوات» حال من الضمير و«في يومين» متعلق بقضاهن فتفيد الجملة أن السماء لما استوى سبحانه اليها وهي دخان كان أمرها مبهماً غير مشخص من حيث فعلية الوجود ففصل تعالى أمرها بجعلها سبع سماوات في يومين.

والآية وما قبلها ناظرة الى تفصيل ما أُجمل في قوله: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ (الأنبياء / ٣٠).

وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ قيل: المراد بأمر السماء ما تستعد له أو تقتضيه الحكمة فيها من وجود ملك أو كوكب وما أشبه ذلك، والوحي هو الخلق الإيجاد، والجملة معطوفة على قوله: «قضاهن» مقيدة بالوقت المذكور للمعطوف عليه، والمعنى وخلق في كل سماء ما فيها من الملائكة والكواكب وغيرها.

وأنت خبير بأن إرادة الخلق من الوحي وأمثال الملك والكوكب من الأمر تحتاج الى عناية زائدة لا تثبت إلا بدليل بيّن، وكذا تقيد الجملة المعطوفة بالوقت المذكور في المعطوف عليها.

وقيل: المراد بالأمر التكليف الإلهي المتوجه الى أهل كل سماء من الملائكة والوحي بمعناه المعروف والمعنى وأوحى الى أهل كل سماء من الملائكة ما أمرهم به من العبادة.

وفيه أن ظاهر الآية وقد قال تعالى: «في كل سماء» ولم يقل: الى كل سماء لا يوافقه

تلك الموافقة.

وقيل: المراد بأمرها ما أراده الله منها، وهذا الوجه في الحقيقة راجع الى أحد الوجهين السابقين فإن أُريد بالوحي الخلق والإيجاد رجع الى أول الوجهين وإن أُريد به معناه المعروف رجع الى ثانيهما.

والذي وقع في كلامه تعالى من الأمر المتعلق بوجه بالسماء يلوّح الى معنى أدق مما ذكروه فقد قال تعالى: ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه﴾ (الم السجدة / ٥)، وقال: ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزّل الأمر بينهن﴾ (الطلاق / ١٢)، وقال: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾ (المؤمنون / ١٧).

دلت الآية الاولى على أن السماء مبدء لأمره تعالى النازل الى الأرض بوجه والثانية على أن الأمر يتنزل بين السماوات من سماء الى سماء حتى ينتهي الى الأرض، والثالثة على أن السماوات طرائق لسلوك الأمر من عند ذي العرش أو لسلوك الملائكة الحاملين للأمر الى الأرض كما يشير اليه قوله: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ (القدر / ٤)، وقوله: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ (الدخان / ٤).

ولو كان المراد بالأمر أمره تعالى التكويني وهو كلمة الإيجاد كما يستفاد من قوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن﴾ (يس / ٨٢)، أفادت الآيات بانضمام بعضها الى بعض أن الأمر الإلهي الذي مضيه في العالم الأرضي هو خلق الأشياء وحدوث الحوادث تحمله الملائكة من عند ذي العرش تعالى وتسلك في تنزيله طرق السماوات فتنزله من سماء الى سماء حتى تنتهي به الى الأرض.

وإنما تحمله ملائكة كل سماء الى من دونهم كما يستفاد من قوله: ﴿حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ (سبأ / ٢٣) وقد تقدم الكلام فيه والسماوات مساكن الملائكة كما يستفاد من قوله: ﴿وكم من ملك في السماوات﴾ (النجم /

٢٦)، وقوله: ﴿ولا يسّمّعون إلى الملا الأعلى ويقذفون من كل جانب﴾ (الصافات / ٨).

فللأمر نسبة الى كل سماء باعتبار الملائكة الساكنين فيها، ونسبة الى كل قبيل من الملائكة الحاملين له باعتبار تحميله لهم وهو وحيه اليهم فإن الله سبحانه سماه قولاً كما قال: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن﴾ (النحل / ٤٠).

فتحصّل مما مر أن معنى قوله: «وأوحى في كل سماء أمرها» أوحى في كل سماء الى أهلها من الملائكة الأمر الالهي. المنسوب الى تلك السماء المتعلق بها، وأما كون اليومين المذكورين في الآية ظرفاً لهذا الوحي كما هما ظرف لخلق السماوات سبعاً فلا دليل عليه من لفظ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ توصيف هذه السماء بالدنيا للدلالة على أنها أقرب السماوات من الأرض وهي طباق بعضها فوق بعض كما قال: ﴿خلق سبع سماوات طباقاً﴾ (الملك / ٣).

والظاهر من معنى تزيينها بمصابيح وهي الكواكب كما قال: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ (الصافات / ٦) أن الكواكب في السماء الدنيا أو دونها كالقناديل المعلقة ولو كانت متفرقة في جميع السماوات من غير حجب بعضها بعضاً لكون السماوات شفافة كما قيل كانت زينة لجميعها ولم تختص الزينة ببعضها كما يفيده السياق فلا وجه لقول القائل: إنها في الجميع لكن لكونها ترى متلألئة على السماء الدنيا عدّت زينة لها.

وأما قوله: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾ (نوح / ١٦) فهو بالنسبة الينا معاشر المستضيئين بالليل والنهار كقوله: ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ (النبأ / ١٣).

وقوله: «ذلك تقدير العزيز العليم» إشارة الى ما تقدم من النظم والترتيب[١][٢].

١٣ ● فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ.

١٤ ● إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ.

١٥ ● فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ.

١٦ ● فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ.

١٧ ● وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

١٨ ● وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ.

---

١. حم السجدة ١ـ١٢: بحث في السماوات السبع.

٢. حم السجدة ١ـ١٢: بحث روائي حول: قصه اجتماع قريش وارسالها عتبة بن ربيعة الى رسول الله ﷺ؛ خلق السماوات والارض؛ امان اهل السماء؛ امان اهل الارض.

١٩ ۞ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ.

٢٠ ۞ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

٢١ ۞ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

٢٢ ۞ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ.

٢٣ ۞ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَيكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

٢٤ ۞ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ.

٢٥ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ قال في المجمع: الصاعقة المهلكة من كل شيء انتهى. وقال الراغب: قال بعض أهل

اللغة : الصاعقة على ثلاثة أوجه : الموت كقوله : « صعق من في السماوات » وقوله : « فأخذتهم الصاعقة » والعذاب كقوله : « أنذرتكم صاعبة مثل صاعقة عاد وثمود » والنار كقوله : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » وما ذكره فهو أشياء حاصلة من الصاعقة فإن الصاعقة هي الصوت الشديد من الجو ثم يكون نار فقط أو عذاب أو موت وهي في ذاتها شيء واحد ، وهذه الأشياء تأثيرات منها . انتهى .

وعلى ما مر تنطبق الصاعقة على عذابي عاد وثمود وهما الريح والصيحة ، والتعبير بالماضي في قوله : « أنذرتكم » للدلالة على التحقق والوقوع .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ الخ ؛ ظرف لصاعقة الثانية فإن الإنذار بالصاعقة بالحقيقة إنذار بوقوعها وحلولها فالمعنى مثل حلول صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم ، الخ .

ونسبة المجيء الى الرسل وهو جمع ـ مع أن الذي ذكر في قصتهم رسولان هما هود وصالح ـ باعتبار أن الرسل دعوتهم واحدة والمبعوث منهم الى قوم مبعوث لآخرين وكذا القوم المكذبون لأحدهم مكذبون لآخرين قال تعالى : ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ (الشعراء / ١٢٣) وقال : ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ (الشعراء / ١٤١) ، وقال : ﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾ (الشعراء / ١٦٠) الى غير ذلك .

وقول بعضهم : إن إطلاق الرسل وهو جمع على هود وصالح ﷺ وهما اثنان من إطلاق الجمع على ما دون الثلاثة وهو شائع ، ومن هذا القبيل إرجاع ضمير الجمع في قوله : « إذ جاءتهم » الى عاد وثمود .

ممنوع بما تقدم ، وأما إرجاع ضمير الجمع الى عاد وثمود فإنما هو لكون مجموع الجمعين جمعاً مثلهما .

وقوله : ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أي من جميع الجهات فاستعمال هاتين

الجهتين في جميع الجهات شائع، وجوّز أن يكون المراد به الماضي والمستقبل فقوله: «جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم» كناية عن دعوتهم لهم من جميع الطرق الممكنة خلوة وجلوة وفرادى ومجتمعين بالتبشير والإنذار ولذلك فسر مجيئهم كذلك بعد بقوله: «أن لا تعبدوا إلّا الله» وهو التوحيد.

وقوله: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ رد منهم رسالتهم بأن الله لو شاء إرسال رسول الينا لأرسل من الملائكة، وقد تقدم كراراً معنى قولهم هذا وأنه مبني على إنكارهم نبوة البشر.

وقوله: «فإنا بما أُرسلتم به كافرون» تفريع على النفي المفهوم من الجملة السابقة أي فإذا لم يشأ ولم يرسل فإنا بما أُرسلتم به وهو التوحيد كافرون.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الخ: رجوع الى تفصيل حال كل من الفريقين على حدته، من كفرهم ووبال ذلك، وقوله: «بغير الحق» قيد توضيحي للاستكبار في الأرض فإنه بغير الحق دائماً، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ الخ: فسر الصرصر بالريح الشديدة السموم، وبالريح الشديدة البرد، وبالريح الشديدة الصوت وتلازم شدة الهبوب، والنحسات بكسر الحاء صفة مشبهة من نحس ينحس نحساً خلاف سعد فالأيام النحسات الأيام المشؤومات.

وقيل: أيام نحسات أي ذوات الغبار والتراب لا يرى فيها بعضهم بعضاً، ويؤيده قوله في سورة الأحقاف: ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾ (الأحقاف / ٢٤).

وقوله: «وما لهم من ناصرين» أي لا منج ينجيهم ولا شفيع يشفع لهم. والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ الخ: المراد

بهدايتهم إراءتهم الطريق ودلالتهم على الحق ببيان حق الاعتقاد والعمل لهم، والمراد بالاستحباب الإيثار والاختيار، ولعله بالتضمين ولذا عدي الى المفعول الثاني بعلى والمراد بالعمى الضلال استعارة، وفي مقابلة الهدى له إيماء الى أن الهدى بصر كما أن الضلالة عمى، والهون مصدر بمعنى الذل وتوصيف العذاب به للمبالغة أو بحذف ذي والتقدير صاعقة العذاب ذي الهون.

والمعنى: وأما قوم ثمود فدللناهم على طريق الحق وعرّفناهم الهدى بتمييزه من الضلال فاختاروا الضلال الذي هو عمى على الهدى الذي هو بصر فأخذتهم صيحة العذاب ذي المذلة ـ أو أخذهم العذاب بناء على كون الصاعقة بمعنى العذاب والإضافة بيانية ـ بما كانوا يكسبون.

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ضم التقوى الى الإيمان معبراً عن التقوى بقوله: «وكانوا يتقون» الدال على الاستمرار للدلالة على جمعهم بين الإيمان والعمل الصالح وذلك هو السبب لنجاتهم من عذاب الاستئصال على ما وعده الله بقوله: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (الروم / ٤٧).

والظاهر أن الآية متعلقة بالقصتين جميعاً متممة لهما وإن كان ظاهر المفسرين تعلقها بالقصة الثانية.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه الى الحرب ونحوها. كذا قال الراغب، و«يوزعون» من الوزع وهو حبس أول القوم ليلحق بهم آخرهم فيجتمعوا.

والمراد بأعداء الله ـ على ما قيل ـ المكذبون بالنبي ﷺ من مشركي قومه لا مطلق الكفار والدليل عليه قوله الآتي: «وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم» الآية.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ «ما» في «إذا ما جاؤها» زائدة للتأكيد والضمير للنار.

وشهادة الأعضاء أو القوى يوم القيامة ذكرها وإخبارها ما تحملته في الدنيا من معصية صاحبها فهي شهادة أداء لما تحملته، ولولا التحمل في الدنيا حين العمل كما لو جعل الله لها شعوراً ونطقاً يوم القيامة فعلمت ثم أخبرت بما عملته أو أوجد الله عندها صوتاً يفيد معنى الإخبار من غير شعور منها به لم يصدق عليه الشهادة، ولا تمت بذلك على العبد المنكر حجة وهو ظاهر.

وظاهر الآية أن شهادة السمع والبصر أداؤهما ما تحملاه وإن لم يكن معصية مأتيا بها بواسطتها كشهادة السمع أنه سمع آيات الله تتلى عليه فأعرض عنها صاحبه أو أنه سمع صاحبه يتكلم بكلمة الكفر، وشهادة البصر أنه رآى الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى فأعرض عنها صاحبه أو أنه رآى صاحبه يستمع الى الغيبة أو سائر ما يحرم الإصغاء اليه فتكون الآية على حد قوله تعالى: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أُولئك كان عنه مسؤلاً﴾ (الاسراء / ٣٦).

وعلى هذا يختلف السمع والأبصار والجلود فيما شهدت عليه فالسمع والأبصار تشهد على معصية العبد وإن لم تكن بسببها والجلود تشهد على المعصية التي كانت هي آلات لها بالمباشرة، وهذا الفرق هو السبب لتخصيصهم الجلود بالخطاب في قولهم: «لم شهدتم علينا» على ما سيجيء.

والمراد بالجلود على ظاهر إطلاق الآية مطلق الجلود وشهادتها على أنواع المعاصي التي تتم بالجلود من التمتعات المحرمة كالزنا ونحوه، ويمكن حينئذ أن تعمم الجلود بحيث تشتمل شهادتها ما شهدت الأيدي والأرجل المذكورة في قوله: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم﴾ (يس / ٦٥) على بعد.

وقيل: المراد بالجلود الفروج وقد كني بها عنها تأدباً.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ اعتراض وعتاب منهم لجلودهم في شهادتها عليهم، وقيل: الاستفهام للتعجب فهو سؤال عن السبب لرفع التعجب وإنما خصوها بالسؤال دون سمعهم وأبصارهم مع اشتراكها في الشهادة لأن الجلود شهدت على ما كانت هي بنفسها أسباباً وآلات مباشرة له بخلاف السمع والأبصار فإنها كسائر الشهداء تشهد بما ارتكبه غيرها.

وقيل: تخصيص الجلود بالذكر تقريع لهم وزيادة تشنيع وفضاحة وخاصة لو كان المراد بالجلود الفروج وقيل غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الخ: إرجاع ضمير اولي العقل الى الجوارح لمكان نسبة الشهادة والنطق اليها وذلك من شئون اولي العقل.

والمتيقن من معنى النطق إذا استعمل على الحقيقة من غير تجوز هو إظهار ما في الضمير من طريق التكلم فيتوقف على علم وكشفه لغيره، قال الراغب: ولا يكاد يستعمل النطق في غير الإنسان إلّا تبعاً وبنوع من التشبيه وظاهر سياق الآيات وما فيها من ألفاظ القول والتكلم والشهادة والنطق أن المراد بالنطق ما هو حقيقة معناه.

فشهادة الأعضاء على المجرمين كانت نطقاً وتكلماً حقيقة عن علم تحملته سابقاً بدليل قولها: «أنطقنا الله». ثم إن قولها: «أنطقنا الله» جواباً عن قول المجرمين «لم شهدتم علينا»؟ إراءة منها للسبب الذي أوجب نطقها وكشف عن العلم المدخر عندها المكنون في ضميرها فهي ملجأة الى التكلم والنطق، ولا يضر ذلك نفوذ شهادتها وتمام الحجة بذلك فإنها إنما أُلجئت الى الكشف عما في ضميرها لا على الستر عليه والإخبار بخلافه كذباً وزوراً حتى ينافي جواز الشهادة وتمام الحجة.

وقوله: ﴿الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ توصيف لله سبحانه وإشارة الى أن النطق ليس مختصاً بالأعضاء حتى تختص هي بالسؤال بل هو عام شامل لكل شيء والسبب الموجب له

هو الله سبحانه.

وقوله: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من تتمة الكلام السابق أو هو من كلامه، وهو احتجاج على علمه بأعمالهم وقد أنطق الجوارح بما علم.

يقول: إن وجودكم يبتدىء منه تعالى وينتهي اليه تعالى فعند ما تظهرون من كتم العدم ـ وهو خلقكم أول مرة ـ يعطيكم الوجود ويملككم الصفات والافعال فتنسب اليكم ثم ترجعون وتنتهون اليه فيرجع ما عندكم من ظاهر الملك الموهوب اليه فلا يبقى ملك إلّا وهو لله سبحانه.

فهو سبحانه المالك لجميع ما عندكم أولاً وآخراً فما عندكم من شيء في أول وجودكم هو الذي أعطاكموه وملكه لكم وهو أعلم بما أعطى وأودع، وما عندكم من شيء حينما ترجعون اليه هو الذي يقبضه منكم اليه ويملكه فكيف لا يعلمه، وانكشافه له سبحانه حينما يرجع اليه إنطاقه لكم وشهادتكم على أنفسكم عنده.

وبما مر من البيان يظهر وجه تقييد قوله: «وهو الذي خلقكم» بقوله: «أول مرة» فالمراد به أول وجودهم[1][2].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ﴾ الخ: لا شك أن الله سبحانه خالق كل شيء لا موجد غيره فلا يحول بين خلقه وبينه شيء ولا يحجب خلقه من حاجب فهو تعالى مع كل شيء أينما كان وكيفما كان قال تعالى: ﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾ (الحج / ١٧) وقال: ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ (الأحزاب / ٥٢).

---

١. حم السجدة ١٣ ـ ٢٥: بحث اجمالي قرآني في ان العلم سار في الموجودات عامة.

٢. حم السجدة ١٣ ـ ٢٥: بحث اجمالي فلسفي في علم الموجودات.

فالإنسان أينما كان كان الله معه، وأي عمل عمله كان الله مع عمله، وأي عضو من أعضائه استعمله وأي سبب أو أداة أو طريق اتخذه لعمله كان مع ذلك العضو والسبب والأداة والطريق قال تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ (الحديد / ٤)، وقال: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ (الرعد / ٣٣)، وقال: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ (الفجر / ١٤).

ومن هنا يستنتج أن الإنسان ـ وهو جار في عمله ـ واقع بين مراصد كثيرة يرصده من كل منها ربه ويرقبه ويشهده فرتكب المعصية وهو متوغل في سيئته غافل عنه تعالى في جهل عظيم بمقام ربه واستهانة به سبحانه وهو يرصده ويرقبه.

وهذه الحقيقة هي التي تشير اليه الآية أعني قوله: «وما كنتم تستترون» الخ؛ على ما يعطيه السياق.

فقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ نفي لاستتارهم وهم في المعاصي قبلاً وهم في الدنيا وقوله: «أن يشهد» الخ؛ منصوب بنزع الخافض والتقدير من أن يشهد، الخ.

وقوله: ﴿وَلٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللّهَ لاَ يَعْلَمُ﴾ استدراك في معنى الإضطراب عن محذوف يدل عليه صدر الآية، والتقدير ولم تظنوا أنها لا تعلم أعمالكم ولكن ظننتم، الخ، والآية تقريع وتوبيخ للمشركين أو لمطلق المجرمين يوجه اليهم يوم القيامة من قبله تعالى.

ومحصل المعنى وما كنتم تستخفون في الدنيا عند المعاصي من شهادة أعضائكم التي تستعملونها في معصية الله ولم يكن ذلك لظنكم أنها لا إدراك فيها لعملكم بل لظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون أي لم تستهينوا عند المعصية بشهادة أعضائكم وإنما استهنتم بشهادتنا.

فالاستدراك ومعنى الإضراب في الآية نظير ما في قوله تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ (الأنفال / ١٧)، وقوله: ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ (البقرة / ٥٧).

وقوله: ﴿كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: لا يعلم ما تعملون ولعل ذلك لكونهم

معتقدين بالله وبصفاته العليا التي منها العلم فهم يعتقدون فيه العلم في الجملة لكن حالهم في المعاصي حال من لا يرى علمه بكثير من أعماله.

ويستفاد من الآية أن شهادة الشهود شهادته تعالى بوجه قال تعالى: ﴿ولا تعملون من عمل إلّا كنا عليكم شهود إذ تفيضون فيه﴾ (يونس / ٦١).

ولهم في توجيه معنى الآية أقوال اخر لا يساعد عليها السياق ولا تخلو من تكلف أضربنا عن التعرض لها.

قوله تعالى: ﴿وَذٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدٰاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخٰاسِرِينَ﴾ الإرداء من الردى بمعنى الهلاك، و «ذلكم ظنكم» مبتدء وخبر و «أرادكم» خبر بعد خبر. ويمكن أن يكون «ظنكم» بدلاً من ذلكم.

ومعنى الآية على الأول وذلكم الظن الذي ذكر ظن ظننتموه لا يغني من الحق شيئاً والعلم والشهادة على حالها أهلككم ذلك الظن فأصبحتم من الخاسرين.

وعلى الثاني وظنكم الذي ظننتم بربكم أنه لا يعلم كثيراً مما تعملون اهلككم إذ هون عليكم أمر المعاصي وأدى بكم إلى الكفر فأصبحتم من الخاسرين.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنّٰارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمٰا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ في المفردات: الثواء الإقامة مع الاستقرار. انتهى، وفي المجمع الاستعتاب طلب العتبى وهي الرضا وهو الاسترضاء، والإعتاب الإرضاء، وأصل الإعتاب عند العرب استصلاح الجلد بإعادته في الدباغ ثم استعير فيما يستعطف به البعض بعضاً لإعادته ما كان من الالفة. انتهى.

ومعنى الآية فإن يصبروا فالنار مأواهم ومستقرهم وإن يطلبوا الرضى ويعتذروا لينجوا من العذاب فليسوا ممن يرضى عنهم ويقبل إعتابهم ومعذرتهم فالآية في معنى قوله: ﴿اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾ (الطور / ١٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ الى آخر الآية: أصل التقييض ـ كما في المجمع ـ التبديل، والقرناء جمع قرين وهو معروف.

فقوله: ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ﴾ إشارة الى أنهم لو آمنوا واتقوا لأيدهم الله بمن يسددهم ويهديهم كما قال: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وايدهم بروح منه﴾ (المجادلة / ٢٢) لكنهم كفروا وفسقوا فبدل الله لهم قرناء من الشياطين يقارنونهم ويلازمونهم، وإنما يفعل ذلك بهم مجازاة لكفرهم وفسوقهم.

وقوله: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ لعل المراد التمتعات المادية التي هم مكبون عليها في الحال وما تعلقت به آمالهم وأمانيهم في المستقبل.

وقوله: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ أي ثبت ووجب عليهم كلمة العذاب حالكونهم في امم مماثلين لهم ماضين قبلهم من الجن والانس وكلمة العذاب قوله تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة / ٣٩) كقوله: ﴿لأملأن جهنم منكم وممن تبعك منهم أجمعين﴾ (ص / ٨٥). وقوله: «إنهم كانوا خاسرين» تعليل لوجوب كلمة العذاب عليهم أو لجميع ما تقدم.

ويظهر من الآية أن حكم الموت جار في الجن مثل الإنس.

٢٦ • وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ.

٢٧ • فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ.

٢٨ ● ذٰلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ ٱللّٰهِ النّارُ لَهُمْ فِيها دارُ ٱلْخُلْدِ جَزاءً بِما
كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ.

٢٩ ● وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ
نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ.

٣٠ ● إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنا ٱللّٰهُ ثُمَّ ٱسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ
أَلّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ.

٣١ ● نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما
تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ.

٣٢ ● نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ.

٣٣ ● وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللّٰهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ
إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

٣٤ ● وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا
الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ.

٣٥ ● وَما يُلَقّيها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقّيها إِلّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ.

٣٦ ● وَإِمّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ.

٣٧ ● وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا
لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلّٰهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيّاهُ
تَعْبُدُونَ.

٣٨ ● فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ.

٣٩ ● وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْها الْماءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهٰذا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ اللغو من الأمر ما لا أصل له ومن الكلام ما لا معنى له يقال: لغى يلغى ويلغو لغواً أي أتى باللغو، والإشارة الى القرآن مع ذكر اسمه دليل على كمال عنايتهم بالقرآن لإعفاء أثره.

والآية تدل على نهاية عجزهم عن مخاصمة القرآن بإتيان كلام يعادله ويماثله أو إقامة حجة تعارضه حتى أمر بعضهم بعضاً أن لا ينصتوا له ويأتوا بلغو الكلام عند قراءة النبي ﷺ القرآن ليختل به قراءته ولا تقرع أسماع الناس آياته فيلغو أثره وهو الغلبة.

قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً﴾ الخ: اللام للقسم. والمراد بالذين كفروا بحسب مورد الآية هم الذين قالوا: لا تسمعوا لهذا القرآن وإن كانت الآية مطلقة بحسب اللفظ.

وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قيل: المراد العمل السيىء الذي كانوا يعملون بتجريد أفعل عن معنى التفضيل. وقيل: المراد بيان جزاء ما هو أسوء أعمالهم وسكت عن الباقي مبالغة في الزجر.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ ٱللّٰهِ النّارُ﴾ الخ: «ذلك جزاء» مبتدء وخبر

و «النار» بدل أو عطف بيان من «ذلك» أو خبر مبتدء محذوف والتقدير هي النار أو مبتدء خبره «لهم فيها دار الخلد».

وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي النار محيطة بهم جميعاً ولكل منهم فيها دار تخصه خالداً فيها.

وقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ مفعول مطلق لفعل مقدر، والتقدير يجزون جزاء أو للمصدر المتقدم أعني قوله: «ذلك جزاء» نظير قوله: ﴿فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً﴾ (الإسراء / ٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ حكي قول يقولونه وهم في النار، يسألون الله أن يريهم متبوعيهم من الجن والإنس ليجعلوهما تحت أقدامهم إذلالاً لهما وتشديداً لعذابهما كما يشعر به قولهم ذيلاً: «نجعلها تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الخ؛ قال الراغب: الاستقامة تقال في الطريق الذي يكون على خط مستو، وبه شبه طريق الحق نحو «اهدنا الصراط المستقيم». قال: واستقامة الإنسان لزومه المنهج المستقيم نحو قوله: «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا». انتهى. وفي الصحاح: الاستقامة الاعتدال يقال: استقام له الأمر. انتهى.

فالمراد بقوله: «ثم استقاموا» لزوم وسط الطريق من غير ميل وانحراف والثبات على القول الذي قالوه، قال تعالى: ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ (التوبة / ٧) وقال: ﴿واستقم كما أُمرت ولا تتبع أهواءهم﴾ (الشورى / ١٥) وما ورد فيها من مختلف التفاسير يرجع الى ما ذكر.

والآية وما يتلوها بيان حسن حال المؤمنين كما كانت الآيات قبلها بيان سوء حال

الكافرين.

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ إخبار عما سيستقبلهم به الملائكة من تقوية قلوبهم وتطييب نفوسهم والبشرى بالكرامة.

فالملائكة يؤمنونهم من الخوف والحزن، والخوف إنما يكون من مكروه متوقع كالعذاب الذي يخافونه والحرمان من الجنة الذي يخشونه، والحزن إنما يكون من مكروه واقع وشر لازم كالسيئات التي يحزنون من اكتسابها والخيرات التي يحزنون لفوتها عنهم فيطيب الملائكة أنفسهم أنهم في أمن من أن يخافوا شيئاً أو يحزنوا لشيء فالذنوب مغفورة لهم والعذاب مصروف عنهم.

ثم يبشرونهم بالجنة الموعودة بقولهم: «وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون» وفي قولهم: «كنتم توعدون» دلالة على أن تنزلهم بهذه البشرى عليهم إنما هو بعد الحياة الدنيا.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الخ: من تتمة البشارة، وعلى هذا فذكر ولايتهم لهم في الحياة الدنيا مع انقضاء وقتها كما تقدم من باب التوطئة والتمهيد الى ذكر الآخرة للاشارة الى أن ولاية الآخرة مترتبة على ولاية الدنيا فكأنه قيل: نحن أولياؤكم في الآخرة كما كنا ـ لما كنا ـ أولياءكم في الحياة الدنيا وسنتولى أمركم بعد هذا كما تولیناه قبل.

وكون الملائكة أولياء لهم لا ينافي كونه تعالى هو الولي لأنهم وسائط الرحمة والكرامة ليس لهم من الأمر شيء، ولعل ذكر ولايتهم لهم في الآية دون ولايته تعالى للمقابلة والمقايسة بين أوليائه تعالى وأعدائه إذ قال في حق أعدائه: «وقيضنا لهم قرناء» الخ؛ وقال في حق أوليائه عن لسان ملائكته: «نحن أولياؤكم».

وبالمقابلة يستفاد أن المراد ولايتهم لهم بالتسديد والتأييد فإن الملائكة المسددين هم

المخصوصون بأهل ولاية الله، وأما الملائكة الحرس وموكلوا الأرزاق والآجال وغيرهم فمشتركون بين المؤمن والكافر.

وقيل: الآية من كلام الله دون الملائكة.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ضمير «فيها» في الموضعين للآخرة، وأصل الشهوة نزوع النفس بقوة من قواها الى ما تريده تلك القوة وتلتذ به كشهوة الطعام والشراب والنكاح، وأصل الإدعاء ـ وهو افتعال من الدعاء ـ هو الطلب فالجملة الثانية أعني قوله: «ولكم فيها ما تدعون» أوسع نطاقا من الاولى أعني قوله: «لكم فيها ما تشتهي أنفسكم» فإن الشهوة طلب خاص ومطلق الطلب أعم منها.

فالآية تبشرهم بأن لهم في الآخرة ما يمكن أن تتعلق به شهواتهم من أكل وشرب ونكاح وغير ذلك بل ما هو أوسع من ذلك وأعلى كعبا وهو أن لهم ما يشاؤن فيها كما قال تعالى: ﴿لهم ما يشاؤن فيها﴾ (ق / ٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ للآية اتصال بقوله السابق: «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن، والغوا فيه» الآية فإنهم كانوا يخاصمون النبي ﷺ كما ينازعون القرآن، وقد ذكر في أول السورة قولهم: «قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه» الآية فأيد سبحانه في هذه الآية نبيه بأن قوله وهو دعوته أحسن القول.

فقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ المراد به النبي ﷺ وإن كان لفظ الآية يعم كل من دعا الى الله ولما أمكن أن يدعو الداعي الى الله لغرض فاسد وليست الدعوة التي هذا شأنها من القول الأحسن قيده بقوله: «وعمل صالحا» فإن العمل الصالح يكشف عن نية صالحة غير أن العمل الصالح لا يكشف عن الاعتقاد الحق والإلتزام به، ولا حسن في قول لا يقول به صاحبه ولذا قيده بقوله: «وقال إنني من المسلمين» والمراد بالقول الرأي والاعتقاد

على ما يعطيه السياق.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ الآية لما ذكر أحسن القول وأنه الدعوة الى الله والقائم به حقا هو النبي ﷺ التفت اليه ببيان أحسن الطريق الى الدعوة وأقربها من الغاية المطلوبة منها وهي التأثير في النفوس فخاطبه بقوله: «لا تستوي» الخ.

فقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي الخصلة الحسنة والسيئة من حيث حسن التأثير في النفوس، و«لا» في «ولا السيئة» زائدة لتأكيد النفي.

وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ استئناف في معنى دفع الدخل كأن المخاطب لما سمع قوله: «لا تستوي» الخ؛ قال: فماذا أصنع؟ فقيل «ادفع» الخ؛ والمعنى ادفع بالخصلة التي هي أحسن الخصلة السيئة التي تقابلها وتضادها فادفع بالحق الذي عندك باطلهم لا بباطل آخر وبحلمك جهلهم وبعفوك إساءتهم وهكذا.

وقوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ بيان لأثر الدفع بالأحسن ونتيجته، والمراد أنك إن دفعت بالتي هي أحسن فاجأك أن عدوك صار كأنه ولي شفيق. قيل «الذي بينك وبينه عداوة» أبلغ من «عدوك» ولذا اختاره عليه مع اختصاره.

ثم عظم الله سبحانه الدفع بالتي هي أحسن ومدحه أحسن التعظيم وأبلغ المدح بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي ذو نصيب وافر من كمال الإنسانية وخصال الخير.

وفي الآية مع ذلك دلالة ظاهرة على أن الحظ العظيم إنما يوجد لأهل الصبر خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ النزغ النخس وهو غرز جنب الدابة أو مؤخرها بقضيب ونحوه ليهيج، و«ما» في «إما ينزغنك» زائدة والأصل وإن ينزغنك فاستعذ.

والنازغ هو الشيطان أو تسويله ووسوسته، والأول هو الأنسب لمقام النبي ﷺ فإنه لا

سبيل للشيطان اليه بالوسوسة غير أنه يمكن أن يقلب له الامور بالوسوسة على المدعوين من أهل الكفر والجحود فيبالغوا في جحودهم ومشاقتهم وإيذائهم له فلا يؤثر فيهم الدفع بالأحسن ويؤل هذا الى نزغ من الشيطان بتشديد للعداوة في البين كما في قوله: ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ (يوسف / ١٠٠). قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ الآية (الحج / ٥٢).

ولو حمل على الوجه الثاني فالمتعين حمله على مطلق الدستور تتمياً للأمر، وهو بوجه من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة».

وقوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ العوذ والعياذ بكسر العين والمعاذ والاستعاذة بمعنى وهو الالتجاء والمعنى فالتجيء بالله من نزعه إنه هو السميع لمسألتك العليم بحالك أو السميع لأقوالكم العليم بأفعالكم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ الخ؛ لما ذكر سبحانه كون دعوته ﷺ أحسن القول ووصاه أن يدفع بأحسن الخصال عاد الى أصل الدعوة فاحتج على الوحدانية والمعاد في هذه الآيات الثلاث.

فقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ الخ؛ احتجاج بوحدة التدبير واتصاله على وحدة الرب المدبر، وبوحدة الرب على وجوب عبادته وحده، ولذلك عقبه بقوله: «لا تسجدوا للشمس ولا للقمر» الخ.

فالكلام في معنى دفع الدخل كأنه لما قيل «ومن آياته الليل والنهار» الخ؛ فأثبت وحدته في ربوبيته قيل: فماذا نصنع؟ فقيل «لا تسجدوا للشمس ولا للقمر» هما مخلوقان مدبران من خلقه بل خصوه بالسجدة واعبدوه وحده، وعامة الوثنيين كانوا يعظمون الشمس والقمر وإن لم يعبدهما غير الصابئين على ما قيل، وضمير «خلقهن» لليل والنهار والشمس والقمر.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إن عبادته لا تجامع عبادة غيره.

قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ السأمة الملال، والمراد «بالذين عند ربك» الملائكة والمخلصون من عباد الله وقد تقدم كلام في ذلك في تفسير قوله: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾ (الأعراف/ ٢٠٦).

وقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾ ولم يقل: يسبحونه للدلالة على الحصر والاختصاص أي يسبحونه خاصة، وقوله: «بالليل والنهار» أي دائمًا لا ينقطع فإن الملائكة ليس عندهم ليل ولا نهار.

والمعنى: فإن استكبر هؤلاء الكفار عن السجدة لله وحده فعبادته تعالى لا ترتفع من الوجود فهناك من يسبحه تسبيحا دائمًا لا ينقطع من غير سأمة وهم الذين عند ربك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً﴾ الخ: الخشوع التذلل، والاهتزاز التحرك الشديد، والربو النشوء والنماء والعلو، واهتزاز الأرض وربوها تحركها بنباتها وارتفاعه.

٤٠ ● إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَفَمَنْ يُلْقىٰ فِي النّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيٰمَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

٤١ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ.

٤٢ ● لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

٤٣ ● ما يُقالُ لَكَ إِلاّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو

مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ.

٤٤ ● وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.

٤٥ ● وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ.

٤٦ ● مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ.

٤٧ ● إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ.

٤٨ ● وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ.

٤٩ ● لاَ يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ.

٥٠ ● وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ

عَذَابٍ غَلِيظٍ .

٥١ ● وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَآ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ .

٥٢ ● قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ .

٥٣ ● سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

٥٤ ● أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ .

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ الخ: سياق تهديد للملحدي هذه الأمة كما يؤيده الآية التالية، والإلحاد الميل.

وإطلاق قوله: «يلحدون» وقوله: «آياتنا» يشمل كل إلحاد في كل آية فيشمل الإلحاد في الآيات التكوينية كالشمس والقمر وغيرهما فيعدونها آيات لله سبحانه ثم يعودون فيعبدونها، ويشمل آيات الوحي والنبوة فيعدون القرآن افتراء على الله وتقولاً من النبي ﷺ أو يلغون فيه لتختل تلاوته فلا يسمعه سامع أو يفسرونه من عند أنفسهم أو يؤولونه ابتغاء الفتنة فكل ذلك إلحاد في آيات الله بوضعها في غير موضعها والميل بها الى غير مستقرها.

وقوله: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إيذان بالجزاء وهو الإلقاء في النار يوم القيامة قسرا من غير أي مؤمن متوقع كشفيع أو ناصر أو

عذر مسموع فليس لهم إلا النار يلقون فيها. والظاهر أن قوله: «أم من يأتي آمنا يوم القيامة» لإبانة أنهما قبيلان لا ثالث لهما مستقيم في الإيمان بالآيات وملحد فيها ويظهر بـه أن أهـل الاستقامة في أمن يوم القيامة.

وقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تشديد في التهديد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ -الى قـوله- مِـنْ حَكِـيمٍ حَمِيدٍ﴾ المراد بالذكر بالقرآن لما فيه من ذكر الله. وتقييد الجملة بقوله: «لما جاءهم» يدل على أن المراد بالذين كفروا هم مشركوا العرب المعاصرين للقرآن من قريش وغيرهم.

وقد اختلفوا في خبر «إن» ويمكن أن يستظهر من السياق أنه محذوف يدل عليه قوله: «إن الذين يلحدون في آياتنا» الخ؛ فإن الكفر بالقرآن من مصاديق الإلحاد في آيات الله فالتقدير إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم يلقون في النار يوم القيامة. وإنما حذف ليذهب فيه وهم السامع أي مذهب ممكن والكلام مسوق للوعيد.

والى هذا المعنى يرجع قول الزمخشري في الكشاف: إن قوله: «إن الذين كفروا» الخ؛ بدل من قوله: «إن الذين يلحدون في آياتنا».

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ الضمير للذكر وهو القرآن. والعزيز عديم النـظير أو المنيع الممتنع من أن يغلب. والمعنى الثاني أنسب لما يتعقبه من قوله: «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه».

وقوله: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ إتيان البـاطل اليـه وروده فيه وصيرورة بعض أجزائه أو جميعها باطلا بأن يصير ما فيه من المعارف الحـقة أو بعضها غير حقة أو ما فيه من الأحكام والشرائع وما يلحقها من الأخلاق أو بعضها لغى لا ينبغي العمل به.

وعليه فالمراد بقوله: «من بين يديه ولا من خلفه» زمانا الحـال والاستقبال أي زمـان

النزول وما بعده الى يوم القيامة . وقيل : المراد بما بين يديه ومن خلفه جميع الجهات . كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله فهو مصون من البطلان من جميع الجهات وهـذا العـموم عـلى الوجه الأول مستفاد من إطلاق النفي في قوله : « لا يأتيه » .

والمدلول على أي حال أنه لا تناقض في بياناته . ولا كذب في أخباره . ولا بطلان يتطرق الى معارفه وحكمه وشرائعه . ولا يعارض ولا يغير بإدخال ما ليس منه فيه أو بتحريف آية من وجه الى وجه .

فالآية تجري مجري قوله : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر / ٩) .

وقوله : ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ بمنزلة التعليل لكـونه كـتابا عـزيزا لا يأتـيه الباطل . الخ : أي كيف لا يكون كذلك وهو منزل من حكيم متقن في فعله لا يشوب فعله وهن . محمود على الإطلاق .

قوله تعالى : ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الخ : « ما » في « ما يقال لك » نافية . والقائلون هم الذين كفروا حيث قالوا : إنه ساحر أو مجنون أو شاعر لاغ في كلامه أو يريد أن يتأمر علينا . والقائلون لما قد قيل للرسل اممهم .

والمعنى : ما يقال لك من قبل كفار قومك حيث أرسلت اليهم فدعوتهم فرموك بما رموك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك أي مثل ما قد قيل لهم .

وقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ في موضع التهديد والوعيد أي إن ربك ذو هاتين الصفتين أي فانظر أو فلينظروا ماذا يصيبهم من ربهم وهم يقولون ما يقولونه لرسوله ؟ أهو مغفرة أم عقاب ؟ فالآية في معنى قوله : « اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » أي ما علمتم من حسنة أو سيئة أصابكم جزاؤه بعينه .

وقيل : المعنى ما يوحي اليـك في أمر هؤلاء الذين كفروا بالذكر إلا ما قد أوحي للرسل من قبلك وهو أن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم فالمراد بالقول الوحي . و« إن ربك » الخ : بيان لا

قد قيل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ قال الراغب: العجمة خلاف الإبانة. قال: والعجم خلاف العرب والعجمي منسوب اليهم. والأعجم من في لسانه عجمة عربيا كان أو غير عربي اعتبارا بقلة فهمهم عن العجم. انتهى. فالأعجمي غير العربي البليغ سواء كان من غير أهل اللغة العربية أو كان منهم وهو غير مفصح للكنة في لسانه، وإطلاق الأعجمي على الكلام كإطلاق العربي من المجاز.

فالمعنى: ولو جعلنا القرآن أعجميا غير مبين لمقاصده غير بليغ في نظمه لقال الذين كفروا من قومك: هلا فصلت وبينت آياته وأجزاؤه فانفصلت وبانت بعضها من بعض بالعربية والبلاغة أكتاب مرسل أعجمي ومرسل اليه عربي؟ أي يتنافيان ولا يتناسبان.

وإنما قال: «عربي» ولم يقل: عربيون أو عربية مع كون من أُرسل اليه جمعاً وهم جماعة العرب، إذ القصد الى مجرد العربية من دون خصوصية للكثرة بل المراد بيان التنافي بين الكلام وبين المخاطب به لا بيان كون المخاطب واحداً أو كثيراً.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ﴾ بيان أن أثر القرآن وخاصته لا يدور مدار لغته بل الناس تجاهه صنفان وهم الذين آمنوا والذين لا يؤمنون، وهو هدى وشفاء للذين آمنوا يهديهم الى الحق ويشفي ما في قلوبهم من مرض الشك والريب. وهو عمى على الذين لا يؤمنون ـ وهم الذين في آذانهم وقر ـ يعميهم فلا يبصرون الحق وسبيل الرشاد.

وفي توصيف الذين لا يؤمنون بأن في آذانهم وقرا إيماء الى اعترافهم بذلك المنقول عنهم في أول السورة «وفي آذاننا وقر».

وقوله: ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي فلا يسمعون الصوت ولا يرون الشخص وهو تمثيل لحالهم حيث لا يقبلون العظة ولا يعقلون الحجة.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ الخ: تسلية للنبي ﷺ عن جحود قومه وكفرهم بكتابه.

وقوله: ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ الكلمة هي قوله: ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ (الأعراف / ٢٤).

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي في شك مريب من كتاب موسى عليه السلام. بيان حال قومه ليتسلى به النبي ﷺ فيما يرى من قومه.

قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ الخ: أي إن العمل قائم بصاحبه ناعت له فلو كان صالحاً نافعاً انتفعت به نفسه وإن كان سيئاً ضاراً تضررت به نفسه فليس في إيصاله تعالى نفع العمل الصالح الى صاحبه وهو الثواب ولا في إيصال ضرر العمل السيىء الى صاحبه وهو العقاب ظلم ووضع للشيء في غير موضعه.

ولو كان ذلك ظلماً كان تعالى في إثابته وتعذيبه من لا يحصى من العباد في ما لا يحصى من الأعمال ظلاّماً للعبيد لكنه ليس بظلم ولا أنه تعالى ظلاّم لعبيده وبذلك يظهر وجه التعبير باسم المبالغة في قوله: «وما ربك بظلاّم للعبيد» ولم يقل: وما ربك بظالم.

قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ـ الى قوله ـ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ﴾ ارتداد علم الساعة اليه اختصاصه به فلا يعلمها إلا هو، وقد تكرر ذلك في كلامه تعالى.

وقوله: ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا ﴾ «ثمرات» فاعل «تخرج» و«من» زائدة للتأكيد كقوله: ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ (النساء / ٧٩)، وأكمام جمع كم وهو وعاء الثمرة و«ما» مبتدء خبره «إلا بعلمه» والمعنى وليس تخرج ثمرات من أوعيتها ولا تحمل أُنثى ولا تضع حملها إلا مصاحباً لعلمه أي هو تعالى يعلم جزئيات حالات كل شيء.

فهو تعالى على كونه خالقاً للأشياء محولاً لأحوالها عالم بها وبجزئيات حالاتها مراقب لها، وهذا هو أحسن التدبير فهو الرب وحده، ففي الآية إشارة الى توحده تعالى في الربوبية

والالوهية. ولذا ذيّل هذا الصدر بقوله: «ويوم يناديهم أين شركائي» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ـ الى قوله ـ مِنْ مَحِيصٍ﴾ الظرف متعلق بقوله: «قالوا» وقيل: ظرف لمضمر مؤخر قد ترك إيذاناً بقصور البيان عنه كما في قوله تعالى: «ويوم يجمع الله الرسل». وقيل: متعلق بمحذوف نحو اذكر. ولعل الوجه الأول أنسب لصدر الآية بالمعنى الذي ذكرناه فتكون الآية مسوقة لنفي الشركاء ببيان قيام التدبير به تعالى واعتراف المشركين بذلك يوم القيامة.

والإيذان الإعلام، والمراد بالشهادة الشهادة القولية أو الشهادة بمعنى الرؤية الحضورية وعلى الثاني فقوله: «وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل» عطف تفسير يبيّن به سبب انتفاء الشهادة.

وقوله: ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ الظن ـ على ما قيل ـ بمعنى اليقين، والمحيص المهرب والمفر. والمعنى: ويوم ينادي الله المشركين: أين شركائي؟ ـ على زعمكم ـ قالوا: أعلمناك ما منا من يشهد عليك بالشركاء ـ أو ما منا من يشاهد الشركاء وغاب عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في الدنيا، وأيقنوا أن ليس لهم مهرب من العذاب.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ﴾ السأمة الملال، واليأس والقنوط بمعنى وهو انقطاع الرجاء، والدعاء الطلب.

شروع في ختم الكلام في السورة ببيان ما هو السبب في جحودهم ودفعهم الحق الصريح، وهو أن الإنسان مغتر بنفسه فإذا مسه شر يعجز عن دفعه يئس من الخير وتعلق بذيل الدعاء والمسألة وتوجه الى ربه. وإذا مسه خير اشتغل به وأعجب بنفسه وأنساه ذلك كل حق وحقيقة.

والمعنى: لا يمل الإنسان من طلب الخير وهو ما يراه نافعاً لحياته ومعيشته وإن مسه الشر

فكثير اليأس والقنوط لما يرى من سقوط الأسباب التي كان يستند اليها، وهذا لا ينافي تعلق رجائه إذ ذاك بالله سبحانه كما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذَا لِي﴾ الخ؛ الأصل بالنظر الى مضمون الآية السابقة أن يقال: وإن ذاق خيراً قال: هذا لي لكن بدّل ذاق من «أذقناه» و«خيراً» من قوله: «رحمة منا» ليدل على أن الخير الذي ذاقه هو رحمة من الله أذاقه إياها وليس بمصيبة برأسه ولا هو يملكه ولو كان يملكه لم ينفك عنه ولم يمسسه الضراء، ولذا قيد قوله: «ولئن أذقناه» الخ؛ بقوله: «من بعد ضراء مسته».

وقوله: ﴿لَيَقُولَنَّ هٰذَا لِي﴾ أي أنا أملكه فلي أن أفعل فيه ما أشاء وأتصرف فيه كيف أُريد، فليس لأحد أن يمنعني من شيء منه أو يحاسبني على فعل، ولهذا المعنى عقبه بقوله: «وما أظن الساعة قائمة» فإن الساعة هي يوم الحساب.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي للمثوبة الحسنى أو للعاقبة الحسنى، وهذا مبني على ما يراه لنفسه من الكرامة واستحقاق الخير كأنه يقول: ما ملكته من الخير لو كان من الله فإنما هو لكرامة نفسي عليه وعلى هذا فإن قامت الساعة ورجعت الى ربي كانت لي عنده العاقبة الحسنى.

فالمعنى: وأُقسم لئن أذقنا الإنسان رحمة هي منا ولا يستحقها ولا يملكها فأذقناها من بعد ضراء مسته وذلك يدله على أنه لا يملك ما أُذيقه نسي ما كان من قبل وقال: هذا لي ـ يشير الى شخص النعمة ولا يسميها رحمة ـ وليس لأحد أن يمنعني عما أفعل فيه ويحاسبني عليه وما أظن الساعة ـ وهي يوم الحساب ـ قائمة، وأُقسم لئن رُجعت الى ربي وقامت ساعة كانت لي عنده العاقبة الحسنى لكرامتي عليه كما أنعم عليّ من النعمة.

والآية نظيرة قوله في قصة صاحب الجنة: ﴿ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ (الكهف / ٣٦) وقد تقدم بعض

الكلام فيه.

وقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَآ بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ النأي الابتعاد، والمراد بالجانب الجارحة وهي الجنب أو المراد الجهة والمكان فقوله: «نآى بجانبه» كناية عن الابتعاد بنفسه وهو كناية عن التكبر والخيلاء، والمراد بالعريض الوسيع، والدعاء العريض كالدعاء الطويل كناية عما استمر وأصر عليه الداعي، والآية في مقام ذم الانسان وتوبيخه أنه إذا أنعم الله عليه أعرض عنه وتكبر وإذا سلب النعمة ذكر الله وأقبل عليه بالدعاء مستمراً مصراً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ «أرأيتم» أي أخبروني، والشقاق والمشاقة الخلاف، والشقاق البعيد الخلاف الذي لا يقارب الوفاق وهو شديده، وقوله: «ممن هو في شقاق بعيد» كناية عن المشركين ولم يقل: منكم بل أتى بالموصول والصلة وذلك في معنى الصفة ليدل على علة الحكم وهو الشقاق البعيد من الحق.

والمعنى: قل للمشركين أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به من أضل منكم؟ أي لا أضل منكم لأنكم في خلاف فعيد من حق ما فوقه حق.

فمفاد الآية أن القرآن يدعوكم الى الله ناطقاً بأنه من عند الله فلا أقل من احتمال صدقه في دعواه وهذا يكفي في وجوب النظر في أمره دفعاً للضرر المحتمل وأي ضرر أقوى من الهلاك الأبدي فلا معنى لإعراضكم عنه بالكلية.

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الخ: الآفاق جمع أفق وهو الناحية، والشهيد بمعنى الشاهد أو بمعنى المشهود وهو

المناسب لسياق الآية.

وضمير «إنه» للقرآن على ما يعطيه سياق الآية ويؤيده الآية السابقة التي تذكر كفرهم بالقرآن، وعلى هذا فالآية تعد إراءة آيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين بها كون القرآن حقاً، والآيات التي شأنها إثبات حقيّة القرآن هي الحوادث والمواعيد التي أخبر القرآن أنها ستقع كإخباره بأن الله سينصر نبيه ﷺ والمؤمنين ويمكن لهم في الأرض ويظهر دينهم على الدين كله وينتقم من مشركي قريش الى غير ذلك.

فأمر الله تعالى نبيه ﷺ بالهجرة الى المدينة وقد اشتد الأمر عليه وعلى من آمن به غايتها فلا سماء تظلهم ولا أرض تقلهم ثم قتل صناديد قريش في بدر ولم يزل يرفع ذكره ويفتح على يديه حتى فتح مكة ودانت له جزيرة العرب ثم فتح بعد رحلته للمسلمين معظم المعمورة فأرى سبحانه المشركين آياته في الآفاق وهي النواحي التي فتحها للمسلمين ونشر فيها دينهم، وفي أنفسهم وهو قتلهم الذريع في بدر.

وليست هذه آيات في أنفسها فكم من فتح وغلبة يذكره التاريخ ومقاتل ذريعة يقصها لكنها آيات بما أن الله سبحانه وعد بها والقرآن الكريم أخبر بها قبل وقوعها ثم وقعت على ما أخبر بها.

ويمكن أن يكون المراد بإراءة الآيات وتبين الحق بذلك ما يستفاد من آيات أُخرى أن الله سيظهر دينه بتمام معنى الظهور على الدين كله فلا يعبد على الأرض إلا الله وحده وتظل السعادة على النوع الإنساني وهي الغاية لخلقتهم، وقد تقدم استفادة ذلك من قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾ الآية (النور / ٥٥)؛ وغيره وأيدناه بالدليل العقلي.

والفرق بين الوجهين أن وجه الكلام على الأول الى مشركي مكة ومن يتبعهم خاصة وعلى الثاني الى مشركي الامة عامة والخطاب على أي حال اجتماعي، ويمكن الجمع بين

الوجهين.

ويمكن أن يكون المراد ما يشاهده الإنسان في آخر لحظة من لحظات حياته الدنيا حيث تطير عنه الأوهام وتضل عنه الدعاوي وتبطل الأسباب ولا يبقى إلا الله عز اسمه ويؤيده ذيل الآية والآية التالية، وضمير «أنه الحق» على هذا لله سبحانه.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فاعل «لم يكف» هو «بربك» والباء زائدة، و«أنه على كل شيء شهيد» بدل من الفاعل، والاستفهام للإنكار، والمعنى أوَلم يكف في تبين الحق كون ربك مشهوداً على كل شيء إذ ما من شيء إلا وهو فقير من جميع جهاته اليه متعلق به وهو تعالى قائم به قاهر فوقه فهو تعالى معلوم لكل شيء وإن لم يعرفه بعض الأشياء.

واتصال الجملة أعني قوله: «أوَلم يكف بربك» الخ؛ بقوله: «سنريهم» الخ؛ على الوجه الأخير من الوجوه الثلاثة الماضية ظاهر، وأما على الوجهين الأولين فلعل الوجه فيه أن المشركين إنما كفروا بالقرآن لدعوته الى التوحيد فانتقل من الدلالة على حقيّة القرآن للدلالة على حقيّة ما يدعو اليه الى الدلالة على حقيّة ما يدعو اليه مستقيماً من غير واسطة كأنه قيل: سنريهم آياتنا ليتبين لهم أن القرآن الذي يخبرهم بها حق فيتبين أن ربك واحد لا شريك له ثم قيل: وهذا طريق بعيد هناك ما هو أقرب منه أوَلم يكفهم أن ربك مشهود على كل شيء؟

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ الخ؛ الذي يفيده السياق أن في الآية تنبيهاً على أنهم لا ينتفعون بالاحتجاج على وحدانيته تعالى بكونه شهيداً على كل شيء وهو أقوى براهين التوحيد وأوضحها لمن تعقّل لأنهم في مرية وشك من لقاء ربهم وهو كونه تعالى غير محجوب بصفاته وأفعاله عن شيء من خلقه.

ثم نبه بقوله: «ألا إنه بكل شيء محيط» على ما يرتفع به هذه المرية وتنبت من أصلها وهو

إحاطته تعالى بكل شيء على ما يليق بساحة قدسه وكبريائه فلا يخلو عنه مكان وليس في مكان ولا يفقده شيء وليس في شيء.

سورة الشورى مكية وهي ثلاث وخمسون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● حٰمٓ.

٢ ● عٓسٓقٓ.

٣ ● كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللّٰهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

٤ ● لَهُ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمٰا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.

٥ ● تَكٰادُ السَّمٰوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلاٰ إِنَّ اللّٰهَ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

٦ ● وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ اللّٰهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمٰا أَنْتَ
عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ.

بيان:

تتكلم السورة حول الوحي الذي هو نوع تكليم من الله سبحانه لأنبيائه ورسله كما يدل عليه ما في مفتتحها من قوله: «كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك الله» الآية: وما في مختتمها من قوله: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً﴾ الخ: الآيات، ورجوع الكلام اليه مرة بعد أخرى في قوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً﴾ الآية: وقوله: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً﴾ الآية: وقوله: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾ الآية: وما يتكرر في السورة من حديث الرزق على ما سيجيء.

فالوحي هو الموضوع الذي يجرى عليه الكلام في السورة وما فيها من التعرض لآيات التوحيد وصفات المؤمنين والكفار وما يستقبل كلاً من الفريقين في معادهم ورجوعهم الى الله سبحانه مقصود بالقصد الثاني وكلام جره كلام.

والسورة مكية وقد استثنى قوله: ﴿والذين استجابوا لربهم﴾ الى تمام ثلاث آيات، وقوله: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾ الى تمام أربع آيات وسيجيء الكلام فيها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ من الحروف المقطعة الواقعة في أوائل عدة من السور القرآنية، وذلك من مختصات القرآن الكريم لا يوجد في غيره من الكتب السماوية.

وقد اختلف المفسرون من القدماء والمتأخرين في تفسيرها وقد نقل عنهم الطبرسي في مجمع البيان أحد عشر قولاً في معناها:

أحدها: أنها من المتشابهات التي استأثر الله سبحانه بعلمها لا يعلم تأويلها إلا هو.

الثاني: أن كلاً منها اسم للسورة التي وقعت في مفتتحها.

الثالث: أنها أسماء القرآن أي لمجموعه.

الرابع: أن المراد بها الدلالة على أسماء الله تعالى فقوله: «الم» معناه أنا الله أعلم، وقوله: «المر» معناه أنا الله أعلم وأرى، وقوله: «المص» معناه أنا الله أعلم وأفصل، وقوله: «كهيعص» الكاف من الكافي، والهاء من الهادي، والياء من الحكيم، والعين من العليم، والصاد من الصادق، وهو مروي عن ابن عباس، والحروف المأخوذة من الأسماء مختلفة في أخذها فنها ما هو مأخوذ من أول الاسم كالكاف من الكافي، ومنها ما هو مأخوذ من وسطه كالياء من الحكيم، ومنها ما هو مأخوذ من آخر الكلمة كالميم من أعلم.

الخامس: أنها أسماء لله تعالى مقطعة لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم تقول: الٓر وحمٓ ونٓ يكون الرحمن وكذلك سائرها إلا أنا لا نقدر على تأليفها وهو مروى عن سعيد بن جبير.

السادس: أنها أقسام الله بها فكأنه هو أقسم بهذه الحروف على أن القرآن كلامه وهي شريفة لكونها مباني كتبه المنزلة، وأسمائه الحسنى وصفاته العليا، واصول لغات الامم على اختلافها.

السابع: أنها إشارات الى آلائه تعالى وبلائه ومدة الأقوام وأعمارها وآجالهم.

الثامن: أن المراد بها الإشارة الى بقاء هذه الامة على ما يدل عليه حساب الجمل.

التاسع: أن المراد بها حروف المعجم وقد استغنى بذكر ما ذكر منها عن ذكر الباقي كما يقال: اب ويراد به جميع الحروف.

العاشر: أنها تسكيت للكفار لأن المشركين كانوا تواصوا فيما بينهم أن لا يستمعوا للقرآن وأن يلغوا فيه كما حكاه القرآن عنهم بقوله: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ الآية؛ فربما صفروا وربما صفقوا وربما غلطوا فيه ليغلطوا النبي ﷺ في تلاوته، فأنزل الله تعالى هذه الحروف فكانوا إذا سمعوها استغربوها واستمعوا اليها وتفكروا فيها واشتغلوا بها عن شأنهم فوقع القرآن في مسامعهم.

الحادي عشر: أنها من قبيل تعداد حروف التهجي والمراد بها أن هذا القرآن الذي عجز تم عن معارضته هو من جنس هذه الحروف التي تتحاورون بها في خطبكم وكلامكم فإذا لم تقدروا عليه فاعلموا أنه من عند الله تعالى، وإنما كررت الحروف في مواضع استظهاراً في الحجة، وهو مروي عن قطرب واختاره أبو مسلم الإصبهاني واليه يميل جمع من المتأخرين.

فهذه أحد عشر قولاً وفيما نقل عنهم ما يمكن أن يجعل قولاً آخر كما نقل عن ابن عباس في «الم» أن الألف اشارة الى الله واللام الى جبريل والميم الى محمد ﷺ، وما عن بعضهم أن الحروف المقطعة في أوائل السور المفتتحة بها إشارة الى الغرض المبين فيها كأن يقال: إن «ن» إشارة الى ما تشتمل عليه السورة من النصر الموعود للنبي ﷺ، و«ق» إشارة الى القرآن أو القهر الإلهي المذكور في السورة، وما عن بعضهم أن هذه الحروف للإيقاظ.

والحق أن شيئاً من هذه الأقوال لا تطمئن اليه النفس:

أما القول الأول فقد تقدم في بحث المحكم والمتشابه في أوائل الجزء الثالث من الكتاب أنه أحد الأقوال في معنى المتشابه، وعرفت أن الإحكام والتشابه من صفات الآيات التي لها دلالة لفظية على مداليلها، وأن التأويل ليس من قبيل المداليل اللفظية بل التأويلات حقائق واقعية تنبعث من مضامين البيانات القرآنية أعم من محكماتها ومتشابهاتها، وعلى هذا فلا هذه الحروف المقطعة متشابهات ولا معانيها المراد بها تأويلات لها.

وأما الأقوال العشرة الاخر فإنما هي تصويرات لا تتعدى حد الاحتمال ولا دليل يدل على شيء منها.

نعم في بعض الروايات المنسوبة الى النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام بعض التأييد للقول الرابع والسابع والثامن والعاشر وسيأتي نقلها والكلام في مفادها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

والذي لا ينبغي أن يغفل عنه أن هذه الحروف تكررت في سور شتى وهي تسع وعشرون

سورة افتتح بعضها بحرف واحد وهي ص و ق و ن، وبعضها بحرفين وهي سور طه وطس ويس وحم. وبعضها بثلاثة أحرف كما في سورتي «الم» و«الر» وطسم وبعضها بأربعة أحرف كما في سورتي «المص» و«المر» وبعضها بخمسة أحرف كما في سورتي «كهيعص» و«حمعسق».

وتختلف هذه الحروف أيضاً من حيث إن بعضها لم يقع إلا في موضع واحد مثل «ن» وبعضها واقعة في مفتتح عدة من السور مثل «الم» و«المر» و«طس» و«حم».

ثم إنك إن تدبرت بعض التدبر في هذه السور التي تشترك في الحروف المفتتح بها مثل الميمات والراآت والطواسين والحواميم. وجدت في السور المشتركة في الحروف من تشابه المضامين وتناسب السياقات ما ليس بينها وبين غيرها من السور.

ويؤكد ذلك ما في مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ كما في مفتتح الحواميم من قوله: «تنزيل الكتاب من الله» أو ما هو في معناه، وما في مفتتح الراآت من قوله: «تلك آيات الكتاب» أو ما هو في معناه، ونظير ذلك واقع في مفتتح الطواسين، وما في مفتتح الميات من نفي الريب عن الكتاب أو ما هو في معناه.

ويمكن أن يحدس من ذلك أن بين هذه الحروف المقطعة وبين مضامين السور المفتتحة بها ارتباطاً خاصاً. ويؤيد ذلك ما نجد أن سورة الأعراف المصدرة بالمص في مضمونها كأنها جامعة بين مضامين الميمات وص، وكذا سورة الرعد المصدرة بالمر في مضمونها كأنها جامعة بين مضامين الميمات والراآت.

ويستفاد من ذلك أن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه وبين رسوله ﷺ خفية عنا لا سبيل لأفهامنا العادية اليها إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها وبين المضامين المودعة في السور ارتباطاً خاصاً.

ولعل المتدبر لو تدبر في مشتركات هذه الحروف وقايس مضامين السور التي وقعت فيها

بعضها الى بعض تبين له الأمر أزيد من ذلك.

ولعل هذا معنى ما روته أهل السنة عن علي عليه السلام ـ على ما في المجمع ـ أن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي.

قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ـ الى قوله ـ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ مقتضى كون غرض السورة بيان الوحي بتعريف حقيقته والإشارة الى غايته وآثاره أن تكون الإشارة بقوله: «كذلك» الى شخص الوحي بالقاء هذه السورة الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيكون تعريفاً لمطلق الوحي بتشبيهه بفرد مشار اليه مشهود للمخاطب فيكون كقولنا في تعريف الإنسان مثلاً هو كزيد.

وعليه يكون قوله: «اليك والى الذين من قبلك» في معنى اليكم جميعاً. وإنما عبر بما عبر للدلالة على أن الوحي سنة إلهية جارية غير مبتدعة. والمعنى أن الوحي الذي نوحيه اليكم معشر الأنبياء ـ نبياً بعد نبي سنة جارية ـ هو كهذا الذي تجده وتشاهده في تلقي هذه السور.

وقد أخذ جمهور المفسرين قوله: «كذلك» إشارة الى الوحي لا من حيث نفسه بل من حيث ما يشتمل عليه من المفاد فيكون في الحقيقة إشارة الى المعارف التي تشتمل عليها السورة وتتضمنها واستنتجوا من ذلك أن مضمون السورة مما أوحاه الله تعالى الى جميع الأنبياء فهو من الوحي المشترك فيه. وقد عرفت أنه لا يوافق غرض السورة ويأباه سياق آياتها.

وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ خمسة من أسمائه الحسنى، وقوله: «له ما في السماوات وما في الأرض» في معنى المالك، وهو واقع موقع التعليل لأصل الوحي ولكونه سنة إلهية جارية فالذي يعطيه الوحي شرع إلهي فيه هداية الناس الى سعادة حياتهم في الدنيا والآخرة وليس المانع أن يمنعه تعالى عن ذلك لأنه عزيز غير مغلوب فيما يريد، ولا هو تعالى يهمل أمر هداية عباده لأنه حكيم

متقن في أفعاله ومن إتقان الفعل أن السياق الى غايته.

ومن حقه تعالى أن يتصرف فيهم وفي امورهم كيف يشاء، لأنه مالكهم وله أن يعبدهم ويستعبدهم بالأمر والنهي لأنه علي عظيم فلكل من الأسماء الخمسة حظه من التعليل، وينتج مجموعها أنه وليهم من كل جهة لا ولي غيره.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمٰوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ الخ: التفطر التشقق من الفطر بمعنى الشق.

الذي يهدي اليه السياق والكلام مسرود لبيان حقيقة الوحي وغايته وآثاره أن يكون المراد من تفطر السماوات من فوقهن تفطرها بسبب الوحي النازل من عند الله العلي العظيم المار بهن سماء سماء حتى ينزل على الأرض فإن مبدأ الوحي هو الله سبحانه والسماوات طرائق الى الأرض قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾ (المؤمنون / ١٧).

والوجه في تقييد «يتفطرن» بقوله: «من فوقهن» ظاهر فإن الوحي ينزل عليهن من فوقهن من عند من له العلو المطلق والعظمة المطلقة فلو تفطرن كان ذلك من فوقهن.

على ما فيه من إعظام أمر الوحي وإعلائه فإنه كلام العلي العظيم فلكونه كلام ذي العظمة المطلقة تكاد السماوات يتفطرن بنزوله ولكونه كلاماً نازلاً من عند ذي العلو المطلق يتفطرن من فوقهن لو تفطرن.

فالآية في إعظام أمر كلام الله من حيث نزوله ومروره على السماوات نظيرة قوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾ (سبأ / ٢٣) في إعظامه من حيث تلقي ملائكة السماوات إياه، ونظيرة قوله: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ (الحشر / ٢١) في إعظامه على فرض نزوله على جبل ونظيرة قوله: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ (المزمل / ٥) في استثقاله واستصعاب حمله. هذا

ما يعطيه السياق.

وقوله: ﴿وَالْمَلٰئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ينزهونه تعالى عما لا يليق بساحة قدسه ويثنون عليه بجميل فعله، ومما لا يليق بساحة قدسه أن يهمل أمر عباده فلا يهديهم بدين يشرعه لهم بالوحي وهو منه فعل جميل، ويسألونه تعالى أن يغفر لأهل الأرض، وحصول المغفرة إنما هو بحصول سببها وهو سلوك سبيل العبودية بالاهتداء بهداية الله سبحانه فسؤالهم المغفرة لهم مرجعه الى سؤال أن يشرع لهم ديناً يغفر لمن تدين به منهم فالمعنى والملائكة يسألون الله سبحانه أن يشرع لمن في الأرض من طريق الوحي ديناً يدينون به فيغفر لهم بذلك.

ويشهد على هذا المعنى وقوع الجملة في سياق بيان صفة الوحي وكذا تعلق الاستغفار بمن في الأرض إذ لا معنى لطلب المغفرة منهم لمطلق أهل الأرض حتى لمن قال: ﴿اتخذ الله ولداً﴾ وقد حكى الله تعالى عنهم: ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ الآية (المؤمن / ٧) فالمتعين حمل سؤال المغفرة على سؤال سببها وهو تشريع الدين لأهل الأرض ليغفر لمن تدين به.

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي أن الله سبحانه لاتصافه بصفتي المغفرة والرحمة وتسميه باسمي الغفور الرحيم يليق بساحة قدسه أن يفعل بأهل الأرض ما ينالون به المغفرة والرحمة من عنده وهو أن يشرع لهم ديناً يهتدون به الى سعادتهم من طريق الوحي والتكليم.

قيل: وفي قوله: «ألا ان الله» الخ؛ إشارة الى قبول استغفار الملائكة وأنه سبحانه يزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمة.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ لما استفيد من الآيات السابقة أن الله تعالى هو الولي لعباده لا ولي غيره

وهو يتولى أمر من في الأرض منهم بتشريع دين لهم يرتضيه من طريق الوحي الى أنبيائه على ما يقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا، ولازم ذلك أن لا يتخذ عباده أولياء من دونه، أشار في هذه الآية الى حال من اتخذ من دونه أولياء باتخاذهم شركاء له في الربوبية والالوهية فذكر أنه ليس بغافل عما يعملون وأن أعمالهم محفوظة عليهم سيؤاخذون بها، وليس على النبي ﷺ إلا البلاغ من غير أن يكون وكيلاً عليهم مسؤولاً عن أعمالهم.

فقوله: ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ اي يحفظ عليهم شركهم وما يتفرع عليه من الأعمال السيئة.

فقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي مفوضاً اليك أعمالهم حتى تصلحها لهم بهدايتهم الى الحق، والكلام لا يخلو من نوع من التسلية للنبي ﷺ[1].

٧ ❁ وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرىٰ وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ.

٨ ❁ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ.

٩ ❁ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتىٰ وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

١٠ ❁ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

---

١. الشورى ١ ـ ٦: بحث روائي في الحروف المقطعة؛ اسماء لله الحسنى.

١١ ● فَاطِرُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً وَمِنَ الْأَنْعٰامِ أَزْوٰاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

١٢ ● لَهُ مَقٰالِيدُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرىٰ وَمَنْ حَوْلَهٰا﴾الإشارة الى الوحي المفهوم من سابق السياق. وام القرى هي مكة المشرفة والمراد بإنذار ام القرى إنذار أهلها، والمراد بمن حولها سائر أهل الجزيرة ممن هو خارج مكة كما يؤيده توصيف القرآن بالعربية.

وذلك أن الدعوة النبوية كانت ذات في توسعها فابتدأت الدعوة العلنية بدعوة العشيرة الأقربين كما قال: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ (الشعراء / ٢١٤) ثم توسعت فتعلقت بالعرب عامة كما قال: ﴿**قرآنا عربياً لقوم يعلمون**﴾ (حم السجدة / ٣) ثم بجميع الناس كما قال: ﴿**وأنزل إلى هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ**﴾.

ومن الدليل على ما ذكرناه من الأمر بالتوسع تدريجاً قوله تعالى: ﴿**قل ما أسألكم عليه من أجر** ـ الى أن قال ـ **إن هو إلا ذكر للعالمين**﴾ (ص / ٨٧) فإن الخطاب على ما يعطيه سياق السورة لكفار قريش يقول سبحانه إنه ذكر للعالمين لا يختص ببعض دون بعض، فإذا كان للجميع فلا معنى لأن يسأل بعضهم ـ كالنبي ﷺ ـ بعضاً عليه أجراً.

على أن تعلق الدعوة بأهل الكتاب وخاصة باليهود والنصارى من ضروريات القرآن،

وكذا إسلام رجال من غير العرب كسلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي من ضروريات التاريخ.

وقيل المراد بقوله: «من حولها» سائر الناس من أهل قرى الأرض كلها ويؤيده التعبير عن مكة بام القرى.

والآية ـ كما ترى ـ تعرف الوحي بغايته التي هي إنذار الناس من طريق الإلقاء الإلهي وهو النبوة فالوحي إلقاء إلهي لغرض النبوة والإنذار.

قوله تعالى: ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ عطف على «تنذر» السابق وهو من عطف الخاص على العام لأهميته كأنه قيل: لتنذر الناس وتخوفهم من الله وخاصة من سخطه يوم الجمع.

وقوله: ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ مفعول ثان لقوله: «تنذر» وليس بظرف له وهو ظاهر. ويوم الجمع هو يوم القيامة قال تعالى: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس ـ الى أن قال ـ فمنهم شقي وسعيد﴾ (هود / ١٠٥).

وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ في مقام التعليل ودفع الدخل كأنه قيل: لماذا ينذرهم يوم الجمع؟ فقيل «فريق في الجنة وفريق في السعير» أي إنهم يتفرقون فريقين: سعيد مثاب وشقي معذب فلينذروا حتى يتحرزوا سبيل الشقاء والهبوط في مهبط الهلكة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شٰاءَ اللّٰهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً﴾ الى آخر الآية لما كانت الآية مسوقة لبيان لزوم الإنذار والنبوة من جهة تفرق الناس فريقين يوم القيامة كان الأسبق الى الذهن من جعلهم امة واحدة مطلق رفع التفرق والتميز من بينهم بتسويتهم جميعاً على صفة واحدة من غير فرق وميز، ولم تقع عند ذلك حاجة الى النبوة والإنذار.

وقوله: ﴿وَلٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشٰاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظّٰالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ

وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ استدراك يبين فيه أن سنته تعالى جرت على التفريق ولم يشأ جعلهم امة واحدة يدل على ذلك قوله: «يدخل من يشاء» الدال على الاستمرار، ولم يقل: ولكن أدخل ونحوه.

وقد قوبل في الآية قوله: «من يشاء» بقوله: «والظالمون» فالمراد بمن يشاء غير الظالمين وقد فسر الظالمين يوم القيامة بقوله: ﴿ فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون ﴾ (الأعراف / ٤٥) فهم المعاندون المنكرون للمعاد.

وقوبل أيضاً بين الإدخال في الرحمة وبين نفي الولي والنصير فالمدخلون في رحمته هم الذين وليهم الله، والذين ما لهم من ولي ولا نصير هم الذين لا يدخلهم الله في رحمته، وأيضاً الرحمة هي الجنة وانتفاء الولاية والنصرة يلازم السعير.

فمحصل معنى الآية: أن الله سبحانه إنما قدر النبوة والإنذار المتفرع على الوحي لمكان ما سيعتريهم يوم القيامة من التفرق فريقين، ليتحرزوا من الدخول في فريق السعير.

ولو أراد الله لجعلهم امة واحدة فاستوت حالهم ولم يتفرقوا يوم القيامة فريقين فلم يكن عند ذلك ما تقتضي النبوة والإنذار فلم يكن وحي لكنه تعالى لم يرد ذلك بل جرت سنته على أن يتولى أمر قوم منهم وهم غير الظالمين فيدخلهم الجنة وفي رحمته، ولا يتولى أمر آخرين وهم الظالمون فيكونوا الاولى لهم ولا نصير ويصيروا الى السعير لا مخلص لهم من النار.

فقد تحصل مما تقدم أن المراد بجعلهم امة واحدة هو التسوية بينهم بإدخال الجميع في الجنة وإدخال الجميع في السعير أي إنه تعالى ليس بملزم بإدخال السعداء في الجنة والأشقياء في النار فلو لم يشأ لم يفعل لكنه شاء أن يفرق بين الفريقين وجرت سنته على ذلك ووعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد ومع ذلك فقدرته المطلقة باقية على حالها لم تنسلب ولم تتغير فقوله: «وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه» الى تمام الآيتين في معنى قوله في سورة هود: ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ الى تمام سبع آيات فراجع

وتدبر[١].

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ـ الى قوله ـ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ تفيد الانكار كما ذكره الزمخشري. لما أفاد في الآية السابقة أن الله سبحانه يتولى أمر المؤمنين خاصة فيدخلهم في رحمته وأن الظالمين هم الكافرون المعاندون لا ولي لهم تعرض في هذه الآية لاتخاذهم أولياء يدينون لهم ويعبدونهم من دونه وكان يجب أن يتخذوا الله ولياً يدينون له ويعبدونه فأنكر عليهم ذلك واحتج على وجوب اتخاذه ولياً بالحجة بعد الحجة وذلك قوله: «فالله هو الولي» الخ.

فقوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ تعليل للانكار السابق لاتخاذهم من دونه أولياء فيكون حجة لوجوب إتخاذه ولياً، والجملة ـ فالله هو الولي ـ تفيد حصر الولاية في الله وقد تبينت الحجة على أصل ولايته وانحصارها فيه من قوله في الآيات السابقة: ﴿العزيز الحكيم له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم﴾ كما أشرنا اليه في تفسير الآيات.

والمعنى: أنه تعالى ولي ينحصر فيه الولاية فمن الواجب على من يتخذ ولياً أن يتخذه وليا ولا يتعداه الى غيره إذ لا ولي غيره.

وقوله: ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ حجة ثانية على وجوب اتخاذه تعالى وحده ولياً، ومحصله أن عمدة الغرض في اتخاذ الولي والتدين له بعبوديته التخلص من عذاب السعير والفوز بالجنة يوم القيامة والمثيب والمعاقب يوم القيامة هو الله الذي يحيي الموتى فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم فهو الذي يجب أن يتخذ ولياً دون أوليائهم الذين هم أموات غير أحياء ولا يشعرون أيان يبعثون.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ حجة ثالثة على وجوب اتخاذه تعالى ولياً

---

١. الشورى ٧ ـ ١٢: بحث في المراد من جعل الناس امّة واحدة.

دون غيره، ومحصله أن من الواجب في باب الولاية أن يكون للولي قدرة على ما يتولاه من شؤن من يتولاه واموره. والله سبحانه على كل شيء قدير ولا قدرة لغيره إلا مقدار ما أقدره الله عليه وهو المالك لما ملكه والقادر على ما عليه أقدره فهو الولي لا ولي غيره تعالى وتقدس.

وقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ حجة رابعة على كونه تعالى ولياً لا ولي غيره. وحكم الحاكم بين المختلفين هو إحكامه وتثبيته الحق المضطرب بينهما بسبب تخالفهما بالاثبات والنفي. والاختلاف ربما كان في عقيدة كالاختلاف في أن الإله واحد أو كثير، وربما كان في عمل أو ما يرجع اليه كالاختلاف في امور المعيشة وشؤن الحياة فهو أعني الحكم يساوق القضاء مصداقاً وإن اختلفا مفهوماً.

ثم الحكم والقضاء إنما يتم إذا ملكه الحاكم بنوع من الملك والولاية وإن كان بتمليك المختلفين له ذلك كالمتنازعين إذا رجعا الى ثالث فاتخذاه حكماً ليحكم بينهما ويتسلما ما يحكم به فقد ملكاه الحكم بما يرى وأعطياه من نفسهما القبول والتسليم فهو وليهما في ذلك.

والله سبحانه هو المالك لكل شيء لا مالك سواه لكون كل شيء بوجوده وآثار وجوده قائماً به تعالى فله الحكم والقضاء بالحق قال تعالى: **﴿كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾** (القصص / ٨٨)، وقال: **﴿إن الله يحكم ما يريد﴾** (المائدة / ٢) وقال: **﴿الحق من ربك﴾** (آل عمران / ٦٠).

وحكمه تعالى إما تكويني وهو تحقيقه وتثبيته المسببات قبال الأسباب المجتمعة عليها المتنازعة فيها بتقديم ما نسميه سبباً تاماً على غيره قال تعالى حاكياً عن يعقوب ﷺ: **﴿إن الحكم إلا لله عليه توكلت﴾** (يوسف / ٦٧) وإما تشريعي كالتكاليف الموضوعة في الدين الإلهي الراجعة الى الاعتقاد والعمل قال تعالى: **﴿إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾** (يوسف / ٤٠).

وهناك قسم ثالث من الحكم يمكن أن يعد من كل من القسمين السابقين بوجه وهو حكمه تعالى يوم القيامة بين عباده فيما اختلفوا فيه وهو إعلانه وإظهاره الحق يوم القيامة لأهل الجمع يشاهدونه مشاهدة عيان وإيقان فيسعد به وبآثاره من كان مع الحق ويشق بالاستكبار عليه وتبعات ذلك من استكبر عليه قال تعالى: ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (البقرة / ١١٣).

ثم إن اختلاف الناس في عقائدهم وأعمالهم اختلاف تشريعي لا يرفعه إلا الأحكام والقوانين التشريعية ولولا الاختلاف لم يوجد قانون كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ (البقرة / ٢١٣)، وقد تبين أن الحكم التشريعي لله سبحانه فهو الولي في ذلك فيجب أن يتخذ وحده ولياً فيعبد ويدان بما أنزله من الدين.

وهذا معنى قوله: «وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله» ومحصل الحجة أن الولي الذي يعبد ويدان له يجب أن يكون رافعاً لاختلافات من يتولونه مصلحاً لما فسد من شؤن مجتمعهم سائقاً لهم الى سعادة الحياة الدائمة بما يضعه عليهم من الحكم وهو الدين، والحكم في ذلك الى الله سبحانه، فهو الولي الذي يجب أن يتخذ ولياً لا غير.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ كلام محكي للنبي ﷺ، والإشارة بذلكم الى من أُقيمت الحجج في الآيتين على وجوب اتخاذه ولياً وهو الله سبحانه، ولازم ولايته ربوبيته.

لما أُقيمت الحجج على أنه تعالى هو الولي لا ولي غيره أمر ﷺ بإعلام أنه الله وأنه اتخذه ولياً بالاعتراف له بالربوبية التي هي ملك التدبير ثم عقب ذلك بالتصريح بما للاتخاذ المذكور

من الآثار وهو قوله: «عليه توكلت واليه أُنيب».

وذلك أن ولاية الربوبية تتعلق بنظام التكوين بتدبير الامور وتنظيم الأسباب والمسببات بحث يتعين بها للمخلوق المدبر كالإنسان مثلاً ما قدر له من الوجود والبقاء، وتتعلق بنظام التشريع وهو تدبير أعمال الإنسان بجعل قوانين وأحكام يراعيها الإنسان بتطبيق أعماله عليها في مسير حياته لتنتهي به الى كمال سعادته.

ولازم اتخاذه تعالى رباً ولياً من جهة التكوين إرجاع أمر التدبير اليه بالانقطاع عن الأسباب الظاهرية والركون اليه من حيث إنه سبب غير مغلوب ينتهي اليه كل سبب وهذا هو التوكل، ومن جهة التشريع الرجوع الى حكمه في كل واقعة يستقبله الانسان في مسير حياته وهذا هو الإنابة فقوله: «عليه توكلت واليه أُنيب» أي أرجع في جميع اموري، تصريح بإرجاع الأمر اليه تكويناً وتشريعاً.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الى آخر الآية: لما صرح بأنه تعالى هو ربه لقيام الحجج على أنه هو الولي وحده عقب ذلك بإقامة الحجة في هذه الآية والتي بعدها على ربوبيته تعالى وحده.

ومحصل الحجة: أنه تعالى موجد الأشياء وفاطرها بالإخراج من كتم العدم الى الوجود وقد جعلكم أزواجاً فكثركم بذلك وجعل من الأنعام أزواجاً فكثرها بذلك لتنتفعوا بها، وهذا خلق وتدبير، وهو سميع لما يساله خلقه من الحوائج فيقضي لكل ما يستحقه من الحاجة، بصير لما يعمله خلقه من الأعمال فيجازيهم بما عملوا وهو الذي يملك مفاتيح خزائن السماوات والأرض التي ادخر فيها مالها من خواص وجودها وآثاره مما يتألف منها بظهورها النظام المشهود وهو الذي يرزق المرزوقين فيوسع في رزقهم ويضيق عن علم منه بذلك. وهذا كله من التدبير فهو الرب المدبر للامور.

فقوله: «فاطر السماوات والأرض» أي موجدها من كتم العدل على سبيل الإبداع.

وقوله: ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ وذلك بخلق الذكر والانثى للذين يتم بتزواجهما أمر التوالد والتناسل وتكثر الأفراد «ومن الأنعام أزواجاً» أي وجعل من الأنعام أزواجاً «يذرؤكم فيه» أي يكثركم في هذا الجعل. والخطاب في «يذرؤكم» للإنسان والأنعام بتغليب جانب العقلاء على غيرهم كما ذكره الزمخشري.

وقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ أي ليس مثله شيء. فالكاف زائدة للتأكيد وله نظائر كثيرة في كلام العرب.

وقوله: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أي السميع لما يرفع اليه من مسائل خلقه البصير لأعمال خلقه قال تعالى: ﴿ يسأله من في السماوات والأرض ﴾ (الرحمن / ٢٩). وقال: ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ (إبراهيم / ٣٤). وقال: ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ (الحديد / ٤).

قوله تعالى: ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الى آخر الآية المقاليد المفاتيح وفي إثبات المقاليد للسماوات والأرض دلالة على أنها خزائن لما يظهر في الكون من الحوادث والآثار الوجودية.

وقوله: ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ بسط الرزق توسعته وقدره تضييقه والرزق كل ما يمد به البقاء ويرتفع به حاجة من حوائج الوجود في استمراره.

وتذييل الكلام بقوله: «إنه بكل شيء عليم» للإشارة الى أن الرزق واختلافه في موارده بالبسط والقدر ليس على سبيل المجازفة جهلاً بل عن علم منه تعالى بكل شيء فرزق كل مرزوق على علم منه بما يستدعيه المرزوق بحسب حاله والرزق بحسب حاله وما يحف بهما من الأوضاع والأحوال الخارجية، وهذا هو الحكمة فهو يبسط ويقدر بالحكمة.

١٣ ● شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ.

١٤ ● وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ.

١٥ ● فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

١٦ ● وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يقال: شرع الطريق شرعاً أي سواه طريقاً واضحاً بيناً. قال الراغب: الوصية التقدم الى الغير بما يعمل مقترناً بوعظ من قولهم: أرض واصية متصلة النبات ويقال: أوصاه ووصاه انتهى. وفي معناه إشعار بالأهمية فما كل أمر يوصى به وإنما يختار لذلك ما يهتم به الموصي ويعتني بشأنه.

فقوله: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا» أي بين وأوضح لكم من الدين وهو سنة الحياة ما قدم وعهد الى نوح مهتماً به، واللائح من السياق أن الخطاب للنبي ﷺ وامته، وأن المراد مما وصى به نوحا شريعة نوح عليه السلام.

وقوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ظاهر المقابلة بينه وبين نوح عليه السلام أن المراد بما أوحى اليه ما اختصت به شريعته من المعارف والأحكام، وإنما عبر عن ذلك بالإيحاء دون التوصية لأن التوصية كما تقدم إنما تتعلق من الامور بما يهتم به ويعتني بشأنه خاصة وهو أهم العقائد والأعمال، وشريعته ﷺ جامعة لكل ما جل ودق محتوية على الأهم وغيره بخلاف شرائع غيره فقد كانت محدودة بما هو الأهم المناسب لحال اممهم والموافق لمبلغ استعدادهم.

والالتفات في قوله: «والذي أوحينا» من الغيبة الى التكلم مع الغير للدلالة على العظمة فإن العظماء يتكلمون عنهم وعن خدمهم وأتباعهم.

وقوله: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ عطف على قوله: «وما وصى به» والمراد به ما شرع لكل واحد منهم عليهم السلام.

والترتيب الذي بينهم عليهم السلام في الذكر على وفق ترتيب زمنهم فنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام، وإنما قدم ذكر النبي ﷺ للتشريف والتفضيل كما في قوله تعالى: **﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾** (الأحزاب / ٧) وإنما قدم نوحا وبدء به للدلالة على قدم هذه الشريعة وطول عهدها.

ويستفاد من الآية امور:

أحدها: أن السياق بما أنه يفيد الامتنان وخاصة بالنظر الى ذيل الآية والآية التالية يعطي أن الشريعة المحمدية جامعة للشرائع الماضية ولا ينافيه قوله تعالى: **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾** (المائدة / ٤٨) لأن كون الشريعة شريعة خاصة لا ينافي جامعيتها.

الثاني: أن الشرائع الإلهية المنتسبة الى الوحي إنما هي شريعة نوح وإبراهيم وموسى

وعيسى ومحمد ﷺ إذ لو كان هناك غيرها لذكر قضاء لحق الجامعية المذكورة.

ولازم ذلك أولاً: أن لا شريعة قبل نوح ﷺ بمعنى القوانين الحاكمة في المجتمع الانساني الرافعة للاختلافات الاجتماعية وقد تقدم نبذة من الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين﴾ الآية (البقرة / ٢١٣).

وثانياً: أن الأنبياء المبعوثين بعد نوح كانوا على شريعته الى بعثة إبراهيم وبعدها على شريعة إبراهيم الى بعثة موسى وهكذا.

الثالث: أن الأنبياء أصحاب الشرائع واولي العزم هم هؤلاء الخمسة المذكورون في الآية إذ لو كان معهم غيرهم لذكر فهؤلاء سادة الأنبياء ويدل على تقدمهم أيضاً قوله: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم﴾ (الأحزاب / ٧).

وقوله: «أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا» أن تفسيرية، وإقامة الدين حفظه بالاتباع والعمل واللام في الدين للعهد أي أقيموا هذا الدين المشروع لكم، وعدم التفرق فيه حفظ وحدته بالاتفاق عليه وعدم الاختلاف فيه.

لما كان شرع الدين لهم في معنى أمرهم جميعاً باتباعه والعمل به من غير اختلاف فسره بالأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه فكان محصله أن عليهم جميعاً إقامة الدين جميعاً وعدم التفرق والتشتت فيه بإقامة بعض وترك بعض، وإقامته الإيمان بجميع ما أنزل الله والعمل بما يجب عليه العمل به.

فجميع الشرائع التي أنزلها الله على أنبيائه دين واحد يجب إقامته وعدم التفرق فيه فأما الأحكام السماوية المشترك فيها الباقية ببقاء التكليف فمعنى الإقامة فيها ظاهر وأما الأحكام المشرعة في بعض هذه الشرائع المنسوخة في الشريعة اللاحقة فحقيقة الحكم المنسوخ أنه حكم ذو أمد خاص بطائفة من الناس في زمن خاص ومعنى نسخه تبين انتهاء أمده لا ظهور بطلانه قال تعالى: ﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾ (الأحزاب / ٤) فالحكم المنسوخ

حق دائماً غير أنه خاص بطائفة خاصة في زمن خاص يجب عليهم أن يؤمنوا به ويعملوا به ويجب على غيرهم أن يؤمنوا به فحسب من غير عمل وهذا معنى إقامته وعدم التفرق فيه.

فتبين أن الأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه في قوله: «أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» مطلق شامل لجميع الناس في جميع الأزمان.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ المراد بقوله: «ما تدعوهم اليه» دين التوحيد الذي كان يدعو اليه النبي ﷺ لا أصل التوحيد فحسب على ما تشهد به الآية التالية، والمراد بكبره على المشركين تحرجهم من قبوله.

وقوله: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ الاجتباء هو الجمع والاجتلاب، ومقتضى اتساق الضمائر أن يكون ضمير «اليه» الثاني والثالث راجعاً الى ما يرجع اليه الأول والمعنى الله يجمع ويجتلب الى دين التوحيد ـ وهو ما تدعوهم اليه ـ من يشاء من عباده ويهدي اليه من يرجع اليه فيكون مجموع قوله: «كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي اليه من يشاء» في معنى قوله: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم﴾ (الحج / ٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ الى آخر الآية: ضمير «تفرقوا» للناس المفهوم من السياق، والبغي الظلم أو الحسد، وتقييده بقوله: «بينهم» للدلالة على تداوله، والمعنى وما تفرق الناس الذين شرعت لهم الشريعة باختلافهم وتركهم الاتفاق إلا حال كون تفرقهم آخذاً ـ أو ناشئاً ـ من بعدما جاءهم العلم بما هو الحق ظلماً أو حسداً تداولوه بينهم.

وهذا هو الاختلاف في الدين المؤدي الى الانشعابات والتحزبات الذي ينسبه الله سبحانه في مواضع من كلامه الى البغي، وأما الاختلاف المؤدي الى نزول الشريعة وهو الاختلاف في شؤن الحياة والتفرق في امور المعاش فهو أمر عائد الى اختلاف طبائع الناس في مقاصدهم

وهو الذريعة الى نزول الوحي وتشريع الشرع لرفعه كما يشير اليه قوله: ﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين﴾ (البقرة / ٢١٣) كما تقدم في تفسير الآية.

وقوله: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمّىً لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ المراد بالكلمة مثل قوله: حين إهباط آدم عليه السلام الى الأرض ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ (البقرة / ٣٦).

والمعنى: ولولا أن الله قضى فيهم الاستقرار والتمتع في الأرض الى أجل سماه وعينه لقضى بينهم إثر تفرقهم في دينه وإنحرافهم عن سبيله لأهلكهم باستدعاء من هذا الذنب العظيم.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ ضمير «من بعدهم» لاولئك الذين تفرقوا من بعد علم بغياً بينهم وهم الأسلاف. والذين اورثوا الكتاب من بعدهم أخلافهم فأفاد الآية أن البادئين بالاختلاف المؤسسين للتفرقة كانوا على علم من الحق وإنما أبدعوا ما أبدعوا. بغياً بينهم. وأخلافهم الذين أُورثوا الكتاب من بعدهم في شك مريب ـ موقع في الريب ـ منه.

قوله تعالى: ﴿فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَهُمْ﴾ الى آخر الآية. تفريع على ما ذكر من شرع دين واحد لجميع الأنبياء واممهم ثم انقسام اممهم الى أسلاف اختلفوا في الدين عن علم بغياً، والى أخلاف شاكين مرتابين فيما اورثوه من الكتاب أي فلأجل أنه شرع لكم جميع ما شرع لمن قبلكم فادع ولأجل ما ذكر من تفرّق بعضهم بغياً وارتياب آخرين «فاستقم كما أُمرت ولا تتبع أهواءهم».

واللام في قوله: «فلذلك» للتعليل. وقيل: اللام بمعنى الى أي الى ما شرع لكم من الدين فادع واستقم كما أُمرت. والاستقامة ـ كما ذكر الراغب ـ لزوم المنهاج المستقيم، وقوله: «ولا تتبع أهواءهم» كالمفسر له.

وقوله: ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ تسوية بين الكتب السماوية من

حيث تصديقها والايمان بها وهي الكتب المنزلة من عند الله المشتملة على الشرائع.

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ قيل: اللام زائدة للتأكيد نظير قوله: ﴿وأُمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ (الأنعام / ٧١). والمعنى: وأُمرت أن أعدل بينكم أي اسوّي بينكم فلا اقدّم قوياً على ضعيف ولا غنياً على فقير ولا كبيراً على صغير، ولا افضّل أبيض على أسود ولا عربياً على عجمي ولا هاشمياً أو قرشياً على غيره فالدعوة متوجهة الى الجميع، والناس قبال الشرع الإلهي سواء.

فقوله: ﴿آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ تسوية بين الكتب المنزلة من حيث الإيمان بها، وقوله: «وأُمرت لأعدل بينكم» تسوية بين الناس من حيث الدعوة وتوجه ما جاء به من الشرع.

وقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ الخ: في مقام التعليل لما ذكر من التسوية بين الكتب والشرائع في الإيمان بها وبين الناس في دعوتهم وشمول الأحكام لهم، ولذا جيء في الكلام بالفصل من غير عطف.

فقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ يشير الى أن رب الكل هو الله الواحد تعالى فليس لهم أرباب كثيرون حتى يلحق كلٌّ بربه ويتفاضلوا بالأرباب ويقتصر كلٌّ منهم بالإيمان بشريعة ربه بل الله هو رب الجميع وهم جميعاً عباده المملوكون له المدبرون بأمره والشرائع المنزلة على الأنبياء من عنده فلا موجب للإيمان ببعضها دون بعض كما يؤمن اليهود بشريعة موسى دون من بعده وكذا النصارى بشريعة عيسى دون محمد ﷺ بل الواجب الإيمان بكل كتاب نازل من عنده لأنها جميعاً من عنده.

وقوله: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ يشير الى أن الأعمال وإن اختلفت من حيث كونها حسنة أو سيئة ومن حيث الجزاء ثواباً أو عقاباً إلا أنها لا تتعدى عاملها فلكل امرء ما عمل فلا ينتفع أحد بعمل آخر ولا يتضرر بعمل غيره فليس له أن يقدم امرء للانتفاع بعمله

أو يؤخر امرء للتضرر بعمله نعم في الأعمال تفاضل تختلف به درجات العاملين لكن ذلك الى الله فيما يحاسب به عباده لا الى الناس - النبي فمن دونه - الذين هم جميعاً عباد مملوكون لا يملك منهم نفس من نفس شيئاً. وهذا هو الذي ذكره تعالى في محاورة نوح عليه السلام قومه: ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ﴾ (الشعراء / ١١٣)، وكذا قوله يخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ (الأنعام / ٥٢).

وقوله: ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ لعل المراد أنه لا حجة تدل على تقدم بعض على بعض تكون فيما بيننا يقيمها بعض على بعض يثبت بها تقدمه عليه.

ويمكن أن يكون نفي الحجة كناية عن نفي لازمها وهو الخصومة أي لا خصومة بيننا بتفاوت الدرجات لأن ربنا واحد ونحن في أننا جميعاً عباده واحد ولكل نفس ما عملت فلا حجة في البين أي لا خصومة حتى تتخذ لها حجة.

وقوله: ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ المراد بضمير التكلم فيه مجموع المتكلم والمخاطب في الجمل السابقة، والمراد بالجمع جمعه تعالى إياهم يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قيل.

وغير بعيد أن يراد بالجمع جمعه تعالى بينهم في الربوبية فهو رب الجميع والجميع عباده فيكون قوله: «الله يجمع بيننا» تأكيداً لقوله السابق: «الله ربنا وربكم» وتوطئة وتمهيداً لقوله: «واليه المصير» ويكون مفاد الجملتين أن الله هو مبدؤنا لأنه ربنا جميعاً واليه منتهانا لأنه اليه المصير فلا موجد لما بيننا إلا هو عز اسمه.

وكان مقتضى الظاهر في التعليل أن يقال: «الله ربي وربكم لي عملي ولكم أعمالكم لا حجة بيني وبينكم على محاذاة قوله: «آمنت» «وأُمرت لأعدل» لكن عدل عن المتكلم وحده الى المتكلم مع الغير لدلالة قوله السابق: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً» الخ؛ وقوله: «الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب» أن هناك قوماً يؤمنون بما آمن به النبي صلى الله عليه وآله وسلم

ويلبون دعوته ويتبعون شريعته.

فالمراد بالمتكلم مع الغير في «ربنا» و«لنا أعمالنا» و«بيننا» هو ﷺ والمؤمنون به، وبالمخاطبين في قوله: «وربكم» و«اعمالكم» و«بينكم» سائر الناس من أهل الكتاب والمشركين، والآية على وزان قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾ (آل عمران / ٦٤).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الحجة هي القول الذي يقصد به إثبات شيء أو إبطاله من الحج بمعنى القصد، والدحض البطلان والزوال.

والمعنى: ـ على ما قيل ـ والذين يحاجون في الله أي يحتجون على نفي ربوبيته أو على إبطال دينه من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا في دينه لظهور الحجة ووضوح المَحجة حجتهم باطلة زائلة عند ربهم وعليهم غضب منه تعالى ولهم عذاب شديد.

والظاهر أن المراد بالإستجابة له ما هو حق الإستجابة وهو التلقي بالقبول عن علم لا يداخله شك تضطر اليه الفطرة الإنسانية السليمة فإن الدين بما فيه من المعارف فطري تصدقه وتستجيب له الفطرة الحية قال تعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله﴾ (الأنعام / ٣٦)، وقال: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ (الشمس / ٨)، وقال: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ (الروم / ٣٠).

ومحصل الآية: على هذا أن الذين يحاجون فيه تعالى أو في دينه بعد استجابة الفطرة السليمة له أو بعد استجابة الناس بفطرتهم السليمة له حجتهم باطلة زائلة عند ربهم وعليهم غضب منه ولهم عذاب شديد لا يقادر قدره.

ويؤيد هذا الوجه بعض التأييد سياق الآيات السابقة حيث تذكر أن الله شرع ديناً ووصى

به أنبياءه واجتبى اليه من شاء من عباده فالحاجة في أن لله ديناً يستعبد به عباده داحضة ومن الممكن حينئذ أن يكون قوله: «الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان» في مقام التعليل وحجة مدحضة لحجتهم فتدبر فيه.

١٧ ۞ أَللّٰهُ الَّذِي أَنْزَلَ ٱلْكِتابَ بِالحَقِّ وَٱلْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السّاعَةَ قَرِيبٌ.

١٨ ۞ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ.

١٩ ۞ أَللّٰهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ.

٢٠ ۞ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ.

٢١ ۞ أَمْ لَهُمْ شُرَكٰؤُا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ٱللّٰهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ.

٢٢ ۞ تَرَى الظّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ ٱلْجَنّاتِ لَهُمْ ما يَشاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ.

٢٣ ۞ ذٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللّٰهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ

قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ شَكُورٌ.

٢٤ ● أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللّٰهُ يَخْتِمْ عَلىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللّٰهُ ٱلْباطِلَ وَيُحِقُّ ٱلحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

٢٥ ● وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ.

٢٦ ● وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَٱلْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَللّٰهُ ٱلَّذِي أَنْزَلَ ٱلكِتابَ بِالحَقِّ وَٱلْمِيزانَ﴾ الخ: كان مفتتح الفصول السابقة في سياق الفعل إخباراً عن الوحي وغرضه وآثاره ﴿كذلك يوحي إليك﴾ ﴿وكذلك أوحينا إليك﴾ ﴿شرع لكم من الدين﴾ وقد غيّر السياق في مفتتح هذا الفصل فجيء بالجملة الاسمية المتضمنة لتوصيفه تعالى بإنزال الكتاب والميزان «الله الذي أنزل الكتاب» الخ: ولازمه تعريف الوحي بنزول الكتاب والميزان به.

ولعل الوجه فيه ما تقدم في الآية السابقة من ذكر المحاجّة في الله «والذين يحاجّون في الله» فاستدعى ذلك تعريفه تعالى للمحاجين فيه بأنه الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان، ولازمه تعريف الوحي بأثره كما عرفت.

وكيف كان فالمراد بالكتاب هو الوحي المشتمل على الشريعة والدين الحاكم في المجتمع

البشري. وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿كان الناس أُمة واحدة﴾ الآية (البقرة / ٢١٣)؛ أن هذا المعنى هو المراد بالكتاب في الكتاب، وكون إنزاله بالحق نزوله مصاحباً للحق لا يخالطه اختلاف شيطاني ولا نفساني.

والميزان ما يوزن ويقدّر به الأشياء، والمراد به بقرينة ذيل الآية والآيات التالية هو الدين المشتمل عليه الكتاب حيث يوزن به العقائد والأعمال فتحاسب عليه ويجزى بحسبه الجزاء يوم القيامة فالميزان هو الدين باصوله وفروعه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان﴾ (الحديد / ٢٥)، على ما هو ظاهر قوله: «معهم».

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ لما كان الميزان المشعر بالحساب والجزاء يومي الى البعث والقيامة انتقل الى الكلام فيه وإنذارهم بما سيستقبلهم فيه من الأهوال والتبشير بما أُعدَّ فيه للصالحين.

والإدراء الإعلام، والمراد بالساعة ـ على ما قيل ـ إتيانها ولذا جيء بالخبر مذكراً، والمعنى: ما الذي يعلمك لعل إتيان الساعة قريب والخطاب للنبي ﷺ بعنوان أنه سامع فيشمل كل من له أن يسمع ويعمّ الانذار والتخويف.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ الخ: المراد استعجالهم استعجال سخرية واستهزاء وقد تكرر في القرآن نقل قولهم: «متى هذا الوعد إن كنتم صادقين».

والإشفاق نوع من الخوف، قال الراغب: الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه، قال تعالى: «وهم من الساعة مشفقون» فإذا عدّي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بفي فمعنى العناية فيه أظهر، قال تعالى: ﴿إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ ﴿مشفقون منها﴾ انتهى.

وقوله: ﴿أَلاۤ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ المماراة الإصرار على الجدال، والمراد إلحاحهم على إنكارها بالجدال، وإنما كانوا في ضلال بعيد لأنهم أخطؤا طريق الحياة التي إصابتها أهم ما يتصور للانسان فتوهموها حياة مقطوعة فانية انكبُّوا فيها على شهوات الدنيا وإنما هي حياة خالدة باقية يجب عليهم أن يتزوَّدوا من دنياهم لاخراهم لكنهم ضلوا عن سبيل الرشد فوقعوا في سبيل الغيّ.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ في معنى اللطف شيء من الرفق وسهولة الفعل وشيء من الدقة في ما يقع عليه الفعل فإذا تمَّ الرفق والدقة وكان الفاعل يفعل برفق وسهولة ويقع فعله على الامور الدقيقة كان لطيفاً كالهواء النافذ في منافذ الأجسام برفق وسهولة المماس لدقائق أجزائها الباطنة. وإذا القيت الخصوصيات المادية عن هذا المعنى صح أن يتصف به الله سبحانه فإنه تعالى ينال دقائق الامور بإحاطته وعلمه ويفعل فيها ما يشاء برفق فهو لطيف.

وقد رتب الرزق في الآية على كونه تعالى لطيفاً بعباده قوياً عزيزاً دلالة على أنه تعالى بلطفه لا يغيب عنه أحد ممن يشاء أن يرزق ولا يعصيه وبقوته عليه لا يعجز عنه وبعزته لا يمنعه مانع عنه.

والمراد بالرزق ما يعمّ موهبة الدين الذي يتلبس بها من يشاء من عباده على ما يشهد به الآية التالية، ولذا أُلحق القول فيه بقوله: «الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان».

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ الخ؛ الحرث الزرع والمراد به نتيجة الأعمال التي يؤتاها الإنسان في الآخرة على سبيل الاستعارة كأن الأعمال الصالحة بذور وما تنتجه في الآخرة حرث.

والمراد بالزيادة له في حرثه تكثير ثوابه ومضاعفته، قال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ (الأنعام / ١٦٠)، وقال: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ (البقرة / ٢٦١).

وقوله: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي ومن كان يريد النتائج الدنيوية بأن يعمل للدنيا ويريد نتيجة ما عمله فيها دون الآخرة نؤته من الدنيا وما له في الآخرة نصيب، وفي التعبير بإرادة الحرث إشارة الى اشتراط العمل لما يريده من الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ (النجم / ٣٩).

وقد ابهم ما يعطيه من الدنيا إذ قال: «نؤته منها» إشارة الى أن الأمر الى المشية الإلهية فربما بسطت الرزق وربما قدرت كما قال تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ (الإسراء / ١٨).

والمحصل من معنى الآيتين: أن الله سبحانه لطيف بعباده جميعاً ذو قوة مطلقة وعزّة مطلقة يرزق عباده على حسب مشيته وقد شاء في من أراد الآخرة وعمل لها أن يرزقه منها ويزيد فيه، وفيمن أراد الدنيا وعمل لها فحسب أن يؤتيه منها و ما له في الآخرة من نصيب.

ويظهر من ذلك أن الآية الاولى عامة تشمل الفريقين، والمراد بالعباد ما يعم أهل الدنيا والآخرة، وكذا الرزق وأن الآية الثانية في مقام تفصيل ما في قوله: «يرزق من يشاء» من الإجمال.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ الى آخر الآية لما بين أن الله سبحانه هو الذي أنزل الكتاب بالحق وشرع لهم الدين الذي هو ميزان أعمالهم وأنه بلطفه وقوته وعزته يرزق من أراد الآخرة وعمل لها ما أراده منها ويزيد، وأن من أراد الدنيا ونسي الآخرة لا نصيب له فيها سجّل على من كفر بالآخرة عدم النصيب فيها بإنكار أن لا دين غير ما شرعه الله يدين به هؤلاء حتى يرزقوا بالعمل به مثل ما يرزق أهل الإيمان بالآخرة فيها إذ لا شريك لله حتى يشرع ديناً غير ما شرعه الله من غير إذن منه تعالى فلا دين إلا لله ولا يرزق في الآخرة رزقاً حسناً إلا من آمن بها وعمل لها.

فقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَوٰٓءُا﴾ الخ: في مقام الإنكار، وقوله: «ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم» إشارة الى الكلمة التي سبقت منه تعالى أنهم يعيشون في الأرض الى أجل مسمّى، وفيه إكبار لجرمهم ومعصيتهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيد لهم على ظلمهم، وإشارة الى أنهم لا يفوتونه تعالى فإن لم يقض بينهم ولم يعذبهم في الدنيا فلهم في الآخرة عذاب أليم.

قوله تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ الخ؛ الخطاب للنبي ﷺ بعنوان أنه سامع فيشمل كل من من شأنه أن يرى، والمراد بالظالمين التاركون لدين الله الذي شرعه لعباده المعرضون عن الساعة، والمعنى: يرى الراؤن هؤلاء الظالمين يوم القيامة خائفين مما كسبوا من السيئات وهو واقع بهم لا مناص لهم عنه.

والآية من الآيات الظاهرة في تجسم الأعمال.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ في المجمع: إن الروضة الأرض الخضرة بحسن النبات، والجنة الأرض التي تحفها الشجر فروضات الجنات الحدائق المشجرة المخضرة متونها.

وقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي إن نظام الأسباب مطوي فيها بل السبب الوحيد هو إرادتهم وحدها يخلق الله لهم من عنده ما يشاؤن ذلك هو الفضل الكبير.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تبشير للمؤمنين الصالحين، وإضافة العباد تشريفية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ الذي نفي سؤال الأجر عليه هو تبليغ الرسالة والدعوة الدينية، وقد حكى الله ذلك عن عدة ممن قبله ﷺ من الرسل كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب فيما حكي مما يخاطب كل منهم امته: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ الشعراء، وغيرها.

وقد حكي عن النبي ﷺ ذلك إذ قال: ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ (يوسف / ١٠٤)، وقد أمره ﷺ أن يخاطب الناس بذلك بتعبيرات مختلفة حيث قال: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر﴾ (ص / ٨٦)، وقال: ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله﴾ (سبأ / ٤٧)، وقال: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ (الأنعام / ٩٠)، فأشار الى وجه النفي وهو أنه ذكرى للعالمين لا يختص ببعض دون بعض حتى يتخذ عليه الأجر.

وقال: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ (الفرقان / ٥٧)، ومعناه على ما مر في تفسير الآية: إلا أن يشاء أحد منكم أن يتخذ الى ربه سبيلاً أي يستجيب دعوتي باختياره فهو أجري أي لا شيء هناك وراء الدعوة أي لا أجر.

وقال تعالى في هذه السورة: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودَّة في القربى» فجعل أجر رسالته المودة في القربى، ومن المتيقن من مضامين سائر الآيات التي في هذا المعنى أن هذه المودة أمر يرجع الى استجابة الدعوة إما استجابة كلها وإما استجابة بعضها الذي يهتم به وظاهر الاستثناء على أي حال أنه متصل بدعوى كون المودة من الأجر ولا حاجة الى ما تمحّله بعضهم بتقريب الانقطاع فيه.

وأما معنى المودة في القربى فقد اختلف فيه تفاسيرهم:

فقيل ـ ونسب الى الجمهور ـ أن الخطاب لقريش والأجر المسؤل هو مودَّتهم للنبي ﷺ لقرابته منهم وذلك لأنهم كانوا يكذبونه ويبغضونه لتعرُّضه لآلهتهم على ما في بعض الأخبار فامر ﷺ أن يسألهم: إن لم يؤمنوا به فليودُّوه لمكان قرابته منهم ولا يبغضوه ولا يؤذوه فالقربى مصدر بمعنى القرابة، وفي للسببية.

وفيه أن معنى الأجر إنما يتم إذا قوبل به عمل يمتلكه معطي الأجر فيعطي العامل ما يعادل ما امتلكه من مال ونحوه فسؤال الأجر من قريش وهم كانوا مكذبين له كافرين بدعوته إنما

كان يصح على تقدير إيمانهم به ﷺ لأنهم على تقدير تكذيبه والكفر بدعوته لم يأخذوا منه شيئاً حتى يقابلوه بالأجر، وعلى تقدير الإيمان به ـ والنبوة أحد الاصول الثلاثة في الدين ـ لا يتصور بغض حتى تجعل المودة أجراً للرسالة ويسأل.

وبالجملة لا تحقق لمعنى الأجر على تقدير كفر المسؤلين ولا تحقق لمعنى البغض على تقدير إيمانهم حتى يسألوا المودة.

وهذا الإشكال وارد حتى على تقدير أخذ الاستثناء منقطعاً فإن سؤال الأجر منهم على أي حال إنما يتصور على تقدير إيمانهم والاستدراك على الانقطاع إنما هو عن الجملة بجميع قيودها فأجد التأمل فيه.

وقيل: المراد بالمودة في القربى ما تقدم والخطاب للأنصار فقد قيل: إنهم أتوه بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت الآية فردّه، وقد كان له منهم قرابة من جهة سلمى بنت زيد النجارية ومن جهة أخوال أُمه آمنة على ما قيل.

وفيه أن أمر الأنصار في حبهم للنبي ﷺ أوضح من أن يرتاب فيه ذو ريب وهم الذين سألوه أن يهاجر اليهم، وبوّؤا له الدار، وفدوه بالأنفس والأموال والبنين وبذلوا كل جهدهم في نصرته وحتى في الإحسان على من هاجر اليهم من المؤمنين به، وقد مدحهم الله تعالى بمثل قوله: **﴿والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾** (الحشر / ٩)، وهذا مبلغ حبهم للمهاجرين اليهم لأجل النبي ﷺ فما هو الظنُّ في حبهم له؟

وإذا كان هذا مبلغ حبهم فما معنى أن يؤمر النبي ﷺ أن يتوسل الى مودّتهم بقرابته منهم هذه القرابة البعيدة؟

على أن العرب ما كانت تعتني بالقرابة من جهة النساء ذاك الإعتناء وفيهم القائل:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا   بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

والقائل:

وإنما امهات الناس أوعية مستودعات وللأنساب آباء

وإنما هو الإسلام أدخل النساء في القرابة وساوى بين أولاد البنين وأولاد البنات وقد تقدم الكلام في ذلك.

وقيل: الخطاب لقريش والمودَّة في القربى هي المودَّة بسبب القرابة غير أن المراد بها مودة النبي ﷺ لا مودة قريش كما في الوجه الأول، والاستثناء منقطع، ومحصل المعنى: أني لا أسألكم أجراً على ما أدعوكم اليه من الهدى الذي ينتهي بكم الى روضات الجنات والخلود فيها ولا أطلب منكم جزاء لكن حبي لكم بسبب قرابتكم مني دفعني الى أن أهديكم اليه وأدلكم عليه.

وفيه أنه لا يلائم مايخده الله سبحانه له ﷺ في طريق الدعوة والهداية فإنه تعالى يسجل عليه في مواضع كثيرة من كلامه أن الأمر في هداية الناس الى الله وليس له من الأمر شيء وأن ليس له أن يحزن لكفرهم وردهم دعوته وإنما عليه البلاغ فلم يكن له أن يندفع الى هداية أحد لحب قرابة أو يعرض عن هداية آخرين لبغض أو كراهة ومع ذلك كله كيف يتصور أن يأمره الله بقوله: «قل لا أسألكم» الآية أن يخبر كفار قريش أنه إنما اندفع الى دعوتهم وهدايتهم بسبب حبه لهم لقرابتهم منه لا لأجر يسألهم إياه عليه.

وقيل: المراد بالمودة في القربى مودة الأقرباء والخطاب لقريش أو لعامة الناس والمعنى: لا أسألكم على دعائي أجراً إلا أن تودوا أقرباءكم.

وفيه أن مودة الأقرباء على إطلاقهم ليست مما يندب اليه في الإسلام قال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾ (المجادلة / ٢٢)، وسياق هذه الآية لا يلائم كونها مخصصة أو مقيدة لعموم قوله: «إلا المودة في القربى» أو

إطلاقه حتى تكون المودة للأقرباء المؤمنين هي أجر الرسالة على أن هذه المودة الخاصة لا تلائم خطاب قريش أو عامة الناس.

بل الذي يفيده سياق الآية أن الذي يندب اليه الإسلام هو الحب في الله من غير أن يكون للقرابة خصوصية في ذلك، نعم هناك اهتمام شديد بأمر القرابة والرحم لكنه بعنوان صلة الرحم وإيتاء المال، على حبه ذوي القربى لا بعنوان مودة القربى فلا حب إلا الله عز اسمه.

ولا مساغ للقول بأن المودة في القربى في الآية كناية عن صلتهم والإحسان اليهم بإيتاء المال إذ ليس في الكلام ما يدفع كون المراد هو المعنى الحقيقي غير الملائم لما ندب اليه الإسلام من الحب في الله.

وقيل: معنى القربى هو التقرب الى الله، والمودة في القربى هي التودّد اليه تعالى بالطاعة والتقرب فالمعنى: لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودّوا اليه تعالى بالتقرب اليه.

وفيه أن في قوله: «إلا المودة في القربى» على هذا المعنى إبهاماً لا يصلح به أن يخاطب به المشركون فإن حاق مدلوله التودد اليه ـ أو وده تعالى ـ بالتقرب اليه والمشركون لا ينكرون ذلك بل يرون ما هم عليه من عبادة الآلهة تودداً اليه بالتقرب منه فهم القائلون على ما يحكيه القرآن عنهم: **﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾** (الزمر / ٣)، **﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾** (يونس / ١٨)

فسؤال التودد الى الله بالتقرب اليه من غير تقييده بكونه بعبادته وحده، وجعل ذلك أجراً مطلوباً ممن يرى شركه نوع تودد الى الله بالتقرب اليه، وخطابهم بذلك على ما فيه من الإبهام ـ والمقام مقام تمحيضه ﷺ نفسه في دعوتهم الى دين التوحيد لا يسألهم لنفسه شيئاً قط ـ مما لا يرتضيه الذوق السليم.

على أن المستعمل في الآية هو المودة دون التودد فالمراد بالمودة حبهم لله في التقرب اليه ولم يرد في كلامه تعالى إطلاق المودة على حب العباد لله سبحانه وإن ورد العكس كما في قوله: ﴿إن

ربي رحيم ودود﴾ (هود / ٩٠)، وقوله: ﴿وهو الغفور الودود﴾ (البروج / ١٤)، ولعل ذلك لما في لفظ المودة من الإشعار بمراعاة حال المودود وتعاهده وتفقده، حتى قال بعضهم ـ على ما حكاه الراغب ـ إن مودة الله لعباده مراعاته لهم.

والإشكال السابق على حاله ولو فسرت المودة في القربى بموادة الناس بعضهم بعضاً ومحابتهم في التقرب الى الله بأن تكون القربات أسباباً للمودة والحب فيما بينهم فإن للمشركين ما يماثل ذلك فيما بينهم على ما يعتقدون.

وقيل: المراد بالمودة في القربى، مودة قرابة النبي ﷺ وهم عترته من أهل بيته ﷺ وقد وردت به روايات من طرق أهل السنة وتكاثرت الأخبار من طرق الشيعة على تفسير الآية بمودتهم وموالاتهم، ويؤيده الأخبار المتواترة من طرق الفريقين على وجوب موالاة أهل البيت ﷺ ومحبتهم.

ثم التأمل الكافي في الروايات المتواترة الواردة من طرق الفريقين عن النبي ﷺ المتضمنة لإرجاع الناس في فهم كتاب الله بما فيه من اصول معارف الدين وفروعها وبيان حقائقه الى أهل البيت ﷺ كحديث الثقلين وحديث السفينة وغيرهما لا يدع ريباً في أن إيجاب مودتهم وجعلها أجراً للرسالة إنما كان ذريعة الى إرجاع الناس اليهم فيما كان لهم من المرجعية العلمية.

فالمودة المفروضة على كونها أجراً للرسالة لم تكن أمراً وراء الدعوة الدينية من حيث بقائها ودوامها، فالآية في مؤدّاها لا تغاير مؤدّى سائر الآيات النافية لسؤال الأجر.

ويؤل معناها الى أني لا أسألكم عليه أجراً إلا أن الله لما أوجب عليكم مودة عامة المؤمنين ومن جملتهم قرابتي فإني أحتسب مودّتكم لقرابتي وأعدّها أجراً لرسالتي، قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمان ودّاً﴾ (مريم / ٩٦) وقال: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ (التوبة / ٧١).

وبذلك يظهر فساد ما اورد على هذا الوجه أنه لا يناسب شأن النبوة لما فيه من التهمة فإن أكثر طلبة الدنيا يفعلون شيئاً ويسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم وقراباتهم.

وأيضاً فيه منافاة لقوله تعالى: ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ (يوسف / ١٠٤).

وجه الفساد أن إطلاق الأجر عليها وتسميتها به إنما هو بحسب الدعوى وأما بحسب الحقيقة فلا يزيد مدلول الآية على ما يدل عليه الآيات الاخر النافية لسؤال الأجر كما عرفت وما في ذلك من النفع عائد اليهم فلا مورد للتهمة.

على أن الآية على هذا مدنية خوطب بها المسلمون وليس لهم أن يتهموا نبيهم المصون بعصمة إلهية ـ بعد الإيمان به وتصديق عصمته ـ فيما يأتيهم به من ربهم ولو جاز اتهامهم له في ذلك وكان ذلك غير مناسب لشأن النبوة لا يصلح لأن يخاطب به، لاطّرد مثل ذلك في خطابات كثيرة قرآنية كالآيات الدالة على فرض طاعته المطلقة والدالة على كون الأنفال والغنائم لله ولرسوله، والدالة على خمس ذوي القربى، وما ابيح له في أمر النساء وغير ذلك.

على أنه تعالى تعرض لهذه التهمة ودفعها في قوله الآتي: «أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشإ الله يختم على قلبك» الآية على ما سيأتي.

وهب أنّا صرفنا الآية عن هذا المعنى بحملها على غيره دفعاً لما ذكر من التهمة فما هو الدافع لها عن الأخبار التي لا تحصى كثرة الواردة من طرق الفريقين في إيجاب مودة أهل البيت عنه ﷺ؟

وأما منافاة هذه الوجه لقوله تعالى: «وما تسألهم عليه من أجر» فقد اتضح بطلانه مما ذكرناه، والآية بقياس مدلولها الى الآيات النافية لسؤال الأجر نظيرة قوله تعالى: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ (الفرقان / ٥٧).

قال في الكشاف بعد اختياره هذا الوجه: فإن قلت: هلا قيل: إلا مودة القربى أو إلا المودة للقربى، وما معنى قوله: إلا المودة في القربى؟

قلت: جعلوا مكاناً للمودة ومقراً لها كقولك: لي في آل فلان مودة، ولي فيهم هوى وحب شديد، تريد احبهم وهم مكان حبي ومحله.

قال: وليست في بصلة للمودة كاللام إذا قلت: إلا المودة للقربى. إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك: المال في الكيس، وتقديره: إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها. انتهى.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ الاقتراف الاكتساب، والحسنة الفعلة التي يرتضيها الله سبحانه ويثيب عليها، وحسن العمل ملاءمته لسعادة الإنسان والغاية التي يقصدها كما أن مساءته وقبحه خلاف ذلك، وزيادة حسنها إتمام ما نقص من جهاتها وإكماله ومن ذلك الزيادة في ثوابها كما قال تعالى: ﴿ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾ (العنكبوت / ٧)، وقال: ﴿ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله﴾ (النور / ٣٨).

والمعنى: ومن يكتسب حسنة نزد له في تلك الحسنة حسناً ـ برفع نقائصها وزيادة أجرها ـ إن الله غفور يمحو السيئات شكور يظهر محاسن العمل من عامله.

وقيل: المراد بالحسنة مودة قربى النبي ﷺ ويؤيده ما في روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام أن قوله: «قل لا أسألكم عليه أجراً» الى تمام أربع آيات نزلت في مودة قربى النبي ﷺ، ولازم ذلك كون الآيات مدنية وأنها ذات سياق واحد وأن المراد بالحسنة من حيث انطباقها على المورد هي المودة، وعلى هذا فالإشارة بقوله: «أم يقولون افترى» الخ؛ الى بعض ما تفوّه به المنافقون تثاقلاً عن قبوله وفي المؤمنين سمّاعون لهم، وبقوله: «وهو الذي يقبل التوبة» الى آخر الآيتين؛ الى توبة الراجعين منهم وقبولها.

وفي قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ التفات من التكلم الى الغيبة والوجه فيه الإشارة الى علة الإتصاف بالمغفرة والشكر فإن المعنى: إن الله غفور شكور لأنه الله عزّ اسمه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً﴾ الى آخر الآية أم منقطعة، والكلام مسوق للتوبيخ ولازمه إنكار كونه ﷺ مفترياً على الله كذباً.

وقوله: ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللّٰهُ يَخْتِمْ عَلىٰ قَلْبِكَ﴾ معناه على ما يعطيه السياق أنك لست مفترياً على الله كذباً فإنه ليس لك من الأمر شيء حتى تشاء الفرية فتأتي بها وإنما هو وحي من الله سبحانه من غير أن يكون لك فيه صنع والأمر الى مشيّته تعالى فإن يشأ يختم على قلبك وسدّ باب الوحي اليك، لكنه شاء أن يوحي اليك ويبيّن الحق، وقد جرت سنّته أن يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته.

فقوله: «فإن يشإ الله يختم على قلبك» كناية عن إرجاع الأمر الى مشيّة الله وتنزيه لساحة النبي ﷺ أن يأتي بشيء من عنده.

وهذا المعنى ـ كما سترى ـ أنسب للسياق بناء على كون المراد بالقربى قرابة النبي ﷺ والتوبيخ متوجهاً الى المنافقين ومرضى القلوب.

وقوله: ﴿وَيَمْحُ اللّٰهُ ٱلْبَاطِلَ وَيُحِقُّ ٱلحَقَّ بِكَلِماتِهِ﴾: الإتيان بالمضارع ـ يمحو ويحق ـ للدلالة على الاستمرار، فمحو الباطل وإحقاق الحق بالكلمات سنّة جارية له تعالى والمراد بالكلمات ما ينزل على الأنبياء من الوحي الإلهي والتكليم الربوبي ويمكن أن يكون المراد نفوس الأنبياء من حيث إنها مفصحة عن الضمير الغيبي.

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل لقوله: «ويمح الله الباطل» الخ؛ أي إنه يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته لأنه عليم بالقلوب وما انطوت عليه فيعلم ما تستدعيه من هدى أو ضلال أو شرح أو ختم بإنزال الوحي وتوجيه الدعوة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ يقال: قبل منه وقبل عنه قال في الكشاف: يقال: قبلت منه الشيء وقبلته عنه فمعنى قبلته منه أخذته منه وجعلته مبدأ قبولي ومنشأه، ومعنى قبلته عنه عزلته وأبنته عنه.

انتهى.

وفي قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تحضيض على التوبة وتحذير عن اقترافات السيئات والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فاعل «يستجيب» ضمير راجع اليه تعالى و«الذين آمنوا» الخ؛ في موضع المفعول بنزع الخافض والتقدير ويستجيب للذين آمنوا ـ على ما قيل ـ وقيل: فاعل يستجيب» هو «الذين» وهو بعيد من السياق.

والاستجابة إجابة الدعاء ولما كانت العبادة دعوة له تعالى عبّر عن قبولها بالاستجابة لهم، والدليل على هذا المعنى قوله: «ويزيدهم من فضله» فإن ظاهره زيادة الثواب وكذا مقابلة استجابة المؤمنين بقوله: «والكافرون لهم عذاب شديد».

بحث روائي:

في المجمع روى زادان عن علي عليه السلام قال: فينا في آل حم آية لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن. ثم قرأ ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾.

قال الطبرسي: وإلى هذا أشار الكميت في قوله:

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منا تقي ومعرب

وفيه وصحّ عن الحسن بن علي عليهما السلام أنه خطب الناس فقال في خطبته: إنا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى﴾.

وفي الكافي بإسناده عن عبدالله بن عجلان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى» قال: هم الأئمة.

أقول: والأخبار في هذا المعنى من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيرة جداً مروية عنهم.

وفي الدر المنثور أخرج أحمد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: «إلا المودة في القربى» فقال سعيد بن جبير: هم قربى آل محمد فقال ابن عباس: عجلت إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.

أقول: ورواه أيضاً عن ابن عباس بطرق أُخرى غير هذا الطريق. وقد تقدم في بيان الآية أن هذا المعنى غير مستقيم ولا منطبق على سياق الآية. ومن العجيب ما في بعض هذه الطرق أن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿**قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله**﴾.

وفيه أخرج أبونعيم والديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى أن تحفظوني في أهل بيتي وتودوهم لي.

وفيه أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم قال: علي وفاطمة وولداها.

أقول: ورواه الطبرسي في المجمع وفيها «ووُلدها» مكان «وولداها».

وفيه أخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال: لما جيء بعلي بن الحسين أسيراً فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم فقال له علي بن الحسين: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أقرأت آل حم؟ قال: نعم قال: أما قرأت «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى»؟ قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم.

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس «ومن يقترف حسنة» قال: المودة لآل محمد.

أقول: وروى ما في معناه في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام.

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قول الله عز وجل: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» يعني في أهل بيته.

قال: جاءت الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: إنا قد آوينا ونصرنا فخذ طائفة من أموالنا فاستعن بها على ما نابك فأنزل الله عز وجل «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» أي في أهل بيته.

ثم قال: ألا ترى أن الرجل يكون له صديق وفي نفس ذلك الرجل شيء على أهل بيته فلا يسلم صدره فأراد الله عز وجل أن لا يكون في نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيء على أمته ففرض الله عليهم المودة في القربى فإن أخذوا أخذوا مفروضاً، وإن تركوا تركوا مفروضاً.

قال: فانصرفوا من عنده وبعضهم يقول: عرضنا عليه أموالنا فقال: لا. قاتلوا عن أهل بيتي من بعدي، وقال طائفة: ما قال هذا رسول الله وجحدوه وقالوا كما حكى الله عز وجل: «أم يقولون افترى على الله كذباً» فقال عز وجل: «فإن يشإ الله يختم على قلبك» قال: لو افتريت «ويمح الله الباطل» يعني يبطله «ويحق الحق بكلماته» يعني بالأئمة والقائم من آل محمد عليهم السلام ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾.

أقول: وروى قصة الأنصار السيوطي في الدر المنثور عن الطبراني وابن مردويه من طريق ابن جبير وضعّفه.

٢٧ ● وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ.

٢٨ ● وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ

ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ.

٢٩ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمٰا بَثَّ فِيهِمٰا مِنْ دٰابَّةٍ وَهُوَ عَلىٰ جَمْعِهِمْ إِذٰا يَشٰاءُ قَدِيرٌ.

٣٠ ﴿ وَمٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ.

٣١ ﴿ وَمٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاٰ نَصِيرٍ.

٣٢ ﴿ وَمِنْ آيٰاتِهِ ٱلْجَوٰارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَالأَعْلاٰمِ.

٣٣ ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوٰاكِدَ عَلىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِكُلِّ صَبّٰارٍ شَكُورٍ.

٣٤ ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمٰا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ.

٣٥ ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجٰادِلُونَ فِي آيٰاتِنٰا مٰا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ.

٣٦ ﴿ فَمٰا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتٰاعُ ٱلْحَيٰوٰةِ الدُّنْيٰا وَمٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ وَأَبْقىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

٣٧ ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبٰائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوٰاحِشَ وَإِذٰا مٰا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ.

٣٨ ﴿ والَّذِينَ ٱسْتَجٰابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقٰامُوا الصَّلوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ.

٣٩ ﴿ وَالَّذِينَ إِذٰا أَصٰابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ.

٤٠ ۞ وَجَزَاؤُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّٰهِ
إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظّٰالِمِينَ.

٤١ ۞ وَلَمَنِ ٱنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولٰئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ.

٤٢ ۞ إِنَّما السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّٰاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ
بِغَيْرِ الحَقِّ أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ.

٤٣ ۞ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ.

٤٤ ۞ وَمَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظّٰالِمِينَ لَمّٰا
رَأَوُا ٱلْعَذٰابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ.

٤٥ ۞ وَتَرٰيهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خٰاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ
طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقٰالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ ٱلْخٰاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ أَلا إِنَّ الظّٰالِمِينَ فِي عَذٰابٍ
مُقِيمٍ.

٤٦ ۞ وَما كٰانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيٰاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَمَنْ يُضْلِلِ
اللّٰهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ.

٤٧ ۞ إِسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ ما
لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ.

٤٨ ۞ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلاٰغُ
وَإِنّٰا إِذٰا أَذَقْنَا ٱلْإِنْسانَ مِنّٰا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنْسانَ كَفُورٌ.

٤٩ ● لِلّهِ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ.

٥٠ ● أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ وَلٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ القدر مقابل البسط معناه التضييق ومنه قوله السابق: «يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» والقدر بفتح الدال وسكونها كميّة الشيء وهندسته ومنه قوله: «ولكن ينزّل بقدر ما يشاء» أو جعل الشيء على كميّة معينة ومنه قوله: ﴿فقدرنا فنعم القادرون﴾ (المرسلات / ٢٣).

والبغي الظلم، وقوله: «بعباده» من وضع الظاهر موضع الضمير، والنكتة فيه الإشارة الى بيان كونه خبيراً بصيراً بهم وذلك أنهم عبادة المخلوقون له القائمون به فلا يكونون محجوبين عنه مجهولين له، وكذا قوله السابق: «لعباده» لا يخلو من إشارة الى بيان إيتاء الرزق وذلك أنهم عباده ورزق العبد على مولاه.

ومعنى الآية: ولو وسّع الله الرزق على عباده فأشبع الجميع بإيتائه لظلموا في الأرض ـ لما أن من طبع سعة المال الأشر والبطر والاستكبار والطغيان كما قال تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ (العلق / ٧) ـ ولكن ينزّل ما يشاء من الرزق بقدر وكمية معينة إنه بعباده خبير بصير فيعلم ما يستحقه كل عبد وما يصلحه من غنى أو فقر فيؤتيه ذلك.

في قوله: ﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾ بيان للسنّة الالهية في إيتاء الرزق بالنظر الى صلاح حال الناس أي إن لصلاح حالهم أثراً في تقدير أرزاقهم. ولا ينافي ذلك ما نشاهد من طغيان بعض المثرين وغناء رزقهم على ذلك فإن هناك سنّة اخرى حاكمة على هذه السنة وهي سنة الابتلاء والامتحان. قال تعالى: ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ (التغابن / ١٥)، وسنّة اخرى هي سنة المكر والاستدراج، قال تعالى: ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يشعرون وأملي لهم إن كيدي متين ﴾ (الأعراف / ١٨٣).

فسنة الإصلاح بتقدير الرزق سنة ابتدائية يصلح بها حال الإنسان إلا أن يمتحنه الله كما قال: ﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحّص ما في قلوبكم ﴾ (آل عمران / ١٥٤) أو يغيّر النعمة ويكفر بها فيغيّر الله في حقه سنته فيعطيه ما يطغيه، قال تعالى: ﴿ إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾ (الرعد / ١١).

وكما أن إيتاء المال والبنين وسائر النعم الصورية من الرزق المقسوم كذلك المعارف الحقة والشرائع السماوية المنتهية الى الوحي من حيث إنزالها ومن حيث الابتلاء بها والتلبّس بالعمل بها من الرزق المقسوم.

فلو نزلت المعارف والأحكام عن آخرها دفعة واحدة ـ على ما لها من الإحاطة والشمول لجميع شؤن الحياة الإنسانية ـ لشقّت على الناس ولم يؤمن بها إلا الأوحدي منهم لكن الله سبحانه أنزلها على رسوله ﷺ تدريجاً وعلى مكث وهيّأ بذلك الناس بقبول بعضها لقبول بعض، قال تعالى: ﴿ وقرآناً فرّقناه لتقرأه على الناس على مكث ﴾ (الإسراء / ١٠٦).

وكذا المعارف العالية التي هي في بطون المعارف الساذجة الدينية لو لم يضرب عليها بالحجاب وبيّنت لعامة الناس على حد الظواهر المبينة لهم لم يتحملوها ودفعته أفهامهم إلا الأوحدي منهم لكن الله سبحانه كلّمهم في ذلك نوع تكليم يستفيد منه كلٌ على قدر فهمه

وسعة صدره كما قال في مَثَل ضربه في ذلك: ﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها﴾ (الرعد / ١٧).

وكذلك الأحكام والتكاليف الشرعية لو كلّف بجميعها جميع الناس لتحرَّجوا منها ولم يتحمّلوها لكنه سبحانه قسَّمها بينهم حسب تقسيم الابتلاءات المقتضية لتوجّه التكاليف المتنوّعة بينهم.

فالرزق بالمعارف والشرائع من أي جهة فرض كالرزق الصوري مفروز بين الناس مقدّر على حسب صلاح حالهم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ القنوط اليأس، والغيث المطر، قال في مجمع البيان: الغيث ما كان نافعاً في وقته، والمطر قد يكون نافعاً وقد يكون ضارّاً في وقته وغير وقته. انتهى. ونشر الرحمة تفريق النعمة بين الناس بإنبات النبات وإخراج الثمار التي يكون سببها المطر.

وفي الآية انتقال من حديث الرزق الى آيات التوحيد التي لها تعلّق مّا بالأرزاق، ويتلوها في هذا المعنى آيات، وتذييل الآية بالاسمين: الوليّ الحميد وهما من أسمائه تعالى الحسنى للثناء عليه في فعله الجميل.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ الخ: البث التفريق، ويقال: بثَّ الريح التراب إذا أثاره، والدابة كل ما يدبّ على الأرض فيعمّ الحيوانات جميعاً، والمعنى ظاهر.

وظاهر الآية أن في السموات خلقاً من الدواب كالأرض، وقول بعضهم: إنما في السموات من دابة هي الملائكة يدفعه أن إطلاق الدواب على الملائكة غير معهود.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ إشارة الى حشر ما بثَّ فيهما من دابة وقد عبَّر بالجمع لمقابلته البث الذي هو التفريق، ولا دلالة في قوله: «على جمعهم» حيث أتى

بضمير أُولي العقل على كون ما في السموات من الدواب أُولي عقل كالإنسان لقوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمم أمثالكم ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ (الأنعام / ٣٨).

والقدير من أسمائه تعالى الحسنى وهو الذي أركزت فيه القدرة وثبتت. قال الراغب: القدرة إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئة له بها يتمكن من فعل شيء ما. وإذا وصف الله بها فهي نفي العجز عنه. ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة معنى وإن أُطلق عليه لفظاً بل حقه أن يقال: قادر على كذا. ومتى قيل: هو قادر فعلى سبيل معنى التقييد. ولهذا لا أحد غير الله يوصف بالقدرة من وجه إلا ويصحّ أن يوصف بالعجز من وجه والله تعالى هو الذي ينتفي عنه العجز من كل وجه.

والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى قال: «إنه على ما يشاء قدير»، والمقتدر يقاربه نحو «عند مليك مقتدر» لكن قد يوصف به البشر، وإذا استعمل في الله فمعناه معنى القدير وإذا استعمل في البشر فمعناه المتكلف والمكتسب للقدرة، انتهى.

وهو حسن غير أن في قوله: إن القدرة إذا وصف بها الله فهي نفي العجز عنه مساهلة ظاهرة فإن صفاته تعالى الذاتية كالحياة والعلم والقدرة لها معان إيجابية هي عين الذات لا معان سلبية حتى تكون الحياة بمعنى انتفاء الموت والعلم بمعنى انتفاء الجهل والقدرة بمعنى انتفاء العجز على ما يقوله الصابئون ولازمه خلوّ الذات عن صفات الكمال.

فالحق أن معنى قدرته تعالى كونه بحيث يفعل ما يشاء، ولازم هذا المعنى الإيجابي انتفاء مطلق العجز عنه تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ المصيبة النائبة تصيب الإنسان كأنها تقصده، والمراد بما كسبت أيديكم المعاصي

والسيئات، وقوله: «ويعفو عن كثير» أي عن كثير مما كسبت أيديكم وهي السيئات.

والخطاب في الآية اجتماعي موجّه الى المجتمع غير منحلّ الى خطابات جزئية ولازمه كون المراد بالمصيبة التي تصيبهم المصائب العامة الشاملة كالقحط والغلاء والوباء والزلازل وغير ذلك.

فيكون المراد أن المصائب والنوائب التي تصيب مجتمعكم ويصابون بها إنما تصيبكم بسبب معاصيكم والله يصفح عن كثير منها فلا يأخذ بها.

فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ (الروم / ٤١)، وقوله: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا﴾ (الأعراف / ٩٦)، وقوله: ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد / ١١)، وغير ذلك من الآيات الدالة على أن بين أعمال الإنسان وبين النظام الكوني ارتباطاً خاصاً فلو جرى المجتمع الإنساني على ما يقتضيه الفطرة من الاعتقاد والعمل لنزلت عليه الخيرات وفتحت عليه البركات ولو أفسدوا أُفسد عليهم.

هذا ما تقتضيه هذه السنة الإلهية إلا أن ترد عليه سنة الابتلاء أو سنة الاستدراج والإملاء فينقلب الأمر، قال تعالى: ﴿ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مسّ آباءنا السرّاء والضراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ (الأعراف / ٩٥).

ويمكن أن يكون الخطاب في الآية عامّاً منحلاً الى خطابات الأفراد فيكون ما يصاب كل إنسان بمصيبة في نفسه أو ماله أو ولده أو عرضه وما يتعلق به مستنداً الى معصية أتى بها وسيئة عملها ويعفو الله عن كثير منها.

وكيف كان فالخطاب في الآية لعامة الناس من المؤمن والكافر وهو الذي يفيده السياق وتؤيده الآية التالية هذا أولاً، والمراد بما كسبته الأيدي المعاصي والسيئات دون مطلق

الأعمال، وهذا ثانياً. والمصائب التي تصيب إنما هي آثار الأعمال في الدنيا لما بين الأعمال وبينها من الارتباط والتداعي دون جزاء الأعمال وهذا ثالثاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾، معنى الآية ظاهر وهي باتصالها بما قبلها تفيد أنكم لا تعجزون الله حتى لا تصيبكم المصائب لذنوبكم وليس لكم من دونه من ولي يتولى أمركم فيدفع عنكم المصائب ولا نصير ينصركم ويعينكم على دفعها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ﴾، الجواري جمع جارية وهي السفينة. والأعلام جمع علم وهو العلامة ويسمى به الجبل وشبهت السفائن بالجبال لعظمها وارتفاعها والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ الخ: ضمير «يشأ» لله تعالى. وظل بمعنى صار. و«رواكد» جمع راكدة وهي الثالثة في محلها والمعنى: إن يشأ الله يسكن الريح التي تجري بها الجواري فيصرن أي الجواري ثوابت على ظهر البحر.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أصل الصبر الحبس وأصل الشكر إظهار نعمة المنعم بقول أو فعل. والمعنى: إنَّ فيما ذكر من أمر الجواري من كونها جارية على ظهر البحر بسبب جريان الرياح ناقلة للناس وأمتعتهم من ساحل الى ساحل لآيات لكل من حبس نفسه عن الاشتغال بما لا يعينه واشتغل بالتفكر في نعمه والتفكر في النعمة من الشكر.

وقيل: المراد بكل صبَّار شكور المؤمن لأن المؤمن لا يخلو من أن يكون في الضرَّاء أو في السرَّاء فإن كان في الضرَّاء كان من الصابرين وإن كان في السرّاء كان من الشاكرين.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ الايباق الإهلاك. وضمير التأنيث للجواري وضمير التذكير للناس. ويوبقهن ويعف معطوفات على «يسكن»،

والمعنى: إن يشأ يهلك الجواري بإغراقها بسبب ما كسبوا من السيئات ويعف عن كثير منها أي إن بعضها كاف في اقتضاء الإهلاك وإن عفى عن كثير منها.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ قيل: هو غاية معطوفة على اخرى محذوفة، والتقدير نحو من قولنا: ليظهر به قدرته ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من مفر ولا مخلص، وهذا كثير الورود في القرآن الكريم غير أن المعطوف فيما ورد فيه مقارن للام الغاية كقوله: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ (آل عمران / ١٤٠).

وقوله: ﴿وليكون من الموقنين﴾ (الأنعام / ٧٥).

وجوّز بعضهم أن يكون معطوفاً على جزاء الشرط بتقدير أن نحو إن جئتني أُكرمك وأُعطيك كذا وكذا بنصب أُعطيك، والمسألة نحوية خلافية فليرجع الى ما ذكروه فيه.

قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الخ: تفصيل لما تقدم ذكره من الرزق وتقسيم له الى ما عند الناس من رزق الدنيا الشامل للمؤمن والكافر وما عند الله من رزق الآخرة المختص بالمؤمنين، وفيه تخلص الى ذكر صفات المؤمنين وذكر بعض ما يلقاه الظالمون يوم القيامة.

فقوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الخطاب للناس على ما يفيده السياق دون المشركين خاصة، والمراد بما أُوتيتم من شيء جميع ما أُعطيه للناس ورزقوه من النعيم، وإضافة المتاع الى الحياة للإشارة الى انقطاعه وعدم ثباته ودوامه، والمعنى: فكل شيء أُعطيتموه مما عندكم متاع تتمتعون به في أيام قلائل.

وقوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ المراد بما عند الله ما ادّخره الله ثواباً ليثيب به المؤمنين، واللام في «للذين آمنوا» للملك والظرف لغو، وقيل اللام متعلق بقوله: «أبقى» والأول أظهر، وكون ما عند الله خيراً لكونه

خالصاً من الألم والكدر وكونه أبقى لكونه أدوم غير منقطع الآخر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ عطف على قوله: «الذين آمنوا» والآية وآيتان بعدها تعدّ صفات المؤمنين الحسنة وقول بعضهم أنه كلام مستأنف لا يساعد عليه السياق.

وكبائر الإثم المعاصي الكبيرة التي لها آثار سوء عظيمة وقد عدّ تعالى منها شرب الخمر والميسر، قال تعالى: ﴿قل فيهما إثم كبيرٌ﴾ (البقرة / ٢١٩)، والفواحش جمع فاحشة وهي المعصية الشنيعة النكراء وقد عدَّ تعالى منها الزنا واللواط قال: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة﴾ (الإسراء / ٣٢)، وقال حاكياً عن لوط: ﴿أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ (النمل / ٥٤).

وقوله: ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ وهو في سورة مكية إشارة الى إجمال ما سيفصّل من تشريع تحريم كبائر المعاصي والفواحش.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ إشارة الى العفو عند الغضب وهو من أخصّ صفات المؤمنين ولذا عبّر عنه بما عبّر ولم يقل: ويغفرون إذا غضبوا ففي الكلام جهات من التأكيد وليس قصراً للمغفرة عند الغضب فيهم.

قوله تعالى: ﴿والَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الخ: الاستجابة هي الإجابة واستجابتهم لربهم إجابتهم لما يكلفهم به من الأعمال الصالحة ـ على ما يفيده السياق ـ وذكر إقامة الصلاة بعدها من قبيل ذكر الخاص بعد العام لشرفه.

على أن الظاهر أن الآيات مكية ولم يشرَّع يومئذ أمثال الزكاة والخمس والصوم والجهاد، وفي قوله: «والذين استجابوا لربهم» من الإشارة الى إجمال الأعمال الصالحة المشرّعة نظير ما تقدَّم في قوله: «والذين يجتنبون» الخ؛ ونظير الكلام جار في الآيات التالية.

وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ قال الراغب: والتشاور والمشاورة والمشورة

استخراج الرأي بمراجعة البعض الى البعض من قولهم: شِرت العسل إذا أخذته من موضعه واستخرجته منه، قال تعالى: «وشاورهم في الأمر» والشورى الأمر الذي يتشاور فيه، قال تعالى: «وأمرهم شورى بينهم» انتهى. فالمعنى: الأمر الذي يعزمون عليه شورى بينهم يتشاورون فيه، ويظهر من بعضهم أنه مصدر، والمعنى: وشأنهم المشاورة بينهم.

وكيف كان ففيه إشارة الى أنهم أهل الرشد وإصابة الواقع يُمعنون في استخراج صواب الرأي بمراجعة العقول فالآية قريبة المعنى من قول الله تعالى: ﴿الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه﴾ (الزمر / ١٨).

وقوله: «ومما رزقناهم ينفقون» إشارة الى بذل المال لمرضات الله.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ قال الراغب: الانتصار والاستنصار طلب النصرة. انتهى. فالمعنى: الذين إذا أصاب الظلم بعضهم طلب النصرة من الآخرين وإذا كانوا متفقين على الحق كنفس واحدة فكأن الظلم أصاب جميعهم فطلبوا المقاومة قباله وأعدّوا عليه النصرة.

وعن بعضهم أن الانتصار بمعنى التناصر نظير اختصم وتخاصم واستبق وتسابق والمعنى عليه ظاهر.

وكيف كان فالمراد مقاومتهم لرفع الظلم فلا ينافي المغفرة عند الغضب المذكورة في جملة صفاتهم فإن المقاومة دون الظلم وسد بابه عن المجتمع لمن استطاعه والانتصار والتناصر لأجله من الواجبات الفطرية، قال تعالى: ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾ (الأنفال / ٧٢)، وقال: ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ (الحجرات / ٩).

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاؤُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ الى آخر الآية بيان لما جعل للمنتصر في انتصاره وهو أن يقابل الباغي بما يماثل فعله وليس بظلم وبغي.

قيل: وسمي الثانية وهي ما يأتي بها المنتصر سيئة لأنها في مقابلة الاولى كما قال تعالى:

﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ (البقرة / ١٩٤)، وقال الزمخشري: كلتا الفعلتين: الاولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به ففيه رعاية لحقيقة معنى اللفظ وإشارة الى أن مجازاة السيئة بمثلها إنما تحمد بشرط المماثلة من غير زيادة.

وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وعد جميل على العفو والإصلاح. والظاهر أن المراد بالإصلاح إصلاحه أمره فيما بينه وبين ربه، وقيل: المراد إصلاحه ما بينه وبين ظالمه بالعفو والإغضاء.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ قيل: فيه بيان أنه تعالى لم يرغّب المظلوم في العفو عن الظالم لميله الى الظالم أو لحبه إياه ولكن ليعرض المظلوم بذلك لجزيل الثواب، ولحبه تعالى الإحسان والفضل.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ـ الى قوله ـ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ضمير «ظلمه» راجع الى المظلوم. والإضافة من إضافة المصدر الى مفعوله.

الآيات الثلاث تبين ورفع لبس من قوله في الآية السابقة: «فمن عفى وأصلح فأجره على الله» فمن الجائز أن يتوهّم المظلوم أن في ذلك إلغاء لحق انتصاره فبيّن سبحانه بقوله أولاً: «ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل» أن لا سبيل على المظلومين ولا مجوّز لإبطال حقهم في الشرع الإلهي، وإرجاع ضمير الإفراد الى الموصول أولاً باعتبار لفظه، وضمير الجمع ثانياً باعتبار معناه.

وبين بقوله ثانياً: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أن السبيل كله على الظالمين في الانتقام منهم للمظلومين. وأكد ذلك ذيلاً بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وبين بقوله ثالثاً: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أن الدعوة الى

الصبر والعفو ليست إبطالاً لحق الانتصار وإنما هي إرشاد الى فضيلة هي من أعظم الفضائل فإن في المغفرة الصبر الذي هو من عزم الامور. وقد أكد الكلام بلام القسم أولاً وباللام في خبر إن ثانياً لإفادة العناية بمضمونه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الخ: لما ذكر المؤمنين بأوصافهم وأنّ لهم عند الله رزقهم المدّخر لهم وفيه سعادة عقباهم التي هداهم الله اليها التفت الى غيرهم وهم الظالمون الآئسون من تلك الهداية الموصلة الى السعادة المحرومون من هذا الرزق الكريم فبين أن الله سبحانه أضلهم لكفرهم وتكذيبهم فلا ينتهون الى ما عنده من الرزق ولا يسعدهم به وليس لهم من دونه من ولي حتى يتولى أمرهم ويرزقهم ما حرّمهم الله من الرزق. فهم صفر الأكف يتمنون عند مشاهدة العذاب الرجوع الى الدنيا ليعملوا صالحاً فيكونوا أمثال المؤمنين.

فقوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ الخ: من قبيل وضع السبب وهو إضلال الله لهم وعدم ولي آخر يتولى أمرهم فيهديهم ويرزقهم موضع المسبب وهو الهداية والرزق.

وقوله: «وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل» إشارة الى تمنيهم الرجوع الى الدنيا بعد اليأس عن السعادة ومشاهدة العذاب.

و ﴿تَرَى﴾ خطاب عام وجه الى النبي ﷺ بما أنه راء ومعناه وترى ويرى كل من هو راء. وفيه إشارة الى أنهم يتمنون ذلك على رؤس الأشهاد. والمرد هو الرد.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ضمير «عليها» للنار للدلالة المقام عليها وخفي الطرف ضعيفه وإنما ينظر من طرف خفي. الى المكاره المهولة من ابتلي بها فهو لا يريد أن ينصرف فيغفل عنها ولا يجترىء أن يمتلىء بها بصره كالمبصور ينظر الى السيف. والباقي ظاهر.

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي إن الخاسرين كل الخسران وبحقيقته هم الذين خسروا أنفسهم بحرمانها عن النجاة وأهليهم بعدم الانتفاع بهم يوم القيامة. وقيل أهلوهم أزواجهم من الحور وخدمهم في الجنة لو آمنوا ولا يخلو من وجه نظراً الى آيات وراثة الجنة.

وهذا القول المنسوب الى المؤمنين إنما يقولونه يوم القيامة ـ والتعبير بلفظ الماضي لتحقق الوقوع ـ لا في الدنيا كما يظهر من بعضهم فليس لاستناده تعالى الى مقالة المؤمنين في الدنيا وجه في مثل المقام، وليس القائلون به جميع المؤمنين كائنين من كانوا وإنما هم الكاملون منهم المأذون لهم في الكلام الناطقون بالصواب محضاً كأصحاب الأعراف وشهداء الأعمال قال تعالى: ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ (هود / ١٠٥). وقال: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمان وقال صواباً﴾ (النبأ / ٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّـهِ﴾ الخ: هذا التعبير أعني قوله: «وما كان لهم» الخ؛ دون أن يقال: وما لهم من ولي كما قيل أولاً للدلالة على ظهور بطلان دعواهم ولاية أوليائهم في الدنيا وأن ذلك كان باطلاً من أول الأمر.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ صالح لتعليل صدر الآية وهو كالنتيجة لجميع ما تقدم من الكلام في حال الظالمين في عقباهم، ونوع انعطاف الى ما سبق من حديث تشريع الشريعة والسبيل بالوحي.

فهو كناية عن أنه لا سبيل الى السعادة إلا سبيل الله الذي شرعه لعباده من طريق الوحي والرسالة فمن أضلّه عن سبيله لكفره وتكذيبه بسبيله فلا سبيل له يهتدي به الى سعادة العقبى والتخلص من العذاب والهلاك.

قوله تعالى: ﴿اِسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ دعوة وإنذار بيوم القيامة المذكور في الآيات السابقة على ما يعطيه السياق، وقول بعضهم: إن المراد باليوم يوم الموت غير وجيه.

وفي قوله: «لا مردَّ له من الله» «لا» لنفي الجنس و«مرد» اسمه و«له» خبره و«من الله» حال من «مرد»، والمعنى: يوم لا ردَّ له من قبل الله أي إنه مقضي محتوم لا يردّه الله البتة فهو في معنى ما تكرر في كلامه تعالى من وصف يوم القيامة بأنه لا ريب فيه.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ الملجأ الملاذ الذي يلتجأ اليه والنكير ـ كما قيل ـ مصدر بمعنى الإنكار، والمعنى: ما لكم من ملاذ تلتجئون اليه من الله وما لكم من إنكار لما صدر منكم لظهور الأمر من كل جهة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ عدول من خطابهم الى خطاب النبي ﷺ لإعلام أن ما حمّله من الأمر إنما هو التبليغ لا أزيد من ذلك فقد أُرسل مبلّغاً لدين الله إن عليه إلا البلاغ ولم يرسل حفيظاً عليهم مسؤلاً عن إيمانهم وطاعتهم حتى يمنعهم عن الإعراض ويتعب نفسه لإقبالهم عليه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ الفرح بالرحمة كناية عن الاشتغال بالنعمة ونسيان المنعم، والمراد بالسيئة المصيبة التي تسوء الإنسان إذا أصابته، وقوله: «فإن الإنسان كفور» من وضع الظاهر موضع الضمير، والنكتة فيه تسجيل الذمّ واللوم عليه بذكره باسمه.

وفي الآية استشعار بإعراضهم وتوبيخهم بعنوان الإنسان المشتغل بالدنيا فإنه بطبعه حليف الغفلة إن ذكّر بنعمة يؤتاها صرفه الفرح بها عن ذكر الله، وإن ذكّر بسيئة تصيبه بما قدّمت يداه شغله الكفران عن ذكر ربه فهو في غفلة عن ذكر ربه في نعمة كانت أو في نقمة فكاد أن لا تنجح فيه دعوة ولا تنفع فيه موعظة.

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ الى آخر الآيتين، للآيتين نوع اتصال بما تقدم من حديث الرزق لما أن الأولاد المذكورين فيهما من قبيل الرزق.

وقيل: إنهما متصلتان بالآية السابقة حيث ذكر فيها إذاقة الرحمة وإصابة السيئة وأن الإنسان يفرح بالرحمة ويكفر في السيئة فذكر تعالى في هاتين الآيتين أن ملك السماوات والأرض لله سبحانه يخلق ما يشاء فليس لمن يذوق رحمته أن يفرح بها ويشتغل به ولا لمن أصابته السيئة أن يكفر ويعترض بل له الخلق والأمر فعلى المرحوم أن يشكر وعلى المصاب أن يرجع اليه.

ويبعّده أنه تعالى لم ينسب السيئة في الآية السابقة الى نفسه بل الى تقديم أيديهم فلا يناسبه نسبة القسمين جميعاً في هذه الآية الى مشيّته ودعوتهم الى التسليم لها.

وكيف كان فقوله: «لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء» فيه قصر الملك والسلطنة فيه تعالى على جميع العالم وأن الخلق منوط بمشيّته من غير أن يكون هناك أمر يوجب عليه المشية أو يضطره على الخلق.

وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ الاناث جمع أنثى والذكور والذكران جمعا ذكر، وظاهر التقابل أن المراد هبة الاناث فقط لمن يشاء وهبة الذكور فقط لمن يشاء ولذلك كرّرت المشية، قيل: وجه تعريف الذكور أنهم المطلوبون لهم المعهودون في أذهانهم وخاصة العرب.

وقوله: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً﴾ أي يجمع بينهم حال كونهم ذكراناً وإناثاً معاً فالتزويج في اللغة الجمع، وقوله: «ويجعل من يشاء عقيماً» أي لا يلد ولا يولد له، ولما كان هذا أيضاً قسماً برأسه قيّده بالمشية كالقسمين الأولين، وأما قسم الجمع بين الذكران والاناث فإنه بالحقيقة جمع بين القسمين الأولين فاكتفى بما ذكر من المشية فيهما.

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ تعليل لما تقدم أي إنه عليم لا يزيد ما يزيد لجهل قدير لا

ينقص ما ينقص عن عجز[١]

٥١ ● وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ.

٥٢ ● وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلا الْإِيمانُ وَلٰكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.

٥٣ ● صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّمٰواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ﴾ الخ؛ قد تقدم البحث عن معنى كلامه تعالى في الجزء الثاني من الكتاب. وإطلاق الكلام على كلامه تعالى والتكليم على فعله الخاص سواء كان إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً واقع في كلامه تعالى قال: ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ (الأعراف / ١٤٤)، وقال: ﴿وكلّم الله موسى تكليماً﴾ (النساء / ١٦٤)، ومن مصاديق كلامه ما يتلقاه الأنبياء عليهم السلام منه تعالى بالوحي.

وعلى هذا لا موجب لعدّ الاستثناء في قوله: «إلا وحياً» منقطعاً بل الوحي والقسمان

---

١. الشورى ٢٧ ـ ٥٠: بحث روائي حول قوله تعالى: «لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض»؛ مصائب اولياء الله: الشورى.

المذكوران بعده من تكليمه تعالى للبشر سواء كان إطلاق التكليم عليها إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً فكلٌّ واحد من الوحي وما كان من وراء حجاب وما كان بإرسال رسول نوع من تكليمه للبشر.

فقوله: ﴿وَحْياً﴾ ـ والوحي الإشارة السريعة على ما ذكره الراغب ـ مفعول مطلق نوعي وكذا المعطوفان عليه في معنى المصدر النوعي، والمعنى: ما كان لبشر أن يكلمه الله نوعاً من أنواع التكليم إلا هذه الأنواع الثلاثة أن يوحى وحياً أو يكون من وراء حجاب أو أن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء.

ثم إن ظاهر الترديد في الآية بأو هو التقسيم على مغايرة بين الأقسام وقد قيّد القسمان الأخير ان بقيد كالحجاب، والرسول الذي يوحي الى النبي ولم يقيّد القسم الأول بشيء فظاهر المقابلة يفيد أن المراد به التكليم الخفي من دون أن يتوسط واسطة بينه تعالى وبين النبي أصلاً، وأما القسمان الآخران ففيهما قيد زائد وهو الحجاب أو الرسول الموحي وكل منهما واسطة غير أن الفارق أن الواسطة الذي هو الرسول يوحي الى النبي فنسه والحجاب واسطة ليس بموحٍ وإنما الوحي من ورائه.

فتحصَّل أن القسم الثالث «أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء» وحي بتوسُّط الرسول الذي هو ملك الوحي فيوحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله سبحانه قال تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ (الشعراء / ١٩٤)، وقال: ﴿قل من كان عدوّاً لجبريل فإنه نزَّله على قلبك بإذن الله﴾ (البقرة / ٩٧)، والموحي مع ذلك هو الله سبحانه كما قال: ﴿بما أوحينا اليك هذا القرآن﴾ (يوسف / ٣).

وأن القسم الثاني «أو من وراء حجاب» وحي مع واسطة هو الحجاب غير أن الواسطة لا يوحي كما في القسم الثالث وإنما يبتدىء الوحي مما وراءه لمكان من، وليس وراء بمعنى خلف وإنما هو الخارج عن الشيء المحيط به، قال تعالى: ﴿والله من ورائهم محيط﴾ (البروج /

٢٠)، وهذا كتكليم موسى عليه السلام في الطور، قال تعالى: ﴿ فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ﴾ (القصص / ٣٠)، ومن هذا الباب ما أُوحي الى الأنبياء في مناماتهم.

وأن القسم الأول تكليم إلهي للنبي من غير واسطة بينه وبين ربه من رسول أو أي حجاب مفروض.

ولما كان للوحي في جميع هذه الأقسام نسبة اليه تعالى على اختلافها صحَّ إسناد مطلق الوحي اليه بأي قسم من الأقسام تحقق وبهذه العناية أسند جميع الوحي اليه في كلامه كما قال: ﴿ إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ (النساء / ١٦٣). وقال: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم ﴾ (النحل / ٤٣).

وقوله: ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ تعليل لمضمون الآية فهو تعالى لعلوه عن الخلق والنظام الحاكم فيهم يجلّ أن يكلمهم كما يكلم بعضهم بعضاً، ولعلوه وحكمته يكلمهم بما اختار من الوحي وذلك أن هداية كل نوع الى سعادته من شأنه تعالى كما قال: ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ (طه / ٥٠)، وقال: ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ (النحل / ٩)، وسعادة الإنسان الذي يسلك سبيل سعادته بالشعور والعلم في إعلام سعادته والدلالة الى سنَّة الحياة التي تنتهي اليها ولا يكفي في ذلك العقل الذي من شأنه الإخطاء والإصابة فاختار سبحانه لذلك طريق الوحي الذي لا يخطىء البتة، وقد فصَّلنا القول في هذه الحجة في موارد من هذا الكتاب.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلْإِيمَانُ ﴾ الخ: ظاهر السياق كون «كذلك» إشارة الى ما ذكر في الآية السابقة من الوحي بأقسامه الثلاث، ويؤيده الروايات الكثيرة الدالة على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كما كان يوحى اليه بتوسط جبريل وهو القسم الثالث كان يوحى اليه في المنام وهو من القسم الثاني

ويوحي اليه من دون توسط واسطة وهو القسم الأول.

والمراد بإيحاء الروح ـ على ما قيل ـ إيحاء القرآن وأُيّد بقوله: «ولكن جعلناه نوراً» الخ، ومن هنا قيل: إن المراد بالروح القرآن.

لكن يبقى عليه أولاً: أنه لا ريب أن الكلام مسوق لبيان أن ما عندك من المعارف والشرائع التي تتلبس بها وتدعو الناس اليها ليس مما أدركته بنفسك وأبديته بعلمك بل أمر من عندنا منزّل اليك بوحينا، وعلى هذا فلو كان المراد بالروح الموحى القرآن كان من الواجب الاقتصار على الكتاب في قوله: «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان» لأن المراد بالكتاب القرآن فيكون الإيمان زائداً مستغنى عنه.

وثانياً: أن القرآن وإن أمكن أن يسمى روحاً باعتبار إحيائه القلوب بهداه كما قال تعالى: ﴿إذا دعاكم لما يحييكم﴾ (الأنفال / ٢٤)، وقال: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ (الأنعام / ١٢٢)، لكن لا وجه لتقييده حينئذ بقوله: «من أمرنا» والظاهر من كلامه تعالى أن الروح من أمره خلق من العالم العلوي يصاحب الملائكة في نزولهم، قال تعالى: ﴿تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ (القدر / ٤)، وقال: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً﴾ (النبأ / ٣٨)، وقال: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ (الإسراء / ٨٥)، وقال: ﴿وأيّدناه بروح القدس﴾ (البقرة / ٨٧)، وقد سمى جبريل الروح الأمين وروح القدس حيث قال: ﴿نزل به الروح الأمين﴾ (الشعراء / ١٩٣)، وقال: ﴿قل نزّله روح القدس من ربك﴾ (النحل / ١٠٢).

ويمكن أن يجاب عن الأول بأن مقتضى المقام وإن كان هو الاقتصار على ذكر الكتاب فقط لكن لما كان إيمانه ﷺ بتفاصيل ما في الكتاب من المعارف والشرائع من لوازم نزول الكتاب غير المنفكة عنه وآثاره الحسنة صح أن يذكر مع الكتاب فالمعنى: وكذلك أوحينا اليك كتاباً ما كنت تدري ما الكتاب ولا ما تجده في نفسك من أثره الحسن الجميل وهو

إيمانك به.

وعن الثاني أن المعهود من كلامه في معنى الروح وإن كان ذلك لكن حمل الروح في الآية على ذلك المعنى وإرادة الروح الأمري أو جبريل منه يوجب أخذ «أوحينا» بمعنى أرسلنا إذ لا يقال: أوحينا الروح الأمري أو الملك فلا مفر من كون الايحاء بمعنى الإرسال وهو كما ترى فأخذ الروح بمعنى القرآن أهون من أخذ الإيحاء بمعنى الإرسال والجوابان لا يخلوان عن شيء.

وقيل: المراد بالروح جبريل فإن الله سماه في كتابه روحاً قال: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ (الشعراء / ١٩٤) وقال: ﴿قل نزّله روح القدس من ربك﴾.

وقيل: المراد بالروح الروح الأمري الذي ينزل مع ملائكة الوحي على الأنبياء كما قال تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ان أنذروا﴾ (النحل / ٢)، فالمراد بإيحائه اليه إنزاله عليه.

ويمكن أن يوجه التعبير عن الإنزال بالإيحاء بأن أمره تعالى على ما يعرّفه في قوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن﴾ (يس / ٨٢)، هو كلمته. والروح من أمره كما قال: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ (الإسراء / ٨٥)، فهو كلمته، وهو يصدق ذلك قوله في عيسى بن مريم ﷺ: ﴿إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ (النساء / ١٧١)، وإنزال الكلمة تكليم فلا ضير في التعبير عن إنزال الروح بإيحائه، والأنبياء مؤيدون بالروح في أعمالهم كما أنهم يوحى اليهم الشرائع به قال تعالى: ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ وقد تقدمت الإشارة اليه في تفسير قوله تعالى: ﴿وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ (الأنبياء / ٧٣).

ويمكن رفع إشكال كون الإيحاء بمعنى الانزال والارسال بالقول بكون قوله: «روحاً» منصوباً بنزع الخافض ورجوع ضمير «جعلناه» الى القرآن المعلوم من السياق أو الكتاب

والمعنى وكذلك أوحينا اليك القرآن بروح منا ما كنت تدري ما الكتاب وما الايمان ولكن جعلنا القرآن أو الكتاب نوراً. الخ؛ هذا وما أذكر أحداً من المفسرين قال به.

وقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ قد تقدم أن الآية مسوقة لبيان ان ما عنده ﷺ الذي يدعو اليه إنما هو من عند الله سبحانه لا من قلبه نفسه وإنما أُوتي ما أُوتي من ذلك بالوحي بعد النبوة فالمراد بعدم درايته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقادية والشرائع العلمية فإن ذلك هو الذي اوتي العلم به بعد النبوة والوحي، وبعدم درايته بالايمان عدم تلبّسه بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقة والأعمال الصالحة وقد سمي العمل إيماناً في قوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ (البقرة / ١٤٣).

فالمعنى: ما كان عندك قبل وحي الروح الكتاب بما فيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبساً بما أنت متلبس به بعد الوحي من الالتزام الاعتقادي والعملي بمضامينه وهذا لا ينافي كونه ﷺ مؤمناً بالله موحداً قبل البعثة صالحاً في عمله فإن الذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بها اعتقاداً وعملاً ونفي العلم والالتزام التفصيلين لا يلازم نفي العلم والالتزام الاجماليين بالايمان بالله والخضوع للحق.

وبذلك يندفع ما استدل بعضهم بالآية على أنه ﷺ كان غير متلبّس بالايمان قبل بعثته.

ويندفع أيضاً ما عن بعضهم أنه ﷺ لم يزل كاملاً في نفسه علماً وعملاً وهو ينافي ظاهر الآية أنه ما كان يدري ما الكتاب ولا الايمان.

ووجه الاندفاع من الضروري وجود فرق في حاله ﷺ قبل النبوة وبعدها والآية تشير الى هذا الفرق، وان ما حصل له بعد النبوة لا صنع له فيه وإنما هو من الله من طريق الوحي.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ ضمير «جعلناه» للروح والمراد بقوله: «من نشاء» على تقدير ان يراد بالروح القرآن هو النبي ﷺ ومن آمن به فإنهم جميعاً مهتدون بالقرآن.

وعلى تقدير أن يراد به الروح الأمري فالمراد بمن نشأ جميع الأنبياء ومن آمن بهم من أُممهم فإنه يهدي بالوحي الذي نزل به، الأنبياء والمؤمنين من أُممهم ويسدد الأنبياء خاصة ويهديهم الى الأعمال الصالحة ويشير عليهم بها.

وعلى هذا تكون الآية في مقام تصديق النبي ﷺ تصدقه في دعواه أن كتابه من عند الله يوحي منه، وتصدقه في دعواه أنه مؤمن بما يدعو اليه فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم﴾ (يس / ٥).

وقوله: «وإنك لتهدي الى صراط مستقيم» إشارة الى أن الذي يهدي اليه صراط مستقيم وأن الذي يهديه من الناس هو الذي يهديه الله سبحانه، فهدايته ﷺ هداية الله.

قوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾الخ؛ بيان للصراط المستقيم الذي يهدي اليه النبي ﷺ، وتوصيفه تعالى بقوله: «الذي له ما في السماوات وما في الأرض» للدلالة على الحجة على استقامة صراطه فإنه تعالى لما ملك كل شيء ملك الغاية التي تسير اليها الأشياء والسعادة التي تتوجه اليها، فكانت الغاية والسعادة هي التي عيّنها، وكان الطريق اليها والسبيل الذي عليهم أن يسلكوه لنيل سعادتهم هو الذي شرعه وبيّنه، وليس يملك أحد شيئاً حتى ينصب له غاية ونهاية أو يشرع له اليها سبيلاً، فالسعادة التي يدعو سبحانه اليها حق السعادة والطريق الذي يدعو اليه حق الطريق ومستقيم الصراط.

وقوله: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ تنبيه على لازم ملكه لما في السماوات وما في الأرض فإن لازمه رجوع امورهم اليه ولازمه كون السبيل الذي يسلكونه ـ وهو من جملة امورهم ـ راجعاً اليه فالصراط المستقيم هو صراطه فالمضارع أعني قوله: «تصير» للاستمرار.

وفيه إشعار بلمّ الوحي والتكليم الإلهي، إذ لما كان مصير الأشياء اليه تعالى كان لكل نوع

اليه تعالى سبيل يسلكه وكان عليه تعالى أن يهديه اليه ويسوقه الى غايته كما قال: ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ (النحل / ٩)، وهو تكليم كل نوع بما يناسب ذاته وهو في الإنسان التكليم المسمى بالوحي والإرسال[١].

١. ٥١-٥٣: بحث روائي في: نزول الوحي وتلقي رسول الله الوحي وتغيير حالته عند نزول الوحي: الروح الذي اوحى الله لرسوله.

سورة الزخرف مكية وهي تسع وثمانون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● حٰمٓ.

٢ ● وَٱلْكِتٰابِ ٱلْمُبِينِ.

٣ ● إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

٤ ● وَإِنَّهُ فِي أُمِّ ٱلْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ.

٥ ● أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ.

٦ ● وَكَمْ أَرْسَلْنٰا مِنْ نَبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ.

٧ ● وَمٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاّٰ كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ.

٨ ● فَأَهْلَكْنٰا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ.

٩ ● وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ.

١٠ ● الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهٰا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ .

١١ ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ .

١٢ ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ .

١٣ ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هٰذا وَما كُنّا لَهُ مُقْرِنِينَ .

١٤ ﴿ وَإِنّا إِلىٰ رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ .

بيان:

السورة موضوعة للإنذار كما تشهد به فاتحتها وخاتمتها والمقاصد المتخللة بينهما إلا ما في قوله : « إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم » الى تمام ست آيات استطرادية .

تذكر أن السنَّة الالهية إنزال الذكر وإرسال الأنبياء والرسل ولا يصده عن ذلك إسراف الناس في قولهم وفعلهم بل يرسل الأنبياء والرسل ويهلك المستهزئين بهم والمكذبين لهم ثم يسوقهم الى نار خالدة .

وقد ذكرت إرسال الأنبياء بالاجمال أولاً ثم سمّي منهم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام . وذكرت من إسراف الكفار أشياء ومن عمدتها قولهم بأن لله سبحانه ولداً وأن الملائكة بنات الله ففيها عناية خاصة بنفي الولد عنه تعالى فكرّرت ذلك وردّته وأوعدتهم بالعذاب . وفيها حقائق متفرقة اخرى .

والسورة مكية بشهادة مضامين آياتها إلا قوله : « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا »

الآية؛ ولم يثبت كما سيأتي إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ ظاهره أنه قسم وجوابه قوله: «إنا جعلناه قرآناً عربياً» الى آخر الآيتين، وكون القرآن مبيناً هو إبانته وإظهاره طريق الهدى كما قال تعالى: ﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ (النحل / ٨٩)، أو كونه ظاهراً في نفسه لا يرتاب فيه كما قال: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ (البقرة / ٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الضمير للكتاب، و«قرآناً عربياً» أي مقروأً باللغة العربية و«لعلكم تعقلون» غاية الجعل وغرضه.

وجعل رجاء تعقله غاية للجعل المذكور يشهد بأن له مرحلة من الكينونة والوجود لا ينالها عقول الناس، ومن شأن العقل أن ينال كل أمر فكري وإن بلغ من اللطافة والدقة ما بلغ فمفاد الآية أن الكتاب بحسب موطنه الذي له في نفسه أمر وراء الفكر أجنبي عن العقول البشرية وإنما جعله الله قرآناً عربياً وألبسه هذا اللباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه، والرجاء في كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب دون المتكلم كما تقدم غير مرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ تأكيد وتبيين لما تدلُّ عليه الآية السابقة أن الكتاب في موطنه الأصلي وراء تعقل العقول.

والضمير للكتاب، والمراد بام الكتاب اللوح المحفوظ كما قال تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ (البروج / ٢٢)، وتسميته بام الكتاب لكونه أصل الكتب السماوية يستنسخ منه غيره، والتقييد بام الكتاب و«لدينا» للتوضيح لا للاحتراز، والمعنى: أنه حال كونه في أُم الكتاب لدينا ـ حالاً لازمة ـ لعلي حكيم، وسيجيء في أواخر سورة الجاثية كلام في أُم الكتاب إن شاء الله.

والمراد بكونه عليّاً على ما يعطيه مفاد الآية السابقة أنه رفيع القدر والمنزلة من أن تناله العقول، وبكونه حكيماً أنه هناك محكم غير مفصّل ولا مجزّى الى سور وآيات وجمل وكلمات

كما هو كذلك بعد جعله قرآناً عربياً كما استفدناه من قوله تعالى: ﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فصِّلت من لدن حكيم خبير﴾ (هود / ١).

وهذا النعتان أعني كونه علياً حكيماً هما الموجبان لكونه وراء العقول البشرية فإن العقل في فكرته لا ينال إلا ما كان من قبيل المفاهيم والألفاظ أولاً وكان مؤلفاً من مقدمات تصديقية يترتب بعضها على بعض كما في الآيات والجمل القرآنية، وأما إذا كان الأمر وراء المفاهيم والألفاظ وكان غير متجزّ الى أجزاء وفصول فلا طريق للعقل الى نيله.

فحصَّل معنى الآيتين: أن الكتاب عندنا في اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع وإحكام لا تناله العقول لذينك الوصفين وإنما أنزلناه بجعله مقروّاً عربياً رجاء أن يعقله الناس.

قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء للتفريع على ما تقدم، وضرب الذكر عنهم صرفه عنهم. قال في المجمع: وأصل ضربت عنه الذكر أن الراكب إذا ركب دابة فأراد أن يصرفه عن جهة ضربه بعصا أو سوط ليعدل به الى جهة اخرى ثم وضع الضرب موضع الصرف والعدل. انتهى. والصفح بمعنى الإعراض فصفحاً مفعول له، واحتمل أن يكون بمعنى الجانب «وأن كنتم» محذوف الجار والتقدير لأن كنتم وهو متعلق بقوله: «أفنضرب».

والمعنى: أفنصرف عنكم الذكر ـ وهو الكتاب الذي جعلناه قرآناً لتعقلوه ـ للإعراض عنكم لكونكم مسرفين أو أفنصرفه عنكم الى جانب لكونكم مسرفين أي إنا لا نصرفه عنكم لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ «كم» للتكثير، والأولون هم الامم الدارجة و«ما يأتيهم» الخ؛ حال والعامل فيها «أرسلنا».

والآيتان وما يتلوهما في مقام التعليل لعدم صرف الذكر عنهم ببيان أن كونكم قوماً

مسرفين لا يمنعنا من إجراء سنّة الهداية من طريق الوحي فإنا كثيراً مّا أرسلنا من نبي في الامم الماضين والحال أنه ما يأتيهم من نبي إلا استهزؤا به وانجرَّ الأمر الى ان أهلكنا من اولئك من هو أشد بطشاً منكم.

فكما كانت عاقبة إسرافهم واستهزائهم الهلاك دون الصرف فكذلك عاقبة اسرافكم ففي الآيات الثلاث كما ترى وعد للنبي ﷺ ووعيد لقومه.

قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال الراغب: البطش تناول الشيء بصولة. انتهى وفي الآية التفات في قوله: «منهم» من الخطاب الى الغيبة، وكأن الوجه فيه العدول عن خطابهم الى خطاب النبي ﷺ لعدم اعتبارهم بهذه القصص والعبر وليكون تمهيداً لقوله بعد: «ومضى مثلا الأولين» ويؤيده قوله بعد: «ولئن سألتهم» خطاباً للنبي ﷺ. ومعنى قوله: «ومضى مثل الأولين» ومضى في السور النازلة قبل هذه السورة من القرآن وصف الامم الأولين وأنه كيف حاق بهم ما كانوا به يستهزؤن.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في الآية وما يتلوها الى تمام ست آيات احتجاج على ربوبيته تعالى وتوحده فيها مع إشارة ما الى المعاد وتبكيت لهم على اسرافهم مأخوذ من اعترافهم بأنه تعالى هو خالق الكل ثم الأخذ بجهات من الخلق هي بعينها تدبير لامور العباد كجعل الأرض لهم مهداً وجعله فيها سبلاً وانزال الأمطار فينتج أنه تعالى وحده مالك مدبر لامورهم فهو الرب لا رب غيره.

وبذلك تبين أن الآية تقدمة وتوطئة لما تتضمنه الآيات التالية من الحجة وقد تقدم في هذا الكتاب مراراً أن الوثنية لا تنكر رجوع الصنع والايجاد اليه تعالى وحده وانما تدعي رجوع أمر التدبير الى غيره.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ ﴾ اي جعل لكم الأرض بحيث تربّون فيها كما يربى الأطفال في المهد، وجعل لكل في الأرض سبلاً وطرقاً تسلكونها وتهتدون بها الى مقاصدكم.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ قيّد تنزيل الماء بقدر للاشارة الى أنه عن ارادة وتدبير لا كيف اتفق والانشار الاحياء، والميت مخفف الميت بالتشديد، وتوصيف البلدة به باعتبار أنها مكان لأن البلدة أيضاً انما تتصف بالموت والحياة باعتبار أنها مكان، والالتفات عن الغيبة الى التكلم مع الغير في «أنشرنا» لاظهار العناية.

ولما استدل بتنزيل الماء بقدر واحياء البلدة الميتة على خلقه وتدبيره استنتج منه أمراً آخر لا يتم التوحيد الا به وهو المعاد الذي هو رجوع الكل اليه تعالى فقال: «كذلك تخرجون» أي كما أحيا البلدة الميتة كذلك تبعثون من قبوركم أحياء.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ قيل: المراد بالأزواج أصناف الموجودات من ذكر وانثى وأبيض وأسود وغيرها، وقيل: المراد الزوج من كل شيء فكل ما سوى الله كالفوق والتحت واليمين واليسار والذكر والأنثى زوج.

وقوله: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أي تركبونه، والركوب اذا نسب الى الحيوان كالفرس والابل تعدى بنفسه فيقال: ركبت الفرس واذا نسب الى مثل الفلك والسفينة تعدى بفي فيقال: ركب فيه قال تعالى: ﴿ واذا ركبوا في الفلك ﴾ ففي قوله: «ما تركبون» أي تركبونه تغليب لجانب الأنعام.

قوله تعالى: ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا ـ الى قوله ـ لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ الاستواء على الظهور الاستقرار عليها، والضمير في «ظهوره» راجع الى لفظ الموصول في «ما تركبون» والضمير في قوله: «إذا استويتم عليه»

للموصول أيضاً فكما يقال: استويت على ظهر الدابة يقال: استويت على الدابة.

والمراد بذكر نعمة الرب سبحانه بعد الاستواء على ظهر الفلك والأنعام ذكر النعم التي ينتفع بها الإنسان بتسخيره تعالى له هذه المراكب كالانتقال من مكان الى مكان وحمل الأثقال قال تعالى: ﴿وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره﴾ (إبراهيم / ٣٢)، وقال: ﴿والأنعام خلقها ـ الى أن قال ـ وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ (النحل / ٧)، أو المراد ذكر مطلق نعمه تعالى بالانتقال من ذكر هذه النعم اليه.

وقوله: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين والإقران الإطاقة.

وظاهر ذكر النعمة عند استعمالها والانتفاع بها شكر منعمها ولازم ذلك أن يكون ذكر النعمة غير قول «سبحان الذي» الخ؛ فإن هذا القول تسبيح وتنزيه له عما لا يليق بساحة كبريائه وهو الشريك في الربوبية والالوهية، وذكر النعمة شكر ـ كما تقدم ـ والشكر غير التنزيه.

ويؤيد هذا ما ورد عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام في ما يقال عند الاستواء على المركوب فإن الروايات على اختلافها تتضمن التحميد وراء التسبيح يقول: «سبحان الذي» الخ.

وروى في الكشاف عن الحسن بن علي عليه السلام أنه رأى رجلاً يركب دابة فقال: سبحان الذي سخّر لنا هذا فقال: أبهذا أُمرتم؟ فقال: وبم أُمرنا؟ قال: أن تذكروا نعمة ربكم.

وقوله: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي صائرون شهادة بالمعاد.

١٥ ● وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ.

١٦ ● أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ.

١٧ • وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ.
١٨ • أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ.
١٩ • وَجَعَلُوا ٱلْمَلاٰئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ.
٢٠ • وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ.
٢١ • أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ.
٢٢ • بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ.
٢٣ • وَكَذٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ.
٢٤ • قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ.
٢٥ • فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ المراد

بالجزء الولد فإن الولادة إنما هي الاشتقاق فالولد جزء من والده منفصل منه متصور بصورته.

وإنما عبّر عن الولد بالجزء للإشارة الى استحالة دعواهم، فإن جزئية شيء من شيء كيفما تصورت لا تتم الا بتركب في ذلك الشيء والله سبحانه واحد من جميع الجهات.

وقد بان بما تقدم أن «من عباده» بيان لقوله: «جزء» ولا ضير في تقدّم هذا النوع من البيان على المبين ولا في جمعية البيان وإفراد المبين.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي أخلصكم للبنين فلكم بنون وليس له إلا البنات وأنتم ترون أن البنت أخسّ من الابن فتثبتون له أخس الصنفين وتخصون أنفسكم بأشرفهما، وهذا مع كونه قولاً محالاً في نفسه إزراء وإهانة ظاهرة وكفران.

وتقييد اتخاذ البنات بكونه مما يخلق لكونهم قائلين بكون الملائكة ـ على ربوبيتهم والوهيتهم ـ مخلوقين لله، والالتفات في الآية الى خطابهم لتأكيد الإلزام وتثبيت التوبيخ، والتنكير والتعريف في «بنات» و«البنين» للتحقير والتفخيم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ المثل هو المثل والشبه المجانس للشيء وضرب الشيء مثلاً أخذه مجانساً للشيء «وما ضرب للرحمان مثلاً» الانثى، والكظم المملوء كرباً وغيظاً.

والمعنى: وحالهم أنه إذا بشّر أحدهم بالانثى الذي جعلها شبهاً مجانساً للرحمان صار وجهه مسوداً من الغم وهو مملوء كرباً وغيظاً لعدم رضاهم بذلك وعدّه عاراً لهم لكنهم يرضونه له.

والالتفات في الآية الى الغيبة لحكاية شنيع سيرتهم وقبيح طريقتهم للغير حتى يتعجب منه.

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي أو

جعلوا لله سبحانه من ينشؤ في الحلية أي يتربى في الزينة وهو في المخاصمة والمحاجة غير مبين لحجته لا يقدر على تقرير دعواه.

وإنما ذكر هذين النعتين لأن المرأة بالطبع أقوى عاطفة وشنقة وأضعف تعقلاً بالقياس الى الرجل وهو بالعكس ومن أوضح مظاهر قوة عواطفها تعلقها الشديد بالحلية والزينة وضعفها في تقرير الحجة المبني على قوة التعقل.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا ٱلْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثاً﴾ الخ: هذا معنى قولهم: إن الملائكة بنات الله وقد كان يقول به طوائف من عرب الجاهلية واما غيرهم من الوثنية فربما عدوا في آلهتهم إلهة هي ام إله أو بنت إله لكن لم يقولوا بكون جميع الملائكة إناثاً كما هو ظاهر المحكي في الآية الكريمة.

وإنما وصف الملائكة بقوله: «الذين هم عباد الرحمان» رداً لقولهم بانوثتهم لأن الإناث لا يطلق عليهن العباد، ولا يلزم منه اتصافهم بالذكورة الذي يتصف به الحيوان فإن الذكورة والانوثة اللتين في الحيوان من لوازم وجوده المادي المجهز للتناسل وتوليد المثل، والملائكة في معزل من ذلك.

وقوله: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ﴾ رد لدعواهم الانوثة في الملائكة بأن الطريق الى العلم بذلك الحس وهم لم يروهم حتى يعلموا بها فلم يكونوا حاضرين عند خلقهم حتى يشاهدوا منهم ذلك.

فقوله: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ الخ: استفهام إنكاري ووعيد على قولهم بغير علم أي لم يشهدوا خلقهم وستكتب في صحائف أعمالهم هذه الشهادة عليهم ويسألون عنه يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ حجة عقلية داحضة محكية عنهم يمكن أن تقرر تارة لإثبات صحة عبادة الشركاء بأن يقال: لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء ما عبدناهم ضرورة لاستحالة تخلف

مراده تعالى عن إرادته لكنا نعبدهم فهو لم يشأ ذلك وعدم مشيته عدم عبادتهم إذن في عبادتهم فلا منع من قبله تعالى عن عبادة الشركاء والملائكة منهم. وهذا المعنى هو المنساق الى الذهن من قوله في سورة الأنعام: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء﴾ (الأنعام /١٤٨)، على ما يعطيه السياق ما قبله وما بعده.

وتقرّر تارة لإبطال النبوة القائلة أن الله يوجب عليكم كذا وكذا ويحرّم عليكم كذا كذا بأن يقال لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء ولا نحلّ ولا نحرّم شيئاً لم نعبد الشركاء ولم نضع من عندنا حكماً لاستحالة تخلّف مراده تعالى عن إرادته لكنّا نعبدهم ونحلّ ونحرّم أشياء فلم يشأ الله سبحانه منا شيئاً، فقول إن الله يأمركم بكذا وينهاكم عن كذا وبالجملة إنه شاء كذا باطل.

وهذا المعنى هو الظاهر المستفاد من قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء﴾ (النحل / ٣٥)، بالنظر الى السياق.

وقولهم في محكيّ الآية المبحوث عنها: «لو شاء الرحمان ما عبدناهم» على ما يفيده سياق الآيات السابقة واللاحقة مسوق للاحتجاج على المعنى الأول وهو تصحيح عبادتهم للملائكة فيكون في معنى آية سورة الأنعام وأخصّ منها.

وقوله: «ما لهم بذلك من علم» أي هو منهم قول مبني على الجهل فإنه مغالطة خلطوا فيها بين الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية وأخذ الاولى مكان الثانية، فمقتضى الحجة أن لا إرادة تكوينية منه تعالى متعلقة بعدم عبادتهم الملائكة وانتفاء تعلّق هذا النوع من الإرادة بعدم عبادتهم لهم لا يستلزم انتفاء تعلق الإرادة التشريعية به.

فهو سبحانه لما لم يشأ أن لا يعبدوا الشركاء بالإرادة التكوينية كانوا مختارين غير مضطرّين على فعل أو ترك فأراد منهم بالإرادة التشريعية أن يوحّدوه ولا يعبدوا الشركاء، والإرادة التشريعية لا يستحيل تخلف المراد عنها لكونها اعتبارية غير حقيقية، وإنما تستعمل

في الشرائع والقوانين والتكاليف المولوية، والحقيقة التي تبتني عليها هي اشتمال الفعل على مصلحة أو مفسدة.

وقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلاّ يَخْرُصُونَ﴾ الخرص ـ على ما يظهر من الراغب ـ القول على الظن والتخمين، وفسّر أيضاً بالكذب.

قوله تعالى: ﴿أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ضمير «من قبله» للقرآن، وفي الآية نفي أن يكون لهم حجة من طريق النقل كما أن في الآية السابقة نفي حجتهم من طريق العقل، ومحصّل الآيتين أن لا حجة لهم على عبادة الملائكة لا من طريق العقل ولا من طريق النقل فلم يأذن الله فيها.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قالُوا إِنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلىٰ أُمَّةٍ وَإِنّا عَلىٰ آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ الامة الطريقة التي تؤمّ وتقصد، والمراد بها الدين، والإضراب عما تحصّل من الآيتين، والمعنى: لا دليل لهم على حقية عبادتهم بل قالوا: إنا وجدنا آباءنا على دين وإنا على آثارهم مهتدون أي إنهم متشبثون بتقليد آبائهم فحسب.

قوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّ قالَ مُتْرَفُوها إِنّا وَجَدْنا﴾ الخ؛ أي إن التشبث بذيل التقليد ليس مما يختص بهؤلاء فقد كان ذلك دأب أسلافهم من الامم المشركين وما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير وهو النبي إلا تشبّث متنعّموها بذيل التقليد وقالوا: إنا وجدنا أسلافنا على دين وإنا على آثارهم مقتدون لن نتركها ولن نخالفهم.

ونسبة القول الى مترفيهم للاشارة الى أن الإتراف والتنعم هو الذي يدعوهم الى التقليد ويصرفهم عن النظر في الحق.

قوله تعالى: ﴿قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدىٰ مِمّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ﴾ الخ؛ القائل هو النذير، والخطاب للمترفين ويشمل غيرهم بالتبعية، والعطف في «أو لو جئتكم» على

محذوف يدل عليه كلامهم، والتقدير إنكم على آثارهم مقتدون ولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟ والمحصّل: هل أنتم لازمون لدينهم حتى لو كان ما جئتكم به من الدين أهدى منه؟ وعد النذير ما جاءهم به أهدى من دينهم مع كون دينهم باطلاً لا هدى فيه من باب مجاراة الخصم.

وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ جواب منهم لقول النذير «أولو جئتكم» الخ؛ وهو تحكم من غير دليل.

قوله تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي تفرّع على ذلك الإرسال والرد بالتقليد والتحكم أنا أهلكناهم بتكذيبهم فانظر كيف كان عاقبة اولئك السابقين من أهل القرى، وفيه تهديد لقوم النبي ﷺ.

٢٦ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ.

٢٧ ۞ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ.

٢٨ ۞ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

٢٩ ۞ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ.

٣٠ ۞ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ.

٣١ ۞ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ.

٣٢ ۞ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ.

٣٣ • وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ
بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ.

٣٤ • وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِئُونَ.

٣٥ • وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمّا مَتاعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ
رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ.

٣٦ • وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ.

٣٧ • وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ.

٣٨ • حَتّىٰ إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ
فَبِئْسَ الْقَرِينُ.

٣٩ • وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ.

٤٠ • أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ
مُبِينٍ.

٤١ • فَإِمّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ.

٤٢ • أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ.

٤٣ • فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.

٤٤ • وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ.

٤٥ • وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ
الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ البراء مصدر من برىء يبرأ فهو بريء فمعنى «إنني براء»: إنني ذو براء أو بريء على سبيل المبالغة مثل زيد عدل.

وفي الآية إشارة الى تبرّي إبراهيم ﷺ مما كان يعبده أبوه وقومه من الأصنام والكواكب بعد ما حاجَّهم فيها فاستندوا فيها الى سيرة آبائهم على ما ذكر في سور الأنعام والأنبياء والشعراء وغيرها.

والمعنى: واذكر لهم إذ تبرّأ إبراهيم عن آلهة أبيه وقومه إذكانوا يعبدونها تقليداً لآبائهم من غير حجة وقام بالنظر وحده.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ أي إلّا الذي أوجدني وهو الله سبحانه، وفي توصيفه تعالى بالفطر إشارة الى الحجة على ربوبيته وأُلوهيته فإن الفطر والايجاد لا ينفكّ عن تدبير أمر الموجود المفطور فالذي فطر الكلّ هو الذي يدبّر أمرهم فهو الحقيق أن يعبد.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ أي الى الحق الذي أطلبه، وقيل: أي الى طريق الجنة، وفي هذه الجملة إشارة الى خاصة اخرى ربوبية وهي الهداية الى السبيل الحق يجب أن يسلكه الانسان فإن السوق الى الكمال من تمام التدبير فعلى الرب المدبّر لأمر مربوبه أن يهديه الى كماله وسعادته، قال تعالى: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ (طه / ٥٠)، وقال: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ (النحل / ٩)، فالرجوع الى الله بتوحيد العبادة يستتبع الهداية كما قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ (العنكبوت / ٦٩).

والاستثناء في قوله: «إلّا الذي فطرني» منقطع لأن الوثنيين لا يعبدون الله كما مرَّ مراراً،

فقول بعضهم: إنه متصل، وأنهم كانوا يقولون: الله ربنا مع عبادتهم الأوثان، كما ترى.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الظاهر أن ضمير الفاعل المستتر في «جعلها» لله سبحانه، والضمير البارز ـ على ما قيل ـ لكلمة البراءة التي تكلم بها إبراهيم عليه السلام ومعناها معنى كلمة التوحيد فإن مفاد «لا إله إلّا الله» نفي الآلهة غير الله لا نفي الآلهة وإثبات الإله تعالى[1] وهو ظاهر فلا حاجة الى ما تكلف به بعضهم أن الضمير لكلمة التوحيد المعلوم مما تكلم به إبراهيم عليه السلام.

والمراد بعقبه ذرّيته وولده، وقوله: «لعلهم يرجعون» أي يرجعون من عبادة آلهة غير الله الى عبادته تعالى أي يرجع بعضهم ـ وهم العابدون لغير الله بدعوة بعضهم وهم العابدون لله ـ الى عبادته تعالى، وبهذا يظهر أن المراد ببقاء الكلمة في عقبه عدم خلوّهم عن الموحّد ما داموا، ولعل هذا عن استجابة دعائه عليه السلام إذ يقول ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾ (إبراهيم / ٣٥).

ويظهر من الآية أن ذرية إبراهيم عليه السلام لا تخلو من هذه الكلمة الى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ إضراب عما يفهم من الآية السابقة، والمعنى: أن رجوعهم عن الشرك الى التوحيد كان هو الغاية المرجوّة منهم لكنهم لم يرجعوا بل متّعت هولاء من قومك وآباءهم فتمتعوا بنعمي «حتى جاءهم الحق ورسول مبين».

والمراد بالحق الذي جاءهم هو القرآن، وبالرسول المبين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ هذا طعنهم في الحق الذي جاءهم وهو القرآن ويستلزم الطعن في الرسول. كما أن قولهم الآتي:

١. وذلك أن «الله» فيها مرفوع على البدلية لا منصوب على الاستثناء.

«لولا نزّل» الخ: كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٌ﴾ المراد بالقريتين مكة والطائف، ومرادهم بالعظمة ـ على ما يفيده السياق ـ ما هو من حيث المال والجاه اللذين هما ملاك الشرافة وعلوّ المنزلة عند أبناء الدنيا. والمراد بقوله: «رجل من القريتين عظيم» رجل من إحدى القريتين حذف المضاف إيجازاً.

ومرادهم أن الرسالة منزلة شريفة إلهية لا ينبغي أن يتلبّس به إلّا رجل شريف في نفسه عظيم مطاع في قومه، والنبي ﷺ فقير فاقد لهذه الخصلة. فلو كان القرآن الذي جاء به وحياً نازلاً من الله فلولا نزّل على رجل عظيم من مكة أو الطائف كثير المال رفيع المنزلة.

قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الخ: المراد بالرحمة ـ على ما يعطيه السياق ـ النبوة.

وقال الراغب: العيش الحياة المختصة بالحيوان، وهو أخص من الحياة لأن الحياة تقال في الحيوان وفي الباريء تعالى وفي الملك، ويشتق منه المعيشة لما يتعيش به. انتهى. وقال: التسخير سياقة الى الغرض المختص قهراً ـ الى أن قال ـ: والسخري هو الذي يُقهر فيتسخر بإرادته. انتهى.

والآية والآيتان بعدها في مقام الجواب عن قولهم: «لولا نزّل هذا القرآن على رجل» الخ؛ ومحصلها أن قولهم هذا تحكم ظاهر ينبغي أن يتعجب منه فإنهم يحكمون فيما لا يملكون. هذه معيشتهم في الحياة الدنيا يعيشون بها ويرتزقون وهي رحمة منا لا قدر لها ولا منزلة عندنا وليست إلّا متاعاً زائلاً نحن نقسمها بينهم وهي خارجة عن مقدرتهم ومشيتهم فكيف يقسمون النبوة التي هي الرحمة الكبرى وهي مفتاح سعادة البشر الدائمة والفلاح الخالد فيعطونها لمن شاؤا ويمنعونها ممن شاؤا.

فقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الاستفهام للانكار، والالتفات الى الغيبة في

قوله : « رحمة ربك » ولم يقل : رحمتنا ، للدلالة على اختصاص النبي ﷺ بعناية الربوبية في النبوة .

والمعنى : أنهم لا يملكون النبوة التي هي رحمة لله خاصة به حتى يمنعوك منها ويعطوها لمن هوَوا .

وقوله : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ بيان لوجه الإنكار في الجملة السابقة بأنهم عاجزون عن قسمة ما هو دون النبوة بمراحل ولا منزلة له وهو معيشتهم في الحياة الدنيا فنحن قسمناها بينهم فكيف يقسمون ما هو أرفع منزلة منها مما لا يقدّر قدره وهو النبوة التي هي رحمة ربك الخاصة به .

والدليل على أن الأرزاق والمعايش ليست بيد الإنسان اختلاف أفراده بالغنى والفقر والعافية والصحة وفي الأولاد وسائر ما يعدّ من الرزق ، وكلٌّ يريد أن يقتني منها ما لا مزيد عليه ، ولا يكاد يتيسّر لأحد منهم جميع ما يتمناه ويرتضيه فلو كان ذلك بيد الإنسان لم يوجد معدم فقير في شيء منها بل لم يختلف اثنان فيها فاختلافهم فيها أوضح دليل على أن الرزق مقسوم بمشيّة من الله دون الإنسان .

على أن الإرادة والعمل من الإنسان بعض الأسباب الناقصة لحصول المطلوب الذي هو الرزق ووراءهما أسباب كونية لا تحصى خارجة عن مقدرة الإنسان لا يحصل المطلوب إلّا بحصولها جميعاً واجتماعها عليه وليست إلّا بيد الله الذي اليه تنتهي الأسباب .

هذا كله في المال وأما الجاه فهو أيضاً مقسوم من عند الله فإنه يتوقف على صفات خاصة بها ترتفع درجات الإنسان في المجتمع فيتمكن من تسخير من هو دونه كالفطنة والدهاء والشجاعة وعلوّ الهمة وإحكام العزيمة وكثرة المال والعشيرة وشيء من ذلك لا يتمّ إلّا بصنع من الله سبحانه ، وذلك قوله : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » .

فيتبين بمجموع القولين أعني قوله: «نحن قسمنا» الخ؛ وقوله: «ورفعنا بعضهم فوق بعض» الخ: أن القاسم للمعيشة والجاه بين الناس هو الله سبحانه لا غير. وقوله: «ورحمة ربك خير مما يجمعون» أي النبوة خير من المال فكيف يملكون قسمها وهم لا يملكون قسم المال فيما بينهم.

ومن الممكن أن يكون قوله: «ورفعنا بعضهم فوق بعض» عطف تفسير على قوله: «ونحن قسمنا بينهم معيشتهم» الخ؛ يبين قسم المعيشة بينهم ببيان علل انقسامها في المجتمع الإنساني، بيان ذلك أن كثرة حوائج الإنسان في حياته الدنيا بحيث لا يقدر على رفع جميعها في عيش انفرادي أحوجته الى الاجتماع مع غيره من الأفراد على طريق الاستخدام والاستدرار أولاً وعلى طريق التعاون والتعاضد ثانياً كما مرَّ في مباحث النبوة من الجزء الثاني من الكتاب.

فآل الأمر الى المعاوضة العامة المفيدة لنوع من الاختصاص بأن يعطي كل مما عنده من حوائج الحياة ما يفضل من حاجته ويأخذ به من الغير ما يعادله مما يحتاج اليه فيعطي مثلاً ما يفضل من حاجته من الماء الذي عنده وقد حصّله واختصَّ به ويأخذ من غيره ما يزيد على قوته من الغذاء، ولازم ذلك أن يسعى كل فرد بما يستعد له ويحسنه من السعي فيقتني مما يحتاج اليه ما يختص به، ولازم ذلك أن يحتاج غيره اليه فيما عنده من متاع الحياة فيتسخر له فيفيده ما يحتاج اليه كالخبّاز يحتاج الى ما عند السقّاء من الماء وبالعكس فيتعاونان بالمعاوضة وكالمخدوم يتسخر للخادم لخدمته والخادم يتسخر للمخدوم لماله وهكذا فكل بعض من المجتمع مسخر لآخرين بما عنده والآخرون متسخرون له بلا واسطة أو بواسطة أو وسائط لما أن كلاً يرتفع على غيره بما يختص به مما عنده بدرجات مختلفة باختلاف تعلق الهمم والقصود به.

وعلى ما تقدم فالمراد بالمعيشة كل ما يعاش به أعم من المال والجاه أو خصوص المال

وغيره تبع له كما يؤيده قوله ذيلاً: «ورحمة ربك خير مما يجمعون» فإن المراد به المال وغيره من لوازم الحياة مقصود بالتبع.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً - الى قوله - وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ الآية وما يتلوها لبيان أن متاع الدنيا من مال وزينة لا قدر لها عند الله سبحانه ولا منزلة.

قالوا: المراد بكون الناس أُمة واحدة كونهم مجتمعين على سنَّة واحدة هي الكفر بالله لو رأوا أن زينة الدنيا بحذافيرها عند الكافر بالله والمؤمن سفر الكف منها مطلقاً. والمعارج الدرجات والمصاعد.

والمعنى: ولولا أن يجتمع الناس على الكفر لو رأوا تنعُّم الكافرين وحرمان المؤمنين لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ودرجات عليها يظهرون لغيرهم.

ويمكن أن يكون المراد بكون الناس أُمة واحدة كونهم جميعاً على نسبة واحدة تجاه الأسباب العاملة في حظوظ العيش من غير فرق بين المؤمن والكافر، فمن سعى سعيه للرزق ووافقته الأسباب والعوامل الموصلة الاخرى نال منه مؤمناً كان أو كافراً، ومن لم يجتمع له حرم ذلك وقتر عليه الرزق مؤمناً أو كافراً.

والمعنى: لولا ما أردنا أن يتساوى الناس تجاه الأسباب الموصلة الى زخارف الدنيا ولا يختلفوا فيها بالإيمان والكفر لجعلنا لمن يكفر، الخ.

قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفاً﴾ تنكير «أبواباً» و«سرراً» للتفخيم، والزخرف الذهب أو مطلق الزينة، قال في المجمع: الزخرف كمال حسن الشيء ومنه قيل للذهب، ويقال: زخرفه زخرفة إذا حسَّنه وزيَّنه، ومنه قيل للنقوش والتصاوير: زخرف، وفي الحديث إنه ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فنحّي. انتهى. والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ «إن» للنفي و«لما» بمعنى إلاّ أي ليس كل ما ذكر من مزايا المعيشة إلاّ متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية التي لا تدوم.

وقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المراد بالآخرة بقرينة المقام الحياة الآخرة السعيدة كأن الحياة الآخرة الشقية لا تعدُّ حياة.

والمعنى: أن الحياة الآخرة السعيدة بحكم من الله تعالى وقضاء منه مختصة بالمتقين، وهذا التخصيص والقصر يؤيد ما قدمناه من معنى كون الناس أُمة واحدة في الدنيا بعض التأييد.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ يقال: عشي يعشى عشاً من باب علم يعلم إذا كان ببصره آفة لا يبصر مطلقاً أو بالليل فقط، وعشا يعشو عشواً وعشوّاً من باب نصر ينصر إذا تعامى وتعشّى بلا آفة، والتقييض التقدير والإتيان بشيء الى شيء، يقال: قيّضه له إذا جاء به اليه.

لما انتهى الكلام الى ذكر المتقين وأن الآخرة لهم عند الله قرنه بعاقبة أمر المعرضين عن الحق المتعامين عن ذكر الرحمن مشيراً الى أمرهم من أوله وهو أن تعاميهم عن ذكر الله يورثهم ملازمة قرناء الشيطان فيلازمونهم مضلّين لهم حتى يردوا عذاب الآخرة معهم.

فقوله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ أي من تعامى عن ذكر الرحمن ونظر اليه نظر الأعشى جئنا اليه بشيطان، وقد عبَّر تعالى عنه في موضع آخر بالإرسال فقال: ﴿ألم ترَ أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزُّهم أزّاً﴾ (مريم / ٨٣)، وإضافة الذكر الى الرحمن للاشارة الى أنه رحمة.

وقوله: ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ أي مصاحب لا يفارقه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ضمير «أنهم» للشياطين، وضمائر الجمع الباقية للعاشين عن الذكر، واعتبار الجمع نظراً الى

المعنى في «ومن يعشُ» الخ: والصدّ الصرف، والمراد بالسبيل ما يدعو اليه الذكر من سبيل الله الذي هو دين التوحيد.

والمعنى: وإن الشياطين ليصرفون العاشين عن الذكر ويحسب العاشون أنهم ـ أي العاشين أنفسهم ـ مهتدون الى الحق.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ «حتى» غاية لاستمرار الفعل الذي يدل عليه قوله في الآية السابقة: «يصدّونهم» وقوله: «يحسبون» أي لا يزال القرناء يصدونهم ولا يزالون يحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا الواحد منهم.

والمراد بالمجيء اليه تعالى البعث، وضمير «جاء» و«قال» راجع الى الموصول باعتبار لفظه، والمراد بالمشرقين المشرق والمغرب غلب فيه جانب المشرق.

والمعنى: وإنهم يستمرون على صدّهم عن السبيل ويستمر العاشون عن الذكر على حسبان أنهم مهتدون في انصدادهم حتى إذا حضر الواحد منهم عندنا ومعه قرينه وكشف له عن ضلاله وما يستتبعه من العذاب الأليم، قال مخاطباً لقرينه متاذياً من صحابته: يا ليت بيني وبينك بعد المشرق والمغرب فبئس القرين أنت.

ويستفاد من السياق أنهم معذبون بصحابة القرناء وراء عذابهم بالنار، ولذا يتمنون التباعد عنهم ويخصونه بالذكر وينسون سائر العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ الظاهر أنه معطوف على ما قبله من وصف حالهم، والمراد باليوم يوم القيامة، وقوله: «أنكم في العذاب مشتركون» فاعل «لن ينفعكم» والمراد بضمير جمع المخاطب العاشون عن الذكر وقرناؤهم، و«إذ ظلمتم» واقع موقع التعليل.

والمراد ـ والله أعلم ـ أنكم إذا أساء بعضكم الى بعض في الدنيا فأوقعه في مصيبة ربما

تسليتم بعض التسلي لو ابتلي هو نفسه بمثل ما ابتلاكم به فينفعكم ذلك تسلياً وتشفياً لكن لا ينفعكم يوم القيامة اشتراك قرنائكم معكم في العذاب فإن اشتراكهم معكم في العذاب وكونهم معكم في النار هو بعينه عذاب لكم.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لما ذكر تقييضه القرناء لهم وتقليبهم إدراكهم بحيث يرون الضلال هدى ولا يقدرون على معرفة الحق فرّع عليه أن نبيه ﷺ أن هؤلاء صمّ عمي لا يقدر هو على إسماعهم كلمة الحق وهدايتهم الى سبيل الرشد فلا يتجشم ولا يتكلف في دعوتهم ولا يحزن لإعراضهم، والاستفهام للانكار، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ المراد بالإذهاب به توفيه ﷺ قبل الانتقام منهم، وقيل: المراد إذهابه بإخراجه من بينهم، وقوله: «فإنا منهم منتقمون» أي لا محالة، والمراد بإراءته ما وعدهم الانتقام منهم قبل توفيه ﷺ أو حال كونه بينهم، وقوله: «فإنا عليهم مقتدرون» أي اقتدارنا يفوق عليهم.

وقوله في الصدر: «فإما نذهبنّ بك» أصله إن نذهب بك زيدت عليه ما والنون للتأكيد، ومحصل الآية إنا منتقمون منهم بعد توفيك أو قبلها لا محالة.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الظاهر أنه تفريع لجميع ما تقدم من أن إنزال الذكر من طريق الوحي والنبوة من سننه تعالى وإن كتابه النازل عليه حق وهو رسول مبين لا يستجيب دعوته إلّا المتقون ولا يعرض عنها إلّا قرناء الشياطين، ولا مطمع في إيمانهم وسينتقم الله منهم.

فأكّد عليه الأمر بعد ذلك كله أن يجدّ في التمسك بالكتاب الذي أُوحي اليه لأنه على صراط مستقيم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ الظاهر أن المراد بالذكر ذكر الله، وبهذا المعنى تكرر مراراً في السورة، واللام في «لك ولقومك» للاختصاص بمعنى توجّه ما فيه من التكاليف اليهم، ويؤيده بعض التأييد قوله: «وسوف تسألون» أي عنه يوم القيامة.

وعن أكثر المفسرين أن المراد بالذكر الشرف الذي يذكر به، والمعنى: وإنه لشرف عظيم لك ولقومك من العرب تذكرون به بين الامم.

قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ قيل: المراد بالسؤال منهم السؤال من أممهم وعلماء دينهم كقوله تعالى: ﴿فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك﴾ (يونس / ٩٤)، وفائدة هذا المجاز أن المسؤل عنه السؤال منهم عين ما جاءت به رسلهم لا ما يجيبونه من تلقاء أنفسهم[1].

٤٦ • وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسىٰ بِآيَاتِنَا إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

٤٧ • فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ.

٤٨ • وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

٤٩ • وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ.

---

١. الزخرف ٢٦ ـ ٤٥: بحث روائي في: الكلمة الباقية في عقب ابراهيم عليه السلام: قوله تعالى: «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»؛ وقوله تعالى: «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا»: امة واحدة.

٥٠ ● فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ ٱلْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ.

٥١ ● وَنادىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهٰذِهِ ٱلْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ.

٥٢ ● أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ.

٥٣ ● فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ ٱلْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ.

٥٤ ● فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ.

٥٥ ● فَلَمّا آسَفُونا ٱنْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ.

٥٦ ● فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسىٰ بِآياتِنا إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعالَمِينَ﴾ اللام في «لقد» للقسم، والباء في قوله: «بآياتنا» للمصاحبة، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ﴾ المراد بمجيئهم بالآيات إظهار المعجزات للدلالة على الرسالة، والمراد بالضحك ضحك الاستهزاء استخفافاً بالآيات.

قوله تعالى: ﴿وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها﴾ الخ: الاخت المثل، وقوله: «هي أكبر من أُختها» كناية عن كون كل واحدة منها بالغة في الدلالة على حقية الرسالة، وجملة «وما نريهم من آية» الخ: حال من ضمير «منها»، والمعنى: فلما أتاهم

بالمعجزات إذا هم منها يضحكون والحال أن كلاً منها تامة كاملة في إعجازها ودلالتها من غير نقص ولا قصور.

وقوله: ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي رجاء أن يرجعوا عن استكبارهم الى قبول رسالته، والمراد بالعذاب الذي أُخذوا به آيات الرجز التي نزلت عليهم من السنين ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات كما في سورة الأعراف.

قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ ما في «بما عهد عندك» مصدرية أي بعهده عندك والمراد به عهده أن يكشف عنهم العذاب لو آمنوا كما قيل أو أن يستجيب دعاءه إذا دعا كما احتمله بعضهم.

وقولهم: يا أيها الساحر خطاب استهزاء استكباراً منهم كما قالوا: ادع ربك ولم يقولوا: ادع ربنا أو ادع الله استكباراً، والمراد أنهم طلبوا منه الدعاء لكشف العذاب عنهم ووعدوه الاهتداء.

وقيل: معنى الساحر في عرفهم العالم وكان الساحر عندهم عظيماً يعظمونه ولم يكن صفة ذم. وليس بذاك بل كانوا ساخرين على استكبارهم كما يشهد به قولهم: ادع لنا ربك.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ النكث نقض العهد وخلف الوعد، ووعدهم هو قولهم: «إننا لمهتدون».

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي ناداهم وهو بينهم. وفصل «قال» لكونه في موضع جواب السؤال كأنه قيل: فماذا قال؟ فقيل: قال كذا.

وقوله: ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ أي من تحت قصري أو من بستاني الذي فيه قصري المرتفع العالي البناء، والجملة أعني قوله: «وهذه الأنهار» الخ؛ حالية أو

«وهذه الأنهار» معطوف على «ملك مصر» وقوله: «تجري من تحتي» حال من الأنهار، والأنهار أنهار النيل.

وقوله: «أفلا تُبصرون» في معنى تكرير الاستفهام في قوله: «أليس لي ملك مصر» الخ.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ المهين الحقير الضعيف من المهانة بمعنى الحقارة، ويريد بالمهين موسى عليه السلام لما به من الفقر ورثاثة الحال.

وقوله: «ولا يكاد يبين» أي يفصح عن مراده ولعله كان يصف موسى عليه السلام به باعتبار ما كان عليه قبل الرسالة لكن الله رفع عنه ذلك لقوله: ﴿قال قد أُوتيت سؤلك يا موسى﴾ (طه / ٣٦) بعد قوله عليه السلام: ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ (طه / ٢٨).

وقوله في صدر الآية: «أم أنا خير» الخ؛ أم فيه إما منقطعة لتقرير كلامه السابق والمعنى: بل أنا خير من موسى لأنه كذا وكذا، وإما متصلة، وأحد طرفي الترديد محذوف مع همزة الاستفهام، والتقدير: أهذا خير أم أنا خير، الخ؛ وفي المجمع قال سيبويه والخليل: عطف أنا بأم على «أفلا تبصرون» لأن معنى «أنا خير» معنى أم تبصرون فكأنه قال: أفلا تبصرون أم تبصرون لأنهم إذا قالوا له: أنت خير منه فقد صاروا بصراء عنده انتهى. أي إن موضع «أم أنا خير» موضع أم تبصرون من وضع المسبب موضع السبب أو بالعكس.

وكيف كان فالإشارة الى موسى بهذا من دون أن يذكر باسمه للتحقير وتوصيفه بقوله: «الذي هو مهين ولا يكاد يبين» للتحقير وللدلالة على عدم خيريته.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاٰئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ الأسورة جمع سوار بالكسر، وقال الراغب: هو معرب دستواره قالوا: كان من دأبهم أنهم إذا سوّدوا رجلاً سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب فالمعنى لو كان رسولاً وساد الناس بذلك لالقي اليه أسورة من ذهب.

وقوله: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ ٱلْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ الظاهر أن الاقتران بمعنى التقارن كالاستباق والاستواء بمعنى التسابق والتساوي، والمراد إتيان الملائكة معه متقارنين لتصديق رسالته، وهذه الكلمة مما تكررت على لسان مكذبي الرسل كقولهم: ﴿لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ (الفرقان / ٧).

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ أي استخفّ عقول قومه وأحلامهم، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا ٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الإيساف الإغضاب أي فلما أغضبونا بفسوقهم انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين، والغضب منه تعالى إرادة العقوبة.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ السلف المتقدم والظاهر أن المراد بكونهم سلفاً للآخرين تقدمهم عليهم في دخول النار، والمثل الكلام السائر الذي يتمثّل به ويعتبر به، والظاهر أن كونهم مثلاً لهم كونهم مما يعتبر به الآخرون لو اعتبروا واتعظوا.

٥٧ ● وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ.

٥٨ ● وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ.

٥٩ ● إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

٦٠ ● وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ.

٦١ ● وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ

مُسْتَقِيمٌ.

٦٢ • وَلاٰ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطٰانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ.

٦٣ • وَلَمّٰا جٰاءَ عِيسىٰ بِالْبَيِّنٰاتِ قٰالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ.

٦٤ • إِنَّ اللّٰهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ.

٦٥ • فَاخْتَلَفَ الْأَحْزٰابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذٰابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَمّٰا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذٰا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ـ الى قوله ـ خَصِمُونَ﴾ الآية؛ الى تمام أربع آيات أو ست آيات حول جدال القوم فيما ضرب من مثل ابن مريم. والذي يتحصل بالتدبر فيها نظراً الى كون السورة مكية ومع قطع النظر عن الروايات هو أن المراد بقوله: «ولما ضرب ابن مريم مثلاً» هو ما أنزله الله من وصفه في أول سورة مريم فإنها السورة المكية الوحيدة التي وردت فيها قصة عيسى بن مريم عليه السلام تفصيلاً، والسورة تقص قصص عدة من النبيين بما أن الله أنعم عليهم كما تختتم قصصهم بقوله: ﴿اولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ (مريم / ٥٨)، وقد وقع في هذه الآيات قوله: «إن هو إلّا عبد أنعمنا عليه» وهو من الشواهد على كون قوله: «ولما ضرب ابن مريم مثلاً» إشارة الى ما في سورة مريم.

والمراد بقوله: «إذا قومك منه يصدّون بكسر الصاد أي يضجون ويضحكون ذم لقريش في مقابلتهم المثل الحق بالتهكم والسخرية. وقرىء «يصدُّون» بضم الصاد أي يعرضون وهو

أنسب للجملة التالية.

وقوله: ﴿وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ الاستفهام للانكار أي آلهتنا خير من ابن مريم كأنهم لما سمعوا اسمه بما يصفه القرآن به من النعمة والكرامة أعرضوا عنه بما يصفه به القرآن وأخذوه بما له من الصفة عند النصارى أنه إله فردّوا على النبي ﷺ بأن آلهتنا خير منه وهذا من أسخف الجدال كأنهم يشيرون بذلك الى أن الذي في القرآن من وصفه لا يعتنى به وما عند النصارى لا ينفع فإن آلهتهم خير منه.

وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً﴾ أي ما وجّهوا هذا الكلام «ءآلهتنا خير أم هو» اليك إلّا جدلاً يريدون به إبطال المثل المذكور وإن كان حقاً «بل هم قوم خصمون» أي ثابتون على خصومتهم مصرُّون عليها.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ رد لما يستفاد من قولهم: «ءآلهتنا خير أم هو» أنه إله النصارى كما سيجيء[1].

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الذي يستدعيه السياق أن يكون الضمير لابن مريم، والمراد بكونه مثلاً ـ على ما قيل ـ كونه آية عجيبة إلهية يسير ذكره كالأمثال السائرة.

والمعنى: ليس ابن مريم إلا عبداً متظاهراً بالعبودية أنعمنا عليه بالنبوة وتأييده بروح القدس وإجراء المعجزات الباهرة على يديه وغير ذلك وجعلناه آية عجيبة خارقة نصف به الحق لبني إسرائيل.

وهذا المعنى كما ترى ردّ لقولهم: «ءآلهتنا خير أم هو» الظاهر في تفضيلهم آلهتهم في ألوهيتها على المسيح ﷺ في ألوهيته ومحصّله أن المسيح لم يكن إلهاً حتى ينظر في منزلته في

---

١. الزخرف ٥٧ ـ ٦٥: بحث حول قوله تعالى: «انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم».

أُلوهيه وإنما كان عبداً أنعم الله عليه بما أنعم، وأما آلهتهم فنظر القرآن فيهم ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ الظاهر أن الآية متصلة بما قبلها مسرودة لرفع استبعاد أن يتلبّس البشر من الكمال ما يقصه القرآن عن عيسى عليه السلام فيخلق الطير ويحيي الموتى ويكلم الناس في المهد إلى غير ذلك، فيكون كالملائكة المتوسطين في الإحياء والإماتة والرزق وسائر أنواع من الكمال عند الوثنية مع ذلك عبداً غير معبود ومألوهاً غير إله فإن هذا النوع من الكمال عند الوثنية مختص بالملائكة وهو ملاك الوهيتهم ومعبوديتهم وبالجملة هم يحيلون تلبّس البشر بهذا النوع من الكمال الذي يخصونه بالملائكة.

فاجيب فأن لله أن يزكي الإنسان ويطهره من دناس المعاصي بحيث يصير باطنه باطن الملائكة فظاهره ظاهر البشر وباطنه باطن الملك يعيش في الأرض يخلف مثله ويخلفه مثله ويظهر منه ما يظهر من الملائكة[١].

وعلى هذا فمن في قوله: «منكم» للتبعيض، وقوله: «يخلفون» أي يخلف بعضهم بعضاً.

وفي المجمع أن «من» في قوله: «منك» تفيد معنى البدلية كما في قوله:

فليت لنا من ماء زمزم شربة   مبرّدة باتت على الطهيان[٢]

وقوله: «يخلفون» أي يخلفون بني آدم ويكونون خلفاء لهم، والمعنى: ولو نشاء أهلكناكم وجعلنا بدلكم ملائكة يسكنون الأرض ويعمرونها ويعبدون الله.

وفيه أنه لا يلائم النظم تلك الملاءمة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ

---

١. وليس هذا من الانقلاب الحال في شيء بل نوع من التكامل الوجودي بالخروج من حد منه أدنى إلى حد منه أعلى كما بين في محله.

٢. الطهيان قلة الجبل، ومعنى البيت: ليت لنا بدلاً من ماء زمزم شربة من الماء مبردة بقيت ليلة على قلة الجبل.

مُسْتَقِيمٌ ﴾ ضمير «إنه» لعيسى ﷺ والمراد بالعلم ما يعلم به. والمعنى: وإن عيسى يعلم بـه الساعة في خلقه من غير أب وإحيائه الموتى فيعلم به أن الساعة ممكنة فلا تشكّوا في الساعة ولا ترتابوا فيها البتة.

وقيل: المراد بكونه علماً للساعة كونه من أشراطها ينزل على الأرض فيعلم بـه قـرب الساعة.

وقيل: الضمير للقرآن وكونه علماً للساعة كونه آخر الكتب المنزلة من السماء.

وفي الوجهين جميعاً خفاء التفريع الذي في قوله: «فلا تمترنَّ بها».

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ الخ؛ المراد بالبينات الآيات البينات من المعجزات. وبالحكمة المعارف الإلهية من العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة.

وقوله: «ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه» أي في حكمه من الحوادث والأفعال، والذي يختلفون فيه وإن كان أعمّ من الاعتقادات التي يختلف في كونها حقة أو باطلة والحوادث والأفعال التي يختلف في مشروع حكمها لكن المناسب لسبق قوله: «قد جئتكم بالحكمة» أن يختص ما اختلوا فيه بالحوادث والأفعال والله أعلم.

وقيل: المراد بقوله: «بعض الذي يختلفون فيه» كل الذي تختلفون فيه. وهو كما ترى.

وقيل: المراد لأبين لكم أُمور دينكم دون أُمور دنياكم ولا دليل عليه من لفظ الآية ولا من المقام.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ نسب التقوى إلى الله والطاعة إلى نفسه ليسجل أنه لا يدعي إلا الرسالة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ دعوة منه إلى عبادة الله وحده وأنه هو ربه وربهم جميعاً وإتمام للحجة على من يقول بالوهيته.

قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ ضمير «من بينهم» لمن بعث اليهم عيسى عليه السلام والمعنى: فاختلف الأحزاب المتشعبة من بين أُمته في أمر عيسى من كافر به قال فيه، ومن مؤمن به غال فيه، ومن مقتصد لزم الاعتدال.

وقوله: «فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم» تهديد ووعيد للقالي منهم والغالي.

٦٦ ❁ هَل يَنْظُرُونَ إِلَّا السّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغتَةً وَهُمْ لا يَشعُرُونَ.

٦٧ ❁ اْلأَخِلّاءُ يَومَئذٍ بَعْضُهُم لِبَعضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَقينَ.

٦٨ ❁ يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحزَنُونَ.

٦٩ ❁ الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ.

٧٠ ❁ أُدْخُلُوا الجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ.

٧١ ❁ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُم فِيهَا خَالِدُونَ.

٧٢ ❁ وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

٧٣ ❁ لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ.

٧٤ ❁ إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ.

٧٥ ❁ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ.

٧٦ ❁ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلٰكِنْ كانُوا هُمُ الظّالِمِينَ.

٧٧ ❁ وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ.

٧٨ ● لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿هَل يَنْظُرُونَ إِلَّا السّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ النظر الانتظار، والبغتة الفجأة، والمراد بعدم شعورهم بها غفلتهم عنها لاشتغالهم بامور الدنيا كما قال تعالى: ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون﴾ (يس / ٤٩)، فلا يتكرر المعنى في قوله: «بغتة وهم لا يشعرون».

والمعنى: ما ينتظر هؤلاء الكفار بكفرهم وتكذيبهم لآيات الله إلا أن تأتيهم الساعة مباغتة لهم وهم غافلون عنها مشتغلون بامور دنياهم أي إن حالهم حال من هدّده الهلاك فلم يتوسل بشيء من أسباب النجاة وقعد ينتظر الهلاك ففي الكلام كناية عن عدم اعتنائهم بالايمان بالحق ليتخلصوا به عن أليم العذاب.

قوله تعالى: ﴿اَلْأَخِلّاءُ يَومَئِذٍ بَعْضُهُم لِبَعضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ الأخلاء جمع خليل وهو الصديق حيث يرفع خلة صديقه وحاجته، والظاهر أن المراد بالأخلاء المطلق الشامل للمخالّة والتحابّ في الله كما في مخالة المتقين أهل الآخرة والمخالة في غيره كما في مخالة أهل الدنيا فاستثناء المتقين متصل.

والوجه في عداوة الأخلاء غير المتقين أن من لوازم المخالة إعانة أحد الخليلين الآية في مهام اموره فإذا كانت لغير وجه الله كان فيها الاعانة على الشقوة الدائمة والعذاب الخالد كما قال تعالى حاكياً عن الظالمين يوم القيامة: ﴿يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾ (الفرقان / ٢٩)، وأما الأخلاء من المتقين فإن مخالتهم تتأكد وتنفعهم يومئذ.

وفي الخبر النبوي: إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام وقلّت الأنساب وذهبت الاخوّة

إلّا الاخوة في الله وذلك قوله: «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلّا المتقين»[1].

قوله تعالى: ﴿يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ من خطابه تعالى لهم يوم القيامة كما يشهد به قوله بعد: «ادخلوا الجنة» الخ؛ وفي الخطاب تأمين لهم من كل مكروه محتمل أو مقطوع به فإن مورد الخوف المكروه المحتمل ومورد الحزن المكروه المقطوع به فإذا ارتفعا ارتفعا.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ الموصول بدل من المنادى المضاف في «يا عباد» أو صفة له، والآيات كل ما يدل عليه تعالى من نبي وكتاب وأي آية أُخرى دالة، والمراد بالإسلام التسليم لإرادة الله وأمره.

قوله تعالى: ﴿أُدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ظاهر الأمر بدخول الجنة أن المراد بالأزواج هي النساء المؤمنات في الدنيا دون الحور العين لأنهن في الجنة غير خارجات منها.

والحبور ـ على ما قيل ـ السرور الذي يظهر أثره وحُباره في الوجه والحبرة الزينة وحسن الهيئة، والمعنى: ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم المؤمنات والحال أنكم تسرّون سروراً يظهر أثره في وجوهكم أو تزينون بأحسن زينة.

قوله تعالى: ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ﴾ الخ؛ الصحاف جمع صحفة وهي القصعة أو أصغر منها، والأكواب جمع كوب وهو كوز لا عروة له، وفي ذكر الصحاف والأكواب إشارة الى تنعمهم بالطعام والشراب.

وقوله: ﴿وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ الظاهر أن المراد بما تشتهيه الأنفس ما تتعلق به الشهوة الطبيعية من مذوق ومشموم ومسموع وملموس مما يتشارك فيه

---

١. رواه في الدر المنثور في الآية عن سعد بن معاذ.

الإنسان وعامة الحيوان ، والمراد بما تلذه الأعين الجمال والزينة وذلك مما الالتذاذ به كالمختص بالإنسان كما في المناظر البهجة والوجه الحسن واللباس الفاخر ، ولذا غيّر التعبير فعبّر عما يتعلق بالأنفس بالاشتهاء وفيما يتعلق بالأعين باللذة وفي هذين القسمين تنحصر اللذائذ النفسانية عندنا .

ويمكن أن تندرج اللذائذ الروحية العقلية فيما تلذه الأعين فإن الإلتذاذ الروحي يعد من رؤية القلب .

قال في المجمع : وقد جمع الله سبحانه في قوله : « ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما في الجنة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان . انتهى .

وقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ ﴾ إخبار ووعد وتبشير بالخلود ولهم في العلم به من اللذة الروحية ما لا يقاس بغيره ولا يقدر بقدر .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قيل : المعنى أُعطيتموها بأعمالكم ، وقيل أُورثتموها من الكفار وكانوا داخليها لو آمنوا وعملوا صالحاً ، وقد تقدم الكلام في المعنيين في تفسير قوله تعالى : ﴿ أُولئك هم الوارثون ﴾ (المؤمنون / ١٠) .

قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ ﴾ أضاف الفاكهة الى ما مرت الإشارة اليه من الطعام والشراب لإحصاء النعمة ، و« من » في « منها تأكلون » للتبعيض ولا يخلو من إشارة الى أنها لا تنفد بالأكل .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ المراد بالمجرمين المتلبّسون بالإجرام فيكون أعم من الكفار ويؤيده إيراده في مقابلة المتقين وهو أخص من المؤمنين .

والتفتير التخفيف والتقليل، والإبلاس اليأس ويأسهم من الرحمة أو من الخروج من النار.

قوله تعالى: ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ وَلٰكِنْ كانُوا هُمُ الظّالِمِينَ﴾ وذلك أنه تعالى جازاهم بأعمالهم لكنهم ظلموا أنفسهم حيث أوردوها بأعمالهم مورد الشقوة والهلكة.

قوله تعالى: ﴿وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ﴾ مالك هو الملك الخازن للنار على ما وردت به الأخبار من طرق العامة والخاصة.

وخطابهم مالكاً بما يسألونه من الله سبحانه لكونهم محجوبين عنه كما قال تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ (المطففين / ١٥)، وقال: ﴿قال اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ (المؤمنون / ١٠٨).

فالمعنى: أنهم يسألون مالكاً أن يسأل الله أن يقضي عليهم.

والمراد بالقضاء عليهم إماتتهم، ويريدون بالموت الانعدام والبطلان لينجوا بذلك عما هم فيه من الشقوة وأليم العذاب، وهذا من ظهور ملكاتهم الدنيوية فإنهم كانوا يرون في الدنيا أن الموت انعدام وفوت لا انتقال من دار الى دار فيسألون الموت بالمعنى الذي ارتكز في نفوسهم وإلّا فهم قد ماتوا وشاهدوا ما في حقيقته.

وقوله: «وقال إنكم ماكثون» أي فيما أنتم فيه من الحياة الشقيّة والعذاب الأليم. والقائل هو مالك جواباً عن مسألتهم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ﴾ ظاهره أنه من تمام كلام مالك يقوله عن لسان الملائكة وهو منهم، وقيل: من كلامه تعالى ويبعّده أنهم محجوبون يومئذ عن ربهم لا يكلمهم الله تعالى.

والخطاب لأهل النار بما أنهم بشر. فالمعنى: لقد جئناكم معشر البشر بالحق ولكن أكثركم وهم المجرمون كارهون للحق.

وقيل: المراد بالحق مطلق الحق أي حق كان فهم يكرهونه وينفرون منه وأما الحق المعهود الذي هو التوحيد أو القرآن فكلهم كارهون له مشمئزون منه.

والمراد بكراهتهم للحق الكراهة بحسب الطبع الثاني المكتسب بالمعاصي والذنوب لا بحسب الطبع الأول الذي هو الفطرة التي فطر الناس عليها إذ لو كرهوه بحسبها لم يكلفوا بقبوله، قال تعالى: ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ (الروم / ٣٠)، وقال: ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾ (الشمس / ٨).

ويظهر من الآية أن الملاك في السعادة والشقاء قبول الحق وردّه.

٧٩ ● أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ.

٨٠ ● أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوٰيهُمْ بَلىٰ وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ.

٨١ ● قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ.

٨٢ ● سُبْحانَ رَبِّ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ.

٨٣ ● فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ.

٨٤ ● وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ.

٨٥ ● وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

٨٦ ● وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلّا مَنْ شَهِدَ

بِالحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

٨٧ ● وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّهُ فَأَنّىٰ يُؤْفَكُونَ.

٨٨ ● وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هٰؤُلاءِ قَوْمٌ لاٰ يُؤْمِنُونَ.

٨٩ ● فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنّا مُبْرِمُونَ﴾ الابرام خلاف النقض وهو الاحكام، وأم منقطعة.

والمعنى: على ما يفيده سياق الآية والآية التالية، بل أحكموا أمراً من الكيد بك يا محمد فإنا محكمون الكيد بهم فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون﴾ (الطور / ٤٢).

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنّا لاٰ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوٰيهُمْ بَلىٰ وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ السر ما يستسرونه في قلوبهم والنجوى ما يناجيه بعضهم بعضاً بحيث لا يسمعه غيرهما، ولما كان السر حديث النفس عبر عن العلم بالسر والنجوى جميعاً بالسمع.

وقوله: ﴿بَلىٰ وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي بلى نحن نسمع سرهم ونجواهم ورسلنا الموكلون على حفظ أعمالهم عليهم يكتبون ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كٰانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعٰابِدِينَ﴾ إبطال لالوهية الولد بإبطال أصل وجوده من جهة علمه بأنه ليس، والتعبير بإن الشرطية دون لو الدالة على الامتناع ـ وكان مقتضى المقام أن يقال: لو كان للرحمن ولد، لاستنزالهم عن رتبة المكابرة الى مرحلة الانتصاف.

والمعنى: قل لهم إن كان للرحمن ولد كما يقولون: فأنا أول من يعبده أداء لحق بنوّته ومسانخته لوالده. لكني أعلم أنه ليس ولذلك لا أعبده لا لبغض ونحوه.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تسبيح له سبحانه عما ينسبون اليه. والظاهر أن «رب العرش» عطف بيان لرب السماوات والأرض لأن المراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود وهو عرش ملكه تعالى الذي استوى عليه وحكم فيه ودبر أمره.

ولا يخلو من إشارة الى حجة على الوحدانية إذ لما كان الخلق مختصاً به تعالى حتى باعتراف الخصم وهو من شؤن عرش ملكه، والتدبير من الخلق والايجاد فإنه إيجاد النظام الجاري بين المخلوقات فالتدبير أيضاً من شؤن عرشه فربوبيته للعرش ربوبية لجميع السماوات والأرض.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وعيد إجمالي لهم بأمر النبي ﷺ بالاعراض عنهم حتى يلاقوا ما يحذّرهم منه من عذاب يوم القيامة.

والمعنى: فاتركهم يخوضوا في أباطيلهم ويلعبوا في دنياهم ويشتغلوا بذلك حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدونه وهو يوم القيامة كما ذكر في الآيات السابقة «هل ينظرون إلّا الساعة» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي هو الذي هو في السماء إله مستحق للمعبودية وهو في الأرض إله أي هو المستحق لمعبودية أهل السماوات والأرض وحده، ويفيد تكرار «إله» كما قيل التأكيد والدلالة على أن كونه تعالى إلهاً في السماء والأرض بمعنى تعلق أُلوهيته بهما لا بمعنى استقراره فيهما أو في أحدهما.

وفي الآية مقابلة لما يثبته الوثنية لكل من السماء والأرض إلهاً أو آلهة، وفي تذييل الآية بقوله: «وهو الحكيم العليم» الدال على الحصر إشارة الى وحدانيته في الربوبية التي لازمها الحكمة والعلم.

قوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ثناء عليه تعالى بالتبارك وهو مصدريته للخير الكثير.

وكل من الصفات الثلاث المذكورة حجة على توحّده في الربوبية أما ملكه للجميع فظاهر فإن الربوبية لمن يدبر الأمر والتدبير للملك، وأما اختصاص علم الساعة به فلأن الساعة هي المنزل الأقصى اليه يسير الكل وكيف يصحّ أن يربّ الأشياء من لا علم به بمنتهى مسيرها فهو تعالى رب الأشياء لا من يدّعونه، وأما رجوع الناس اليه فإن الرجوع للحساب والجزاء وهو آخر التدبير فمن اليه الرجوع فإليه التدبير ومن اليه التدبير له الربوبية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ السياق سياق العموم فالمراد بالذين يدعون، أي يعبدونهم من دونه، كل معبود غيره تعالى من الملائكة والجن والبشر وغيرهم.

والمراد «بالحق» الحق الذي هو التوحيد، والشهادة به الاعتراف به، والمراد بقوله: «وهم يعلمون» حيث أُطلق العلم علمهم بحقيقة حال من شفعوا له وحقيقة عمله كما قال: ﴿لا يتكلمون إلّا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ (النبأ / ٣٨)، وإذا كان هذا حال الشفعاء لا يملكونها إلّا بعد الشهادة بالحق فما هم بشافعين إلّا لأهل التوحيد كما قال: «ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى».

والآية مصرّحة بوجود الشفاعة.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ فَأَنّٰى يُؤْفَكُونَ﴾ أي الى متى يصرفون عن الحق الذي هو التوحيد الى الباطل الذي هو الشرك، وذلك أنهم معترفون

أن لا خالق إلّا الله والتدبير الذي هو ملاك الربوبية غير منفك عن الخلق كما اتضح مراراً فالرب المعبود هو الذي بيده الخلق وهو الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ضمير «قيله» للنبي ﷺ بلا إشكال، والقيل مصدر كالقول والقال، و«قيله» معطوف ـ على ما قيل ـ على الساعة في قوله: «وعنده علم الساعة»، والمعنى: وعنده علم قوله: «يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون».

قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أمر بالإعراض عنهم وإقناط من إيمانهم، وقوله: «قل سلام» أي وادعهم موادعة ترك من غير همّ لك فيهم، وفي قوله: «فسوف يعلمون» تهديد ووعيد.

سورة الدخان مكية وهي تسع وخمسون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ حٰمٓ.

٢ ❁ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ.

٣ ❁ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ.

٤ ❁ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ.

٥ ❁ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ.

٦ ❁ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ.

٧ ❁ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ.

٨ ❁ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلأَوَّلِينَ.

بيان:

يتلخص غرض السورة في إنذار المرتابين في الكتاب بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة وقد

سيق بيان ذلك بأنه كتاب مبين نازل من عند الله على من أرسله الى الناس لإنذارهم وقد نزل رحمة منه تعالى لعباده خير نزول في ليلة القدر التي فيها يفرق كل أمر حكيم.

غير أن الناس وهم الكفار ارتابوا فيه لاعبين في هوساتهم وسيغشاهم أليم عذاب الدنيا ثم يرجعون الى ربهم فينتقم منهم بعد فصل القضاء بعذاب خالد.

ثم يذكر لهم تنظيراً لأول الوعيدين قصة إرسال موسى عليه السلام الى قوم فرعون لإنجاء بني إسرائيل وتكذيبهم له وإغراقهم نكالاً منه.

ثم يذكر إنكارهم لثاني الوعيدين وهو الرجوع الى الله في يوم الفصل فيقيم الحجة على أنه آت لا محالة ثم يذكر طرفاً من أخباره وما سيجري فيه على المجرمين ويصيبهم من ألوان عذابه، وما سيثاب به المتقون من حياة طيبة ومقام كريم.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الواو للقسم والمراد بالكتاب المبين القرآن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ المراد بالليلة المباركة التي نزل فيها القرآن ليلة القدر على ما يدل قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ (القدر / ١)، وكونها مباركة ظرفيتها للخير الكثير الذي ينبسط على الخلق من الرحمة الواسعة، وقد قال تعالى: ﴿وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ (القدر / ٣).

وظاهر اللفظ أنها إحدى الليالي التي تدور على الأرض وظاهر قوله: ﴿فيها يفرق﴾ الدال على الاستمرار أنها تتكرّر وظاهر قوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن﴾ (البقرة / ١٨٥)، أنها تتكرر بتكرر شهر رمضان فهي تتكرر بتكرر السنين القمرية وتقع في كل سنة قمرية مرة واحدة في شهر رمضان، وأما أنها أي ليلة هي؟ فلا إشعار في كلامه تعالى بذلك، وأما الروايات فستوافيك في البحث الروائي التالي.

والمراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة على ما هو ظاهر قوله: «إنا أنزلناه في ليلة مباركة» وقوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ (القدر / ١)، وقوله: ﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان﴾ (البقرة / ١٨٥)، أن النازل هو القرآن كله.

ولا يدفع ذلك قوله: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾ (الإسراء / ١٠٦)، وقوله: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾ (الفرقان / ٣٢)، الظاهرين في نزوله تدريجاً. ويؤيد ذلك آيات اخر كقوله: ﴿فإذا انزلت سورة محكمة﴾ (سورة محمد / ٢٠)، وقوله: ﴿وإذا ما انزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض﴾ (التوبة / ١٢٧) وغير ذلك ويؤيد ذلك أيضاً ما لا يحصى من الأخبار المتضمنة لأسباب النزول.

وذلك أنه يمكن أن يحمل على نزول القران مرتين مرة مجموعاً وجملة في ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان، ومرة تدريجاً ونجوماً في مدة ثلاث وعشرين سنة وهي مدة دعوته ﷺ.

لكن الذي لا ينبغي الإرتياب فيه أن هذا القرآن المؤلف من السور والآيات بما فيه من السياقات المختلفة المنطبقة على موارد النزول المختلفة الشخصية لا يقبل النزول دفعة فإن الآيات النازلة في وقائع شخصية وحوادث جزئية مرتبطة بأزمنة وأمكنة وأشخاص وأحوال خاصة لا تصدق إلا مع تحقق مواردها المتفرقة زماناً ومكاناً وغير ذلك بحيث لو اجتمعت زماناً ومكاناً وغير ذلك انقلبت عن تلك الموارد وصارت غيرها فلا يمكن احتمال نزول القرآن وهو على هيئته وحاله بعينها مرة جملة، ومرة نجوماً.

فلو قيل بنزوله مرتين كان من الواجب أن يفرّق بين المرتين بالإجمال والتفصيل فيكون نازلاً مرة إجمالاً ومرة تفصيلاً ونعني بهذا الإجمال والتفصيل ما يشير اليه قوله تعالى: ﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير﴾ (هود / ١)، وقوله: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً

لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم ﴾ (الزخرف / ٤) ، وقد مرّ الكلام في معنى الإحكام والتفصيل في تفسير سورتي هود والزخرف .

وقوله : « إنا كنا منذرين » واقع موقع التعليل ، وهو يدل على استمرار الإنذار منه تعالى قبل هذا الإنذار ، فيدل على أن نزول القرآن من عنده تعالى ليس ببدع ، فإنما هو إنذار والإنذار سنّة جارية له تعالى لم تزل تجري في السابقين من طريق الوحي الى الأنبياء والرسل وبعثهم لإنذار الناس .

قوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ضمير « فيها » لليلة والفرق فصل الشيء من الشيء بحيث يتمايزان ويقابله الإحكام فالأمر الحكيم ما لا يتميز بعض أجزائه من بعض ولا يتعين خصوصياته وأحواله كما يشير الى ذلك قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم ﴾ (الحجر / ٢١) .

فللامور بحسب القضاء الإلهي مرحلتان : مرحلة الإجمال والإبهام ومرحلة التفصيل ، وليلة القدر ـ على ما يدل عليه قوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم ـ ليلة يخرج فيها الامور من مرحلة الإحكام الى مرحلة الفرق والتفصيل ، وقد نزل فيها القرآن وهو أمر من الامور المحكمة فرق في ليلة القدر .

ولعل الله سبحانه أطلع نبيه على جزئيات الحوادث التي ستقع في زمان دعوته وما يقارن منها نزول كل آية أو آيات أو سورة من كتابه فيستدعي نزولها وأطلعه على ما ينزل منها فيكون القرآن نازلاً عليه دفعة وجملة قبل نزوله تدريجاً ومفرّقاً .

ومآل هذا الوجه اطلاع النبي ﷺ على القرآن في مرحلة نزوله الى القضاء التفصيلي قبل نزوله على الأرض واستقراره في مرحلة العين ، وعلى هذا الوجه لا حاجة الى تفريق المرتين بالإجمال والتفصيل كما تقدم في الوجه الأول .

قوله تعالى : ﴿ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ المراد بالأمر الشأن وهو حال من

الأمر السابق والمعنى فيها يفرق كل أمر حال كونه أمراً من عندنا ومبتدأ من لدنا، ويمكن أن يكون المراد به ما يقابل النهي والمعنى: يفرق فيها كل أمر بأمر منا، وهو على أي حال متعلق بقوله: «يفرق».

ويمكن أن يكون متعلقاً بقوله: «أنزلناه» أي حال كون الكتاب أمراً أو بأمر من عندنا، وقوله: «إنا كنا مرسلين» لا يخلو من تأييد لذلك، ويكون تعليلاً له والمعنى: إنا أنزلناه أمراً من عندنا لأن سنتنا الجارية إرسال الأنبياء والرسل.

قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي إنزاله رحمة من ربك أو أنزلناه لأجل إفاضة الرحمة على الناس أو لاقتضاء رحمة ربك إنزاله فقوله: «رحمة» حال على المعنى الاول ومفعول له على الثاني والثالث.

وفي قوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ التفات من التكلم مع الغير الى الغيبة ووجهه إظهار العناية بالنبي ﷺ لأنه هو الذي انزل عليه القران وهو المنذر المرسل الى الناس.

وقوله: ﴿رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ لما كانت الوثنية يرون أن لكل صنف من الخلق إلهاً أو أكثر وربما اتخذ قوم منهم إلهاً غير ما يتخذه غيرهم عقب قوله: «من ربك» بقوله: «رب السماوات» الخ؛ لئلا يتوهم متوهم منهم أن ربوبيته للنبي ﷺ ليست بالاختصاص كالتي بينهم بل هو تعالى ربه ورب السماوات والأرض وما بينهما، ولذلك عقبه أيضاً في الآية التالية بقوله: «لا إله إلا هو».

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ هذا الاشتراط كما ذكره الزمخشري من قبيل قولنا هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه واشتهروا سخاءه إن بلغك حديثه وحدثت بقصته فالمعنى هو الذي يعرفه الموقنون بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم منهم عرفتموه بأنه رب كل شيء.

قوله تعالى: ﴿لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ لما

كان مدلول الآية السابقة انحصار الربوبية وهي الملك والتدبير فيه تعالى والالوهية وهي المعبودية بالحق من لوازم الربوبية عقبه بكلمة التوحيد النافية لكل إله دونه تعالى.

وقوله: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ من أخص الصفات به تعالى وهما من شؤن التدبير، وفي ذكرهما نوع تمهيد لما سيأتي من إنذارهم بالمعاد.

وقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فيه كمال التصريح بأنه ربهم ورب آبائهم فليعبدوه ولا يتعللوا باتباع آبائهم في عبادة الأصنام، ولتكميل التصريح سيقت الجملة بالخطاب فقيل «ربكم ورب آبائكم».

وهما أعني قوله: «يحي ويميت» وقوله: «ربكم» خبران لمبتدأ محذوف والتقدير هو يحيي ويميت، الخ[١].

٩ ● بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ.

١٠ ● فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ.

١١ ● يَغْشَى النَّاسَ هٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ.

١٢ ● رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ.

١٣ ● أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ.

١٤ ● ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ.

١٥ ● إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ.

١٦ ● يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ.

---

١. الدخان ٩ ـ ٣٣: بحث روائي حول ليلة المباركة التي انزل فيها القرآن.

١٧ ● وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ.
١٨ ● أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ.
١٩ ● وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ.
٢٠ ● وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ.
٢١ ● وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ.
٢٢ ● فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هٰؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ.
٢٣ ● فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ.
٢٤ ● وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ.
٢٥ ● كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ.
٢٦ ● وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ.
٢٧ ● وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ.
٢٨ ● كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ.
٢٩ ● فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ.
٣٠ ● وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ.
٣١ ● مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ.
٣٢ ● وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ.
٣٣ ● وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ضمير الجمع لقوم النبي ﷺ، والإضراب عن محذوف يدل عليه السياق السابق أي إنهم لا يوقنون ولا يؤمنون بما ذكر من رسالة الرسول وصفة الكتاب الذي أُنزل عليه بل هم في شك وارتياب فيه يلعبون بالاشتغال بدنياهم. وذكر الزمخشري أن الإضراب عن قوله: «إن كنتم موقنين».

قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ الإرتقاب الانتصار وهذا وعيد بالعذاب وهو إتيان السماء بدخان مبين يغشى الناس.

وقوله: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي يشملهم ويحيط بهم، والمراد بالناس أهل مكة على القول الأول، وعامة الناس على القول الثاني.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ حكاية قول الناس عند نزول عذاب الدخان أي يقول الناس يوم تأتي السماء بدخان مبين: هذا عذاب أليم ويسألون الله كشفه بالاعتراف بربوبيته وإظهار الإيمان بالدعوة الحقة فيقولون: ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون.

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أي من أين لهم أن يتذكروا ويذعنوا بالحق والحال أنه قد جاءهم رسول مبين ظاهر في رسالته لا يقبل الإرتياب وهو محمد ﷺ، وفي الآية ردّ صدقهم في وعدهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ التولي الإعراض، وضمير «عنه» للرسول و«معلّم مجنون» خبران لمبتدء محذوف هو ضمير راجع الى الرسول والمعنى: ثم أعرضوا عن الرسول وقالوا هو معلم مجنون فرموه أولاً بأنه معلم يعلّمه غيره فيسند ما تعلمه الى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر﴾ (النحل /

١٠٣)، وثانياً بأنه مجنون مختلّ العقل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ أي إنا كاشفون للعذاب زماناً انكم عائدون الى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب هذا بناء على القول الأول والآية تأكيد لرد صدقهم فيما وعدوه من الايمان.

وأما على القول الثاني فالأقرب أن المعنى: إنكم عائدون الى العذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ البطش ـ على ما ذكره الراغب ـ تناول الشيء بصولة، وهذا اليوم بناء على القول الأول المذكور يوم بدر وبناء على القول الثاني يوم القيامة، وربما أيد توصيف البطشة بالكبرى هذا القول الثاني فإن بطش يوم القيامة وعذابه أكبر البطش والعداب، قال تعالى: ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ (الغاشية / ٢٤)، كما أن أجره أكبر الأجر قال تعالى: ﴿ولأجر الآخرة أكبر﴾ (النحل / ٤١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ الفتنة الامتحان والابتلاء للحصول على حقيقة الشيء، وقوله: «وجاءهم رسول كريم» الخ: تفسير للامتحان، والرسول الكريم موسى ﷺ، والكريم هو المتّصف بالخصال الحميدة قال الراغب: الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر نحو قوله: «إن ربي غني كريم» وإذا وصف به الانسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه، قال: وكل شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم قال تعالى: ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ ﴿وزروع ومقام كريم﴾ ﴿إنه لقرآن كريم﴾ ﴿ ﴾ وقل لهما قولاً كريماً﴾ انتهى.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تفسير لمجيء الرسول فإن معنى مجيء الرسول تبليغ الرسالة وكان من رسالة موسى ﷺ الى فرعون وقومه أن يرسلوا معهم بني إسرائيل ولا يعذبوهم، والمراد بعباد الله بنو إسرائيل وعبر عنهم بذلك

استرحاماً وتلويحاً الى أنهم في استكبارهم وتعديهم عليهم إنما يستكبرون على الله لأنهم عباد الله .

وفي قوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ حيث وصف نفسه بالأمانة دفع لاحتمال أن يخونهم في دعوى الرسالة وإنجاء بني إسرائيل من سيطرتهم فيخرج معهم عليهم فيخرجهم من ارضهم كما حكى تعالى عن فرعون إذ قال للملإ حوله : ﴿ إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ (الشعراء / ٢٥) .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لاَ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي لا تتجبروا على الله بتكذيب رسالتي والإعراض عما أمركم الله فإن تكذيب الرسول في رسالته استعلاء وتجبر على من أرسله والدليل على أن المراد ذلك تعليل النهي بقوله : « إني آتيكم بسلطان مبين » أي حجة بارزة من الآيات المعجزة أو حجة المعجزة وحجة البرهان .

قيل : ومن حسن التعبير الجمع بين التأدية والأمين وكذا بين العلو والسلطان .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ أي التجأت اليه تعالى من رجمكم إياي فلا تقدرون على ذلك ، والظاهر أنه إشارة الى ما آمنه ربه قبل المجيء الى القوم كما في قوله تعالى : ﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ (طه / ٤٦) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ أي إن لم تؤمنوا لي فكونوا بمعزل مني لا لي ولا عليّ ولا تتعرضوا لي بخير أو شر ، وقيل : المراد تنحوا عني وانقطعوا ، وهو بعيد .

قوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾ أي دعاه بأن هؤلاء قوم مجرمون وقد ذكر من دعائه السبب الداعي له الى الدعاء وهو إجرامهم الى حد يستحقون معه الهلاك ويعلم ما سأله مما أجاب به ربه تعالى إذ قال : « فأسر بعبادي » الخ ؛ وهو الإهلاك .

قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾ الإسراء : السير بالليل فيكون

قوله: «ليلاً» تأكيداً له وتصريحاً به، والمراد بعبادي بنو إسرائيل، وقوله: «إنكم متّبعون» أي يتبعكم فرعون وجنوده، وهو استئناف يخبر عما سيقع عقيب الإسراء.

وفي الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فقال له: أسر بعبادي ليلاً إنكم متّبعون يتبعكم فرعون وجنوده.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ قال في المفردات: واترك البحر رهواً أي ساكناً، وقيل: سعة من الطريق وهو الصحيح. انتهى. وقوله: «إنهم جند مغرقون» تعليل لقوله: «واترك البحر رهواً».

وفي الكلام إيجاز بالحذف اختصاراً والتقدير: أسر بعبادي ليلاً يتّبعكم فرعون وجنوده حتى إذا بلغتم البحر فاضربه بعصاك لينفتح طريق لجوازكم فجاوزوه واتركه ساكناً أو مفتوحاً على حاله فيدخلونه طمعاً في إدراككم فهم جند مغرقون.

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَٰلِكَ﴾ «كم» للتكثير أي كثيراً ما تركوا، وقوله: «من جنات» الخ: بيان لما تركوا، والمقام الكريم المساكن الحسنة الزاهية، والنعمة بفتح النون التنعّم وبناؤها بناء المرّة كالضربة وبكسر النون قسم من التنعم وبناؤها بناء النوع كالجلسة وفسروا النعمة ههنا بما يتنعم به وهو أنسب للترك، وفاكهين من الفكاهة بمعنى حديث الانس ولعل المراد به ههنا التمتع كما يتمتع بالفواكه وهي أنواع الثمار.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قيل: معناه الأمر كذلك، وقيل: المعنى نفعل فعلاً كذلك لمن نريد إهلاكه، وقيل: الإشارة الى الإخراج المفهوم من الكلام السابق، والمعنى: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها.

ويمكن أن يكون حالاً من مفعول «تركوا» المحذوف والمعنى: كثيراً ما تركوا أشياء كذلك أي على حالها والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ الضمير لمفعول «تركوا» المحذوف المبيّن بقوله: «من جنات» الخ؛ والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ بكاء السماء والأرض على شيء فائت كناية تخييلية عن تأثرهما عن فوته وفقده فعدم بكائها عليهم بعد إهلاكهم كناية عن هوان أمرهم على الله وعدم تأثير هلاكهم في شيء من أجزاء الكون.

وقوله: «وما كانوا منظرين» كناية عن سرعة جريان القضاء الإلهي والقهر الربوبي في حقهم وعدم مصادفته لمانع يمنعه أو يحتاج الى علاج في رفعه حتى يتأخر به.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ وهو ما يصيبهم وهم في أسارة فرعون من ذبح الأبناء واستحياء النساء وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ «من فرعون» بدل من قوله: «من العذاب» إما بحذف مضاف والتقدير من عذاب فرعون، أو من غير حذف يجعل فرعون عين العذاب دعوى للمبالغة، وقوله: «إنه كان عالياً من المسرفين» أي متكبراً من أهل الإسراف والتعدّي عن الحد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي اخترناهم على علم منا باستحقاقهم الاختيار على ما يفيده السياق.

والمراد بالعالمين جميع العالمين من الامم إن كان المراد بالاختيار الاختيار من بعض الوجوه ككثرة الأنبياء فإنهم يمتازون من سائر الامم بكثرة الأنبياء المبعوثين منهم ويمتازون بأن مرّ عليهم دهر طويل من التيه وهم يتظللون بالغمام ويأكلون المن والسلوى الى غير ذلك.

وعالموا أهل زمانهم إن كان المراد بالاختيار مطلقة فإنهم لم يختاروا على الامة الاسلامية

التي خاطبهم الله تعالى بمثل قوله: ﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس﴾ (آل عمران / ١١٠)، وقوله: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ (الحج / ٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ ٱلآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُبِينٌ﴾ البلاء الاختبار والامتحان أي وأعطينا بني إسرائيل من الآيات المعجزات ما فيه امتحان ظاهر ولقد أُوتوا من الآيات المعجزات ما لم يعهد في غيرهم من الامم وابتلوا بذلك ابتلاء مبيناً.

قيل: وفي قوله: «فيه» إشارة الى أن هناك اموراً اخرى ككونه معجزة.

وفي تذييل القصة بهذه الآيات الأربع أعني قوله: «ولقد نجّينا بني إسرائيل ـ الى قوله ـ بلاء مبين» نوع تطييب لنفس النبي ﷺ وإيماء الى أن الله تعالى سينجّيه والمؤمنين به من فراعنة مكة ويختارهم ويمكّنهم في الأرض فينظر كيف يعملون.

٣٤ ● إِنَّ هٰؤُلاءِ لَيَقُولُونَ.

٣٥ ● إِنْ هِيَ إِلاّٰ مَوْتَتُنَا ٱلأُولىٰ وَمٰا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ.

٣٦ ● فَأْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ.

٣٧ ● أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنٰاهُمْ إِنَّهُمْ كٰانُوا مُجْرِمِينَ.

٣٨ ● وَمٰا خَلَقْنَا السَّمٰوٰاتِ وَٱلأَرْضَ وَمٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ.

٣٩ ● مٰا خَلَقْنٰاهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ.

٤٠ ● إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقٰاتُهُمْ أَجْمَعِينَ.

٤١ ● يَوْمَ لاٰ يُغْنِي مَوْلَىً عَنْ مَوْلَىً شَيْئاً وَلاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ.

٤٢ ● إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ اللّٰهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

٤٣ • إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ.

٤٤ • طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ.

٤٥ • كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ.

٤٦ • كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ.

٤٧ • خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلىٰ سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ.

٤٨ • ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ ٱلْحَمِيمِ.

٤٩ • ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ.

٥٠ • إِنَّ هٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ.

٥١ • إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ.

٥٢ • فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ.

٥٣ • يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ.

٥٤ • كَذٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ.

٥٥ • يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ.

٥٦ • لا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ
ٱلْجَحِيمِ.

٥٧ • فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ.

٥٨ • فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

٥٩ • فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ رجوع الى أول الكلام من قوله: «بل هم في شك يعلبون» والإشارة بهؤلاء الى قريش ومن يلحق بهم من العرب الوثنيين المنكرين للمعاد. وقولهم: «إن هي إلا موتتنا الاولى» يريدون به نفي الحياة بعد الموت الملازم لنفي المعاد بدليل قولهم بعده: «وما نحن بمنشرين» أي بمبعوثين. قال في الكشاف: يقال: أنشر الله الموتى ونشرهم اذا بعثهم. انتهى.

فقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ الضمير فيه للعاقبة والنهاية أي ليست عاقبة امرنا ونهاية وجودنا وحياتنا إلا موتتنا الاولى فنعدم بها ولا حياة بعدها أبداً.

ووجه تقييد الموتة في الآية بالاولى، بأنه ليس بقيد احترازي إذ لا ملازمة بين الأول والآخر أو بين الأول والثاني فمن الجائز أن يكون هناك شيء أول ولا ثاني له ولا في قباله آخر، كذا قيل.

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تتمة كلام القوم وخطاب منهم للنبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين به حيث كانوا يذكرون لهم البعث والإحياء فاحتجوا لردّ الإحياء بعد الموت بقولهم: «فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين» أي فليحي آباؤنا الماضون بدعائكم أو بأي وسيلة اتخذتموها حتى نعلم صدقكم في دعواكم أن الأموات سيحيون وأن الموت ليس بانعدام.

قوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ تهديد للقوم بالإهلاك كما أهلك قوم تبّع والذين من قبلهم من الامم.

وتبّع هذا ملك من ملوك الحمير باليمن واسمه على ما ذكروا أسعد أبو كرب وقيل: سعد أبوكرب وسيأتي في البحث الروائي نبذة من قصته وفي الكلام نوع تلويح الى سلامة تبّع نفسه

من الإهلاك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاٰعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ﴾ ضمير التثنية في قوله: «وما بينهما» لجنسي السماوات والأرض ولذا لم يجمع. والباء في قوله: «بالحق» للملابسة أي ما خلقناهما إلا متلبسين بالحق، وجوّز بعضهم كونها للسببية أي ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء، ولا يخفى بعده.

ومضمون الآيتين حجة برهانية على ثبوت المعاد وتقريرها أنه لو لم يكن وراء هذا العالم عالم ثابت باق بل كان الله لا يزال يوجد أشياء ثم يعدمها ثم يوجد أشياء أُخر ثم يعدمها ويحيي هذا ثم يميته ويحيي آخر وهكذا كان لاعباً في فعله عابثاً به واللعب عليه تعالى محال ففعله حق له غرض صحيح فهناك عالم آخر باق دائمي ينتقل اليه الأشياء وما في هذا العالم الدنيوي الفاني البائد مقدمة للانتقال الى ذلك العالم وهو الحياة الآخرة.

وقد فصّلنا القول في هذا البرهان في تفسير الآية ١٦ من سورة الأنبياء، والآية ٢٧ من سورة ص فليراجع.

وقوله: ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ﴾ تقريع لهم بالجهل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بيان لصفة اليوم الذي يثبته البرهان السابق وهو يوم القيامة الذي فيه يقوم الناس لرب العالمين.

وسماه الله يوم الفصل لأنه يفصل فيه بين الحق والباطل وبين المحق والمبطل والمتقين والمجرمين أو لأنه يوم القضاء الفصل منه تعالى.

وقوله: ﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي موعد الناس أجمعين أو موعد من تقدم ذكره من قوم تبع وقوم فرعون ومن تقدمهم وقريش وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لاٰ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ بيان

ليوم الفصل، والمولى هو الصاحب الذي له أن يتصرف في أُمور صاحبه ويطلق على من يتولى الأمر وعلى من يُتولى أمره والمولى الأول في الآية هو الأول والثاني هو الثاني.

والآية تنفي أولاً إغناء مولى عن مولاه يومئذ، وتخبر ثانياً أنهم لا ينصرون والفرق بين المعنيين أن الإغناء يكون فيما استقل المغني في عمله ولا يكون لمن يغني عنه صنع في ذلك، والنصرة إنما تكون فيما كان للمنصور بعض أسباب الظفر الناقصة ويتم له ذلك بنصرة الناصر.

والوجه في انتفاء الإغناء والنصر يومئذ أن الأسباب المؤثرة في نشأة الحياة الدنيا تسقط يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ (البقرة / ١٦٦)، وقال: ﴿ فزيّلنا بينهم ﴾ (يونس / ٢٨).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ استثناء من ضمير «لا ينصرون» والآية من أدلة الشفاعة يومئذ وقد تقدم تفصيل القول في الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب.

هذا على تقدير رجوع ضمير «لا ينصرون» الى الناس جميعاً على ما هو الظاهر. وأما لو رجع الى الكفار كما قيل فالاستثناء منقطع والمعنى: لكن من رحمه الله وهم المتقون فإنهم في غنى عن مولى يغني عنهم وناصر ينصرهم.

وأما ما جوّزه بعضهم من كونه استثناء متصلاً من «مولى» فقد ظهر فساده مما قدمناه فإن الإغناء إنما هو فيما لم يكن عند الإنسان شيء من أسباب النجاة ومن كان على هذه الصفة لم يغن عنه مغن ولا استثناء والشفاعة نصرة تحتاج الى بعض أسباب النجاة وهو الدين المرضي وقد تقدم في بحث الشفاعة، نعم يمكن أن يوجه بما سيجيء في رواية الشحام.

وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي الغالب الذي لا يغلبه شيء حتى يمنعه من تعذيب من يريد عذابه، ومفيض الخير على من يريد أن يرحمه ويفيض الخير عليه و مناسبة الاسمين الكريمين لمضامين الآيات ظاهرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ تقدم الكلام في شجرة الزقوم في تفسير سورة الصافات. والأثيم من استقر فيه الإثم إما بالمداومة على معصية أو بالإكثار من المعاصي والآية الى تمام ثمان آيات بيان حال أهل النار.

قوله تعالى: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ المهل هو المذاب من النحاس والرصاص وغيرهما، والغلي والغليان معروف، والحميم الماء الحار الشديد الحرارة، وقوله: «كالمهل» خبر ثان لقوله: «إن» كما أن قوله: «طعام الأثيم» خبر أول، وقوله: «يغلي في البطون كغلي الحميم» خبر ثالث، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ الاعتلاء الزعزعة والدفع بعنف وسواء الجحيم وسطه، والخطاب للملائكة الموكلين على النار أي نقول للملائكة خذوا الأثيم وادفعوه بعنف الى وسط النار لتحيط به قال تعالى: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ (التوبة / ٤٩).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ كأن المراد بالعذاب ما يعذّب به، وإضافته الى الحميم بيانية والمعنى: ثم صبّوا فوق رأسه من الحميم الذي يعذب به.

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ خطاب يخاطب به الأثيم وهو يقاسي العذاب بعد العذاب، وتوصيفه بالعزة والكرامة على ما هو عليه من الذلة واللأمة استهزاء به تشديداً لعذابه وقد كان يرى في الدنيا لنفسه عزة وكرامة لا تفارقانه كما يظهر مما حكى الله سبحانه من قوله: ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ (حم السجدة / ٥٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ الإمتراء الشك والإرتياب، والآية تتمة قولهم له: «ذق» الخ؛ وفيها تأكيد وإعلام لهم بخطإهم وزلتهم في الدنيا حيث ارتابوا فيما يشاهدونه اليوم من العذاب مشاهدة عيان، ولذا عبَّر عن تحمل العذاب بالذوق لما أنه يعبّر

عن إدراك ألم المولمات ولذة الملذات إدراكاً تاماً بالذوق.

ويمكن أن تكون الآية استئنافاً من كلام الله سبحانه يخاطب به الكفار بعد ذكر حالهم في يوم القيامة، وربما أيّده قوله: «كنتم به تمترون» بخطاب الجمع والخطاب في الآيات السابقة بالإفراد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ المقام محل القيام بمعنى الثبوت والركوز ولذا فسّر أيضاً بموضع الإقامة، والأمين صفة من الأمن بمعنى عدم إصابة المكروه، والمعنى: إن المتقين ـ يوم القيامة ـ ثابتون في محل ذي أمن من إصابة المكروه مطلقاً.

وبذلك يظهر أن نسبة الأمن الى المقام بتوصيف المقام بالأمين من المجاز في النسبة.

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بيان لقوله: «في مقام أمين» وجعل العيون ظرفاً لهم باعتبار المجاورة ووجودها في الجنات التي هي ظرف، وجمع الجنات باعتبار اختلاف أنواعها أو باعتبار أن لكل منهم وحده جنة أو أكثر.

قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ السندس الرقيق من الحرير والإستبرق الغليظ منه وهما معرّبان من الفارسية.

وقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ أي يقابل بعضهم بعضاً للإستيناس إذ لا شرّ ولا مكروه عندهم لكونهم في مقام أمين.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي الأمر كذلك أي كما وصفناه والمراد بتزويجهم بالحور جعلهم قرناء لهن من الزوج بمعنى القرين وهو اصل التزويج في اللغة، والحور جمع حوراء بمعنى شديدة سواد العين وبياضها أو ذات المقلة السوداء كالظباء، والعين جمع عيناء بمعنى عظيمة العينين، وظاهر كلامه تعالى أن الحور العين غير نساء الدنيا الداخلة في الجنة.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أي آمنين من ضررها.

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي إنهم في جنة الخلد أحياء بحياة أبدية لا يعتريها موت.

وقوله: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، فالمعنى: وحفظهم من عذاب الجحيم، وذكر وقايتهم من عذاب الجحيم مع نفي الموت عنهم تتميم لقسمة المكاره أي إنهم مصونون من الانتقال من دار الى دار ومن نشأة الجنة الى نشأة غيرها وهو الموت ومصونون من الانتقال من حال سعيدة الى حال شقية وهي عذاب الجحيم.

قوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ حال مما تقدم ذكره من الكرامة والنعمة، ويمكن أن يكون مفعولاً مطلقاً أو مفعولاً له، وعلى أي حال هو تفضُّل منه تعالى من غير استحقاق من العباد استحقاقاً يوجب عليه تعالى ويلزمه على الإثابة فإنه تعالى مالك غير مملوك لا يتحكم عليه شيء، وإنما هو وعده لعباده ثم أخبر أنه لا يخلف وعده، وقد تقدم تفصيل القول في هذا المعنى في الأبحاث السابقة.

وقوله: «ذلك هو الفوز العظيم» الفوز هو الظفر بالمراد وكونه فوزاً عظيماً لكونه آخر ما يسعد به الإنسان.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ تفريع على جميع ما تقدم من أول السورة الى هنا وفذلكة للجميع، والتيسير التسهيل، والضمير للكتاب والمراد بلسان النبي ﷺ العربية.

والمعنى: فإنما سهّلنا القرآن ـ أي فهم مقاصده ـ بالعربية لعلهم ـ اي لعل قومك ـ يتذكرون فتكون الآية قريبة المعنى من قوله: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ (الزخرف/٣).

وقيل: المراد من تيسير الكتاب بلسان النبي ﷺ إجراؤه على لسانه وهو أُمي لا يقرأ ولا

يكتب ليكون آية لصدق نبوته، وهو بعيد من سياق الفذلكة.

قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾كأنه متفرع على ما يتفرع على الآية السابقة، ومحصّل المعنى أنا يسرناه بالعربية رجاء أن يتذكروا فلم يتذكروا بل هم في شك يلعبون وينتظرون العذاب الذي لا مرّ له من المكذبين فانتظر العذاب إنهم منتظرون له.

فإطلاق المرتقبين على القوم من باب التهكم، ومن سخيف القول قول من يقول إن في الآية أمراً بالمتاركة وهي منسوخة بآية السيف.

سورة الجاثية مكية وهي سبع وثلاثون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● حٰمۤ.

٢ ● تَنْزِيلُ ٱلْكِتابِ مِنَ اللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ.

٣ ● إِنَّ فِي السَّمٰواتِ وَٱلْأَرْضِ لآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ.

٤ ● وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

٥ ● وَٱخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ
فَأَحْيا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ.

٦ ● تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ
وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ.

٧ ● وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ.

٨ ● يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ

يَسْمَعْهٰا فَبَشِّرْهُ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ.

٩ ● وَإِذٰا عَلِمَ مِنْ آيٰاتِنٰا شَيْئاً اتَّخَذَهٰا هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ.

١٠ ● مِنْ وَرٰائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاٰ يُغْنِي عَنْهُمْ مٰا كَسَبُوا شَيْئاً وَلاٰ مٰا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَوْلِيٰاءَ وَلَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ.

١١ ● هٰذٰا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ.

١٢ ● اَللّٰهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

١٣ ● وَسَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

بيان:

غرض السورة دعوة عامة على الإنذار تفتتح بآيات الوحدانية ثم تذكر تشريع الشريعة للنبي ﷺ وتشير الى لزوم اتباعها له ولغيره بما أن أمامهم يوماً يحاسبون فيه على أعمالهم الصالحة من الايمان واتباع الشريعة واجتراحهم السيئات بالإعراض عن الدين، ثم تذكر ما سيجري على الفريقين في ذلك اليوم وهو يوم القيامة.

وفي خلال مقاصدها إنذار ووعيد شديد للمستكبرين المعرضين عن آيات الله والذين اتخذوا إلهم هواهم وأضلّهم الله على علم.

ومن طرائف مطالبها بيان معنى كتابة الأعمال واستنساخها.

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها واستثنى بعضهم قوله تعالى: ﴿قل للذين آمنوا﴾ الآية، ولا شاهد له.

قوله تعالى: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الظاهر أن «تنزيل الكتاب» من إضافة الصفة الى الموصوف والمصدر بمعنى المفعول، و«من الله» متعلق بتنزيل، والمجموع خبر لمبتدأ محذوف.

والمعنى: هذا كتاب منزّل من الله العزز الحكيم، وقد تقدم الكلام في مفردات الآية فيما تقدم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ آية الشيء علامته التي تدلُّ عليه وتشير اليه، والمراد بكون السماوات والأرض فيها آيات كونها بنفسها آيات له فليس وراء السماوات والأرض وسائر ما خلق الله أمر مظروف لها هو آية دالّة عليه تعالى.

ومن الدليل على ما ذكرنا اختلاف التعبير فيها في كلامه تعالى فتارة يذكر أن في الشيء آية له وأُخرى يعدّه بنفسه آية كقوله تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات﴾ (آل عمران / ١٩٠)، وقوله: ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض﴾ (الروم / ٢٢)، ونظائرهما كثيرة، ويستفاد من اختلاف التعبير الذي فيها أن معنى كون الشيء فيه آية هو كونه بنفسه آية كما يستفاد من اختلاف التعبير في مثل قوله: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات﴾، وقوله: ﴿إن في السماوات والأرض لآيات﴾ الآية؛ أن المراد من خلق السماوات والأرض نفسها لا غير.

والعناية في أخذ الشيء ظرفاً للآية مع كونه بنفسه آية اعتبار جهات وجوده وأن لوجوده جهة أو جهات كل واحدة منها آية من الآيات ولو أُخذت نفس الشيء لم يستقم إلا أخذها آية واحدة كما في قوله تعالى: ﴿وفي الأرض للموقنين﴾ (الذاريات / ٢٠)، ولو أُخذت الآية

نفس الأرض لم يستقم إلا أن يقال: والأرض آية للموقنين وضاع المراد وهو أن في وجود الأرض جهات كل واحدة منها آية وحدها.

فمعنى قوله: ﴿إِنَّ فِي السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخ؛ أن لوجود السماوات والأرض جهات دالة على أن الله تعالى هو خالقها المدبّر لها وحده لا شريك له فإنها بحاجتها الذاتية الى من يوجدها وعظمة خلقتها وبداعة تركيبها واتصال وجود بعضها ببعض وارتباطه على كثرتها الهائلة واندراج أنظمتها الجزئية الخاصة بكل واحد تحت نظام عام يجمعها ويحكم فيها تدل على أن لها خالقاً هو وحده ربها المدبر أمرها فلولا أن هناك من يوجدها لم توجد من رأس، ولولا أن مدبرها واحد لتناقضت النظامات وتدافعت واختلف التدبير.

قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمٰا يَبُثُّ مِنْ دٰابَّةٍ آيٰاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ البث التفريق والإثارة وبثه تعالى للدواب خلقها وتفريقها ونشرها على الأرض كما قال في خلق الإنسان: ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ (الروم / ٢٠).

ومعنى الآية: وفيكم من حيث وجودكم المخلوق وفيما يفرّقه من دابة من حيث خلقها آيات لقوم يسلكون سبيل اليقين.

وخلق الإنسان على كونه موجوداً أرضياً له ارتباط بالمادة نوع آخر من الخلق يغاير خلق السماوات والأرض لأنه مركب من بدن أرضي مؤلف من مواد كونية عنصرية تفسد بالموت بالتفرق والتلاشي وأمر آخر وراء ذلك علوي غير مادي لا يفسد بالموت بل يتوفى ويحفظ عند الله، وهو الذي يسميه القرآن بالروح قال تعالى: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ (الحجر / ٢٩)، وقال بعد ذكر خلق الإنسان من نطفة ثم من علقة ثم مضغة ثم تتميم خلق بدنه: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ (المؤمنون / ١٤)، وقال: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ (الم السجدة / ١١).

فالناظر في خلق الإنسان ناظر في اية ملكوتية وراء الآيات المادية وكذا الناظر في خلق

الدواب ولها نفوس ذوات حياة وشعور وإن كانت دون الإنسان في حياتها وشعورها كما أنها دونه في تجهيزاتها البدنية ففي الجميع آيات لأهل اليقين يعرفون بها الله سبحانه بأنه واحد لا شريك له في ربوبيته وأُلوهيته.

قوله تعالى: ﴿ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ الى اخر الآية هذا القبيل من الآيات آيات ما بين السماء والأرض.

وقوله: «واختلاف الليل والنهار» يريد به اختلافهما في الطول والقصر اختلافاً منظماً باختلاف الفصول الأربعة بحسب بقاع الأرض المختلفة ويتكرر بتكرر السنين يدير سبحانه بذلك أقوات أهل الأرض ويربيهم بذلك تربية صالحة قال تعالى: ﴿ وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ (حم السجدة / ١٠).

وقوله: ﴿ وَمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ المراد بالرزق الذي ينزله الله من السماء هو المطر تسمية للسبب باسم المسبّب مجازاً أو لأن المطر أيضاً من الرزق فإن مياه الأرض من المطر، والمراد بالسماء جهة العلو أو السحاب مجازاً، وإحياء الأرض به بعد موتها هو إحياء ما فيها من النبات بالأخذ في الرشد والنمو، ولا يخلو التعرض للإحياء بعد الموت من تلويح الى المعاد.

وقوله: ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ ﴾ أي تحويلها وإرسالها من جانب الى جانب، لتصريفها فوائد عامة كثيرة من أعمها سوق السحب الى أقطار الأرض وتلقيح النباتات ودفع العفونات والروائح المنتنة.

وقوله: «آيات لقوم يعقلون» أي يميزن بين الحق والباطل والحسن والقبيح بالعقل الذي أودعه الله سبحانه فيهم.

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ الإيمان بأمر هو العلم به مع الالتزام به عملاً فلو لم يلتزم لم يكن إيماناً وإن

كان هناك علم، قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ (النمل / ١٤)، وقال: ﴿وأضلّه الله على علم﴾ (الجاثية / ٢٣).

والآيات هي العلامات الدالة فآيات الله الكونية هي الامور الكونية الدالة بوجودها الخارجي على كونه تعالى واحداً في الخلق متصفاً بصفات الكمال منزّهاً عن كل نقص وحاجة، والايمان بهذه الآيات هو الايمان بدلالتها عليه تعالى ولازمه الايمان به تعالى كما تدلّ هي عليه.

والآيات القرآنية آيات له تعالى بما تدلّ على الآيات الكونية الدالة عليه سبحانه أو على معارف اعتقادية أو أحكام عملية أو أخلاق يرتضيها الله سبحانه ويأمر بها فإن مضامينها دالّة عليه ومن عنده، والايمان بهذه الآيات أيضاً إيمان بدلالتها ويلزمه الايمان بمدلولها.

والآيات المعجزة أيضاً إما آيات كونية ودلالتها دلالة الآيات الكونية وإما غير كونية كالقرآن في إعجازه ومرجع دلالتها الى دلالة الآيات الكونية.

وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ الإشارة الى الآيات القرآنية المتلوّة عليه ﷺ، ويمكن أن تكون إشارة الى الآيات الكونية المذكورة في الآيات الثلاث السابقة بعناية الاتحاد بين الدالّ والمدلول.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ قيل: هو من قبيل قولك: أعجبني زيد وكرمه، وإنما أعجبك كرمه والمعنى بحسب النظر الدقيق أعجبني كرم زيد وزيد من حيث كرمه، فمعنى الآية فبأي حديث بعد ايات الله يعني الآيات القرآنية يؤمنون؟ يعني إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأي حديث بعده يؤمنون؟

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الويل والهلاك، والأفاك مبالغة من الإفك وهو الكذب، والأثيم من الإثم بمعنى المعصية والمعنى: ليكن الهلاك على كل كذاب ذي معصية.

قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ

﴿يَسْمَعُهَا﴾ الخ: صفة لكل أفاك أثيم، و«ثم» للتراخي الرتبي وتفيد معنى الاستبعاد، والإصرار على الفعل ملازمته وعدم الإنفكاك عنه.

والمعنى: يسمع ايات الله ـ وهي ايات القرآن ـ تقرأ عليه ثم يلازم الكفر والحال أنه مستكبر لا يتواضع للحق كأن لم يسمع تلك الآيات فبشره بعذاب أليم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً﴾ الخ: ظاهر السياق أن ضمير «اتخذها» للآيات، وجعل الهزء متعلقاً بالآيات دون ما علم منها يفيد كمال جهله، والمعنى: وإذا علم ذلك الأفّاك الأثيم المصرّ المستكبر بعض اياتنا استهزء باياتنا جميعاً.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي مذل مخز، وتوصيف العذاب بالاهانة مقابلة لاستكبارهم واستهزائهم، والاشارة باولئك الى كل أفّاك، وقيل في الآية بوجوه أُخر أعرضنا عنها لعدم الجدوى فيها.

قوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ الخ: لما كانوا مشتغلين بالدنيا معرضين عن الحق غير ملتفتين الى تبعات أعمالهم جعلت جهنم وراءهم مع أنها قدامهم وهم سائرون نحوها متوجهون اليها.

وقيل: وراءهم بمعنى قدامهم قال في المجمع: وراء اسم يقع على القدام والخلف فما توارى عنك فهو وراءك خلفك كان أو أمامك. انتهى. وفي قوله: «من ورائهم جهنم» قضاء حتم.

وقوله: ﴿وَلاَ يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً﴾ المراد بما كسبوا ما حصلوه في الدنيا من مال ونحوه، وتنكير «شيئاً» للتحقير أي ولا يغني عنهم يوم الحساب ما كسبوه من مال وجاه وأنصار في الدنيا شيئاً يسيراً حقيراً.

وقوله: «ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء» «ما» مصدرية والمراد بالأولياء أرباب الأصنام الذين اتخذوهم أرباباً آلهة وزعموا أنهم لهم شفعاء أو الأصنام.

وقوله: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ تأكيد لوعيدهم وقد أوعدهم الله سبحانه أولاً بقوله: «ويل لكل أفّاك» الخ؛ وثانياً بقوله: «فبشّره بعذاب أليم» وثالثاً بقوله: «اولئك لهم عذاب مهين» ورابعاً بقوله: «من ورائهم جهنم» الخ؛ وخامساً بقوله: «ولهم عذاب عظيم»، ووصف عذابهم في خلالها بأنه أليم مهين عظيم.

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ الإشارة بقوله: «هذا هدى» الى القرآن ووصفه بالهدى للمبالغة نحو زيد عدل والرجز ـ كما قيل ـ أشد العذاب وأصله الاضطراب.

والآية في مقام الردّ لما رموا به القرآن وعدّوه مهاناً بالهزء والسخرية وخلاصة وعيد من كفر بآياته.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفَلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ الخ: لما ذكر سبحانه حال الأفّاكين من الاستكبار عن الإيمان بالآيات إذا تليت عليهم والاستهزاء بما علموا منها وأوعدهم أبلغ الايعاد بأشد العذاب رجع اليهم بخطاب الجميع ممّن يؤمن ويكفر، وذكر بعض آيات ربوبيته التي فيها منٌّ عظيم عليهم وليس في وسعهم إنكارها فذكر أولاً تسخير البحر لهم ثم ما في السماوات والأرض جميعاً ففيها آيات لا يكفر بها إلا من انسلخ عن الفطرة الإنسانية ونسي التفكر الذي هو من أجلى خواص الإنسان.

فقوله: ﴿ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ اللام في «لكم» للغاية أي سخر لأجلكم البحر بأن خلقه على نحو يحمل الفلك ويقبل أن تجري فيه فينتفع به الإنسان، ويمكن أن تكون للتعدية فيكون الانسان يسخر البحر بإذن الله.

وقوله: ﴿ لِتَجْرِيَ ٱلْفَلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ غاية لتخسير البحر، وجريان الفلك فيه بأمره، هو إيجاد الجريان بكلمة كن فآثار الأشياء كنفس الأشياء منسوبة اليه تعالى وقوله: «ولتبتغوا من فضله» أي ولتطلبوا بركوبه عطيته تعالى وهو رزقه.

وقوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي رجاء أن تشكروه تعالى قبال هذه النعمة التي هي تسخير البحر.

قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ الخ؛ هذا من الترقي بعطف العام على الخاص، والكلام في «لكم» كالكلام في مثله في الآية السابقة، وقوله: «جميعاً» تأكيد لما في السماوات والأرض أو حال منه.

وقوله: «سخر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً» معنى تسخيرها للانسان أن أجزاء العالم المشهود تجري على نظام واحد يحكم فيها ويربط بعضها ببعض ويربط الجميع بالإنسان فينتفع في حياته من علويها وسفليها ولا يزال المجتمع البشري يتوسع في الانتفاع بها والاستفادة من توسيطها والتوسل بشتاتها في الحصول على مزايا الحياة فالكل مسخر له.

وقوله: «منه» من للابتداء، والضمير لله تعالى وهو حال مما في السماوات والأرض، والمعنى: سخر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً حال كونه مبتدأ منه حاصلاً من عنده فذوات الأشياء تبتدىء منه بإيجاده لها من غير مثال سابق وكذلك خواصها وآثارها بخلقه ومن خواصها وآثارها ارتباط بعضها ببعض وهو النظام الجاري فيها المرتبط بالانسان قال تعالى: ﴿الله يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ (الروم / ١١)، وقال: ﴿إنه هو يبدىء ويعيد﴾ (البروج / ١٣).

وقد ذكروا لقوله: «منه» معاني أُخر لا يخلو شيء منها عن التكلف تركنا التعرّض لها.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وجه تعلقها بالتفكر ظاهر.

١٤ • قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللّٰهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

١٥ ● مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ.

١٦ ● وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ ٱلْكِتابَ وَٱلْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى ٱلْعالَمِينَ.

١٧ ● وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَما ٱخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

١٨ ● ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ.

١٩ ● إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللّٰهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيّامَ اللّٰهِ﴾ الخ؛ أمر منه تعالى لنبيه ﷺ أن يأمر المؤمنين أن يغفروا للكفار فيصير تقدير الآية: قل لهم: اغفروا يغفروا فهي كقوله تعالى: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾ (إبراهيم / ٣١).

والآية مكية واقعة في سياق الآيات السابقة الواصفة لحال المستكبرين المستهزئين بآيات الله المهددة لهم بأشد العذاب وكأن المؤمنين بالنبي ﷺ كانوا إذا رأوا هؤلاء المستهزئين يبالغون في طعنهم وإهانتهم للنبي واستهزائهم بآيات الله لم يتمالكوا أنفسهم دون أن يدافعوا عن كتاب الله ومن أرسله به ويدعوهم الى رفض ما هم فيه والإيمان مع كونهم ممن

حقّت عليهم كلمة العذاب كما هو ظاهر الآيات السابقة، فأمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يأمرهم بالعفو والصفح عنهم وعدم التعرض لحالهم فإن وبال أعمالهم سيلحق بهم وجزاء ما كسبوه سيناالهم.

وعلى هذا فالمراد بالمغفرة في قوله: «قل للذين آمنوا يغفروا» الصفح والإعراض عنهم بترك مخاصمتهم ومجادلتهم، والمراد بالذين لا يرجون أيام الله هم الذين ذكروا في الآيات السابقة فإنهم لا يتوقعون لله أياماً لا حكم فيها ولا ملك إلا له تعالى كيوم الموت والبرزخ ويوم القيامة ويوم عذاب الاستئصال.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة أو للأمر بالأمر بالمغفرة ومحصله ليصفحوا عنهم ولا يتعرضوا لهم، فلا حاجة الى ذلك لأن الله سيجزيهم بما كانوا يكسبون فتكون الآية نظيرة قوله: ﴿وذرني والمكذبين أُولي النعمة ومهّلهم قليلاً إن لدينا أنكالاً وجحيماً﴾ (المزمل / ١٢)، وقوله: ﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ (الأنعام / ٩١)، وقوله: ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ (المعارج / ٤٢)، وقوله: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ (الزخرف / ٨٩).

ومعنى الآية: مر الذين آمنوا أن يعفوا ويصفحوا عن أُولئك المستكبرين المستهزئين بآيات الله الذين لا يتوقعون أيام الله ليجزيهم الله بما كانوا يكسبون ويوم الجزاء يوم من أيامه أي ليصفحوا عن هؤلاء المنكرين لأيام الله حتى يجزيهم بأعمالهم في يوم من أيامه.

وفي قوله: «ليجزي قوماً» وضع الظاهر موضع الضمير، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ليجزيهم، والنكتة فيه مع كون «قوماً» نكرة غير موصوفة تحقير أمرهم وعدم العناية بشأنهم كأنهم قوم منكرون لا يعرف شخصهم ولا يهتم بشيء من أمرهم.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ في موضع التعليل لقوله: «ليجزي قوماً» الخ: ولذا لم يعطف وليس من

الاستئناف في شيء.

ومحصل المعنى: ليجزيهم الله بما كسبوا فإن الأعمال لا تذهب سُدىً وبلا أثر بل من عمل صالحاً انتفع به ومن أساء العمل تضرر به ثم الى ربكم ترجعون فيجزيكم حسب أعمالكم إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ الخ: لما بين أن للأعمال آثاراً حسنة أو سيئة تلحق صاحبها أراد التنبيه على تشريع شريعة للنبي ﷺ إذ كان على الله سبحانه أن يهدي عباده الى ما فيه خيرهم وسعادتهم كما قال تعالى: ﴿وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر﴾ (النحل / ٩).

فنبه على ذلك بقوله الآتي: «ثم جعلناك على شريعة من الأمر» الخ: وقدّم على ذلك الإشارة الى ما آتى بني إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة ورزقهم من الطيبات وتفضيلهم وإيتائهم البينات ليؤذن به أن الإفاضة الإلهية بالشريعة والنبوة والكتاب ليست ببدع لم يسبق اليه بل لها نظير في بني إسرائيل وهم بمرآهم ومسمعهم.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ المراد بالكتاب التوراة المشتملة على شريعة موسى ﷺ وأما الانجيل فلا يتضمن الشريعة وشريعته شريعة التوراة. وأما زبور داود فهي أدعية وأذكار. ويمكن أن يراد بالكتاب جنسه الشامل للتوراة والإنجيل والزبور كما قيل لكن يبعده أن الكتاب لم يطلق في القرآن إلا على ما يشتمل على الشريعة.

والمراد بالحكم بقرينة ذكره مع الكتاب ما يحكم ويقضي به الكتاب من وظائف الناس كما يذكره قوله تعالى: ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ (البقرة / ٢١٣). وقال في التوراة: ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله﴾ (المائدة / ٤٤). فالحكم من لوازم الكتاب كما أن النبوة من

لوازمه.

والمراد بالنبوة معلوم وقد بعث الله من بني إسرائيل جمعاً غفيراً من الأنبياء كما في الأخبار وقص في كتابه جماعة من رسلهم.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي طيبات الرزق ومن ذلك المن والسلوى.

وقوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ إن كان المراد جميع العالمين فقد فضلوا من بعض الجهات ككثرة الأنبياء المبعوثين والمعجزات الكثيرة الظاهرة من أنبيائهم، وإن كان المراد عالمي زمانهم فقد فضلوا من جميع الجهات.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الى آخر الآية المراد بالبينات الآيات البينات التي تزيل كل شك وريب وتمحوه عن الحق ويشهد بذلك تفريع قوله: «فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم».

والمراد بالأمر قيل: هو أمر الدين، و«من» بمعنى في والمعنى: وأعطيناهم دلائل بينة في أمر الدين ويندرج فيه معجزات موسى عليه السلام.

وقيل: المراد به أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى: آتيناهم آيات من أمر النبي وعلامات مبينة لصدقه كظهوره في مكة ومهاجرته منها الى يثرب ونصرة أهله وغير ذلك مما كان مذكوراً في كتبهم.

وقوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ يشير الى أن ما ظهر بينهم من الاختلاف في الدين واختلاط الباطل بالحق لم يكن عن شبهة أو جهل وإنما أوجدها علماؤهم بغياً وكان البغي دائراً بينهم.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إشارة الى أن اختلافهم الذي لا يخلو من اختلاط الباطل بالحق لا يذهب سدى وسيؤثر أثره ويقضي الله بينهم يوم القيامة فيجزون على حسب ما يستدعيه أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ويشاركه فيه أمته، والشريعة طريق ورود الماء والأمر أمر الدين، والمعنى: بعد ما آتينا بني إسرائيل ما آتينا جعلناك على طريقة خاصة من أمر الدين الالهي وهي الشريعة الاسلامية التي خص الله بها النبي ﷺ وأمته.

وقوله: ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ الخ: أمر للنبي ﷺ باتباع ما يوحى اليه من الدين وأن لا يتبع أهواء الجاهلين المخالفة للدين الالهي.

ويظهر من الآية أولاً: أن النبي ﷺ مكلف بالدين كسائر الامة.

وثانياً: أن كل حكم عملي لم يستند الى الوحي الالهي ولم ينته اليه فهو هوى من أهواء الجاهلين غير منتسب الى العلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ الخ: تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، والاغناء من شيء رفع الحاجة اليه. والمحصّل: أن لك الى الله سبحانه حوائج ضرورية لا يرفعها إلا هو والذريعة الى ذلك اتباع دينه لا غير فلا يغني عنك هؤلاء الذين اتّبعت أهواءهم شيئاً اليها الحاجة أو لا يغني شيئاً من الاغناء.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذي يعطيه السياق أنه تعليل آخر للنهي عن اتباع أهواء الجاهلين، وأن المراد بالظالمين المتبعون لأهوائهم المبتدعة وبالمتقين المتبعون لدين الله.

والمعنى: أن الله ولي الذين يتبعون دينه لأنهم متقون والله وليهم، والذين يتبعون أهواء الجهلة ليس هو تعالى ولياً لهم بل بعضهم أولياء بعض لأنهم ظالمون والظالمون بعضهم أولياء بعض فاتبع دين الله يكن لك ولياً ولا تتبع أهواءهم حتى يكونوا أولياء لك لا يغنون عنك من الله شيئاً.

وتسمية المتبعين لغير دين الله بالظالمين هو الموافق لما يستفاد من قوله: ﴿أن لعنة الله على

الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وبالآخرة هم كافرون﴾ (الأعراف / ٤٥).

٢٠ ● هٰذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

٢١ ● أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ.

٢٢ ● وَخَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالحَقِّ وَلِتُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ.

٢٣ ● أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰيهُ وَأَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللّٰهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ.

٢٤ ● وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا ٱلدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ.

٢٥ ● وَإِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ٱئْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

٢٦ ● قُلِ اللّٰهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلىٰ يَوْمِ ٱلْقِيامَةِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ.

٢٧ ● وَلِلّٰهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسّاعَةُ يَوْمَئِذٍ

يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ.

٢٨ ● وَتَرىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعىٰ إِلىٰ كِتابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

٢٩ ● هٰذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

٣٠ ● فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ.

٣١ ● وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ.

٣٢ ● وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَٱلسّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا ٱلسّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلّا ظَنّاً وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ.

٣٣ ● وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون.

٣٤ ● وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا وَمَأْواكُمُ النّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ.

٣٥ ● ذٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ آياتِ اللّٰهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ.

٣٦ ● فَلِلّٰهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوٰاتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعالَمِينَ.

٣٧ ● وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّمٰوٰات وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿هٰذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ الإشارة بهذا إلى الأمر المذكور الذي هو الشريعة أو إلى القرآن بما يشمل على الشريعة. والبصائر جمع بصيرة وهي الإدراك المصيب للواقع. والمراد بها ما يبصر به، وإنما كانت الشريعة بصائر لأنها تتضمن أحكاماً وقوانين كل منها يهدي إلى واجب العمل في سبيل السعادة.

والمعنى: هذه الشريعة المشرّعة أو القرآن المشتمل عليها وظائف عملية يتبصّر بكل منها الناس ويهتدون إلى السبيل الحق وهو سبيل الله وسبيل السعادة. فقوله بعد ذكر تشريع الشريعة: «هذا بصائر للناس» كقوله بعد ذكر آيات الوحدانية في أول السورة: «هذا هدى والذين كفروا» الخ.

وقوله: ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي دلالة واضحة وإفاضة خير لهم، والمراد قوم يوقنون الذين يوقنون بآيات الله الدالة على أصول المعارف فإن المعهود في القرآن تعلّق الإيقان بالاصول الاعتقادية.

وتخصيص الهدى والرحمة بقوم يوقنون مع التصريح بكونه بصائر الناس لا يخلو من تأييد لكون المراد بالهدى الوصول إلى المطلوب دون مجرد التبصر، وبالرحمة الرحمة الخاصة بمن اتّقى وآمن برسوله بعد الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم﴾ (الحديد / ٢٨)، وقال: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ـ إلى أن قال ـ وبالآخرة هم يوقنون﴾ (البقرة / ٤)، وللرحمة درجات كثيرة تختلف سعة وضيقاً ثم للرحمة الخاصة بأهل الإيمان أيضاً مراتب مختلفة باختلاف مراتب الإيمان فلكل مرتبة من مراتبه ما يناسبها منها.

وأما الرحمة بمعنى مطلق الخير الفائض منه تعالى فإن القرآن مما يشتمل على الشريعة رحمة

للناس كافة كما أن الرسول المبعوث به رحمة لهم جميعاً، قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء / ١٠٧)، وقد أوردنا بعض الكلام في هذا المعنى في بعض المباحث السابقة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ الخ: قال في المجمع: الاجتراح الاكتساب، يقال: جرح واجترح وكسب واكتسب وأصله من الجراح لأن لذلك تأثيراً كتأثير الجراح. قال: والسيئة الفعلة القبيحة التي يسوء صاحبها باستحقاق الذّم عليها. انتهى.

والجعل بمعنى التصيير، وقوله: «كالذين آمنوا وعملوا الصالحات» في محل المفعول الثاني للجعل، والتقدير كائنين كالذين آمنوا، الخ.

وجزم الزمخشري في الكشاف على كون الكاف في «كالذين» اسماً بمعنى المثل هو مفعول ثان لقوله: «نجعلهم»، وقوله: «سواء» بدلاً منه.

وقوله: ﴿سَوَاءً﴾ بالنصب على القراءة الدائرة وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل أي مستوياً أو تساوياً، وقوله: «محياهم» مصدر ميمي وفاعل «سواء» ضميره راجع إلى مجموع المجترحين والمؤمنين، و«مماتهم» معطوف على «محياهم» وحاله كحاله.

والآية مسوقة سوق الإنكار و«أم» منقطعة، والمعنى: بل أحسب وظنّ الذين يكتسبون السيئات أن نصيّرهم مثل الذين آمنوا وعملوا الصالحات مستوياً محياهم ومماتهم أي تكون حياة هؤلاء كحياة أُولئك وموتهم كموتهم فيكون الإيمان والتشرع بالدين لغواً لا أثر له في حياة ولا موت ويستوي وجوده وعدمه.

وقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ردّ لحسبانهم المذكور وحكمهم بالمماثلة بين مجترحي السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات ومساءة الحكم كناية عن بطلانه.

فالفريقان لا يتساويان في الحياة ولا في الممات.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الظاهر أن المراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود والباء في «بالحق» للملابسة فكون خلق العالم بالحق كونه حقاً لا باطلاً ولعباً وهو أن يكون لهذا العالم الكائن الفاسد غاية ثابتة باقية وراءه.

وقوله: ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ الخ: عطف على «بالحق» والباء في قوله: «بما كسبت» للتعدية أو للمقابلة أي لتجزى مقابل ما كسبت إن كان طاعة فالثواب وإن كان معصية فالعقاب، وقوله: «وهم لا يظلمون» حال من كل نفس أي ولتجزي كل نفس بما كسبت بالعدل.

فيؤل معنى الآية الى مثل قولنا وخلق الله السماوات والأرض بالحق وبالعدل فكون الخلق بالحق يقتضي أن يكون وراء هذا العالم عالم آخر يخلد فيه الموجودات وكون الخلق بالعدل يقتضي أن تجزى كل نفس ما تستحقه بكسبها فالمحسن يجزى جزاء حسناً والمسيء يجزى جزاء سيئاً وإذ ليس ذلك في هذه النشأة ففي نشأة أُخرى.

وبهذا البيان يظهر إن الآية تتضمن حجتين على المعاد إحداهما ما أُشير اليه بقوله: «وخلق الله السماوات والأرض بالحق» ويسلك من طريق الحق، والثانية ما أُشير اليه بقوله: «ولتجزى» الخ: ويسلك من طريق العدل.

فتؤل الحجتان الى ما يشتمل عليه قوله: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ (ص / ٢٨).

والآية بما فيها من الحجة تبطل حسبانهم أن المسيء كالمحسن في الممات فإن حديث المجازاة بالثواب والعقاب على الطاعة والمعصية يوم القيامة ينفي تساوي المطيع والعاصي في الممات، ولازم ذلك إبطال حسبانهم أن المسيء كالمحسن في الحياة فإن ثبوت المجازاة يومئذ يقتضي

وجوب الطاعة في الدنيا والمحسن على بصيرة من الأمر في حياته يأتي بواجب العمل ويتزود من يومه لغده بخلاف المسيء العائش في عمى وضلال فليسا بمتساويين.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الى آخر الآية ظاهر السياق أن قوله: «أفرأيت» مسوق للتعجيب أي ألا تعجب ممن حاله هذا الحال؟

والمراد بقوله: «اتخذ إلهه هواه» حيث قدم «إلهه» على «هواه» أنه يعلم أن له إلهاً يجب أن يعبده ـ وهو الله سبحانه ـ لكنه يبدله من هواه ويجعل هواه مكانه فيعبده فهو كافر بالله سبحانه على علم منه، ولذلك عقبه بقوله: «واضله الله على علم» أي إنه ضال عن السبيل وهو يعلم.

ومعنى اتخاذ الاله العبادة والمراد بها الإطاعة فإن الله سبحانه عدَّ الطاعة عبادة كما في قوله: ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني﴾ (يس / ٦١)، وقوله: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ (التوبة / ٣١)، وقوله: ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ (آل عمران / ٦٤).

والاعتبار يوافقه إذ ليست العبادة إلا إظهار الخضوع وتمثيل أن العابد عبد لا يريد ولا يفعل إلا ما أراده ورضيه معبوده فمن أطاع شيئاً فقد اتخذه إلهاً وعبده فمن أطاع هواه فقد اتخذ إلهه هواه ولا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته.

فقوله: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ أي ألا تعجب ممن يعبد هواه بإطاعته واتباعه وهو يعلم أن له إلهاً غيره يجب أن يعبده ويطيعه لكنه يجعل معبوده ومطاعه هو هواه.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي هو ضال بإضلال منه تعالى يضله به مجازاة لاتباعه الهوى حال كون إضلاله مستقراً على علم هذا الضال. ولا ضير في اجتماع الضلال مع العلم بالسبيل ومعرفته كما في قوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ (النمل / ١٤)، وذلك أن العلم لا يلازم الهدى ولا الضلال يلازم الجهل بل الذي يلازم الهدى هو العلم مع

التزام العالم بمقتضى علمه فيتعقبه الاهتداء وأما إذا لم يلتزم العالم بمقتضى علمه لاتباع منه للهوى فلا موجب لاهتدائه بل هو الضلال وإن كان معه علم.

وقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ كالعطف التفسيري لقوله: «وأضله الله على علم» والختم على السمع والقلب هو أن لا يسمع الحق ولا يعقله، وجعل الغشاوة على البصر هو أن لا يبصر الحق من آيات الله ومحصَّل الجميع: أن لا يترتب على السمع والقلب والبصر أثرها وهو الالتزام بمقتضى ما ناله من الحق إذا أدركه لاستكبار من نفسه وإتباع للهوى، وقد عرفت أن الضلال عن السبيل لا ينافي العلم به إذا لم يكن هناك التزام بمقتضاه.

وقوله: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ الضمير لمن اتخذ إلهه هواه والتفريع على ما تحصل من حاله أي إذا كان حاله هذا الحال وقد أضله الله على علم. الخ؛ فمن يهديه من بعد الله سبحانه فلا هادي دونه قال تعالى: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ (البقرة / ١٢٠) وقال: ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ (المؤمن / ٣٣).

وقوله: «أفلا تذكرون» أي أفلا تتفكرون في حاله فتتذكروا أن هؤلاء لا سبيل لهم الى الهدى مع اتباع الهوى فتتعظوا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ الى آخر الآية، قال الراغب: الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده الى انقضائه، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ ثم يعبَّر به عن كل مدّة كثيرة، وهو خلاف الزمان فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة. انتهى.

والآية على ما يعطيه السياق ـ سياق الاحتجاج على الوثنيين المثبتين للصانع المنكرين للمعاد ـ حكاية قول المشركين في إنكار المعاد لا كلام الدهريّين الناسبين للحوادث وجوداً وعدماً الى الدهر المنكرين للمبدأ والمعاد جميعاً إذا لم يسبق لهم ذكر في الآيات السابقة.

فقولهم: ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ الضمير للحياة أي لا حياة لنا إلا حياتنا الدنيا لا حياة وراءها فلا وجود لما يدعيه الدين الإلهي من البعث والحياة الآخرة، وهذا هو القرينة المؤيدة لأن يكون المراد بقوله: «نموت ونحيا» يموت بعضنا ويحيا بعضنا الآخر فيستمر بذلك بقاء النسل الإنساني بموت الأسلاف وحياة الأخلاف ويؤيد ذلك بعض التأييد قوله بعده: «وما يهلكنا إلا الدهر» المشعر بالاستمرار.

فالمعنى: وقال المشركون: ليست الحياة إلا حياتنا الدنيا التي نعيش بها في الدنيا فلا يزال يموت بعضنا وهم الأسلاف ويحيى آخرون وهم الأخلاف وما يهلكنا إلا الزمان ـ الذي بمروره يبلى كل جديد ويفسد كل كائن ويميت كل حي ـ فليس الموت انتقالاً من دار الى دار منتهياً الى البعث والرجوع الى الله.

وقوله: ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أي إن قولهم ذلك المشعر بإنكار المعاد قول بغير علم وإنما هو ظن يظنونه وذلك أنهم لا دليل لهم يدلّ على نفي المعاد مع ما هناك من الأدلة على ثبوته.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ تأكيد لكون قولهم بنفي المعاد وحصر الحياة في الحياة الدنيا قولاً بغير علم.

والمراد بالآيات البينات الآيات المشتملة على الحجج المثبتة للمعاد وكونها بينات وضوح دلالتها على ثبوته بلا شك، وتسمية قولهم: «ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين» مع كونه اقتراحاً جزافياً بعد قيام الحجة إنما هو من باب التهكم فإنه من قبيل طلب الدليل على المطلوب بعد قيام الدليل عليه فكأنه قيل: ما كانت حجتهم إلا اللاحجة.

والمعنى: وإذا تتلى على هؤلاء المنكرين للمعاد آياتنا المشتملة على الحجج المثبتة للمعاد والحال أنها واضحات الدلالة على ثبوته ما قابلوها إلا بجزاف من القول وهو طلب الدليل

على إمكانه بإحياء آبائهم الماضين.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ - الى قوله - وَالْأَرْضِ﴾ ما ذكر من اقتراحهم الحجة على مطلوب قامت عليه الحجة وإن كان اقتراحاً جزافياً لا يستدعي شيئاً من الجواب لكنه سبحانه أمر نبيه ﷺ أن يجيبهم بإثبات إمكانه الذي كانوا يستعبدونه.

ومحصله: أن الذي يحييكم لأول مرة ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة الذي لا ريب فيه هو الله سبحانه ولله ملك السماوات والأرض يحكم فيها ما يشاء ويتصرف فيها كيفما يريد فله أن يحكم برجوع الناس اليه ويتصرف فيكم بجمعكم الى يوم القيامة والقضاء بينكم ثم الجزاء، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ قال الراغب: الخسر والخسران انتقاص رأس المال وينسب ذلك الى الإنسان فيقال: خسر فلان، والى الفعل فيقال: خسرت تجارته، قال تعالى: ﴿تلك إذاً كرّة خاسرة﴾ ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجية كالمال والجاه في الدنيا وهو الأكثر، وفي المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين.

قال: وكل خسران ذكره الله تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير دون الخسران المتعلق بالمقتنيات المالية والتجارات البشرية.

وقال: والإبطال يقال في إفساد الشيء وإزالته سواء كان ذلك الشيء حقاً أو باطلاً قال تعالى: «ليحق الحق ويبطل الباطل» وقد يقال فيمن يقول شيئاً لا حقيقة له نحو: ﴿ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾، وقوله تعالى: ﴿خسر هنالك المبطلون﴾ أي الذين يبطلون الحق. انتهى.

والأشبه أن يكون المراد بقيام الساعة فعليه ما يقع فيها من البعث والجمع والحساب

والجزاء وظهوره، وبذلك صح جعل الساعة مظروفاً لليوم وهما واحد. والأشبه أن يكون قوله: «يومئذ» تأكيداً لقوله: «يوم تقوم الساعة».

والمعنى: ويوم تقوم الساعة وهي يوم الرجوع الى الله يومئذ يخسر المبطلون الذين أبطلوا الحق وعدلوا عنه.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ الخ: الجثوُّ البروك على الركبتين كما أن الجذو البروك على أطراف الأصابع.

والخطاب عام لكل من يصح منه الرؤية وإن كان متوجهاً الى النبي ﷺ والمراد بالدعوة الى الكتاب الدعوة الى الحساب على ما ينطق به الكتاب بإحصائه الأعمال بشهادة قوله بعده: «اليوم تجزون ما كنتم تعملون».

والمعنى: وترى أنت وغيرك من الرائين كل امة من الامم جالسة على الجثوّ جلسة الخاضع الخائف كل امة منهم تدعى الى كتابها الخاص بها وهي صحيفة الأعمال وقيل لهم: اليوم تجزون ما كنتم تعملون.

ويستفاد من ظاهر الآية أن لكل امة كتاباً خاصاً بهم كما أن لكل إنسان كتاباً خاصاً به قال تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ (الاسراء / ١٣).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال في الصحاح: ونسخت الكتاب وانتسخته واستنسخته كله بمعنى، والنُسخة اسم المنتسخ منه. انتهى. وقال الراغب: النسخ إزالة الشيء بشيء يتعقبه كنسخ الشمس الظل راسخ الظل الشمس والشيب الشباب ـ الى أن قال ـ ونسخ الكتاب نقل صورته المجردة الى كتاب آخر وذلك لا يقتضي إزالة الصورة الاولى بل يقتضي إثبات مثلها في مادة اخرى كاتخاذ نقش الخاتم في شموع كثيرة، والاستنساخ التقدم بنسخ الشيء والترشح للنسخ.

انتهى.

ومقتضى ما نقل أن المفعول الذي يتعدى اليه الفعل في قولنا: استنسخت الكتاب هو الأصل المنقول منه، ولازم ذلك أن تكون الأعمال في قوله: «إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» كتاباً وأصلاً وإن شئت فقل: في أصل وكتاب يستنسخ وينقل منه ولو اريد به ضبط الأعمال الخارجية القائمة بالإنسان بالكتابة لقيل: إنا كنا نكتب ما كنتم تعملون إذ لا نكتة تستدعي فرض هذه الأعمال كتاباً وأصلاً يستنسخ، ولا دليل على كون «يستنسخ» بمعنى يستكتب كما ذكره بعضهم.

ولازم ذلك أن يكون المراد بما تعملون هو أعمالهم الخارجية بما أنها في اللوح المحفوظ فيكون استنساخ الأعمال استنساخ ما يرتبط بأعمالهم من اللوح المحفوظ وتكون صحيفة الأعمال وجزء من اللوح المحفوظ. ويكون معنى كتابة الملائكة للأعمال تطبيقهم ما عندهم من نسخة اللوح على الأعمال.

وهذا هو المعنى الذي وردت به الرواية من طرق الشيعة عن الصادق ﷺ ومن طرق أهل السنة عن ابن عباس، وسيوافيك في البحث الروائي التالي.

وعلى هذا فقوله: «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق» من كلامه تعالى لا من كلام الملائكة، وهو من خطابه تعالى لأهل الجمع يوم القيامة يحكيه لنا فيكون في معنى «ويقال لهم هذا كتابنا» الخ.

والإشارة بهذا ـ على ما يعطيه السياق ـ الى صحيفة الأعمال وهي بعينها إشارة الى اللوح المحفوظ على ما تقدم وإضافة الكتاب اليه تعالى نظراً الى أنه صحيفة الأعمال من جهة أنه مكتوب بأمره تعالى ونظراً الى أنه اللوح المحفوظ من جهة التشريف وقوله: «ينطق عليكم بالحق» أي يشهد على ما عملتم ويدل عليه دلالة واضحة ملابساً للحق.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليل لكون الكتاب ينطق عليهم

بالحق أي إن كتابنا هذا دالّ على عملكم بالحق من غير أن يتخلف عنه لأنه اللوح المحفوظ المحيط بأعمالكم بجميع جهاتها الواقعية .

ولولا أن الكتاب يريهم أعمالهم بنحو لا يداخله شك ولا يحتمل منهم التكذيب لكذّبوه ، قال تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ (آل عمران / ٣٠) .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ تفصيل حال الناس يومئذ بحسب اختلافهم بالسعادة والشقاء والثواب والعقاب ، والسعداء المثابون هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات . والأشقياء المعاقبون هم الذين كفروا من المستكبرين المجرمين .

والمراد بالرحمة الإفاضة الإلهية تسعد من استقر فيها ومنها الجنة ، والفوز المبين الفلاح الظاهر . والباقي واضح .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ ﴾ المراد بالذين كفروا المتلبسون بالكفر عن تكذيب وجحود بشهادة قوله : « أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم » الخ .

والفاء في « أفلم تكن » للتفريع فتدلّ على مقدّر متفرع عليه هو جواب لما ، والتقدير : فيقال لهم : ألم تكن آياتي تتلى عليكم ، والمراد بالآيات الحجج الإلهية الملقاة اليهم عن وحي ودعوة ، والمجرم هو المتلبس بالإجرام وهو الذنب .

والمعنى : وأما الذين كفروا جاحدين للحق مع ظهوره فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً : ألم تكن حججي تقرأ وتبين لكم في الدنيا فاستكبرتم عن قبولها وكنتم قوماً مذنبين .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لاٰ رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ الخ : المراد بالوعد الموعود وهو ما وعده الله بلسان رسله من البعث

والجزاء فيكون قوله: «والساعة لا ريب فيها» من عطف التفسير، ويمكن أن يراد بالوعد المعنى المصدري.

وقولهم: ﴿مَا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ معناه أنه غير مفهوم لهم والحال أنهم أهل فهم ودراية فهو كناية عن كونه أمراً غير معقول ولو كان معقولاً لدروه.

وقوله: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي ليست مما نقطع به ونجزم بل نظن ظناً لا يسعنا أن نعتمد عليه، ففي قولهم: «ما ندري ما الساعة» الخ؛ غبّ ما تليت عليهم من الآيات البينة أفحش المكابرة مع الحق.

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون﴾ إضافة السيئات الى ما عملوا بيانية أو بمعنى من، والمراد بما عملوا جنس ما عملوا أي ظهر لهم أعمالهم السيئة أو السيئات من أعمالهم فالآية في معنى قوله: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء﴾ (آل عمران / ٣٠).

فالآية من الآيات الدالة على تمثل الأعمال، وقيل: إن في الكلام حذفاً والتقدير: وبدا لهم جزاء سيئات ما عملوا.

قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون﴾ أي وحلَّ بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه في الدنيا إذا أُنذروا به بلسان الأنبياء والرسل.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَيكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا وَمَأْوَيكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ النسيان كناية عن الإعراض والترك فنسيانه تعالى لهم يوم القيامة إعراضه عنهم وتركه لهم في شدائده وأهواله، ونسيانهم لقاء يومهم ذاك في الدنيا إعراضهم عن تذكّره وتركهم التأهب للقائه، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللّٰهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيَا﴾ الخ؛ الإشارة بقوله: «ذلكم» الى ما ذكر من عقابهم من ظهور السيئات وحلول

العذاب والهزء السخرية التي يستهزء بها والباء للسببية.

والمعنى: ذلكم العذاب الذي يحل بكم بسبب أنكم اتخذتم آيات الله سخرية تستهزؤن بها وبسبب أنكم غرتكم الحياة الدنيا فأخلدتم اليها وتعلقتم بها.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ صرف الخطاب عنهم الى النبي ﷺ، ويتضمن الكلام خلاصة القول فيما يصيبهم من العذاب يومئذ وهو الخلود في النار وعدم قبول العذر منهم.

والاستعتاب طلب العتبى والاعتذار، ونفي الاستعتاب كناية عن عدم قبول العذر.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمٰوٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ تحميد له تعالى بالتفريع على ما تقدم في السورة من كونه خالق السماوات والأرض وما بينهما والمدبر لأمر الجميع ومن بديع تدبيره خلق الجميع بالحق المستتبع ليوم الرجوع اليه والجزاء بالأعمال وهو المستدعي لجعل الشرائع التي تسوق الى السعادة والثواب ويتعقبه الجمع ليوم الجمع ثم الجزاء واستقرار الجميع على الرحمة والعدل بإعطاء كل شيء ما يستحقه فلم يدبر إلا تدبيراً جميلاً ولا يفعل إلا فعلاً محموداً فله الحمد كله.

وقد كرر «الرب» فقال: رب السماوات ورب الأرض ثم أبدل منهما قوله: «رب العالمين» ليأتي بالتصريح بشمول الربوبية للجميع فلو جيء برب العالمين واكتفى به أمكن أن يتوهم أنه رب المجموع لكن للسماوات خاصة رب آخر وللأرض وحدها رب آخر كما ربما قال بمثله الوثنية، وكذا لو اكتفى بالسماوات والأرض لم يكن صريحاً في ربوبيته لغيرهما، وكذا لو اكتفى بإحداهما.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الكبرياء على ما عن الراغب: الترفع عن الانقياد، وعن ابن الأثير: العظمة والملك وفي المجمع السلطان القاهر والعظمة القاهرة والعظمة والرفعة.

وهي على أي حال أبلغ معنى من الكبر وتستعمل في العظمة غير الحسية ومرجعه الى كمال وجوده ولا تناهي كماله.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له الكبرياء في كل مكان فلا يتعالى عليه شيء فيهما ولا يستصغره شيء وتقديم الخبر في «له الكبرياء» يفيد الحصر كما في قوله: «فلله الحمد».

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الغالب غير المغلوب فيما يريد من خلق وتدبير في الدنيا والآخرة والباني خلقه وتدبيره على الحكمة والإتقان[1].

١ . الجاثية ٢٠ ـ ٣٧: بحث روائي في: من اتخذ الهه هواه ؛ الدهر: اللوح والقلم: استنساخ اعمال الانسان.

سورة الأحقاف مكية وهي خمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● حٰمٓ.

٢ ● تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ اللّٰهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ.

٣ ● مَا خَلَقْنَا السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ
مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ.

٤ ● قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ
ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوٰاتِ ٱئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ
هٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

٥ ● وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللّٰهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِم غَافِلُونَ.

٦ ● وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ.

٧ ● وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا

جاءَهُمْ هٰذا سِحْرٌ مُبِينٌ.

٨ • أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرٰيهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلاٰ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللّٰـهِ
شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَهُوَ ٱلْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

٩ • قُلْ مٰا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمٰا أَدْرِي مٰا يُفْعَلُ بِي وَلاٰ بِكُمْ
إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ وَمٰا أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ.

١٠ • قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ
بَنِي إِسْرٰائِيلَ عَلىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي
ٱلْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ.

١١ • وَقٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كٰانَ خَيْراً مٰا سَبَقُونٰا إِلَيْهِ
وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذٰا إِفْكٌ قَدِيمٌ.

١٢ • وَمِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰاماً وَرَحْمَةً وَهٰذٰا كِتٰابٌ مُصَدِّقٌ
لِسٰاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرىٰ لِلْمُحْسِنِينَ.

١٣ • إِنَّ الَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنٰا اللّٰهُ ثُمَّ ٱسْتَقٰامُوا فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاٰ
هُمْ يَحْزَنُونَ.

١٤ • أُولٰئِكَ أَصْحٰابُ ٱلْجَنَّةِ خٰالِدِينَ فِيهٰا جَزٰاءً بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ.

بيان:

غرض السورة إنذار المشركين الرادّين للدعوة الى الايمان بالله ورسوله بالمعاد بما فيه من

أليم العذاب لمنكريه المعرضيه عنه، ولذلك تفتتح الكلام بإثبات المعاد: «ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق» ثم يعود اليه عودة بعد عودة كقوله: «وإذا حشر الناس»، وقوله: ﴿والذي قال لوالديه أفٍّ لكما أتعدانني أن أخرج﴾، وقوله: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على الناس أذهبتم طيباتكم﴾، وقوله: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق﴾، وقوله في مختتم السورة: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ﴾ الآية.

وفيها احتجاج على الوحدانية والنبوة، وإشارة الى هلاك قوم هود وهلاك القرى التي حول مكة وإنذارهم بذلك، وإنباء عن حضور نفر من الجن عند النبي ﷺ واستماعهم القرآن وإيمانهم به ورجوعهم الى قومهم منذرين لهم.

والسورة مكية كلها إلا آيتين اختلف فيهما سنشير اليهما في البحث الروائي الآتي إن شاء الله، قوله تعالى: «أم يقولون افتراه» الخ؛ وقوله: «قل أرأيتم إن كان من عند الله» الآية.

قوله تعالى: ﴿حمٓ تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ اللّٰهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ تقدَّم تفسيره.

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ الخ؛ المراد بالسماوات والأرض وما بينهما مجموع العالم المشهود علويه وسفليه، والباء في «بالحق» للملابسة، والمراد بالأجل المسمى ما ينتهي اليه أمد وجود الشيء، والمراد به في الآية الأجل المسمى لوجود مجموع العالم وهو يوم القيامة الذي تطوى[1] فيه السماء كطي السجل للكتب وتبدل الأرض[2] غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار.

---

١. اشارة الى الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء.

٢. اشارة الى الآية ٤٨ من سورة ابراهيم.

والمعنى: ما خلقنا العالم المشهود بجميع أجزائه العلوية والسفلية إلا ملابساً للحق له غاية ثابتة وملابساً لأجل معين لا يتعداه وجوده وإذا كان له أجل معين يفنى عند حلوله وكانت مع ذلك له غاية ثابتة فبعد هذا العالم عالم آخر هو عالم البقاء وهو المعاد الموعود. وقد تكرر الكلام فيما تقدم في معنى كون الخلق بالحق.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ المراد بالذين كفروا هم المشركون بدليل الآية التالية لكن ظاهر السياق أن المراد بكفرهم كفرهم بالمعاد، و«ما» في «عما» مصدرية أو موصولة والثاني هو الأوفق للسياق والمعنى: والمشركون الذين كفروا بالمعاد عما أُنذروا به ـ وهو يوم القيامة بما فيه من أليم العذاب لمن أشرك بالله ـ معرضون منصرفون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الى آخر الآية «أرأيتم» بمعنى أخبروني والمراد بما تدعون من دون الله الأصنام التي كانوا يدعونها ويعبدونها وإرجاع ضمائر اولي العقل اليها بعد لكونهم ينسبون اليه أفعال اولي العقل وحجّة الآية وما بعدها مع ذلك تجري في كل إله معبود من دون الله.

وقوله: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أروني بمعنى أخبروني و«ما» اسم استفهام و«ذا» بعده زائدة والمجموع مفعول «خلقوا» ومن الأرض متعلق به.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي شركة في خلق السماوات فإن خلق شيء من السماوات والأرض هو المسؤول عنه.

توضيح ذلك أنهم وإن لم ينسبوا اليها إلا تدبير الكون وخصوا الخلق به سبحانه كما قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ (الزمر / ٣٨)، وقال: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ (الزخرف / ٨٧)، لكن لما كان الخلق لا ينفك عن التدبير أوجب ذلك أن يكون لمن له سهم من التدبير سهم في الخلق ولذلك أمر تعالى نبيه ﷺ أن

يسألهم عما لأربابهم الذين يدعون من دون الله من النصيب في خلق الأرض أو في خلق السماوات فلا معنى للتدبير في الكون من غير خلق.

وقوله: ﴿ ٱئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الإشارة بهذا الى القرآن. والمراد بكتاب من قبل القرآن كتاب سماوي كالتوراة نازل من عند الله يذكر شركة آلهتهم في خلق السماوات أو الأرض.

والاثارة على ما ذكره الراغب مصدر بمعنى النقل والرواية قال: وأثرت العلم رويته آثره أثراً وأثارة وأثرة وأصله تتبعت أثره انتهى. وعليه فالاثارة في الآية مصدر بمعنى المفعول أي شيء منقول من علم يثبت أن لآلهتهم شركة في شيء من السماوات والأرض. وفسره غالب المفسرين بمعنى البقية وهو قريب مما تقدم.

والمعنى: ائتوني للدلالة على شركهم لله في خلق شيء من الأرض أو في خلق السماوات بكتاب سماوي من قبل القرآن يذكر ذلك أو بشيء منقول من علم أو بقية من علم اورثتموها يثبت ذلك إن كنتم صادقين في دعواكم أنهم شركاء لله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللّٰهِ مَنْ لاٰ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلىٰ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ ﴾ الخ؛ الاستفهام إنكاري. وتحديد عدم استجابتهم الدعوة بيوم القيامة لما أن يوم القيامة أجل مسمى للدنيا والدعوة مقصورة في الدنيا ولا دنيا بعد قيام الساعة.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعٰائِهِم غٰافِلُونَ ﴾ صفة اخرى من صفات آلهتهم مضافة الى صفة عدم استجابتهم وليس تعليلاً لعدم الاستجابة فإن عدم استجابتهم معلول كونهم لا

يشعرون

يوم القيامة فيعادونهم ويكفرون بعبادتهم.

وفي الآية دلالة على سراية الحياة والشعور في الأشياء حتى الجمادات فإن الأصنام من الجماد وقد نسب اليها الغفلة والغفلة من شؤن ذوي الشعور لا تطلق إلا على ما من شأن موصوفه أن يشعر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ الحشر إخراج الشيء من مقرّه بإزعاج، والمراد بعث الناس من قبورهم وسوقهم الى المحشر يوم القيامة فيومئذ يعاديهم آلهتهم ويكفرون بشرك عبّادهم بالتبرّي منهم كما قال تعالى: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ (فاطر / ١٤)، وقال حكاية عنهم: ﴿تبرّأنا اليك ماكانوا إيانا يعبدون﴾ (القصص / ٦٣)، وقال: ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم أن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ (يونس / ٢٩).

وفي سياق الآيتين تلويح الى أن هذه الجمادات التي لا تظهر لنا في هذه النشأة أن لها حياة لعدم ظهور آثارها سيظهر في النشأة الآخرة أن لها حياة وتظهر آثارها وقد تقدم بعض الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى: ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ (الم السجدة / ٢١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ الآية والتي بعدها مسوقتان للتوبيخ، والمراد بالآيات البينات آيات القرآن تتلى عليهم، ثم بدّلها من الحق الذي جاءهم حيث قال: «للحق لما جاءهم» ـ وكان مقتضى الظاهر أن يقال: «لها» للدلالة على أنها حق جاءهم لا مسوّغ لرميها بأنها سحر مبين وهم يعلمون أنها حق مبين فهم متحكمون مكابرون للحق الصريح.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ الخ: «أم» منقطعة أي بل يقولون افترى القرآن على الله في دعواه أنه كلامه.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي إن افتريت القرآن لأجلكم آخذني بالعذاب أو عاجلني بالعذاب على الافتراء ولستم تقدرون على دفع عذابه عني فكيف أفتريه عليه لأجلكم، والمحصل أني على يقين من أمر الله وأعلم أنه يأخذ المفترى عليه أو يعاجل في عقوبته وأنكم لا تقدرون على دفع ما يريده فكيف أفتري عليه فأعرض نفسي على عذابه المقطوع لأجلكم؟ أي لست بمفترٍ عليه.

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الإفاضة في الحديث الخوض فيه و«ما» موصولة يرجع اليه ضمير «فيه» أو مصدرية ومرجع الضمير هو القرآن، والمعنى: الله سبحانه أعلم بالذي تخوضون فيه من التكذيب برمي القرآن بالسحر والافتراء على الله أو المعنى: هو أعلم بخوضكم في القرآن.

وقوله: ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ احتجاج ثان على نفي الافتراء وأول الاحتجاجين قوله: «إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً» وقد تقدم بيانه آنفاً، ومعنى الجملة: أن شهادة الله سبحانه في كلامه بأنه كلامه وليس افتراء مني يكفي في نفي كوني مفترياً به عليه، وقد صدَّق سبحانه هذه الدعوى بقوله: ﴿لكن الله يشهد بما أُنزل اليك أنزله بعلمه﴾ (النساء / ١٦٦)، وما في معناه من الآيات، وأما أنه كلامه فيكفي في ثبوته آيات التحدي.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ تذييل الآية بالاسمين الكريمين للاحتجاج على نفي ما يتضمنه تحكمهم الباطل من نفي الرسالة كأنه قيل: إن قولكم «افتراه» يتضمن دعويين: دعوى عدم كون هذا القرآن من كلام الله ودعوى بطلان الرسالة ـ والوثنيون ينفونها مطلقاً ـ أما الدعوى الاولى فيدفعه أولاً: أنه إن افتريته فلا تملكون. الخ؛ وثانياً: أن الله يكفيني شهيداً على كونه كلامه لا كلامي.

وأما الدعوى الثانية فيدفعها أن الله سبحانه غفور رحيم، ومن الواجب في حكمته أن

يعامل خلقه بالمغفرة والرحمة ولا تشملان إلا التائبين الراجعين اليه الصالحين لذلك وذلك بأن يهديهم الى صراط يقرّبهم منه سلوكه فتشملهم مغفرته ورحمته بحطّ السيئات والاستقرار في دار السعادة الخالدة، وكونه واجباً في حكمته لأن فيهم صلاحية هذا الكمال وهو الجواد الكريم، قال تعالى: ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ (الإسراء / ٢٠)، وقال: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ (النحل / ٩)، والسبيل الى هذه الهداية هي الدعوة من طريق الرسالة فمن الواجب في الحكمة أن يرسل الى الناس رسولاً يدعوهم الى سبيله الموصلة الى مغفرته ورحمته.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾الخ: البدع ما كان غير مسبوق بالمثل من حيث صفاته أو من حيث أقواله وأفعاله ولذا فسّره بعضهم بأن المعنى: ما كنت أول رسول أُرسل اليكم لا رسول قبلي. وقيل: المعنى: ما كنت مبدعاً في أقوالي وأفعالي لم يسبقني اليها أحد من الرسل.

والمعنى الأول لا يلائم السياق ولا قوله المتقدم: «وهو الغفور الرحيم» بالمعنى الذي تقدم توجيهه فثاني المعنيين هو الأنسب، وعليه فالمعنى: لست أُخالف الرسل السابقين في صورة أو سيرة وفي قول أو فعل بل أنا بشر مثلهم فيَّ من آثار البشرية ما فيهم وسبيلهم في الحياة سبيلي.

وبهذه الجملة يجاب عن مثل ما حكاه الله من قولهم: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أُنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلق اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها﴾ (الفرقان / ٨).

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ نفي لعلم الغيب عن نفسه فهو نظير قوله: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء﴾ (الأعراف / ١٨٨)، والفرق بين الآيتين أن قوله: «ولو كنت أعلم الغيب» الخ: نفي للعلم بمطلق الغيب واستشهاد له

بمسّ السوء وعدم الاستكثار من الخير، وقوله: «وما أدري ما يفعل بي ولا بكم» نفي للعلم بغيب خاص وهو ما يفعل به وبهم من الحوادث التي يواجهونها جميعاً. وذلك أنهم كانوا يزعمون أن المتلبس بالنبوة لو كان هناك نبي يجب أن يكون عالماً في نفسه بالغيوب ذا قدرة مطلقة غيبية كما يظهر من اقتراحاتهم المحكية في القرآن فامر ﷺ أن يعترف ـ مصرّحاً به ـ أنه لا يدري ما يفعل به ولا بهم فينفي عن نفسه العلم بالغيب، وأن ما يجري عليه وعليهم من الحوادث خارج عن إرادته واختياره وليس له في شيء منها صنع بل يفعله به وبهم غيره وهو الله سبحانه.

فقوله: ﴿وَمٰا أَدْرِي مٰا يُفْعَلُ بِي وَلاٰ بِكُمْ﴾ كما ينفي عنه العلم بالغيب ينفي عنه القدرة على شيء مما يصيبه ويصيبهم مما هو تحت أستار الغيب.

ونفي الآية العلم بالغيب عنه ﷺ لا ينافي علمه بالغيب من طريق الوحي كما يصرّح تعالى به في مواضع من كلامه كقوله: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك﴾ (آل عمران / ٤٤)، (يوسف / ١٠٢)، وقوله: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك﴾ (هود / ٤٩)، وقوله: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾ (الجن / ٢٧)، ومن هذا الباب قول المسيح ﷺ: ﴿وأُنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم﴾ (آل عمران / ٤٩)، وقول يوسف ﷺ لصاحبي السجن: ﴿لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾ (يوسف / ٣٧).

وجه عدم المنافاة أن الآيات النافية للعلم بالغيب عنه وعن سائر الأنبياء عليهم السلام إنما تنفيه عن طبيعتهم البشرية بمعنى أن تكون لهم طبيعة بشرية أو طبيعة هي أعلى من طبيعة البشر من خصاصتها العلم بالغيب بحيث يستعمله في جلب كل نفع ودفع كل شر كما نستعمل ما يحصل لنا من طريق الأسباب وهذا لا ينافي انكشاف الغيب لهم بتعليم إلهي من طريق الوحي كما أن إتيانهم بالمعجزات فيما أتوا بها ليس عن قدرة نفسية فيهم يملكونها لأنفسهم بل

بإذن من الله تعالى وأمر، قال تعالى: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ (الإسراء / ٩٣)، جواباً عما اقترحوا عليه من الآيات، وقال: ﴿قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾ (العنكبوت / ٥٠)، وقال: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق﴾ (المؤمن / ٧٨).

ويشهد بذلك قوله بعده متصلاً به: «إن أتّبع إلا ما يوحى إليّ» فإن اتصاله بما قبله يعطي أنه في موضع الإضراب، والمعنى: إني ما أدري شيئاً من هذه الحوادث بالغيب من قبل نفسي وإنما أتّبع ما يوحى إليّ من ذلك.

وقوله: ﴿وَمٰا أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ تأكيد لجميع ما تقدم في الآية من قوله: «ما كنت بدعاً» الخ؛ و«وما أدري» الخ؛ وقوله: «إن أتّبع» الخ[1].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرٰائِيلَ عَلىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ الخ، ضمائر «كان» و«به» و«مثله» على ما يعطيه السياق للقرآن، وقوله: «وشهد شاهد من بني إسرائيل» الخ؛ معطوف على الشرط ويشاركه في الجزاء، والمراد بمثل القرآن مثله من حيث مضمونه في المعارف الإلهية وهو كتاب التوراة الأصلية التي نزلت على موسى عليه السلام، وقوله: «فآمن واستكبرتم» أي فآمن الشاهد الإسرائيلي المذكور بعد شهادته.

وقوله: ﴿إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰالِمِينَ﴾ تعليل للجزاء المحذوف دال عليه، والظاهر أنه ألستم ضالين لا ما قيل: إنه ألستم ظلمتم لأن التعليل بعدم هداية الله الظالمين إنما يلائم ضلالهم لا ظلمهم وإن كانوا متصفين بالوصفين جميعاً.

والمعنى: قل للمشركين: أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله والحال أنكم كفرتم به

---

١. الاحقاف ١ ـ ١٤: بحث فلسفي ودفع شبهة في علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام.

وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل ما في القرآن من المعارف فآمن هو واستكبرتم أنتم ألستم في ضلال؟ فإن الله لا يهدي القوم الظالمين.

والذي شهد على مثله فآمن على ما في بعض الأخبار هو عبدالله بن سلام من علماء اليهود، والآية على هذا مدنية لا مكية لأنه ممن آمن بالمدينة، وقول بعضهم: من الجائز أن يكون التعبير بالماضي في قوله: «وشهد شاهد من بني إسرائيل فآمن» لتحقق الوقوع والقصة واقعة في المستقبل سخيف لأنه لا يلائم كون الآية في سياق الاحتجاج فالمشركون ما كانوا ليسلموا للنبي ﷺ صدقه فيما يخبرهم به من الامور المستقبلة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ الى آخر الآية قيل: اللام في قوله: «للذين آمنوا» للتعليل أي لأجل إيمانهم ويؤل الى معنى في، وضمير «كان» و«اليه» للقرآن من جهة الإيمان به.

والمعنى: وقال الذين كفروا في الذين آمنوا ـ أي لأجل إيمانهم ـ: لو كان الايمان بالقرآن خيراً ما سبقونا ـ أي المؤمنون ـ اليه.

وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ضمير «به» للقرآن وكذا الإشارة بهذا اليه والإفك الافتراء أي وإذ لم يهتدوا بالقرآن لاستكبارهم عن الايمان به فسيقولون أي الذين كفروا هذا أي القرآن إفك وافتراء قديم، وقولهم: هذا إفك قديم كقولهم: أساطير الأولين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً﴾ الخ: الظاهر أن قوله: «ومن قبله» الخ: جملة حالية والمعنى: فسيقولون هذا إفك قديم والحال أن كتاب موسى حال كونه إماماً ورحمة قبله أي قبل القرآن وهذا القرآن كتاب مصدق له حال كونه لساناً عربياً ليكون منذراً للذين ظلموا وهو بشرى للمحسنين فكيف يكون إفكاً؟

وكون التوراة إماماً ورحمة هو كونها بحيث يقتدي بها بنو إسرائيل ويتبعونها في أعمالهم ورحمة للذين آمنوا بها واتبعوها في إصلاح نفوسهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا﴾ الى آخر الآية المراد بقولهم ربنا الله إقرارهم وشهادتهم بانحصار الربوبية في الله سبحانه وتوحده فيها، وباستقامتهم ثباتهم على ما شهدوا به من غير زيغ وانحراف والتزامهم بلوازمه العملية.

وقوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي ليس قبالهم مكروه محتمل يخافونه من عقاب محتمل، ولا مكروه محقق يحزنون به من عقاب أو هول، فالخوف إنما يكون من مكروه ممكن الوقوع. والحزن من مكروه محقق الوقوع، والفاء في قوله: «فلا خوف» الخ؛ لتوهم معنى الشرط فإن الكلام في معنى من قال ربنا الله ثم استقام فلا خوف، الخ.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ المراد بصحابة الجنة ملازمتها، وقوله: «خالدين فيها» حال مؤكدة لمعنى الصحابة.

والمعنى: اولئك الذين قالوا ربنا لله ثم استقاموا ملازمون للجنة حال كونهم خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا من الطاعات والقربات[١].

١٥ ۞ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ.

---

١. الاحقاف ١ - ١٤: بحث روائي في مودة قربى رسول الله، دخول المؤمنين الجنة.

١٦ ● أُولٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا وَنَتَجٰاوَزُ عَنْ سَيِّئٰاتِهِمْ فِي أَصْحٰابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كٰانُوا يُوعَدُونَ.

١٧ ● وَالَّذِي قٰالَ لِوٰالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمٰا أَتَعِدٰانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمٰا يَسْتَغِيثٰانِ اللّٰهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مٰا هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِيرُ الأَوَّلِينَ.

١٨ ● أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كٰانُوا خٰاسِرِينَ.

١٩ ● وَلِكُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ وَهُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ.

٢٠ ● وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّٰارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبٰاتِكُمْ فِي حَيٰاتِكُمُ الدُّنْيٰا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهٰا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ الْهُونِ بِمٰا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمٰا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَيْهِ إِحْسٰاناً﴾ الى آخر الآية، الوصية على ما ذكره الراغب هو التقدم الى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ والتوصية تفعيل من الوصية قال تعالى: ﴿ووصّى بها إبراهيم بنيه﴾ (البقرة / ١٣٢)، فمفعوله الثاني الذي يتعدى اليه بالباء من قبيل الأفعال، فالمراد بالتوصية بالوالدين التوصية بعمل يتعلق بهما وهو الإحسان اليهما.

وعلى هذا فتقدير الكلام : ووصّينا الإنسان بوالديه أن يحسن اليهما إحساناً .

وفي إعراب « إحساناً » أقوال أُخر كقول بعضهم : إنه مفعول مطلق على تضمين « وصينا » معنى أحسنّا ، والتقدير : وصينا الإنسان محسنين اليهما إحساناً ، وقول بعضهم : إنه صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف أي إيصاءً ذا إحسان ، وقول بعضهم : هو مفعول له ، والتقدير : وصيناه بهما لإحساننا اليهما ، الى غير ذلك مما قيل .

وكيف كان فبرّ الوالدين والإحسان اليهما من الأحكام العامة المشرعة في جميع الشرائع كما تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم أن لا تشركوا بـه شـيئاً وبالوالدين إحساناً ﴾ (الأنعام / ١٥١) ، ولذلك قال : « ووصينا الإنسان » فعمّمه لكل إنسان .

ثم عقبّه سبحانه بالإشارة الى ما قاسته امه في حمله ووضعه وفصاله إشعاراً بملاك الحكم وتهييجاً لعواطفه وإثارة لغريزة رحمته ورأفته فقال : « حملته امه كرهاً ووضعته كرهاً وحمـله وفصاله ثلاثون شهراً » أي حملته امه حملاً ذا كره أي مشقة وذلك لما في حمـله مـن الثـقل ، ووضعته وضعاً ذا كره وذلك ما عنده من ألم الطلق .

وأما قوله : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً ﴾ فقد اخذ فيه أقل مدة الحمل وهـو ستة أشهر ، والحولان الباقيان الى تمام ثلاثين شهـراً مدة الرضاع ، قال تـعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ (البقرة / ٢٣٣) ، وقال : ﴿ وفصاله في عامين ﴾ (لقمان / ١٤) .

والفصال التفريق بين الصبي وبين الرضاع ، وجعل العامين ظرفاً للفصال بعناية أنه في آخر الرضاع ولا يتحقق إلا بانقضاء عامين .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ بلوغ الأشد بلوغ زمان من العمر تشتد فيه قوى الإنسان ، وقد مرَّ نقل اختلافهم في معنى بلوغ الأشد في تفسير قوله : ﴿ ولما بلغ أشدَّه آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (يوسف / ٢٢) ، وبلوغ الأربعين ملازم عادة لكمال العقل .

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ الإيزاع الإلهام. وهذا الإلهام ليس بإلهام علم يعلم به الإنسان ما جهلته نفسه بحسب الطبع كما في قوله: ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾ (الشمس / ٨)، بل هو إلهام عملي بمعنى البعث والدعوة الباطنية الى فعل الخير وشكر النعمة وبالجملة العمل الصالح.

وقد أُطلق النعمة التي سأل إلهام الشكر عليها فتعمّ النعم الظاهرية كالحياة والرزق والشعور والإرادة، والباطنية كالإيمان بالله والإسلام والخشوع له والتوكل عليه والتفويض اليه في قوله: «رب أوزعني أن أشكر نعمتك» الخ؛ سؤال أن يلهمه الثناء عليه بإظهار نعمته قولاً وفعلا: أما قولاً فظاهر. وأما فعلاً فباستعمال هذه النعم استعمالاً يظهر به أنها لله سبحانه أنعم بها عليه وليست له من قبل نفسه ولازمه ظهور العبودية والمملوكية من هذا الإنسان في قوله وفعله جميعاً.

وتفسير النعمة بقوله: «التي أنعمت عليّ وعلى والديّ» يفيد شكره من قبل نفسه على ما اختص به من النعمة ومن قبل والديه فيما أنعم به عليهما فهو لسان ذاكر لهما بعدهما.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَيٰهُ﴾ عطف على قوله: «أن أشكر» الخ؛ سؤال متمم لسؤال الشكر على النعم فإن الشكر يحلي ظاهر الأعمال، والصلاحية التي يرتضيها الله تعالى تحلّي باطنها وتخلّصها له تعالى.

وقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ الإصلاح في الذرية إيجاد الصلاح فيهم وهو من الله سبحانه توفيقهم للعمل الصالح وينجرّ الى إصلاح نفوسهم. وتقييد الإصلاح بقوله: «لي» للدلالة على أن يكون إصلاحهم بنحو ينتفع هو به أي أن يكون ذريته له في برّه وإحسانه كما كان هو لوالديه.

ومحصّل الدعاء سؤال أن يلهمه الله شكر نعمته وصالح العمل وأن يكون بارّاً محسناً بوالديه

ويكون ذريته له كما كان هو لوالديه. وقد تقدّم[1] غير مرّة أن شكر نعمه تعالى بحقيقة معناه هو كون العبد خالصاً لله فيؤل معنى الدعاء الى سؤال خلوص النفس وصلاح العمل.

وقوله: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي الذين يسلمون الأمر لك فلا تريد شيئاً إلا أرادوه بل لا يريدون إلا ما أردت.

والجملة في مقام التعليل لما يتضمنه الدعاء من المطالب. ويتبين بالآية حيث ذكر الدعاء ولم يردّه بل أيّده بما وعد في قوله: «اولئك الذين نتقبّل عنهم» الخ؛ أن التوبة والإسلام لله سبحانه إذا اجتمعا في العبد استعقب ذلك إلهامه تعالى بما يصير به العبد من المخلصين ـ بفتح اللام ـ ذاتاً والمخلصين ـ بكسر اللام ـ عملاً أما إخلاص الذات فقد تقدمت الإشارة اليه آنفاً. وأما إخلاص العمل فلأن العمل لا يكون صالحاً لقبوله تعالى مرفوعاً اليه إلا إذا كان خالصاً لوجهه الكريم. قال تعالى: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ (الزمر / ٣).

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ﴾ الخ؛ التقبل أبلغ من القبول. والمراد بأحسن ما عملو طاعاتهم من الواجبات والمندوبات فإنها هي المقبولة المتقبلة وأما المباحات فإنها وإن كانت ذات حسن لكنها ليست بمتقبلة. كذا ذكر في مجمع البيان وهو تفسير حسن ويؤيده مقابلة تقبّل أحسن ما عملوا بالتجاوز عن السيئات فكأنه قيل: إن أعمالهم طاعات من الواجبات والمندوبات وهي أحسن أعمالهم فنتقبلها وسيئات فنتجاوز عنها وما ليس بطاعة ولا حسنة فلا شأن له من قبول وغيره.

وقوله: ﴿فِي أَصْحَابِ ٱلْجَنَّةِ﴾ متعلق بقوله: «نتجاوز» أي نتجاوز عن سيئاتهم في جملة من نتجاوز عن سيئاتهم من أصحاب الجنة. فهو حال من ضمير «عنهم».

---

١. تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران والآية ١٧ من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي يعدهم الله بهذا الكلام وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه الى هذا الحين بلسان الأنبياء والرسل، أو المراد أنه ينجّز لهم بهذا التقبل والتجاوز يوم القيامة وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ لما ذكر الانسان الذي تاب الى الله وأسلم له وسأله الخلوص والإخلاص وبرّ والديه وإصلاح أولاده له قابله بهذا الإنسان الذي يكفر بالله ورسوله والمعاد ويعقّ والديه إذا دعواه الى الايمان وأنذراه بالمعاد.

فقوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾ الظاهر أنه مبتدء في معنى الجمع وخبره قوله بعد: «أُولئك الذين» الخ، و«أُفّ» كلمة تبرُّم يقصد بها إظهار التسخط والتوجع و«أتعدانني أن أُخرج» الإستفهام للتوبيخ، والمعنى: أتعدانني أن أُخرج من قبري فاحيا وأُحضر للحساب أي أتعدانني المعاد «وقد خلت القرون من قبلي» أي والحال أنه هلكت امم الماضون العائشون من قبلي ولم يُحي منهم أحد ولا بُعث.

وهذا على زعمهم حجة على نفي المعاد وتقريره أنه لو كان هناك إحياء وبعث لاحيي بعض من هلك الى هذا الحين وهم فوق حد الاحصاء عدداً في أزمنة طويلة لا أمد لها ولا خبر عنهم ولا أثر ولم يتنبهوا أن القرون السالفة لو عادوا كما يقولون كان ذلك بعثاً لهم وإحياء في الدنيا والذي وعده الله سبحانه هو البعث للحياة الآخرة والقيام لنشأة اخرى غير الدنيا.

وقوله: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ الاستغاثة طلب الغوث من الله أي والحال أن والديه يطلبان من الله أن يغيثها ويعينهما على إقامة الحجة واستمالته الى الايمان ويقولان له: ويلك آمن بالله وبما جاء به رسوله ومنه وعده تعالى بالمعاد إن وعد الله بالمعاد من طريق رسله حق.

ومنه يظهر أن مرادهما بقولهما: «آمن» هو الأمر بالايمان بالله ورسوله فيما جاء به من عند

الله، وقولهما: «إن وعد الله حق» المراد به المعاد، وتعليل الأمر بالإيمان بـه لغـرض الانـذار والتخويف.

وقوله: ﴿فَيَقُولُ مَا هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ الإشارة بهذا الى الوعد الذي ذكراه وأنذراه به أو مجموع ماكانا يدعوانه اليه والمعنى: فيقول هذا الإنسان لوالديه ليس هذا الوعد الذي تنذرانني به أوليس هذا الذي تدعوانني اليه إلا خرافات الأولين وهم الامـم الأوليـة الهمجية.

قوله تعالى: ﴿أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ الخ: تقدم بعض الكـلام فـيه في تفسير الآية ٢٥ من سورة حم السجدة.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ الى آخر الآية أي لكل من المذكورين وهم المؤمنون البررة والكافرون الفجرة منازل ومراتب مختلفة صـعوداً وحـدوراً فـللجنة درجات وللنار دركات.

ويعود هذا الاختلاف الى اختلافهم في أنفسهم وإن كان ظهوره في أعمالهم ولذلك قـال: «لهم درجات مما عملوا» فالدرجات لهم ومنشأها أعمالهم.

وقوله: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ اللام للغاية والجملة معطوفة على غاية أو غايات اخرى محذوفة لم يتعلق بذكرها غرض، وإنما جـعلت غـاية لقـوله: «هـم درجات» لأنه في معنى وجعلناهم درجات، والمعنى: جعلناهم درجات لكذا وكذا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون.

ومعنى توفيتهم أعمالهم إعطاؤهم نفس أعمالهم فـالآية مـن الآيـات الدالة عـلى تجسم الأعمال. وقيل: الكلام على تقدير مضاف والتقدير وليوفيهم اجور أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ الخ؛ عرض الماء على الدابة وللدابة وضعه بمرئى منها بحيث إن شاءت شربته، وعرض المتاع على البيع وضعه موضعاً لا

مانع من وقوع البيع عليه.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ قيل: المراد بعرضهم على النار تعذيبهم فيها من قولهم: عرض فلان على السيف إذا قتل وهو مجاز شائع.

وفيه أن قوله في آخر السورة: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب﴾ لا يلائمه تلك الملاءمة حيث فرع ذوق العذاب على العرض فهو غيره.

وقوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ على تقدير القول أي يقال لهم: «أذهبتم» الخ؛ والطيبات الامور التي تلائم النفس وتوافق الطبع ويستلذّ بها الإنسان، وإذهاب الطيبات إنفادها بالاستيفاء لها، والمراد بالاستمتاع بها استعمالها والانتفاع بها لنفسها لا للآخرة والتهيؤ لها.

والمعنى: يقال لهم حين عرضهم على النار: أنفذتم الطيبات التي تلتذون بها في حياتكم الدنيا واستمتعتم بتلك الطيبات فلم يبق لكم شيء تلتذون به في الآخرة.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ تفريع على إذهابهم الطيبات، وعذاب الهون العذاب الذي فيه الهوان والخزي.

والمعنى: فاليوم تجزون العذاب الذي فيه الهوان والخزي قبال استكباركم في الدنيا عن الحق وقبال فسقكم وتوليكم عن الطاعات، وهما ذنبان أحدهما متعلق بالاعتقاد وهو الاستكبار عن الحق والثاني متعلق بالعمل وهو الفسق[1].

---

١. الاحقاف ١٥ ـ ٢٠: بحث روائي في حكم علي عليه السلام في امرأة ولدت لستة اشهر وارادوا رجمها.

٢١ ● وَاذكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُذُرُ
مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا اللّٰهَ إِنِّي أَخافُ
عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.
٢٢ ● قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصّادِقِينَ.
٢٣ ● قالَ إِنَّما الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَلٰكِنِّي أَرٰيكُمْ
قَوْماً تَجْهَلُونَ.
٢٤ ● فَلَمّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هٰذا عارِضٌ
مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ ما اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ.
٢٥ ● تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرىٰ إِلاّ مَساكِنُهُمْ
كَذٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ.
٢٦ ● وَلَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً
وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ
شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللّٰهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ.
٢٧ ● وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرىٰ وَصَرَّفْنا الآياتِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ.
٢٨ ● فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ
ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ الخ: أخو القوم هو المنسوب اليهم من جهة الأب، والمراد بأخي عاد هود النبي عليه السلام، والأحقاف مسكن قوم عاد والمتيقن أنه في جنوب جزيرة العرب ولا أثر اليوم باقياً منهم، واختلفوا أين هو؟ فقيل: واد بين عمان ومهرة، وقيل رمال بين عمان الى حضرموت، وقيل: رمال مشرفة على البحر بالشّحر من أرض اليمن وقيل غير ذلك.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ النذر جمع نذير والمراد به الرسول على ما يفيده السياق، وأما تعميم بعضهم النذر للرسل ونوابهم من العلماء ففي غير محله.

وفسروا «من بين يديه» بالذين كانوا قبله و«من خلفه» بالذين جاؤا بعده ويمكن العكس بأن يكون المراد بالنذر بين يديه من كانوا في زمانه، ومن خلفه من كان قبله، والأولى على الأول أن يكون المراد بخلو النذر من بين يديه ومن خلفه أن يكون كناية عن مجيئه اليهم وإنذاره لهم على فترة من الرسل.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ تفسير للإنذار وفيه إشارة الى أن أساس دينه الذي يرجع اليه تفاصيله هو التوحيد.

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تعليل لدعوتهم الى التوحيد، والظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم عذاب الاستئصال لا يوم القيامة يدل على ذلك ما سيأتي من قولهم: «فائتنا بما تعدنا» وقوله: «بل هو ما استعجلتم به» والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ الخ: جواب القوم له قبال إنذاره، وقوله: «لتأفكنا عن آلهتنا» بتضمين الإفك وهو الكذب والفرية معنى الصرف والمعنى: قالوا

أجئتنا لتصرفنا عن آلهتنا إفكاً وافتراء.

وقوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أمر تعجيزي منهم له زعماً منهم أنه ﷺ كاذب في دعواته آفك في إنذاره.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ الخ: جواب هود عن قولهم رداً عليهم، فقوله: «إنما العلم عند الله» قصر العلم بنزول فيه تعالى لأنه من الغيب الذي لا يعلم حقيقته إلا الله جل شأنه، وهو كناية عن أنه ﷺ لا علم له بأنه ما هو؟ ولا كيف هو؟ ولا متى هو؟ ولذلك عقبّه بقوله: «وأُبلغكم ما أُرسلت بـه» أي إن الذي حمّلته وأُرسلت به اليكم هو الذي أُبلّغكموه ولا علم لي بالعذاب الذي أُمرت بإنذاركم به ما هـو؟ وكيف هو؟ ومتى هو؟ ولا قدرة لي عليه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ إضراب عما يدل عليه الكلام من نـفيه العلم عن نفسه، والمعنى: لا علم لي بما تستعجلون به من العذاب ولكني أراكم قوماً تجهلون فلا تميّزون ما ينفعكم مما يضركم وخيركم من شركم حين تردون دعـوة الله وتكـذبون بآيـاته وتستهزؤن بما يوعدكم به من العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ الخ، صفة نزول العذاب اليهم بادىء ظهوره عليهم.

والعارض هو السحاب يعرض في الافق ثم يطبق السماء وهو صفة العذاب الذي يرجع اليه ضمير «رأوه» المعلوم من السياق، وقوله: «مستقبل أوديتهم» صفة اخرى له، والأودية جمع الوادي، وقوله: «قالوا هذا عارض ممطرنا» أي استبشروا ظناً منهم أنه سحاب عارض ممطر لهم فقالوا: هذا الذي نشاهده سحاب عارض ممطر إيانا.

وقوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ رد لقـولهم: «هـذا عارض ممطرنا» بالإضراب عنه الى بيان الحقيقة فبيّن أولاً على طريق التهكم أنـه العـذاب

الذي استعجلتم به حين قلتم «فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين» وزاد في البيان ثانياً بقوله: «ريح فيها عذاب أليم».

والكلام من كلامه تعالى وقيل: هو كلام لهود النبي عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ التدمير الإهلاك. وتعلقه بكل شيء وإن كان يفيد عموم التدمير لكن السياق يخصصه بنحو الإنسان والدواب والأموال. فالمعنى: إن تلك الريح ريح تهلك كل ما مرّت عليه من إنسان ودواب وأموال.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ بيان لنتيجة نزول العذاب، وقوله: «كذلك نجزي القوم المجرمين» إعطاء ضابط كلي في مجازاة المجرمين بتشبيه الكلي بالفرد الممثل به والتشبيه في الشدة أي إن سنتنا في جزاء المجرمين على هذا النحو الذي قصصناه من الشدة فهو كقوله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ (هود / ١٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ الخ: موعظة لكفار مكة مستنتجة من القصة.

والتمكين إقرار الشيء وإثباته في المكان. وهو كناية عن إعطاء القدرة والإستطاعة في التصرف و«ما» في «فيما» موصولة أو موصوفة و«إن» نافية. والمعنى: ولقد جعلنا قوم هود في الذي ـ أو في شيء ـ ما مكناكم معشر كفار مكة ومن يتلوكم فيه من بسطة الأجسام وقوة الأبدان والبطش الشديد والقدرة القومية.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً﴾ أي جهّزناهم بما يدركون به ما ينفعهم وما يضرهم وهو السمع والأبصار وما يميزون به ما ينفعهم مما يضرهم فيحتالون لجلب النفع ولدفع الضر بما قدروا كما أن لكم ذلك.

وقـوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ما في «فما أغنى» نافية لا استفهامية، و«إذ» ظرف متعلق بالنفي الذي في قوله: «فما أغنى».

ومحصل المعنى: أنهم كانوا من التمكن على ما ليس لكم ذلك وكان لهم من أدوات الإدراك والتمييز ما يحتال به الإنسان لدفع المكاره والإتقاء من الحوادث المهلكة المبيدة لكن لم يغن عنهم ولم ينفعهم هذه المشاعر والأفئدة شيئاً عندما جحدوا آيات الله فما الذي يؤمنكم من عذاب الله وأنتم جاحدون لآيات الله.

وقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عطف على قوله: «ما أغنى عنهم» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ تذكرة إنذارية متفرعة على العظة التي في قوله: «ولقد مكنّاهم» الخ؛ فهي معطوفة عليه على ما يفيده السياق لا على قوله: «واذكر أخا عاد».

وقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي وصيّرنا الآيات المختلفة من معجزة أيّدنا بها الأنبياء ووحي أنزلناه عليهم ونِعَم رزقناهموها ليتذكروا بها ونقم ابتليناهم بها ليتوبوا وينصرفوا عن ظلمهم لعلهم يرجعون من عبادة غير الله سبحانه الى عبادته.

والضمير في «لعلهم يرجعون» راجع الى القرى والمراد بها أهل القرى.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ الخ؛ ظاهر السياق أن آلهة مفعول ثان لاتخذوا ومفعوله الأول هو الضمير الراجع الى الموصول و«قرباناً» بمعنى ما يتقرب به، والكلام مسوق للتهكم، والمعنى: فلولا نصرهم الذين اتخذوهم آلهة حال كونهم متقرباً بهم الى الله كما كانوا يقولون «ما نعبدهم إلا ليقرّبونا الى الله زلفى».

وقوله: ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي ضلَّ الآلهة عن أهل القرى وانقطعت رابطة الالوهية والعبودية التي كانوا يزعمونها ويرجعون بذلك أن ينصروهم عند الشدائد والمكاره فالضلال عنهم كناية عن بطلان مزعمتهم.

وقوله: ﴿وَذٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ مبتدأ وخبر والإشارة الى ضلال آلهتهم. والمراد بالإفك أثر الإفك أو بتقدير مضاف، و«ما» مصدرية. والمعنى: وذلك الضلال أثر إفكهم وافترائهم.

ويمكن أن يكون الكلام على صورته من غير تقدير مضاف أو تجوّز والإشارة الى إهلاكهم بعد تصريف الآيات وضلال آلهتهم عند ذلك. ومحصل المعنى: أن هذا الذي ذكرناه من عاقبة أمرهم هو حقيقة زعمهم أن الآلهة يشفعون لهم ويقرّبونهم من الله زعمهم الذي أفكوه وافتروه، والكلام مسوق للتهكم.

٢٩ ● وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ.

٣٠ ● قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ.

٣١ ● يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ.

٣٢ ● وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

٣٣ ● أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ

بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٣٤ ● وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هٰذا بِالحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ.

٣٥ ● فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو ٱلْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَاسِقُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْآنَ﴾ الى آخر الآية الصرف رد الشيء من حالة الى حالة أو من مكان الى مكان، والنفر ـ على ما ذكره الراغب ـ عدة من الرجال يمكنهم النفر وهو اسم جمع يطلق على ما فوق الثلاثة من الرجال والنساء والانسان وعلى الجن كما في الآية «ويستمعون القرآن» صفة نفر. والمعنى: واذكر إذ وجهنا اليك عدة من الجن يستمعون القرآن.

وقوله: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ ضمير «حضروه» للقرآن بما يلمح اليه من المعنى الحدثي والانصات السكوت للاستماع أي فلما حضروا قراءة القرآن وتلاوته قالوا أي بعضهم لبعض: اسكتوا حتى نستمع حق الاستماع.

وقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ضمير «قضي» للقرآن باعتبار قراءته وتلاوته. والتولية الانصراف و«منذرين» حال من ضمير الجمع في «ولوا» أي فلما أُتمت القراءة وفرغ منها انصرفوا الى قومهم حال كونهم منذرين مخوفين لهم من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الخ؛ حكاية دعوتهم قومهم وإنذارهم لهم. والمراد بالكتاب النازل بعد موسى القرآن، وفي الكلام إشعار بل دلالة على كونهم مؤمنين بموسى عليه السلام وكتابه، والمراد بتصديق القرآن لما بين يديه تصديقه التوراة أو جميع الكتب السماوية السابقة.

وقوله: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي يهدي من اتبعه الى صراط الحق والى طريق مستقيم لا يضل سالكوه عن الحق في الاعتقاد والعمل.

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ المراد بداعي الله هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة﴾ (يوسف / ١٠٨)، وقيل: المراد به ما سمعوه من القرآن وهو بعيد.

والظاهر أن «من» في «يغفر لكم من ذنوبكم» للتبعيض، والمراد مغفرة بعض الذنوب وهي التي اكتسبوها قبل الايمان. قال تعالى: ﴿إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ (الأنفال / ٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ الخ؛ أي ومن لم يؤمن بداعي الله فليس بمعجز لله في الأرض بردّ دعوته وليس له من دون الله أولياء ينصرونه ويمدّونه في ذلك. والمحصل: أن من لم يجب داعي الله في دعوته فإنما ظلم نفسه وليس له أن يعجز الله بذلك لا مستقلاً ولا بنصرة من ينصره من الأولياء فليس له أولياء من دون الله. ولذلك أتمّ الكلام بقوله: «اولئك في ضلال مبين».

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ﴾ الخ؛ الآية وما بعدها الى آخر السورة متصلة بما تقدم من قوله تعالى: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم﴾ الخ؛ وفيها تتميم القول فيما به الإنذار في هذه

السورة وهو المعاد والرجوع الى الله تعالى كما أشرنا اليه في البيان المتقدم.

والمراد بالرؤية العلم عن بصيرة، والعيّ العجز والتعب، والأول أفصح على ما قيل، والباء في «بقادر» زائدة لوقوعها موقعاً فيه شائبة حيّز النفي كأنه قيل: أليس الله بقادر.

والمعنى: أولم يعلموا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعجز عن خلقهن أولم يتعب بخلقهن قادر على إحياء الموتى ـ وهو تعالى مبدء وجود كل شيء وحياته ـ بلى هو قادر لأنه على كل شيء قدير، وقد أوضحنا هذه الحجة فيما تقدم غير مرة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هٰذَا بِالحَقِّ﴾ الى آخر الآية، تأييد للحجة المذكورة في الآية السابقة بالإخبار عما سيجري على منكري المعاد يوم القيامة، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو ٱلْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاٰ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ الى آخر الآية، تفريع على حقيّة المعاد على ما دلّت عليه الحجة العقلية وأخبر به الله سبحانه ونفي الريب عنه.

والمعنى: فاصبر على جحود هؤلاء الكفار وعدم إيمانهم بذاك اليوم كما صبر اولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم بالعذاب فإنهم سيلاقون اليوم بما فيه من العذاب وليس اليوم عنهم ببعيد وإن استبعدوه.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مٰا يُوعَدُون لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَةً مِنْ نَهٰارٍ﴾ تبيين لقرب اليوم منهم ومن حياتهم الدنيا بالإخبار عن حالهم حينما يشاهدون ذلك اليوم فإنهم إذا رأوا ما يوعدون من اليوم وما هيّىء لهم فيه من العذاب كان حالهم حال من لم يلبث في الأرض إلا ساعة من نهار.

وقوله: ﴿بَلاٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاّ ٱلْقَوْمُ ٱلْفٰاسِقُونَ﴾ أي هذا القرآن بما فيه من البيان تبليغ من الله من طريق النبوة فهل يهلك بهذا الذي بلّغه الله من الإهلاك إلا القوم الفاسقون

الخارجون عن زيّ العبودية.

وقد أمر الله سبحانه في هذه الآية نبيّه ﷺ أن يصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل وفيه تلويح الى أنه ﷺ منهم فليصبر كصبرهم، ومعنى العزم ههنا إما الصبر كما قال بعضهم لقوله تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور﴾ (الشورى / ٤٣)، وإما العزم على الوفاء بالميثاق المأخوذ من الأنبياء كما يلوّح اليه قوله: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾ (طه / ١١٥)، وإما العزم بمعنى العزيمة وهي الحكم والشريعة.

وعلى المعنى الثالث وهو الحق الذي تذكره روايات أئمة أهل البيت ﷺ هم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وعليهم لقوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصيّنا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾ (الشورى / ١٣)، وقد مر لقريب معنى الآية[١]

---

١. الاحقاف ٢٩ ـ ٣٥: بحث روائي في: نفر من الجن: اولى العزم من الرسل.

سورة محمد مدنية وهي ثمان وثلاثون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ.

٢ ● وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلىٰ
مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ.

٣ ● ذٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ٱتَّبَعُوا ٱلْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّبَعُوا
ٱلْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ.

٤ ● فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ
فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ
أَوْزَارَهَا ذٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللّٰهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلٰكِنْ لِيَبْلُوَ
بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَلَنْ يُضِلَّ
أَعْمَالَهُمْ.

٥ ● سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ.

٦ ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾.

بيان:

تصف السورة الذين كفروا بما يخصهم من الأوصاف الخبيثة والأعمال السيئة وتصف الذين آمنوا بصفاتهم وأعمالهم الحسنة ثم تذكر ما يعقب صفات هؤلاء من النعمة والكرامة وصفات اولئك من النقمة والهوان وعلى الجملة فيها المقايسة بين الفريقين في صفاتهم وأعمالهم في الدنيا وما يترتب عليها في الاخرى، وفيها بعض ما يتعلق بالقتال من الأحكام.

وهي سورة مدنية على ما يشهد به سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ فسر الصد بالإعراض عن سبيل الله وهو الإسلام كما عن بعضهم، وفسر بالمنع وهو منعهم الناس أن يؤمنوا بما كان النبي ﷺ يدعوهم اليه من دين التوحيد كما عن بعض آخر.

وثاني التفسيرين أوفق لسياق الآيات التالية وخاصة ما يأمر المؤمنين بقتلهم وأسرهم وغيرهم.

فالمراد بالذين كفروا كفار مكة ومن تبعهم في كفرهم وقد كانوا يمنعون الناس عن الايمان بالنبي ﷺ ويفتنونهم، وصدوهم أيضاً عن المسجد الحرام.

وقوله: ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي جعل أعمالهم ضالة لا تهتدي الى مقاصدها التي قصدت بها وهي بالجملة إبطال الحق وإحياء الباطل فالجملة في معنى ما تكرر منه تعالى من قوله: ﴿ والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ (البقرة / ٢٦٤)، وقد وعد سبحانه بإحياء الحق وإبطال الباطل كما في قوله: ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ (الأنفال / ٨).

فالمراد من ضلال أعمالهم بطلانها وفسادها دون الوصول الى الغاية، وعد ذلك ضلالاً من الاستعمار بالكناية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الخ: ظاهر إطلاق صدر الآية أن المراد بالذين آمنوا، الخ: مطلق من آمن وعمل صالحاً فيكون قوله: «وآمنوا بما نزل على محمد» تقييداً احترازياً لا تأكيداً وذكراً لما تعلقت به العناية في الإيمان.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة معترضة والضمير راجع الى ما نزل.

وقوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال في المجمع: البال الحال والشأن والبال القلب أيضاً يقال: خطر ببالي كذا، والبال لا يجمع لأنه أبهم أخواته من الحال والشأن. انتهى.

وقد قوبل إضلال الأعمال في الآية السابقة بتكفير السيئات وإصلاح البال في هذه الآية فمعنى ذلك هداية إيمانهم وعملهم الصالح الى غاية السعادة، وإنما يتم ذلك بتكفير السيئات المانعة من الوصول الى السعادة، ولذلك ضمّ تكفير السيئات الى إصلاح البال.

والمعنى: ضرب الله الستر على سيئاتهم بالعفو والمغفرة، وأصلح حالهم في الدنيا والآخرة أما الدنيا فلأن الدين الحق هو الدين الذي يوافق ما تقتضيه الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، والفطرة لا تقتضي إلا ما فيه سعادتها وكمالها ففي الإيمان بما أنزل الله من دين الفطرة والعمل به صلاح حال المؤمنين في مجتمعهم الدنيوي، وأما في الآخرة فلأنها عاقبة الحياة الدنيا وإذا كانت فاتحتها سعيدة كانت خاتمتها كذلك قال تعالى: ﴿والعاقبة للتقوى﴾ (طه / ١٣٢).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الخ: تعليل لما في الآيتين السابقتين من إضلال أعمال الكفار وإصلاح حال المؤمنين مع تكفير سيئاتهم.

وفي تقييد الحق بقوله: «من ربهم» إشارة الى أن المنتسب اليه تعالى هو الحق ولا نسبة

للباطل اليه ولذلك تولى سبحانه إصلاح بان المؤمنين لما ينتسب اليه طريق الحق الذي اتبعوه، وأما الكفار بأعمالهم فلا شأن له تعالى فيهم وأما انتساب ضلالهم اليه في قوله: «أضل أعمالهم» فعنى إضلال أعمالهم عدم هدايته لها الى غايات صالحة سعيدة.

وفي الآية إشارة الى أن الملاك كل الملاك في سعادة الانسان وشقائه اتباع الحق واتباع الباطل والسبب في ذلك انتساب الحق اليه تعالى دون الباطل.

وقوله: ﴿كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي يبيّن لهم أوصافهم على ما هي عليه، وفي الإتيان باسم الإشارة الموضوعة للبعيد تفخيم لأمر ما ضربه من المثل.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ الى آخر الآية، تفريع على ما تقدم في الآيات الثلاث من وصف الفريقين كأنه قيل: إذا كان المؤمنون أهل الحق والله ينعم عليهم بما ينعم والكفار أهل الباطل والله يضلّ أعمالهم فعلى المؤمنين إذا لقوا الكفار أن يقتلوهم ويأسروهم ليحيا الحق الذي عليه المؤمنون وتطهر الأرض من الباطل الذي عليه الكفار.

فقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ المراد باللقاء اللقاء في القتال وضرب الرقاب مفعول مطلق قائم مقام فعله العامل فيه، والتقدير: فاضربوا الرقاب ـ أي رقابهم ـ ضرباً وضرب الرقبة كناية عن القتل بالسيف، لأن أيسر القتل وأسرعه ضرب الرقبة به.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ في المجمع: الإثخان إكثار القتل وغلبة العدو وقهرهم ومنه أثخنه المرض اشتدّ عليه وأثخنه الجراح. انتهى. وفي المفردات: وثقت به أثق ثقة سكنت اليه واعتمدت عليه، وأوثقته شددته، والوثاق ـ بفتح الواو ـ والوثاق ـ بكسر الواو ـ اسمان لما يوثق به الشيء. انتهى. و«حتى» غاية لضرب الرقاب، والمعنى: فاقتلوهم حتى إذا أكثرتم القتل فيهم فأسروهم بشدّ الوثاق وإحكامه فالمراد بشد

الوثاق الأسر فالآية في ترتب الأسر فيها على الاثخان في معنى قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ (الأنفال / ٦٧).

وقوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أي فأسروهم ويتفرع عليه أنكم إما تمنون عليهم مناً بعد الأسر فتطلقونهم أو تسترقونهم وإما تفدونهم فداء بالمال أو بمن لكم عندهم من الأسارى.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أوزار الحرب أثقالها وهي الأسلحة التي يحملها المحاربون والمراد به وضع المقاتلين وأهل الحرب أسلحتهم كناية عن انقضاء القتال.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ذلك أي إن حكم الله هو ما ذكر في الآية.

وقوله: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ الضمير للكفار أي ولو شاء الله الانتقام منهم لانتقم منهم بإهلاكهم وتعذيبهم من غير أن يأمركم بقتالهم.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ استدراك من مشية الانتصار أي ولكن لم ينتصر منهم بل أمركم بقتالهم ليمتحن بعضكم ببعض فيمتحن المؤمنين بالكفار يأمرهم بقتالهم ليظهر المطيعون من العاصين ويمتحن الكفار بالمؤمنين فيتميز أهل الشقاء منهم ممن يوفق للتوبة من الباطل والرجوع الى الحق.

وقد ظهر بذلك أن قوله: «ليبلو بعضكم ببعض» تعليل للحكم المذكورة في الآية والخطاب في «بعضكم» لمجموع المؤمنين والكفار ووجه الخطاب الى المؤمنين.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ الكلام مسوق سوق الشرط والحكم عام أي ومن قتل في سبيل الله وهو الجهاد والقتال مع أعداء الدين فلن يبطل أعمالهم الصالحة التي أتوا بها في سبيل الله.

قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ الضمير للذين قتلوا في سبيل الله فالآية وما يتلوها لبيان حالهم بعد الشهادة أي سيهديهم الله الى منازل السعادة والكرامة ويصلح حالهم

بالمغفرة والعفو عن سيئاتهم فيصلحون لدخول الجنة.

وإذا انضمت هذه الآية الى قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم﴾ (آل عمران / ١٦٩)، ظهر أن المراد بإصلاح بالهم إحياؤهم حياة يصلحون بها للحضور عند ربهم بانكشاف الغطاء.

وقال في المجمع: والوجه في تكرير قوله: «بالهم» أن المراد بالأول أنه أصلح بالهم في الدين والدنيا، وبالثاني أنه يصلح حالهم في نعيم العقبى فالأول سبب النعيم والثاني نفس النعيم. انتهى. والفرق بين ما ذكره من المعنى وما قدمناه أن قوله تعالى: «ويصلح بالهم» على ما ذكرنا كالعطف التفسيري لقوله: «سيهديهم» دون ما ذكره، وقوله الآتي: «ويدخلهم الجنة» على ما ذكره كالعطف التفسيري لقوله: «ويصلح بالهم» دون ما ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ غاية هدايته لهم، وقوله: «عرفها لهم» حال من إدخاله إياهم الجنة أي سيدخلهم الجنة والحال أنه عرفها لهم إما بالبيان الدنيوي من طريق الوحي والنبوة وإما بالبشرى عند القبض أو في القبر أو في القيامة أو في جميع هذه المواقف هذا ما يفيده السياق من المعنى.

٧ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ.

٨ ● وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ.

٩ ● ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ.

١٠ ● أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها.

١١ ● ذٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَافِرِينَ لاَ مَوْلىٰ لَهُمْ.

١٢ ● إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ.

١٣ ● وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ.

١٤ ● أَفَمَنْ كَانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ.

١٥ ● مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفّىً وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ تحضيض لهم على الجهاد ووعد لهم بالنصر إن نصروا الله تعالى فالمراد بنصرهم لله أن يجاهدوا في سبيل الله على أن يقاتلوا لوجه الله تأييداً لدينه وإعلاء لكلمة الحق لا ليستعملوا في الأرض أو ليصيبوا غنيمة أو ليظهروا نجدة وشجاعة.

والمراد بنصر الله لهم توفيقه الأسباب المقتضية لظهورهم وغلبتهم على عدوهم كإلقاء

الرعب في قلوب الكفار وإدارة الدوائر للمؤمنين عليهم وربط جأش المؤمنين وتشجيعهم، وعلى هذا فعطف تثبيت الأقدام على النصر من عطف الخاص على العام وتخصيص تثبيت الأقدام، وهو كناية عن التشجيع وتقوية القلوب، لكونه من أظهر أفراد النصر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ذكر ما يفعل بالكفار عقيب ذكر ما يفعل بالمؤمنين الناصرين لله لقياس حالهم من حالهم.

والتعس هو سقوط الانسان على وجهه وبقاؤه عليه ويقابله الانتعاش وهو القيام عن السقوط على الوجه فقوله: «تعساً لهم» أي تعسوا تعساً وهو ما يتلوه دعاء عليهم نظير قوله: ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ (التوبة / ٣٠). ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ (عبس / ١٧). ويمكن أن يكون إخباراً عن تعسهم وبطلان أثر مساعيهم على نحو الكناية فإن الإنسان أعجز ما يكون إذا كان ساقطاً على وجهه.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ المراد بما أنزل الله هو القرآن والشرائع والأحكام التي أنزلها الله تعالى على نبيه ﷺ وأمر بإطاعتها والإنقياد لها فكرهوها واستكبروا عن اتباعها.

والآية تعليل مضمون الآية السابقة، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ التدمير الإهلاك، يقال: دمّره الله أي أهلكه، ويقال: دمّر الله عليه أي أهلك ما يخصه من نفس وأهل ودار وعقار قد مّر عليه أبلغ من دمّره كما قيل، وضمير «أمثالها» للعاقبة أو للعقوبة المدلول عليها بسابق الكلام.

والمراد بالكافرين الكافرون بالنبي ﷺ، والمعنى: وللكافرين بك يا محمد أمثال تلك العاقبة أو العقوبة وإنما اوعدوا بأمثال العاقبة أو العقوبة ولا يحلّ بهم إلا مثل واحد لأنهم في معرض عقوبات كثيرة دنيوية واخروية وإن كان لا يحلّ بهم إلا بعضها، ويمكن أن يراد

بالكافرين مطلق الكافرين، والجملة من باب ضرب القاعدة.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ الإشارة بذلك الى ما تقدم من نصر المؤمنين ومقت الكافرين وسوء عاقبتهم، ولا يصغى الى ما قيل: إنه إشارة الى ثبوت عاقبة أو عقوبة الامم السالفة لهؤلاء، وكذا ما قيل: إنه إشارة الى نصر المؤمنين، وذلك لأن الآية متعرضة لحال الطائفتين: المؤمنين والكفار جميعاً.

والمولى كأنه مصدر ميمي أُريد به المعنى الوصفي فهو بمعنى الولي ولذلك يطلق على سيد العبد ومالكه لأن له ولاية التصرف في امور عبده، ويطلق على الناصر لأنه يلي التصرف في أمر منصوره بالتقوية والتأييد والله سبحانه مولى لأنه المالك الذي يلي امور خلقه في صراطه التكوين ويدبرها كيف يشاء، قال تعالى ﴿ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع﴾ (الم السجدة / ٤)، وقال ﴿وردُّوا إلى الله مولاهم الحق﴾ (يونس / ٣٠)، وهو تعالى مولى لأنه يلي تدبير امور عباده في صراط السعادة فيهديهم الى سعادتهم والجنة ويوفقهم للصالحات وينصرهم على أعدائهم، والمولوية بهذا المعنى الثاني تختص بالمؤمنين، لأنهم هم الداخلون في حظيرة العبودية المتبعون لما يريده منهم ربهم دون الكفار.

وللمؤمنين مولى وولي هو الله سبحانه كما قال «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا»، وقال ﴿الله وليُّ الذين آمنوا﴾ (البقرة / ٢٥٧)، وأما الكفار فقد اتخذوا الأصنام أو أرباب الأصنام أولياء فهم أولياؤهم على ما زعموا كما قال بالبناء على مزعمتهم بنوع من التهكم: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ (البقرة / ٢٥٧)، ونفى ولا يتهم بالبناء على حقيقة الأمر فقال: «وأن الكافرين لا مولى لهم» ثم نفى ولايتهم مطلقاً تكويناً وتشريعاً مطلقاً فقال: ﴿أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي﴾ (الشورى / ٩)، وقال: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ (النجم / ٢٣).

فمعنى الآية: أن نصره تعالى للمؤمنين وتثبيته أقدامهم وخذلانه الكفار وإضلاله أعمالهم

وعقوبته لهم إنما ذلك بسبب أنه تعالى مولى المؤمنين ووليّهم، وأن الكفار لا مولى لهم فينصرهم ويهدي أعمالهم وينجيهم من عقوبته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ مقايسة بين الفريقين وبيان أثر ولاية الله للمؤمنين وعدم ولايته للكفار من حيث العاقبة والآخرة وهي أن المؤمنين يدخلون الجنة والكفار يقيمون في النار.

وقد أُشير في الكلام الى منشأ ما ذكر من الأثر حيث وصف كلاً من الفريقين بما يناسب مآل حاله فأشار الى صفة المؤمنين بقوله: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» والى صفة الكفار بقوله: «يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام» فأفاد الوصفان بما بينهما من المقابلة أن المؤمنين راشدون في حياتهم الدنيا مصيبون للحق حيث آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة فسلكوا سبيل الرشد وقاموا بوظيفة الإنسانية، وأما الكفار فلا عناية لهم بإصابة الحق ولا تعلق لقلوبهم بوظائف الإنسانية، وإنما همُّهم بطنهم وفرجهم يتمتعون في حياتهم الدنيا القصيرة ويأكلون كما تأكل الأنعام لا منية لهم إلا ذلك ولا غاية لهم وراءه.

فهؤلاء أي المؤمنون تحت ولاية الله حيث يسلكون مسلكاً يريده منهم ربهم ويهديهم اليه ولذلك يدخلهم في الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار. وأُولئك أي الكفار ما لهم من ولي وإنما وكلوا الى أنفسهم ولذلك كان مثواهم ومقامهم النار.

وإنما نسب دخول المؤمنين الجنات الى الله نفسه دون إقامة الكفار في النار قضاء لحق الولاية المذكورة فله تعالى عناية خاصة بأوليائه، وأما المنسلخون من ولايته فلا يبالي في أي واد هلكوا.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ المراد بالقرية أهل القرية بدليل قوله بعد: «أهلكناهم» الخ؛

والقرية التي أخرجته ﷺ هي مكة.

وفي الآية تقوية لقلب النبي ﷺ وتهديد لأهل مكة وتحقير لأمرهم أن الله أهلك قرى كثيرة كل منها أشد قوة من قريتهم ولا ناصر لهم ينصرهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ السياق الجاري على قياس حال المؤمنين بحال الكفار يدل على أن المراد بمن كان على بينة من ربه هم المؤمنون فالمراد بكونهم على بينة من ربهم كونهم على دلالة بينة من ربهم توجب اليقين على ما اعتقدوا عليه وهي الحجة البرهانية فهم إنما يتبعون الحجة القاطعة على ما هو الحري بالإنسان الذي من شأنه أن يستعمل العقل ويتبع الحق.

وأما الذين كفروا فقد شغفهم أعمالهم السيئة التي زينها لهم الشيطان وتعلقت بها أهواؤهم وعملوا السيئات، فكم بين الفريقين من فرق.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الى آخر الآية: يفرق بين الفريقين ببيان مآل أمرهما وهو في الحقيقة توضيح ما مر في قوله: «إن الله يدخل الذين آمنوا» الخ: من الفرق بينهما فهذه الآية في الحقيقة تفصيل تلك الآية.

فقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ المثل بمعنى الصفة ـ كما قيل ـ أي صفة الجنة التي وعد الله المتقين أن يدخلهم فيها، وربما حمل المثل على معناه المعروف واستفيد منه أن الجنة أرفع وأعلى من أن يحيط بها الوصف ويحدها اللفظ وإنما تقرب الى الأذهان نوع تقريب بأمثال مضروبة كما يلوح اليه قوله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين﴾ (السجدة / ١٧).

وقد بدل قوله في الآية السابقة: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» في هذه الآية من قوله: «المتقون» تبديل اللازم من الملزوم فإن تقوى الله يستلزم الإيمان به وعمل الصالحات من الأعمال.

وقوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي غير متغير بطول المقام، وقوله: «وأنهار من لبن لم يتغير طعمه» كما في ألبان الدنيا، وقوله: «وأنهار من خمر لذة للشاربين» أي لذيذة للشاربين، واللذة إما صفة مشبهة مؤنثة وصف للخمر، وإما مصدر وصفت به الخمر مبالغة، وإما بتقدير مضاف أي ذات لذة، وقوله: «وأنهار من عسل مصفى» أي خالص من الشمع والرغوة والقذى وسائر ما في عسل الدنيا من الأذى والعيوب، وقوله: «ولهم فيها من كل الثمرات» جمع للتعميم.

وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ينمحي بها عنهم كل ذنب وسيئة فلا تتكدر عيشتهم بمكدر ولا ينتغص بمنغص، وفي التعبير عنه تعالى بربهم إشارة الى غشيان الرحمة وشمول الحنان والرأفة الإلهية.

وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ قياس محذوف أحد طرفيه أي أمن يدخل الجنة التي هذا مثلها كمن هو خالد في النار وشرابهم الماء الشديد الحرارة الذي يقطع أمعاءهم وما في جوفهم من الأحشاء إذا سقوه، وإنما يسقونه وهم مكرهون كما في قوله: «وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم»، وقيل: قوله: «كمن هو خالد» الخ؛ بيان لقوله في الآية السابقة: «كمن زين» الخ؛ وهو كما ترى.

١٦ ● وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ.

١٧ ● وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ.

١٨ ● فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا

فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ.

١٩ • فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ.

٢٠ • وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ.

٢١ • طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ.

٢٢ • فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ.

٢٣ • أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ.

٢٤ • أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا.

٢٥ • إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ.

٢٦ • ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ.

٢٧ • فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ.

٢٨ • ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ.

٢٩ ● أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ.

٣٠ ● وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ.

٣١ ● وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ.

٣٢ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ الخ: آنفاً اسم فاعل منصوب على الظرفية أو لكونه مفعولاً فيه، ومعناه الساعة التي قبيل ساعتك، وقيل: معناه هذه الساعة وهو على أي حال مأخوذ من الأنف بمعنى الجارحة.

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الضمير للذين كفروا، والمراد باستماعهم الى النبي ﷺ إصغاؤهم الى ما يتلوه من القرآن وما يبيّن لهم من اصول المعارف وشرائع الدين.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ الضمير للموصول وجمع الضمير باعتبار المعنى كما أن إفراده في «يستمع» باعتبار اللفظ.

وقوله: ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ المراد بالذين أُوتوا العلم العلماء

بالله من الصحابة، والضمير في «ماذا قال» للنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والاستفهام في قولهم: «ماذا قال آنفاً» قيل: للاستعلام حقيقة لأن استغراقهم في الكبر والغرور واتباع الأهواء ما كان يدعهم أن يفقهوا القول الحق كما قال تعالى ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ (النساء / ٧٨)، وقيل: للاستهزاء، وقيل: للتحقير كأن القول لكونه مشحوناً بالأباطيل لا يرجع الى معنى محصّل، ولكل من المعاني الثلاثة وجه.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ تعريف لهم، وقوله: «واتبعوا أهواءهم» تعريف بعد تعريف فهو كعطف التفسير، ويتحصل منه أن اتباع الأهواء أمارة الطبع على القلب فالقلب غير المطبوع عليه الباقي على طهارة الفطرة الأصلية لا يتوقف في فهم المعارف الدينية والحقائق الإلهية.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ المقابلة الظاهرة بين الآية وبين الآية السابقة يعطي أن المراد بالاهتداء ما يقابل الضلال الملازم للطبع على القلب وهو التسليم لما تهدي اليه الفطرة السليمة واتباع الحق، وزيادة هداهم من الله سبحانه رفعه تعالى درجة إيمانهم، وقد تقدم أن الهدى والإيمان ذو مراتب مختلفة، والمراد بالتقوى ما يقابل اتباع الأهواء وهو الورع عن محارم الله والتجنب عن ارتكاب المعاصي.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ الخ: النظر هو الانتظار، والأشراط جمع شرط بمعنى العلامة، والأصل في معناه الشرط بمعنى ما يتوقف عليه وجود الشيء لأن تحققه علامة تحقق الشيء فأشراط الساعة علاماتها الدالة عليها.

وسياق الآية سياق التهكم كأنهم واقفون موقفاً عليهم إما أن يتبعوا الحق فتسعد بذلك عاقبتهم، وإما أن ينتظروا الساعة حتى إذا أيقنوا بوقوعها وأشرفوا عليها تذكروا وآمنوا واتبعوا الحق أما اتباع الحق اليوم فلم يخضعوا له بحجة أو بموعظة أو عبرة، وأما انتظارهم

مجيء الساعة ليتذكروا عنده فلا ينفعهم شيئاً فإنها تجيء بغتة ولا تمهلهم شيئاً حتى يستعدوا لها بالذكرى وإذا وقعت لم ينفعهم الذكرى لأن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل قال تعالى ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ (الفجر / ٢٤).

مضافاً الى أن أشراطها وعلاماتها قد جاءت وتحققت، ولعل المراد بأشراطها خلق الإنسان وانقسام نوعه الى صلحاء ومفسدين ومتقين وفجّار المستدعي للحكم الفصل بينهم ونزول الموت عليهم فإن ذلك كله من شرائط وقوع الواقعة وإتيان الساعة. وقيل: المراد بأشراط الساعة ظهور النبي ﷺ وهو خاتم الأنبياء وانشقاق القمر ونزول القرآن وهو آخر الكتب السماوية.

هذا ما يعطيه التدبر في الآية من المعنى وهي ـ كما ترى ـ حجة برهانية في عين أنها مسوقة سوق التهكم.

وعليه فقوله: «بغتة» حال من الإتيان جيء به لبيان الواقع وليتفرع عليه قوله الآتي: «فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم» وليس قيداً للانتظار حتى يفيد أنهم إنما ينتظرون إتيانها بغتة، ولدفع هذا التوهم قيل «إلا الساعة أن تأتيهم بغتة» ولم يقل: إلا أن تأتيهم الساعة بغتة.

وقوله: ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ أنى خبر مقدم و«ذكراهم» مبتدأ مؤخر و«إذا جاءتهم» معترضة بينهما، والمعنى: فكيف يكون لهم أن يتذكروا إذا جاءتهم؟ أي كيف ينتفعون بالذكرى في يوم لا ينفع العمل الذي يعمل فيه وإنما هو يوم الجزاء.

قوله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ الخ: قيل: هو متفرع على جميع ما تقدم في السورة من سعادة المؤمنين وشقاوة الكفار كأنه قيل: إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة أُولئك فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله سبحانه فمعنى الأمر بالعلم على هذا هو الأمر بالثبات على العلم.

ويمكن أن يكون تفريعاً على ما بينه في الآيتين السابقتين أعني قوله: «ومنهم من يستمع اليك ـ الى قوله ـ وآتاهم تقواهم» من أنه تعالى يطبع على قلوب المشركين ويتركهم وذنوبهم ويعكس الأمر في الذين اهتدوا الى توحيده والايمان به فكأنه قيل: إذا كان الأمر على ذلك فاستمسك بعلمك بوحدانية الإله واطلب مغفرة ذنبك ومغفرة امتك من المؤمنين بك والمؤمنات حتى لا تكون ممن يطبع الله على قلبه ويحرمه التقوى بتركه وذنوبه، ويؤيد هذا الوجه قوله في ذيل الآية: «والله يعلم متقلبكم ومثواكم».

فقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ﴾ معناه على ما يؤيده السياق فاستمسك بعلمك أنه لا إله إلا الله، وقوله: «واستغفر لذنبك» تقدم الكلام في معنى الذنب المنسوب اليه ﷺ وسيأتي أيضاً في تفسير أول سورة الفتح إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنٰاتِ﴾ أمر بطلب المغفرة للامة من المؤمنين والمؤمنات وحاشا أن يأمر تعالى بالاستغفار ولا يوجهه بالمغفرة أو بالدعاء ولا يقابله بالاستجابة.

وقوله: ﴿وَاللّٰهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ﴾ تعليل لما في صدر الآية «فاعلم أنه» الخ، والظاهر أن المتقلب مصدر ميمي بمعنى الانتقال من حال الى حال، وكذلك المثوى بمعنى الإستقرار والسكون، والمراد أنه تعالى يعلم كل أحوالكم من متغيّر وثابت وحركة وسكون فاثبتوا على توحيده واطلبوا مغفرته، واحذروا أن يطبع على قلوبكم ويترككم وأهواءكم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلاٰ نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ الى آخر الآية، لولا تحضيضية أي هلاّ أنزلت سورة يظهرون بها الرغبة في نزول سورة جديدة تأتيهم بتكاليف جديدة يمتثلونها، والمراد بالسورة المحكمة المبيّنة التي لا تشابه فيها، والمراد بذكر القتال الأمر به.

والمراد بالذين في قلوبهم مرض، الضعفاء الإيمان من المؤمنين دون المنافقين فإن الآية

صريحة في أن الذين أظهروا الرغبة في نزولها هم الذين آمنوا، ولا يعمّ الذين آمنوا للمنافقين إلا على طريق المساهلة غير اللائقة بكلام الله تعالى فالآية كقوله تعالى في فريق من المؤمنين: ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ (النساء / ٧٧).

والمغشي عليه من الموت هو المحتضر، يقال: غشية غشاوة إذا ستره وغطّاه وغشي على فلان ـ بالبناء ـ للمفعول ـ إذا نابه ما غشي فهمه، ونظر المغشي عليه من الموت إشخاصه ببصره اليك من غير أن يطرف.

وقوله: ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ لعله خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: أولى لهم ذلك أي حريّ بهم أن ينظروا كذلك أي أن يحتضروا فيموتوا، وعن الأصمعي أن قولهم: «أولى لك» كلمة تهديد معناه وليك وقارنك ما تكره، والآية نظيرة قوله تعالى: ﴿ أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ﴾ (القيامة / ٣٥).

ومعنى الآية: ويقول الذين آمنوا هلا أُنزلت سورة فإذا أُنزلت سورة محكمة لا تشابه فيها وامروا فيها بالقتال والجهاد رأيت ضعفاء الايمان منهم ينظرون اليك من شدة الخشية نظر المحتضر فأولى لهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ عزم الأمر أي جد وتنجز.

وقوله: «طاعة وقول معروف» كأنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير أمرنا ـ أو أمرهم وشأنهم ـ أي إيمانهم بنا طاعة واثقونا عليها وقول معروف غير منكر قالوا لنا وهو إظهار السمع والطاعة كما يحكيه تعالى عنهم بقوله: ﴿ آمن الرسول بما أُنزل اليه من ربه والمؤمنون ـ الى أن قال ـ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ (البقرة / ٢٨٥).

وعلى هذا يتصل قوله بعده: «فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم» بما قبله

اتصالا بينا ، والمعنى : أن الأمر هو ما واثقوا الله عليه من قولهم : سمعنا وأطعنا فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله فيا قالوا وأطاعوه فيا يأمر به ومنه أمر القتال لكان خيراً لهم .

ويحتمل أن يكون قوله : « طاعة » الخ ؛ خبراً لضمير عائد الى القتال المذكور والتقدير القتال المذكور في السورة طاعة منهم وقول معروف فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله في إيمانهم وأطاعوه به لكان خيراً لهم . أما كونه طاعة منهم فظاهر ، وأما كونه قولاً معروفاً فلأن إيجاب القتال والأمر بالدفاع عن المجتمع الصالح لإبطال كيد أعدائه قول معروف يعرفه العقل والعقلاء .

قوله تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ الخطاب للذين في قلوبهم مرض المتثاقلين في أمر الجهاد في سبيل الله ، وقد التفت اليهم بالخطاب لزيادة التوبيخ والتقريع ، والاستفهام للتقرير ، والتولي الإعراض والمراد به الإعراض عن كتاب الله والعمل بما فيه والعود الى الشرك ورفض الدين .

والمعنى : فهل يتوقع منكم إن أعرضتم عن كتاب الله والعمل بما فيه ومنه الجهاد في سبيل الله أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم بسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض تكالباً على جيفة الدنيا أي إن توليتم كان المتوقع منكم ذلك .

قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ الإشارة الى المفسدين في الأرض المقطعين للأرحام وقد وصفهم الله بأنه لعنهم فأصمّهم وأذهب بسمعهم فلا يسمعون القول الحق وأعمى أبصارهم فلا يرون الرأي الحق فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ الاستفهام للتوبيخ وضمير الجمع راجع الى المذكورين في الآية السابقة ، وتنكير « قلوب » كما قيل للدلالة على أن المراد قلوب هؤلاء وأمثالهم .

قال في مجمع البيان: وفي هذا دلالة على بطلان قول من قال: لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع. انتهى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ الارتداد على الأدبار الرجوع الى الاستدبار بعد الاستقبال وهو استعارة أُريد بها الترك بعد الأخذ، والتسويل تزيين ما تحرض النفس عليه وتصوير القبيح لها في صورة الحسن، والمراد بالإملاء الإمداد أو تطويل الآمال.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ الإشارة بذلك الى تسويل الشيطان وإملائه وبالجملة تسلطه عليهم، والمراد «بالذين كرهوا ما نزّل الله» هم الذين كفروا كما تقدم في قوله: ﴿والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله﴾ (الآية ٩ من السورة).

وقوله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ مقول قولهم ووعد منهم للكفار بالطاعة وهو كما يلوح من تقييد الطاعة ببعض الأمر على نحو الإجمال كلام من لا يقدر على التظاهر بطاعة من يريد طاعته في جميع الامور لكونه على خطر من التظاهر بالطاعة المطلقة فيسرّ الى من يعده أنه سيطيعه في بعض الأمر وفيما تيسّر له ذلك ثم يكتم ذلك ويقعد متربصاً للدوائر.

ويستفاد من ذلك أن هؤلاء كانوا قوماً من المنافقين أسرّوا الى الكفار ما حكاه تعالى عنهم ووعدهم الطاعة لهم مهما تيسر لهم ذلك، ويؤيد ذلك قوله تعالى بعد: «والله يعلم إسرارهم».

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ متفرع على ما قبله، والمعنى: هذا حالهم اليوم يرتدّون بعد تبين الهدى لهم فيفعلون ما يشاؤن

فكيف حالهم إذا توفتهم الملائكة وهم يضربون وجوههم وأدبارهم .

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمٰلَهُمْ﴾ الظاهر أن المراد بما أسخط الله أهواء النفس وتسويلات الشيطان المستتبعة للمعاصي والذنوب الموبقة كما قال تعالى «واتبعوا أهواءهم»، وقال «الشيطان سوّل لهم وأملى لهم».

والسخط والرضا من صفاته تعالى الفعلية والمراد بهما العقاب والثواب .

والإشارة في قوله: «ذلك» الى ما ذكر في الآية السابقة من عذاب الملائكة لهم عند توفيهم أي سبب عقابهم أن أعمالهم حابطة لاتباعهم ما أخسط الله وكراهتهم رضوانه، وإذا لا عمل لهم صالحاً يشقون بالعذاب .

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغٰنَهُمْ﴾ قال الراغب: الضغن ـ بكسر الضاد ـ والضغن ـ بضمّها ـ الحقد الشديد وجمعه أضغان انتهى. والمراد بالذين في قلوبهم مرض الضعفاء الايمان ولعلهم الذين آمنوا أولاً على ضعف في إيمانهم ثم مالوا الى النفاق وارتدوا بعد الايمان، فالتدبر الدقيق في تاريخ صدر الإسلام يوضح أن قوماً ممن آمن بالنبي ﷺ كانوا على هذه الصفة كما أن قوماً منهم آخرين كانوا منافقين من أول يوم آمنوا الى آخر عمرهم، وعلى هذا فعدّهم من المؤمنين فيما تقدم بملاحظة بادىء أمرهم .

والمعنى: بل ظن هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله ولن يظهر أحقادهم للدين وأهله .

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمٰلَكُمْ﴾ السيماء العلامة. والمعنى: ولو نشاء لأريناك اولئك المرضى القلوب فلعرفتهم بعلامتهم التي أعلمناهم بها .

وقوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ قال الراغب: اللحن صرف الكلام عن سننه الجاري عليه: إما بإزالة الإعراب أو التصحيف وهو المذموم، وذلك أكثر استعمالاً، وإما بإزالته عن التصريح وصرفه الى تعريض وفحوى، وهو محمود عند أكثر الادباء من حيث البلاغة. انتهى.

فالمعنى: ولتعرفنهم من جنس قولهم بما يشتمل عليه من الكناية والتعريض، وفي جعل لحن القول ظرفاً للمعرفة نوع من العناية المجازية.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي يعلم حقائقها وأنها من أي القصود والنيّات صدرت فيجازي المؤمنين بصالح أعمالهم وغيرهم بغيرها، ففيه وعد للمؤمنين ووعيد لغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ البلاء والابتلاء الامتحان والاختبار، والآية بيان علة كتابة القتال على المؤمنين، وهو الاختبار الإلهي ليمتاز به المجاهدون في سبيل الله الصابرون على مشاق التكاليف الالهية.

وقوله: ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ كأن المراد بالأخبار الأعمال من حيث إنها تصدر عن العاملين فيكون أخباراً لهم يخبر بها عنهم، واختبار الأعمال يمتاز به صالحها من طالحها كما أن اختبار النفوس يمتاز به النفوس الصالحة الخيّرة وقد تقدم فيما تقدم أن المراد بالعلم الحاصل له تعالى من امتحان عباده هو ظهور حال العباد بذلك، وبنظر أدق هو علم فعلي له تعالى خارج عن الذات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ المراد بهؤلاء رؤساء الضلال من كفار مكة ومن يلحق بهم لأنهم الذين صدّوا عن سبيل الله وشاقُّوا الرسول وعادوه أشد المعاداة بعدما تبين لهم الهدى.

وقوله: ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللّٰهَ شَيْئاً﴾ لأن كيد الإنسان ومكره لا يرجع إلا الى نفسه ولا يضرّ إلا إياه، وقوله: «وسيحبط أعمالهم» أي مساعيهم لهدم أساس الدين وما عملوه لإطفاء نور الله، وقيل: المراد إحباط أعمالهم وإبطالها فلا يثابون في الآخرة على شيء من أعمالهم، والمعنى الأول أنسب للسياق لأن فيه تحريض المؤمنين وتشجيعهم على قتال المشركين وتطييب نفوسهم أنهم هم الغالبون كما تفيده الآيات التالية[1].

٣٣ ● يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاٰ تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ.

٣٤ ● إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ ثُمَّ مٰاتُوا وَهُمْ كُفّٰارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ.

٣٥ ● فَلاٰ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللّٰهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمٰالَكُمْ.

٣٦ ● إِنَّما الْحَيٰوةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاٰ يَسْئَلْكُمْ أَمْوٰالَكُمْ.

٣٧ ● إِنْ يَسْأَلْكُمُوهٰا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغٰانَكُمْ.

٣٨ ● هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللّٰهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاٰ يَكُونُوا أَمْثٰالَكُمْ.

---

١. محمد ﷺ ١٦-٣٢: بحث روائي حول الساعة واشراطها: الاستغفار؛ حب علي عليه السلام.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ الآية وإن كانت في نفسها مستقلة في مدلولها مطلقة في معناها حتى استدلّ الفقهاء بقوله فيها: «ولا تبطلوا أعمالكم» على حرمة إبطال الصلاة بعد الشروع فيها لكنها من حيث وقوعها في سياق الآيات السابقة المتعرضة لأمر القتال، وكذا الآيات اللاحقة الجارية على السياق وخاصة ما في ظاهر قوله: «إن الذين كفروا» الخ؛ من التعليل وما في قوله: «فلا تهنوا وتدعوا الى السلم» الخ؛ من التفريع. وبالجملة الآية بالنظر الى سياقها تدلّ على إيجاب طاعة الله سبحانه فيما أنزل من الكتاب وشرّع من الحكم وإيجاب طاعة الرسول فيما بلّغ عن الله سبحانه، وفيما يُصدر من الأمر من حيث ولايته على المؤمنين في المجتمع الديني، وعلى تحذير المؤمنين من إبطال أعمالهم بفعل ما يوجب حبط أعمالهم كما ابتلي به اولئك الضعفاء الإيمان المائلون الى النفاق الذين انجرّ أمر بعضهم أن ارتدّوا بعد ما تبين لهم الهدى.

فالمراد بحسب المورد من طاعة الله طاعته فيما شرّع وأنزل من حكم القتال، ومن طاعة الرسول طاعته فيما بلّغ منه وفيما أمر به منه ومن مقدماته بما له من الولاية فيه وبإبطال الأعمال التخلف عن حكم القتال كما تخلف المنافقون وأهل الردّة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ظاهر السياق أنه تعليل لمضمون الآية السابقة فيفيد أنكم لو لم تطيعوا الله ورسوله وأبطلتم أعمالكم باتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه أدّاكم ذلك الى اللحوق بأهل الكفر والصد ولا مغفرة لهم بعد موتهم كذلك أبداً.

والمراد بالصد عن سبيل الله الإعراض عن الإيمان أو منع الناس أن يؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ تفريع على ما تقدم، وقوله: «فلا تهنوا» من الوهن بمعنى الضعف والفتور، وقوله: «وتدعوا الى السلم» معطوف على «تهنوا» واقع في حيز النهي أي ولا تدعوا الى السلم. والسلم ـ بفتح السين ـ الصلح، وقوله: «وأنتم الأعلون» جملة حالية أي لا تفعلوا الصلح، وقوله: «وأنتم الأعلون» جملة حالية أي لا تفعلوا ذلك والحال أنكم الغالبون. والمراد بالعلوّ الغلبة وهي استعارة مشهورة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معطوف على «وأنتم الأعلون» يبين سبب علوّهم ويعلله فالمراد بمعيّته تعالى لهم معيّة النصر دون المعيّة القيّومية التي يشير اليها قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ (الحديد / ٤).

وقوله: ﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ قال في المجمع: يقال: وتره يتره وتراً إذا نقصه ومنه الحديث[1] فكأنه وتر أهله وماله. وأصله القطع ومنه الترة القطع بالقتل ومنه الوتر المنقطع بانفراده عن غيره. انتهى.

فالمعنى: لن ينقصكم أعمالكم أي يوفّي أجرها تاماً كاملاً. وقيل: المعنى: لن يضيع أعمالكم. وقيل: لن يظلمكم. والمعاني متقاربة.

ومعنى الآية: إذا كانت سبيل عدم طاعة الله ورسوله وإبطال أعمالكم هذه السبيل وكان مؤدّياً الى الحرمان من مغفرة الله أبداً فلا تضعفوا ولا تفتروا في أمر القتال ولا تدعوا المشركين الى الصلح وترك القتال والحال أنكم أنتم الغالبون والله ناصركم عليهم ولن ينقصكم شيئاً من اجوركم بل يوفيكموها تامة كاملة.

وفي الآية وعد المؤمنين بالغلبة والظفر إن أطاعوا الله ورسوله فهي كقوله: ﴿ولا تهنوا ولا

---

١. وهو ما عن النبي ﷺ «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» عن الجوامع.

تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران / ١٣٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ ترغيب لهم في الآخرة وتزهيد لهم عن الدنيا ببيان حقيقتها وهي أنها لعب ولهو ـ وقد مر معنا كونها لعباً ولهواً ـ.

وقوله: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ الخ؛ أي إن تؤمنوا وتتقوا بطاعته وطاعة رسوله يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم بإزاء ما أعطاكم وظاهر السياق أن المراد بالأموال جميع أموالهم ويؤيده أيضاً الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ الإحفاء الإجهاد وتحميل المشقة، والمراد بالبخل ـ كما قيل ـ الكفّ عن الإعطاء، والأضغان الأحقاد.

والمعنى: إن يسألكم جميع أموالكم فيجهدكم بطلب كلها كففتم عن الإعطاء لحبكم لها ويخرج أحقاد قلوبكم فضللتم.

قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ﴾ الى آخر الآية بمنزلة الاستشهاد في بيان الآية السابقة كأنه قيل: إنه إن يسأل الجميع فيحفكم تبخلوا ويشهد بذلك أنكم أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله ـ وهو بعض أموالكم ـ فبعضكم يبخل فيظهر به أنه لو سأل الجميع جميعكم بخلتم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي يمنع الخير عن نفسه فإن الله لا يسأل ما لهم لينتفع هو به بل لينتفع به المنفقون فيما فيه خير دنياهم وآخرتهم فامتناعهم عن إنفاقه امتناع منهم عن خير أنفسهم، واليه يشير قوله بعده: «والله الغني وأنتم الفقراء» والقصران للقلب أي الله هو الغني دونكم وأنتم الفقراء دون الله.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ قيل:

عطف على قوله: «وإن تؤمنوا وتتقوا» والمعنى: إن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أُجوركم وإن تتولوا وتعرضوا يستبدل قوماً غيركم بأن يوفقهم للإيمان دونكم ثم لا يكونوا أمثالكم بل يؤمنون ويتقون وينفقون في سبيل الله.

سورة الفتح مدنية وهي تسع وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً.

٢ ● لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ
وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً.

٣ ● وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً.

٤ ● هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيْماناً
مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰواتِ وَٱلْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً
حَكِيماً.

٥ ● لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذٰلِكَ عِنْدَ
اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً.

٦ ● وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنافِقِينَ وَٱلْمُنافِقاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكاتِ

الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً.
٧ • وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً.

بيان:

مضامين آيات السورة بفصولها المختلفة ظاهرة الانطباق على قصة صلح الحديبية الواقعة في السنة السادسة من الهجرة وما وقع حولها من الوقائع كقصة تخلّف الأعراب وصدّ المشركين، وبيعة الشجرة على ما تفصّله الآثار وسيجيء شطر منها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

فغرض السورة بيان ما امتنّ الله تعالى على رسوله ﷺ بما رزقه من الفتح المبين في هذه السفرة، وعلى المؤمنين ممن معه، ومدحهم البالغ، والوعد الجميل للذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات، والسورة مدنية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ كلام واقع موقع الامتنان، وتأكيد الجملة بإنّ ونسبة الفتح الى نون العظمة وتوصيفه بالمبين كل ذلك للاعتناء بشأن الفتح الذي يمتنّ به.

والمراد بهذا الفتح على ما تؤيده قرائن الكلام هو ما رزق الله نبيه ﷺ من الفتح في صلح الحديبية.

وذلك أن ما سيأتي في آيات السورة من الامتنان على النبي ﷺ والمؤمنين، ومدحهم والرضا عن بيعتهم ووعدهم الجميل في الدنيا بمغانم عاجلة وآجلة وفي الآخرة بالجنة وذمّ المخلّفين من الأعراب إذ استنفرهم رسول الله ﷺ فلم يخرجوا معه، وذمّ المشركين في صدّهم النبي ﷺ ومن معه، وذمّ المنافقين، وتصديقه تعالى رؤيا نبيه ﷺ، وقوله: «فعلم ما لم تعلموا وجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» ـ وكاد يكون صريحاً ـ كل ذلك معانٍ مرتبطة

بخروجه ﷺ الى مكة للحج وانتهاء ذلك الى صلح الحديبية .

وأما كون هذا الصلح فتحاً مبيناً رزقه الله نبيه ﷺ فظاهر بالتدبر في لحن آيات السورة في هذه القصة فقد كان خروج النبي والمؤمنين الى هذه البغية خروجاً على خطر عظيم لا يرجى معه رجوعهم الى المدينة عادة كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ والمشركون من صناديد قريش ومن يتبعهم على ما هم من الشوكة والقوة والعداوة مع النبي ﷺ والمؤمنين لم يتوسط بينهم منذ سنين إلا السيف ولم يجمعهم جامع غير معركة القتال كغزوة بدر وأُحد والأحزاب ، ولم يخرج مع النبي ﷺ إلا شرذمة قليلون ـ ألف وأربعمائة ـ لا قدر لهم عند جموع المشركين وهم في عقر دارهم .

ولكن الله سبحانه قلّب الأمر للنبي ﷺ والمؤمنين على المشركين فرضوا بما لم يكن مطموعاً فيه متوقعاً منهم فسألوا النبي ﷺ أن يصالحهم على ترك القتال عشر سنين ، وعلى تأمين كل من القبيلين أتباع الآخر ومن لحق به ، وعلى أن يرجع النبي ﷺ الى المدينة عامه هذا ثم يقدم الى مكة العام القابل فيخلّوا له المسجد والكعبة ثلاثة أيام .

وهذا من أوضح الفتح رزقه الله نبيه ﷺ وكان من أمسّ الأسباب بفتح مكة سنة ثمان من الهجرة فقد آمن جمع كثير من المشركين في السنتين بين الصلح وفتح مكة ، وفتح في أوائل سنة سبع خيبر وما والاه وقوي به المسلمون واتّسع الإسلام اتساعاً بيّناً وكثر جمعهم وانتشر صيتهم وأشغلوا بلاداً كثيرة ، وخرج النبي ﷺ لفتح مكة في عشرة آلاف أو في اثني عشر ألفاً ، وقد كان خرج الى حديبية في ألف وأربعمائة على ما تفصّله الآثار .

قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ اللام في قوله: «ليغفر» للتعليل على ما هو ظاهر اللفظ فظاهره أن الغرض من هذا الفتح المبين هو مغفرة ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ومن المعلوم أن لا رابطة بين الفتح وبين مغفرة الذنب ولا معنى معقولاً لتعليله

بالمغفرة.

وقول بعضهم فراراً عن الإشكال: إن اللام المكسورة في «ليغفر» لام القسَم والأصل ليغفرنَّ حذفت نون التوكيد وبقي ما قبلها مفتوحاً للدلالة على المحذوف غلط لا شاهد عليه من الاستعمال.

وكذا قول بعض آخر فراراً عن الاشكال «إن العلة هو مجموع المغفرة وما عطف عليه من إتمام النعمة والهداية والنصر العزيز من حيث المجموع فلا ينافي عدم كون البعض أي مغفرة الذنب في نفسه علة للفتح» كلام سخيف لا يغني طائلاً فإن مغفرة الذنب لا هي علة أو جزء علة للفتح ولا مرتبطة نوع ارتباط بما عطف عليها حتى يوجه دخولها في ضمن علله فلا مصحح لذكرها وحدها ولا مع العلل وفي ضمنها.

وبالجملة هذا الإشكال نعم الشاهد على أن ليس المراد بالذنب في الآية هو الذنب المعروف وهو مخالفة التكليف المولوي، ولا المراد بالمغفرة معناها المعروف وهو ترك العقاب على المخالفة المذكورة فالذنب في اللغة على ما يستفاد من موارد استعمالاته هو العمل الذي له تبعة سيئة كيفما كان، والمغفرة هي الستر على الشيء، وأما المعنيان المذكوران المتبادران من لفظي الذنب والمغفرة الى أذهاننا اليوم أعني مخالفة الأمر المولوي المستتبع للعقاب وترك العقاب عليها فإنما لزماهما بحسب عرف المتشرعين.

وقيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالدعوة ونهضته على الكفر والوثنية فيما تقدم على الهجرة وإدامته ذلك وما وقع له من الحروب والمغازي مع الكفار والمشركين فيما تأخر عن الهجرة كان عملاً منه صلى الله عليه وآله وسلم ذا تبعة سيئة عند الكفار والمشركين وما كانوا ليغفروا له ذلك ما كانت لهم شوكة ومقدرة، وما كانوا لينسوا زهوق ملتهم وانهدام سنتهم وطريقتهم، ولا ثارات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالانتقام منه وإمحاء اسمه وإعفاء رسمه غير أن الله سبحانه رزقه صلى الله عليه وآله وسلم هذا الفتح وهو فتح مكة أو فتح الحديبية المنتهي الى فتح مكة فذهب

بشوكتهم وأخمد نارهم فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه ﷺ من الذنب وآمنه منهم.

فالمراد بالذنب ـ والله أعلم ـ التبعة السيئة التي لدعوته ﷺ عند الكفار والمشركين وهو ذنب لهم عليه كما في قول موسى لربه ﴿ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون﴾ (الشعراء / ١٤)، وما تقدم من ذنبه هو ما كان منه ﷺ بمكة قبل الهجرة، وما تأخر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجرة، ومغفرته تعالى لذنبه هي ستره عليه بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم وهدم بنيتهم، ويؤيد ذلك ما يتلوه من قوله: «ويتم نعمته عليك ـ الى أن قال ـ وينصرك الله نصراً عزيزاً».

وفي قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ الخ؛ بعد قوله: «إنا فتحنا لك» التفات من التكلم الى الغيبة ولعل الوجه فيه أن محصّل السورة امتنانه تعالى على النبي ﷺ والمؤمنين بما رزق من الفتح وإنزال السكينة والنصر وسائر ما وعدهم فيها فناسب أن يكون السياق الجاري في السورة سياق الغيبة ويذكر تعالى فيها فاسمه وينسب اليه النصر بما يعبده نبيه والمؤمنون وحده قبال ما لا يعبده المشركون وإنما يعبدون آلهة من دونه طمعاً في نصرهم ولا ينصرونهم.

وأما سياق التكلم مع الغير المشعر بالعظمة في الآية الاولى فلمناسبته ذكر الفتح فيها ويجري الكلام في قوله تعالى الآتي: «إنا أرسلناك شاهداً» الآية.

وقوله: «ويتم نعمته عليك» قيل: أي يتمّها عليك في الدنيا بإظهارك على عدوك وإعلاء أمرك وتمكين دينك، وفي الآخرة برفع درجتك، وقيل: أي يتمّها عليك بفتح خيبر ومكة والطائف.

وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ قيل: أي ويثبتك على صراط يؤدّي بسالكه الى الجنة، وقيل: أي ويهديك الى مستقيم الصراط في تبليغ الأحكام وإجراء الحدود.

وقوله: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ قيل: النصر العزيز هو ما يمتنع به من كل

جبار عنيد وعاتٍ مريد، وقد فعل بنبيه ﷺ ذلك إذ جعل دينه أعزّ الأديان وسلطانه أعظم السلطان، وقيل: المراد بالنصر العزيز ما هو نادر الوجود قليل النظير أو عديمه ونصره تعالى لنبيه ﷺ كذلك كما يظهر بقياس حاله في أول بعثته الى حاله في آخر أيام دعوته.

والتدبر في سياق الآيتين بالبناء على ما تقدم من معنى قوله: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» يعطي أن يكون المراد بقوله: «ويتم نعمته عليك» هو تمهيده تعالى له ﷺ لتمام الكلمة وتصفيته الجو لنصره نصراً عزيزاً بعد رفع الموانع بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وبقوله: «ويهديك صراطاً مستقيماً» هدايته ﷺ بعد تصفية الجو له الى الطريق الموصل الى الغاية الذي سلكه بعد الرجوع من الحديبية من فتح خيبر وبسط سلطة الدين في أقطار الجزيرة حتى انتهى الى فتح مكة والطائف.

وبقوله: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ نصره له ﷺ ذاك النصر الظاهر الباهر الذي قلما يوجد ـ أو لا يوجد ـ له نظير إذ فتح له مكة والطائف وانبسط الإسلام في أرض الجزيرة وانقلع الشرك وذلّ اليهود وخضع له نصارى الجزيرة والمجوس القاطنون بها، وأكمل تعالى للناس دينهم وأتمّ عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ الخ: الظاهر أن المراد بالسكينة سكون النفس وثباتها واطمئنانها الى ما آمنت به، ولذا علّل إنزالها فيها بقوله: «ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم» وقد تقدم البحث عن السكينة في ذيل قوله تعالى: ﴿أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم﴾ (البقرة / ٢٤٨) في الجزء الثاني من الكتاب وذكرنا هناك أنها تنطبق على روح الإيمان المذكور في قوله تعالى: ﴿وأيّدهم بروح منه﴾ (المجادلة / ٢٢).

والمراد بإنزال السكينة في قلوبهم إيجادها فيها بعد عدمها فكثيراً مّا يعبر في القرآن عن

الخلق والإيجاد بالإنزال كقوله: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ (الزمر / ٦)، وقوله: ﴿وأنزلنا الحديد﴾ (الحديد / ٢٥)، وقوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١). وإنما عبّر عن الخلق والإيجاد بالإنزال للإشارة الى علوّ مبدئه.

والمراد بزيادة الايمان اشتداده فإن الإيمان بشيء هو العلم به مع الالتزام بحيث يترتب عليه آثاره العملية، ومن المعلوم أن كلا من العلم والالتزام المذكورين مما يشتد ويضعف فالايمان الذي هو العلم المتلبس بالالتزام يشتد ويضعف.

فمعنى الآية: الله الذي أوجد الثبات والاطمئنان الذي هو لازم مرتبة من مراتب الروح في قلوب المؤمنين ليشتد به الايمان الذي كان لهم قبل نزول السكينة فيصير أكمل مما كان قبله[1].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الجند هو الجمع الغليظ من الناس إذا جمعهم غرض يعملون لأجله ولذا أُطلق على العسكر المجتمعين على إجراء ما يأمر به أميرهم، والسياق يشهد أن المراد بجنود السماوات والأرض الأسباب الموجودة في العالم مما يرى ولا يرى من الخلق فهي وسائط متخللة بينه تعالى وبين ما يريده من شيء تطيعه ولا تعصاه.

وإيراد الجملة أعني قوله: «ولله جنود» الخ؛ بعد قوله: «هو الذي أنزل السكينة» الخ؛ للدلالة على أن له جميع الأسباب والعلل التي في الوجود فله أن يبلغ الى ما يشاء بما يشاء ولا يغلبه شيء في دلك، وقد نسبت الى زيادة إيمان المؤمنين بانزال السكينة في قلوبهم.

وقوله: «وكان الله عزيزاً حكياً» أي منيعاً جانبه لا يغلبه شيء متقناً في فعله لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته والجملة بيان تعليلي لقوله: «ولله جنود» الخ؛ كما أنه بيان تعليلي لقوله: «هو

---

١. الفتح ١ ـ ٧: كلام في الايمان وازدياده.

الذي أنزل السكينة » الخ؛ كأنه قيل: أنزل السكينة لكذا وله ذلك لأن له جميع الجنود والأسباب لأنه العزيز على الإطلاق والحكيم على الإطلاق.

قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الى آخر الآية. تعليل آخر لقوله: «أنزل السكينة في قلوب المؤمنين» على المعنى كما أن قوله: «ليزدادوا إيماناً» تعليل له بحسب اللفظ كأنه قيل: خص المؤمنين بإنزال السكينة وحرم على غيرهم ذلك ليزداد إيمان هؤلاء مع إيمانهم وحقيقة ذلك أن يدخل هؤلاء الجنة ويعذب اولئك فيكون قوله: «ليدخل» بدلاً أو عطف بيان من قوله: «ليزدادوا» الخ.

وفي متعلق لام «ليدخل» الخ؛ أقوال أُخر كالقول بتعلقها بقوله: «فتحنا» أو قوله: «يزدادوا» أو بجميع ما تقدم الى غير ذلك مما لا جدوى لإيراده.

وضم المؤمنات الى المؤمنين في الآية لدفع توهم اختصاص الجنة وتكفير السيئات بالذكور لوقوع الآية في سياق الكلام في الجهاد، والجهاد والفتح واقعان على أيديهم فصرح باسم المؤمنات لدفع التوهم كما قيل.

وضمير «خالدين» و«يكفر عنهم سيئاتهم» للمؤمنين والمؤمنات جميعاً على التغليب.

وقوله: «وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً» بيان لكون ذلك سعادة حقيقية لا ريب فيها لكونه عند الله كذلك وهو يقول الحق.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ﴾ الى آخر الآية معطوف على قوله: «يدخل» بالمعنى الذي تقدم، وتقديم المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات في الآية لكونهم أضر على المسلمين من أهل الشرك ولأن عذاب أهل النفاق أشد، قال تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾.

وقوله: «الظانين بالله ظن السوء» السوء بالفتح فالسكون مصدر بمعنى القبح والسوء

بالضم اسم مصدر. وظن السوء هو ظنهم أن الله لا ينصر رسوله وقيل: المراد بظن السوء ما يعمُّ ذلك وسائر ظنونهم السيئة من الشرك والكفر.

وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ دعاء عليهم أو قضاء عليهم أي ليستضروا بدائرة السوء التي تدور لتصيب من تصيب من الهلاك والعذاب.

وقوله: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ معطوف على قوله: «عليهم دائرة» الخ؛ وقوله: «وساءت مصيراً» بيان مساءة مصيرهم، كما أن قوله: «وكان عند الله فوزاً عظيماً» بيان لحسن مصير أهل الايمان.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم معناه. والظاهر أنه بيان تعليلي للآيتين أعني قوله: «ليدخل المؤمنين والمؤمنات ـ الى قوله ـ وأعدَّ لهم جهنم» على حذو ما كان مثله فيما تقدم بياناً تعليلياً لقوله: «أنزل السكينة في قلوب المؤمنين»[1].

٨ ● إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً.

٩ ● لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً.

١٠ ● إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً.

---

١. الفتح ١ ـ ٧: بحث روائي في: صلح الحديبية؛ عصمة الانبياء؛ نزول السكينة في قلوب المؤمنين، معنى ذنب رسول الله.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ المراد بشهادته ﷺ شهادته على الأعمال من إيمان وكفر وعمل صالح أو طالح، وقد تكرر في كلامه تعالى ذكر شهادته ﷺ، وتقدم استيفاء الكلام في معنى هذه الشهادة، وهي شهادة حمل في الدنيا، وأداء في الآخرة.

وكونه مبشراً تبشيره لمن آمن واتقى بالقرب من الله وجزيل ثوابه. وكونه نذيراً إنذاره وتخويفه لمن كفر وتولى بأليم عذابه.

قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ القراءة المشهورة بتاء الخطاب في الأفعال الأربعة، وقرء ابن كثير وابو عمرو بياء الغيبة في الجميع وقراءتها أرجح بالنظر الى السياق.

وكيف كان فاللام في «لتؤمنوا» للتعليل أي أرسلناك كذا وكذا لتؤمنوا بالله ورسوله.

والتعزير ـ على ما قيل ـ النصر والتوقير التعظيم كما قال تعالى ﴿ما لكم لا ترجعون لله وقاراً﴾ (نوح / ١٣). والظاهر أن الضمائر في «تعزروه وتوقروه وتسبحوه» جميعاً لله تعالى والمعنى: إنا أرسلناك كذا وكذا ليؤمنوا بالله ورسوله وينصروه تعالى بأيديهم وألسنتهم ويعظموه ويسبحوه ـ وهو الصلاة ـ بكرة وأصيلاً أي غداة وعشياً.

وقيل: الضميران في «تعزروه وتوقروه» للرسول ﷺ، وضمير «تسبحوه» لله تعالى ويوهنه لزوم اختلاف الضمائر المتسقة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ الى آخر الآية. البيعة نوع من الميثاق ببذل الطاعة قال في المفردات: وبايع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له بما رضخ له انتهى، والكلمة مأخوذة من البيع بمعناه المعروف فقد كان من دأبهم

أنهم إذا أرادوا إنجاز البيع أعطى البايع يده للمشتري فكأنهم كانوا يمثلون بذلك نقل الملك التصرفات التي يتحقق معظمها باليد الى المشتري بالتصفيق، وبذلك سمي التصفيق عند بذل الطاعة بيعة ومبايعة. وحقيقة معناه إعطاء المبايع يده للسلطان مثلاً ليعمل به ما يشاء.

فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ تنزيل بيعته ﷺ منزلة بيعته تعالى بدعوى أنها هي فما يواجهونه ﷺ به من بذل الطاعة لا يواجهون به إلا الله سبحانه لأن طاعته طاعة الله ثم قرره زيادة تقرير وتأكيد بقوله: «يد الله فوق أيديهم» حيث جعل يده ﷺ يد الله كما جعل رميه ﷺ رمي نفسه في قوله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ (الأنفال / ١٧).

وفي نسبة ماله ﷺ من الشأن الى نفسه تعالى آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (النساء / ٨٠)، وقوله: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ (الأنعام / ٣٣)، وقوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ (آل عمران / ١٢٨).

وقوله: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ النكث نقض العهد والبيعة، والجملة تفريع على قوله: «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله» والمعنى: فإذا كان بيعتك بيعة الله فالناكث الناقض لها ناقض لبيعة الله ولا يتضرر بذلك إلا نفسه كما لا ينتفع بالإيفاء إلا نفسه لأن الله غني عن العالمين.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ وعد جميل على حفظ العهد والإيفاء به.

والآية لا تخلو من إيماء الى أن النبي ﷺ كان عند البيعة يضع يده على أيديهم فكانت يده على أيديهم لا بالعكس.

١١ ● سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا
فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ
يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً
بَلْ كانَ اللّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً.
١٢ ● بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً
وَزُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً.
١٣ ● وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً.
١٤ ● وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ
يَشاءُ وَكانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً.
١٥ ● سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنْطَلَقْتُمْ إِلىٰ مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا
نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذٰلِكُمْ
قالَ اللّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا
يَفْقَهُونَ إِلاّ قَلِيلاً.
١٦ ● قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ
شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللّهُ أَجْراً
حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً.
١٧ ● لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى
ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الى آخر الآية. قال في المجمع: المخلف هو المتروك في المكان خلف الخارجين من البلد، وهو مشتق من الخلف وضده المقدم. انتهى. والأعراب ـ على ما قالوا ـ الجماعة من عرب البادية ولا يطلق على عرب الحاضرة، وهو اسم جمع لا مفرد له من لفظه.

وقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ إخبار عما سيأتي من قولهم للنبي ﷺ، وفي اللفظ دلالة مّا على نزول الآيات في رجوعه ﷺ من الحديبية الى المدينة ولما يردها.

وقوله: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أي كان الشاغل المانع لنا عن صحابتك والخروج معك هو أموالنا وأهلونا حيث لم يكن هنا من يقوم بأمرنا فخفنا ضيعتها فلزمناها فاستغفر لنا الله تعالى يغفر لنا تخلفنا عنك، وفي سؤال الاستغفار دليل على أنهم كانوا يرون التخلف ذنباً فتعلقهم بأنه شغلتهم الأموال والأهلون ليس اعتذاراً للتبري عن الذنب بل ذكراً للسبب الموقع في الذنب.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب لهم في جميع ما أخبروا به وسألوه فلا أن الشاغل لهم هو شغل الأموال والأهلين، ولا أنهم يهتمون باستغفاره ﷺ، وإنما سألوه ليكون ذلك جنة يصرفون بها العتاب والتوبيخ عن أنفسهم.

وقوله: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ جواب حلي عما اعتذروا به من شغل الأموال والأهلين محصّله أن الله سبحانه له الخلق والأمر وهو المالك المدبر لكل شيء لا رب سواه فلا ضر ولا نفع إلا بإرادته ومشيّته فلا يملك

أحد منه تعالى شيئاً حتى يقهره على ترك الضر أو فعل الخير إن أراد الضر أو على ترك الخير إن أراد ما لا يريده هذا القاهر من الخير، وإذا كان كذلك فانصرافكم عن الخروج مع النبي ﷺ نصرةً للدين واشتغالكم بما اعتللتم به من حفظ الأموال والأهلين لا يغني من الله شيئاً لا يدفع الضر إن أراد الله بكم ضراً ولا يعين على جلب الخير ولا يعجله إن أراد بكم خيراً.

فقوله: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ الخ: جواب عن تعللهم بالشغل على تقدير تسليم صدقهم فيه، ملخصه أن تعلقكم في دفع الضر وجلب الخير بظاهر الأسباب ومنها تدبيركم والقعود بذلك عن مشروع ديني لا يغنيكم شيئاً في ضر أو نفع بل الأمر تابع لما أراده الله سبحانه فالآية في معنى قوله تعالى: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

والتمسك بالأسباب وعدم إلغائها وإن كان مشروعاً مأموراً به لكنه فيما لا يعارض ما هو أهل منها كالدفاع عن الحق وإن كان فيه بعض المكاره المحتملة اللهم إلا إذا تعقّب خطراً قطعياً لا أثر معه للدفاع والسعي.

وقوله: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ تعريض لهم فيه إشارة الى كذبهم في قولهم: «شغلتنا أموالنا وأهلونا».

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الخ: بيان لما يشير اليه قوله: «بل كان الله بما تعملون خبيراً» من كذبهم في اعتذارهم، والمعنى: ما تخلفتم عن الخروج بسبب اشتغالكم بالأموال والأهلين بل ظننتم أن الرسول والمؤمنين لن يرجعوا الى أهليهم أبداً وأن الخارجين سيقتلون بأيدي قريش بما لهم من الجموع والبأس الشديد والشوكة والقدرة ولذلك تخلفتم.

وقوله: ﴿وَزُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي زين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم فأخذتم بما يقتضيه ذلك الظن المزين وهو أن تتخلفوا ولا تخرجوا حذراً من أن تهلكوا وتبيدوا.

وقوله: ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾ البور ـ على ما قيل ـ مصدر بمعنى الفساد أو الهلاك أُريد به معنى الفاعل أي كنتم قوماً فاسدين أو هالكين.

قيل: المراد بظن السوء ظنهم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبداً ولا يبعد أن يكون المراد به ظنهم أن الله لا ينصر رسوله ولا يظهر دينه كما مرَّ في قوله في الآية السادسة من السورة: «الظانين بالله ظن السوء» بل هو أظهر.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً﴾ الجمع في هذه الآيات بين الايمان بالله ورسوله للدلالة على أن الكفر بالرسول بعدم طاعته كفر بالله، وفي الآية لحن تهديد.

وقوله: ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً﴾ كان مقتضى الظاهر أن يقال: أعتدنا لهم فوضع الظاهر موضع الضمير للاشارة الى علة الحكم بتعليقه على المشتق، والمعنى: أعتدنا وهيَّأنا لهم لكفرهم سعيراً أي ناراً مسعّرة مشتعلة، وتنكير سعيراً للتهويل.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ معنى الآية ظاهر وفيها تأييد لما تقدم، وفي تذييل الملك المطلق بالإسمين: الغفور الرحيم إشارة الى سبق الرحمة الغضب وحثّ على الاستغفار والاسترحام.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ الى آخر الآية إخبار عن أن المؤمنين سيغزون غزوة فيرزقون الفتح ويصيبون مغانم ويسألهم المخلفون أن يتركوهم يتبعونهم طمعاً في الغنيمة، وتلك غزوة خيبر اجتاز النبي ﷺ والمؤمنون اليه ففتحوه وأخذوا الغنائم وخصها الله تعالى بمن كان مع النبي ﷺ في سفرة الحديبية لم يشرك معهم غيرهم.

والمعنى: أنكم ستنطلقون الى غزوة فيها مغانم تأخذونها فيقول هؤلاء المخلفون: اتركونا

نتبعكم.

وقوله: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ قيل: المراد به وعده تعالى أهل الحديبية أن يخصهم بغنائم خيبر بعد فتحه كما سيجيء من قوله: وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه الآية، ويشير اليه في هذه الآية بقوله: «إذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها».

وقوله: ﴿ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أمر منه تعالى للنبي ﷺ أن يمنعهم عن اتباعهم استناداً الى قوله تعالى من قبل أن يسألوهم الاتباع.

وقوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أي سيقول المخلفون بعدما منعوا عما سألوه من الاتباع «بل تحسدوننا» وقوله: «بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً» جواب عن قولهم: «بل تحسدوننا» لم يوجه الخطاب اليهم أنفسهم لأن المدعى أنهم لا يفقهون الحديث ولذلك وجه الخطاب بالجواب الى النبي ﷺ وقال «بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً».

وذلك أن قولهم: ﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ إضراب عن قول النبي ﷺ لهم بأمر الله «لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل» فمعنى قولهم: إن منعنا من الاتباع ليس عن أمر من قبل الله بل إنما تمنعنا أنت ومن معك من المؤمنين أهل الحديبية أن نشارككم في الغنائم وتريدون أن تختص بكم.

وهذا كلام لا يواجه به مؤمن له عقل وتمييز رسول الله ﷺ المعصوم الذي لا يرد ولا يصدر في شأن إلا بأمر من الله اللهم إلا أن يكون من بساطة العقل وبلادة الفهم فهذا القول الذي واجهوا به النبي ﷺ وهم مدعون للايمان والإسلام أدلّ دليل على ضعف تعقلهم وقلة فقههم.

ومن هنا يظهر أن المراد بعدم فقههم إلا قليلاً بساطة عقلهم وضعف فقههم للقول لا أنهم يفقهون بعض القول ولا يفقهون بعضه وهو الكثير ولا أن بعضهم يفقه القول وجلهم لا يفقهونه كما فسره به بعضهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ الخ؛ اختلفوا في هذا القوم من هم؟ فقيل: المراد به هوازن، وقيل: ثقيف، وقيل: هوازن وثقيف، وقيل: هم الروم غزاة مؤتة وتبوك، وقيل: هم أهل الردّة قاتلهم أبوبكر بعد الرحلة، وقيل: هم الفارس، وقيل: أعراب الفارس وأكرادهم.

وظاهر قوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ أنهم بعض الأقوام الذين قاتلهم النبي ﷺ بعد فتح خيبر من هوازن وثقيف والروم في مؤتة، وقوله تعالى سابقاً: «قل لن تتبعونا» ناظر الى نفي اتباعهم في غزوة خيبر على ما يفيده السياق.

وقوله: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ استئناف يدل على التنويع أي إما تقاتلون أو يسلمون أي أنهم مشركون لا تقبل منهم جزية كما تقبل من أهل الكتاب بل إما أن يقاتلوا أو يسلموا.

ولا يصح أخذ «تقاتلونهم» صفة لقوم لأنهم يدعون الى قتال القوم لا الى قتال قوم يقاتلونهم، وكذا لا يصح أخذ حالاً من نائب فاعل «ستدعون» لأنهم يدعون الى قتال القوم لا أنهم يدعون اليهم حال قتالهم. كذا قيل.

ثم تمم سبحانه الكلام بالوعد والوعيد على الطاعة والمعصية فقال «فإن تطيعوا» أي بالخروج اليهم «يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا» أي بالمعصية وعدم الخروج «كما توليتم من قبل» ولم تخرجوا في سفرة الحديبية «يعذبكم عذاباً أليماً» أي في الدنيا كما هو ظاهر المقام أو في الدنيا والآخرة معاً.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ رفع للحكم بوجوب الجهاد عن ذوي العاهة الذين يشق عليهم الجهاد برفع لازمه وهو الحرج.

ثم تمم الآية أيضاً بإعادة نظير ذيل الآية السابقة فقال «ومن يطع الله ورسوله يدخله

جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولَّ يعذبه عذاباً أليماً».

١٨ ● لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ
فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً
قَرِيباً.
١٩ ● وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً.
٢٠ ● وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ
أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً
مُسْتَقِيماً.
٢١ ● وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً.
٢٢ ● وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً
وَلَا نَصِيراً.
٢٣ ● سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً.
٢٤ ● وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ
بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً.
٢٥ ● هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ
مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ
لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ

لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً.

٢٦ • إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوىٰ وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً.

٢٧ • لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً.

٢٨ • هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ الرضا هيئة تطرأ على النفس من تلقّي ما يلائمها وتقبله من غير دفع، ويقابله السخط، وإذا نسب الى الله سبحانه كان المراد بالإثابة والجزاء الحسن دون الهيئة الطارئة والصفة العارضة الحادثة لاستحالة ذلك عليه تعالى: فرضاه سبحانه من صفات الفعل لا من صفات الذات.

والرضا ـ كما قيل ـ يستعمل متعدياً الى المفعول بنفسه ومتعدياً بعن ومتعدياً بالباء فإذا عدّي بنفسه جاز دخوله على الذات نحو: رضيت زيداً، وعلى المعنى نحو: رضيت أمارة زيد، قال تعالى: ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (المائدة / ٣)، وإذا عدّي بعن دخل على الذات

كقوله: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ (البينة /٨) وإذا عدي بالباء دخل على المعنى كقوله تعالى: «أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة».

ولما كان الرضا المنسوب اليه تعالى صفة فعل له بمعنى الإثابة والجزاء، والجزاء إنما يكون بإزاء العمل دون الذات ففيما نسب من رضاه تعالى الى الذات وعدّي بعن كما في الآية «لقد رضي الله عن المؤمنين» نوع عناية استدعى عد الرضا وهو متعلق بالعمل متعلقاً بالذات وهو أخذ بيعتهم التي هي متعلقة الرضا ظرفاً للرضى فلم يسع إلا أن يكون الرضا متعلقاً بهم أنفسهم.

فقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ إخبار عن إثابته تعالى لهم بإزاء بيعتهم له ﷺ تحت الشجرة.

وقد كانت البيعة يوم الحديبية تحت شجرة سمرة بها بايعه ﷺ من معه من المؤمنين وقد ظهر به أن الظرف في قوله: «إذ يبايعونك» متعلق بقوله: «لقد رضي» واللام للقسم.

قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ تفريع على قوله: «لقد رضي الله» الخ؛ والمراد بما في قلوبهم حسن النية وصدقها في مبايعتهم فإن العمل إنما يكون مرضياً عند الله لا بصورته وهيئته بل بصدق النية وإخلاصها.

والمراد القريب فتح خيبر على ما يفيده السياق وكذا المراد بمغانم كثيرة يأخذونها، غنائم خيبر.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ أي غالباً فيما أراد متقناً لفعلة غير مجازف فيه.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ الخ؛ المراد بهذه المغانم الكثيرة المغانم التي سيأخذها المؤمنون بعد الرجوع من الحديبية أعمّ من مغانم خيبر وغيرها فتكون الإشارة بقوله: «فعجل لكم هذه» الى المغانم المذكورة في الآية السابقة

وهي مغانم خيبر نزلت منزلة الحاضرة لاقتراب وقوعها.

هذا على تقدير نزول الآية مع الآيات السابقة، وأما على ما قيل: إن الآية نزلت بعد فتح خيبر فأمر الإشارة في قوله: «فعجل لكم هذه» ظاهر لكن المعروف نزول السورة بتمامها في مرجع النبي ﷺ من الحديبية بينها وبين المدينة.

وقوله: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ قيل: المراد بالناس قبيلتا أسد وغطفان هموا بعد مسير النبي ﷺ الى خيبر أن يغيروا على أموال المسلمين وعيالهم بالمدينة فقذف الله في قلوبهم الرعب وكف أيديهم.

وقوله: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على مقدر أي وعدهم الله بهذه الإثابة إثابة الفتح والغنائم الكثيرة المعجلة والمؤجلة لمصالح كذا وكذا ولتكون آية للمؤمنين أي علامة وأمارة تدلهم على أنهم على الحق وأن ربهم صادق في وعده ونبيهم ﷺ صادق في إنبائه.

وقد اشتملت السورة على عدة من أنباء الغيب فيها هدى للمتقين كقوله: «سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا» الخ؛ وقوله: «سيقول المخلفون إذا انطلقتم» الخ؛ وقوله: ﴿قل للمخلفين من الأعراب ستدعون﴾ الخ؛ وما في هذه الآيات من وعد الفتح والمغانم. وقوله بعد: «وأُخرى لم تقدروا عليها» الخ؛ وقوله بعد: «لقد صدق الله ورسوله الرؤيا» الخ.

وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ عطف على «تكون» أي وليهديكم صراطاً مستقيماً وهو الطريق الموصل الى إعلاء كلمة الحق وبسط الدين، وقيل: هو الثقة بالله والتوكل عليه في كل ما تأتون وتذرون، وما ذكرناه أوفق للسياق.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ أي وغنائم أُخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها إحاطة قدرة وكان الله على كل شيء قديراً.

فقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ مبتدأ و«لم تقدروا عليها» صفته وقوله: «قد أحاط الله بها» خبره الثاني وخبره الأول محذوف، وتقدير الكلام: وثمّة غنائم اخرى قد أحاط الله بها.

والمراد بالاخرى في الآية ـ على ما قيل ـ غنائم هوازن، وقيل: المراد غنائم فارس والروم، وقيل: المراد فتح مكة والموصوف محذوف، والتقدير: وقرية اخرى لم تقدروا عليها أي على فتحها، وأول الوجوه أقربها.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ خبر آخر ينبئهم الله سبحانه ضعف الكفار عن قتال المؤمنين بأنفسهم وأن ليس لهم ولي يتولى أمرهم ولا نصير ينصرهم، ويتخلص في أنهم لا يقوون في أنفسهم على قتالكم ولا نصير لهم من الأعراب ينصرهم، وهذا في نفسه بشرى للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ «سنة الله» مفعول مطلق لفعل مقدَّر أي سن سنة الله أي هذه سنة قديمة له سبحانه أن يظهر أنبياءه والمؤمنين بهم إذا صدقوا في إيمانهم وأخلصوا نيّاتهم على أعدائهم من الذين كفروا ولن تجد لسنة الله تبديلاً كما قال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلي﴾ (المجادلة / ٢١). ولم يصب المسلمون في شيء من غزواتهم إلا بما خالفوا الله ورسوله بعض المخالفة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الخ: الظاهر أن المراد بكف أيدي كل من الطائفتين عن الأخرى ما وقع من الصلح بين الفئتين بالحديبية وهي بطن مكة لقربها منها واتصالها بها حتى قيل إن بعض أراضيها من الحرم وذلك أن كلاً من الفئتين كانت أعدى عدو للاخرى وقد اهتمت قريش بجمع الجموع من أنفسهم ومن الأحابيش، وبايع المؤمنون النبي ﷺ على أن يقاتلوا، وعزم النبي ﷺ على أن يناجز القوم، وقد أظفر الله النبي والذين آمنوا على الكفار حيث دخلوا أرضهم وركزوا أقدامهم في عقر دارهم فلم يكن ليتوهم بينهم إلا القتال لكن الله

سبحانه كفّ أيدي الكفار عن المؤمنين وأيدي المؤمنين عن الكفار بعد إظفار المؤمنين عليهم وكان الله بما يعملون بصيراً.

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ العكوف على أمر هو الإقامة عليه، والمعكوف ـ كما في المجمع ـ الممنوع من الذهاب الى جهة بالإقامة في مكانه، ومنه الاعتكاف وهو الإقامة في المسجد للعبادة.

والمعنى: المشركون مشركوا مكة هم الذين كفروا ومنعوكم عن المسجد الحرام ومنعوا الهدي ـ الذي سقتموه ـ حال كونه محبوساً من أن يبلغ محله أي الموضع الذي ينحر أو يذبح فيه وهو مكة التي ينحر أو يذبح فيها هدي العمرة كما أن هدي الحج ينحر أو يذبح في منى، وقد كان النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين محرمين للعمرة ساقوا هدياً لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الوطء الدوس، والمعرَّة المكروه، وقوله: «أن تطؤهم» بدل اشتمال من مدخول لولا، وجواب لولا محذوف، والتقدير: ما كفَّ أيديكم عنهم.

والمعنى: ولولا أن تدوسوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات بمكة وأنتم جاهلون بهم لا تعلمون فتصيبكم من قتلهم وإهلاكهم مكروه لما كفَّ الله أيديكم عنهم.

وقوله: ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ اللام متعلق بمحذوف، والتقدير: ولكن كفَّ أيديكم عنهم ليدخل في رحمته اولئك المؤمنين والمؤمنات غير المتميزين بسلامتهم من القتل وإياكم بحفظكم من إصابة المعرَّة.

وقيل: المعنى: ليدخل في رحمته من أسلم من الكفار بعد الصلح.

وقوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ التزيل التفرق

وضمير «تزيلوا لجميع من تقدم ذكره من المؤمنين والكفار من أهل مكة أي لو تفرقوا بأن يمتاز المؤمنون من الكفار لعذبنا الذين كفروا من أهل مكة عذاباً أليماً لكن لم نعذبهم لحرمة من اختلط بهم من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ الى آخر الآية قال الراغب: وعبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية فيقال: حميت على فلان أي غضبت عليه قال تعالى: «حمية الجاهلية» وعن ذلك استعير قولهم: حميت المكان حمى انتهى.

والظرف في قوله: «إذ جعل» متعلق بقوله سابقاً: «وصدّوكم» وقيل: متعلق بقوله: «لعذبنا» وقيل «متعلق باذكر المقدر. والجعل بمعنى الإلقاء و«الذين كفروا» فاعله والحمية مفعوله و«حمية الجاهلية» بيان للحمية والجاهلية وصف موضوع في موضع الموصوف والتقدير الملة الجاهلية.

ولو كان «جعل» بمعنى صيّر كان مفعوله الثاني مقدراً والتقدير إذ جعل الذين كفروا الحمية راسخة في قلوبهم ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله: «جعل الذين كفروا» للدلالة على سبب الحكم.

ومعنى الآية: هم الذين كفروا وصدّوكم إذ ألقوا في قلوبهم الحمية حمية الملة الجاهلية.

وقوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ تفريع على قوله: «جعل الذين كفروا» ويفيد نوعاً من المقابلة كأنه قيل: جعلوا في قلوبهم الحمية فقابله الله سبحانه بإنزال السكينة على رسوله وعلى المؤمنين فاطمأنت قلوبهم ولم يستخفنهم الطيش وأظهروا السكينة والوقار من غير أن يستفزهم الجهالة.

وقوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ أي جعلها معهم لا تنفكّ عنهم، وهي على ما اختاره جمهور المفسرين كلمة التوحيد وقيل: المراد الثبات على العهد والوفاء به وقيل: المراد

بها السكنية وقيل: قولهم: بلى في عالم الذرّ، وهو اسخف الأقوال.

ولا يبعد أن يراد بها روح الإيمان التي تأمر بالتقوى كما قال تعالى: ﴿ أُولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ (المجادلة / ٢٢)، وقد أطلق الله الكلمة على الروح في قوله: ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ (النساء / ١٧١).

وقوله: ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ أما كونهم أحق بها فلتمام استعدادهم لتلقّي هذه العطية الإلهية بما عملوا من الصالحات فهم أحق بها من غيرهم، وأما كونهم أهلها فلأنهم مختصون بها لا توجد في غيرهم وأهل الشيء خاصته.

وقيل: المراد وكانوا أحق بالسكينة وأهلها، وقيل: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً والأصل وكانوا أهلها وأحق بها وهو كما ترى.

وقوله: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ تذييل لقوله: «وكانوا أحق بها وأهلها» أو لجميع ما تقدم، والمعنى على الوجهين ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ ﴾ الخ؛ قيل: إن صدق وكذب مخففين يتعديان الى مفعولين يقال: صدقت زيداً الحديث وكذبته الحديث، والى المفعول الثاني بفي يقال: صدقته في الحديث وكذبته فيه، ومثقلين يتعديان الى مفعول واحد يقال: صدَّقته في حديثه وكذَّبته في حديثه.

واللام في «لقد صدق الله» للقسم، وقوله: «لتدخلن المسجد الحرام» جواب القسم.

وقوله: ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ حال من الرؤيا والباء فيه للملابسة، والتعليق بالمشية في قوله: «إن شاء الله» لتعليم العباد والمعنى: أُقسم لقد صدق الله رسوله في الرؤيا التي أراه لتدخلن أيها المؤمنون المسجد الحرام إن شاء الله حال كونكم آمنين من شر المشركين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون المشركين.

وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ «ذلك» إشارة الى ما تقدم من دخولهم المسجد الحرام آمنين، والمراد بقوله: «من دون ذلك» أقرب من ذلك والمعنى: فعلم تعالى من المصلحة في دخولكم المسجد الحرام آمنين ما جهلتموه ولم تعلموه، ولذلك جعل قبل دخولكم كذلك فتحاً قريباً ليتيسّر لكم الدخول كذلك.

ومن هنا يظهر أن المراد بالفتح القريب في هذه الآية فتح الحديبية فهو الذي سوّى للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمنين ويسّر لهم ذلك ولولا ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه إلا بالقتال وسفك الدماء ولا عمرة مع ذلك لكن صلح الحديبية وما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين في العام القابل.

وسياق الآية يعطي أن المراد بها إزالة الريب عن بعض من كان مع النبي ﷺ فإن المؤمنين كانوا يزعمون من رؤيا رآها النبي ﷺ من دخولهم المسجد آمنين محلّقين رؤسهم ومقصّرين، أنهم سيدخلونه كذلك في عامهم ذلك فلما خرجوا قاصدين مكة معتمرين فاعترضهم المشركون بالحديبية وصدُّوهم عن المسجد الحرام ارتاب بعضهم في الرؤيا فأزال الله ريبهم بما في الآية.

ومحصله: أن الرؤيا حقة أراها الله نبيه ﷺ وقد صدق تعالى في ذلك، وستدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون، لكنه تعالى أخرّه وقدّم عليه هذا الفتح وهو صلح الحديبية ليتيسر لكم دخوله لعلمه تعالى بأنه لا يمكن لكم دخوله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون إلا بهذا الطريق.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ الخ؛ تقدم تفسيره في سورة التوبة الآية ٣٣، وقوله: «وكفى بالله شهيداً» أي شاهداً على صدق نبوّته والوعد أن دينه سيظهر على الدين كله أو على أن رؤياه صادقة،

فالجملة تذييل ناظر الى نفس الآية أو الآية السابقة[١].

٢٩ • مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّٰهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّٰاءُ عَلَى ٱلْكُفّٰارِ رُحَماٰءُ بَيْنَهُمْ تَريٰهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّٰهِ وَرِضْواٰناً سِيماٰهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوىٰ عَلىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرّٰاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفّٰارَ وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّٰهِ﴾ الى آخر الآية؛ الظاهر أنه مبتدأ وخبر فهو كلام تام، وقيل «محمد» خبر مبتدأ محذوف وهو ضمير عائد الى الرسول في الآية السابقة والتقدير: هو محمد، «ورسول الله» عطف بيان أو صفة أو بدل، وقيل «محمد» مبتدأ و«رسول الله» عطف بيان أو صفة أو بدل و«الذين معه» معطوف على المبتدأ و«أشداء على الكفار» الخ: خبر المبتدأ.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّٰاءُ عَلَى ٱلْكُفّٰارِ رُحَماٰءُ بَيْنَهُمْ﴾ مبتدأ وخبر، فالكلام مسوق لتوصيف الذين معه والشدة والرحمة المذكورتان من نعوتهم.

وتعقيب قوله: «أشداء على الكفار» بقوله: «رحماء بينهم» لدفع ما يمكن أن يتوهم أن

---

١. الفتح ١٨ـ٢٨: بحث روائي في صلح الحديبية، نزول السكينة على المؤمنين؛ كلمة التقوى.

كونهم أشداء على الكفار يستوجب بعض الشدة فيما بينهم فدفع ذلك بقوله : « رحماء بينهم » وأفادت الجملتان أن صفتهم مع الكفار الشدة ومع المؤمنين فيما بينهم الرحمة .

وقوله : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ الركَّع والسجَّد جمعا راكع وساجد ، والمراد بكونهم ركعاً سجداً إقامتهم للصلاة . و« تراهم » يفيد الاستمرار ، والمحصل : أنهم مستمرون على الصلاة ، والجملة خبر بعد خبر للذين معه .

وقوله : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّٰهِ وَرِضْوَاناً ﴾ الابتغاء الطلب ، والفضل العطية وهو الثواب ، والرضوان أبلغ من الرضا .

والجملة إن كانت مسوقة لبيان غايتهم من الركوع والسجود كان الأنسب أن تكون حالاً من ضمير المفعول في « تراهم » وإن كانت مسوقة لبيان غايتهم من الحياة مطلقاً كما هو الظاهر كانت خبراً بعد خبر للذين معه .

وقوله : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ السيما العلامة و« سيماهم في وجوههم » مبتدأ وخبر و« من أثر السجود » حال من الضمير المستكنّ في الخبر أو بيان للسيما أي إن سجودهم لله تذللاً وتخشعاً أثّر في وجوههم أثراً وهو سيما الخشوع لله يعرفهم به من رآهم ، ويقرب من هذا المعنى ما عن الصادق عليه السلام أنه السهر في الصلاة[1] .

وقيل : المراد أثر التراب في جباههم لأنهم كانوا إنما يسجدون على التراب لا على الأثواب .

وقيل : المراد سيماهم يوم القيامة فيكون موضع سجودهم يومئذ مشرقاً مستنيراً .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ﴾ المثل هو الصفة أي الذي وصفناهم به من أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم ، الخ ؛ وصفهم الذي وصفناهم به في

---

١ . رواه الصدوق في الفقيه والمفيد في روضة الواعظين مرسلاً عن عبدالله بن سنان عنه عليه السلام .

الكتابين التوراة والإنجيل.

فقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنْجِيلِ﴾ معطوف على قوله: «مثلهم في التوراة» وقيل: إن قوله: «ومثلهم في الانجيل» الخ: استئناف منقطع عما قبله، وهو مبتدأ خبره قوله: «كزرع أخرج شطأه» الخ: فيكون وصفهم في التوراة هو أنهم أشداء على الكفار، الى قوله: «من أثر السجود»، ووصفهم في الإنجيل هو أنهم كزرع أخرج شطأه، الخ.

وقوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ شطؤ النبات أفراخه التي تتولد منه وتنبت حوله، والإيزار الإعانة، والاستغلاظ الأخذ في الغلظة، والسوق جمع ساق، والزرّاع جمع زارع.

والمعنى: هم كزرع أخرج أفراخه فأعانها فقويت وغلظت وقام على سوقه يعجب الزارعين بجودة رشده.

وفيه إشارة الى أخذ المؤمنين في الزيادة والعدّة والقوّة يوماً فيوماً ولذلك عقّبه بقوله: «ليغيظ بهم الكفار».

وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ ضمير «منهم» للذين معه، و«من» للتبعيض على ما هو الظاهر المتبادر من مثل هذا النظم ويفيد الكلام اشتراط المغفرة والأجر العظيم بالايمان حدوثاً وبقاء وعمل الصالحات فلو كان منهم من لم يؤمن أصلاً كالمنافقين الذين لم يعرفوا بالنفاق كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ (التوبة / ١٠١)، أو آمن أولاً ثم أشرك وكفر كما في قوله: ﴿إن الذين ارتدّوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى ـ الى أن قال ـ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم﴾ (سورة محمد / ٣٠).

أو آمن ولم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفك[1] وآية التبيّن في نبأ الفاسق وأمثال ذلك لم يشمله وعد المغفرة والأجر العظيم.

١. فمن أهل الإفك من هو صحابي بدري وقد قال تعالى: «إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم» (النور / ٢٣)، ومن نزل فيه «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا» (الحجرات / ٦)، وهو الوليد بن عقبة صحابي وقد سماه الله فاسقاً وقد قال تعالى: «فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين» (التوبة / ٩٦).